

تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول

وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

المجلد الثالث عشر

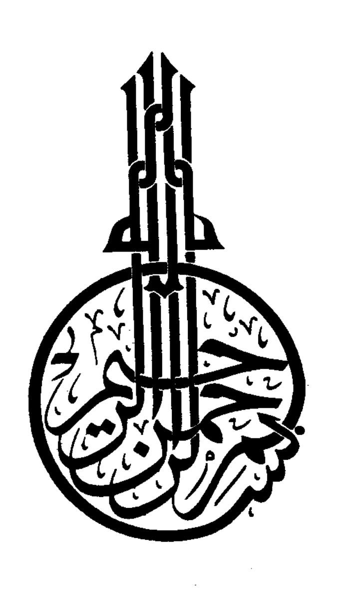
تفسير سور

الدخان/٦٤ الجاثية/٦٥ الأحقاف/٦٦ الذاريات/٦٧

الغاشية/٦٨ الكهف/٦٩ النحل/٧٠ ونوح/٧١

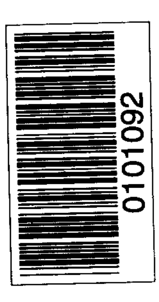
عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم
دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم


معارج التفكر
ودقائق التدبر

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق: ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت: ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب: ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة: ٢١٤٦١ - ص.ب: ٢٨٩٥
ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورَة الدُّخان

٤٤ مصحف ٦٤ نزول

وهي سورة مكّية كُلُّها

وهي السُّورَةُ الْخَامِسَة من الْحَوامِيم السَّبْع

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ
إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ
عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم
مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ
ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾
فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ
هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ
﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ
وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ
﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ

---

١ ـ • سَكَت أبو جعفر على «حا» وعلى «ميم» سكْتَةً لطيفة مِنْ غير تَنَفُّس.

٧ ـ • قرأ عاصِم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [رَبِّ] بالجرِّ إِتْبَاعاً لـ [رَبِّكَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [رَبُّ] بالرَّفع، إِتْبَاعاً لـ [السَّمِيعُ الْعَلِيمُ].

١٦ ـ • قرأ أبو جعفر: [نَبْطُشُ] بضَمّ الطاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [نَبْطِشُ] بكَسْرِ الطاء.
وهُمَا لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَان.

فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟
إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ
إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ
﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ
مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ
ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ
﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ
ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

١٩ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [إِنِّيَ آتِيكُمْ] بفتْحِ يَاءِ المتكلّم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسْكانِ يَاء المتكلم.

٢٠ و٢١ ـ • قرأ يَعقُوب بإثبات ياء المتكلّم في: [أَنْ تَرْجُمُونِي] وفي: [فَاعْتَزِلُونِي] في الوصلِ والوقف. وكذلِكَ وَرْشٌ في الوقف فقط. وقرأهما باقي القرّاء العشرة بحَذْفِ ياء المتكلم وَصْلاً ووقْفاً.

٢١ ـ • فتح ورْشٌ ياء المتكلّم في: [لِيَ فَاعْتَزِلُونِ] وأسْكَنَها باقي القرّاء العشرة.

٢٣ ـ • قرأ نَافع، وابنُ كثير، وأبو جعْفَر: [فَاسْرِ] من فعل «سَرَىٰ» وقرأها باقي القرّاء العشرة [فَأَسْرِ] من فِعْلِ «أَسْرَىٰ».

٢٥ ـ • قرأ ابنُ كثير، وابْنُ ذَكْوان، وشعبة، وحَمْزَة، والكِسَائي: [وَعِيُونٍ] بكَسْرِ العَين. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَعُيُونٍ] بضمِّ العين. والقراءتان لغتان عَرَبيتَانِ.

٢٧ ـ • قَرَأ أبو جَعْفَر: [فَكِهِين] أي: مُسْتَمْتِعِينَ بَطِرين. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَاكِهِينَ] أي: مسْتَمْتِعِين.

٢٩ ـ • قرأ أَبُو عَمْرو: [عَلَيْهِمِ السَّمَاءُ] بكسر هاء الضمير والميم بَعْدَها. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ] بِكَسْرِ هاء الضَّمِيرِ وضم الميم بَعْدَها.

مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ
ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾
وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ
﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ
تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا
بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ
مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ
﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾
خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ
مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

---

٤٥ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وحفص، وَرُوَيس: [يَغْلِي].
وقرأها بَاقي القراء العشرة: [تَغْلِي].

٤٧ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابن عامر، ويعقوب: [فَاعْتُلُوهُ] بضمّ التاء. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَاعْتِلُوهُ] بكَسْرِ التاء. وهما لُغَتَان.

٤٩ ـ • قرأ الكسائي: [ذُقْ أَنَّكَ] أي: لِأَنَّكَ.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [ذُقْ إِنَّكَ].

ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ
ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ
مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم
بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا
يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾
فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم
مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

٥١ ـ • قرأ نافع، وابنُ عامر، وأبو جعفر: [مُقَامٍ] من فعل: «أقام». وقرأها باقي القراء العشرةِ: [مَقَام] مِنْ فعل: «قَامَ».

٥٢ ـ • قرأ ابنُ كثير، وابْنُ ذَكْوان، وشعبة، وحمزة، والكِسَائي: [وَعِيُونٍ] بِكَسْرِ الْعَيْن.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَعُيُونٍ] بضمّ الْعَيْن. وهما لغتان.

(٢)
ممّا وَرَدَ بشَأن سُورة (الدُّخان)

(١) (الدُّخان) حَاجة الحواميم السَّبع، ويَنْطَبِقُ عَلَيْهَا مَا وَرَدَ بشَأْنِ الحوامِيم السّبع، السَّابقِ ذكْرُه في الرّقم (٢) مِنْ تَدَبُّر الحواميم الأربعِ السَّابقات.

(٢) وَرُوي عنْ أبي هريرة عن النبي ﷺ:

«مَنْ قَرأ حَم الدُّخَان في لَيْلَةِ جُمُعَةٍ أَصْبَحَ مَغْفُوراً له».

وفي رِواية:

«مَنْ قرأ الدُّخَانَ في لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ، أَصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ وَزُوِّجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ».

وفي رواية:

«مَنْ قرأ سُورَة حَمٓ الدُّخان في لَيْلَةِ الجمعة أَوْ يَوْم الْجُمُعَةِ بَنَىٰ اللهُ لَهُ بِهَا بَيْتاً في الجنَّة».

وهي رواياتٌ لَمْ تَصِلْ إلى دَرَجَةِ الحسَنِ.

(٣)
مَوضوع سورة (الدُّخان)

أُعِيد هُنَا بَيان مَا سَبَقَ أَنْ ظَهَرَ لي مِنْ أنَّ (الحوامِيمَ السَّبْعَ) ذَاتُ خَطٍّ رَئيسٍ وَاحِدٍ، هو خَطُّ الحديث عن القرآن ومَوْقف الكافِرينَ مِنْهُ إبَّانَ التَّنْزِيلِ.

وهو يَدُور حَوْل مُعَالَجَةِ مُشْرِكي مَكَّةَ إبَّانَ تَنْزيلها، تُجاهَ مَوَاقِفِهِمُ الكُفْرِيَّة أو بَعْضِها إِبَّانَ التَّنْزِيل، ولا سِيمَا مَوْقِفُهُمْ من القرآن والرسُول ﷺ.

وَتَكَادُ تَكُونُ «الحوامِيمُ السَّبْعُ» عائلةً واحدةً مُفَصَّلَةً إلى سَبْعِ سُور، ذواتِ ملامح وقَسَمَاتِ مُتَشَابِهَاتٍ، تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّها شَرِيفاتُ أَسْرَةٍ واحدة.

(٤)
دروس سورة الدُّخان

ظهر لي أنَّ هَـٰذِهِ السورة يُمْكن تَقْسِيمُها إلى ستَّةِ دُروسٍ، هي الدروس التالية:

الدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ٨).

وفي آيَات هـٰذَا الدَّرس بَيَانٌ عَنِ القرآنِ المجيد، مضافٌ إِلَىٰ مَا جاء

عَنْهُ في «الحواميم السَّبْع» وفي غَيْرِها مِن سُوَرٍ سَبَقَ تَدَبُّرُهَا، وَقَدْ نَزَلَتْ قَبْلَ نُزُولِها.

وفيها بيانُ أَنَّ إنْزَالَ الْقُرْآن هُو مِنْ آثَار رَحْمَةِ اللهِ بعِباده، وَهـٰذَا البيان مَقْرُونٌ بِبَيَانِ بَعْضِ صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَةِ وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، التي هِيَ مِنْ أُمَّهَاتِ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّةِ، في دين اللهِ لعباده الموضوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاء.

الدرس الثاني: الآيات من (٩ ـ ١٦).

وفي آيَات هـٰذَا الدَّرْس تَعَرُّضٌ لِمَوْقِفِ مُشْرِكي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، وإِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ الشَّكِّ في القرآنِ وَتَلَهّيهِمْ لَاعِبِينَ بأمُور دُنْيَاهُمْ، وَتَحْذِيرُهُمْ مِنْ عُقُوبَاتٍ جُزْئِيَّةٍ تُلْجِئُهُمْ إِلَىٰ الْوَعْدِ بِالْإِيمان إذَا كَشَفَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ، لَكِنَّهُمْ لَا يَفُونَ بِوَعْدِهِم بَلْ يَنْقُضُونَهُ وَيَتَمَادَونَ فِي غَيِّهِمْ، وأخيراً يُنْذِرُهُمُ اللهُ بأَنْ يَبْطِشَ بِهِمْ بَطْشَةً كُبرىٰ مُنْتَقِماً مِنْهُمْ.

الدَّرْس الثالث: الآيات من (١٧ ـ ٣٣).

وفي آيات هـٰذَا الدَّرْس عَرْضُ جَانِب مِنْ قِصَّةِ قَوْم فِرْعَوْنٍ، وَعَدَم اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السلام، وعَرْضُ النِّهَايَةِ التَّعِيسَةِ الَّتِي عَاقَبَ اللهُ بِهَا فِرْعَوْنَ وَكُلَّ جُنُوده، إغْرَاقاً بِخَارِقٍ عَظِيم مِنْ آيَاتِ اللهِ الْعِقَابِيَّةِ الانتقامِيَّة.

وفيها بَيَانٌ مُوجزٌ جدًّا عَنْ بَنِي إسْرائيلَ، بَعْدَ أَنْ أنْجَاهُمُ الله من العذاب الْمُهِينِ الّذِي كانوا يُعَانُونَهُ فِي مِصْرَ مُسْتَعْبَدِين.

الدَّرْس الرابع: الآيات من (٣٤ ـ ٤٢).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْس بيانٌ عَنْ مُشْرِكِي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيل، بالنِّسْبَةِ إلى مَوْقِفِهِمْ مِنْ إنْكَارِ الآخِرَةِ وَالْبَعْثِ، مع مَعَالَجَتِهِمْ بالإقناعِ، وبالإنْذَارِ بِيَوْمِ الدِّين.

الدَّرس الخامس: الآيَاتِ من (٤٣ ـ ٥٧).

وفيها بيانٌ عَنْ شَجَرَةِ الزَّقُّوم في الجحيم، الَّتِي يَكُونُ مِنْها طَعَامُ الأثيم. وعَرْضُ مَشْهَدَيْنِ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامة:

المشْهَدُ الأوّل: يَتَضَمَّنُ بَيَانَ صِنْفٍ من أَصْنَافِ عَذَابِ الكافِرِ المجْرِمِ في الجحيم.

المشْهَدُ الثّانِي: يَتَضَمَّنُ بَيَانَ بَعْضِ نَعِيمِ المتَّقِينَ فِي جنَّاتِ النعيم، في مُقَابِلِ بَيَانِ بَعْضِ عَذَاب الْكَافِرِين.

الدّرس السادس: الآيَتَان (٥٨) و(٥٩).

وفيهما خطابٌ من الله لرسولِهِ ﷺ بشَأْنِ القرآنِ وتَيْسيرِه بِلِسَانه العربيّ، وَإِلْمَاحٌ بِبِشَارَته بِأَنَّهُ مَنْصُورٌ بنَصْرِ اللهِ لَهُ، وبِأَنَّ المشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ مَخْذُولُونَ، وبأَنَّ الله سَيَنْتَقِمُ مِنْهُم.

❁ ❁ ❁

(٥)
التَّدبّر التحليلي للدّرس الأول من دُروس سورة (الدخان) الآيات من (١ ـ ٨)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

القراءات:

(١) • سَكَتَ أَبُو جعفر على «حا» وعلى «ميم» سَكْتَةً لطيفَةً مِن غَيْر تَنَفُّس، دون سَائِر القرّاء.

(٧) • قرأ عَاصم، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [رَبِّ] بالْجَرِّ إتباعاً لـ [رَبِّكَ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [رَبُّ] بالرَّفع، إتباعاً لـ [السَّمِيعُ الْعَلِيمُ].

والقراءَتَان وَجْهَانِ نَحْوِيَّان مُؤَدَّاهُمَا وَاحد.

تَمْهيد:

في آيات هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنِ القرآن المجيد، مُضَاف إلى ما جاء عَنْهُ في «الْحَوَامِيم السَّبْع» وفي غَيْرِهَا مِنْ سُوَرٍ سَبَقَ تَدَبُّرُها.

وفيها بَيَانُ أَنَّ إِنْزَالَ الْقُرآنِ هُوَ مِنْ آثار رحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ، وهٰذَا البيان مَقْرُونٌ بِبيانِ بَعْضِ صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَةِ وَأَسْمَائِهِ الحسنى، الّتِي هي من أمّهَاتِ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّة، في دين اللهِ لعبادِهِ الموضوعين في الحياة الدّنيا مَوْضع الابْتِلَاء.

التدبّر التحليلي:

■ قول الله تعالى:

• ﴿حمٓ ۝١﴾ حرفان من الحروف المقطَّعةِ، الواردَةِ في أَوَائِلِ بعض سور القرآن المجيد، وَقَدْ ذَكَرْتُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِها لَدَى تَدَبُّر أوّل سُورَة (القَلَم/ ٤ نزول).

■ قول الله تعالى:

• ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾:

أعيد هُنَا مَا سَبَقَ أن كتَبْتُهُ في تَدَبُّر نظِيرِ هَـٰذِهِ العبارة.

يُقْسِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالْقُرْآنِ المجيد، فالواو هي واو القسم. وذَكَرَهُ اللهُ هُنَا بعنوان «الكِتَاب» لِتَأْكِيدِ تَكْلِيفِ المؤمِنِينَ المسلمين بأَنْ يُدَوِّنُوهُ ويَجْعَلُوهُ كِتاباً مَصُوناً، مَحْفُوظاً مِنَ التَّغْيير والتَّبْدِيلِ والزِّيَادَةِ والنَّقْصِ والتَّحْريفِ والضَّيَاعِ، وقَدْ تَمَّ هـٰذَا بِأَمْرٍ من الرسُولِ ﷺ لِكُتَّابِ الوحْي الَّذِينَ كَانَ يَخْتَارُهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِ لِكِتَابَةِ مَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنَ القرآن، ثُمَّ بِمَا قَامَ بِهِ خُلَفَاؤُهُ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ بَعْدِهِ، عَلَىٰ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي التَّاريخ.

﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ مِنْ فعل: «بَانَ» اللَّازم، بمَعْنَىٰ: ظَهَرَ واتَّضح. ومِنْ فعل: «أَبَان» المتعَدِّي، بِمَعْنَىٰ أَظْهَرَ وأَوْضح.

فالقرآن ظاهِرٌ واضِحٌ لَا غُمُوضَ فِي كَلِمَاتِهِ وَتَرَاكِيبِ جُمَلِهِ، ومُظْهِرٌ مُوضِحٌ لِلْمَعَانِي الَّتِي أُنْزِلَ لِبَيَانِهَا للنَّاس.

والْقَسَمُ بِالْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ آيَةٍ كُبْرَىٰ مِنْ آيَاتِ اللهِ الْمُعْجِزةِ، وإِعْجَازُهُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ من عِنْد اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم.

■ قول الله تعالى:

• ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦﴾:

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكَلِّم العظيم، للإشْعار بِعَظَمَةِ هـٰذَا الكِتَابِ، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ وَبَيَانٍ لِصِرَاطِ اللهِ المسْتقيم، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ من آيَةٍ إعْجَازِيَّة كُبْرَىٰ.

أي: إِنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ الْمُبِينَ وَهُوَ الْقُرآنُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ هِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ، أَخذاً مِمَّا سَبَقَ بَيَانُهُ في سورة (القدر/ ٢٥ نزول) بِقَوْلِهِ تَعالَى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ وَهِـيَ إِحْـدَىٰ لَـيَالِي الْـعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَان، بِدَلِيل مَا جاء في القرآنِ والسُّنَّة، فَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (البقرة/ ٨٧ نزول):

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ . . .﴾.

وجاء فِي السُّنَّةِ بيان أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ هي إِحْدَىٰ لَيَالِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِن شهر رَمَضَان، وخصَّ الرَّسُول الآحَادَ مِنْهَا.

يُقْسِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُرْآنِ الكِتَابِ الْمُبِينِ، على أَنَّهُ أَنْزَلَهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَة كَثِيرَةِ الْبَرَكَةِ، فَلَا تَطَابُقَ بَيْنَ الْمُقْسَم بِهِ وَالمُقْسَم عَلَيْهِ، إِنَّ الْقُرْآنَ مُدْرَكُ الآيَات، وَإِنْزَالُهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ هِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ أَمْرٌ خَفِيٌّ غَيْرُ مُدْرَك، فَأَقْسَمَ اللهُ بالظَّاهِرِ عَلَىٰ تَحقُّق أَمْرٍ خَفِيّ غَيْرِ ظاهر.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اللَّيْلَةَ الَّتِي أَنْزَلَ فِيها الْقُرْآنَ بأَنَّهَا لَيْلَةٌ مُبارَكَة، أي: ذَاتُ بَرَكة، **والْبَرَكَة**: هي الكَثْرَةُ مِنْ كلِّ خَيْرٍ.

وَمِنْ بَرَكَةِ هَـٰذِهِ اللَّيْلَةِ ذَاتِ الْخُصُوصِيَّةِ النَّفِيسَةِ عِنْدَ اللهِ أَنَّهَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْر، أي: هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ فِي فَضْلِهَا الزَّمَانِيّ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لَهَا، وبِمَا يُجْرِي اللهُ فِيها مِنْ خَيْرٍ عَظِيم، وَبِمَا يُفيضُ اللهُ فِيها عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنْ رَحمَاتٍ، وَبِمَا فِيها مِنْ فَضْلِ الدُّعَاء والعبادة، وبما يُضاعِفُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها لِعِبادِه مِنْ أُجُورٍ على الأَعْمَالِ الصالِحَةِ التي يُؤَدُّونها فيها، وَبِمَا يَقْضِي اللهُ فِيها من إجابَةِ الدُّعاء.

مَا الْمُرَادُ بإِنْزَال الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَة؟:

ذكر المفسِّرُونَ أَنَّ المرادَ بِإِنْزَالِ القرآن فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ هِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ، إِنْزَالُ أَوَّلِ قُرْآنٍ أُنْزِلَ عَلَىٰ رَسول اللهِ ﷺ، قَدْ كَانَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ

من شَهْرِ رَمَضَان، باعْتِبَارِ أَنَّ هـٰذَا الإنْزَالَ مِنْهُ يَسْتَتْبِعُ إِنْزَالَ سَائِرِهِ في الأَيَّامِ واللَّيَالي والشُّهورِ، بِحَسَبِ الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ مِنْ إِنْزَالِ نُجومه خِلَال (٢٣) سنة، فَكَانَ بَدْءُ إِنْزَالِهِ فَاتِحَةَ أَمْرٍ عَظِيم، وقَدْرٍ جَلِيلٍ للنَّاسِ.

ورُويَ عن ابْنِ عباسٍ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ كما ذَكَرَ ابْنُ كَثِير، أَنَّهُ سَأَلَهُ «عَطِيَّةُ بْنُ الأَسْوَد» فقال: وقَعَ في قَلْبِي الشَّكُّ، قَوْلُ الله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وَقـولُـهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وقَـوْلُـهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ وَقَدْ أُنـزِلَ في شَوَّالٍ، وفي ذي الْقَعْدَة، وفي ذِي الْحِجَّةِ، وَفي الْمُحَرَّم، وصَفَر، وشَهْرِ رَبيع.

فقالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّهُ أُنْزِلَ فِي رَمَضَانَ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وفي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ، جُمْلَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَىٰ مَوَاقِعِ النُّجومِ تَرْتِيلاً في الشُّهُورِ وَالأَيَّام.

ورُوِي عن ابنِ عبَّاسٍ أيضاً بإسْنَادٍ صَحَّحَهُ الحاكم، أَنَّهُ قَالَ: أُنْزِلَ الْقُرْآنُ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ، حتَّىٰ وُضِعَ في بَيْتِ الْعِزَّةِ في السَّمَاءِ الدُّنْيا، ثُمَّ جَعَلَ جِبْرِيلُ يَنْزِلُ عَلَىٰ مُحَمّدٍ بِجَوابِ كَلَامِ الْعِبَادِ وأعمالهم.

• ﴿... إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾: **الإِنْذَارُ**: الإخْبارُ بِمَكْرُوهٍ قَادِمٍ. أي: إنَّا مِنْ شَأْنِنَا أَنْ نُنْذِرَ عِبادَنا عَاقِبَةَ عَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِلْإِيمانِ والإِسْلَامِ بِكِتَابِنا المنَزَّلِ، وبما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَوَامِرَ وَنَواهِيَ وإرشَادٍ إلىٰ سُلُوكِ صِرَاطِنَا المستقيم.

جاء في هـٰذِهِ العبارة الاكْتِفَاءُ بآخِرِ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ دَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّة، وهِيَ مَرْحَلَةُ الإِنْذَارِ بالْعِقَاب، فِي مُقَابِلِ إِطْلَاقِ إِنْزَالِ الكِتَابِ عَلَىٰ أَوَّلِ مَا أُنْزِلَ مِنْهُ، إِذْ سَيَستتبعُ إِنْزَالَ سَائِرِهِ فِي نُجُومِ التَّنْزِيل مع مَسِيرَةِ الرَّسُول الدعوية.

أَمَّا مَرَاحِلُ دَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، فَتَبْدأ بإِنْزَالِ البيانِ الربَّاني، ويَتْبَعُهُ

التَّبْلِيغ، فالْبَيَانُ والشَّرْحُ، والتَّرْغِيبُ والتَّذْكِيرُ، والإقْنَاعُ بالْأَدِلَّةِ والحجج وَالْبَرَاهِينِ، والْجِدَال بالَّتِي هِي أَحْسَنُ، والمجاهَدَة بالْقُرآن، وآخِرُ مَرَاحِلِهَا الْإِنْذَارُ بِعِقَابِ اللهِ المؤجَّل إلى يَوْم الدِّين، مَعَ احْتِمَالِ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ إنِ اقْتَضَتِ حِكْمَةُ اللهِ إنْزَالَ هٰذَا الْعِقَاب، وَهٰذَان الْإِجْرَاءَانِ مِنَ الإيجازِ في الْقُرْآنِ المجيد، وَلَيْسَ المرادُ بِكَوْنِ الإنْذَارِ آخِرَ مَرَاحِلِ دَعْوَة الحَقّ الرَّبَّانِيَّةَ أَنَّهُ مُتَأَخِّرٌ زَمَنِيًّا، بَلْ تَرْتِيبُهُ الْفِكْرِيُّ يَأْتِي مُتَأَخِّراً، وَقَدْ تَقْتَضِي الْمَصْلَحَةُ التَّرْهِيبَ بالإنْذَارِ مَعَ التَّرْغِيبِ بالتَّبْشِيرِ، وعَقِبَ التَّبْلِيغِ الْعَامّ بِوُجُوب الاستجابَةِ لِدَعْوَةِ الحقّ.

• ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ . . .﴾.

﴿يُفْرَقُ﴾: أي: يُفْصَل ويُبَيَّن، يُقَالُ لُغَةً: «فَرَق فُلانٌ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، يَفْرُق، فَرْقاً، وفُرْقَاناً» أي: فَصَل ومَيَّزَ أَحَدَهُمَا مِنَ الآخر، ويُقَالُ: «فَرَق شيئاً عَنْ شيءٍ» أي: فَصَلَهُ. وَيُقَال: «فَرَقَ بَيْنَ الخصمَيْن» أَيْ: حَكَمَ وَفَصَلَ بَيْنَهُمَا. ويُقَال: «فَرَقَ بَيْنَ المتَشَابِهَيْنِ» أي: بَيَّنَ أَوْجُهَ الْخِلَاف بَيْنَهما. ويُقَال: «فَرَقَ فُلَانُ لِفُلَانٍ عَنِ الْأَمْرِ» أي: كَشَفَهُ لَهُ وَبَيَّنَهُ. ويُقَالُ: «فَرَقَ الشَّيْءَ، وفَرَّقَهُ» أي: قَسَمَهُ، وَقَسَّمَه.

فالمعنى: في هٰذِهِ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي أُنْزِلَ فِيهَا عَلَىٰ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَوَّلُ مَا أنزِلَ مِنْ قُرْآن، يَكُونُ في نَظِيرِها مِنْ كُلِّ سَنَةٍ فَرْقُ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيم، وهٰذَا الفرقُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فَصْلاً مِنَ اللَّوْحِ المحفوظ، أي: فَصْلَ اسْتِنْسَاخٍ مِنْهُ، لِتَبْلِيغ الملائِكَةِ المكَلَّفِينَ القِيامَ بالْأَعْمَالِ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْهِمُ القِيامُ بِهَا طَوَالَ الْعَامِ، حَتَّىٰ مِثْلِ هٰذِهِ اللَّيْلَةِ مِنَ السَّنَةِ القادِمَةِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَا يَقْضِي اللهُ بِهِ ويُمْضِيهِ، مِمَّا تَمَّ بِهِ تَقْدِيرُهُ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ وَأَحْدَاثِ كَوْنِهِ، مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، مِمَّا لِلْمَلَائِكَةِ فِيهِ وَظَائِفُ يجب عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا بها، أَوْ أَنْ يَكُونُوا عَلَىٰ عِلْمٍ بها، والملائكَةُ

يُدَوِّنُونَ ذَلِكَ فِي صُحُفِهِمْ، ويَنْتَظِرُونَ أَوَامِرَ التَّنْفِيذِ، ويَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ مِنْهَا وَيُثْبِتُ، وعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ الَّذِي لَا يَحْدُثُ فِيهِ تَغْيِيرٌ بِمَحْوٍ وَلَا إِثْبَاتٍ.

• ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾: أيْ: كُلُّ أَمْرٍ مُحْكَمٍ، مُخْتَارٍ مِنْ بَيْنِ الاحْتِمَالاتِ الْمُمْكِنَةِ اخْتِيَاراً حَكِيماً. وَتَكُونُ الْحِكْمَةُ بِاخْتِيَارِ أَفْضَلِ الْأَشْيَاءِ، وأَتْقَنِهَا وَأَحْسَنِهَا مِنْ كُلِّ الْبَدَائِلِ لِمَا تُخْتَارُ له.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ وَنُؤْمِنُ، أَنَّ كُلَّ اخْتِيَارَاتِ اللهِ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ، أُمُورٌ حَكِيمة، فَوصْفُ لَفْظِ «أَمْرٍ» وَهُوَ مِنْ قَضَاء اللهِ وَقَدَرِهِ بِأَنَّهُ حَكِيم وَصْفٌ كاشِفٌ، ولَيْسَ وَصْفاً تَقْيِيدِيًّا.

ووَصْفُ الْأَمْرِ بِأَنَّهُ حَكِيمٌ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ أَمْرٌ مِنْ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، فِي تَدْبِيرِهِ لِأُمُورِ عِبَادِهِ وَسَائِرِ كَوْنِهِ.

• ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾:

أَيْ: حَالَةَ كَوْنِ الْأَمْرِ الْحَكِيمِ الَّذِي تَمَّ تَحْدِيدُهُ بالتَّقْدِير وَالْقَضَاءِ أَمْراً صَادِراً مِنْ عِنْدِنَا.

ولَمَّا كَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْحَكِيمَةِ أُمُورٌ تَتَعَلَّقُ بِابْتِلاءِ الْعِبَادِ الموضُوعِينَ فِي الحياة الدُّنْيا مَوْضعَ الامْتِحَان، وَكَانُوا هُمُ الْمَقْصُودِينَ مِنْ إِنْزَالِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ القرآنِ، وسَائِرِ الكُتُبِ المنَزَّلَةِ قَبْلَهُ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ لِتَبْلِيغِ دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ، وَتَبْلِيغ آيَاتِ كِتَابِهِ أَنْ يُرْسِلَ اللهُ رُسُلاً يَحْمِلُونَ رِسَالَتَهُ للنَّاسِ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ: ﴿... إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾: أي: إِنَّا مِنْ شَأْنِنَا فِي كُلِّ الأُمَم السَّابقَةِ وَفِي هَـٰذِهِ الْأُمَّةِ الْخَاتِمَةِ لِلْأُمَم أَنْ نُرْسِلَ مَنْ يَحْمِلُ رِسَالَتَنَا وَيُبَلِّغُهَا عَنَّا، وأَنْ نُؤَيِّدَهُ بالآيَاتِ الْبَينَاتِ والمعجزاتِ الباهرات، لِنَشْهَدَ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُنَا حَقًّا وَصِدْقاً.

• ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: أي: كُنَّا مُرْسِلِينَ رُسُلاً إِرْسَالاً رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ

لِهِدَايَةِ النَّاسِ إِلَىٰ الدِّين الْحَقِّ الْمُوصِلِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلىٰ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّة الْخَالِدَة، والْخِطَابُ لِكُلِّ صَالحٍ للخطاب بأسْلُوب الخطاب الإفرادي.

وبما أَنَّ الموضُوعينَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، سوف يُحَاسَبُونَ على أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ فيها يَوْمَ الدِّين، وَيَقْضِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ، بالثّوابِ أو بِالْعِقَابِ، كَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ ذِكْرُ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ مُتَّصِلَيْنِ بأَقْوَالِ الْعِبَادِ وأَعْمَالِهِمْ في الحياةِ الدُّنيا، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

• ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾:

السّمِيع: اسْمٌ من أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ سَمْعُهُ، فَهُوَ سَمِيعُ لِكُلِّ قَوْلٍ يُمْكِنْ أَنْ يُسْمَعَ، حَتَّىٰ حَدِيثِ الإنْسَانِ لِنَفْسِهِ في داخِلِ نَفْسِهِ.

الْعَلِيم: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلماً، ومِن عِلْمِهِ عِلْمُهُ بأعْمَالِ عِبَادِهِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ الْجَسَدِيَّةِ، والنَّفْسِيَّة.

■ قول الله تعالى:

• ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾:

وفي القراءة الأخرىٰ: [رَبُّ] بِالرَّفع، وسَبَقَ توجِيهُهُما؛ يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهَـٰذَا الْبَيَانِ الَّذِين لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورة، فَيُعْلِمُهُمْ بأَنَّ تَنزِيلَ الكِتَابِ الْمُبِينِ، وَالإِنْذَارَ بالْعَذَابِ الأَلِيم لِلْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ، وَإِرْسَالَ الرَّسُولِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِين من الرَّبِّ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ.

هٰذَا الرَّبُّ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وما بَيْنَهُمَا وَكُلِّ مَا فِيهما، فَهُوَ خَالِقُ كُلِّ ذَلِكَ وَمَالِكُهُ، والمتَصَرِّفُ بِكُلِّ أَصْغَرِ جُزْءٍ في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، دَوَاماً، فَلا رَبَّ غَيْرُهُ فِي الْوُجُودِ فاعْبُدُوه وَحْدَهُ، ولَا تُشْرِكُوا بِعبَادَتِهِ غَيْرَهُ مَهمَا كَانَ شَأْنُ هٰذَا الشَّرِيك، إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ تُوقِنُوا بِهٰذِهِ الحَقِيقَةِ، وهي أنَّ مُنْزِل الكِتَاب، والمنْذِرَ، ومُرْسِلَ الرَّسُول هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا.

مُوقِن اسْم فاعل من فعل «أَيْقَنَ الشَّيْءَ وأَيْقَنَ بِهِ» أي: عَلِمَهُ عِلْماً لَا شَكَّ فِيهِ، واسم الفاعل بقُوَّة الفِعْل المضارع.

• ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: أي: إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ تُوقِنُوا بِهٰذِهِ الحقيقَة الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا آياتُ اللهِ فِي كَوْنِهِ، وَبَرَاهِينُ الْعَقْل، فاعْبُدُوهُ وَحْدَه.

• ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي: لَا إِلَٰهَ يَسْتَحِقُّ عَقْلاً أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فَالْإِلَٰهِيَّةُ حَقُّ الرَّبِّ وَحْدَهُ، وعِبَادَةُ غَيْرِهِ أَنْدَاداً أَوْ أَضْداداً أَوْ شُرَكَاءَ، عُدْوانٌ عَلَىٰ حَقِّهِ، وَعُقُوبَتُهُ الْخُلُودُ فِي عَذَابِ جهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين، لِأَنَّهُ جُحُودٌ لِحَقِّ الرَّبِّ كُلِّهِ أَوْ بَعْضِهِ.

• ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: لَمَّا كَانَ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ عَلَىٰ اخْتِيَارِ الْإِنْسَانِ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رِحْلَةِ الابْتِلَاء، مُؤَجَّلاً إِلَىٰ يَوْم الدِّينِ بَعْدَ فَاصِلِ المَوْتِ، الَّذِي يَعْقُبُهُ الْبَعْثُ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ التَّذْكِيرُ هُنَا بِأَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يُحْيِي ويُمِيتُ. فَهُوَ الَّذِي أَحْيَا النَّاسَ وَسَائِرَ الْأَحْيَاءِ، وَهُوَ الَّذِي يُمِيتُهُمْ، وهو الَّذِي يُحْيِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيُلَاقُوا حِسَابَهُمْ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ، ثُمَّ يَكُونُ جزاؤهُمْ بالعَدْلِ في دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ، أَوْ بالفَضْلِ فِي دَارِ النَّعِيمِ الْجَنَّةِ.

• ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾: أي: رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا، هُوَ رَبُّكُم وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ، الَّذِينَ سَلَفُوا فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ مِن آدَمَ جَدِّكُمُ الْأَوَّل، وأَنْتُمْ وآبَاؤُكُمْ والمؤهَّلُونَ مِنْ غَيْرِكُمْ مَوْضُوعُونَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتحان، والمطلوبُ مِنْكُمْ جَمِيعاً فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا رَبَّكُمْ، بالإيمانِ بِالْحَقِّ - الَّذِي أَمَرَكُمْ بِأَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ، وبإِعْلَانِ الإسْلَامِ لَهُ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَبالتَّعْبِيرِ عَنْ هَـٰذَا الإسْلام بالطَّاعَةِ والانْقِيَادِ.

كَلِمَةُ «الرَّبّ» وعُنْوان «الرُّبُوبِيَّة» يَدُلَّانِ عَلَىٰ كُلِّ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ السَّامِيَاتِ ذَواتِ الْعَلَاقَةِ بالمخْلُوقَات من خَلْق ورِزْقٍ وَتَصارِيف، وإحياء وإماتَةٍ، ونَفْعٍ وضَرٍّ، وامْتحانٍ وتكليفٍ وجزاء، إلى معظم أسماءالله الْحُسْنَىٰ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الأول من دُرُوسِ سورة (الدُّخان).

والحَمْدُ للهِ على معونته، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ وفتحه.

❁ ❁ ❁

(٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الدُّخان) الآيات من (٩ ـ ١٦)

قال الله عزّ وجل:

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾
يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾
أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا
كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا
مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

القراءات:

(١٦) • قَرَأ أبو جعْفَرُ: [نَبْطُشُ] بِضَمّ الطّاءِ.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرّاء العشرة: [نَبْطِشُ] بِكَسْرِ الطّاء. وهما لُغَتَان عَرَبِيّتان.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ تَعَرُّضٌ لِمَوْقِفِ مُشْرِكي مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيل، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ الشَّكِّ في القرآن، وتَلَهِّيهِمْ لاعِبِينَ بأمُورِ دُنْيَاهُمْ، وَفِيهَا تَحْذِيرُهُمْ مِن عُقُوبَاتٍ جُزْئِيَّةٍ تَذْكِيرِيَّةٍ، تُلْجِئُهُمْ إلى الْوَعْدِ بالإيمانِ إذا كَشَفَ اللهُ عَنهُمُ الْعَذَابَ، لَكِنَّهُمْ لَا يَفُونَ بِوَعْدِهِمْ بَلْ يَنْقُضونَهُ وَيَتَمادُونَ فِي غَيِّهِمْ، وأخيراً يُنْذِرُهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأَنْ يَبْطِشَ بِهِمْ بَطْشَةً كُبْرَىٰ مُنْتَقِماً مِنْهُمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قول الله تعالى:

• ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾: أي: لَمْ تُؤَثِّرْ في المعنيّين بالمعالَجَةِ في السُّورَةِ، وَهُمْ مُشْرِكُو مَكَّة وَلَا سِيما أئِمَّتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ والمتْرَفُونَ فِيهِمْ، وَسَائِلُ الْعِلَاجِ السَّابِقَةُ، الْإِقْنَاعِيَّةُ، والترغِيبيَّةُ، والترهيبِيَّةُ، والجداليَّة، بَلْ هُمْ مُنْغَمِسُونَ مِنْ كُلّ جَوانِبِهم فِي شَكٍّ مِنْ كَوْنِ القرآنِ كَلَامَ اللهِ، ومِنْ كَوْنِ محمّد بن عبد اللهِ ﷺ نَبِيًّا للهِ وَرَسُولاً حَقّاً وَصِدْقاً، وَهُمْ يَلْعَبُونَ بِدَلَائِلِ آيَاتِ اللهِ الإعْجَازِيَّةِ، وَآيَاتِهِ الْبَيَانِيَّةِ المنزَّلَةِ، وينْطَلِقُونَ فِي حَيَواتِهِمْ لَاعِبِينَ، لِتَحْقِيقِ مَتَاعَاتِهِمْ مِنْ دُنْيَاهم.

اللَّعِبُ: ضِدُّ الْجِدّ، يُقَالُ لغة: «لَعِب، يَلْعَبُ، لَعِباً، ولَعْباً» أي: شَغَلَ نَفْسَهُ بِمَا لَا فَائِدَةَ لَهُ فِيهِ. ويقالُ لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلاً لَا يُجْدِي عَلَيْهِ

نَفْعاً: إنَّما أنْتَ لَاعِبٌ، وكذلِكَ مَنْ يَشْتَغِلُ بنافع قليلٍ عَنْ نَافِعٍ جَلِيل.

فَكَيْفَ إذَا كَانَ مَا يُنْفِقُ وَقْتَهُ وطَاقَاتِهِ فِيهِ، سَوفَ يَجْنِي عَلَيْهِ عَذَاباً أَلِيماً يَكُونُ خَالِداً فِيهِ أبداً!!!.

• ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾.

• ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾: أي: فَانْتَظِرْ انْتِظَاراً مُقْتَرِناً بِمَلَاحَظَةٍ وَتَوَقُّعِ أَمْرٍ سَيَحْدُثُ قَرِيباً. الْخِطَابُ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ رَاغِبٍ فِي أَنْ يُنْزِلَ اللهُ بِمُشْرِكي مَكَّةَ مَا يَكْرَهُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

• ﴿... يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾:

أُطْلِقَ لفظ «يَوْم» وأُرِيدَ بِهِ الزَّمَنُ الَّذِي يَحْدُثُ فِيهِ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ رَبُّكَ بِكُفَّارِ قَوْمِكَ فِي مَكَّةَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ عِنَادِهِمْ الْبَأْسَاءَ عِقَاباً جُزْئِيّاً، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتُوبُوا وَيَرْجِعُوا عَنْ غَيِّهِم الْعِنَادِي.

إِنَّهُمْ حِينَ يَنْزِلُ بِهِمْ هَـٰذَا الْعِقَابُ الْجُزْئِيُّ التَّرْبَوِيُّ الَّذِي يَمَسُّهُمْ فِيهِ الْقَحْطُ وَالْجُوعُ، والحِرْمَانُ مِنَ الْغَيْثِ، يَنْظُرُونَ إِلَىٰ السَّمَاءِ أَنْ تُنْزِلَ لَهُمْ غَيْثاً، فَلَا يَرَوْنَ فِيهَا إِلَّا غُبَاراً وَقَتَماً ودُخَاناً، مِنْ شِدَّةِ الْجَفَافِ، وَتَتَابَعُ عَلَيْهِمُ الشُّهُورُ والسُّنُونَ وَهُمْ يُعَانُونَ مِنْ هـٰذَا الْحِرْمَانِ، وَيَشْتَدُّ عَلَيْهِمْ هـٰذَا الْبَلَاءُ وَأَرْضُهُمْ شَدِيدَة الْحَرَارَة، فَيُحِسُّونَ أَنَّ أَجْوَاءَ بَلَدِهِمْ قَدِ انْتَشَرَ فِيهَا الدُّخَانُ بَدَلَ أَنْ تَكُونَ رَطْبَةً بِبُخَارِ الماء، إِحْسَاسٌ بأَعْيُنِهِمْ مَصْحُوبٌ بِذَرَّاتِ الجفاف الّتي انْتَشَرَتْ في أَجْوَائِهِم.

وَمَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ قَحْطٍ وَجَفَافٍ وَجُوعٍ، هُوَ في الحقيقَةِ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَيَجْعَلُهُمْ يَقُولُونَ: هـٰذَا عَذَابٌ أَلِيم.

• ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ ...﴾: أي: يَغْشَىٰ كُفَّارَ مَكَّة، فَيَعُمُّهُمْ وَيُجَلِّلُهُمْ كالسِّتْرِ والغِطَاءِ الكَبِيرِ الَّذِي يَعُمُّ مَنْ أُلْقِيَ عَلَيْهِ.

رَوَىٰ البخاريُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: إنَّ قُرَيشاً لمَّا غَلَبُوا عَلَىٰ النبيِّ ﷺ واسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ قالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُف».

فأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ أَكَلُوا فِيها الْعِظَامَ والْمَيْتَةَ مِنَ الْجَهْدَ، حَتَّىٰ جَعَلَ أَحَدُهُمْ يَرَىٰ مَا بَيْنَهُ وَبيْنَ السَّمَاءِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الجُوعِ.

فأُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ فَقِيلَ لَهُ: اسْتَسْقِ لِمُضَرٍ (قُرَيشٌ مُنْحدرُونَ مِنْ مُضَر) أَنْ يَكْشِفَ اللهُ عَنْهُمُ العذاب، فَدَعَا فَكُشِفَ عَنْهُمْ، وَقَالَ اللهُ لَهُ: «إِنْ كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ عَادُوا» فَعَادُوا فَانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ.

• ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾: أي: فَسَيَقُولُونَ مِنْ شِدَّةِ مُعَانَاتِهِمْ مِنَ الجوعِ هٰذَا الْقَوْلَ، وفيهِ دُعَاءٌ وَوَعْدٌ بأَنْ يُؤْمِنُوا إِذَا كَشَفَ اللهُ عَنْهُمْ مَا سَيُنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ الجوعِ.

مُؤْمِنُونَ: اسم فاعل جَمْع «مُؤْمِن» وقَدْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّ اسْمَ الْفَاعِلِ بِقُوَّةِ الْفِعْلِ المضارعِ، قَدْ يَدُلُّ عَلَىٰ الْحَالِ وَقَدْ يَدُلُّ على الاستقبال، علىٰ وَجْهِ الْحَقِيقَةِ، أَخْذاً مِنَ النُّصُوصِ الكَثِيرَةِ الَّتِي تَابَعْتُهَا في آيَاتِ القرآنِ المجيد.

لَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَبَانَ أَنَّهُمْ سَيَنْقُضُونَ وعْدَهم، ويَعُودُونَ إِلَىٰ شِرْكِهِمْ إِذَا كَشَفَ اللهُ عَنْهُمْ عَذَابَ الْجُوعِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

• ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾:

﴿أَنَّىٰ﴾: اسْمُ اسْتِفْهَامٍ، وهِيَ هُنَا بِمَعْنَىٰ: مِنْ أَيْنَ؟.

• ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: هُنَا اسْمٌ للتَّذَكُّر، والمرادُ أَثَرُ التَّذَكُّرِ المطلوبِ بالْإِيمانِ والإِسْلام.

• ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡا﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ سِنِينَ مُتَعَدِّدَةٍ، عالَجَهُمُ الرَّسُولُ فِيها بِكُلِّ وَسَائِلِ الإِقْنَاعِ، والْجِدَالِ بالَّتِي هِي أَحْسَنُ، والتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ، والْمُلَايَنَةِ والْمُدَارَاة، لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَّا التَّوَلِّي، وهُو إِدَارَةُ ظُهُورِهِمْ لِدَعْوَتِهِ، والابْتِعَادُ عَنْهَا، بَعْدَ أَنْ أَعْرَضُوا وَنَأَوْا، فَمَا هُمْ فِيهِ الْآنَ هُوَ أَقْصَىٰ حَالَاتِ رَفْضِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ.

• ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾: أي: قَالُوا غُلُوّاً في كُفْرِهِمْ: إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ بَشَرٌ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الكِتَابِ، وهُوَ مَجْنُونٌ جُنُونَ عَظَمَةٍ وَرَغْبَةٍ في الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ، إِذْ يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ.

فالْمَعْنَىٰ: مِنْ أَيْنَ تَحْصُلُ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ الَّتِي تُؤَثِّرُ في قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ، فَتَجْعَلُهُمْ يَفُونَ بِوَعْدِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا، إِذَا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ، وَهُمْ قَدْ أَصَرُّوا عَلَىٰ الابْتِعَادِ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي بَعَثْنَا بِهِ رَسُولَنَا، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ حَقٌّ عَنْ طَرِيقِ رَسُولٍ ظاهِرٍ فِي صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِهِ، ومُظْهِرٍ لِلْحَقِّ الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ لِتَبْلِيغِهِ بالْبَيَانِ الْكَافِي، وبالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِين ومُخْتَلِفِ وَسَائِلِ الإِقْنَاعِ، عَبْرَ عِدَّةِ سِنِينَ نَزَلَتْ فِيها (٦٣) سُورَةً بَلَّغَهُمْ إِيَّاها، وَقَامَ بِوَظَائِفِ رِسَالَتِهِ تُجاهَهَا، وَبَعْدَ هٰذِهِ السِّنِين الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا كَلِمَةُ [ثُمَّ] وَصَلُوا إِلَىٰ حَالَةِ الْإِدْبَارِ والابْتِعَادِ مُعَانِدِينَ، وَقَالُوا مُفْتَرِينَ عَلَىٰ رَسُولنَا الَّذِي عَلِمُوا أَنَّهُ رَسُولٌ صَادِقٌ أَمِين، وأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ: ﴿مُعَلَّمٞ﴾ يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ بَشَرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِكُتُبِ أَهْلِ الكِتَابِ ﴿مَّجۡنُونٌ﴾ جُنُونَ عَظَمَةٍ واسْتِعْلَاءٍ، يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

■ قول الله تعالى:

• ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: قال اللهُ لَهُمْ كَلِمَةَ قَضَاءٍ أَعْلَمَهُمْ بِهَا بِهٰذَا الْبَيَانِ الْقُرْآنِي، إِنَّا سَنَكْشِفُ عَنْكُمُ الْعَذَابَ الَّذِي سَنُنْزِلُهُ بِكُمْ اسْتِجَابَةً لِدُعَائِكُمْ وَوَعْدِكُمْ بِأَنْ تُؤْمِنُوا، وَهٰذَا الكَشْفُ سَيَكُونُ زَمَنُهُ قَلِيلاً، لِأَنَّكُمْ سَتَعُودُونَ إِلَىٰ شِرْكِكُمْ وَكُفْرِكُمْ فَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَتَجْحَدُونَهُ، وَلَكِنْ نُنْذِرُكُمْ بِأَنَّنَا سَنَنْتَقِمُ مِنْكُمْ، بَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيّ لَيْسَ طَوِيلَ الْأَمَدِ، وَتَجِدُونَ هٰذَا الانْتِقَامَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الكُبْرَىٰ.

وَقَدْ تَحَقَّقَ هٰذَا الانْتِقَامُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ.

الْبَطْش: التَّنَاوُلُ بِشِدَّةٍ عِنْدَ الصَّوْلَةِ، وَالْأَخْذُ الْقَوِيُّ الشَّدِيد، وَالسَّطْوُ فِي سُرْعَةٍ.

وَوُصِفَتِ الْبَطْشَةُ الرَّبَّانِيَّةُ بأَنَّها كُبْرَىٰ، مُرَاعَاةً لِحَالَةِ الْمَبْطُوشِ بِهِمْ، فَهِيَ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ كُبْرَىٰ، أَمَّا بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهِيَ مِن الصُّغْرَيَات جِدّاً.

قَلِيلاً: صِفَة لِمَفْعُول مُطْلَق مَحْذُوف، أي: كَشْفاً قَلِيلاً زَمَنُهُ.

إِنَّكُمْ عَائِدُون: أي: إِنَّكُمْ سَتَعُودُونَ إِلَىٰ كُفْرِكُمْ العنادِي الْجُحُودِيّ، بَعْدَ أَنْ نَكْشِفَ عَنْكُمُ الْعَذَابَ الَّذِي سَنُنْزِلُهُ بِكُمْ.

إِنَّا مُنْتَقِمُونَ: أي: إِنَّا سَنَنْتَقِمُ بَعْدَ أَنْ تَعُودُوا إلى كُفْرِكم.

الانْتِقَام: المُعَاقَبَةُ عَلَىٰ الذَّنْب.

والمعنى: إِنَّا سَنَنْتَقِمُ مِنْكُمْ وَنُعَاقِبُكُمْ عَلَى كُفْرِكم وَنَقْضِكُمْ وَعْدَكُمْ الَّذي سَتَقُولُونَ فِيهِ: إِنَّا مُؤْمِنُونَ إِذَا كَشَفْتَ عَنَّا الْعَذَابَ يَا رَبَّنَا، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ.

قُدِّمَ الظَّرْفُ: «يَوْمَ» عَلَىٰ عَامِلِهِ «مُنْتَقِمُونَ» لِلْبَدْءِ بِبَيانِ مَا سَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ بَطْشَةٍ كُبْرَىٰ مُخِيفَةٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، وَهٰذَا مِنْ دَواعي تَقْدِيمِ المَعْمُولِ عَلَىٰ عامِلِه، وَيُتَسَامَحُ في الظَّرْف مَا لَا يُتَسَامَحُ فِي غَيْرِهِ، كَتَقْدِيمِهِ عَلَىٰ إنَّ واسْمِها وخَبَرِها.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (الدُّخان).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبّر التحليليّ للدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الدُّخان) الآيات من (١٧ ـ ٣٣)

قال اللهُ تَعالى:

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ
إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾
فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ
ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ
كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا
بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ
ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ
عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

القراءات:

(١٩) • قرأ نافعٌ، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [**إِنِّيَ آتِيكُمْ**] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكان ياء المتكلم.

(٢٠ و٢١) • قرأ يَعْقُوب بإثْبَاتِ يَاءِ المتَكَلِّم فِي: [أَنْ تَرْجُموني] وفي: [فَاعْتَزِلُونِي] في الوصْلِ والوقف، وكذلِكَ وَرْش فِي الوقف فقط.

وَقَرأَهُمَا باقي القرّاء العشرة بِحَذْفِ يَاء المتكلّم وصْلاً ووقْفاً.

(٢١) • فتح ورْش يَاءَ المتكلّم في: [لِيَ فَاعْتَزِلُون]. وأسْكَنَهَا بَاقي الْقُرَّاءِ العشَرَة.

(٢٣) • قرأ نافع، وابْنُ كَثِيرٍ، وأَبُو جَعْفر: [فاسْرِ] من فِعْل «سَرَىٰ».

وقرأها بَاقِي الْقُرّاء العشرة [فَأَسْرِ] مِنْ فِعْلِ «أَسْرَىٰ».

(٢٥) • قرأ ابن كثير، وابْن ذَكْوان، وشعبة، وحمزة، والكِسَائي: [وَعِيُونٍ] بِكَسْرِ الْعَيْن.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاء العشرة: [وَعُيُونٍ] بضَمّ العين. والقراءتَانِ لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَان.

(٢٧) • قَرَأَ أَبُو جعْفَر: [فَكِهِينَ] أي: مُسْتَمْتِعِينَ بَطِرِينَ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَاكِهِينَ]: أي: مُسْتَمْتِعِينَ.

وبين القراءتين تَكَامُل، إذْ كانَ بَعْضُهُمْ بَطِراً مُسْتَكْبراً، وكان بَعْضُهُمْ مُسْتَمْتِعاً غَيْرَ بَطِر.

(٢٩) • قرأ أبو عَمْرو: [عَلَيْهِمِ السَّمَاءُ] بِكَسْرِ هَاء الضَّمِيرِ وَالمِيمِ بَعْدَها.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ] بِكَسْرِ هاء الضَّمِيرِ وضَمِّ الْمِيم بَعْدَهَا.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ جَانِبٍ مِنْ قِصَّةِ قَوْم فِرْعَوْنَ، وعَدَم اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام وعَرْضُ النِّهَايَةِ التَّعِيسَةِ الَّتِي عَاقَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بها فِرْعَوْنَ وَكُلَّ جُنُودِهِ، إغْرَاقاً بِخَارِقٍ عَظِيمٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ الْعِقَابِيَّةِ الانْتِقَامِيَّةِ.

وفِيهَا بَيَانٌ مُوجَزٌ جِدّاً عَن بَنِي إسْرائيل، بَعْدَ أَنْ أَنْجَاهُمُ اللهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ الَّذِي كانوا يُعَانُونَهُ فِي مِصْرَ مُسْتَعْبَدِين.

التدبّر التحليلي:

■ قول الله تعالى:

• ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾.

الفتنة: الامْتِحَانُ والابْتلَاء، وهُوَ حَالُ كُلِّ الَّذِينَ وَضَعَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الحياة الدنْيا مَوْضع الابْتِلَاء، بَدْءاً من آدَم وأبي الْجِنِّ، حَتَّىٰ آخَرِ مُمْتَحَنٍ مِنَ الْإِنْسِ والْجِنِّ في ظُروفِ الحياة الدُّنْيا.

أي: وَلَقَدْ وَضَعْنَا قَبْلَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةِ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ مَوْضِعَ الامْتِحَان، كَمَا وَضَعْنَا سَائِرَ الْأَقْوَام.

وَقَوْمُ فِرْعَوْنَ هُمُ الْمِصْرِيُّونَ والْأَقْبَاط وَسَائِرُ الْخَاضِعِينَ لِسُلْطَانِ فِرْعَوْنَ فِي مِصْرَ، مَعَ آلِهِ وَمَلَئِهِ وَسَائِرِ جُنُودِهِ مِنْ مِصْرِّيين وغَيْرِ مِصْرِيِّين.

وَجاءَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ رَسُولٌ كَرِيمٌ هُوَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، ووزِيرُهُ هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلَام تَابعاً لَهُ فِي رِسَالَتِهِ، وَخَاضِعاً لَهُ فِي قِيَادَتِه، فَذِكْرُ مُوسَىٰ يُغْنِي عَنْ ذكرِ وزيرِهِ هارون.

وَوَصَفَ اللهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام بأَنَّهُ كَرِيمٌ، لِلثَّناءِ عَلَيْهِ بأَنَّهُ جَامِعٌ لِأَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَالشَّرَفِ وَالْفَضَائِلِ، ولِلصِّفَاتِ الرَّفِيعَةِ النفيسَةِ.

الكريم: هو الّذي يَتَرَفَّعُ عَنِ النَّقَائِصِ والدّنَايا، والمحْمُودُ بالصِّفَاتِ الرَّفيعات النفيسات، والجامع لِأَنْوَاعِ الْخَيْرِ والشَّرَفِ والفضائل.

فَدَعَاهُمْ إلى دِينِ اللهِ الْحَقّ، وإِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُون بِعِبَادَتِهِ أَحداً، وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ نَبْذِ شِرْكِيَّاتِهِمْ، وما هُمْ فِيهِ مِنْ ظُلْمٍ وَعُدْوانٍ، وَفُجُورٍ وطُغْيَان، بَعْدَ أَنْ لَم يَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِهِ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ وآلُهُ، باسْتِثْنَاءِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْن، وَزَوْجَتِهِ آسِيَة، وَرُبَّما عَدَدٌ قَلِيلٌ كَانَ يَكْتُمُ إيمَانَهُ خَوْفاً مِن جَبَرُوتِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَجُنُودِهِم، وَخَوْفاً مِنْ طُغْيَانِهِمْ، وَمِنِ تَعْرِيضِ أَنْفُسِهِمْ لتَعْذِيبهم.

وَقَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام: أَدُّوا إِلَيَّ وَاجِبَ الطَّاعَةِ والانْقِيَادِ يا عِبَاد اللهِ، فَأَنَا رَسُولُ رَبِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَيْكُمْ، لِأُبَلِّغَكُم بِأَمَانَةٍ الدِّينَ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ، وَيَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بأَحْكَامِهِ، فَقَدِ اصْطَفَى رَبُّكُمْ لَكُمُ الدِّينَ، وَأَمَرَكُمْ باتِّبَاعِهِ، وَيُحَذِّرُكُم مِنْ عَذَابِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَالِدِينَ فِي دَار العذاب النَّارِ، إِذَا لَمْ تَسْتجيبوا لِدَعْوتِهِ، فَلَمْ تُؤْمِنُوا وَلَمْ تُسْلِمُوا، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّكُمْ إليكُمْ.

وَقَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام فِي انْطِلَاقَتِهِ بِمصرَ دَاعِياً إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقِّ: لَا تَعْلُو بِنُفُوسِكُمْ عَلَىٰ اللهِ بَارِئِكُمْ، والْمُهَيْمِنِ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ دَوَاماً، مُسْتَكْبِرِينَ عَنِ الإيمانِ بِهِ رَبّاً لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَمُسْتَكْبِرِينَ عَنِ الإِسْلَامِ وَالانْقِيَادِ لَهُ إِلَهاً لَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَإِذَا طَلَبْتُمْ مِنِّي سُلْطَاناً مُبِيناً، أَيْ: برهَاناً عَلَىٰ صِدْقِ رِسَالَتِي، وَبُرْهَاناً عَلَىٰ أَنَّ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، فَإِنِّي آتِيكُمْ بالسُّلْطَانِ الْمُبِينِ الَّذِي يُوصِلُكُمْ إِلَىٰ الْيَقِينِ الْعِلْمِيِّ بِأَنِّي رَسُولُ رَبِّكُمْ، وَبِأَنَّ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ هُو الْحَقُّ الّذي لا شَكَّ فِيهِ.

هـٰذِهِ الدَّعْوَةُ الَّتِي انْطَلَقَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، يَدْعُو إِلَيْهَا جَمَاهِيرَ المِصْرِيينَ والْقِبْطِ، وَسَائِرِ الْخَاضِعِينَ لِسُلْطَانِ فِرْعَوْنَ، هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ فِرْعُونَ يَقُولُ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (غَافِرِ/ ٦٠ نُزُول) بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتابعُ مُخْتَارَاتٍ مِمَّا قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام لِمَنْ دَعَاهُمْ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ فِي مِصْر:

• ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾:

دَلَّ هـٰذَا الْبَيَانُ عَلَىٰ أَنَّ فِرْعَوْنَ حَرَّضَ سِرّاً جَمَاهِيرَ قَوْمِهِ عَلَىٰ قَتْلِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام رَجْماً بالْحِجَارَةِ، خَوْفاً مِنْ أَنْ يُبَاشِرَ قَتْلَهُ عَنْ طَرِيقِ أَمْرِ جُنُودِهِ بِقَتْلِهِ بِوَسِيلَةِ الْقَتْلِ المعروفَةِ الَّتِي يَأْمُرُ بِهَا الْمَلك، لِأَنَّهُ كَانَ يَخَافُ مِنْ آيَةِ الْعَصَا الَّتِي تَنْقَلِبُ ثُعْبَاناً، أَنْ يَسْتَخْدِمها مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَتَبْتَلِعَ جُنْدَهُ ثُمَّ تَبْتَلِعَهُ وَمَلَأَهُ.

وَكَانَتْ وَسِيلَةُ الْقَتْلِ رَجْماً بالحجارَةِ، هِيَ الْوَسِيلَةَ الَّتِي يُشَارِكَ فِيهَا جَمْعٌ كَبِيرٌ مِنَ النَّاسِ، يَتوزَّعُ بَيْنَهُمْ جُرْمُ قَتْلِهِ.

وَأَدْرَكَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ قَدْ سَرَتْ فِيهِمْ دِعَايَةُ قَتْلِهِ رَجْماً بالحجارَةِ، والاجْتِمَاعِ عَلَىٰ هـٰذَا إِرْضاءً لِسَيِّدِهِمْ فِرْعَوْنَ، وإِرْضَاءً لِمَلَئِهِ، فَقَالَ لِجُمْهُورِ الْمِصْرِيِّينَ مَا جَاءَ فِي هـٰذَا البيان.

• ﴿وَإِنِّي عُذْتُ﴾: أي: وإِنِّي لُذْتُ واعْتَصَمْتُ مُلْتَجِئاً طَالِباً الْحِمَايَةَ والْوِقَايَة.

• ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾: أي: باللهِ الَّذِي هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ الْمُهَيْمِنُ عَلَيْنَا جَمِيعاً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَهُوَ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ.

• ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾: أي: مِنْ أَنْ تَجْتَمِعُوا عَلَيَّ وَتَرْجُمُونِي.

• ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾: أي: وإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِي وَتُسْلِمُوا لي مُنْقَادِين.

• ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾: أي: فاعْتَزِلُوا مَجْلِسِي، وَلَا تَسْتَمِعُوا لِدَعْوَتِي، فأَنَا لَا أُجْبرُ أَحَداً، وَلَا أُكْرِهُ أَحداً علىٰ الإيمانِ بما أَدْعُوا إِلَيْهِ، والانقيادِ لِي مُسْلِماً لِرَبّ الْعَالَمِين، وإِنَّمَا أُبَلِّغُ عَنْ رَبِّي مَا أَمَرَنِي بأَنْ أُبَلِّغَكُمْ إِيَّاه، وأَنْتُمْ لَكُمْ كامِلُ الْحُرِّيَّةِ فِي الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِي، وعَدَمِ الاسْتِجَابَةِ لَهَا، إِنَّهُ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ.

وَرَأَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ مُطِيعُونَ لِفِرْعَونَ خاضِعُونَ لِسُلْطَانِهِ، لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَا يُرِيهِمْ، دُونَ مَا يُقْنِعُهُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّهِم، فَدَعَا رَبَّهُ ذاكراً في دُعَائِهِ أَنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَا دَعَا بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾: أي: لَا خَيْرَ يُرْجَىٰ فِيهِمْ، فَقَدْ بَلَغُوا دَرَكَةَ الكُفْرِ الْإِجرامِيّ الْعِنَادِيّ، ولَعَلَّ خَيْرَ العِلَاجِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ أَنْ يُبْتَرُوا مِنَ الْمُجْتَمع الإنْسَانِي.

فَاسْتَجَابَ اللهُ لِدُعَائِهِ، فَأَمَرَهُ بأَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَائِيل مِنْ مِصْرَ لَيْلاً، وَأَعْلَمَهُ بِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَيُتَّبَعُونَ بِجَيْشٍ فِرْعَوْنِي، وأَشْعَرَهُ بأَنَّهُ سَيُنْجِيهِمْ مِنْهُمْ، وَسَيُغْرِقُ الْجَيْشَ الْفِرْعَوْنِيّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِبَيَانٍ مُسْتَقْطَعٍ مِنَ الْحَدَثِ الْمَاضِي:

• ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

• ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾: فَأَخْرِجْ مِنْ مِصْرَ عِبَادِي بَنِي إسْرَائِيل لَيْلاً، دُونَ أَنْ يُحِسَّ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّكُمْ تَخْرُجُونَ مَهاجِرِين.

يُقَالُ لُغَةً: «أَسْرَىٰ بِفَلَانٍ» أي: جَعَلَهُ يَسِيرُ في اللَّيلِ.

لَيْلاً: أي: فِي اللَّيل، وجيءَ بهـٰذَا الْقَيْدِ لِتَوْكِيدِ إخْفَاءِ حَرَكَةِ الْخُرُوجِ، وَذَلِكَ بأَنْ تَكُونَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَالْمِصْرِيُّونَ يَغُطُّونَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ.

• ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾: أي: إِنَّ جَيْشَ فِرْعَونَ سَيَتَّبِعُونَكُمْ لِقَهْرِكُمْ. وَسَأَكُونُ مَعَكُمْ هَادِياً وَمُنْجِياً.

وهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الشُّعَرَاء/ ٤٧ نزول) وهُوَ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هَـٰذِهِ الآيَاتِ فِي مَوْقِعِهَا مِنْ سُورَة (الشُّعَرَاء/ ٤٧ نزول).

وَبَعْدَ خُرُوجِ بَنِي إسْرَائِيلَ مِنْ مَكَانِ الْفَلْقِ فِي الْبَحْرِ، يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (الدُّخان/ ٦٤ نزول) خِطَاباً لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: واتْرُكِ الْبَحْر مُنْفَلِقاً سَاكِناً إغْرَاءً لِفِرْعَونَ وَجَيْشِهِ أَنْ يَدْخُلُوا مِنْ مَكَانِ الْفَلْقِ يُلاحِقُونَكُمْ،

مِنْ أَجْلِ أَنْ نُغْرِقَهُمْ جَمِيعاً قَبْلَ أَنْ يَصِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَىٰ الشَّاطِئِ الآخَر.

الرَّهْوَ: مَصْدَرُ «رَهَا» أيْ: سَكَنَ. ويُوصَفُ بِهِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ: «رَاهٍ» أي: سَاكِن. جاء في لسان العرب: «رَهَا الشَّيْءُ، رَهْواً سَكَنَ ـ وَكُلُّ سَاكِنٍ لَا يَتَحَرَّكُ رَاهٍ، وَرَهْوٌ ـ والإِرْهَاءُ: الإسكان. والرَّهْوُ ما اطْمَأَنَّ مِنَ الأَرْضِ وَارْتَفَعَ مَا حَوْلَه ـ وَرَهَا مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ رَهْواً، فَتَحَ. الأصمعي: ونَظَرَ أعرابيٌّ إلى بَعِيرٍ فالجٍ، فقال: سُبْحَانَ الله، رَهْوٌ بَيْنَ سَنَامَيْنِ، أي: فَجْوَةٌ بَيْنَ سَنَامَيْنِ، وهٰذَا من الانْهِبَاط».

أقول: مِنْ هَـٰذِهِ المعاني الَّتِي ذَكَرَهَا عُلَمَاءُ اللُّغَة لِكَلِمَةِ «رَهْو» أرَىٰ أَنَّهَا اخْتِيرَتِ اخْتِياراً دَالًّا عَلَىٰ المعْنَىٰ المراد مَعَ غَايَةِ الإيجاز، فالْمَاءُ المُرْتَفِعُ السَّاكِنُ عَلَىٰ صُورَة جَبَلَيْنِ مِنَ الْجَلِيدِ، والانْفِرَاجُ في الْبَحْرِ حَتَّىٰ الْقَاعِ الْيَابِسِ الَّذِي سَلَكَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام وبَنُو إسرائيل، كُلُّ ذَٰلِكَ دَلَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ «رَهْو» إذْ مِنْ مَعَانِيهَا السُّكُون، ومِنْ مَعَانِيهَا الانْفِرَاج، وَمِنْ مَعَانِيهَا الانْخِفَاضُ بَيْنَ مُرْتَفِعَيْن.

• ﴿... إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: وَحِينَ يَكُونُ فِرْعَوْنُ وجُنْدُه بَيْنَ الْمَاءَيْنِ الْمُرْتَفِعَيْنِ كَأَنَّهما جَبَلَانِ عَظِيمَان، وقَبْلَ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَىٰ الشَّاطِئِ الآخَرِ، سَنَضُمُّ عَلَيْهِم الْمَاءَيْنِ الْمُرْتَفِعَيْن، وسَنُغْرِقُهُمْ أَجْمَعِين بِخَارِقَةٍ لَمْ يَشْهَدِ الْبَشَرُ مِثْلَهَا.

الجُنْدُ: العسكر، والأنصار والأعوان، ويجمع على: أَجْنادٍ، وجُنُود.

وتحقّقَتِ الْخَارِقَةُ الْعَجِيبَةُ، ودَخلَ فِرْعَوْنُ وَكُلُّ جَيْشِهِ الَّذِي سَاقَهُ وَقَادَهُ لِقِتَالِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَمَنْ مَعَهُمَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، مِن مَكَانِ الْفَرْق، حتَّىٰ إِذَا كَانُوا جَمِيعاً بَيْنَ الْمَاءَيْنِ اللَّذِينَ كالطَّوْدَيْنِ أَذِنَ اللهُ لِمُوسَىٰ بِأَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ، لِيَعُودَ إلى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبلَ الْفَرْق، فَأَجْرَىٰ اللهُ آيَتَهُ،

فَانْضَمَّ الماءُ بَعْضُهُ إلى بَعْضٍ، وأَغْرَقَ بِهِ فِرْعَوْنَ وَجَيْشَهُ جَمِيعاً.

وَتَحدَّثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ، مُعَقِّباً عَلَىٰ انْتِقَامِهِ مِنْهُمْ بالإهْلَاكِ إغْرَاقاً، فجاء في السُّورة مَا يَلِي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

• ﴿كَمْ﴾ هُنَا خَبَرِيَّةٌ، وَمَعْنَاهَا: عَدَدٌ كَثِير غَيْرُ مُبَيَّنِ الجنْسِ أو النوع، وغَيْرُ مُبيّنِ المقْدار.

• ﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾: أي: فِي أَرْضِ مِصْرَ الّتِي خَرَجُوا مِنْهَا طُغَاةً بُغَاةً ظالِمِينَ، يُلَاحِقُونَ بَنِي إسْرَائِيلَ لِقِتَالِهِمْ وَإِعَادَتِهِمْ إلى الذُّلِّ والاسْتِعْبَاد.

• ﴿... مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وَفِي القراءَةِ الأُخرَىٰ: [فَكِهِينَ] وَقَدْ سَبَقَ تَوجِيهُهُمَا.

• ﴿كَمْ﴾ لِبَيَانِ جِنْسِ الْعَدَدِ الكَثِير الَّذِي تَرَكُوه، وَالَّذِي دَلَّت عَلَيْهِ «كَمْ» الخبرية.

• [وَجَنَّاتٍ] جَمْعُ «جَنَّة» وَهِي مَا يَحْتَوِي عَلَىٰ أشْجَارٍ وَثِمَارٍ وَزُرُوعٍ وأَنْهَارٍ وَقُصُور.

• ﴿مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ هِي عُيُونُ الْمَاءِ الجاري، وَرُبَّما كَانَتْ فُرُوعاً مُشْتَقَّةً مِن النِّيلِ.

• ﴿وَزُرُوعٍ﴾ أي: ومَزْرُوعَاتٍ مختَلِفَاتِ الأصنافِ والأنواع والأجْنَاس، مفردُها «زَرْعٌ».

• ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: أَيْ: وَمَكَانٍ نَفِيسٍ بَالِغٍ أَحْسَنَ مَا يَطْلُبُونَ أَنْ

يَكُونَ لِقِيامِهِمْ وجُلُوسِهِمْ وَحَرَكَتِهِمْ واسْتِقْرَارِهِمْ، مَادِّيّ لِمَتَاعَاتِ أَجْسَادِهم، ومَعْنَوِيٌّ لِمَتَاعَاتِ نُفُوسِهِمْ.

• ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾: **النَّعْمَةُ**: الرَّفَاهِيَة وَطِيبُ الْعَيْشِ، وحُسْنُهُ وَغَضَارَته، والْمَسَرَّةُ، والْفَرَحُ، والتَّرَفُّهُ.

فَاكِهِين: أي: مُسْتَمْتِعِينَ فِيها مُرَفَّهِينَ مَسْرُورين.

فَكِهِينَ: في قراءة أَبي جَعْفر، أي: مُسْتَمْتِعِينَ بَطِرِينَ مُسْتَكْبِرين، وهذه تُنَاسِبُ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ، وآلَهُ، والمُقَرّبِينَ مِنْهُمْ.

وَهَـٰذِهِ الأَشْيَاءُ الَّتِي تَرَكَهَا فِرْعَوْنُ وَمَنْ كَانَ مَعه، فَأَغْرَقْنَاهُمْ، قَدْ أَوْرَثْناهَا مَنْ كَانَ الْوَارِثَ لَهَا فِي مِصْرَ مِنْ أَهْلِيهِمْ وَغَيْرِهِمْ.

• ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾: أي: كَـذَلِـكَ الَّـذِي حَـصَـلَ لِفِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مُغْرَقِين، حَصَلَ لِأَمْثَالِهِمْ مِنْ مُجْرِمِي الأُمَم، أَهْلَكْنَاهُمْ وَأَوْرَثْنَا الْأَشْيَاءَ الَّتِي كَانُوا يَمْتَلِكُونَها قَوْماً آخَرِينَ امْتَلَكُوهَا مِنْ بَعْدِ إِهْلَاكِ أَسْلَافِهِم، وَهَـٰذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ.

• ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فَمَا حَزِنَ لِهَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ هَلَكَ مَعه، وَلا لِهَلَاك مَنْ أُهْلِكُوا مِنْ مُجْرِمِي الْأُمَم الْأُخرَىٰ الّذِينَ دَلَّتْ عَلَيْهِم عِبارَة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ذُو إِحْساسٍ يُحِسُّ بِتَكْوِينِهِ الْفِطْرِيّ بِالْحُزْنِ، عِنْدَ مَوْتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ وَيَفْعَلُونَ الْخير، وَتَنْتَشِرُ مِنْهُمْ أَنْوارُ رِضْوانِ اللهِ عَلَيْهِمْ، ذَاتِ التَّأْثِيرِ الْحَسَنِ فِي الْأَحْياءِ وفي الأَشْياءِ.

الْبُكَاءُ عَلَامَةٌ عَلَىٰ الْحُزْنِ، وَذُكِرَ نَفْيُ الْبُكَاءِ كِنَايَةً عَنْ نَفْيِ الْحُزْنِ، وَالْحُزْنُ مَشَاعِرُ أَلَمٍ دَاخِلِيٍّ لَدَىٰ مَنْ جَعَلَ اللهُ فِي فِطْرَتِهِ الإحْسَاسَ بِهَـٰذِهِ المشَاعِرِ.

أَمَّا الْبَشَرُ فَنَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ هَـٰذِهِ المشاعر، وكذلِكَ الْجِنّ، فَأَمَّا الكَفَرَةُ مِنَ الْإِنْس وَالْجِنِّ فَلَا قِيمَةَ لِحُزْنِهِمْ عَلَىٰ هَلَاكِ أَمْثَالِهِمْ، بَلْ حُزْنُهُمْ مِنْ عُقُوبَاتِ اللهِ لَهُمْ، وَأَمَّا المؤمِنُونَ فَيفْرَحُونَ بِهلَاكِ الْكَفرَةِ الْمُجْرِمِين، لِلْخَلَاصِ مِنْ شُرُورِهِمْ وَجَرائِمِهم، وَكُلُّ ذِي فِطْرَةٍ يَشْعُرُ بَالحُزْنِ مِنْ غَيْرِ الإِنْسِ والْجِنّ، كالْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِالْحُزْنِ عَلَىٰ هلاكِ الكَفَرَةِ الْمُجْرِمِنَ الَّذِينَ هُمْ أَئِمَّةُ أَعْدَاءِ اللهِ.

ونَفْيُ بُكَاءِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، هُوَ نَفْيُ حُزْنِ كُلِّ ذِي شُعُورٍ بَالْحُزْنِ فِيهما، تُعْتَبَرُ مَشَاعِرُهُ وَتُرَاعَىٰ فِي مَوَازِينِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَمَا هُوَ الأَصْلَحُ وَالْأَنْفَعُ في الوجود.

● ﴿. . . وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: وَمَا كَانَ الَّذِينَ أُهْلِكُوا مِنْ قَوْم فِرْعَوْنَ، وأمْثَالِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْأُخْرَىٰ، مُمْهَلِينَ، مَهْمَا أَلَحُّوا فِي طَلَبِ الإِمْهَالِ عِنْدَ بَوَادِر نُزُولِ الْعَذَابِ فِيهِمْ، لِأَنَّهُمْ قَدْ سَبَقَ أَنْ أُمْهِلُوا إِمْهَالاً طَوِيلاً، فَلَمْ يَرْتَدِعُوا عَنْ غَيِّهِمْ عَلَىٰ الرُّغْم مِمَّا وُجِّهَ لَهُمْ مِنْ إِنْذَارَاتٍ فِي أَزْمَانٍ قَدْ تَبَاعَدَ مَا بَيْنَهَا، وَبَلَغُوا إِلَىٰ دَرَكِ الإِجْرَامِ الْعِنَادِيّ المقْرُونِ باسْتِيقَانِهِمْ بِالْحَقِّ.

الإِنْظَارُ: الإمْهَال. يُقالُ لغة: «أنْظَرَهُ إِنْظاراً» أي: أَخَّرَهُ وأَمْهَلَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ بإيجَازٍ شَدِيدٍ عَنْ بَنِي إِسْرَائيل بِمُنَاسَبَةِ ذِكْرِ إِهْلاكِ فِرْعَوْن وَجُنُودِهِ إغْرَاقاً، فِي بَحْرِ سُوف (= الْبَحْرِ الأَحْمَرِ):

● ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾:

التوكيد بعِبَارَة «لَقَدْ» مَرَّتَيْنِ في هَـٰذَا البيان، وهو تَوْكِيدٌ فِيه مَعْنَىٰ الْقَسَم، مُوَجَّهٌ لِلْمَعْنِيِّينَ بالْمُعَالَجَةِ فِي السُّورَةِ، وهُمْ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي

مَكَّة إِبَّانَ التَّنزِيلِ، لِيُشعِرَهُمْ اللهُ بأَنَّهُ سَيُنْجي رَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مِنِ اضطهادِهم لَهُمْ، وَسَيَخْتَارُهُمْ وَيَرْفَعُ مَكَانَتَهُمْ فَوْقَ الْعَالَمِينَ، وَسَيَنْصُرُهُمْ وَيَفْتَحُ لَهُمُ الْبُلْدَانَ، وَتُخْضِعُ لَهُمْ شُعُوبَ الأَرْضِ، وَسَيُسْقِطُ مِنْ أَجْلِهِمُ الدُّوَلَ الْعُظْمَىٰ «فارس، والرُّوم، والْحَبَشَة» ثُمَّ دُوَلاً أُخْرَىٰ.

أي: وَلَقَدْ خَلَّصْنَا بِهـٰذَا الإِجْرَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ الْمُذِلِّ، الَّذِي كانُوا يُعانُونَهُ مُسْتَعْبَدِينَ فِي مِصْرَ، لِفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ وَسَائِرِ الْمِصْرِيِّين.

وَلَقَدْ اخْتَرْنَا بَنِي إِسْرَائِيل فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ اخْتِيَاراً قَائِماً عَلَىٰ عِلْم بِهِمْ وَبِسَائِرِ النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ، لِحَمْلِ الرِّسَالَة الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا عَلَىٰ مُوسى وَهَارُون عَلَيْهِمَا السَّلَام، وَتَبْلِيغِهَا للنَّاسِ، وَالقِيام بِوَظَائِفِهَا عِلْماً وَعَمَلاً وَقُدْوَةً حَسَنَة، وَفَضَّلْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ عَلَىٰ سَائِرِ الْعَالَمِينَ.

وَلَمْ يَكُنْ اخْتِيَارُهُمْ وَلَا تَفْضِيلِهُمْ عَلَىٰ كُلِّ الْعَالَمِينَ فِي جَمِيعِ أَزْمَنَةِ النَّاسِ مِنْ بَعْدِهِمْ، بِدَلِيلِ أَنَّ اللهَ سَلَبَهُمْ هـٰذَا التَّفْضِيلَ، لَمَّا فسقُوا وَفَجَرُوا وَأَدْخَلُوا الْوَثَنِيَّاتِ إِلَىٰ مُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَحَرَّفُوا فِي دِينِ اللهِ الحَقّ، وَبِدَلِيلِ النَّصِّ في الْقُرْآنِ عَلى أَنَّهُ اخْتَارَ الأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَفَضَّلَهُمْ عَلَىٰ كُلِّ النَّاسِ مِنْ بَعْدِهِمْ إلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَة، وَأَبَانَ أَنَّهُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ.

• ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾:

الَّذي أَرَاهُ أَنَّ هـٰذِهِ الآيَاتِ الَّتِي آتَاهَا اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ هِيَ آيَاتُ التَّكَالِيفِ الدِّينِيَّةِ، الَّتِي فِيهَا امْتِحَانٌ ظَاهِرٌ فِيهِ شِدَّةٌ، لِطَاعَتِهِمْ وامْتِثَالِ أَحْكَامِ رَبِّهِمْ، فِيمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ، وَفِيما حَرَّمَ عَلَيْهِمْ، وَمِنْهَا التَّشْدِيدُ عَلَيْهِمْ فِي أَنْ لَا يَكُونَ لَهُمْ عَمَلٌ لِمَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ يَوْمَ السَّبْتِ، وَمِنْهَا التَّشْدِيدُ عَلَيْهِمْ في أَحْكَامِ الطَّهَارَةِ، وَأَحْكَامِ الذَّبَائِحِ، إلى غير ذَلِكَ مِنَ الإصر الَّذِي كان عَلَيْهِم.

فَقَدْ وَصَفَ اللهُ امْتِحَانَ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بِذَبْحِ وَلَدِهِ إسْمَاعِيل، وَمُبَاشَرَةَ تَنْفِيذِهِ مَا امْتَحَنَهُ اللهُ بِهِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (الصَّافَّات/ ٥٦ نُزُول):

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

ووصَفَ اللهُ تَعَالَىٰ مَا كَانَ فِيهِ بَنُو إسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ إذْ كَانَ آلُ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَهُمْ سُوءَ العذاب، بِأَنَّهُ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّهِمْ عظيم فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ من القرآن المجيد.

فَدَلَّنِي هٰذَا على أنَّ الْبَلَاءَ الْمُبِينَ الْمُرَادَ بِبَعْضِ الآيَاتِ، هو ما في الآيَاتِ المنزَّلَاتِ في التوراة، الَّتِي فِيهَا أَحْكَامٌ دِينِيَّةٌ مُشَدَّدَةٌ عَلَيْهِم.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الدُّخان).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٨)
التَّدبُّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (الدُّخان) الآيات من (٣٤ ـ ٤٢)

قَال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

تَمْهيد:

فِي آيَات هٰذَا الدَّرْس بَيَانٌ عَنْ مُشْرِكي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَوْقِفِهِمْ مِنْ إِنْكَارِ الآخِرَةِ والْبَعْثِ، مع مُعَالَجَتِهِمْ بالإقْنَاعِ، وَبِالإِنْذَارِ بِيَوْمِ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ مَقَالَةٍ يَقُولُهَا وَيُكَرِّرُ قَوْلَها الْمَعْنِيُّونَ بِالعِلَاجِ في السُّورَةِ، مِنْ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التنزيل:

● ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

● ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

بِمُنْشِرِينَ: الإِنْشَارُ: الإحْياءُ بَعْدَ الموت. «أَنْشَرَهُ إِنْشَاراً» أي: أَحَيَاهُ بَعْدَ أَنْ أَمَاتَهُ.

يَرُدُّونَ بِهٰذَا عَلَىٰ مَا جاء في سُورَةِ (غافِر/ ٦٠ نزول) مِنْ بَيَانِ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ وَهُمْ يُعَذَّبُون فِي النَّار: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾: أي: كُنَّا أَمْوَاتاً فِي أَرْحام أُمَّهَاتِنَا قَبلَ أَنْ تَنْفُخَ فِينَا الرُّوحَ، فَأَحْيَيْتَنَا، وَشَهِدْنَا الحياة الدُّنيا، ثُمَّ أَمَتَّنَا فِي آجَالِنَا، ثُمَّ أَحْيَيْتَنَا لِنُلَاقِي عَذَابَنَا يَوْمَ الدِّينِ، لِأَنَّنا كُنَّا قَدْ كَفَرْنَا بِمَا أَوْجَبْتَ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ.

فَأَعْلَنُوا تَكْذِيبَهُمْ بأَنَّ الْمَوْتَةَ الَّتِي يَمُوتُونَهَا بَعْدَ الحياة الدُّنْيَا هِي الْمَوْتَةُ الثَّانِيَةُ، وَزَعَمُوا أَنَّهَا هِيَ الأُولَىٰ لَا الثَّانِيَة. وأَعْلَنُوا تَكْذِيبَهُمْ بالإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْت، أي: فَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا حَياةَ إِلَّا الحياةُ الأُولى، وَلَا مَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَها.

وطَرَحُوا مُغَالَطَةً جَدَلِيَّةً قَالُوا فِيها للرَّسُولِ وَجَمَاهِيرِ المؤمِنِينَ، فِي

صَيْحَةٍ إعْلَامِيَّة: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أي: فأحْيُوا آباءَنا الميِّتِينَ، إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين بِنَبَأِ الحياةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، لِلْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء.

هٰذِهِ مُغَالطَةٌ مَفْضُوحَةٌ سَاقِطَةٌ بِنَفْسِهَا، فالرَّسُولُ والمؤمنون مَعَهُ، يَدْعُونَ إلىٰ الإيمانِ بالْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَعْدَ إنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا كُلِّها، لِكُلِّ الْخَلَائِقِ، وَلَيْسَ فِي دَعْوَتِهِمْ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تُشْعِرُ بِبَعْثٍ لِلْأَمْوَاتِ ضِمْنَ ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا، فالمطالَبَةُ بِإِحْيَاءِ آبائِهِمْ خُرُوجٌ عَن الْمَوْضُوع الّذِي يُدْعَوْنَ إلى الإيمانِ بِهِ، والإحْيَاءُ يَوْمَ القيامَةِ دَلِيلُهُ بُرْهَانٌ عَقْلِيٌّ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ حِكْمَةِ اللهِ وَعَدْلِهِ وَضَرُورَةِ تَحْقِيقِ الْجَزَاء الْحَكِيم، وَإِلَّا كَانَ خَلْقُ النَّاسِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا عَبَثاً، واللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظمَ سُلْطَانُهُ ـ مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَبَثِ، بَلْ كُل تَصَارِيفهِ فِي كَوْنِهِ حَكيمةٌ، مُطَابَقَةٌ لِلْحَقِّ وَالْعَدْلِ.

يُضَافُ إلَىٰ الدليلِ العقليّ بيانَاتُ اللهِ الصَّرِيحَةُ فِي كتابِهِ المعجز.

مَرَاحِلُ الْحِوَارِ في القرآن مَعَ مُنْكِرِي الْبَعْثِ وَيَوْمِ الدّين:

(١) كانَ أئمَّةُ مُشْرِكِي مَكَّة يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، وَالْحَيَاةَ الْأُخْرَىٰ، والدَّارَ الآخِرَةِ، والجزاء الرَّبَّانِيَّ يَوْمَ الدِّين.

وقَدْ غَرَّهُمْ أَنَّ آبَاءَهُم الَّذِينَ كَانُوا مُشْرِكِينَ وَهُمْ عَلَىٰ آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ، لم يَتعرَّضُوا فِي الحياة الدُّنْيَا لِعَذَابٍ مِنَ اللهِ عَلَىٰ شِرْكِهِمْ.

وأَنْكَرُوا الْبَعْثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحُجَّةِ الاسْتِبْعَادِ، وعَدَمِ مُشَاهَدَةِ أَمْوَاتٍ مِنْ آبَائِهِمْ يُبْعَثُونَ، ويُحَدِّثُونَهُمْ عَمَّا شَهِدُوا بَعْدَ الموت.

(٢) حتَّىٰ قَالَ قائِلُهُمْ لِلرَّسُولِ ﷺ بِشَأْنِ عَظْمٍ نَخِرٍ مِنْ عِظَامِ الموْتَىٰ، مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (يسٓ/ ٤١ نزول):

﴿. . . قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾: أي: وهي بالِيَةٌ مُتَفتِّتَةٌ.

فَعلَّم اللهُ رَسُولَهُ ﷺ الجواب الْبُرْهَانِيَّ المفْحِمَ، فَقَالَ لَهُ فِيها:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾. مع مَا جاءَ بَعْدَ هٰذِهِ الآيَةِ في السُّورَةِ حتَّىٰ آخِرِها.

(٣) فَرَفَضُوا قَبُولَ هٰذَا الْبُرْهَانِ الْعَقْلِي، وأَصَرُّوا على مَوْقِفِهِمْ المكَذِّب بِالْبَعْثِ وَبالجزاءِ يَوْمَ الدِّينِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ حُجَّةٌ إلَّا الاسْتِبْعَادُ والاستغرابُ.

دلَّ علىٰ هذا الموقف مَا جاءَ بَيَانُهُ في سُورَة (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول). فَقَدْ جَاءَ فيها قَوْلُ اللهِ تَعالَى:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

الرُّفات: الْحُطام، والْفُتَاتُ مِنْ كُلِّ مَا تَكَسَّرَ وَانْدَقَّ.

- ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: فَسَيُحَرِّكُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ تَحْرِيكاً دَالًّا عَلَىٰ الثباتِ عِنْدَ مَوْقف المسْتَبْعِدِ المتَعجِّبِ المنْكِر.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هٰذَا النَّصِّ في مَوْضِعِهِ مِنْ سُورَة (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول).

(٤) وَمَعَ إفْحَامِهِمْ بالدَّلِيلِ الْبُرْهَانِيِّ اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ إصْرَارِهِمْ عَلَىٰ إنْكَارِ الْبَعْثِ وَالجزاءِ يَوْمَ الدّين، مُدَّعِينَ أَنَّهُ لَا تُوجَدُ حَياةٌ أُخْرَىٰ غَيْرُ هٰذِهِ الحياة الدُّنيا.

جَاءَ بَيَانُ إصْرَارِهِمْ هٰذَا فِي سُورَةِ (الأَنْعَام/ ٥٥ نزول) فقال اللهُ تَعالَىٰ فِيها:

• ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

(٥) وَجَاءَت الْأَدِلَّةُ الكَثِيرَةُ في الْقُرآنِ الَّتِي تُشَبِّهُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَىٰ بإحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِها.

(٦) وَبَدَأَتْ فِكْرَةُ الاقْتِنَاعِ بالْبَعْثِ، لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذ الجزاء، تَتَسَرَّبُ إِلَىٰ قُلُوبِ أَتْباعِ الْأَئِمَّةِ الْمُعَانِدِينَ الْجَاحِدِين.

فأنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ بَيَانَ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ الَّذِينَ كَفَرُوا وهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقالَ تَعالَىٰ فِي سُورَةِ (غافِر/ ٦٠ نزول) يَحْكِي دُعَاءَهُمْ لِرَبِّهِمْ يَلْتَمِسُونَ الْخُرُوجَ مِنْ دَارِ العذاب:

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾.

أي: كُنَّا أَمْوَاتاً فِي أَرْحَام أُمَّهَاتِنَا قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فينَا وَنَحْنُ أَجِنَّة، فأَحْيَيْتَنَا، وَشَهِدْنَا الْحَياةَ الدُّنْيَا، ثُمَّ أَمَتَّنَا، ثُمَّ أَحْيَيْتَنَا لِنُلَاقِيَ جَزَاءَنَا يَوْمَ الدِّين.

فزاد شُعُور جَمَاهِيرِ أَتْبَاعِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفرِ، بأنَّ الْبَعْثَ يَوْمَ الدِّينِ مِنَ الْعَقَائِدِ الَّتِي يَنْبَغِي التَّصْدِيقُ بها.

(٧) عِنْدَئِذٍ خَافَ أَئِمَّةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ مِنْ أَنْ تَفْلَتَ جَمَاهِيرُهُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَيُؤْمِنُوا ويَسْلِمُوا، وَتَسْقُطُ بذلِكَ زَعَامَاتُهُمْ فِي مُجْتَمِعِهِمْ، فَصَارُوا يُرَدِّدُونَ مَقَالَةً إعْلامِيَّةً يُنْكِرُونَ بِهَا وُجُودَ مَوْتَتَيْن، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونوا يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ الْجَنِينَ قَبْلَ أَنْ تُنْفَخَ فِيهِ الرُّوح، هُوَ إِنْسَانٌ بِخَرِيطَةِ نَفْسِهِ، لَكِنْ لَا حَيَاةَ لَهُ فَهُوَ مَيِّت، وَجَعَلُوا يُشِيعُونَ هَـٰذِهِ المقالَةَ الإِعْلَامِيَّةَ لِتَشْوِيهِ صُورَةِ الْبَيَانِ القرآنِي الَّذِي جاءَ في سورة (غافِر/ ٦٠ نزول).

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذَا مَا جاء في سُورَةِ (الدُّخان/ ٦٤ نزول):

● ﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

فأذاعوا وَأَشاعوا أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ مَوْتَةٌ قَبْلَ الْمَوْتَةِ الَّتِي يَمُوتُهَا النَّاسُ بَعْدَ الْعَيْشِ فِي الْحياةِ الدُّنيا، وَذَكَرُوا أَنَّها هِيَ الْمَوْتَةُ الأُولَىٰ لا الثَّانِيَة، فَقالُوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾: أي: لَا الثانية.

وأَصَرُّوا عَلَىٰ مَوْقِفِهِمْ فِي حَضِيض إِنْكَارِ البعْثِ والحياةِ الأُخْرَى، وإِنْكَارِ الجزاءِ عَلَىٰ مَا يَكْتَسِبُهُ النَّاسُ بِاخْتِيَارِهِم الحرّ في رِحْلَةِ الْحَياةِ الدُّنْيا، فَقَالُوا فِي مُغَالَطَةٍ سَاقِطَةٍ لِلرَّسُولِ والمؤمنين مَعَهُ، بأسْلُوبٍ دِعَائِيٍّ إعْلَامِيٍّ: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ آنِفاً شَرْحُ هٰذَا النصِّ من سورة (الدخان/ ٦٤ نزول).

(٨) وَتواردت عَلَيْهِمُ البيانَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ بأنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يُحْيي ويُمِيت، فِي نُصُوصٍ مُتَعَدِّدَةٍ سَابِقَةِ التَّنْزِيل لسُورَةِ (الجاثِيَة/ ٦٥ نزول) ومِنْها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ إِبْرَاهِيم لِقَوْمِهِ فِي دَعْوَتِهِ لَهُمْ أَخْذاً مِمَّا جَاءَ فِي سُورَةِ (الشُّعَرَاء/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

فَوَجَدُوا لِأَنْفُسِهِمْ ذَرِيعَةً يَتَعَلَّلُونَ بِهَا، زَاعِمِينَ أَنَّ الْمَوْتَ ظَاهِرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ، لِتَوَالِي الأَزْمَانِ فِي الدَّهْرِ، وَلَيْسَ عَمَلاً مِنْ أَعْمَالِ الْخَلْقِ الرَّبانِيِّ الْقَائِمِ عَلَىٰ فَصْلِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْسِ، فَقَالُوا مَا جَاءَ بَيَانُه فِي سُورَة (الجاثِية/ ٦٥ نزول):

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ

مِن عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

فَأَصَرُّوا بِعِنَادٍ غَيْرِ مُقْتَرِنٍ بِدَلِيلٍ فِكْرِي، عَلَىٰ أَنَّهُ لَا تُوجَدُ لَهُمْ حَيَاةٌ إِلَّا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَكَذَٰلِكَ سَائِرُ النَّاس، يَمُوتُ مَوْتَىٰ، وَيَحْيَا أَحْيَاءٌ عَنْ طَرِيقِ التَّنَاسُلِ، وَسَبَبُ الْمَوْتِ تَوَالِي الأَيَّامِ والشُّهُورِ والسِّنين، الَّذِي يَضْعُفُ بِهِ الْأَحْيَاءُ عَنِ الصُّمُودِ لِعَوَارِض الدَّهْرِ، فَيَمُوتُونَ، ضِمْنَ ظَاهِرَةٍ طَبِيعِيَّةٍ.

فَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ هـٰذَا الْقَوْل عَنْ عِلْم قائِم عَلَىٰ التَّجْرِبَةِ والْمُلَاحَظَةِ والدِّرَاسَةِ التَّتَبُّعِيَّةِ لِدَقَائِقِ الْأُمُور، بَل الْمَوْتُ نَتِيجَةُ فِعْلٍ رَبَّانِي مَسْبُوقٍ بِتَقْدِيرٍ وَقَضاءٍ، وَمَا كان لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً، مُحَدَّدَ الأَجَلِ.

كما أَنَّ الْحَيَاةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِاقْتِرَانِ الرُّوحِ بِالنَّفْسِ، فَالْمَوْتُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِانْفِصَالِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْسِ، وَكلٌّ مِن الاقْتِرَانِ والانْفِصَالِ من أفعال الله.

كَمْ مِنْ صَحِيحٍ قَوِيٍّ سَلِيم لَا عِلَّةَ فِي أعْضَائِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَة، يَمُوتُ دُونَ مَعْرِفَةِ سَبَبٍ لِمَوْتِهِ، إِلَّا أَنَّ اللهَ قَدْ فَصَلَ رُوحَهُ عَنْ نَفْسِهِ.

وكم مِنْ عَلِيلٍ مَرِيضٍ يُحَدِّدُ الْأَطِبَّاءُ حَيَاتَهُ بِأَيَّامٍ أو شُهُورٍ، يَعِيشُ فِي عِلَلِهِ سِنِينَ عَدِيدَة، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ الْمَعْلُومُ عِنْدَ رَبِّهِ، انْفَصَلَتْ رُوحُهُ عَنْ نَفْسِهِ، بأمْرٍ مِنَ اللهِ الَّذِي كَانَ قَدْ وَهَبَهُ الحياة.

وَمَزَاعِمُ الَّذِينَ نَسَبُوا الْمَوْتَ إِلَىٰ تَوَالِي الأَيَّامِ من الدَّهْرِ مَزَاعِمُ قائِمَةٌ عَلَىٰ ظَنٍّ تَوَهُّمِيٍّ ضَعِيفٍ، لَا يَتَرَجَّحُ بِهِ رَأْيٌ عِلْمِيٌّ.

وَهَـٰؤُلَاءِ الدَّهْرِيُونَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ الْبَيِّنَاتُ، الْمشْتَمِلَات عَلَىٰ الْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، لَجَؤُوا إِلَىٰ مُغَالَطَتِهِمُ السَّاقِطَةِ، فقال للرسول

وللمؤمنين بِفُجُورٍ إِعْلَامِيٍّ: ائْتُوا بآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بِنَبَأِ الْبَعْثِ والحياة بعد الموت.

فَعَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ بِهُدُوءٍ وَطُمَأْنِينَةٍ وَبُرُودَةِ أَعْصَاب فقال له: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... ﴿٢٦﴾﴾.

وعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ وَكُلَّ حَامِلِ رِسَالَتَهُ مِنْ أُمَّتِهِ فقال تَعَالى: ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَاسِ لا يُحِبُّونَ أَنْ يَعْلَمُوا الْحَقَّ، مَهْمَا قَامَتْ لِلْإِقْنَاعِ بِهِ قَوَاطِعُ الأَدِلَّةِ، لِأَنَّهُمْ مُتَشَبِّثُونَ بأَهْوَائِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ وَمَتَاعَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنيا، الَّتِي يُطَالِبُهُمُ الْحَقُّ بِمُخَالَفَةِ نُفُوسِهِمْ فِيهَا، وهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَنْطَلِقُوا فِيها فَاجِرِينَ.

(٩) وَلَمَّا لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِمُ الْمُعَالجَاتُ السَّابِقَاتُ ضَرَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ مَثَلاً بعادٍ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وأَنَّهُمْ قَالُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إلى الحياة بَعْدَ الْمَوْتِ، فَكَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ أَنْ أَهْلَكَهُمُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ بالصَّيْحَةِ.

دَلَّ عَلَى هٰذَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَة (المؤمنون/ ٧٤ نُزُول) مُبَيِّناً مَا قَالَهُ مَلأُ قَوْمِ عَادٍ لِجَمَاهِيرِهِمْ صَدّاً لَهُمْ عَنْ دَعْوَةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْإِيمانِ بِيَوْمِ الدِّين:

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

متابعة تدبر سورة (الدخان):

بَعْدَ هَـٰذِهِ الدِّرَاسَةِ الْمُعْتَرِضَةِ أَعُودُ إِلَىٰ اسْتِكْمَال تَدَبُّر آيَاتِ الدَّرْس الرابع من دُروس سُورة (الدُّخان).

قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ المعالَجِينَ فِي السُّورَةِ، وهُمْ أَئِمَّةُ الشِّرْكِ والكُفرِ في مكَّةَ إبَّانَ التَّنزِيل.

• ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

تُبَّعٌ: لَقَبٌ كان يُطْلَقُ عَلَىٰ مَنْ يَمْلِكُ جَمِيعَ بِلَادِ الْمَنِ، وهِي: «حِمْيَر، وَسَبأ، وحَضْرَمَوْت».

وذُكِرَ أَنَّ كنْيَتَهُ: «أَبُو كَرِب» وَأَنَّ اسْمَهُ: «أَسْعَد» وَأَنَّ سُلْطَانَهُ قَدْ عَظُم، وغَزَا بِلَادَ الْعَرَب، ودَخَلَ مَكَّةَ، ويَثْرِب، وَبَلَغَ العِرَاق.

وَذُكِرَ أَنَّ دَوْلَتَهُ كَانَتْ قَبْلَ البِعْثَةِ المحمَّدِيَّةِ بِنَحْوِ أَلْفِ سَنَة، أَوْ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ.

وَجَاءَ في مُسْنَدِ الإمام أحْمَد، عَنِ النَّبيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا تُبَّعاً فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ» وفي رِوَايةٍ: «كَانَ مُؤْمِناً».

ويُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ مِن هَـٰذِهِ الآيَةِ، أَنَّ تُبَّعاً لَمْ يُهْلَكْ مَعَ قَوْمِهِ الْمُجْرِمِينَ.

فَالْمَعْنَىٰ: أَمُشْرِكُو مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ بِعِنَادِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الكُفْرِ، خَيْرٌ بِتَكْوِينِهِمُ الذّاتِيّ، أَوْ بِقُوَّتِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَحَضَارَتِهِمْ، مِنْ قَوْمِ تُبَّعٍ الَّذِينَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَكْثَرَ عَدَداً، وأَحْسَنَ حَضَارَةً، وَأَوْسَعَ عِلْماً، فَأَهْلَكْنَاهُم عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ، وَمِثْلُهُمُ الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ مِنَ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِهِمْ، قَوْمُ نُوح، وَقَوْمُ هُودٍ، وَقَوْمُ صَالح، وَقَوْمُ لُوطٍ، وَقَوْمُ شُعَيْبٍ، وفِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، كُلُّ هَـٰؤُلَاءِ قَدْ أَهْلَكْنَاهُمْ لأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمين،

كَفَرُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وَكَذَّبُوا بِيَوْمِ الدِّين، وَكُفَّارُ مَكَّةَ الْمُجْرِمُونَ المعانِدُونَ لَيْسُوا خَيْراً مِنْ هَـٰؤُلَاءِ الْمُهْلَكِينَ مِنَ قَبْلِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَإِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يُهْلِكَهُمْ أَهْلَكَهُمْ، فَسُنَّةُ اللهِ في عِبَادِهِ وَاحِدَة، كُلُّهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ وَعَبِيدٌ مِنْ عِبَادِهِ، وَكُلُّهُمْ مَوْضُوعُونَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

الاسْتِفْهَامُ في العبارَةِ اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ، أَيْ: لَيْسَ كُفَّارُ مَكَّةَ الْمُعَانِدُونَ الْمُجْرِمُونَ، خَيْراً مِنَ الْمُهْلَكِينَ الْكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ السَّابِقِين، فَهُمْ بِكُفْرِهِمْ وَجَرائِمِهم يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِهَلَاكٍ مُنَاظِرٍ لِلْهَلَاكِ الّذي أُهْلِكَ بِهِ الْمُجْرِمُونَ السَّابِقُون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُشِيرُ إِلَىٰ تَنَزُّهِهِ جَلَّ جَلَالُهُ عَنِ الْعَبَثِ واللَّعب، فِي خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ والأرْضَ، ولِهَذَا فإِنَّ الْعَقْلَ يَقْضِي بأَنَّ يَوْمَ الدِّين لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ، مِنَ الْأمورِ الْيَقِينيَّةِ تَقْتَضِيهَا حِكْمَةُ رَبِّ الْعَالَمِين، وَلَوْلَا وُجودُ يَوْمِ الدِّينِ فِي خُطَّةِ البارئ، لَكَانَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَمِمَّا بَيْنَهُمَا الإِنْسُ والْجِنُّ عَمَلاً مِنْ أَعْمَالِ اللّعَبِ وَالْعَبَث:

● ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ المقْبُولِ عَقْلاً، أَنَّ يَخْلُقَ اللهُ الْعَلِيمُ الحَكِيمُ الْقَدِيرُ، مَخْلُوقَاتٍ لَهَا إِرَادَاتٌ ذَوَاتُ حُرِّيَّاتٍ، تَفْعَلُ بِهَا مَا تَشاءُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍ، وَظُلْم وَعُدْوَانٍ، وَكُفر وَعِصْيَانٍ، وَأَنْ يُسَخِّرَ لَهَا مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، دُونَ أَنْ يُتَابِعَ الْمُسِيءَ بِالْعِقَابِ بِالعدْلِ، وَالمُحْسَنَ بِالثَّوَابِ بالْفَضْلِ.

وبِمَا أَنَّ ظُرُوفَ الحياةِ الدُّنْيَا لَا يَتَحَقَّقُ فِيهَا هٰذَا الْأَمْرُ الْحَكِيمُ، فَلَا

بُدَّ مِنْ وُجودِ حَياةٍ أُخْرَىٰ غَيْرَ هَـٰذِهِ الْحَياةِ يَتحقَّقُ فِيها، وَإِلَّا كَانَ هَذا الْخَلْقُ عَمَلاً بَاطِلاً، وَاللهُ الْكَامِلُ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ مُنَزَّهٌ عَنْ هـٰذَا الْعَمَلِ الباطِلِ.

فَأَبَان اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا حَالَةَ كَوْنِه لَاعِباً، وَأَبَانَ أَنَّهُ مَا خَلَقَهَا إِلَّا بِالحَقِّ، إِذْ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي لَا شَكَّ فِي كَوْنِهِ حَقًّا، مُجَازَاةُ الْمُسِيءِ بِالْعَدْلِ وَلَا سِيمَا إِذَا كَانَ فِي إِسَاءَتِهِ ظُلْمٌ لِلْعِبَادِ، وَمُجَازَاةُ الْمُحْسِنِ بِالْمُكَافَاةِ التِي تُرْضِيهِ.

• ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾: أي: ولَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يُحِبُّونَ أَنْ يَعْلَمُوا هَـٰذِهِ الحقيقة، لِئَلَّا يَكُونَ عِلْمُهُمْ بِهَا دَافِعاً لهم إلى الإيمان بها، والعمل بمُقْتَضَاهَا على خلاف ما يُحِبُّونَ من دُنْيَاهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّ يَوْمَ الدِّينِ هُوَ يَوْمُ الْفَصْلِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَنَّهُ الميقاتُ الْمُحَدَّدُ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ، لِكُلِّ الموضوعينَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاء:

• ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾:

بَعْدَ التَّنْبيهِ على أنَّ يَوْمَ الدِّينِ حَقٌّ، تَقْتَضِيهِ صِفَة حِكْمَةِ الله الْعَلِيم الْقَدِير عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ ويَخْتَارُ، كَانَ مِنَ الحكْمَةِ فِي الْبَيَانِ هُنَا، تَقْدِيمُ لَمْحَةٍ تَفْصِيلِيَّةٍ عَنْ يَوْمِ الدِّين، فيها تَرْهِيب للكافِرِينَ الْمُكَذِّبِينَ الْمُجْرِمِينَ.

• ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

الْفَصْل: الْفَرْقُ والتَّمْييزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أو الأَشْياء. ويُقَالُ: «فَصَلَ الحاكِمُ بَيْنَ الْخَصْمَيْن» أي: قَضَىٰ بَيْنَهما. و«فَصَلَ فُلَانٌ الْأَمْرَ» أي: قَضَاهُ وأَبْرَمَهُ وبَتَّهُ. وسَمَّىٰ اللهُ هنا يَوْمَ الدِّين: «يَوْمَ الْفَصْل» لِأَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ

وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يَقْضِي فِيهِ بَيْنَ الْعِبَادِ، الْمُحْسِنِينَ وَالمُسِيئين فِي رِحْلَةِ الامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، لِيُجَازِيَهُمْ بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوا مِنْ أَعْمَالٍ.

الْمِيقَاتُ: يُطْلَقُ عَلَىٰ الْوقت المعَيَّنِ لِفِعْلٍ مَا. وَعَلَىٰ الْمَوْعِدِ الَّذِي جُعِلَ لَهُ وَقْتٌ مُحَدَّد... وَعَلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي حُدِّدَ لِفِعْلِ شَيْءٍ ما.

وَيَوْمُ الدِّينِ المشْتَمِلُ عَلَىٰ مَكَانِ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَعَلَىٰ تَحْقِيقِ الْغَايَةِ مِنْ وَضْعِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، هو يَوْمٌ يَكُونُ فِيهِ فَصْلُ الْقَضَاءِ بَيْنَ مُحْسِنِهِمْ وَمُسِيئِيهم.

أَجْمَعِينَ: تَوْكِيدٌ للضَّمِير فِي ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ وهٰذَا الضَّمِير يَعُودُ عَلَىٰ المكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّينَ، وَهُوَ يَشْمَلُ فِي الواقِع كُلَّ الموضُوعِينَ فِي الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

- ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾:

لَا يُغْنِي: أي: لَا يَكْفِي، ولَا يَصْرِفُ مِمَّا يَقْضِيهِ اللهُ شَيْئاً.

مَوْلَى: أيْ: قَرِيب ـ حَلِيف ـ مُحِبّ ـ نَاصِر.

فالمعنى: يَوْمَ يَكُونُ الْحُكْمُ للهِ وَحْدَه، فَلَا يَكْفِي أَحَدٌ مِنْ دُون اللهِ أمْرَاً لِأَحَدٍ، وَلَا يَصْرِفُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً مِمَّا يَقْضِيهِ اللهُ، مَهْمَا كَانَ قَرِيباً، أو مُحِبًّا، أو نَاصِراً.

وَعَلَىٰ فَرْضِ وُجُودِ تَنَاصُرٍ بَيْنَ عِبَادِ اللهِ يَوْمَئِذٍ، فَإِنَّهُمْ لَا يُنْصَرُونَ، إذاً الأمر أَمْرُ اللهِ، والقضاءُ قَضَاؤُه، وهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عباده، وهُو عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير.

- ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: إِلَّا مَنْ شَمَلَتْهُ رَحْمَةُ اللهِ بِسَبَبِ إِيمَانِهِ، وصِحَّةِ نِيَّتِهِ بابْتِغَاءِ طَاعَةِ رَبِّهِ فِي بَعْضِ أعْمَالِهِ، فَقَدْ يَصْرِفُ اللهُ عَنْهُ بَعْضَ مَا يَسْتَحِقُّ مِنْ عِقَابٍ عَلَىٰ

مَعَاصِيهِ، فَيَغْفِرُ لَهُ، أَوْ يَعْفُو عَنْهُ، وَيَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتٍ وَكَبَائِرَ كَانَ قَدِ ارْتَكَبَهَا فِي الحياة الدُّنيا.

أَمَّا مَنْ مَاتَ كافِراً وَلَوْ بالشِّرْكِ، فإِنَّ رَحْمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا تَشْمَلُهُ لِنَجَاتِهِ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النار، لِقَوْلِ اللهِ تبارَكَ وَتَعَالَى، في سُورَةِ (النِّسَاء/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾:

وَبَدَهِيٌّ أَنَّ الشِّرْكَ أَخَفُّ دَرَكَات الكُفْرِ وَأَهْوَنُها، والشِّرْكُ نَفْسُهُ ذُو دَرَكَاتٍ بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، وأَخَفُّ الشِّرْك عِبادَةُ غَيْرِ اللهِ بِقَصْدِ التَّقَرُّبِ إِلَىٰ اللهِ زُلْفَى، وَهٰـذَا كُفْرٌ باللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِمَنْ مَاتَ عَلَيْهِ.

وجاءَ في آخِرِ الآيَةِ وَصْفُ اللهِ بأَنَّهُ هُو وَحْدَهُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ بِعِزَّته الْغَالِبَةِ يَجْزِي بِالْعَدْلِ، مَنْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يَجْزِيَهُ بِالْعَدْلِ، وَبِرَحْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ يَجْزِي بِالْفَضْلِ وبالْعَطَاءِ الْجَزْل، مَنْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يَجْزِيَه بِهِ، بِشَرْط أَنْ يَكُونَ قَدْ مَاتَ مُؤْمِناً مُسِلماً.

الْعَزِيز: ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ الَّتِي لَا تَصُدُّها قُوَّة.

الرَّحِيم: ذُو الرَّحْمَةِ العظيمة الواسِعَة الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ.

ودَلَّ عَلَىٰ الْحَصْرِ تَعْرِيفُ طَرَفَي الإسْنَاد مَعَ التوكيد بِضَمِيرِ الْفَصْل فِي: ﴿... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

وبهٰـذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الرابع من دُرُوس سورة (الدُّخان).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❋ ❋ ❋

(٩)

التدبّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (الدُّخان) الآيات من (٤٣ ـ ٥٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ
﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ
رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا
مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ
﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ
﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا
ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾.

القراءات:

(٤٥) • قرأ ابن كثير، وحفْص، ورُوَيس: **[يَغْلِي]** وَصْفاً لـ «طعام».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[تَغْلِي]** وَصْفاً لـ «شَجَرَة».

(٤٧) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عامر، ويَعْقُوب: **[فَاعْتُلُوهُ]** بِضَمِّ التاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَاعْتِلُوهُ]** بِكَسْر التاء. والقراءتان لغتان عَرَبِيّتان.

(٤٩) • قرأ الكِسَائِي: **[ذُقْ أَنَّكَ]** أي: لِأَنَّكَ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[ذُقْ إِنَّكَ]** على الابتداء، والْجُمْلَةُ كُلُّها هِي على مَعْنَى التعليل لِنُزُول العذاب به.

(٥١) • قرأ نافع، وابْن عامر، وأبو جَعْفر: [مُقَام] مِنْ فِعْلِ «أقَامَ» وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مَقَام] مِنْ فعل «قَامَ».

(٥٢) • قرأ ابْنُ كثير، وابْنُ ذَكْوَان، وشُعْبَة، وحمزة، والكسائي: [وَعِيُونٍ] بِكَسْرِ الْعَين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَعُيُونٍ] بِضَمّ العيون. وهما لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَان.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْس بيانٌ عَنْ شَجَرَةِ الزَّقُّوم في الجحيم، الَّتِي يَكُونُ مِنْهَا طَعَام الْأَثِيمِ الْغَالي في جرائِمِهِ وآثَامِهِ.

وفيها عَرْضُ مَشْهَدَيْن مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدّين:

المشْهَدُ الْأَوَّل: يَتَضَمَّنُ بَيَانَ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ عَذَاب الْكَافِرِ الْمُجرِمِ في الْجَحِيم.

المشْهَدُ الثَّاني: يَتَضَمَّنُ بَيَانَ بَعْضِ نَعِيمِ المتَّقِينَ فِي جَنَّاتِ النعيم، في مُقَابِلِ بَيَانِ بَعْضِ عَذَاب الْكَافِرِين الْمُجْرِمِين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ تَرْهِيبَ المكَذِّبين بِيَوْمِ الدِّين، بما أُعِدَّ لَهُمْ من طَعَامٍ يأكلونه في الجحيم:

• ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾:

سَبَقَ في الملْحَق الثاني لِتَدَبُّر سُورَةِ (الواقعة/ ٤٦ نزول) دِراسَة شَامِلَة

لِكُلِّ مَا جَاءَ في القرآن بشَأْنِ شَجَرَة الزَّقّوم[(١)].

شَجَرَةُ الزَّقُوم: صِنْفُ شَجَرٍ في جَهَنَّمَ دَارِ عَذَاب الْمُجْرِمِين، لَهُ ثَمَرٌ يَأْكُلُ مِنْهُ الْأَثيمون اضطراراً لِشِدَّةِ جُوعِهِمْ وَعَدَمِ وُجود شيءٍ آخَرَ أَهْوَن مِنْهُ يَأْكُلونه.

• ﴿ٱلۡأَثِيمِ﴾: هو المسْرِفُ الْغَالِي في ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ والْآثَامِ، مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر، فَهُو يَخْتَصُّ بِالْكَافِرِ الْفَاجِر الّذِي كانَ في الحياة الدُّنيا حَيَاةِ الامْتِحَانِ يُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدّين، وبِكُلِّ الْأَحْدَاثِ الَّتِي تَجْرِي فِيهِ.

أي: إنَّ طَعَامَ الكَفَرَةِ الْمُكَذِّبِينَ بِيَوم الدينِ المسْرِفين الْغُلَاةِ فِي ارْتكابِ الآثام، يَكُونُ مِنْ صِنْفِ شَجَرٍ يُنْبِتُهُ اللهُ فِي الجحيم اسمه «الزَّقُّوم».

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَأْكُلُهُ هؤلاءِ مِنْ هـٰذَا الصِّنْفِ مِنَ الشَّجَرِ بِقَوْلِهِ:

• ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: فالمأكُولُ مِنْهُ كالْمُهل، وَإِذَا دَخَلَ فِي بُطُونِ آكليه صارُوا يَشْعُرُون بأنَّه يَغْلِي فِيها كَغَلْي الماء الحارّ.

الْمُهْل: يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَىٰ الْقَطِرَانِ السَّائِلِ، والْمَعْدِنِ الذَّائِب، وَدُرْدِيّ الزّيت (أي: عَكَرِ الزَّيْت).

يَغْلِي: أي: يَفُورُ مِنْ شِدَّةِ الحرارة، يقال لغة: «غَلَتِ الْقِدْرُ، تَغْلِي، غَلْياً وغَلَيَاناً» أي: فَارَت، وطفَحَتْ بِقُوَّة الحرارة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَصِفُ مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ الْأَثِيم وَهُوَ يُجَرُّ إِلَىٰ وَسَطِ

---

(١) انظر هذا المحلّق في المجلّد الثامن في الصحفات من (٥٢٥ ـ ٥٤٠).

الْجَحِيم، وَتُؤْمَرُ مَلَائِكَةُ التَّعْذِيب بِصَبِّ الْمَاءِ الَّذِي يَغْلِي فَوْقَ رَأْسِهِ:

• ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

هٰذَا الْبَيَانُ مُقْتَطَعٌ اقْتِطَاعاً مِنَ الْحَدَثِ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الدِّين، وَفْقَ الْأُسْلُوب القرآنِيِّ في الاقْتِطاع مِنَ الماضِي أو المستقبل، وَهُوَ مِنْ رَوَائِعِ الاخْتِيَارَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الإبْدَاعِيَّةِ.

سَوْفَ يُقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ المكلَّفِينَ أنْ يُوصِلُوا الْأَثِيمَ إِلَىٰ دَرَكَةِ عَذَابِهِ في الْجَحِيم:

• ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾: أي: خُذُوهُ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي يَنْتَظر فِيهِ تَنْفِيذَ قَضَاءِ اللهِ بِشَأْنِهِ، وَهُوَ تَعْذِيبُهُ فِي دَرَكَةِ عَذَابِهِ فِي الْجَحِيم، فَجُرُّوهُ جَرّاً عَنِيفاً مَسْحُوباً عَلَىٰ مَا يُلَاقِي جِسْمُهُ مِنْ أَرْضِ الْمَحْشَر.

يُقَالُ لغة: «عَتَلَهُ، يَعْتِلُهُ، وَيَعْتُلُهُ، عَتْلاً» أي: جَرَّهُ جرّاً عَنِيفاً، وَجَذَبَهُ، وَحَمَلَهُ كَمَا تُحمَلُ الْأَشْيَاءُ الْمَهِينَة.

وَلَا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَ المتَدَبِّرُ مَا فِي هٰذَا الْعَتْلِ مِنْ إِهَانَةٍ وَتَحْقِيرٍ وإذْلَالٍ وَتَعْذِيب.

• ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: وَأَوْصِلُوهُ إِلىٰ وَسَطِ الْجَحِيم واطْرَحُوه، قَالَ الزَّجَّاج: سَوَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَسَطُهُ.

• ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾: دَلَّ حَرْفُ الْعَطْفِ «ثُمَّ» عَلَىٰ وُجُودِ فَاصِلٍ بَعِيدٍ بَيْنَ مَكَانِ انْتِظَارِه فِي الْمَحْشَرِ، وَمَكَانِ تَعْذِيبِهِ فِي وَسَطِ الْجَحِيم.

الجحيم: اسْمٌ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّار، وَكُلُّ نَارٍ عَظِيمَةٍ فِي مَهْوَاةٍ تُسَمَّىٰ جَحِيماً.

• ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾: أي: مِنَ الْمَاءِ الْحَارِّ الَّذِي يَغْلِي، وفيه تَعْذِيبٌ لَهُ. وَلَمَّا كَانَ الْغَرَضُ مِنْ صَبِّ الْحَمِيم فَوْقَ رَأْسِهِ إِيصَالَ الْعَذَابِ إِلَيْهِ، كَانَ التَّعْبِيرُ بالصَّبِّ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيم، أَوْلَىٰ مِنَ التَّعبير بالصَّبِّ مِنَ الْحَمِيمِ الّذِي فِيه عَذَابٌ لَهُ، والإضَافَةُ فِي: ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ هِيَ على تقدير حَرْف «مِنْ» أَيْ: مِنْ عَذَابٍ مِنَ الْحَمِيم.

• ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾: أي: يُقَالُ لَهُ مَعَ صَبِّ الْمَاءِ الْحَمِيم الَّذِي يَغْلِي فَوْقَ رَأسِهِ الّذِي يَعُمُّ بَدَنَهُ وَهُوَ قَائم: ذُقْ هـٰذَا الْعَذَابَ الأَلِيمَ الَّذِي سَبَّبَهُ لَكَ كُفْرُكَ بِمَا جَاءَك مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ، إِذْ كُنْتَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكَ فِي الحياة الدُّنْيا.

وكُفْرُكَ الْعِنَادِيُّ، وَجُحُودُكَ الْحَقَّ سَبَّبَهُ لَكَ تَوَهُّمُكَ أَنْتَ وَحْدَكَ الْعَزِيزُ الْكَرِيم، فَلَا يَلِيقُ بِكَ أَنْ تَتَّبِعَ رَسُولاً مِنْ عِنْدِ رَبِّك، وَأَنْ تَعْمَلَ بِكِتَابٍ أَنْزَلَهُ، لِيَعْمَلَ عِبَادُهُ المكَلَّفُونَ بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ بَيَانَاتٍ لَهُمْ، وَأَوَامِرَ وَنَوَاهِيَ، وَلِيَسِيرُوا عَلَىٰ صِرَاطِهِ المستقيم.

الْعَزِيزُ: أَي: الْقَوِيُّ الغالب.

الكَرِيم: أي: الجامِعُ لِأَحْسَنِ صِفَاتِ الرِّجَالِ.

هَكَذَا كَانَ يَتَوَهَّمُ ذَاتَهُ، مِنْ شِدَّةِ غَلَيَانِ عَوامِلِ الْكِبْرِ بِنَفْسِهِ، والإعجابِ بِصِفَاتِه، إِذْ كَانَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الحياة الدُّنْيا.

فَيُقَالُ لَهُ هـٰذَا عَلَىٰ سَبِيلِ التَّوْبِيخِ والاسْتِهْزَاءِ، كَمَا كَانَ يَسْتَهْزِئُ بِعِبَادِ اللهِ، وَيَسْتَهِينُ بِهِمْ، وَيَحْتَقِرُهُمْ.

جاء فِي سَبَبِ النُّزُولِ ما أَخرجَ ٱبْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ أَبُو جَهْلٍ بِرَسُول الله ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ، فَلَمَّا بَعُدَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ».

فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو جَهْلٍ قَال: مَنْ تُوعِدُ يَا مُحَمَّد؟.

قال: إِيَّاكَ.

قال: بِمَ تُوعِدُني؟

قَالَ: «أُوعِدُكَ بالْعَزِيزِ الْكَرِيم».

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَلَيسَ أَنَا الْعَزِيزُ الْكَرِيم.

فأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الآيَات من (٤٣ ـ ٤٩) من سورة (الدُّخان/ ٦١ نزول).

حَصَرَ أَبُو جَهْلٍ وَصْفَي الْعَزِيزِ الْكَرِيم بنفسه بِتَعْرِيفِهِ طَرَفَي الإسْنَادِ، فَنَاسَبَ أَنْ يُقَالَ لَهُ وَلِأَمْثَالِهِ، وَهُوَ يُعَذَّبُ بالْحَمِيم في الجحيم: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، إهَانَةً وَإِذْلالاً وَتَحْقِيراً وَاسْتِهْزَاءً به.

• ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾: بَعْدَ تَعْذِيب الأَثِيمين أفراداً، وَخِطَابِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِصُورَةٍ إفرادِيَّة خِطَابُ إِهَانَةٍ وَإِذْلَالٍ وَتَحْقِيرٍ وَاسْتِهْزَاءٍ بِهِ، يُوَجَّهُ لَهُمْ خِطَابٌ عَامٌّ، وَهُمْ مُجْتَمِعُون، إِنَّ هٰذَا الْعَذَابَ الَّذِي تَذُوقُونَهُ الْآنَ فِي الْجَحِيم، هُوَ مَا كُنْتُمْ بِهِ فِي رحلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تُجَادِلُونَ مُكَذِّبِينَ بِهِ، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّكُمْ بِجِدَالِكُمْ تُغَيِّرُونَ مِنَ الْوَاقِعِ الْحَقِّ شَيْئاً.

تَمْتَرُونَ: أي: تُجادِلُونَ عَلَىٰ مَذْهَب الشَّكِّ والرِّيبَةِ، لِإبْطَالِ الْحَقِّ الَّذِي جاءَكُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّكُمْ، مَعَ أَنَّهُ لَا مِرْيَةَ فِيهِ، أي: لَا شَكَّ فِيهِ.

الْمِرْيَةُ: الْجَدَلُ ـ والشَّكُّ. يُقَالُ لُغَةً: «مَا رَاهُ، مُمَارَاةً، وَمِرَاءً» أي: جَادَلَهُ ونَاظَره. ويقال: «تَمَارَىٰ الْقَوْمُ» أي: تَجادَلُوا.

و«التماري، والْمُمَارَاة» المجادَلَةُ عَلَىٰ مَذْهَبِ الشَّكِّ والرِّيبَةِ، لَا عَلَىٰ مَذْهَبِ الْبَحْثِ عَنِ الْحَقِّ بُغْيَةَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ والاعْتِرَافِ بِهِ.

يُقَالُ لِلْمُنَاظَرَةِ: «مُمَارَاة» لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ المتَنَاظِرِينَ يَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَ صَاحِبِهِ وَيَمْتَرِيهِ، كَمَا يَمْتَرِي الْحَالِبُ اللَّبَنَ مِنَ الضَّرْعِ.

وأَصْلُ المادَّةِ تَدُور حَوْلَ اسْتِخْرَاجِ الشَّيْءِ بالْمُلَايَنَةِ والإيناسِ، وَمِنْهُ الْمَسْحُ عَلَىٰ ضَرْعِ النَّاقَةِ لِتَأْنَسَ، فَيَدُرَّ لَبَنُها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتْبِعُ التَّرْهِيبَ لِلكَفَرَةِ المُكَذِّبِينَ الْأَثِيمِين، بِالتَّرْغِيبِ للمؤمنينَ المتَّقِينِ، الَّذِينَ يُؤَدُّونَ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَيَجْتَنِبُونَ مَا حَرَّمَ:

● ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾:

● ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: **[فِي مُقَامٍ]**.

الْمُتَّقُون: هُمْ أَهْلُ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، وهي ذَاتُ دَرَجَاتٍ، أَعْلَاهَا دَرَجَةُ الّذِينَ يُؤَدُّونَ كُلَّ الْوَاجِبَاتِ وَيَتْرُكُونَ كُلَّ المُحَرَّمَاتِ، أَوْ يَكُونُونَ مِنْ أَهْلِهَا بالاسْتِغْفَار والتوبَةِ والْعَفْو والْغُفْرَان. وَأَدْنَاهَا دَرَجَةُ الَّذِينَ يَقُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ بالإيمان والإسلامِ الصَّحِيْحَيْنِ الصَّادِقَيْنِ، مَعَ عَمَلٍ صَالِحٍ يَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِهِما.

وفَوْقَ المتَّقِينَ «الْأَبْرَار» وهم أَهْلُ مَرْتَبَةِ «الْبِرّ» وهي ذَاتُ دَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَات، **والْبِرُّ**: هُوَ التَّوَسُّعُ في أَعْمَالِ الْخَيْرِ المرضِيَةِ للرَّحْمٰن، من نَوَافِلِ العبادَات والْقُرُبَات، ذَوَاتِ الثِّقَلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْمِيزان.

وَفَوْق الأبْرَار «الْمُحْسِنُونَ» وَهُمْ أَهْلُ مَرْتَبَةِ «الإحْسَان» وهي أيضاً ذَاتُ دَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ، **والإحْسَانُ**: إتْقَانُ الْعَابِدِ عِبَادَتَهُ لِرَبِّهِ كَأَنَّهُ يَرَاهُ بِعَيْنَيْه، يَزِيدُ فِي تَجْوِيدِهَا وَتَحْسِينِها لِنَيْلِ رِضْوَانِهِ الْأَعْظَم.

وَقَدْ وَعَدَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَهْلَ الْمَرْتَبَةِ الدُّنْيا: «مَرْتَبَةِ المتَّقِينَ» مِمَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي هٰذَا النَّصِّ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الأبْرَارَ والمُحْسِنِينَ مُتَّقُونَ وَزِيَادَة، فَلَا بُدَّ أَنَّ يَكُونَ لَهُمْ مِثْلُ مَا لِلْمُتَقِين وَزِيَادَة.

• ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أو ﴿فِي مُقَام أَمِينٍ﴾ **مَقام**: مَكَانُ قِيام. **وَمُقَام**: مَكَانُ إِقَامَة. وَكُلٌّ منْ مَكَانِ القيامِ وَمَكَانِ الإقَامَةِ مَوْصُوف بِأَنّهُ أَمِين.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجَنَةَ يَوْم الدِّينِ دَارُ أَمْنٍ شَامِلٍ، فَلَا خَوْفَ فيها مِنْ شَيْء، وَلَا خَوْفَ فِيها عَلَىٰ شيءٍ، بَلْ كُلُّ مَا يَطْلُبُ أَهْلُهَا فِيها يَحْصُلُ لهم، لَهُمْ فِيها مَا يَدْعُونَ، وَهِي سَلَامٌ دَائِم بِكَلِمَةِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيَّة.

• ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾: أي: يَكُونُ المتَّقُونَ يَوْمَ الدِّينِ فِي مَكَانِ قيامٍ أمِين، وَفِي مَكَان إِقَامَةٍ دَائِمةٍ أَمِينٍ، ضِمْنَ مُحِيطٍ بِهِمْ مِنْ جَنَّاتٍ كثيراتٍ، وَعُيُونِ مَاءٍ وَفِيراتٍ، تَتَحقَّقُ بها أنواعُ السَّعَادَات.

إِنَّ دَارَ النَّعِيم الْجَنَّةَ يَوْمَ الدِّينِ ذَاتُ أَقْسَامٍ كثيراتٍ جِدّاً، كُلّ قِسْمٍ مِنْهَا جَنَّةٌ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ كُلِّ الصِّفَاتِ المطْلُوبَةِ في جَنَّاتِ النعيم، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنَ التَّفَاضُلِ فِيمَا بَيْنَهَا بِحَسَبِ اسْتِحْقَاقَاتِ نُزَلَائِها، الَّذِينَ تَفَضَّلَ اللهُ عَلَيْهِمْ بأَنْ يَكُونُوا مِن أَهْلِهَا بِالإيمانِ وَالْعَمَلِ الصَّالح.

جَنَّاتٍ: جَمْعُ «جَنَّة» وهي مَا يَحْتَوِي عَلَىٰ أَشْجَارٍ وثمارٍ وزُرُوع وأنْهَارٍ وَقُصُورٍ، وكُلّ مَا يُمْتِعُ النَّفْسَ والْحَوَاس، وَجَنَّاتُ يَوْمِ الدِّين، فِيها النَّعيمُ الأبَدِيُّ الخَالِدُ، وفيها مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَر.

وعُيونٍ: هِي عُيُونُ الْمَاءِ الَّتِي تَجْرِي بَيْنَ الْأَشْجَارِ والْقُصُورِ، إسْعَاداً لِأَهْلِ الْجَنَّة.

• ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

سُنْدُس: نَوْعٌ مِنَ الثياب الرَّقِيقَةِ النَّاعِمَةِ المنْسُوجَةِ مِنَ الْحَرِيرِ، وهِيَ مِنْ أَصْنَافِ «الدِّيبَاج» وتُلْبَسُ غَالِباً مُلَاصِقَةً لِلْبَدَن.

اسْتَبْرَق: نَوْعٌ مِنَ الثياب الْغَلِيظَةِ المنْسُوجَةِ مِنَ الْحَرِير، وهي مِنْ أَصْنَافِ «الدِّيباج» أَيْضاً، وتُلْبَسُ فَوْقَ ثِيَابٍ مِنْ سُنْدُسٍ.

أَقُولُ: ذِكْرُ ثِيابٍ مِنْ سُنْدُسٍ، وَثِيابٍ مِنْ اسْتَبْرَقٍ مِنْ قَبِيلِ التَّقْرِيب إلىٰ الأذهان، لِأَنَّ مَا فِي الْجَنَّةِ أَنْفَسُ مِنْ كُلِّ مَا فِي الدُّنيا، بِدَرَجَاتٍ كثيراتٍ جدًّا.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المتَّقِين فِي الْجَنَّةِ بِأَنَّ لَهُمْ مَجَالِسَ يَكُونُونَ فِيها مُتَقَابِلِينَ، وَجاءَ فِي نَصٍّ غَيْرِ هَذَا بَيَانُ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا.

فَدَلَّ هٰذَا عَلَىٰ أَنَّ المتقين في الْجَنَّةِ لَهُمْ مَجَالِسُ أُنْسٍ وَسُرُور وَأَحَادِيث تَزِيدُ فِي نَعِيمهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: أَفْهَمُ مِنْ هَٰذِهِ الْعِبَارَةِ هُنَا أَنَّ أَهْلَ مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ هُم فَوْقَ المتَّقِينَ، وأَهْلَ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ هُمْ فَوْقَ الْأَبْرَارِ لَهُمْ كالَّذِي هُوِ لِلْمُتقِين، مَعَ زِيَادَاتٍ تُلَائِمُ دَرَجَاتِهِم فِي مَرَاتِبِهِمْ، لِأَنَّهُمْ مُتَّقُونَ وَزِيَادَة، وَجَاءَتِ الْعِبَارَة فِي غَايَةِ الإيجاز الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ الْمُرَادُ بِهَا مِنَ السِّبَاقِ وَمِنَ السِّيَاقِ وَمِنَ التَّدَبُّرِ الْعَمِيق.

• ﴿... وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾: أي: وَقَرَنَّاهُم بِزَوْجَاتٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ.

حُور: جَمْعُ «حَوْرَاء» وهي مِنَ النِّسَاءِ الْبَيْضَاء.

عِين: جَمْعُ «عَيْنَاء» وهي ذَاتُ الْعَيْنِ الحسَنَةِ الْوَاسِعَة.

• ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾: أي: يَطْلُبُونَ في

الْجَنَّاتِ مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا، فَيَأْتِيهِمْ بِهَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ الْغِلْمَانُ الْمُخَلَّدُونَ، دُونَ إِبْطَاءٍ، حَالَةَ كَوْنِهِمْ آمِنِينَ مِنْ أَنْ يُؤْذِيَهُمْ الأَكل مِنْهَا مَهْمَا أَكَلُوا، وَحَالَةَ كَوْنِهِمْ آمِنِينَ مِن انْقِطَاعِها، لِأَنَّ فَوَاكِهَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِّين لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَة.

يُقَالُ لُغَةً: «دَعَا بِالشَّيءِ» أي: طَلَبَ إِحْضَارَه.

• ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾:

حِينَ كَانَ الإِنْسَانُ فِي رَحِمِ أُمِّهِ قَبْلَ أَنْ يَنْفُخَ الْمَلَكُ فِيهِ الرُّوحَ بأَمْرِ الله، كانَ ذَا نَفْسٍ إِنْسَانِيَّةٍ غَيْرِ مُتَّصِلَةٍ بالرُّوحِ فَهِيَ نَفْسٌ إِنْسَانِيَّةٌ مَيّتَة، وقَبْلَ ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ نَفْساً تُوصَفُ بِالْمَوْتِ، والمَوْتُ الّذِي تَكُونُ فِيهِ كَانَ مُصَاحِباً لِلنَّشْأَةِ، لَمْ تَذُقْهُ النفس.

وَبَعْدَ نَفْخ الرُّوح فِيهَا صَارَتْ نَفْساً إِنْسَانِيَّةَ حَيَّةً.

وَحِينَ يأتي أَجَلُ فَصْلِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ تَذُوقُ هَـٰذِهِ النَّفْسُ الْمَوْتَ، بِمُفَارَقَةِ الرُّوحِ لها، وَلِهَـٰذَا قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (آل عمران/ ٨٩ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ... ﴿١٨٥﴾﴾.

وَيَوْمَ الْبَعْثِ تَعُودُ الرُّوحُ إِلَىٰ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّة، فَتَعُودُ للإِنْسانِ الحياة، وَتَبْقَىٰ هـٰذِهِ الْحَيَاةُ خَالِدَة لَا تَتَعَرَّضُ مَعَهَا النَّفْسُ لِأَنْ تَذُوقَ الْمَوْتَ مَرَّةً أُخْرَىٰ.

فأَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ لَا يَذُوقُونَ الموْتَ أَبَداً، وَكَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، لَا يَذُوقُون الْمَوْتَ بَعْدَ الْبَعْثِ، إِنَّهُمْ لَا يَذُوقُونَ الإِحْسَاسَ بالْمَوْتِ إِلَّا عِنْدَ انْفِصَالِ الرُّوحِ بَعْدَ الأَجَلِ الَّذِي عَاشُوهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، هَـٰذِهِ هِي الْمَوْتَةُ الْأُولَىٰ فِي وُجُودِهِم الَّتِي ذَاقُوا الْمَوْتَ بِهَا.

فَلَا تَعَارُضَ فِي الْبَيَانَاتِ القرآنية، وَباسْتِطَاعَتِنَا أن نَفْهَمَ العبارة القرآنِيّة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

لَا يَذُوقُونَ فِي الْجَنَّةِ الْمَوْتَ، لَا يَذُوقونَ الْمَوْتَ فِي وجُودِهِمْ إلَّا ذَوْقَ الْمَوْتَةِ الْأُولَىٰ الَّتِي ذَاقُوا فِيها الإحْسَاسَ بانْفِصَالِ أَرْوَاحِهِمْ عَنْ نُفُوسِهِمْ.

أَمَّا الْمَوْتَةُ السَّابِقَةُ لَهَا فَقَدْ كَانَتْ مُصَاحِبَةً لِنَشْأَتِهِمْ، لَمْ يَذُوقُوا فِيها طَعْمَ الموْتِ.

إِنَّ الْمَوْتَةَ الْأُولَى الَّتِي ذَاقُوا فِيها طَعْمَ الْمَوْتِ وَأَحَاسِيسَهُ، هِيَ مَا كَانَ بَعْدَ الْحَيَاةِ الْأُولَىٰ فِي الدُّنيا.

ويُمْكِنُ أَنْ نُقَدِّرَ الْعِبَارَة كَما يلي: لَا يَذُوقُونَ فيها الموْتَ، لَا يَذُوقُونَ إلَّا مَوْتَةَ الْحَيَاةِ الْأُولَىٰ.

وأَرَىٰ أن عِبَارَة ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ بَدَلٌ مِنْ عِبَارَة: ﴿فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ وهو مِنَ الْبَدَلِ الْمُبَاينِ، مَع قَصْدِ كُلٍّ مِنَ الْبَدَلِ والْمُبْدَلِ مِنْهُ، ونظيرُهُ ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ فَمَا بَعْدَ «إِلَّا» بَدَلٌ مِنْ عِبَارَة ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾.

• ﴿... وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦﴾: أي: وَوَقَىٰ اللهُ المتقينَ علَىٰ اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ عَذَابَ الاحْتِرَاقِ بِنَارِ الجحيم، فالْجَحِيم اسْمٌ للنَّارِ العظيمة، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ لَهُمْ عَذَاب فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ غَيْرُ عَذَابِ الْحَرِيق بالنَّارِ، وَهـٰذَا يَلْتَقِي مَعَ قولِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (اللَّيل/ ٩ نزول):

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾:

أي: لَا يُعَذَّبُ بالْحَرِيقِ فِيها إِلَّا الْأَشْقَىٰ، وَهُوَ الَّذِي كَذَّبَ رَسُولَ رَبِّهِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ رَبّه، فَكَانَ بِذَلِكَ كَافراً.

• ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٥٧﴾: أي: يَنَالُ المتَّقُونَ عَلَىٰ تَفَاضُلِ دَرَجَاتِهِم هٰذَا الثوابَ العظيم فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، بِفَضْلٍ يَتَفَضَّلُ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ، لَا بِعَمَلِهِمْ، فَعَمَلُهُمْ لَا يَصْلُح لِأَنْ يَشْكُرُوا بِهِ رَبَّهُمْ عَلَىٰ أَقَلِّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِهِ عَلَيْهم، وَلَكِنَّ شَرْطَ هٰذَا التَّفَضّلِ أنْ يُؤْمِنُوا بِرَبِهِمْ ويُعْلِنُوا إِسْلَامَهُمْ لَهُ مُنْقَادِينَ، غَيْرَ جَاحِدِينَ وَلَا مُشْرِكِينَ.

الْفَوْزُ: النّجاةُ والرِّبْحُ، وَوَصَفَهُ اللهُ بِأَنَّهُ عَظِيمٌ، لِأَنَّهُ خَلَاصٌ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار، وَظَفَرٌ أَبَدِيٌّ بِالْخُلُودِ السَّعِيدِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الخامس من دُرُوس سورة (الدُّخان).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٠)
التَّدبّر التحليليّ للدّرس السّادس من دُروس سُورة (الدُّخان) الآيتان (٥٨) و(٥٩) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُخَاطِبُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ٥٩﴾.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْس يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ، بِشَأْنِ القرآن وَتَيْسِيرِه بِلِسَانِهِ الْعَرَبِيّ، وَإِلْمَاحٌ بِبِشَارَتِهِ بِأَنَّهُ مَنْصُورٌ بِنَصْرِ اللهِ لَهُ، وَبِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ المعَانِدِينَ مَخْذُولُون، وبِأَنَّ اللهَ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لرسولِهِ محمّد ﷺ:

● ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾:

هٰذِهِ الآيَةُ مَوْصُولَةٌ بِمَا جَاءَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ عَنِ الْقُرْآن، فَتَكُونُ رَابِطَةً لِآخِرِ السُّورَةِ بأَوَّلِهَا، ومَوْصُولَةٌ بالْحَدِيثِ عَنِ الْمُعَالَجِينَ فِي السُّورة، وهُمْ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْك إِبَّانَ التَّنْزِيل، باعْتِبَارِ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بالْقُرآنِ كِتَاباً مُنَزَّلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ، مع أَنَّهُ أنْزِلَ بِلِسَانِهِمْ، فَهُمْ أَوْلَىٰ النَّاسِ بالتَّبَصُّرِ بِهِ، وَفَهْمِ دَلَالَاتِهِ، وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهِ، والافْتِخَارِ بِهِ.

يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ نُنْزِلَ الْقُرْآنَ مُيَسَّراً بِلِسَانٍ آخرَ غَيْر لِسَانِكَ وَلِسَانِ قَوْمِكَ الْعَرَبِيِّ، وَلَكِنْ مَا يَسَّرْنَاهُ إِلَّا بِلِسَانِكَ الْعَرَبِيِّ وَهُوَ لِسَانُ قومِكَ، وَلَا سِيما قُرِيشٌ الَّذِينَ كَفرَتْ بِهِ أَئِمَّتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ، وَقَدْ كَانَ الواجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَيَتَدَبَّرُهُ، وَيَفْتَخِرُ بِهِ.

لِسَانُ الْقَوْمِ: كَلَامُهُمْ وَلُغَتُهُمْ الَّتِي يَنْطِقُونَ بِها للتَّعْبِيرِ عَمَّا يُرِيدُونَ التعبير عنه.

● ﴿... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾: أي: خَصَصْنَا تَيْسِيرَهُ وتَسْهيل فَهْمِهِ بِلِسَانِكِ ولِسَانِ قَوْمِكِ رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَذَكَّرُوا بَيَانَاتِهِ، عِنْدَ المناسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ، لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا، والدَّعْوَةِ إِلَيْهَا بَيْنَ النَّاسِ، لِأَنَّهُمْ أَقْدَرُ النَّاسِ عَلَىٰ فَهْمِهَا وَتَدَبُّرِ مَعَانِيها، وهٰذَا شَرَفٌ عَظِيمٌ لَهُمْ.

لَعَلَّ: أَصْلُ مَعْنَاهَا التَّرَجِّي، وحينما تَكُونُ صَادِرَةً عَنِ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، فإِنَّ مَعْنَىٰ التَّرَجِّي فِيها يُحْمَلُ عَلَىٰ لَازِمِهِ، وهي الرغْبَةُ فِي الشَّيْءِ والرِّضَا عَنْهُ، فالْمَرْجُو مِنَ الْأَشْيَاءِ الحسَنَةِ، مَرْغُوبٌ فِيه، وَيُسْتَقْبَلُ بالرِّضَا.

وتَأْتِي كَلِمَةُ «لَعَلَّ» للتَّعْلِيلِ، وَلازِمُ التَّرَجِّي هُنَا أَوْلَىٰ.

وفِعْلُ «يَتَذَكَّر» وَتَصارِيفُهُ وَمَصْدَرُهُ اسْتُعْمِلَ في القرآنِ للدَّلالَةِ علَىٰ الْأَثَرِ النَّفْسيّ والْقَلْبِيّ لحضُورِ المعْلُومَةِ فِي الذَّاكِرَةِ، اسْتِدْعَاءً مِنْ مَخَازِنِ الْمَعْرِفَةِ فِي دَاخِلِ الإنْسَان، أَوْ وُرُوداً حَدِيثاً لَهَا مِنَ الْخَارِجِ، عَنْ طَرِيقِ بَيَانٍ وَارِدٍ، أَوْ تَأَمُّلٍ فِكْرِيّ ذَاتِيّ، أَوْ بِتَأْثِير حَدَثٍ، أَوْ ظاهِرَةٍ كَوْنِيَّةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَصَارَ هَـٰذَا المرادُ بِمَثَابَةِ مُصْطَلَحٍ قُرْآنِيّ كَمُصْطَلَحَاتِ الصَّلاةِ والزَّكَاةِ وَالصِّيام فِي الدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَعَانِيهَا الدِّينيَّة. وهـٰذَا الْأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ هُوَ المطْلُوبُ الدِّينِيُّ مِنَ الذِّكْرِ والتَّذَكُّرِ واكْتِسَاب المعارِف الدينيَّة، وهُوَ دافِعٌ لِلسُّلُوكِ الدِّينيّ الْمُلَائِمِ لَهُ، والمطلُوبِ فيه، مَا لَمْ يُوجَدْ مانِعٌ نَفْسِيٌّ مِن ذَلِكَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ فِي آخِرِ السُّورَةِ، يُبَشِّرُهُ بِأَنَّهُ مَنْصُورٌ عَلَىٰ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ فِي مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيلِ بِصُورَةِ إلْمَاحِيَّة غَيْرِ صَرِيحَة، وفيها إلْمَاحٌ بأَنهُمْ مَخْذُولُونَ:

• ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩﴾: أي: فانْتَظِرْ يَا مُحَمَّد مَا سَنَفْعَلُهُ بِشَأْنِ هَـٰؤلَاء، وكَيْفَ نُعَاقِبُهُمْ وَنَنْصُرُكَ وَنَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ مَعَكَ عَلَيْهِمْ.

«رَقَبَ الشَّيْءَ» انْتَظَرَهُ، يُقَالُ لُغَةً: «رَقَبَهُ، يَرْقُبُهُ، رَقْباً، وَرُقُوباً، وَرَقَابَةً» أي: انْتَظَرَه.

«وارْتَقَبَ الشَّيْءَ» أي: انْتَظَرَهُ انْتِظَاراً مَصْحُوباً بِتَكَلُّفٍ وشِدَّةِ مُلَاحَظَةٍ، أَخْذاً مِنْ تاء الافْتِعَالِ فِي فِعْلِ: «ارْتَقَب».

• ﴿... إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩﴾: أَيْ: إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ بِتَدْبِيراتِهِمْ وَمَكَايِدِهِم أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْكَ ومِن الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ. أو مُرْتَقِبُونَ رَيْبَ الْمَنُونِ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ لِيَتَخَلَّصُوا مِنْكَ وَمِنْ دَعْوَتِكَ، وهَـٰذَا مَا أَبَانَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ في سورة (الطُّورِ/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

رَيْبُ الْمَنُونِ: حَوَادِث الدَّهْرِ الْمُمِيتَة. **والمنونُ**: الموت. يقالُ: هو المنون، وهِيَ المنون.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرْس الْأَخِير مِنْ دُرُوسِ سورة (الدُّخان).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١١)
ملحق: مُسْتَخرَجات بلاغية من سورة (الدُّخان)

تشتمل سورة (الدُّخان) على اختيارات بَلاغيَّة مُتَعَدِّدة، مِنْها ما يلي:

أوّلاً: الاسْتِقْطَاع مِمَّا سَوْفَ يَجْرِي يَوْمَ الدِّينِ وتقديم البيان كَأَنَّهُ يَجْرِي عند التكلّم

ومن أمثلة هذا الْفَنِّ القرآنِيِّ الإبْدَاعِيِّ ما في الآيَاتِ مِنْ (٤٧ ـ ٥٠) في السّورة، وهي قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها بِشأنِ الْكَافِرِ الْأَثِيم، وتَكْلِيفِ مَلَائِكَةِ الْعَذَاب أَنْ يأخذوه إلى وَسَطِ الْجَحِيم:

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثانياً: الإيجاز بالحذف

وفي هذه السورة عِدَّةُ أَمْثِلَةٍ مِنْه:

المثال الأوّل: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في مُعَالَجَةِ المشْرِكِينَ وإقناعِهم بالتوحيد:

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٧﴾.

أي: هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُوابِهِ شَيْئاً ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٧﴾ بِهَٰذِهِ الحقيقة.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ المعَالَجِينَ في السُّورَة:

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ٩﴾:

أي: لَكِنْ لَمْ يَتَأَثَّرُوا بِكُلِّ مَا سَبَقَ أَنْ أَقْنَعْنَاهُمْ به، ولا بوسائلِ الترغيبِ والتَّرْهِيبِ وغَيْرِها ﴿بَلْ هُمْ﴾ مُنْغَمِسُونَ ﴿فِى شَكٍّ﴾ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيّتِهِ، وتَوْحِيدِه فِي إلَهِيَّتِهِ، وهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ مُنْشغِلِين بالْأَدْنَىٰ الفاني الزائل، تَارِكينَ العظيم الباقي الْخَالِدَ والعَمَلَ لَهُ، مُعَرِّضِينَ أَنْفُسَهُمْ للعذاب الخالِدِ يَوْمَ الدِّين في الجحيم.

المثال الثالث: قول الله عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الحديث عن عَذَاب الجوع الَّذِي سَيُنْزِلُهُ بالْمُشْرِكِينَ فِي حَيَاةِ الرَّسُول، وهو عذابُ الدُّخان، ودُعَائِهِمْ أَنْ يَكْشِفَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ مَعَ وَعْدِهِمْ بأَنْ يُؤْمِنوا:

﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٢﴾:

أي: يَدْعُونَ رَبَّهُمْ إِذَا نَزَلَ بِهِم عَذَابُ الدُّخَانِ بهذا الدُّعاء المقْرُونِ بالْوَعْدِ بِأَنْ يُؤْمِنُوا إذا كَشَفَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَاب.

المثال الرابع: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ أَيْضاً خطاباً لهم:

﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ١٥﴾:

أي: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾ عَنْكُمْ زَمَناً ﴿قَلِيلًا﴾ لَكِنْ لَنْ تَفُوا بِوَعْدِكُمْ ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ١٥﴾ إِلَى كُفْرِكُمْ وشِرْكِكُمْ وفُجُورِكُم.

المثال الخامس: الآيَات من (١٧ ـ ٢٨) فيها مَطْوِيَّاتٌ كَثِيرات دَلَّتْ عَلَيْهَا نُصُوصٌ أُخْرَىٰ مُوزَّعَةٌ فِي سُوَرِ القرآن.

ثالثاً: توكيد الْجُمَلِ الْخَبَرِيَّةِ لِدَواعٍ بَلاغِيَّةٍ تقتَضِي التوكيد

توجَدُ في السُّورَةِ جُمَلٌ خَبَرِيَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ لِأَنَّ حَالَ المقْصُودِينَ بالْبَيَانِ تَقْتَضِي التوكيد، ومِنْها الأَمْثِلَةُ التالية:

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾:

المَقْصُودُونَ بالْجُمَلِ المؤكَّدَةِ فِي هَٰذِهِ الآيَاتِ هُمُ الكُفَرَةُ المكَذِّبُونَ بالحقائِقِ الَّتِي جَاءَت فيها.

والتوكِيدُ فيها جاء بالقسم في: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ وبالمؤكداتِ: «إنَّ - والجملَة الاسْمِيَّة» فِي: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ وفي: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ وفي: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

المثال الثاني: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوَجّهاً لِلْمُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّين:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠﴾:

(١) جاء التوكيدُ في عِبارَةِ: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بالحصر الَّذي دَلَّ عَلَيْه النَّفْي والاسْتِثْنَاء.

(٢) وَجاء التوكيد في عبارة: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠﴾ بالمؤكّدَين: «إِنَّ - والْجُمْلَةِ الاسْمِيَّة».

المثال الثالث: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٢﴾ جاء التوكيد هنا بـ «إنّ - والجملة الاسميَّة - وضَميرُ الفصل».

المثال الرابع: قولُ الله عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ نَعِيم المتقين في الجنَّة يوم الدين.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧﴾: جاء التوكيد في هذه العبارة بِتَعْرِيف طَرَفَي الإسْنَادِ مع ضَمِير الفصل.

المثال الخامس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ وَإسْمَاعاً للمشْرِكِين المكَذِّبين مِنَ العرب:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾: جَاءَ التَّوْكِيد في هٰذِهِ الْعِبَارَة بالْحَصْر الّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ أداة «إنَّما» وأَكْتَفِي بهٰذِهِ المسْتَخْرَجَات.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



سُورَةُ الجاثِيَة

٤٥ مصحف ٦٥ نزول

وهي سورة مَكِّيَّة كُلُّها

وهي السورة السادسة من «الحواميم» السَّبْعِ

(١)

نصُّ السُّورة وما فِيها مِنْ فَرْشِ القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾
وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾
يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

---

١ ـ • سَكَتَ أبو جعفر عَلَىٰ: (حَا) و(ميم).

٤ و٥ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، ويَعْقُوب: [**آياتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**] ـ [**آياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**] بِنَصْب آياتٍ في الموضِعَيْنِ بالكَسْرَةِ بدلَ الفتحة لِأَنَّهُ مزيد بألف وتاء.
وقرَأَهُمَا باقي القرّاء العشرة بالرَّفْعِ فيهما على الابتداء.

٥ ـ • قرأ حَمْزة، والكِسَائي، وَخَلَف: [**الرِّيح**] بالإفراد، والمراد جِنْس الريح.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**الرِّيَاح**] نظراً إلى أنواعِهَا.

٦ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كَثير، وأَبُو عَمْرو، وحفْص، وأبو جعفر، ورَوح: [**وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ**] بياء الغائبين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وآيَاتِهِ تُؤْمِنُونَ**] بِتاءِ المخاطَبِين. وبَيْنَ القراءتَيْن تكامُلٌ في الأَدَاء البياني.

٩ ـ • قرأ حفص [**هُزُواً**]. وقرأها حمزة، وخَلَف: [**هُزْءاً**]: وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**هُزُؤاً**].

) ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا
مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًىۖ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞
ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل
لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا
كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ
فَعَلَيْهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ
شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

---

١١ ـ • قرأ ابن كثير، وحفصٌ، ويَعْقُوب: [مِنْ رِجزٍ أَلِيمٌ] برَفع «أليم» وصفاً لـ «عَذَابٌ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِجَرِّ [أَلِيم] وصْفاً لـ «رِجزٍ».

١٤ ـ • قرأ ابنُ عامر، وحمزة، والكسائي، وخَلَف: [لِنَجزيَ قَوْماً]. وقرأها أبو جعفر: [لِيُجْزَىٰ قوماً]. وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: [لِيَجْزِيَ قَوْماً].

١٥ ـ • قرأ يَعْقُوب: [تَرْجِعُونَ]. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تُرْجَعُون].

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ بَيَاني.

﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ
وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾
أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ
وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ
إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ
إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ

---

١٦ ـ • قرأ نافع: [والنُّبوءَةَ]. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَالنُّبُوَّةَ]. وهُمَا نُطقَانِ عَرَبيان.

٢١ ـ • قرأ حفص، وحَمْزَة، والكِسَائيّ، وخلف: [سَوَاءً] بالنصب. وقرأها باقي القرّاء العشرة [سَواءٌ] بالرَّفع.

٢٣ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: [غَشْوَةً]. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [غِشَاوَةٌ].

ومُؤَدَّىٰ القراءتين واحد.

٢٣ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: [تَذَكَّرُونَ]. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تَذَّكَّرُونَ]: أصْلُها: «تتَذكَّرون» أدْغِمَتِ التاء بالتاء.

مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ
﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا
نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ
قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا
قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ
﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا

٢٨ ـ • قرأ يعقوب: [كُلَّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ] بِنَصب «كُلَّ». وقرأها باقي القرّاء العَشرَة: [كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ] بِرَفع «كُلُّ» وهما وَجْهان نَحويان.

٣٢ ـ • قرأ حَمْزَة: [والسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا] بنصب «السَّاعَة» عطفاً على «وَعْد». وقرأها باقي القرّاء العشرة برفع [والسَّاعَةُ] على الابتداء.

٣٣ ـ • قرأ أبو جعفر: [يَسْتَهْزُونَ] في الوصل والوقف. وكذلِكَ حمزة فِي الوقف. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَسْتَهْزِءُونَ] في الوصل والوقف.

٣٤ ـ • قرأ السُّوسِي، وأبو جعفر: [وَمَا وَاهُمْ] بإبدال الهمزة ألفاً. وكذلِكَ حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَمَأْواهُمْ] دُون إِبْدَال.

٣٥ ـ • قرأ حفص: [هُزُواً].
وقرأها حمْزَةُ، وخَلَفٌ: [هُزْءاً].
وقرأها باقي القرّاء العشرة [هُزُءاً].

وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾
وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

٣٥ ـ • قرأ حمزة، والكِسائي، وخَلَف: [لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا] بالبناء لِلْمَعْلُوم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا] بالبناءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعله.
أي: فهم لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَخْرُجُوا.

(٢)
ممّا ورد بِشأن سُورَة (الجاثية)

(الجاثية) سادسةُ «الحواميم» السبع، وينْطَبِقُ عَلَيْها مَا وَرَدَ بِشَأْنِهِنّ، السَّابقُ ذِكْرُهُ في الرَّقم (٢) من تَدَبُّر «الحواميم» الأرْبع السَّابقات.

(٣)
موضوع سورة (الجاثية)

تكادُ تَكُونُ «الحواميم» السَّبْعُ عَائِلَةً وَاحِدَةً مُفصَّلَةً إلىٰ سَبْع سُور، ذَوَاتِ مَلَامِحَ وَقَسَمَاتٍ مُتَشَابِهَاتٍ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا شَرِيفَاتُ أُسْرَةٍ واحِدَة.

ومَوْضُوعُهُنَّ يَسِيرُ عَلَىٰ خَطٍّ رَئِيسٍ وَاحِدٍ، هو خَطُّ الحديث عَنِ القرآن، ومَوْقِفِ الْكَافِرِينَ مِنْهُ إِبَّانَ التَّنْزِيل، وَمَوْقِفِهِمْ مِنْ توحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وإلَهِيَّته، ومَوْقِفِهِمْ من الرَّسُولِ ﷺ، وَمِن الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، وَمِنَ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ وَيَوْمِ الدِّينِ، ومُعَالَجَتُهُمْ بِشَأْنِ مَوَاقِفِهِم الْمُكْفِرَة، وَمَا يُلائِمُ ذَلِكَ مِنْ مُرَافِقَات.

(٤)
دُرُوس سورة (الجاثية)

ظهر لي تقسيمُ هذه السورة إلى سبعة دروس:

الدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ١١).

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْس بَيَانُ أَنَّ القرآن تنزيلٌ من اللهِ الْعَزِيزِ الحكيم، فَهُوَ كِتَابٌ عَظيمٌ مُعْجز.

وَفِيها تَنْبِيهٌ عَلَىٰ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ على طائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه.

وفيها تَوْبِيخٌ لِلْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ بالقرآنِ وبالرَّسُولِ إِذْ لَمْ يَعْبَؤُوا بآياتِ اللهِ الَّتِي تُتْلَىٰ عَلَيْهِم، وَهِيَ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ أَعْظَم بيانٍ مُقْنِعٍ وَمُبَشِّرٍ وَمُنْذِرٍ بأسْلُوبِ الْحَدِيثِ الإقْنَاعِيِّ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ وَلَا مِثْلَهُ حَدِيثٌ ذُو تَأْثِيرٍ في الْقُلُوبِ والنُّفُوسِ للإيمان بما أَوْجَبَ اللهُ الإيمان به.

وفيها إِنْذَارٌ لِلْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ أَليم مُهين، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ آيَاتِ اللهِ هُزُواً، ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمُ الْخُلُودَ فِي جَهَنَّم.

الدَّرْس الثاني: الآيَتَان: (١٢) و(١٣).

وفيهما تذكير ببَعْضِ نِعَمِ اللهِ على النَّاسِ فِي كَوْنِهِ، المشْتَمِلَةِ عَلَىٰ آيَاتٍ تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الإيمانِ بِهِ وشُكْرِه عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِم.

الدَّرْسُ الثالث: الآيتان: (١٤) و(١٥).

وفيهما تَعْلِيمٌ لِلرَّسُول ﷺ، أَنْ يُرْشِدَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ أَنْ يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالجزاء الرَّبَّانِي إيذَاءَاتِهِم، فَفَضَائِل أخلَاقِ المؤْمِنِ وَمِنْهَا المغفرة، جُزْءٌ مِن الدَّعْوَةِ الْمُجْدِيَةِ المؤثِّرَة في جَذْبِ الْكَافِرِينَ إلى الإيمانِ والْإِسلام، وأَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ ثَوَابَ الله العظيمَ الَّذِي أعدَّهُ للدُّعَاةِ الصابِرِين الَّذِينَ يَغْفِرُونَ، وَيَتَجَاوَزُونَ عَنْ إِسَاءَاتِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ.

الدرس الرابع: الآيات من (١٦ ـ ٢٢).

وفي آيات هذا الدّرسِ بَيَانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ آتَىٰ بَنِي إسْرَائيل الكِتَاب والْحُكْمَ وَالنُّبوَّة، وأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ نِعَماً كَثِيرة، لِيَحْمِلُوا رِسَالَةَ اللهِ للنَّاس، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا صَالِحِين لِحَمْلِ الرّسَالَةِ الرَّبَّانِيّة.

فاصْطَفَى اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ مُحمّداً، وَجَعَلَ أُمَّتَهُ هِيَ الْأُمَّةَ المختارَة لِحَمْلِ خَاتِمَةِ رِسَالَاتِ اللهِ لِلْعَالَمِينَ.

وفيها تَحْذِيرٌ ضِمْنِيٌّ لِلأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَمَا فَعَلَ بَنُو إسْرَائِيلَ مِنْ قَبْل.

وفيها بَيَانَاتٌ عَنْ قَضَايا مُتَّصِلَةٍ بِالْقَاعِدَةِ الإيمانيَّة.

الدَّرْس الخامس: الآيَات من (٢٣ ـ ٢٦).

وفي آيات هـٰذَا الدَّرْس بَيَانٌ عَنِ الكَفَرَةِ المشْرِكِينَ المعالَجِينَ في السُّورَة، وَكَيْفَ اتَّخَذُوا آلِهَتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ، فانْطَمَسَتْ بَصَائِرُهم، وَسُتِرَتْ أبْصَارُهم، وأنْكَرُوا الجزاء والْيَوْمَ الآخر، وقالُوا: مَا هِيَ إلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتَ وَنَحْيا. وَقَالُوا: مَا يُهْلِكُنَا إلَّا الدَّهْر، وَإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ البيانيَّة بِشَأْنِ الجزاء لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ حُجَّةٌ إلَّا أَنْ يَقُولُوا: ائْتُوا بآبَائِنَا إنْ كُنْتُمْ صَادِقين.

وهـٰذَا البيان اقْتَرَنَ بِهِ عِلَاجُ الكافِرينَ بالْعِلَاجِ الملائِمِ في هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي نَزَلَ فيها.

الدَّرس السادس: الآيَات من (٢٧ ـ ٣٥).

وفي آيَات هـٰذَا الدَّرْسِ تَقْدِيمُ لَقَطَاتٍ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْم الْقِيَامَةِ، وفيها إرهَابٌ لِمَنْ تَلِينُ قُلُوبُهُمْ وَنُفُوسُهُمْ لِلْمُرْهِبَات، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الترهيب أَحدُ وَسَائِلِ الْعِلَاجِ الكُبْرَىٰ.

الدَّرس السابع: الآيتان: (٣٦) و(٣٧) آخر السورة.

وفيهما خِتَامٌ بالثناءِ عَلَىٰ اللهِ بِكُلِّ مَا يَسْتَحِقُّ مِنْ حَمْد، وَلَا سيما صفاتُ رُبُوبيَّتِهِ لِكُلِّ شيء.

❊ ❊ ❊

(٥)
التدبر التحليلي للدَّرس الأول من دُروس سورة (الجاثية)
الآيات من (١ ـ ١١)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

القراءات:

(١) • سَكَتَ أبو جعفر على: [مَا] و[ميم].

(٤ و٥) • قرأ حَمْزَةُ، والْكِسَائي، ويَعْقُوبُ: **[آيَاتٍ لِقَوْم يُوقنون]** ـ **[آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ]** بِنَصْبِ «آيَاتِ» في الموضِعَيْنِ بِالْكَسْرَةِ بَدَلاً عَن الفتحة لِأَنَّهُ جمع مزيد بألِفٍ وتاء، ولهذا النَّصب تَخْرِيجٌ نَحْوِيٌّ مَقْبُول، وأرىٰ أنّ

في الآيَتَيْنِ حَذْفاً تَقْدِيرُهُ: «وَإِنَّ فِي خَلْقِكُمْ» و«إِنَّ في اخْتلافِ اللَّيْلِ والنهار».

وقرأَهُمَا بَاقي الْقُرَّاء الْعَشَرَةِ بالرفع فيهما على الابْتداء.

(٥) • قرأ حمزة، والكسَائي، وخلف: [الرِّيحَ] بالإفراد، والمراد جنْسُ الريح الشَّامل لِأنواعها.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [الرِّيَاحِ] بالْجَمْعِ مُرَاعَاةً لِأَنْواعها.

(٦) • قرأ نَافع، وابْنُ كَثِير، وأبو عمرو، وحفْص، وأبو جَعْفر، ورَوْح: [وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ] بِيَاءِ الغائبين.

وَقَرَأهَا بَاقِي العشرة: [وَآيَاتِهِ تُؤْمِنُونَ] بتَاءِ المخاطِبين. وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي الْأَدَاءِ الْبَيَاني.

(٩) • قرأ حفص: [هُزُوا]. وقرأها حَمْزَة، وخَلَفَ: [هُزْءاً] وقرأهَا بَاقِي القرّاء العشرة: [هُزُؤاً].

(١١) • قرأ ابن كثير، وحفص، ويعقُوب: [مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ] بِرَفْع «أليم» وَصْفاً لـ «عَذَابٌ» في الآيَةِ.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاء الْعَشَرَةِ بِجَرِّ [أَلِيمٍ] وَصْفاً لـ «رِجْز».

تَمْهيد:

في آيات هٰذَا الدَّرْس بَيَانُ أَنَّ الْقُرآنَ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الحكيم، فَهُوَ كِتَابٌ عَظِيمٌ مُعْجز.

وفيها تَنْبِيهٌ عَلَىٰ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وَفِيهَا تَوْبِيخٌ لِلْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ وَبالرَّسُولِ إِذْ لَمْ يَعْبَؤُوا

بآيَاتِ اللهِ البيانيَّةِ الَّتِي تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ، وَهِيَ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ أعْظَمِ بَيَانٍ مُقْنِعٍ وَمُبَشِّرٍ وَمُنْذِرٍ، بأسْلُوب الحديثِ الإقْنَاعِيّ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ وَلَا مِثْلَهُ حَدِيثٌ ذُو تَأْثِيرٍ في الْقُلُوب والنُّفُوسِ، لِلْإيمان بِما أَوْجَبَ اللهُ الإيمانَ بِهِ، ولِإعْلَانِ الْإِسْلَام والانْقِيَادِ والطاعَة.

وَفِيهَا إِنْذَارٌ لِلْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ أَلِيم مُهِينٍ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ آيَاتِ اللهِ هُزُواً، ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمُ الْخُلُودَ في جَهَنَّمَ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿حمٓ ۝١﴾: حَرْفَانِ مِنَ الْحُرُوف المقطَّعَةِ، الواردة فِي أوائِلِ بَعْضِ سُوَرِ القرآنِ المجيد، وَقَدْ ذَكَرْتُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِهَا لَدَى تَدَبُّر أَوَّلِ سُورَة (الْقَلم/ ٤ نزول).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

هَـٰذِهِ الآيَة مِثْلُ الآيَةِ الَّتِي صَدَّرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهَا سورة (الزمر/ ٥٩ نُزُول) والتَّدَبُّرُ هُنَا مِثْلُ التَّدبُّر هُنَاك.

● ﴿تَنزِيلُ﴾ مَصْدَرُ «نَزَّلَ» وهو مُكافِئٌ لِفِعْلِ «أَنْزَلَ إِنْزَالاً» لِأَنَّ الْمُضَعَّفَ وَالمهْمُوزَ في المعْنَىٰ والدَّلالَةِ أَخَوانِ، ولَمْ أَجِدْ في النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ الْفَرْقِ بَيْنَ «التَّنْزِيلِ» و«الإنْزَالِ» وَقَدْ جَاءَ فِيهَا بالنِّسْبَةِ إلى القرآن الكريم فِعْلُ «نَزَّلَ» وفعل «أَنْزَلَ».

إِنَّهُ لَمَّا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هو الْعَلِيَّ الْأَعْلَىٰ، كانَ كُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ تَنْزِيلاً وَإِنْزَالاً مِنْ عُلُوِّهِ إِلَىٰ مَا هُوَ دُونَهُ، وَإِلَىٰ مَنْ هُمْ دُونَهُ، وَكُلُّ أَكْوَانِهِ كَذَلِكَ سواءٌ أكانت أَحْيَاءً أَمْ غَيْرَ أَحْيَاء، ومنه:

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ـ ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

• ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: سمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ ما يُنَزِّلُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ بَيَانٍ كَلَامِيٍّ في الآيَاتِ والسُّور كِتَاباً، للدَّلَالَةِ عَلىٰ أَنَّ علىٰ الرَّسُولِ وعَلَىٰ المؤمِنين أَنْ يُدَوِّنُوهُ في كِتَابٍ مَصُونٍ، مَحْفُوظٍ مِن التَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ والتَّحْرِيفِ في كَلِمَاتِهِ وحُرُوفِهِ وَآيَاتِهِ وَسُوَرِهِ.

وَتَابَعَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِي القرآنِ تَعْرِيفَهُ بـ «ال» الْعَهْدِيَّة، فَصَارَ يُعْرَفُ بِلَفْظِ «الكِتَاب» وهذا اللفظ أَحَدُ الْعُنْوَانَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِها الْبَيَان الْقَوْلِيُّ، الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ إِكْمَالِ إِنْزَالِهِ، وَبَعْدَ إِكْمَالِ إِنْزَالِهِ، إِذْ هُوَ فِي الْخُطَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ مُهَيَّأٌ إِنْزَالُهُ كُلُّه، بِأُسْلُوبِ التَّنْجِيمِ والتَّفْرِيق، مُنْذُ إِنْزَالِ «اقْرأ» حَتَّىٰ آخِرِ حَرْفٍ أُنْزِلَ مِنْه.

لفظ «كِتَاب» في الْأَصْلِ مَصْدَرُ «كَتَبَ» يُقَالُ لُغَةً: «كَتَبَ، يَكْتُبُ، كَتْباً، وكِتَاباً». وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَىٰ «المكْتُوب» مِنْ إِطْلَاقِ الْمَصْدَرِ عَلَىٰ اسْمِ الْمَفْعُولِ.

لفظ «تَنْزِيلِ» مُضَافٌ. وهُو مبتدأ. ولفظ «الْكِتَابِ» مُضَافٌ إِلَيْه، وخَبَرُ الْمُبْتَدأ ما يَلي:

• ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

في هَٰذَا الْبَيانِ رَدٌّ عَلَىٰ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ من صِنَاعَةِ مُحَمَّدٍ وَتَأْلِيفِه، أَوْ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ، أَوْ هو أَسَاطِيرُ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِين، أَوْ تَتَنَزَّلُ بِهِ الشَّيَاطِين، أَو غَير هَٰذِهِ مِنْ أَقْوال الْكَافِرِينَ المكَذِّبِينَ الْجَاحِدِينَ، عَلَىٰ الرَّغْم مِنْ ظُهُورِ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِين، إِذْ تَحَدَّى اللهُ عَزَّ وَجلَّ الإِنْسَ والْجِنَّ بأَنْ يَأْتُوا بِمِثْل عَشْرِ سُوَرٍ مِنْهُ مُفْتَرَيَات.

وقَدْ جَاءَ تَمْجِيدُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ هُنا بِذِكْرِ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، هما «الْعَزِيز» و«الْحكِيم».

الْعَزِيز: أي: الْقَوِيُّ الْغَالِبُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، وَلَا تُكافِئُ قُوَّتَهُ قُوَّةٌ ما، ولَا قُدْرَتَهُ قُدْرةٌ مَا، فِي أيِّ شَيْءٍ.

فإذَا أَنْزَلَ كِتاباً مُعجزاً، فإنَّهُ لَو اجْتَمَعَتِ الْخَلَائِقُ جميعاً عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا، إِذْ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَلَّابُ في كُلِّ شَيْءٍ.

الحكيم: أي: ذُو الْحِكْمَةِ الْجَلِيلَةِ في كُلِّ اخْتِيَارَاتِهِ، فَهُوَ يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا الْمُلَائِمَةِ لها تَماماً، ويَخْتَارُ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ وأتْقَنَهَا وَأَحْسَنَهَا فِي الْأُمُورِ المخْتَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النَّتَائج.

وَهٰذَا الاسْمُ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ اللهِ، يَدُلُّ عَلَىٰ اتِّصافِهِ ـ جَلَّ جَلَالَهُ ـ بِالْكَمَالِ الْأَقْصَىٰ لِلْحِكْمَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِن اخْتِيَارَاتِهِ وأَفْعَالِهِ وَتَصارِيفِهِ كُلِّها.

وَذِكْرُ هَـٰذَيْنِ الاسْمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، بَعْدَ بَيان أَنَّ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنْهُ، فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ بِعِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ يَجْزِي عِبَادَهُ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ فِي الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، وَيَبْعَثُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لِلْآخِرَةِ، بأَتْقَنِ مَا تَقْضِي بِهِ حِكْمَتُهُ، لِدَارِ نَعِيمِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِدَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِينَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾:

كُلُّ مَا فِي الكَوْنِ هُوَ مِنْ آثَارِ صِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سِوَاه، وَكُلُّ شيءٍ في الكَوْنِ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ عَلامَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ الْخَالِقِ المتَصَرِّف فِيهِ، الْمُتَابِعِ مَعَ أَصْغَرِ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ كُلَّ تَطْوِيرٍ وَتَغْيِيرٍ يُحْدِثُهُ فِيهِ، زِيَادَةً أَوْ نَقْصاً في الذَّاتِ أَوْ في الصِّفات، إِذْ لَا تَغْيِيرَ فِي شَيْءٍ مَا

يَحْدُثُ مِنْ ذَاتِهِ، بَلِ اللهُ الرَّبُّ هُوَ المتَصَرِّفُ فِيهِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَهُوَ الْمُهَيْمِنُ عَلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه.

ومِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ الرَّبَّانِيِّ لِلْكَافِرِينَ، بِأَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ رَبُّ كُلِّ شيءٍ، وَهُو الإِلَهُ الَّذِي لَا إِلَهَ بِحَقٍّ سِوَاه، التَّنْبِيهُ المتَتَابعُ علَىٰ آيَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لِكَوْنِهِ، الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيها رَبٌّ سِوَاه.

الآيَاتُ: هِيَ الْعَلَامَاتُ الدَّالَّاتُ عَلَىٰ مَدْلُولٍ مَا.

ومِنْ آيَاتِ اللهِ في الْكَوْنِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ مَا يلي:

(١) **السَّمَاوَاتُ**: بِمَا فِيها مِنْ عَجَائِبَ، وَبِمَا لَهَا مِنْ أَبْعَادٍ لَا تَسْتَطِيعُ أَذْهَانُ النَّاسِ تَصَوُّرَها مَعَ أَنَّها حَقَائِق.

(٢) **الْأَرْض**: بِمَا فِيهَا مِنْ عَجائِبِ بحَارٍ وَجِبَالٍ، وأَنْهَارٍ، وَنَبَاتَاتٍ مُخْتَلِفَاتِ الأجْنَاسِ والْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ. وبِمَا فِيها من كُنُوزٍ وَفِيراتٍ وَنَافِعَاتٍ، وَخَصَائِصَ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا الَّذِي خَلَقَهَا وَأَتْقَنَ صُنْعَ كُلِّ شَيءٍ فِيها.

(٣) **النَّاسُ في الأرض**: وَخَلْقُهُمْ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم.

(٤) **مَا فِي الأرضِ من أَنْوَاعٍ وأَصْنَافِ الدَّوابّ الْعَجِيبَة**: وَمَا لَهَا مِنْ صِفَاتٍ وَخَصَائِص. وَهِي مُنْبَثَّةٌ فِي الأرْضِ بإتْقَانٍ عجيب.

(٥) **اخْتِلَافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ**: وَتَدَاوُلُهُما بِنِظَامٍ مُنْضَبِطٍ بَدِيعٍ، لَا يَسْتطيعُ تَحْقِيقَهُ إِلَّا خَالِقُ كُلِّ شيءٍ في الكَوْنِ، وَالْمُهَيْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

(٦) **مَا أَنْزَلَ اللهُ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْق**: غَيْثاً، وَضِياءً، وَحَرَارَةً، وَمِدَاداً لِلْأَرْضِ، تَنْبُتُ بِهَا الزُّرُوعُ والثِّمارِ وَسَائِرُ الْأَرْزَاقِ النَّافِعَةِ، الشَّامِلَةِ لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إليه فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

(٧) **تَصْرِيفُ الرِّيَاحِ**: عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَوَظَائِفِها المسَخَّرَةِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَتَدْبِيراتِهِ.

وَهَـٰذِهِ الآيَاتُ الرَّبَّانِيَّةُ فِي الكَوْنِ مُوَجَّهَاتٌ لِأَهْلِ ثَلَاثِ مَرَاتِبَ مِنَ النَّاس.

المرتَبَةُ الدُّنْيَا: مَنْ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا إيماناً مَقْبُولاً، دَلَّتْ عَلَيْهِمْ عبارَة: ﴿لَآيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْمَرْتَبَةُ الوسْطَىٰ: مَنْ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لَأَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ دَرَجَةِ الْيَقِينِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، دَلَّتْ عَلَيْهِمْ عِبارَة: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: **الْيَقِينُ**: الْعِلْمُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَهَذا أَعْلَىٰ مِنْ مُجَرَّدِ الإيمان.

المرْتَبَةُ الْعُلْيَا: مَنْ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يَعْقِلُوا حقَائِقَ الْأُمُورِ عَقْلاً دَقيقاً، وَلِأَنْ يَعْقِلُوا أهواءَهُمْ وَشَهَواتِهِمْ بإراداتٍ جَازِمَاتٍ، تَجْعَلُهُمْ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المستقيم، دَلَّ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ عبارة: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وَجَاء تَوْزِيعُ أَصْحَابِ هـٰذِهِ المراتب مُلَائِماً لِمَا ذُكِرَ قَبْلَ كُلٍّ مِنْهُمْ مِنْ آيات.

- فالَّذِينَ لَديهمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا إيماناً مَقْبُولاً عِنْدَ رَبّهم، يَكْفِيهِمُ النَّظَرُ إلَىٰ ظَوَاهِرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ. الآية (٣).
- والَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُوقِنُوا يَتفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ النَّاسِ، وفي خَلْقِ الأحْيَاءِ الْأُخْرَىٰ، الآية (٤).
- والَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأن يَعْقِلوا عَقْلاً عِلْميًا وَعَقْلاً إرَادِيًا، يَتفَكَّرُونَ في آيَاتِ اللهِ الَّتِي جَاءَ بَيَانُهَا في الآية (٥).

وَقَدْ سَبَقَ في نُصُوصٍ مُتَعَدِّدَةٍ شَرْحُ هَـٰذِهِ الآيَاتِ الَّتِي جاء بَيَانُهَا في هـٰذَا النّصّ (الآيَات من ٣ ـ ٥).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ بِشَأْنِ الكافِرِينَ بعِنَادٍ.

● ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾:

هَـٰذِهِ الآيَاتُ تَصِفُ حَالَ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْقُرْآن الَّذِي تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتٌ مِنْهُ، إِذْ يُقَابِلُونَهُ بِالْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِأَنَّهُ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِن عِنْدِ الله، وَيَزْعُمُونَ بِشَأْنِهِ مَزَاعِمَ كَوَاذِبَ يَفْتَرُونَهَا اخْتِلاقاً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم، ومِنْهَا قولُهم: «هو شِعْرٌ ـ هُو سِحْرٌ ـ هُوَ مِنْ تأْلِيفِ محمد وأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُون ـ هو أَسَاطِيرُ الْأَوَّلين ـ هو كلامٌ تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِين» إلى غَير هَـٰذِهِ مِنْ أكَاذِيبَ إِفْكِيَّة يَخْتَلِقُونَهَا اخْتِلاقاً.

إِنَّهُمْ يَسْمَعُونَ آيَاتِ كِتَابِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ، وَيَفْهَمُونَ دَلَالَاتِها، وَيَسْتَيقِنُونَ أَنَّهَا حَقٌّ مُنَزَّلَةٌ مِن عِنْدِ اللهِ، ثُمَّ يُصِرُّون عَلَىٰ كُفْرِهِمْ بها، مُسْتَكْبِرِينَ عَنِ الْإِيمانِ بالرَّسُولِ واتِّبَاعِهِ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوها، وحِينَ يَعْلَمُونَ مِنْ آياتِ اللهِ مَا فِيهِ وَعِيدٌ لَهُمْ بِعَذَاب أَلِيم، أو مَا فِيهِ بَيَانُ فَسَادِ شِرْكِهِمْ، وَأَنَّهُمْ ضَالُّونَ فِي عَقَائِدِهِمْ، وأَنْوَاعِ سُلُوكِهِم الَّتِي هُمْ فِيها طُغَاةٌ بُغَاةٌ أَثِيمُونَ، اسْتَهْزَؤُوا بِهَا وَسَخِرُوا مِنْهَا، لِتَغْطِيَةِ بَصَائِرِ أَتْبَاعِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَقِّ الْمُنَزَّلِ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِين.

فَاسْتَحَقُّوا تَكْرِيرَ إِنْذَارِهِمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ مُهِينٍ عَظِيم، قَدْ أُعِدَّ لَهُم، فَمِنْهُ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ فِي الدُّنْيا، وَمِنْهُ مَا يَنْغَمِسُونَ فِيهِ فِي الآخِرَةِ يَوْمَ الدِّين.

● ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾:

يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ بِهَـٰذِهِ الْعِبَارَة، والمقصودُ بِها إِسْمَاعُ

أئِمَّةِ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ فِي مكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ، فَهُمُ المعانِدُونَ الْمُصِرُّونَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، والدَّاعُونَ له بيْنَ أتْبَاعِهِمْ.

نُزِّلَتِ الآيَاتُ الْقَرِيبَةُ المتْلُوَّةُ مَنْزِلَةَ الْبَعِيدَةِ، فجاءت الإشارة إلَيْهَا بعبارَة: ﴿تِلْكَ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ سُمُوِّها وارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهَا بَيَاناً، وَمَعَاني، وَبَلَاغَةً، وَإِعْجَازاً.

• ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: أيْ: آيَاتُ كِتَابِ اللهِ المنَزَّلِ مِنْ لَدُنْهُ مَعَ مُلَاحَظَةِ أَنَّهُ الْعَزِيزُ الحَكيم، كما جاء في الآية (٢).

• ﴿نَتْلُوهَا﴾: أي: نَجْعَلُ بِأَمْرِنَا جِبْرِيلَ أَمِينَ الْوَحْيِ يُتَابِعُ تَلْقِينَكَ إيَّاهَا، كَمَا أَنزلْنَاها، حَرْفاً فَحَرْفاً، وَكَلِمَةً فَكَلِمَة، وَجُمْلَةً فَجُمْلَةً، وآيَةً فَآيَة.

التِّلَاوَةُ: تَتَبُّعُ المنْطُوقِ مِنَ الْقَوْلِ الْمُعَيَّنِ دُونَ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ وَلَا تَغْيِيرٍ، فإذَا كَانَ هَـٰذَا التَّتَبُّعُ مِنْ مَكْتُوب فَهِيَ قِرَاءة.

• ﴿عَلَيْكَ﴾ أيْ: نَتْلُوهَا عَلَىٰ سَمْعِكَ لِتَحْفَظَهَا فَلَا تَنْسَاهَا، وَلِتُبَلِّغَهَا لِلنَّاسِ كَمَا تَلَقَّيْتَهَا عَنْ طَرِيق أمين الوحْي جِبْرِيل، فَأَنْتَ تَتْلُوهَا عَلَىٰ النَّاسِ تَبْلِيغاً عَنْ رَبِّكَ، وَلَيْسَ لَكَ فيها شَيْءٌ إلَّا التَّبْلِيغُ كَمَا أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ.

• ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي: نَتْلُوهَا عَلَيْكَ حَالَة كَوْنِهَا مُتَّصِفَةً بالْحَق.

الْحَقُّ: هُوَ الشَّيْءُ الثَّابِتُ، فالْعِلْمُ الحقُّ هُوَ المُطَابِقُ لِلْوَاقِعِ، والْخَبَرُ الْحَقُّ هو الْمُطَابِقُ لِوَاقِعِ مَا أُخْبِرَ بِهِ عَنْهُ، وَالتَّكْلِيفُ الْحَقُّ هُوَ المطابِقُ لِمُرَادِ اللهِ فِيهِ، وَهُوَ أَحْسَنُ اخْتِيَارٍ يُكَلِّفُهُ اللهُ عِبَادَهُ بأوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَالْحُكْمُ الْحَقُّ هُو الْمُطَابِقُ لِحَقِّ المحْكُوم عَلَيْهِ أَوْ لَهُ، والنُّصْحُ الْحَقُّ هُوَ الْمُطَابِقُ لِحَقِّ المنْصُوحِ عَلَىٰ النَّاصِحِ، أَنْ يَدُلَّهُ عَلَىٰ أَفْضَلِ مَا يَجْلُبُ لَهُ نَفْعاً وَيَدْفَعُ ضُرًّا.

• ﴿... فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾:

إنَّ أَفْضَلَ بَيَانٍ مُؤَثِّرٍ في مَدْعُوٍّ إِلَىٰ شَيْءٍ مَا كان حَدِيثاً، وَلِهٰذَا اخْتَارَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ بَيَانُهُ فِي كِتَابِهِ لِلنَّاسِ عَلَىٰ مِنْهَاجِ الْحَدِيثِ الهادِئِ، إِقْنَاعاً، وَتَرْغِيباً، وَتَرْهِيباً، وجِدَالاً بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن.

ولَمَّا كَانَ كِتَابُ اللهِ القرآنُ أَسْمَىٰ حَدِيثٍ مُعْجِزٍ يُؤَثِّرُ فِي العُقُولِ والنُّفُوسِ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهَا، وَكَانَ المطْلُوبُ مِنَ الْمَدْعُوِّينَ أَنْ يُؤْمِنُوا بالْغَيْبِ بِالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّة، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ طَرْحُ السُّؤَالِ التَّالِي:

إذا لَمْ يُؤْمِنْ أئِمَةُ الكُفْرِ، بِحَدِيثٍ صَادِرٍ عَنِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِي آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ مُعْجِزَاتٍ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ يَصْدُرُ عَنْ غَيْرِ اللهِ في أَقْوَالٍ لَا إِعْجَازَ فِيهَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ الَّذِي يُدْعَوْنَ إِلَىٰ الإيمان بِهِ؟!!!

سُؤَالٌ لَيْسَ لَهُ إِلَّا جوابٌ وَاحِدٌ، وهو: إِنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مُتَأَثِّرِينَ بِأَيِّ حَدِيثٍ، لِأَنَّهُمْ مُكَابِرُونَ مُعَانِدُون، يَعْرِفُونَ الْحَقَّ ويَرْفُضُونَ الْإِيمانَ بِهِ، وَاتِّبَاعَ مَا يَدْعُوهم إِلَيْهِ هٰذَا الإيمان، إِذْ هُمْ عُبَّادُ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِ نُفُوسِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

• ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

«**وَيْلٌ**» كَلِمَةُ عَذَابٍ، وجاء في حَدِيثٍ لَمْ يَصِلْ إلى دَرَجَةِ الصحيح عند أَهْلِ الحديث أَنَّهُ وَادٍ في جَهَنَّم.

• «**أَفَّاك**»: أي: كثير الإفْكِ، وهُوَ الكَذِب، وَكَثِيرُ التَّأْفِيك، وهُوَ التَّكْذِيبُ بِالْحَقّ، وكثيرُ الضَّلال والإضْلالِ، ولفظ «أَفَّاك» صِيغَةُ مُبالَغَةٍ لاسْمِ الْفَاعِلِ «آفِك».

• «أَثِيم»: أي: مُسْرِفٌ غَالٍ فِي ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ من الكبائر، ويَخْتَصُّ بالْكَافِرِ الْفَاجر.

إنَّ كُلَّ وَاحِدٍ لَا تُؤَثِّرُ فِي جَذْبِهِ إِلَىٰ الإيمانِ بالحقِّ الرَّبَّانِيّ، آيَاتُ اللهِ الَّتِي تُتْلَىٰ عَلَيْهِ، عَلَىٰ الرُّغم مِنْ كَوْنِها حَدِيثاً مُعْجزاً، لِأَنَّهُ مُكَابِرٌ مُعَانِدٌ جَاحِدٌ، لَا يَلِيقُ بِهِ إِلَّا أَنْ يُقَالَ بِشَأْنِهِ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾ أي: عَذَابٌ شَدِيدٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ أَفَّاكٍ أثِيم مِثْلِهِ.

جَاءَتِ العبارةُ عَامَّةً، وَالمُعَالَجُونَ فِي السُّورَةِ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ النَّصّ حَتْماً.

وَجَاءَ وَصْفُ الْأَفَّاكِ الْأَثِيمِ بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ حَالٍ مِنْ أحواله بما يلي:

• ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾:

أَيْ: يَسْمَعُ بَعْضَ آيَاتِ اللهِ مِنْ كِتَابِهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ مِنْ أَحَدِ حَمَلَةِ رِسَالَةِ دَعْوَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، فَيَتَفَهَّمُهَا وَيَعْلَمُ أَنَّ مَا جَاءَ فيها حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ يَتَصَارَعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْوَائِهِ وَمَطَالِبِ نَفْسِهِ مِنْ دُنْياه، فَيُؤْثِرُ الْعَاجِلَةَ عَلَىٰ الآجِلَةِ، فَيُصِرُّ عَلَىٰ بَاطِلِهِ الَّذِي هُو عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ الْبَغْي والظُّلْمِ والْفُجُورِ وَسَائِرِ الآثَام الَّتِي يَرْتَكِبُهَا مُتَلَذِّذاً بها، حَالَةَ كَوْنِهِ مُسْتَكْبِراً عَنِ الإيمانِ بالرَّسُولِ واتِّبَاعِهِ، وَمُتَعَالِياً بِمَرْكَزِهِ الاجْتِمَاعِي الَّذِي يَحْتَلُّهُ وَيَتَفَاخَرُ فِيهِ، بَيْنَ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِ، وَيُدْبِرُ عَنِ الْحَقِّ وَعَنْ دَاعِي الْحَقِّ، وَيَنْأَىٰ مُبْتعداً كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا.

فَبَشِّرْهُ أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ، تَبْلِيغاً عَنْ رَبِّكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بِعَذَابٍ أَلِيمٍ سَوْفَ يَلْقَاهُ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ مَا قَدْ يَنْزِلُ بِهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ في الدُّنْيا.

الإِصْرَارُ عَلَىٰ الْأَمْرِ: الثَّبَاتُ عَلَيْهِ وَلُزُومُهُ، وأكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ في لُزُومِ الْقَبَائِحِ والْآثَامِ والثَّبَاتِ عَلَىٰ مُمَارَسَتِها، واعْتِقَادِ الْبَاطِلِ وَالْمُعَانَدَةِ فِي اعْتِنَاقِهِ والدِّفاعِ عَنْه وَزَعْمِ أَنَّهُ حَقٌّ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ بَاطِلٌ وفَاسِدٌ وشَرٌّ.

أَصْلُ التَّبْشِير: الإخْبَارُ بِمَا يَسُرُّ ويُفْرِحْ، وَيُسْتَعْمَلُ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّهَكُّم فِي الْإِخْبَارِ بِمَا يَسُوءُ مِنْ مَكْرُوهٍ مع قَرِينَةٍ صَارِفَةٍ، كالتَّبْشِيرِ بِالْعَذَاب الْأَلِيم.

الْأَلِيم: أي: المؤلِم «فَعِيل» بمَعْنَىٰ «مُفْعل».

وَجَاءَ وَصْفُ الْأَفَّاكِ الْأَثِيم بالنِّسْبَةِ إلى حَالٍ أخرى مِن أحْواله بما يلي:

- ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ... ⑨﴾:

أي: وإذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِ اللهِ الرَّبِّ الجليلِ العظيم شَيْئاً يَسُوؤُهُ، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بذَمِّ شِرْكِيَّاتِهِ، وتَقْبِيحِ مَا يمُارِسُهُ مِنْ فُجُورٍ وقبائِح وشُرُور اتَّخَذَهَا هُزواً.

«الْهُزْءُ»: السُّخْرية. وهو مَصْدَرُ فعل «هَزَأَ» يُقَالُ لُغَةً: «هَزَأَ بِهِ، وهَزَأَ مِنْهُ، هُزْءاً، وهُزُؤاً، ومَهْزَأَةً» أي: سَخِرَ مِنْهُ، وَسَخِرَ بِهِ.

أُطْلِقَ الْمَصْدرَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْمَهْزُوءِ بِهِ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ بَعْضَ آيَاتِ اللهِ الْحَقّ، عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ، أَيْ: بَالَغَ في هُزْئِهِ حَتَّىٰ جعَلَ مَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِمَّا يُخَالِفُ هَوَاهُ، ويُخَالِفُ تَحْقِيقَ شَهَوَاتِهِ عَيْنَ الْهُزْءِ، ومِثْلُ هٰذَا الإطْلَاقِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّين، ومِنْهُ رَجُلٌ عَدْلٌ، وامْرَأَةٌ عَاطِفَة.

ونَفْهَمُ أَنَّهُ يَلْجأُ إِلَىٰ الاسْتِهْزَاءِ بما عَلِمَ مِنْ آيَاتِ اللهِ، ممَّا يخالِفُ أَهْوَاءَهُ وَرَغَبَاتِهِ مِنْ دُنْيَاه، لِأَنَّهُ وَجَدَهَا حَقًّا، وَلَا يَمْلِكُ حُجَّةً يَخْدَعُ أَتْبَاعَهُ وأَنْصَارَهُ بها، لِيُوهِمَهُمْ أَنَّ مَا جَاءَ في آيات اللهِ بَاطِلٌ، فَيُغَطِّي هَزِيمَتَهُ الْفِكْرِيَّةَ بِوَسِيلَةِ الاسْتِهْزَاءِ المبالَغ بها، وَيُغَشِّي عَلَىٰ بَصَائِرِ أَتْبَاعِهِ وأَنْصَارِهِ بِحَرَكَاتِ الاسْتِهْزَاءِ، حتَّىٰ لَا يُفَكِّرُوا بِمَا جَاءَ في آيَاتِ كِتَاب، ثِقَةً بِرَأْي قائِدِهِمْ وَزَعِيمِهِمْ فيها، وأَنَّها لَا تَسْتَحِقُّ إِلَّا أَنْ يُهْزَأَ بها.

بَعْدَ هـٰذَا كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيّ تَوْجِيهُ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ لِهـٰذَا الْفَرِيقِ مِنَ النَّاسِ، وهـٰذَا الْوَعِيدُ مُوجَّهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُبَاشَرَةً، دُونَ تَكْلِيفِ دَاعٍ إِلَىٰ الله أَنْ يُخْبِرَهُ بِهِ بَلَاغاً عَنِ اللهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْجِيهَ الْمُبَاشِرَ مِنَ اللهِ أَشَدُّ وَأَكْثَرُ تَرْهِيباً، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

● ﴿... أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾:

أي: أولَئِكَ الْأَفَّاكُونَ الأثيمون الْبُعَداءُ المتَسَفِّلونَ إلىٰ جِهَةِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّار، أُعِدَّ وَدُبِّرَ لَهُمْ، بِتَقْدِيرنَا وَقَضَائِنَا وَحُكْمِنَا عليهم، عَذَابَان، أَحَدُهُمَا مُعَجَّلٌ فِي الدُّنيا وَعِنْدَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الموتِ إلَىٰ حِين البَعْثِ، والآخَرُ مِنْهُمَا مُؤَجَّلٌ إلَىٰ يَوْمِ القيامَةِ، يَوْمِ الدِّين، يَوْمِ الْجَزَاءِ الْأَكْبَر.

أَمَّا الْعَذَابُ الأَوّل: فَهُوَ عَذَابٌ مُهِينٌ في الدُّنْيَا، ويُلْحَقُ بِهِ مَا يُلاقُونَ مِنْ عَذَابٍ عِنْدَ الْمَوْتِ وَبَعْدَ الْمَوْتِ لِنُفُوسِهِم، دَلَّ عَلَىٰ هـٰذَا: ﴿... أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾ أي: عَذَابٌ مُذِلٌّ مُخزٍ لَهُمْ فِيهِ إِهَانَةٌ، وهـٰذَا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ مَا سَيَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ هَزَائِمَ وَجِرَاحَاتٍ وَقَتْلٍ، بِأَيْدِي فِئَةٍ قَلِيلَةٍ مِمَّنْ كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ، مِنْ ضُعَفَاءِ المؤمنين، ويَنْطَبِقُ على الْعَذَاب الَّذِي يَكُونُ عِنْدَ الموت، إِذْ تَضْرِبُ مَلَائِكَةُ التَّعْذِيب وجُوهَهُمْ وأَدْبَارَهُمْ، مَعَ مَا يَكُونُ لَهُمْ مِنْ عَذَابٍ لِنُفُوسِهِمْ مُدَّةَ الْبَرْزَخ.

وأَمَّا الْعَذَابُ الْآخَرُ: فَهُوَ مَا سَوْفَ يَكُونُ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ الْحَرِيق فِي نَارِ جَهَنم وَأَنْوَاعِ عَذَابٍ أُخَرَىٰ فيها، دَلَّ عَلَىٰ هـٰذَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ﴾ أي: مِنْ وَرَائِهِمْ عَذَابُ جهَنَّمَ، الشَّامِلُ لِكُلّ مَا فِيها مِنْ أَنْوَاعِ تَعْذِيبٍ غَيْرِ الْحَرِيقِ.

عبارَةُ «مِنْ وَرَائِهِمْ» ونَحْوها اسْتُعْمِلَتْ فِي القرآن للدَّلَالَةِ على

المُسْتَقْبل، لِأَنَّ المسْتَقْبَلَ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ النَّاسِ وغَيْرُ مَشْهُودٍ لَهُمْ، فَهُوَ وَراءَهُمْ، إذْ هُمْ يَجْلِسُونَ فِي عَرَبَةِ حَيَاتِهِم وَوُجُوهُهُمْ مُتَّجِهَةٌ إِلَىٰ مَا مَضَىٰ مِنَ الطَّرِيق لَا إِلَىٰ مَا سَيَقْطَعُونَهُ مِنْهُ.

وبَعْدَ هٰذَا الوعيد المشْتَمِل عَلَىٰ الْعَذَابَيْنِ اللَّذَيْنِ سَبَقَ شَرْحُهما، قال اللهُ تَعَالَىٰ بِشَأْنِهم تَيْئِيساً لَهُمْ مِنَ الْخَلاصِ مِنَ الْعَذَابِ العظيم، الَّذي سَوْفَ يُلاقُونَهُ يَوْمَ الدِّينِ، جَزَاءَ كُفْرِهِمْ، وَجُحُودِهِمْ، وَمُكَابَرَتِهِم، واسْتِهْزَائِهم بآيَاتِ رَبِّهم:

• ﴿... وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾:

• ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم﴾: أي: وَلَا يَكُفُّ وَلَا يَصْرِفُ عَنْهُم.

• ﴿مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾: أي: مَا كَسَبُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَمْوَالٍ وأَنْصَارٍ وَجَاهٍ وسُلْطَانٍ وغَيْرِ ذَلِكَ.

والمعنى: وَلَا يَكُفُّ وَلَا يَصْرِفُ عَنْهُمْ شَيْئاً مِنْ عَذَابِ الله الْمُعَدِّ لَهُمْ، والمقْضِيِّ عَلَيْهِمْ بِهِ شَيْئاً.

• ﴿... وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾: أي: وَلَا يَكُفُّ وَلَا يَصْرِفُ عَنْهُمْ أيضاً شَيْئاً مِنْ عَذَاب اللهِ الْمُعَدِّ لَهُمْ، والمقْضِيِّ بِهِ عَلَيْهِمْ، أَوْلِيَاؤُهُمُ الَّذِينَ عَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، أَوْ أَطَاعُوهُمْ واتَّبَعُوهم ونَصَرُوهم واسْتَنْصَرُوا بِهِم، واتَّخَذُوهُمْ أَرْبَاباً وآلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ افْتِرَاءً عَلَىٰ الله، لِأَنَّهُم لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ عِنْدَ اللهِ شيئاً، إِذِ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ يَوْمَئِذٍ لله وَحْدَهُ، فَقَدِ انْتَهَتْ حَيَاةُ الابْتِلَاءِ والتَّمْكِينِ، وَجَاءَتْ حَيَاةُ الْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، وسَلْبِ التَّمْكِينِ مِنْ أَيِّ تَصَرُّفٍ إِلَّا بأَمْرٍ مِن اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، والْمَلَائِكَةُ لَا يَفْعَلُونَ شَيْئاً إِلَّا بأَمْرِ اللهِ وتَمْكِينِهِ، حتَّىٰ الشَّفاعَة لَا تَكُونُ إِلَّا بإِذْنِهِ، وهِيَ مُجَرَّد دُعاءٍ لَا يَمْلِكُ مَعَهَا الشَّافِعُ المأذونُ لَهُ بأَنْ يَشْفَعَ إِلَّا أَنْ يَدْعُو الله مُتَضَرِّعاً.

• ﴿... وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾: أي: ولَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ في جَهَنَّمَ عَذَابٌ عظيم، لِأَنَّهُمْ جَحَدُوا الحقَّ ومَاتُوا وهُمْ جَاحِدُونَ لَه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِكُلِّ صَالِحٍ لِلْخِطاب:

• ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

• ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ ...﴾: المشَارُ إلَيْهِ باسْمِ الإشارَة «هذا» القرآنُ الَّذِي جَاءَ في صَدْرِ السُّورَةِ بعُنْوَانِ: «الْكِتَابِ» في قول اللهِ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

«هُدىً» مَصْدَرٌ لِفِعْل: «هَداهُ، يَهْدِيهِ، هُدىً، وَهَدْياً، وَهِدَايَةً، وهِدْيَةً» أي: بَيَّنَ لَهُ وَأَرْشَدَهُ.

جَاءَ وَصْفُ القرآنِ بأَنَّهُ هُدىً عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَة بالْوَصْفِ بالمصْدرِ، إذْ كُلُّ مَا فِيهِ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ هِدَايَةٍ، فَهُوَ بِمَثَابَةِ عَيْنِ الْهُدَىٰ.

وَحَسْبُ القرآنِ هٰذَا الْوَصْفُ العظِيمُ، بَعْدَ بَيَانِ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الحكيم، وَبَيَانِ أَنَّ جَمِيعَ مَا فِيهِ حَقٌّ.

• ﴿... وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ...﴾ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بأَنَّها آيَاتُ رَبِّهِمْ، وآيَاتُ اللهِ لَا تَكُونُ إلَّا حَقّاً وَصِدْقاً وَهُدَىٰ ﴿... لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾: أي: لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مِنْ صِنْفِ الرِّجْز.

الرِّجْزُ: كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ أَسْبَابُ تَعْذِيبِ الْمُعَذَّبِينَ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ التَّكْوِيني، فَالطَّاعُونَ قد ثَبَتَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، أَنَّهُ رِجْزٌ عَذَّبَ اللهُ بِهِ أُمَماً كَافِرَةً قَبْلَ بعْثَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَالْوَبَائيَّاتُ الكُبْرَى الشَّامِلَةُ رِجْزٌ، وَالإيْدْزُ فِي عَصْرِنَا رِجْزٌ. والْهَيْضَةُ رِجْزٌ، ومَا سَبَّبَ لِلْمِصْرِيينَ عَذَاباً كَبِيراً فِي عَهْدِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَدَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ رِجْزٌ، وَهَكَذَا.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الأوّل من دُرُوس سورة (الجاثية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنِّهِ، وَفَتْحِهِ.

(٦)
التدبّر التحليلي للدّرسِ الثاني مِنْ دُروس سُورَةِ (الجاثية) الآيتان (١٢ و١٣)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

تَمْهيد:

في آيتي هـٰذَا الدَّرس تَذْكِيرٌ بِبَعْضِ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ في كَوْنِهِ، وهي تَشْتَمِلُ على آياتٍ تَدْعُوهُمْ إِلى الإيمان باللهِ، وشُكْرِه عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِم.

التدبّر التحليلي:

إنَّ مِنَّةَ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ بِتَسْخِير الْبَحْرِ لَهُمْ، جَاءَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهَا لِأَوّل مَرَّةٍ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ، هُنَا فِي الآية (١٢) مِنْ هـٰذَا الدَّرْس.

أَمّا مِنَّةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ على النَّاس بِتَسْخِير مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ جَاءَ فِي الآية (٢٠) من سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول) ولَكِنْ جَاء هُنَا في الآية (١٣) إضَافَةُ: ﴿... جَمِيعًا مِّنْهُ ...﴾.

التَّسْخِيرُ: التَّذْلِيلُ لِعَمَل مَا، أَوْ أَمْرٍ مَا، وجَعْلُ المسَخَّرِ مُطَاوِعاً لما يُرَادُ بِهِ ضِمْنَ قَانُونِ تَسْخِيرِهِ، والمطاوعَةُ هَـٰذِهِ قَدْ تَكُونُ بالطَّبْعِ، كتَسْخِير الأَشْيَاء غَيْرِ ذَاتِ الحياةِ، وَقَدْ تَكُونُ بالْقُوَّةِ مَعَ التَّذْلِيل، كتَسْخِير الْعَجْماواتِ، وقَدْ تَكُونُ بالاختيار الْحُرّ لِمَا فِي المطاوعَةِ مِنْ مَصْلَحَةٍ لِلْمُطَاوِعِ، كَتَسخِير النَّاسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ في الأَعْمَالِ والصِّناعات.

وَتَسْخِيرُ الْبَحْرِ جَعْلُه بِالطَّبِيعَةِ الَّتِي فَطَرَهُ اللهُ عَلَيْهَا، سَائِلاً صالحاً لطَفْو الْفُلْكِ والسُّفُنِ عَلَيْه، وَجَرْيِها فِيهِ، مُنْتَقِلَةً مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ، حتَّىٰ تَجْتَاز عَلَىٰ ظَهْرِهِ مَسافَاتٍ شَاسِعَاتٍ، عَلَىٰ مِقْدَارِ عِظم الْبَحْرِ مِنْ شَاطِئ إلى شَاطِئٍ آخَرَ بَيْنَ الشَّرقِ والْغَرْب، والشَّمَالِ والجنوب.

وجَرَيَانُ الْفُلْكِ في الْبَحْرِ يَكُونُ بأمْرِ اللهِ التَّكْوِينِيِّ الَّذِي يُسَيِّرُهَا، كَمَا يُسَيِّرُ - جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ - كُلَّ شَيْءٍ يَسِيرُ فِي كَوْنِ اللهِ الكَبِير، ومِنْ تَسْيِيرِه تَسْيِيرُ النَّاسِ في البرّ والْبَحْر، وهُوَ مَا امْتَنَّ اللهُ بِهِ على الناس في سورة (يُونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) بِقَوْله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ... ﴿٢٢﴾﴾.

وجاء في الآية (١٢) من هذا الدَّرْس بَيَانُ ثَلَاثِ حِكَمٍ مِنْ حِكَمِ اللهِ الْجَلِيلَة في تَصَارِيفِهِ لِكَوْنِه، وتَسْخِيره الْبَحْرَ للنَّاسِ الَّذِين وَاجَهَهُم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالْخِطَاب:

الْحِكْمَةُ الأُولَىٰ: [لِتَجْرِي الْفَلَك بِأَمْرِهِ] إنْعَاماً مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ النَّاس، إِذْ يُرِيدُونَ الانْتِقَالَ عَلَىٰ مَرَاكِبِ الْبَحْرِ لقضاءِ مَصَالِحَ لَهُمْ، وَلِرَفَاهِيَتِهِمْ وَمَتَاعَاتِهِمْ مِنْ دُنْيَاهُمْ.

الْفُلْك: مَرْكَبُ الْبَحْر، يُطْلَقُ على الواحد، والاثنين، والجمع، ويُذَكَّرُ ويُؤَنَّث، فيقال: هُو الْفُلْك، وهِي الْفُلْك.

وعِبَارَةُ: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ يُفْهَمُ مِنْهَا أَمْرُهُ التَّكْوِينيُّ المتابع لِكُلِّ تَغْيِيرٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعَ أَصْغَرِ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّة.

الْحِكْمَةُ الثَّانِيَة: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أي: ولتَطْلُبُوا أَرْزَاقَكُم، وَمَصَالِحَ حَيَاتِكُم المخْتلفَة، مِنْ فَضْلِ اللهِ، باسْتِخْدَامِ أَسْبَابِهَا المتَاحَةِ لَكُمْ ضِمْنَ أنظِمَةِ اللهِ السَّبَبِيَّةِ فِي كَوْنِه.

يُقَالُ لغةً: «ابْتَغَىٰ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أي: طَلَبَه.

الْفَضْلُ: الإحْسَانُ ابْتِدَاءً، دون مُقَابل، ودُون رَجَاءِ مُكَافَأَةٍ أَوْ شُكْر.

الْحِكْمَةُ الثالِثَة: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي: وِلِتَعْرِيفكُمْ بِبَعْضِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكُمْ، رَغْبَةً فِي أَنْ تَشْكُرُوا اللهَ بالْإِيمانِ، والْعَمَلِ بِمَرَاضِيهِ، وحَمْدِهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، لِيَجْزِيَكُمْ جَزَاءً خَالِداً أَبَدِيًّا فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، تكُونُونَ بِهِ مُنَعَّمِينَ سُعَدَاءَ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً للنَّاسِ:

● ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ... ﴿١٣﴾﴾:

في هٰذَا البيانِ امْتِنَانٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ على الناس، وتَوْجِيهٌ لَهُمْ:

ـ **أَمَّا الامْتِنَانُ**: فَوَاضِحٌ مِنْ ظَاهِرِ الْعِبارَة، إِذْ جَعَلَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ السَّمَاوَاتِ بِتَرْكِيبِهَا الْعَامِّ، وَنِظَامِ تَكْوِينها مَعَ الْأَرْضِ، مُسَخَّرَاتٍ تَسْخِيراً مُتَرابِطَ الْوَحَدَاتِ، مِنْ أَصْغَرِ الذَّرَّاتِ حَتَّىٰ أَكْبَرِ الْمَجَرَّاتِ، لِيَقْضِي الْمَوْضُوعُونَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ عَلَىٰ أَحْسَنِ وَجْهٍ يَتَحَقَّقُ بِهِ الامْتِحَانُ الْأَمْثَل.

ـ **وأَمَّا التَّوْجِيهُ**: فَتَدُلُّ عَلَيْهِ فِكْرَةُ التَّسْخِيرِ، إِذْ مُعْظَمُ المسَخَّراتِ أو جَمِيعُها لَا بُدَّ مِنَ التَّقَيُّدِ بِقَوانِينِ تَسْخِيرها، واسْتِخْدَامِ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَنْظِمَةِ كَوْنِهِ أَسْبَاباً يُحَقِّقُ مِنْ قَنَوَاتِهَا مَا هِيَ مُسَخَّرَةٌ لَهُ.

أَيْ: فابْحَثُوا فِي الكَوْنِ لِتَعْرِفُوا أَسْبَابَ انْتِفَاعِكُمْ مِنْ جَمِيعِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْض، ولِتَسْتَخْدِمُوهَا فِي تَحْقِيقِ مَطَالِبِكُمْ، وهِيَ مِنَ المُفْرَدَاتِ الكَثِيراتِ جِدًّا لامْتِحَانِكُمْ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا.

والمعْنَىٰ: أَنْتُمْ مُمَكَّنُونَ مِنَ التَّوَصُّلِ إلى الأسْبَابِ الَّتِي إِذَا اسْتَخْدَمْتُموها حَقَّقْتُمْ مَا سَخَّرَ اللهُ لَكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ.

وَجَاءَتْ كَلِمَةُ ﴿جَمِيعًا﴾ دَالَّة عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، خَاضِعٌ لِقَانُونِ التَّسْخِير الرَّبَّانِيِّ للنَّاسِ، ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللهِ السَّبَبِيَّة، الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَتَوَصَّلُوا إِلَيْها بِالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ وبالتجارب المتَكَرِّرَة.

وجَاءَت عِبَارَة: ﴿مِنْهُ﴾ دَالَّةً عَلَىٰ أَنَّ هٰذَا التَّسْخِيرَ تَكْرِيمٌ مِنَ اللهِ للنَّاسِ، بَنِي آدَمَ الَّذِي فَضَّلَهُ اللهُ وَذُرِّيَّتَهُ بِعِلْمٍ لَمْ يُعْطِهِ لِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ خَلَقَ مِنْ كَائِنَاتٍ ذَوَاتِ إِمْكَانَاتٍ عِلْمِيَّة.

■ وَخَتَمَ اللهُ هٰذَا الدَّرْس بِقَوْله تَعَالَىٰ:

● ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

أي: إِنَّ فِي تَسْخِيرِ الْبَحْرِ، وَتَسْخِير جَمِيعِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، مِنَ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ للنَّاسِ، لَعَلَامَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَاتِ، وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، وَعَلَىٰ نِعَمِهِ الكَثِيرةِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَعَلىٰ أَنَّهُمْ مَوْضُوعُونَ فِي الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الابْتِلاء.

ولَكِنَّ الَّذِينَ يُدْرِكُونَ دَلَالَات هٰذِهِ الْآيَاتِ، هُمُ الْقَوْمُ الَّذِينَ يَسْتَخْدِمُونَ مَا وَهَبَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ قُدْرَاتِ تَفْكِيرٍ فِي التَّفَكُّرِ فِيمَا خَلَقَ فِي كَوْنِهِ، وَوَاقع أحوال النَّاسِ يَكْشِفُ أَنَّهَا مُخْتَصَّةٌ بهِمْ، فاللَّامُ فِي ﴿لِقَوْمٍ﴾ هي لَامُ الاخْتِصَاصِ بالنَّظَرِ إِلَىٰ الواقِعِ الْبَشَرِي.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (الجاثية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبر التلحيلي للدّرسِ الثالث من دُروس سورة (الجاثية) الآيتان (١٤ و١٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ خِطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

القراءات:

(١٤) • قرأ ابْنُ عَامِرٍ، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: **[لِنَجْزِيَ قَوْماً]** بنُونِ المتكلِّم العظيم.

وقرأها أبو جَعْفَر: **[لِيُجْزَىٰ قَوْماً]** بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه، مع نَصْب «قَوْماً» أي: لِيُجْزَىٰ جَزَاءُ اللهِ قَوْماً. يقال لغة: «جَزَىٰ فُلَاناً حَقَّهُ» أي: قضاه.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لِيَجْزِيَ قَوْماً]** أي: لِيَجْزِي الله قوماً.

(١٥) • قرأ يَعْقُوبُ: **[تَرْجِعُونَ]** بالبناء للمعلوم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة **[تُرْجَعُونَ]** بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ بَيَاني، أي: يُرْجِعُهُمُ الله فَهُمْ يَرْجِعُونَ بالْجَبْرِ.

تَمْهيد:

في آيَتَي هـٰذَا الدَّرْس تَعْلِيمٌ مِن الله عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، أَنْ يُرْشِدَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ فَضِيلَةِ أَنْ يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالجزاء الرَّبَّانِيّ إِيذَاءاتِهِمْ، فَفَضَائِلُ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِ ومِنْهَا المغفرة، جُزْءٌ مِنَ الدَّعْوَةِ الْمُجْدِيَةِ

المؤثِّرَة، في جَذْب الْكَافِرِينَ إلَىٰ الإيمان والإسلام، وأنْ يُبيِّنَ لهم ثوابَ اللهِ الْعَظِيمَ الَّذِي أَعَدَّهُ للدُّعَاةِ الصَّابِرِين الَّذِينَ يَغْفِرُونَ وَيَتَجَاوَزُونَ عن إساءَة مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ.

رُوِيَتْ أخْبَارٌ في أَسْبَابِ نزولِ الآيـة (١٤) وهي أخبـارٌ ضعِيفَـة الأَسَانِيد، لَمْ أَرَ من الحِكْمَةِ ذِكْرَهَا، لِأَنَّ فِي الآيَةِ مَا يَدُلُّ على وجُودِ حَدَثٍ أَوْ أَكْثَرَ، وانْدِفَاعَاتِ انْتِقَامٍ في صُدُورِ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ، في هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي نزلَتْ فيها السُّورَة، مِنَ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْذُونَهُمْ أَذىً شَدِيداً أَوْ يَضْطَّهِدُونَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فأمَر اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُول لِلَّذِينَ آمَنُوا بأمْرٍ إرْشَادِيٍّ أَنْ يَغْفِرُوا لِلْكَافِرِينَ إسَاءَاتِهِمْ وَيَسْتُرُوها، وَلَا يُقَابِلُوهُمْ عَلَيْهَا بانْتِقَامٍ أَوْ شَتَائِمَ أَوْ تَشْهِيرٍ إعْلَامِيّ، لِأَنَّ الْمَرْحَلَةَ مَرْحَلَةُ كَفٍّ لِلْأَيْدِي، وَكَفٍّ لِلْأَلْسِنَةِ عَنِ الشَّتَائِمِ الشَّخْصِيَّة، واهْتِمَام بالدَّعْوَةِ إلَىٰ اللهِ، وصِرَاعٍ فِكْرِيّ حَوْلَ قَضَايَا الإيمان وقَضَايا الكُفْرِ، بُغْيَةَ تَهْيِئَةِ نُفُوسِ جَمَاهِيرِ الْمُشْرِكِينَ لِحُبِّ الإسْلَامِ، والْعَطْفِ عَلَىٰ ضُعَفَاء الْمُسْلِمِينَ، لِتَسْهُلَ عَلَيْهِمُ الاسْتِجَابَةُ لِدَعْوَةِ الْحقّ الرَّبَّانِيَّةِ، والدخول في الإسلام.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُوله ﷺ:

• ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾:

لم يُخَاطِبِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُون لأذىٰ المشركين وإِسَاءَاتِهِمْ، خطاباً مُباشراً، لِئَلَّا يَكُونَ التكْلِيفُ شَدِيداً عَلَيْهِم، ولِأَنَّ الْمَوْضُوعَ مِمَّا تَقْتَضِيهِ الإدَارةُ الْحَكِيمَةُ الرَّشِيدَة، والسِّياسة النافِعَةُ لِمَسِيرَة الدَّعْوَةِ إلىٰ اللهِ في هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيها السُّورَة، وبدأتْ قُلُوبُ جَمَاهِيرِ أَتْبَاعِ قَادَةِ المشركين وأئِمَّتِهِمْ تَنْجَذِبُ إلى الإسلام، وتَعْطِفُ على المظْلُومِينَ مِنْ ضُعَفَاءِ المسْلِمِينَ، وَهَـٰذِهِ السّياسَةُ هِي مِنْ أعمالِ الرَّسُول ﷺ

قائِدِ الْمُسْلِمِين يَوْمئِذٍ، فاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُوجِّهُهُ لاتّخاذِ هذه السِّياسة النافِعَة، المسَايِرَةِ للطَّوْرِ الّذي وَصَلَتْ إلَيْهِ مَسِيرَة الدَّعْوَة.

فعل: ﴿يَغۡفِرُواْ﴾ مَجْزوم بلام أمْرٍ محذوف، أو بجواب الطلَب في ﴿قُل﴾ على تقدير: قُلْ للّذين آمَنُوا: اغْفِرُوا يَغْفِرُوا.

والْأَوْلى فيما أَرىٰ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوباً بِأَنْ مُضْمَرَةٍ، أَي: قُلْ لَهُمْ أَنْ يَغْفِرُوا، فمِنَ المعلوم أَنَّ النَّصْبَ بـ «أَنْ» وهي مُضْمَرَةٌ مُتَعدِّدُ الْوُجُوه في الْعَرَبية، فَهِي أَمْكَنُ أَدواتِ النَّصْبِ لِلْفِعْلِ المضارع، تَنْصِبُهُ ظاهِرَةً ومُضْمَرَةً.

الْغَفْرُ: مَعْنَاهُ السَّتْرُ، ويَلْزَمُ مِنْ معْنَىٰ السَّتْرِ عَدَمُ المؤاخذةِ على الذَّنْب، أو الإساءة.

• ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: أي: للَّذِين لا يَتَوَقَّعُون مَجِيءَ أَيَّامِ اللهِ الجزائِيَّةِ، التي يَجْزِي فيها بالثوابِ أو بِالْعِقَابِ على حَسَبِ حال الْمُجازَىٰ وَمَا سَبَقَ أَنْ كَسَبَ.

الرَّجَاءُ: هُوَ التَّوَقُّعُ لِلْمَرْغُوبِ فِيهِ، أَو المخوف مِنْهُ، ويُفْهَمْ مِنْهُ فِي كلِّ نَصٍّ بِحَسَبِهِ، فالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيّامَ اللهِ هُمُ الَّذِينَ لَا يَتَوَقَّعُونَ ثَوَابَ اللهِ وَلَا عِقَابه، وأَيَّامُ اللهِ هي الأَيَّامُ التي قَدَّرَهَا وَقَضَاهَا في خُطّة الابتلاء.

• ﴿... لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾: أي: لِيَجْزى قَوْماً مُتَّقِينَ بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ مِنْ خَيْرَاتٍ وَصَالِحَات، ولِيَجْزِي قَوْماً عُصَاةً بِمَا كانوا يَكْسِبُونَ مِنْ آثَامٍ وَظُلْمٍ وَسَيِّئات.

وَجزاءُ المتَّقِين عَلَىٰ صَالِحَاتِهِم يَكُونُ بِفَضْلٍ من اللهِ عليهم.

وَجزاءُ الْعُصَاةِ على سَيِّئَاتِهِمْ يَكُونُ بِعَدْلٍ مِن اللهِ، ويَعْفُو عَنْ كثير.

الجزاء: مُقَابَلَةُ الْعَمَلِ بما يُلائِمُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

يَكْسِبُون: أي: يَفْعَلُونَ باخْتِيارِهِمُ الحرّ، من أفْعَالٍ إرادِيَّة جَسَدِيَّةٍ أو نَفْسِيَّة، ومن الأفْعَال النفسِيَّةِ النِّيَّات.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبَشِّراً ومُنْذِراً:

• ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾:

قانُونُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في الجزاء، لِلْمَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الابتلاء، يَتَلَخَّصُ بِكُلِّيَّتَيْن:

الْكُلِّيَةُ الأولىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾: أي: مَنْ عَمِلَ عَمَلاً إرادِيًّا صَالِحاً في مَقَايِيس دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ، فَلِنَفْسِهِ جلَبَ ثَوَاباً عَظِيماً يَجْزِيهِ اللهُ بِهِ، تَفضُّلاً مِنْهُ عَلَيْه.

الكلّيّةُ الثّانِيةُ: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾: أي: وَمَنْ أَساءَ بعَمَلِهِ الاخْتِيَاريّ فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهِ، فَعلَىٰ نَفْسِهِ جَنَىٰ، إذِ اسْتَحَقَّ بِهِ عِقَاباً رَبَّانِيًّا قَدْ يَجْزِيهِ اللهُ عَلَيْهِ بالْعَدْل، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ أحداً، وقَدْ يَغفِرُ اللهُ لَهُ إذا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لَه، لكِنَّ اللهَ لَا يَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاء.

• ﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ انْتِهاءِ زَمَنِ الحياةِ الدُّنْيا حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، تُبْعَثُونَ إِلَىٰ الْحَياةِ الْأُخْرَىٰ ويَكُونُ رُجُوعُكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ الْمُهَيْمِنِ عَلَيْكُمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، لمحاسَبَتِكُمْ على مَا قَدَّمْتُمْ باخْتِيَارِكُم الْحُرِّ فِي حَيَاةِ ابْتِلَائِكُمْ، وفَصْل قضائِهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْكُمْ، كَانَ فِي الحياة الدُّنيا مَوضوعاً مَوْضِعَ الابْتِلَاء، وتَنْفِيذِ جَزَائِهِ بالْفَضْلِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، أو بالْعَدْلِ في دار العذاب النّار.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الجاثية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

(٨)
التّدبّر التحليليّ للدّرس الرابع من دُروس سورة (الجاثية) الآيات من (١٦ ـ ٢٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

القراءات:

(١٦) • قرأ نافع: **[والنَّبُوءَة]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَالنُّبُوَّة]**. وهُمَا نُطْقَانِ عَربيَّان.

(٢١) • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَفٌ: **[سَوَاءً]** بالنَّصْبِ على أَنَّها مَفْعُول به ثانٍ لـ **[نَجْعَلَهُمْ]** يقالُ لغة: «جَعَلَ الشيءَ كَذَا» أي: صَيَّرَه.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[سَواءٌ]** بالرَّفع عَلَىٰ أَنَّها خَبَرٌ مُقَدَّمٌ و«مَحْيَاهُمْ ومَمَاتُهُمْ» مُبْتَدأٌ مُؤَخر.

تَمْهيد:

في آيات هٰذَا الدَّرس بَيانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ آتىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابِ

والْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ، وأنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِنِعَمٍ كثيرة، لِيَحْمِلُوا رِسالَةَ اللهِ إلى النَّاس، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا صَالِحِينَ لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّة، إذ أَسْرَعَ فِيهِمُ انْتِشارُ الْفَسَادِ، والْوَثَنِيَّاتِ، وأنواعِ الْفُجُور.

فاصْطَفَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، وجَعَلَ أُمَّتَهُ هِيَ الْأُمَّةَ المختارةَ لِحَمْلِ خَاتِمَةِ رِسَالَاتِ اللهِ للعالمين.

وفيها تَحْذِيرٌ ضِمْنِي لِلأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَمَا فعل بَنُو إسرائيل مِنْ قَبْلُ.

وفيها بَيَانَاتٌ عَنْ قَضَايَا مُتَّصِلَةٍ بالقَاعِدَةِ الإيمانِيَّة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ بَنِي إسْرَائيل:

● ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾:

فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا آتَىٰ بَنِي إسْرَائِيلَ مِمَّا يُوجِبُ عَلَيْهِمْ حَمْلَ رِسَالَةِ اللهِ للنَّاسِ، وأنْ يُحَافِظُوا عَلَيْهَا وَيُبَلِّغُوهَا جِيلاً فَجِيلاً، لَكِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا وَلَمْ يُحَافِظُوا على دِينِ اللهِ، بَلْ غَيَّرُوا فِيهِ وحَرَّفُوا وبَدَّلُوا وأَدْخَلُوا في عَقَائِدِهِمْ كُفْرِيَّاتٍ وَوَثَنِيَّاتٍ، بَغْياً بَيْنَهُمْ مِنْ بَعْدِما جاءَهُمْ الْعِلْمُ الرَّبَّانِيُّ، وَتَبَلَّغُوهُ عَنْ رُسُلِ الله وأَنْبِيَائِهِ، وفَهِمُوهُ وَوَعَوْهُ، إلَّا أَنَّهُمْ لَعِبَتْ بِهِمُ الْأَهْوَاء وتَحَاسَدُوا وآثَرُوا الْحَياة الدُّنيا، وَتَشَبَّثُوا بِمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيا وَزِينَاتِهَا وشَهَوَاتِها، ومُغْرِيَاتِها من التَّفَاخُرِ والتكاثر وغَيْرِ ذلِك.

وفيهما بَيَانُ أَنَّ اللهَ سَوْفَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامَةِ فيمَا كَانُوا فِيهِ

يَخْتَلِفُونَ، فَيُصْدِرُ أَحْكَامَهُ بِشَأْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَأَحْكَامُهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ تَسْتَتْبِعُ تَنْفِيذَ الجزاء، وَفِي هٰذَا تَلْوِيحٌ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ لَا يَعْمَلُوا فِي دِينِ اللهِ مِثْلَمَا عَملَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبْلُ، لِئَلَّا يُعَرِّضُوا نُفُوسَهُمْ لِعُقُوبَاتِ اللهِ الْمُعَجَّلَةِ والمؤجَّلَةِ، الَّتِي عَاقَبَ وسَوْفَ يُعَاقِبُ بِهَا بَنِي إِسْرَائِيل فِي الدُّنْيا وفي الآخرةِ.

جَاءَ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ بيانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ أَتَىٰ بَنِي إِسْرَائِيل، عَنْ طَرِيق الوحْي إلى رُسُلِهِمْ وَأَنْبِيَائِهِمْ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ عُظْمَىٰ هي أُسُسُ جَمِيع رِسَالَاتِ رُسُلِ اللهِ للنَّاسِ:

الأَسَاسُ الأَوَّل: الكِتَابُ الرَّبَّانِيُّ المنزَّل.

الأَسَاسُ الثاني: الْحُكْمُ، وهُو فِقْهُ الأمُورِ الْفَاصِلُ بَيْنَ الحقّ والباطل والخير والشرّ.

الأَسَاسُ الثالث: الْبَيِّنَاتُ الْوَاضِحَاتُ مِنَ الْأَمْرِ الرَّبَّانِيّ الصَّادِرِ عن اللهِ لِلْمَوْضُوعِينَ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابْتِلَاء، وهي مشْتَمِلَةٌ عَلَىٰ مَوَادّ امْتِحَانهم.

وجاء فيهما أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ امْتَنَّ عَلَيْهِمْ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَحْمِلُوا رِسَالَةَ رَبِّهِمْ لِلنَّاسِ بِمِنَّتَيْنِ عَظيمَتَيْنِ:

الْمِنَّةُ الأُولَىٰ: أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيبَاتِ، بَعْدَ أَنْ نَصرَهُمْ علىٰ جَبَابِرَةِ أَرْضِ كَنْعَانَ وَمَا حوْلَهَا، فَامْتَلَكُوا خَيْرَاتِها، وهِيَ تَفِيضُ لَبَناً وَعَسَلاً وَثَمَرَاتٍ كَثِيرات وخَيْرَاتٍ وفِيرات.

المِنَّةُ الثَّانية: أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَضَّلَهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ فِي أَزْمَانِهِمْ، فاصْطَفَىٰ مِنْهُمْ أَنْبِيَاءَ وَرُسُلاً مُتعَدِّدِينَ، وأَمَدَّهُمْ بِنَصْرِهِ الْمُبِين، وجَعَلَ مِنْهُمْ مُلُوكاً وَذَوِي سُلْطَانٍ مَكِينٍ.

فَلَمَّا لَمْ يَلْتَزِمُوا بِحَمْلِ رِسَالَةِ اللهِ وأَدائِهَا، وانْحَرَفُوا عَنْهَا سَلَبَهُمُ اللهُ مَا كانَ قَدْ تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَقَطَّعَهُمْ في الأرْضِ أُمَماً، وضَرَبَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ والمسْكَنَةَ.

وَجَعَلَ أمَّةَ محمّدٍ ﷺ هِيَ الْأُمَّةَ المختارَةَ الْوَارِثَةَ لِحَمْلِ رِسَالَةِ اللهِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ حتَّىٰ قِيَامِ السَّاعة.

فَدَلَّ عَلَىٰ الْأُسُسِ الثلاثَةِ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ ... ﴿١٦﴾﴾ وقَوْلُ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾.

فالكِتَابُ: هو التوراة والزَّبُورُ وسَائِرُ الصّحِيح من كُتُبِ الْعَهْدِ الْقَدِيم عندهم. ثم الإنْجِيلُ، فقد أَنْزَلَهُ اللهُ على «عيسى» عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ مِنْ بَنِي إسرائيل.

والْحُكْمُ: وهو فِقْهُ الأُمُور، فَكَانَ مِنْهُمُ الْقُضَاةُ الذينَ يَفْصِلُونَ بَيْنَ الْحَقِّ والباطِلِ، والْخَيْرِ والشَّرِّ، والْحَسَنِ والْقَبِيحِ مِن الأَعْمَالِ والْأَخْلَاق، وكانُوا يُطَبِّقُون أحْكَامَ الْعَدْلِ بالاسْتِنَادِ إلَىٰ مَقَايِيسِ الحقّ.

والْبَيِّنَاتُ مِنَ الْأَمْرِ: هِي الآيَاتُ الواضِحَاتُ المشْتَمِلَاتُ عَلَىٰ أحْكَامِ الدِّينِ، مِنَ الواجِبَاتِ والْمُحَرَّمَاتِ، والمندُوبَاتِ والمكروهاتِ والمباحَاتِ.

والمرادُ بكلِمَة: «الأمْر» من عبارة: ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أَمْرُ اللهِ الصَّادِرُ بتَحْدِيد أَحْكَامِ الدِّين، لِأَنَّ أَحْكَامَ الدِّينِ تَصْدُرُ بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وأَمْرُ اللهِ التَّشْرِيعي له خمسةُ أقْسَام:

القِسْمُ الْأَوَّل: أمْرٌ بِفِعْل الشَّيْءِ عَلَىٰ سَبِيلِ الإلْزَامِ، وهو الواجب.

القِسْمُ الثَّانِي: أمْرٌ بِتَرْكِ الشَّيْءِ على سَبِيلِ الإلْزَام، وهو الحرام، وتُسْتَعْمَلُ غالِباً للدَّلَالَةِ عَلَيْهِ عبارَةُ: «لَا تَفْعَلْ» وهذه تُسَمَّىٰ نَهْياً، والنَّهْي في حَقِيقَتِهِ أَمْرٌ بِعَدَمِ الْفِعْل.

الْقِسْمُ الثالث: أمْرٌ بِفِعْلِ الشَّيْءِ على سَبِيلِ التَّرْغِيب لا على سَبِيلِ الإلْزَام، وهو المنْدُوبُ.

الْقِسْمُ الرابع: أمْرٌ بِتَرْكِ الشّيْءِ على سبيل التَّرْغيب لَا على سَبِيلِ الإلزام، وهو المكْرُوهُ.

الْقِسْمُ الخامس: أمْرٌ بالتَّخْيير بَيْنَ فِعْلِ الشّيْءِ وتَرْكِهِ، وهو المباح، الذي يَسْتَوِي فِيه الفِعلْ والتَّرْكُ بِحُكْمِ الشَّرْعِ الرَّبَّاني.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِضَمِير المتكلّم العظيم:

• ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ فَسَدَ بَنُو إسْرَائِيل، وَصَارُوا غَيْرَ صَالِحِينَ لِحَمْلِ رِسَالَتِنَا للنَّاسِ، اصْطَفَيْنَاكَ وَاصْطَفَيْنَا أُمَّتَكَ يَا مُحَمَّدُ لِحَمْلِ رِسَالَتِنَا، وَوِرَاثَةِ كِتَابِنَا، فَنَبَّأْنَاكَ، وَبَعَثْنَاكَ رَسُولاً لِلْعَالَمِينَ، وَنُنْزِلُ عَلَيْكَ كِتَابَنَا تِبَاعاً، وآتَيْنَاكَ الْحُكْمَ، وجَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ وَاضِحَةٍ جَلِيَّةٍ ذَاتِ فَيْضٍ للوارِدِينَ، الْقَاصِدِينَ سَعَادَةَ دُنْيَاهُمْ وأُخْرَاهُمْ بِمَرْضَاةِ رَبِّهِمْ، إذْ يَتَّبِعُونَ أمْرَهُ الَّذِي فِيهِ بَيَانُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فِعْلُهُ، وَمَا يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ فِعْلُهُ، وَمَا يُثَابُونَ عَلَىٰ فِعْلِهِ وَلَا يُعَاقَبُونَ عَلَىٰ تَرْكِهِ وهو المنْدُوبُ، وَمَا يُثَابُونَ على تَركِهِ ولا يُعَاقَبُونَ على فِعْلِهِ وهو المكْرُوه، ومَا هُوَ مُبَاحٌ لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ وأَنْ يَتْرُكُوه.

• ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ...﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ إنْهاءِ دَوْرِ بَنِي إسْرَائِيلَ في حَمْلِ رِسَالَتِنَا للنَّاس، واصْطِفَائِنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، وتَنْزِيلِ نُجُومِ كِتَابِنَا عَلَيْكَ، وإيتَائِكَ الْحُكْمَ الَّذِي بِهِ تَفْقَهُ الحقَّ والباطِلِ، والْخَيْرَ والشَّرَّ، والصَّالِحَ والْفَاسِدَ، والْحَسَنَ والْقَبِيحَ مِنَ الْأَعْمَالِ والْأَخْلَاقِ ﴿جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾.

الشَّرِيعة في اللُّغَة: هِي مَوْرِدُ الشَّارِبَةِ الّتِي يَشْرَعُهَا النَّاسُ فَيَشْرَبُونَ مِنْهَا، وَرُبَّمَا شَرَّعُوهَا دَوَابَّهُمْ حَتَّى تَشْرَبَ مِنْها، والْعَرَبُ لَا تُسَمِّي مَوْرِدَ الماء شَرِيعَةً حَتَّىٰ يَكُونَ الْمَاءُ فَيْضاً لَا انْقِطَاعَ لَه، وَيَكُونَ ظَاهِراً مَعِيناً لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُنْضَحَ بالدِّلَاءِ، ويُقَالُ لغة: «شَرَعَ الْوَارِدُ، يَشْرَعُ، شَرْعاً» أي: تَناوَلَ الْمَاءَ بِفِيهِ. ويقال: «شَرَعَ الْأَمْرَ» أي: أَبَانَهُ وأَظْهَرَهُ وجَعَلَهُ قَرِيبَ التَّناوُلِ لِلْقَاصِدِين.

واخْتِيرَ في الْبَيَانِ الْقُرْآنِيّ إطْلَاقُ لَفْظِ «الشِّرِيعَةِ» اصْطِلاحاً عَلَىٰ مَا يَشْتَمِلُ عَلَىٰ أحْكَامِ اللهِ لِعِبَادِهِ، فِي الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لَهُمْ، فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، الْمُشْتَمِلِ على الواجِبِ، والحرامِ، والمنْدُوبِ، والمكْرُوهِ، والمباح.

وهـٰذَا اخْتِيَارٌ لِلَفْظِ «الشَّرِيعَةِ» حَكِيمٌ، لِمَا فِي هـٰذَا اللَّفْظِ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَىٰ أَنَّهُ مَوْرِدُ مَاءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الأَحْيَاءُ في الأرض، وعَلَىٰ أَنَّهُ فَيْضٌ لَا انْقِطَاعَ له، وَعَلَىٰ أَنَّهُ ظاهِرٌ وَاضِحٌ جَلِيٌّ قَرِيبُ التَّنَاوُلِ لِلْقَاصِدِين بِأَفْوَاهِهِم لَا بالدِّلَاءِ والْأَوَاني، وَدِينُ اللهِ الخاتِمُ للنَّاسِ فِيهِ كُلُّ هـٰذِهِ الصِّفَاتِ بِمَعْقُولَاتِهِ، وبِنُصُوصِهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ مَفْهُومَاتِهِ، وَتَطْبِيقَاتِهِ الظَّاهِرَةِ الواضِحَةِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا اختفاءٌ وَلَا تستر.

- ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾: أي: مِنَ الْأَمْرِ الرَّبَّانِيّ الَّذِي فِيهِ تَحْدِيدُ أَحْكَامِ اللهِ: «الواجبات، والمحرّماتِ، والمنْدُوبَاتِ، والمكْرُوهَاتِ، والمُبَاحَاتِ».

- ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾: أي: أَطِعْ مَا جَاءَ في الشَّرِيعَةِ الَّتِي جَعَلْنَاكَ عَلَيْهَا، إِذْ أَلْزَمْنَاكَ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهَا مُتَمَكِّناً مِنْهَا، وَمُبَلِّغاً لَهَا، وَدَاعِياً إِلَيْهَا النَّاسَ، واعْلَمْ أَنَّكَ أَوَّلُ الْمَأْمُورِينَ بِطَاعَتِهَا في هـٰذِهِ الرِّسَالَةِ الخاتِمَةِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ مِنْ بَعْدِ بِعْثَتِكَ، دَلَّنِي عَلَىٰ هذا وُجود الْفَاءِ الدالَّةِ عَلَىٰ التَّرْتِيب والتَّعْقِيب في: ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾، ومن طاعَتِها الْحُكْمُ بأحْكَامِها.

الاتِّبَاعُ: سَيْرُ التَّابِعِ في أَثَرِ المتبُوعِ وَطَاعَتُهُ، واتِّبَاعُ الْبيَانِ الرَّبَّانِيّ يَكُونُ بِالْعَمَلِ بِمَا جَاءَ فِيهِ والْتِزَام أَحْكَامِهِ.

• ﴿... وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾: أي: وَلَا تَسْتَجِبْ لِدَعَوَاتِ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ، الَّذِينَ تَتَحَكَّمُ بِمَفْهُومَاتِهِمْ في الدِّين وغَيْرِهِ أَهْوَاؤُهم، فَيَدْعُونَكَ لاتِّبَاعِهَا، وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ والْعَدْلَ والْخَيْرَ وَفَضَائِلَ الْأَخْلَاقِ والسُّلُوكِ، وَلَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوهَا مُسْتَقْبلاً.

وهٰذَا الْبَيَانُ مُوَجَّهٌ أَيْضاً لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَئِمَّتِهِمْ وعامَّتِهِمْ، فالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ في أعْمَالِهِمْ، وأحكَامِهِمْ، وفَضَائِلِهِمْ، وأَنْظِمَتِهِمْ، وقوانِينِهِمْ، أَهْوَاءَ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ وغَيْرِهِمْ، مِمَّا يُخَالِفُ أحْكَامَ اللهِ وشَرَائِعَهُ هُمْ عُصَاةٌ للهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وخَارِجُونَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المُسْتَقِيم.

• ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ...﴾: أي: إِنَّهُمْ لَنْ يَصْرِفُوا عَنْكَ مِنْ عَذَابِ اللهِ شَيْئاً عَلَىٰ اتِّبَاعِكَ أَهْوَاءَهُمْ لَوِ اتَّبَعْتَهَا، مَهْمَا كَانُوا ذَوِي سُلْطَانٍ وَمُلْكٍ، أَوْ جَاهٍ وَمَالٍ، وأعْوَانٍ وأَنْصَارٍ.

• ﴿... وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ...﴾: أي: وَلَا تَتَّخِذْ أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ ظَالِمُونَ فِي مَفْهُومِ الدِّينِ، أَوْلِيَاءَ لَكَ تَنْصُرُهُمْ وَيَنْصُرُونَكَ، إِنَّ الظَّالِمِينَ فِئَةٌ مُنْعزِلَةٌ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، فَيَنْصُرُ بَعْضُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا بَعْضاً، وَلَا أَحَدَ مِنْهُمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْرِفَ عَنْ آخَرَ مِنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ شَيْئاً إِذَا قَضَىٰ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُ.

• ﴿... وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾: أي: واللهُ هُوَ رَبُّ المتَّقِين، ونَصِيرُهُمْ وَمُتَوَلِّي جَمِيعِ أمُورِهم في الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ دِينِهِ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِن الْأَمْرِ، وبشأنِ الكِتابِ الَّذِي هُوَ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الحكيم:

• ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

• ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾: جَمْعُ «بَصِيرَة وهي قُوَّةُ الإِدْرَاكِ والْفِطْنَةُ، والْعِلْمُ، والخبرة، والحجَّةُ، والْعِبْرَةُ، والْبَصِيرَةُ فِي النَّفْسِ كالبَصَرِ بالْعَيْن.

وَمِنْ هٰذِهِ المعانِي لِلْبَصَائِرِ نَسْتَفِيدُ أَنَّ الدِّينَ والكِتَابَ الَّذِي هُوَ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ الْعَزِيز الْحَكِيمِ، عَلَىٰ خاتَمِ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، يَشْتَمِلُ عَلَىٰ عِلْمِ حَقٍّ، وَعَلَىٰ خِبْرَاتٍ ذَوَاتِ عِبْرَة، وعَلَىٰ حُجَجٍ وَبَرَاهِين تَكْشِفُ الْحَقَّ، وتُثْبِتُهُ، وتَكْشِفُ الْبَاطِلَ وتُزْهِقُهُ.

• ﴿وَهُدًى﴾: هُدىً: مَصْدَرٌ لِفِعْل: «هَدَاه، يَهْدِيهِ، هُدىً، وَهَدْياً، وهِدَايَةً، وهِدْيَةً» أي: بَيَّنَ لَهُ وأَرْشَدَه.

وَجاء وصْفُ الدِّينِ والكِتَابِ القرآنِ بأَنَّهُ هُدىً عَلىٰ سَبِيلِ المبالَغَةِ بالْوَصْفِ بالمصْدَرِ، إذْ كُلُّ مَا فِيهِ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ هِدَايَةٍ، فَهُوَ بِمَثَابَةِ عَيْنِ الْهِدَايَةِ، كَمَا يُقَالُ: «رَجُلٌ عَدْل» و«رَجُلٌ حِلْم».

• ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: أي: وهٰذَا الدِّينُ، الذي يَدُلُّ عَلَيْهِ الكِتَاب المشْتَمِلُ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ عَلَىٰ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ، هُوَ أَثَرٌ عَظِيمٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ بعباده، الَّذِينَ وَضَعَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتَاهُمْ، ثُمَّ لِيَجْزِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَبِ اخْتِيَارَاتِهِمْ فِي الحياة الدُّنْيَا مِنْ إيمانٍ وَعَمَلٍ ظاهِرٍ وَبَاطِنٍ.

الرَّحْمَةُ: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَةِ، وهِيَ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ نُثْبِتُهَا للهِ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِجَلَالِه، وَمِنْ آثَارِهَا الْعَطَاءُ، والْمَعُونَةُ، والتَّوْفِيقُ، والإِرْشَادُ، والْهِدَايَةُ إِلَىٰ الْحَقِّ والْصِرَاطِ المستقيم، وَإِزَالَةُ الْبُؤْسِ، والْإِمْدَادُ بِمَا يَسُرُّ، وَيُسَكِّنُ النفس، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَصْعُبُ حَصْرُه.

• ﴿... لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾: أي: لِقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يَسْتَبْصِرُوا بِمَا جَاءَ في كِتَابِ اللهِ القرآنِ، ويُوقِنُوا بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَ فِيهِ.

الْيَقِينُ: العِلْم الّذي لَا شَكَّ فِيهِ، وأَدْنَىٰ مَرَاتِبِهِ مَا اعْتَمَدَ عَلَى أدِلَّة نَظَرِيَّةٍ، أَوْ خَبَرِيَّة، يُقَالُ لغة: «أَيْقَنَ الشَّيْءَ، وأَيْقَنَ بِهِ» أي: عَلِمَهُ عِلْماً لَا شَكَّ فِيهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ دَالًّا عَلَىٰ قَانُونِ الجزاءِ لِلْمَوْضُوعِينَ فِي الحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ، بِمُنَاسَبَةِ سَوَابِقِ مَا جَاءَ مِنْ بَيَان في الآيَاتِ من (١٨ ـ ٢٠).

• ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

• ﴿ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: أي: اكْتَسَبُوا المكْتَسَبَاتِ السَّيِّئَاتِ مِن الأقوال والأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ، ومِنْهَا النِّيَّات وَسَائِرُ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ والنُّفُوسِ الْإِرَادِيَّة.

أي: بَلْ. أَأَنْكَرَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ باللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ، قَانُونَ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ بالْفَضلِ أَوْ بِالْعَدْلِ، فَحَسِبُوا مُتوهِّمِينَ أَنَّهُمْ وهُمْ كَافِرُونَ وَمُرْتَكِبُونَ السَّيِّئَاتِ، الَّتِي حَرَّمْنَاهَا عَلَىٰ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، المسْتَتْبِعِ لِلْجَزَاءِ عَقْلاً وَبَيَاناً مِنْ لَدُنَّا، أَنْ نَجْعَلَهُمْ مِثْلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طَاعَةً لِأَوَامِرِنَا، وَطَلَباً لِرِضْوَانِنَا وَثَوابِنَا الْعَظِيمِ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ بِهِ، فَيَكُونُونَ بِذَلِكَ سَوَاءً مُتَسَاوِينَ، فَلَا نَجْزِيهِمْ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَلَا نَجْزِيهِمْ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِمْ بَعْدَ بَعْثِهِمْ.

طُوِيَ فِي النَّصِّ ذِكْرُ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ، لِأَنَّ أَصْحَابَ هٰذَا الظَّنِّ التَّوَهُّمِيِّ الضَّعِيفِ لَا يُؤْمِنُونَ بالْبَعْثِ وَلَا بِيَوْمِ الدِّينِ، وَذُكِرَ مَمَاتُهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِنْكَارَهُ، وهُمْ على يَقِينٍ بِأَنَّهُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ حَتْماً.

إِنَّ الْكَافِرِينَ يُشَاهِدُونَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا بِحَسَبِ مَا يَظْهَر لَهُمْ مِنْ أَحْوَالِ النَّاس، أَنَّ كُلًّا مِنَ المؤمِنينَ وَالْكَافِرِينَ، والمطِيعِينَ والْعَاصِينَ،

والْمُحْسِنِينَ والْمُسِيئِينَ، يَتَعَرَّضُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِمَا يُحِبُّونَ وَلِمَا يَكْرَهُونَ، ولِمَا يَسُرُّهُمْ وَلِمَا يَسُوؤهُمْ، ولِمَا يَنْفَعُهُمْ وَلِمَا يَضُرُّهُمْ، فَلَا يُرِيدُونَ إِدْرَاكَ أَنَّ هٰذِهِ المتَضَادَّاتِ وَالمتَنَاقِضَاتِ والمتخالِفَاتِ هِيَ مَوادُّ امْتِحَانِ كُلِّ إِنْسَانٍ بِمَا يُلَائِمُهُ، مِنْ صُرُوفٍ وَمُتَغَيِّرَاتِ الْحَياةِ الدنيا حَيَاةِ الابْتِلَاء، وَلَا يُرِيدُونَ إِدْرَاكَ أَنَّ الحياة الدُّنيا، بِكُلِّ ظُرُوفِها وَصُرُوفِها دَارُ امْتِحَانٍ، وَأَنَّ مَا بَعْدَهَا يَكُونُ الْجزَاءُ، إِذْ يَأْتِي قِسْمٌ مِنْهُ غَيْرُ مُشَدَّدٍ عِنْدَ الْمَوْتِ وَبَعْدَ الْمَوْتِ، في مُدَّةِ الْبرزخ الْفَاصِلِ بَيْنَ نِهَايَةِ الْحَيَاةِ الْأُولَىٰ وَبِدَايَةِ الْحَيَاةِ الْأُخرَىٰ، ثُمَّ يَكُونُ الْجَزاءُ الْأَشَدُّ وَالْأَكْبَرُ وَالْأَعْظَمُ يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ بَعْثِ الْمَوْتَىٰ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُسْرِعُون.

فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ: أَحَسِبَ هٰؤُلَاءِ الكَفَرَةُ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاء، أَنَّ حِكْمَتَنَا تَسْمَحُ وَقَدْ خَلَقْنَاهُمْ ذَوي إِرَادَاتٍ ذَوَاتِ حُرِّيَّةٍ، بِأَنْ نَجْعَلَ ظُرُوفَ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ لِكُلِّ الموضُوعِينَ فِي الحَيَاة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ مُسَاوِيَةً لِظُرُوفِهِمْ فِي الحياة الدُّنْيا، هَلْ يَلِيقُ بِحِكْمَةِ اللهِ وَعَدْلِهِ وَفَضْلِهِ، أَنْ يَكُونَ الْمُحْسِنُونَ والْمُسِيؤونَ سَواءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَاتُهُمْ، وَقَدْ أَتْقَنَ اللهُ كُلَّ شيءٍ صُنْعاً.

إِنَّ هٰذَا لَا يَقْبَلُهُ عَقْلُ عَاقِلٍ رَشِيدٍ، وَإِنَّ حُكْمَهُمْ هٰذَا عَلَىٰ الرَّبِّ الْخَالِقِ الْقَدِيرِ الْعَلِيمِ الْحَكِيم حُكْمٌ بَالِغُ السُّوءِ والقباحَة.

• ﴿... سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾: أي: سَاءَ سُوءاً شَدِيداً مَا يَحْكُمُونَ بِهِ علَىٰ رَبِّهِمْ، إِذْ يَحْكُمُونَ بأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سَيَجْعَلُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ مُتَسَاوِينَ مع الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات.

سَاءَ، فِعْلٌ يُقَالُ في إِنْشَاء الذَّمّ على سَبِيل المبالغَة، مِثْل: «بِئْسَ» والمعنَىٰ على التعجُّب: مَا أَشَدَّ سُوءَ مَا يَحْكُمُونَ بِهِ مِنْ حُكمٍ عَلَىٰ رَبِّهِمْ.

• ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ والْحَالُ أَنَّ الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ خَلْقاً مُتَّصِفاً بِالْحَقِّ الْمُنَاقِضِ لِلْبَاطِلِ، الَّذِي مِنْ مَظَاهِرِهِ الْعَبَثُ وَاللَّعِبُ، وَخَلق ذَوِي الإرادات ذَوَاتِ الْحُرِّيَّةِ مِنَ الْجِنِّ والْإِنْسِ، وجَعَلَ لَهُمْ مِنَ الصِّفَاتِ مَا يُؤَهِّلُهُمْ لِأَنْ يَكُونُوا مُمْتَحنين فِي ظُرُوف الحياة الدُّنيا، وَوَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ فِيهَا، لِيَجْزِيَ يَوْمَ الدِّينِ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ في حَيَاةِ امْتِحَانِهَا مِنْ خَيْر أو شر.

«لا يشترط الكوفيون والأَخْفَشُ من الْبَصْريين اقتران الْفِعْلِ الماضي بقَدْ إذا وقع في صدر جملة خاليَةٍ وهُوَ الأرجَحُ فيما أرَى».

• ﴿... وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾: أي: والْحَالُ أَنَّهُمْ فِي مُجَازَاتِهِمْ لَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً، مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فَمَا دُونَهَا.

ـ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فَأَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُضَاعَفُ إِلَىٰ عشَرَةِ أَضْعَافٍ إِلَىٰ سَبْعِينَ ضِعْفاً، إلى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ إِلَىٰ أَضْعَافٍ كثيرة، وَيَعْفُو اللهُ عَنْ كَثِيرٍ مِن خَطَايَاهُمْ، فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يُظْلَمُوا؟!

ـ وأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَاجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ، فاللهُ يَجْزِيهِمْ على كُفْرِهِمْ وبَعْضِ كَبَائِرِ سَيِّئَاتِهِمْ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ الَّتِي هِيَ مِنْ لَوازِمِ كُفْرِهِمْ، فَلَا يُتَصَوَّرُ عقْلاً أَنْ يُظْلَمُوا وَقَدْ عَفَىٰ الرَّبُّ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ في السُّلُوك.

وسَبَقَ تَفْصِيلٌ وافٍ لِكَوْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ بِالْحَقِ، لَدَىٰ تَدَبُّر الآية (٧٣) من سورة (الْأَنْعَام/ ٥٥ نزول) فَلْيُرْجَعْ إِلَيْه.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الرَّابع من دُرُوس سورة (الْجَاثِية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٩)
التّدبّر التحليليّ للدّرس الخامس من دُروس سورة (الجاثية) الآيات من (٢٣ ـ ٢٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ
بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ
وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا
بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ
يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

القراءات:

(٢٣) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَفٌ: [**غَشْوَةٌ**].

وَقرأَهَا بَاقِي القرّاء الْعَشَرَة: [**غِشَاوَة**].

ومُؤَدَّىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ وَاحِدٌ، فاللَّفْظَان لغتان لمعنى واحد.

(٢٣) • قرأ حَفْصٌ، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [**تَذَكَّرُونَ**].

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تَذَّكَّرُونَ**] أَصْلُها «تتَذَكَّرُون» أُدْغِمَتِ التَّاءُ بالتَّاءِ.

تَمْهِيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنِ الكَفَرَةِ المشركينَ المعالَجِينَ فِي هٰذِهِ السُّورَة، وَكَيْفَ اتَّخَذُوا آلِهَتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ، فانْطَمَسَتْ بَصَائِرُهُمْ، وسُتِرَتْ أَبْصَارُهُمْ، وَأَنْكَرُوا الجزاءَ والْيَوْمَ الآخِرَ، وَقَالُوا: مَا هِي إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا، وَقَالُوا: مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ، وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ البيانِيَّة بِشَأْنِ الجَزَاءِ الرَّبَّانِيّ والبعث، لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ حُجَّةٌ إِلَّا أَنْ يَقُولوا: ائْتُوا بآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقين.

وهٰذَا البيانُ اقْتَرَنَ بِهِ عِلَاجُ الْكَافِرِينَ بالْعِلَاج الْمُلَائِمِ فِي هَـٰذِهِ الْمَرْحلَةِ الَّتِي نَزَلَ فِيها.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُ كُلَّ ذِي إِدْرَاكٍ صَالحٍ لِلْخِطَاب بأُسْلُوب الخطاب الإفرادي:

• ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

• ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ...﴾؟! يُرَادُ بالاسْتِفْهَامِ هُنَا التَّعْجِيبُ لِلرَّائِي، وتَوْجِيهُ نَظَرِ غَيْرِ الرّائِي حَتَّىٰ يَرَىٰ وَيَعْجَبَ، إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ والْفِكْرِ والرُّشْدِ، أي: انْظُرْ بِتَفْكِيرٍ وإمْعَانِ نَظَرٍ لِتَرَىٰ.

والمطْلُوبُ النَّظَرُ إِلَيْهِ والتَّفْكِيرُ في شَأْنِهِ، هُوَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هواه، أي: اتَّخَذَ مَعْبُودَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هَوَاهُ، فَهُوَ يُطِيعُ أَوَامِرَ هَوَاهُ ونواهِيَهُ، أو هو يُوَجِّهُ كُلَّ حَرَكَاتِ حَيَاتِهِ لِمَا يَهْوَىٰ مِنْ دُنياهُ، تَعَلُّقاً بِهِ، وانْدِفَاعاً نَحْوَه، كَتَوَجُّهِ الْعَابِدِ لِمَعْبُودِهِ، والْعَمَلِ بِمَا يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ، وَيُرْضِيهِ مِنْه.

إِنَّ قِسْماً مِنَ النَّاسِ يَأْمُرهُ هَوَاهُ بِجَمْعِ الأَمْوَالِ الْوَفِيرَة، فَيُطِيعُ أوامِرَهُ فَيَسْعَىٰ فِي جَمْعِ مَا يَهْوَىٰ وَلَوْ بالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، والْبَغْي والإثْمِ والطُّغْيان.

وإِنَّ قِسْماً مِنَ النَّاسِ يأمُرُهُ هَوَاهُ بِمُمَارَسَةِ شَهَواتِ الْفَرْجِ، فَيَسْعَىٰ جَهْده لِتَحْقِيقِ شَهَوَاتِهِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ مُحَرَّمَةٍ، وَضَارَّةٍ، ونَاشِرَةٍ لِلْفَسَادِ في الْأَرْضِ.

وإِنَّ قِسْماً مِنَ النَّاسِ يأْمُرُهُ هَوَاهُ بِطَاعَةِ زَعِيمٍ أو قائِدٍ أو رَجُل عظيم، مِنْ عُظَمَاءِ أهْلِ الدُّنيا، فَيُطِيعُهُ فِي كُلِّ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللهِ وَمُخَالَفَةِ صِرَاطِهِ المسْتَقِيم، وهٰذَا يَجْعَلُ بَعْضَ النَّاسِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ مِنْ دُون اللهِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَأْمُرُهُ هَوَاهُ باتِّبَاعِ آبَائِهِ وأجْدَادِهِ فِي عَقَائِدِهِم، وَعِبَادَاتِهِمْ، وَعَادَاتِهِمْ بالتَّقْلِيدِ الأَعْمَىٰ، انْتِصَاراً لَهُمْ، واعْتِزَازاً وافْتِخَاراً بِهِم، فَهُوَ باتِّبَاعِهِمْ يَتَّخِذُ فِي الْحَقِيقَةِ إلَهَهُ هَوَاهُ، فَهُوَ يَعْبُدُ هَوَاهُ، وَلَا يَعْبُدُ شَيْئاً يَظُنُّ أَنَّ لَهُ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ فِي الكَوْنِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

والأَمْثِلَةُ عَلَىٰ اتِّخَاذِ الْهَوَىٰ إلَهاً يُطَاعُ ويُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ كَثِيرَةٌ.

ومِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ مَنِ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ، مُمْتَحَنٌ ضَالٌّ ضَلالاً جَلِيًّا وَاضِحاً، وَلَا بُدَّ أَنْ يَحْكُمَاللهُ عَلَيْهِ بأَنَّهُ ضَالٌّ، فَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ يُضِلُّهُ (أي: يَحْكُمُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ) عَلَىٰ عِلْم بِحَالِهِ إِذِ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الضَّلَالَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ضَالٌّ، دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿... وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ...﴾ وَهٰذَا حُكْمٌ عَلَيْهِ بالضَّلَالِ وهُوَ مَا زَالَ فِي ظُرُوف الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِأنَ حُكْمَ اللهِ عَلَيْهِ بالضَّلَالِ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ عِلْم مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ ضَلَّ ضَلَالاً مَيْؤُوساً مِنْ هِدَايَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ إرَادَتِهِ الحرَّة، وَلِهٰذَا يَخْتِمُ اللهُ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، ويَجْعَلُ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَة، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿... وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ... ﴿٢٣﴾﴾:

الْخَتْمُ: يُرَادُ بِهِ شِدَّةُ الإِقْفَال، ومَنْع الدُّخول إِلَىٰ الْمُقْفَلِ مِنْ خَارِجه، وَمَنْعُ الْخُرُوجِ مِنْهُ إِلَىٰ خارِجِهِ، عَلَىٰ سَبِيل التَّشْبِيهِ.

أصلُ الْخَتْمِ عَلَىٰ الشَّيْءِ: سَدُّ مَا يُنْفَذُ مِنْهُ إِلَيْهِ سَدّاً مَانِعاً. يُقَالُ لُغَةً: «خَتَمَ عَلَىٰ الإِنَاء، أَوْ عَلَىٰ بَابِ الْبَيْتِ، يَخْتِمُ، خَتْماً» بِطِينٍ، أَوْ بِشَمْعٍ، أَوْ نَحْوِهِمَا، حَتَّىٰ لَا يَدْخُلَ شَيْءٌ إِلَىٰ المخْتُومِ عليه، ولَا يَخْرُجَ مِنْهُ شَيْءٌ.

وَكَانَ إِذَا أَرَادَ السُّلْطَانُ أَوِ الْقَاضِي مَنْعَ الدُّخُولِ إلى بَيْتٍ، أَوْ مَحَلٍّ تِجَارِيّ، أَغْلَقَ بَابَهُ، وَضَرَبَ عَلَيْهِ الْقُفْلَ، وَجَعَلَ عَلَىٰ الْقُفْلِ طِيناً خَاصّاً، أَوْ شَمْعاً، وخَتَمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمٍ خَاصٍّ مَنْقُوشٍ، ورَتَّبَ عِقَاباً مُشَدَّداً عَلَىٰ فَضِّ الْخَاتم بِغَيْرِ إِذْنِهِ أَوْ أَمْرِه.

فجاء التَّعْبِيرُ بالْخَتْم عَلَىٰ السَّمْعِ والقَلْبِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ سَدِّ مَنَافِذِهِمَا سَدّاً مَانِعاً مِنَ دُخُولِ الْهِدَايَةِ إِلَيْهِمَا، وَهٰذَا نَتِيجَةٌ قَدَرِيَّةٌ فِي نِظَامِ اللهِ التَّكْوِينيِّ لِنَفْسِ مَنْ يَتَّخِذُ إِلَهَهُ هَوَاهُ، فَهُوَ أَثَرٌ مِنَ آثَارِ اخْتِيَارِ الإِنْسَانِ الْحُرِّ، كَمَنْ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي النَّارِ باخْتِيارِه الْحُرِّ أَحْرَقَ اللهُ يَدَهُ ضِمْنَ نِظَامِهِ التَّكْوِينيِّ الْعَامِّ، وكَمَنْ شَرِبَ سُمًّا قَاتِلاً باخْتِيَارِه الحرِّ، قَتَلَهُ اللهُ ضِمْنَ نِظَامِهِ التَّكْوِينيِّ العامِّ.

• ﴿... وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ... ﴿٢٣﴾﴾: أي: وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِه غِطَاءً مَانِعاً مِنْ إِدْرَاكِ أَثَرِ رُؤْيَةِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ، وَهٰذَا أَيْضاً نَتِيجَةٌ لاخْتِيَارِهِ الْحُرِّ، إِذْ جَعَلَ إِلَهَهُ هَوَاه، كالْخَتْمِ عَلَىٰ سَمعِهِ وَقَلْبِهِ.

الْغِشَاوَةُ: الْغِطَاءُ الحاجِب. وفي القراءة الأخرى: «**الْغِشْوَةُ**» وَهِي بِمَعْنَىٰ الْغِشَاوَةِ لُغَةً.

• ﴿... فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ...﴾: اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَا يُوجَدُ أَحَدٌ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ يَحْكُمُ لَهُ بالْهِدَايَةِ، مِنْ بَعْدِ حُكْمِ اللهِ عَلَيْهِ بأَنَّهُ ضَالٌّ بإِرَادَتِهِ الْحُرَّةِ إذ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ.

• ﴿... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾: خاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في صَدْرِ الآيَةِ كُلَّ ذِي إِدْرَاكٍ صَالح للخطاب بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفراديّ، وَخَاطَبَهُمْ فِي آخِرِ الآيَةِ بِأُسْلُوبِ خِطَابِهِ لِجَمَاعَةِ كُلِّ الصَّالِحِينَ لِلْخِطَابِ مِنْ ذَوِي الإِدْرَاكِ وَالْفَهْمِ الْعِلْمِي:

أي: أفَلَا تَعْلَمُونَ هٰذِهِ الحقائِق الَّتِي عَرَضْنَاهَا لَكُمْ فِي هٰذِهِ الآيَة، وَتَضَعُونَهَا فِي خَزَائِنِ مَعَارِفِكُمُ الصَّحِيحَةِ الَّتِي لَا شَكَّ فِيهَا، وَتَسْتَدْعُونَهَا إِلَىٰ ذَاكِرَتِكُمُ الْحَاضِرَةِ، عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ تَدْعُو إِلَىٰ تَذَكُّرِهَا، لإيقَاظِ الإيمانِ بِهَا وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ مَقُولَةٍ بَاطِلَةٍ قَالَهَا مُنْكِرُو الْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ، يُعَبِّرُونَ بِهَا عَن اعْتِقَادِهِمْ فِي الموْتِ، وأَنَّهُ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ مُرُورِ الزَّمَانِ الَّذِي تَتَنَاقَصُ مَعَهُ قُدْرَاتُ الْحَيِّ عَلَىٰ مُتَابَعَةِ الحياة:

• ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

عُرِفَ أصحابُ هَـٰذِهِ الْمَقُولَةِ بِالدَّهْرِيِّين، الَّذِينَ يَرْبِطُونَ التَّغَيُّراتِ فِي الْكَوْنِ بِمُرُور الأزْمَانِ، وَتَحَرُّكِ عَنَاصِرِ الكَوْنِ وَأَجْزَائِهِ، ويَزْعُمُونَ أَنَّ مُرُورَ الزَّمَنِ الْمَدِيدِ مَعَ حَرَكَةِ أَجْزَاءِ الْكَوْنِ، هُمَا الْأَمْرَانِ اللَّذَانِ تَحْدُثُ بِهِمَا المخْلُوقَاتُ فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، سَواءٌ أكانَتْ غَيْرَ ذَوَاتِ حَيَاةٍ، أَمْ كَانَتْ ذَوَاتَ حَيَاةٍ، وَكَذَلِكَ يَكُونُ الْمَوْتُ بِتَنَاقُصِ أَوْ فَقْدِ شُرُوطِ الْحَيَاةِ فِي الْكَائِنِ الْحَيِّ، فَلَا بَعْثٌ وَلَا حَيَاةٌ أُخْرَىٰ.

• ﴿. . . وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ . . .﴾: أَيْ: وَمَا يميتُنا إِلَّا الدَّهْرُ. **الإهْلَاكُ**: الإِمَاتَةُ. **والدَّهْرُ**: الزَّمَانُ المتَتَابِعُ الَّذِي لَا يُدْرَكُ مِنْهُ إِلَّا الجزْءُ الحاضِر.

إِنَّ فِكْرَةَ إِهْلَاكِ الدَّهْرِ للأحْيَاءِ مُرْتَبِطَةٌ عَقْلاً بِفِكْرَةِ نُشُوءِ الْأَحْدَاثِ فِي الكَوْن، هُمَا فِكْرَتَانِ لَا تَنْفَكُّ إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَىٰ، فَمَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ مُرُورَ الزَّمَنِ مَعَ حَرَكَةِ أَجْزَاءِ الكَوْنِ، هُمَا الْمُسَبِّبَانِ فِي الدَّهْرِ لإِهْلَاكِ الْأَحْيَاءِ، لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ الدَّهْرَ هُوَ الَّذِي بِهِ تكُونُ كُلُّ أَحْدَاثِ الكَوْنِ، وَمِنْهَا وُجُودُ الْحَيَاةِ في الْأَحْيَاءِ.

وَهـٰذَا يَدُلُّنَا عَلَىٰ أَنَّ في البيان القرآنِيّ إيجَازاً بالحذْف، تَقْدِيرُه:

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا . . .﴾ فيها، وَمَا يُحْيينَا ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ﴾ فيها ﴿إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ بتَوَالِي الْأَزْمَانِ وَتَحَرُّكِ أجْزَاءِ الكَوْنِ الصُّغْرَى، وَحُدُوثِ مُصادفَاتِ التَّلَاؤُمِ وَمُصادفاتِ التَّنَافُرِ بَيْنَ الْأَجْزَاء.

هٰذِهِ الفِكْرَةُ هِيَ الَّتِي قَامَتْ فِي أَذْهَانِ الدَّهْرِيِّينَ، بِصُورَتِهَا الَّتِي تُوهِمُ بِأَنَّهَا فِكْرَةٌ مَقْبُولَةٌ فِي الْأَذْهَانِ.

فَرَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هٰذِهِ الفِكْرَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿... وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾:

أيْ: لَيْسَ لَهُمْ دَلِيلٌ عِلْمِيٌّ مَهْمَا كَانَ ضَعِيفاً، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَحْدَاثَ الكَوْنِ، وَمِنْهَا الْإِحْيَاءُ والْإِمَاتَةُ، من آثارِ مُرُورِ الزَّمَنِ الطَّوِيلِ وحَرَكَةِ أجْزاءِ الكَوْنِ الصُّغْرَىٰ.

إِنَّ الحياةَ ظَاهِرَةٌ خَارِجَةٌ عَنْ نِظَامِ أجْزَاءِ الكَوْنِ الْمَادِيَّةِ كُلِّهَا، فَهِيَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ أَثَراً مِنْ آثَارِ حَرَكَةِ أَجْزَاءِ الكَوْنِ الصُّغْرَىٰ مَهْمَا امْتَدَّ الزَّمَن، بِدَلِيلِ سَلْبِهَا مَعَ وُجُودِ كَامِلِ أجْزَاءِ الْحَيِّ دُونَ أَنْ يَنْقُصَ مِنْهَا شيء، ومَعَ سَلَامَةِ كُلِّ أعْضَائِهِ مِنْ خَلَلٍ مَا مَهْمَا كان ضَئِيلاً.

وَقَدْ أَجْرَىٰ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ كُلَّ مَا فِي وُسْعِهِمْ مِنْ تَجَارِبَ في المختَبَرَاتِ، فما اسْتَطَاعُوا أَنْ يُوجِدُوا خَلِيَّةً واحِدَةً ذَاتَ حَيَاةٍ، مِنْ مَادَّةٍ فِي الكَوْنِ لَا حَيَاةَ لَهَا.

إِنَّ مَقُولَةَ الدَّهْرِيِّينَ طَرْحٌ احْتِمَالِيٌّ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مُطْلَقاً، لَا مِن الْعَقْلِ، وَلَا مِنَ المشْهُودِ في الكَوْنِ الْمُدْرَكِ بالْحَوَاسِّ، وَلَا مِنَ المخْتَبَرَاتِ والتَّجْرِبَاتِ المعْمَلِيَّةِ، وَلَا مِنْ خَبَرٍ صَحِيحٍ يَجِبُ عَقْلاً التَّسْلِيمُ بِهِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا الظَّنُّ التَّوَهُّمِيُّ الضَّعِيفُ الَّذِي لَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ذُو رَأْيٍ سَدِيدٍ، وَفَهْمٍ رَشِيد.

أَمَّا الإيمانُ بالرَّبِّ الْخَالِقِ الْحَيِّ الْأَزَلِيِّ الْأَبَدِي الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْقَدِيرِ، فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي اقْتَرَنَ بالأَدِلَّةِ الْقَاطِعَةِ مِنَ الْعَقْلِ، وَشَوَاهِدِ الْحِسِّ، والْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ الّتِي يجبُ عَقْلاً التَّسْلِيمُ بها، وَقَدْ تَوَاطَأَت عَلَىٰ بَيَانها أَنْبِيَاءُ اللهِ وَرُسُلُهُ وَكُتُبُهُ الْمُنَزَّلَةُ عَبْرَ التَّارِيخ الْبَشَرِي.

فالإِحْيَاءُ والإِهْلَاكُ وَسَائِرُ أَحْدَاثِ الكَوْنِ وَمُتَغَيِّرَاتِهِ مَظَاهِرُ لإِرَادَتِهِ وتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ، وَقَدْ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُور.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ عَنْ مُنْكِرِي الْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ:

• ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

إِنَّ مِنْ صِفَاتِ مُنْكِرِي الحياة الأُخْرَىٰ بَعْدَ الموْتِ لِلْحِسَابِ، وفصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، أَنَّهُمْ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ فِي كِتَابِهِ بَيِّنَاتٍ مُثْبِتَاتٍ أَنَّ الجزاء حَقٌّ، تَشْهَدُ لَهُ بَرَاهِينُ الْعَقْلِ، وأَنَّ الْبَعْثَ حَقٌّ، وأَنَّ الْيَوْمَ الآخِرَ حَقٌّ، فالْخَالِقُ وَاضِعُ خُطَّةِ الْوُجُودِ وَمُنَفِّذُهَا تِبَاعاً كَمَا قَدَّرَهَا وَقَضَاهَا، قَدْ أَعْلَمَ الْجِنَّ ثُمَّ الْإِنْسَ بِأَنَّهُ سَيَجْزِي عِبَادَهُ الَّذِينَ قَضَىٰ أَنْ يَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في ظُرُوف الحياة الدُّنيا، وأَنَّ الجزاءَ الْأَمْثَلَ لَهُمْ جَمِيعاً سَوْفَ يَكُونُ في الحياة الأُخْرَىٰ، بَعْدَ أَنْ يَبْعَثَهُمْ مِنْ مَوَاضِعِهِمْ مِنَ الْأَرْض، وأَنَّهُ أَعَدَّ لِهَـٰذَا الجزاء الأَمْثَلِ دَارَيْنِ: إِحْدَاهُما لِنَعِيمِ المؤْمِنِينَ المتَّقِينَ، وأُخْرَاهُمَا لِعَذَابِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِين، والْعُصَاةِ الْفُجَّار، والظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ.

إِنَّ مُنْكِرِي الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، ومُنْكِرِي الجزاءِ يَوْمَ الدِّين، إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ الَّتِي سَبَقَ شَرْحُ مَضْمُونِها، لَمْ يَجِدُوا حُجَّةً فِكْرِيَّةً يَحْتَجُّونَ بِهَا، تُسَوِّغُ فِي مَقَايِيسِ الْعُقُولِ إِنْكَارَهُمْ، إِذْ هُمْ مُحَاصَرُونَ فِكْرِيًّا بِمَا يُثْبِتُ قَانُونَ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ يَوْمَ الدِّين، فَيَلْجَؤُونَ إِلَىٰ الْمُطَالَبَةِ بِإِحْيَاءِ مَنْ مَاتَ مِنْ آبَائِهِمْ، مَعَ أَنَّ الْبَيَانَاتِ الدِّينِيَّةِ فِي كُلِّ مَا أَنزلَ اللهُ مِنْ رِسَالَاتٍ عَلَىٰ رُسُلِهِ، لَيْسَ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْبَعْثَ والجزاءَ الأَمْثَلَ سَيَكُونُ فِي ظُرُوفِ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ سَوْفَ يَكُونُ فِي حَيَاةٍ أُخْرَىٰ بَعْدَ إِنْهَاءِ ظُرُوف الحياة الدُّنيا كُلِّهَا، فَلَيْسَ مِنَ المقْبُولِ عَقْلاً الْمُطَالَبَةُ بإحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ فِي هَـٰذِهِ الْحيَاةِ الدُّنيا، إِذْ قَضِيَّةُ الْجزَاءِ وإمْكَانِ الْبَعْثِ مِنَ الْقَضَايَا الْعَقْلِيَّة، وَكَشْفُ عَنَاصِرِ الْخُطَّةِ المسْتَقْبلِيَّةِ مِنَ الْقَضَايَا الْخَبَرِيَّةِ الصَّادِقَةِ، الَّتِي يَشْهَدُ بِصِدْقِهَا بُرْهَانُ الْعَقْلِ.

• ﴿... مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: مَا كَانَ رَدُّهُمُ الدِّعَائِيُّ، الَّذِي وَاجَهُوا بِهِ جُمْهُورَ المؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، بِطَرِيقَةٍ دِعَائِيَّةٍ غَوْغَائِيَّة، إِلَّا أَنْ قَالُوا هـٰذَا الْقَوْلَ، مَعَ أَنَّ هـٰذَا الْقَوْلَ لَيْسَ حُجَّةً أَصْلاً، وَلَا يَدْخُلُ فِي سُلَّمِ الْحُجَجِ بِشأْنِ هـٰذَا الموضُوع، وَلَكِنْ سَمَّاهُ اللهُ حُجَّةً مُرَاعَاةً لِحَالِهِمْ ونَقْصِ عُقُولِهِمْ، إِذْ أَوْهَمُوا بِغَوْغائِيَّةٍ أَنَّهُمْ يَأْتُونَ بِحُجَّة.

فجاء التَّعْلِيمُ الرَّبَّانِيُّ لِلرَّسُولِ ﷺ وَلِكُلِّ دَاعٍ إِلى اللهِ من أُمَّتِهِ، أَنْ يَقُولَ لَهُمْ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ التالِي:

• ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

إِنَّهُمْ إِذْ لَمْ يَأْتُوا بِحُجَّةٍ فِي مَقَايِيس الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ التَّعْلِيمِيّ، أَنْ يُخْبَرُوا بالْحَقِيقَةِ الَّتِي سَوْفَ تَكُونُ واقِعَةً حَتْماً، رَدّاً عَلَىٰ مُطَالَبَتِهِمْ بِإِحْيَاءِ آبَائِهِم.

• ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ...﴾: أي: قُل اللهُ يُتَابعُ إِحْيَاءَكُمْ إِلَىٰ آجالِكُمْ الْمُقَدَّرَةِ لِمَوْتِكُم.

• ﴿... ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ...﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ تَنْتَهِيَ آجالُ حَيَاتِكُمْ فِي الدُّنْيَا المقَدَّرَةِ الْمَقْضِيَةِ لَكُمْ يُمِيتُكُمْ، فَلَا أَحَدَ مِنْكُمْ يَسْتَطِيعُ تَأْجِيلَ مَوْتِهِ.

ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ بَعْدَ انْتِهَاءِ ظُرُوفِ هٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، وبَدْءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ.

• ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ مَسُوقِينَ مَحْشُورِين.

• ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّكُمْ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، تَمْهِيداً لِتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ الْأَكْبَر.

• ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: وَيَوْمُ القيامَةِ هٰذَا لَا شَكَّ في أَنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ وَاقِعاً حَقًّا.

• ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾: أي: ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا هَٰذِهِ الْحقَائِقَ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّ عِلْمَهُمْ بِهَا قَدْ يُلْجِمُهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ، وَشَهَوَاتِهِمْ، وكثيرٍ مِنْ رغَبَاتِهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لما فِيها مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ الَّتِي تَسْتَتبِعُ الجزاءَ يَوْمَ الدِّينِ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الْخَامِسِ مِنْ دُرُوس سورة (الجاثية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٠)

التدبّر التحليلي للدّرسِ السّادِسِ من دُروس سورة (الجاثية) الآيَات من (٢٧ ـ ٣٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ

كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ
بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ
ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم
بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

القراءات:

(٢٨) • قرأ يَعْقُوبُ: [**كُلَّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ**] بِنَصْبِ «كُلَّ» وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَة: [**كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ**] بِرَفْعِ «كُلُّ». والقراءتَانِ وَجْهَانِ نَحْوِيَّان.

(٣٢) • قرأ حَمْزة: [**وَالسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا**] بِنَصْبِ «السَّاعَةَ، عَطْفاً عَلَىٰ «وَعْدَ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا**] بِرَفْعِ «السَّاعَةِ» على أَنَّها مُبْتَدأ.

(٣٣) • قرأ أبو جعفر: [**يَسْتَهْزُونَ**] فِي الوصْلِ والْوَقف، وكذَلِكَ حمزة في الوقف.

وقَرأَها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَسْتَهزِءُونَ**] في الوصْلِ والوقف.

(٣٤) • قرأ السُّوسِي، وأَبُو جَعْفر: [**وَمَا وَاهُمْ**] بإبْدَالِ الْهَمْزَةِ ألفاً، وكَذَلِكَ حَمْزَةُ فِي الوقْف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَمَأْوَاهُمْ**] دُون إبدال.

(٣٥) • قرأ حفصٌ: [**هُزُواً**].

وقرأَهَا حمزَةُ، وخَلَفٌ: [**هُزْءاً**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[هُزُءاً]**.

وهِيَ وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ لِنُطْقِ هذه الْكَلِمَة.

(٣٥) • قَرأ حمزة، والْكِسَائي، وخَلَفٌ: **[لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا]** بالبِنَاء لِلْمَعْلُوم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا]** بالْبِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ.

أي: فَهُمْ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَخْرُجُوا.

تَمْهيد:

في آياتِ هٰذَا الدَّرْس تَقْدِيمُ لَقَطاتٍ مِنْ أَحْدَاث يَوْم الْقِيَامَةِ، وفيها ترْهِيبٌ لِمَنْ تَلِينُ قُلُوبُهُمْ وَنُفُوسُهُمْ لِلْمُرْهِبَاتِ، إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ التَّرْهِيبَ أَحَدُ وَسَائِلِ الْعِلَاجِ الكُبْرَىٰ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴿٢٧﴾﴾: أي: وَللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وهذا تَعْبِيرٌ عَنْ مِلكِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ، فالسَّمَاوَاتُ تَشْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ في الْكَوْنِ حَوْلَ الأَرْضِ، لِأَنَّهُ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا سَمَاوَاتٌ.

اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ مِن تَقْدِيم الْخَبَر: ﴿لِلَّهِ﴾ على المبتدأ الَّذِي هو مَعْرِفة: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وجِيءَ بِهٰذَا البيانِ مِنَ الْقَاعِدَة الْإيمانِيَّةِ تَمْهِيداً للحديث عَنْ قِيَام السَّاعَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ مُرْهِبَاتٍ، تَهْدِي أُولِي الْأَلْبَابِ إِلَىٰ الحقِّ والرُّشْدِ خَوْفاً مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿... وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

الْمُرَادُ بِقِيَامَةِ السَّاعَةِ هُنَا قِيَامُ سَاعَةِ بَعْثِ الْمَوْتَىٰ لِلْوُقُوف بَيْنَ يَدَي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، ثُمَّ يَكُونُ تَنْفِيذُ الجزاء، عَلَىٰ وَفْقِ الْقَضَاء الرَّبَّانِيِّ بَيْنَ الْعِبَادِ الَّذِينَ كَانُوا في الحياةِ الدُّنْيَا مُمْتَحَنِين.

الْمُبْطِلُونَ: هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بالْبَاطِلِ واتَّبَعُوه، واخْتَارُوا أَنْ يَسْلُكُوا سُبُلَهُ، وكَفَرُوا بِالْحَقِّ ولَمْ يَتَّبِعُوا سَبِيلَهُ، وهُو صِرَاطُ اللهِ الْمُسْتَقِيمُ.

الباطِلُ: ضِدُّ الْحَقِّ، وهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي لَا ثَبَاتَ لَهُ، لِمُخَالَفَتِهِ لِلْوَاقع. وهُو فِي قَضَايَا الدينِ كُلُّ ما كَانَ ضِدَّ مَا أَمر اللهُ بالإيمانِ به، وَكُلُّ مَا خَرَجَ في السُّلُوكِ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المستقيم.

الْخَاسِرُ: هُو الْمَغْبُونُ في تِجارَتِهِ، الَّذِي خَسِرَ رَأْسَ مَالِهِ، كُلَّهُ أَوْ بَعْضَهُ، ولَمَّا كَانَ رَأْسُ مَالِ الْإِنْسَانِ فِي وُجُودِهِ ذَاتَهُ، كَانَ بِتَعْرِيضِهِ ذَاتَهُ لِعَذَاب اللهِ ذَا خَسَارَةٍ عُظْمَىٰ، فإِذَا عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْخُلُودِ في عَذَابِ النَّارِ الْأَلِيمِ، كَانَ مِنْ زُمْرَةِ أَخْسَرِ الْخَاسِرِينَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَعْرِضُ مَشْهَداً مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ لِكُلِّ مُؤَهَّلٍ للخطاب.

• ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

الْجُثُوُّ: الْجُلُوسُ عَلَىٰ الرُّكْبَتَين، ويُطْلَقُ أَيْضاً على الْقِيَامِ عَلَى أَطْرَافِ الْأَصَابع، يَقَالُ لُغَةً «جَثَا، يَجْثُو، جَثْواً، وجُثُوّاً، فَهُوَ جاثٍ، وهُمْ جِثِيٌّ، وجُثِيٌّ» أي: جَلَسَ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، أَوْ قَامَ عَلَىٰ أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ.

ولَعَلَّ المعنيَيْنِ مُرَادَانِ، عَلَىٰ التَّوْزِيعِ بَيْنَ النَّاسِ، فَمِنْهُمْ جَالِسٌ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ قَائِمٌ عَلَىٰ أَطْرَافِ أَصابعِ قَدَمَيْهِ.

والمقْصِدُ مِنْ هٰذَا الْجُثُوِّ الْحُضُورُ في مَحْكَمَةِ الْفَضْلِ والْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّينِ.

والْمُرَادُ بِكُلِّ أُمَّةٍ كُلُّ أُمَّةٍ كَانَتْ مَوْضُوعَةً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْابْتِلَاء.

وقَدْ ثَبَتَ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ كَانَ لَهَا نَذِيرٌ، وَدَلَّ هٰذَا النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ كَانَ لَهَا كِتَابٌ رَبَّانِيٌّ، فَهِيَ تُدْعَىٰ أَفْرَاداً لِلْحُكْم عَلَيْهَا بِمَا جَاءَ فِي كِتَابِهَا الرَّبَّانِيّ، الَّذِي تبَلَّغَتْهُ عَنْ طَرِيقِ رَسُولِهَا أو الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

وَيُقَالُ لَهَا: ﴿... ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾: أي: تُجزَوْنَ جَزَاءً مُطَابِقاً لِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ سَيِّئَاتٍ وَمُخَالفَاتٍ لِمَا أُمِرتُمْ بِهِ فِي كِتَابِ رَبِّكُمْ.

أَمَّا الْحَسَنَاتُ فَتُثَابُونَ عَلَيْهَا إلى سَبعمئَةِ ضِعْفٍ إلى أضْعَافٍ كثيرة كمَا جاءَ في نُصُوصٍ أُخرَىٰ، وهٰذَا مِنْ فَيْضِ فَضْلِ اللهِ عَلَىٰ المحسنين.

وَيُقَالُ لَها: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ وَهُوَ كِتَابٌ جَامِعٌ لِكُلِّ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، وَيُصَوِّرُ مِنْهُ لِكُلِّ فَرْدٍ مَا يَتَعَلَّقُ بِحَيَاتِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الدُّنْيَا، وَيُسَلَّمُ نُسْخَةً عَمَّا أسْلَفَ أَيَّام كَانَ فِي حَيَاةِ الامْتحان.

• ﴿... إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: كُنَّا نُسَجِّلُ بِالتَّصْوِيرِ الْكَامِلِ للظَّاهِرِ والْبَاطِنِ، ولِحَرَكَاتِ الأفْكَارِ والْقُلُوبِ والنُّفُوسِ، كُلَّ عَمَلٍ كُنْتُمْ تَعمَلُونَهُ، وَتُحَاسبُونَ الْيَوْمَ عَلَىٰ كُلِّ عَمَلٍ كُنْتُم تَعْمَلُونَهُ بِإرَادَاتِكُمْ الْحُرَّةِ المختارَةِ، الَّتِي لَا جَبْرَ فِيهَا وَلَا إِكْرَاه، ممَّا هُوَ دَاخِلٌ في امْتِحَانِكُمْ.

الاسْتِنْسَاخُ: طَلَبُ نُسْخَةٍ عَنِ الشَّيْءِ كَامِلَةِ الدِّقَّة، فَلا زِيَادَة فِيهَا عَنِ الْأَصْلِ وَلَا نُقْصَان، ومِنْهُ اسْتِنْسَاخُ الكِتَاب، واسْتِنْسَاخُ صُورَةٍ عَنْ عَمَلٍ مَا، ومِنَ الاسْتِنْسَاخِ تَصْوِيرُ الكِتَابِ بآلَةٍ تُعْطِي صُورَةً دَقِيقَةً عَنْه، وَتَصْوِيرُ

الْمَجَامِعِ والْحَفَلَاتِ بآلَاتِ التَّصْوير، وأعْظَمُ مِنْ كُلِّ ما تَوَصَّلَ إِلَيْهِ النَّاسُ وَيَتَوَصَّلُونَ مِنْ آلَاتِ اسْتِنْسَاخِ صُوَرِ الْأَشْيَاءِ، مَا أَوْدَعَ اللهُ فِي كَوْنِهِ مِنْ مُصَوِّرَاتٍ تَسْتَنْسِخُ كُلَّ ظَاهِرٍ وَكُلَّ بَاطِنٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّىٰ خَوَاطِرَ الْأَفْكَارِ، وَحَرَكَاتِ الْقُلُوبِ، وَلَوَاعِجَ النُّفُوسِ، وانْدِفَاعَاتِ الشَّهَوَاتِ والْأَهْوَاء.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً نَتِيجَةَ مَوْقِفِ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، وَطَاوِياً ذِكْرَ أَحْداثٍ كَثِيرَة:

• ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

فِي هٰذِهِ الآيَاتِ بَيَانُ نَتِيجَةِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات. وبيانُ نتيجةِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَانُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ مُجْرِمِين.

• **أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا مِنَ الصَّالِحَات** مَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ إيمانِهِمْ وإسْلَامِهِمْ، فَقَدْ دَلَّتِ الآية (٣٠) عَلَىٰ أَنَّ اللهَ يُدْخِلُهُم فِي بَاطِنِ رَحْمَتِهِ، الَّتِي مِنْ آثَارِهَا يَوْمَ الدِّينِ جَنَّتُهُ الْعَظِيمَةُ، الَّتِي فِيها النَّعِيمُ الْمُقِيم، والَّتِي فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ.

• ﴿... فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ...﴾: أي: فَيُدْخِلُهُمْ فِي آثار صِفَةِ رَحْمَتِهِ، ومِمَّا هُو مُدْرَكٌ بَدَاهَةً، أَنَّ الدَّاخِلَ فِي آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ وَمِنْهَا جَنَّتُهُ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُحاطَ كُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ مَهْمَا صَغرَ بالسَّعَادَةِ

الْغَامِرَةِ، فَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِكَدَرٍ مَا، وَلَا بِمُنَغِّصٍ ما، وَلَا بِشَيْءٍ يَكْرَهُهُ مَهْمَا كَانَ صَغِيراً دَقِيقاً، لا فِي جَسَدِهِ، وَلَا فِي نَفْسِهِ، وَلَا فِي تَصَوُّرَاتِهِ وَأَوْهَامِهِ، وَلَا فِي أَمَانِيهِ الَّتِي تَمْتَدُّ إلى أَبْعَادِهَا خَيَالَاته.

• ﴿... ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾: **الْفَوْزُ**: النَّجَاةُ مِنْ كُلِّ شَرٍ وَمَكْرُوه ـ والظَّفَرُ بالمطْلُوب المَرْغُوب فِيهِ ـ والرِّبْحُ.

والْمُشَارُ إِلَيْهِ بِعبَارَةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هُوَ الدُّخُولُ فِي رَحْمَةِ اللهِ على مَا سَبَقَ إيضَاحُهُ.

الْمُبِينُ: أي: الْجَلِيُّ الْوَاضِحُ الّذي لا يَخْفَىٰ عَلَىٰ ذِي فِكْرٍ.

في هٰذِهِ الجملة قَصْرٌ مُسْتَفَادٌ مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفِي الْإِسْنَادِ، مع ضَمِير الْفَصْل.

أي: ذَلِكَ الدُّخُولُ في رَحْمَةِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، هُوَ وَحْدَهُ الْفَوْزُ الْجَلِيُّ الْوَاضِحُ الَّذِي يُدْرِكُهُ كُلُّ ذِي فِكْر.

• **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَانُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ مُجْرِمِينَ**: فَقدَ عَرَضَ النَّصُّ لَقْطَةً مِنْ مُحَاسَبَةِ اللهِ لَهُمْ، وَلَقْطَةً مِنْ ظُهُورِ سَبَب كَوْنِهِمْ مُجْرِمِينَ بِمَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ مِنْ سَيِّئَاتٍ كُبْرَيَاتٍ، ولَقْطَةً مِنْ مَصِيرِهِمُ الذي صَارُوا إِلَيْهِ فِي جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِهِمْ، وَلَقْطَةً مِمَّا يُقَالُ لَهُمْ بَعْدَ اسْتِقْرَارِهِمْ فِي مَوَاضِعِهِمْ مِنَ الْجَحِيم، وَخِتَاماً مُوَجَّهاً لِكُلّ صَالِحٍ للخطابِ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمين.

فَهِيَ لَقَطَاتٌ أَرْبَعُ، وَبَعْدَهَا خِطَابٌ عامٌّ بِشَأْنِهِمْ، مُوَجَّهٌ لِكُلِّ صَالِحٍ لِلْخِطَابِ:

اللَّقْطَةُ الأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لَهُمْ فِي بَدْءِ مُحَاسَبَتِهِمْ:

• ﴿... أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ

إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

• ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: الفاء في ﴿أَفَلَمْ﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَطْوِيٍّ مَحْذُوفٍ مِنَ اللَّفْظِ يُمْكِنُ إدراكُهُ ذِهْناً، والتَّقْدِيرُ: أَكُنْتُمْ مُهْمَلِينَ مَتْرُوكِينَ لِأَنْفُسكِمْ، لَا تُبَلَّغُونَ مَطْلُوبَ رَبِّكُمْ مِنكُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ، فَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي الَّتِي أَنْزَلْتُهَا فِي كِتَابِي إِلَيْكُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ يَتْلُوهَا رَسُولِي إِلَيْكُمْ، أَوْ أَحَدُ الدُّعَاةِ الْمُبَلِّغِينَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

فإِمَّا أَنْ يُقِرُّوا فَتَقوم الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، وإِمَّا أَنْ يُنْكِرُوا وحِينَئِذٍ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ مِن شَرِيط حَيَاتِهِمْ في الدُّنْيَا مَا يُثْبِتُ أَنَّهُم كَانَتْ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ رَبِّهِمْ، فَيُعْرِضُونَ عَنْهَا، وَلَا يُبَالُونَ بِهَا، وَلَا يَكْتَرِثُونَ لَهَا، وَيَسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتِّبَاعِ رَسُولِ رَبِّهِمْ، أَوِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الدَّاعِي مِنْ أُمَّتِهِ، وَيُؤْتَىٰ بالشُّهُودِ فَيَشْهَدُونَ عَلَيْهِمْ، فَتَدْمَغُهُمُ الْحُجَّةُ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهَا وَلَا إِنْكَارَهَا، وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُمْ:

• ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: أي: فاسْتَكْبَرْتُمْ عَنِ اتِّبَاعِ حَمَلَةِ رِسَالَتِي إِلَيْكُمْ، رُسُلاً أَوْ مُبَلِّغِينَ عَنْهُمْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهم، وكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ بالكُفْرِ، وبارْتِكَابِ الكَبَائِرِ مِنَ الْآثَامِ الَّتِي زُيِّنَ لَكُمْ الاسْتِمْتَاعُ بِهَا، مِنْ قِبَلِ شَيَاطِينِ الْجِنِّ والإِنْسِ.

الْمُجْرِمُ: هُوَ في اللُّغَةِ المتَعَدِّي بِذَنْبٍ كبير.

وقَدْ يَكْذِبُ بَعْضُهُم فَيَزْعُمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ عِلْمٌ بالآخِرَةِ وَيَوْمِ الدِّين، وهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ:

• ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

أَي: وكُنْتُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ إِنَّ اللهَ وَعَدَ بالْجَزَاءِ عَلَىٰ الْأَعْمَالِ، وإِنَّهُ

يَكُونُ بَعْدَ الْبَعْثِ إِلَىٰ الحياةِ مَرَّةً أُخرَىٰ، وإِنَّهُ يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، وَإِنَّكُمْ سَوْفَ تَقِفُونَ هٰذَا الْمَوْقِفَ بَيْنَ يَدَي رَبِّكُمْ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، ثُمَّ يَكُونُ الْجَزَاءُ تَنْفِيذاً لِقَضَائِهِ لَكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ، وَإِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، فاللهُ لَا يُخْلِفُ الميعاد، وَإِنَّ السَّاعَةَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا بَعْثُ الْمَوْتَىٰ، لَا رَيْبَ فِي قِيَامِهَا وَوُقُوعِ أَحْدَاثِهَا كَمَا جَاءَ فِي بَيَانَاتِ كِتَاب اللهِ، وَبيَانَاتِ رَسُوله، قُلْتُمْ:

مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ، إِذْ لَمْ يَسْبِقْ أَنْ شَاهَدْنَا في الكَوْنِ أَحْدَاثاً مُشَابِهَةً لِهٰذِهِ التَّفْصِيلات، وَقُلْتُمْ إِنَّ هٰذِهِ الأَخْبَارَ عَنِ السَّاعَةِ لَا تُفِيدُنَا إِلَّا ظَنًّا احْتِمَالِيًّا لَا يَصِلُ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْعِلْمِ، الَّذِي يَجِبُ الاعْتِمَادُ عَلَيْهِ، واعْتِقَادُهُ، وَالْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ، وَقُلْتُم مَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِين، وَكُنْتُمْ لَا تَعْبَؤُنَ بِبَراهِينِ الْعَقْلِ وَتَتَجَاهَلُونَها، وَكُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ رُسُلَ اللهِ فيما يُخْبِرُونكُمْ بِهِ، مَعَ أَنَّهُمْ مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللهِ بالْمُعْجِزَاتِ الباهراتِ، والْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ.

فَلَا تَنْفَعُكُمُ الْيَوْمَ مَعْذِرَتُكُمْ، إِذْ كُنْتُمْ تَرْفُضُونَ الْحَقَّ مَعَ إِدْرَاكِكُمْ لَهُ، وَاسْتِيقَانِكُمُ الدَّاخِلِيّ بِأَنَّهُ حَقٌّ، وَلَكِنْ غَلَبَتْ أَهْوَاؤُكُمْ وَشَهَوَاتُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا إِرَادَاتِكُمْ الْعَاقِلَةِ باخْتِيَارِكُمْ الْحُرِّ، فَلَا عُذْرَ لَكُمْ تَعْتَذِرُونَ بِهِ الْيَوْمَ فِي مَحْكَمَةِ رَبِّكُمْ.

اللَّقْطَةُ الثَّانِية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في النَّصّ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا. . . ﴿٣٣﴾﴾: أي: وَعَلِمُوا قَضَاءَ اللهِ بِشَأْنِهِمْ، وعُرِضَتْ عَلَيْهِمْ مَنْزِلُهُمْ فِي جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِينَ، وَبَدَا لَهُمْ تَحَقُّقُ جَزَاءِ سَيِّئَاتِ الأَعْمَالِ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم، فَأَصَابَهُمُ الذُّعْرُ والسُّكُوتُ والْيَأْسُ والنَّدَمُ والانْهِيَارُ.

اللَّقْطَةُ الثَّالِثَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي النّصّ: ﴿. . . وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

• ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: أي: وَلزِمَهُمْ وَوَجَبَ عَلَيْهِمْ، وَأَصَابَهُمْ إِصَابَةً مُحِيطَةً بِكُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِمْ.

• ﴿مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أيْ: الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا في الحياة الدُّنْيَا يَسْتَهْزِئونَ بِهِ، حِينَ كانَ يُوَجَّهُ لَهُمُ الْوَعِيدُ بِهِ والترهِيبُ مِنْهُ.

• ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾: وقِيلَ بِتَكْلِيفٍ مِنَ اللهِ لِلْمَسْؤُولين عَنْ شُؤُونِهِمْ مِنَ الْمَلائِكَةِ أَنْ يُبَلِّغُوهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ.

الْيَوْم نَتْرُكُكُمْ تَتَقَلَّبُونَ فِي الْعَذَابِ الَّذِي قُضِيَ بِهِ عَلَيْكم، مِثْلَمَا كُنْتُمْ فِي الحياةِ الدُّنْيَا قَدْ تَرَكْتُمُ التّصْدِيقَ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ فِي يَوْمِكُمْ هٰذا، وكَذَّبْتُمْ بِهِ، واتَّبَعْتُمْ مَا زُيِّنَ لَكُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا.

أَصْلُ النِّسْيَانِ في اللُّغَةِ: التَّرْكُ والإِهْمَالِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الإنْسَانَ إِذَا تَرَكَ شَيْئاً مُهْمِلاً لَهُ، مُسِحَ هٰذَا الشَّيْءُ مِنْ ذَاكِرَتِهِ، فَلَمْ يَعُدْ يَخْطُرُ عَلَىٰ بَالِهِ، فَغَلَبَ فِي اسْتِعْمَالَاتِ النَّاسِ الْمَسْحُ مِنَ الذَّاكِرَة لِمَادَّة «النِّسْيَان».

• ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي: وَمَنْزِلُكُمْ الَّذِي تَسْتَقِرُّون فِيهِ دواماً دَارُ الْعَذَاب النَّار.

• ﴿... وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾: أي: وَمَا لَكُمْ مِنْ مُنْقِذِينَ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ، أَوْ يَنْصُرونَكُمْ بِوِسَاطَةٍ أَوْ شَفَاعَة.

«مِنْ» في عِبارَة ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ زِيدَتْ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْي في ﴿وَمَا لَكُم﴾ ولِلتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ كما يَقُولُ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّة.

اللَّقطَة الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي النَّصّ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ... ﴿٣٥﴾﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ هٰذِهِ اللَّقْطَةَ الْبَيَانِيَّةَ، تُوجَّهُ لَهُمْ وَهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي عَذَابِ النَّارِ، بَعْدَ أَنْ يَضِجُّوا مُتَذَمِّرِينَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ

بِخِطَابٍ مُوَجَّهٍ لجماعَتِهم: ذَلِكُمُ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ الْهَابِطُ إِلَىٰ جِهَةِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ الَّذِي حَاقَ بِكُمْ، هُوَ بِسَبَبِ أَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةِ الامْتِحَانِ، آيَات اللهِ الْمُنَزَّلَاتِ لِهِدَايَتِكُمْ، وَبَيَانِ صِرَاطِ رَبِّكُمْ الْمُسْتَقِيمِ، هُزُواً، أي: شَيْئاً يُسْتَهْزَأُ بِهِ وَيُسْخَرُ مِنْه.

الْهَزْءُ والْهُزُءُ: السُّخْرِيَة، وَهُمَا مَصْدَرَانِ لِفِعْلِ «هَزِئَ به، وَهَزِئَ مِنْهُ». أُطْلِقَ الْمَصْدَرُ بِمَعْنَىٰ اسْمِ «الْمَفْعُولِ» أي: شَيْئاً يُسْتَهْزَأُ بِهِ، وَيُسْخَرُ مِنه.

• ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: وَخَدَعَتْكُمْ زِينَاتُ الحياةِ الدُّنيا، وأَطْمَعَتْكُمْ بالْبَاطِلِ، فَصَرَفَتْكُمْ عَنِ الإيمانِ بالْحَقِّ، وَعَنِ الْعَمَلِ بِمَا يُحَقِّقُ لَكُمُ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةِ، مُكَذِّبِينَ رَسُولَ رَبِكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ عَنْه.

الْخِطَابُ الْعَامُّ بِشَأْنِهِمْ الْمُوَجَّهُ لِكُلِّ صَالحٍ لِلْخِطَاب: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النصّ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: فالْيَوْمَ وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ، لَا يُخْرَجُونَ مِنْ دَار الْعَذَاب النَّار، لِأَنَّهُمْ كَانُوا كافِرِينَ مُجْرِمِينَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

• ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي: وَلَا يُرْفَعُ عَنْهُمُ الْعَتْبُ والْمَلَامُ مَهمَا دَعَوْا وَتَضَرَّعُوا، وَمَهْمَا صَاحُوا وَأَضَجُّوا مُطَالِبِينَ بالْخَلاصِ وَالْخُرُوجِ مِنْ دَارِ الْعَذاب، إِذْ هُمْ فِيها خَالِدُونَ، بِقَضَاءِ مُبْرَمٍ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السَّادِس من دُرُوس سورة (الجاثية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❋ ❋ ❋

(١١)
التدبّر التّحليلي للدّرس السّابع من دُروس سورة (الْجَاثِية) الآيتان (٣٦) و(٣٧) آخِرِ السُّورَة

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

تَمْهِيد:

خَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سُورَة (الجاثية) بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ المشْتَمِلَتَيْنِ عَلَىٰ ثَنَاءِ عَلَىٰ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، بِطَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، تَذْكِيراً بِعَنَاصِرَ مِنَ الْقَاعِدَةِ الإيمانيَّة، الَّتِي هِيَ أَسَاسُ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

• ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾: أي: فَتَفْرِيعاً عَلَىٰ كُلِّ مَا جَاءَ في السُّورَةِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ، للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْحَمْدُ كُلُّهُ.

استفيد الْقَصْرُ مِنْ تَقْدِيمِ المسْنَدِ عَلَىٰ المسْنَدِ إِلَيْهِ فِي جُمْلَةٍ اسْمِيَّة.

والْحَمْدُ للهِ يَتَنَاوَلُ تَمْجِيداً للهِ بِصِفَاتِهِ الْوُجُودِيَّةِ الَّتِي هِيَ مِنْ ذَاتِهِ، وَبِصفَاتِ أفْعَالِهِ، وَيَتَنَاوَلُ تَنَزُّهَهُ عَنْ كُلِّ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِجَلَالِهِ، فَهُوَ يَشْمَلُ الثَّنَاءَ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِكُلِّ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، والثَّنَاءَ عَلَىٰ اللهِ بِتَنَزُّهِهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، مَا عَلِمْنَا مِنْ كُلِّ ذَلِكَ وَمَا لَمْ نَعْلَمْ.

اللَّامُ الجارَّةُ في ﴿لله﴾ هِي بِمَعْنَىٰ الْمِلْكِ أو الاخْتِصَاص.

• ﴿... رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

كَلِمَةُ «رَبٌّ» هي في الأصْلِ مَصْدَرُ فِعْلِ «رَبَّ» ومَعْنَاهُ الإنْشَاءُ المتَدَرِّجُ للشَّيْءِ حَيّاً كَانَ أَمْ غَيْرَ ذِي حَيَاة، وَتَعَهُّدُهُ حَالاً فحَالاً، وَطَوْراً فَطَوْراً بِحَسَبِ فِطْرَتِهِ وَاسْتِعْدَادَاته.

ثُمَّ اسْتُعِيرَتْ كَلِمَةُ «الرَّبّ» مِنَ الْمَصْدَرِيَّةِ إلى اسْمِ الْفَاعِلِ، فَصَارَتْ تُطْلَقُ كَلِمَةُ «الرَّبّ» بِمَعْنَىٰ «الْمُرَبِّي».

فَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ، وَهُوَ رَبُّ الأَرْضِ، وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، أي: هُوَ رَبُّ كُلِّ مَوْجُودٍ سِوَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

• ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . .﴾.

الكِبْرِيَاء: الْمُلْكُ، والْعَظَمَةُ، والاسْتِقْلَالُ بأنَّ لَهُ الْحُكْمَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ، وأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لِسُلْطَانِهِ.

أي: وَللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كُلُّ هَـٰذِهِ المعاني الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا لَفْظَةُ الكِبْرِيَاء.

• ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: وهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ الْغَالِبَةُ لِكُلِّ الْقُوَىٰ، والَّتِي لَا تُقَاوِمُهَا قُوَّةٌ، إِذْ كُلُّ الْقُوَىٰ فِي الكَوْنِ مِنْ خَلْقِهِ وإمْدَادِهِ لَهَا بالْبَقَاءِ.

الْحَكِيم: أي: الَّذِي يُقَدِّر تَقْدِيرَاتِهِ، ويَقْضِي أقْضِيَتَهُ، ويُجْرِي تَصَارِيفَهُ فِي كَوْنِهِ، بِكَمَالِ الْحِكْمَةِ، فَيَخْتَارُ أَحْكَمَ الأَشْيَاءِ لِكُلِّ شيءٍ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر سُورة (الْجَاثِيَةِ) عَلَىٰ مَا فَتَحَ اللهُ به عَلَيَّ.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٢)
مُلحَق: مستَخرَجَات بَلَاغِيّة مِن سُورَةِ (الجاثية)

تَشْتَمِلُ سُورة (الجاثية) على اختيارات بلاغيّة نفيسة. مِنها ما يلي:

أوّلاً: الاستقطاعُ ممَّا سَوْف يجري يَوْم الدِّين وتقديم البيان كأنَّه يجري عند التكلُّم

ومن أَمْثلَة هـٰذَا الفنّ الإبداعِيّ في السُّورة مَا جاء في الآيات (٢٨ و٢٩ و٣١ و٣٢ و٣٤ و٣٥).

ثانياً:

القصْرُ: وهو تخصيص شيءٍ بِشَيْءٍ بعِبَارَةٍ كَلامِيَّةٍ تَدُلُّ عليه.

ومن أمْثِلَتِهِ في السورة مَا يلي:

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ ... ﴿١٢﴾﴾.

اسْتُفِيدَ الْقَصْر مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفَي الإسْنَاد.

المثال الثاني: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿٢٧﴾﴾.

اسْتُفِيدَ الْقَصْر مِنْ تَقْدِيمِ الْمُسْنَد وهو الخبر، على المسند إلَيْهِ وهو المبتدأ، في جُمْلَةٍ اسْمِية.

المثال الثالث: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

كسَابقِهِ.

المثال الرابع: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

في هٰذِهِ الآيَة قصران:

الأول: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ وهو كسَابِقَيْه.

الثاني: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ دَلَّ عَلَىٰ القصْر تَعْرِيف طَرَفي الإسناد، في جُمْلَةٍ اسميّة.

ثالثاً: إطلاقُ المصْدَر بَدَلَ اسْمِ الفَاعِل، أو اسم المفْعُول لِلْمُبَالَغَةِ، حَتَّىٰ كَأَنَّ الموصُوف عَيْنُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ المصْدَر

ومِنْ أمْثِلَتِهِ في السّورَة ما يلي:

المثال الأول: قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ مُنْكِرِ الجزَاءِ والْيَوْمِ الآخِرِ بإصرارٍ وعِنَادٍ.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾.

هُزُواً مَصْدَرُ «هَزَأَ بِهِ» أُطْلِقَ بِمَعْنَىٰ اسْمِ المفَعُولِ، أي: مَهْزُوءاً بِها، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ شِدَّةِ اسْتِهْزَائِهِ حتَّىٰ كأنَ المهزوءَ بِهِ عَيْنُ الْهُزْءِ.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ القرآن الْمَجيد:

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

أَطْلَقَ عَلَىٰ القرآنِ أَنَّهُ «بَصَائِرُ» وَأَنَّهُ «هُدىً» وَأَنَّهُ «رَحْمَةٌ» وَهِيَ ذَاتُ مَعَانٍ مَصْدَرِيَّة، بِمَعْنَىٰ اسْمِ الفاعل، على سبيل المبالغة حتَّىٰ كأَنَّ القرآن عَيْنُ الْبَصِيرة، وعَيْنُ الْهُدَىٰ، وعَيْنُ الرَّحْمَة.

رابعاً: اسْتِخْدَام الْكَلِمَةِ بِضِدِّ مَعْنَاهَا للتَّهَكُّم

ومن أَمْثِلَةِ هٰذَا الْفَنِّ قول الله عَزَّ وَجَلَّ بشأن الْكَافِرِ المستكبر:

﴿. . . فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾:

جاء استعمال: ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ بَدَلَ: «فَأَنْذِرْه» تَهَكُّماً بِهِ.

خامساً: تشبيهُ حَالِ مُمَارِسِ الشيء بحَالِهِ إذَا لَمْ يُمَارِسْهُ

ومن أمْثِلَة هٰذَا التشبيه قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الكافِرِ المصِرِّ عَلَىٰ كُفرِهِ مُسْتَكْبراً:

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾.

سادساً: خروج الاستفهام عَنْ أَصْلِ دَلاَلَتِهِ الَّتي هِي طَلَبُ الإفْهَام

ومن أمْثِلَتِهِ في السّورَة ما يلي:

المثال الأوّل: قول الله عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الكَفَرَةِ الَّذِينَ لَمْ تُؤَثِّرْ فِي إقْنَاعِهِمْ حَتَّىٰ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ آيَاتُ اللهِ الجليلَةُ:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

المراد بالاستفهام هُنَا النَّفْيُ، أي: لَا يُوجَدُ حَدِيثٌ يُؤْمِنُونَ بِهِ بَعْدَ رَفْضِهِمْ الإيمانَ بالْحَدِيثِ الرَّبَّانِيِّ الْمُعْجز.

المثال الثاني: قول الله عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ مَنِ اتَّخَذَ إلَهِهِ هواه:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً . . . ﴿٢٣﴾﴾.

المراد بالاسْتِفْهَامِ هُنَا التَّعْجِيبُ، والْحَثُّ عَلَىٰ الرُّؤْيَةِ لِيَعْجَبَ الرائي المتفكّر.

سابعاً:

تَنْزِيلُ الْقَرِيب مَنْزِلَة الْبَعِيد للدَّلاَلَة عَلَىٰ سُمُوِّهِ وارتفاع مَنْزِلَتِهِ الْمَعْنَوِيَّة، أو للدَّلاَلَةِ عَلَىٰ بُعْدِ مَنْزِلَتِهِ تَسفُّلاً إلَىٰ جِهَةِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّار.

• فَمِن الأمْثِلَةِ الّتِي يُرَادُ بِهَا الدَّلَالَةُ على ارْتِفَاع مَنْزِلَةِ القريب المعنويَّة قول الله تَعَالَىٰ بِشَأْنِ آياتِهِ الّتي تُتْلَىٰ على الرسول ﷺ:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ... ﴿٦﴾﴾.

جَاءَت الإشارة إلى الآيَاتِ القريبة المتْلُوَّة باسْمِ الإشارة الْمَوْضوعِ للبعيد، للدَّلَالَة عَلَىٰ ارْتفاع مَنْزِلَتِها المعنويَّة.

• ومن الأمْثِلَة الّتي يرادُ بها الدَّلَالَةُ عَلَىٰ بُعْدِ مَنْزِلَةِ الْقَرِيب تَسَفُّلاً إلَىٰ جِهَةِ الدَّرْكِ الأسْفَلِ من النار قولُ الله عَزَّ وَجَلَّ بشَأْنِ الّذِينَ يَتَّخِذُونَ آيَاتِ اللهِ هُزُواً، وهُمُ الْمُعَالَجُونَ فِي السُّورَة.

﴿... أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾:

أي: أُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ المتَسَفِّلُون إلى جِهَةِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِن النّار لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ لهم.

ثامناً: توكيد الْجُمْلَةِ الخبرية بالمؤكِّدات لدَاعٍ بَلاغي

فمن أمْثِلَةِ تَوكيد الْجُمَلِ الخبريَّةِ في السُّورَةِ لداعٍ بَلَاغِيّ الأمْثِلَةُ التالية:

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

التوكيد بِـ «إنّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللّام المزحْلَقَة» مُوَجَّهٌ لِلْمَدْعُوِّين إلىٰ الإيمان، فَحالُهُم يَسْتَدْعي التوكيد.

المثال الثاني: قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

التوكيد بـ «إِنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللام المزحْلَقة» مُوجَّهٌ لِغَيْرِ المؤمِنِين، لِأَنّ حَالَهُمْ يَسْتَدْعِي التوكيد.

المثال الثالث: قول الله عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ بَنِي إسرائيل:

﴿... إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾:

جاء التوكيد بـ «إِنَّ ـ والجملة الاسمية» لإِسْمَاعِ بَنِي إسرائيلَ الَّذِينَ خَالَفُوا دِينَ اللهِ، فحالُهُمْ يَسْتَدْعِي التوكيد.

ولِهَذَا التوكيد نظيرٌ في السُّورَة والْمَقْصُودُ بِهِ غَيْرُ الرَّسولِ، بَلْ الدُّعَاة مِنْ أُمَّته (انظر الآية ١٩).

تاسعاً:

مِنَ الفنون البلاغية الَّتِي ظَهَرتْ لي، مَا جاء في السورة من أمْرِ اللهِ رَسُولَهُ أَنْ يَأْمُرَ المؤمنينَ بأَنْ يَغْفِرُوا لِلْكَافِرين الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ إِسَاءَاتِهِم وأَذَاهُم، للإِشْعَارِ بِأَنَّ هـٰذَا الأَمْرَ مِنْ خَصَائِص سِيَاسَةِ القَائِدِ الإِنْسَانِي فِي الأُمَّةِ المحمّدِيَّة. (انظر الآية (١٤).

وبهـٰذَا انتهىٰ ملحق المستخرجات البلاغية من سورة (الجاثية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



سُورَة الأحقاف

٤٦ مصحف ٦٦ نزول

وهي سورة مَكِيَّة كلُّها

واستثنى بَعْضُهُمْ آيَاتٍ منها وذكر أَنَّها مَدَنية

وهي السورة السابعةُ من «الْحَوَامِيم» السَّبْع

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرشُ القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقۡنَا
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي
بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا
يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا
حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ
عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ
مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ
ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ
وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ
أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا

---

١ ـ • سكت أبو جعفر على (حَا) و(ميم) سكْتَةً لطيفة.

٩ ـ • قرأ قالون: [وَمَا أَنَآ إِلَّا] بإثبات ألف «أنَا» في الوصل والوقف وله وجْهُ الحذف في الوصل.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بحَذْفِ ألفِ «أنا».

نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ
فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا
وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ
خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ
إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ

---

١٢ ـ • قرأ نافع، والبزّي، وابنُ عامر، وأبو جَعْفَر، ويعقوب: [لِتُنْذِرَ] بتاء الخطاب خطاباً للرسول.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِيُنْذِرَ] بياء الغائب، والضمير عائد على: «كِتَابٌ مُصَدِّق».

١٣ ـ • قرأ يَعْقُوب [فَلَا خَوْفَ] بفتح الفاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَلَا خَوْفٌ] بالرَّفع مع التَّنوين. وهما وَجْهَانِ عَرَبيان.

١٥ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: [حُسْناً]. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِحْسَاناً].
وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

١٥ ـ • قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وهشام، وأبو جعفر: [كَرْهاً] بِفَتْح الكاف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [كُرْهاً] بضمّ الْكاف، وهما بمعنى واحد لغة.

١٥ ـ • قرأ يعقوب: [وَفَصْلُهُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَفِصَالُهُ]. والمؤدّى واحد.

١٥ ـ • قرأ ورش، والبزّي: [أَوْزِعْنِيَ أَنْ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسكان ياءِ المتكلم.

شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ
أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا
تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ
﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن
سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾
وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفِّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ
ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ
حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ
إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ
أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ
أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ

---

١٦ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائيّ، وخَلَفٌ: [نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ] بضمير المتكلم العظيم.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَاعَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ] بالمبنيّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعله.
١٧ ـ • قرأ نافع، وحفص، وأبو جعفر: [أُفٍّ]. وقرأها ابن كثير، وابن عامر، ويعقوب: [أُفَّ]. وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [أُفِّ].
وهي لغات لِهَٰذِهِ الكلِمَة.
١٧ ـ • قرأ هشام: [أَتَعِدَانِّي أَنْ] مع المدّ المشبع.
وقرأها نَافع، وابنُ كثير، وأبو جَعْفَر: [أَتَعِدَانِنِيَ أَنْ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة: [أَتَعِدَانِنِي أَنْ] بإسكان ياء المتكلم.
١٩ ـ • قرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، وهِشَام، وعاصِم، ويعقوب: [وَلِيُوَفِّيَهُمْ].
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [وَلِنُوَفِّيَهُمْ] بنون المتكلّم العظيم.

ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ
خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ
ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا
ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا
عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن
مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ
سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ

---

٢١ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [**إِنِّيَ أَخَافُ**] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٢٣ ـ • قرأ أبو عمرو: [**وَأُبْلِغُكُمْ**] من فعل: «أَبْلَغَ» المهموز.
وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: [**وَأُبَلِّغُكُمْ**] من فعل: «بَلَّغَ» المضعَّف.

٢٣ ـ • قرأ نافع، والبَزّي، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [**وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ**] بِفَتحِ ياءِ المتكلّم.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ بإسْكان ياء المتكلم.

٢٥ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب، وخَلَفٌ: [**لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ**].
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [**لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ**].

٢٦ ـ • قرأ أبُو جعفر: [**يَسْتَهْزُونَ**] وَصْلاً وَوقْفاً، وكذلِكَ حمزة في الوقف، ولَهُ تَسْهيلُ الهمزة بينها وبين الواو، وإبدالُها يَاءً خالصة.
=

أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾
فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟
عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ
نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا
قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا
كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى
ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟
بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن
لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ
أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ
بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى
ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ
وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً
مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

= وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [يَسْتَهْزِئُونَ].

٣٣ ـ • وقف يعقوب بهاء السّكْتِ علىٰ: [بِخَلْقِهِنَّ].

٣٣ ـ • قرأ يعقوب: [يَقْدِرُ] وقرأها باقي القرّاء العشرة: [بِقَادِرٍ].

(٢)
مِمَّا وَرَدَ بشَأنِ سُورَة (الأحقاف)

(١) سورة (الأحقاف) سَابعة الحواميم السّبع، وَيَنْطَبِقُ علَيْهَا مَا وَرَدَ بشَأْن هذه الحواميم، فَلْيُرْجَعُ إلىٰ مَا سَبَقَ ذِكْرُه بشَأْنها في سورة (غافر) و(فُصِّلَت) و(الشّورىٰ) ومَا بَعْدَها.

(٢) رَوَىٰ الحاكم بإسْنَادٍ صَحَّحه عن ابْنِ مَسْعُودٍ قَال: أقْرَأَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ سورة (الْأَحْقَافِ) وأقرأها آخَرَ فخَالَفَ قِرَاءَتَه، فَقُلْتُ: مَنْ أقْرَأَكَهَا؟.

قال: رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فَقُلْتُ: واللهِ لَقَدْ أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ غَيْرَ ذَا.

فأتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَمْ تُقْرِئْنِي كَذَا وَكَذَا؟.

قال: «بَلَىٰ».

وقال الآخر: أَلَمْ تُقْرِئْنِي كَذَا وَكَذَا؟.

قال: «بَلَىٰ» فَتَمعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ، فقال: «لِيَقْرَأْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا مَا سَمِعَ، فإنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بالاخْتِلَافِ».

(٣)
موضوع سورة (الأحقاف)

تَكَادُ تَكُونُ «الحواميم» السَّبع عائِلَةً وَاحِدَةً مُفَصَّلَةً إِلَىٰ سَبْعِ سُور، ذَواتِ مَلامِحَ وَقَسَمَاتٍ مُتَشَابِهاتٍ، تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّها شَرِيفاتُ أُسْرَةٍ وَاحِدَة.

ومَوْضُوعُهَا يَسِيرُ على خَطٍّ رئِيسٍ وَاحِدٍ، هُوَ خَطُّ الحديثِ عَنِ القرآن، ومَوْقِفِ الْكَافِرِينَ مِنْهُ إِبَّانَ التَّنْزِيل، ومَوْقفِهِمْ من تَوحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيتِهِ، وَمَوْقِفِهِمْ مِن الرَّسُول ﷺ، ومن الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وأَتبعُوه، ومِنَ الجزاءِ الرَّبَّانِيِّ وَيَوْم الدِّينِ.

وَجَاءَتْ مُعَالَجَتُهُمْ فِي السُّورَةِ مُلَائِمَةً بِحِكْمَةٍ لِمَوَاقِفِهِمْ، ومكَمِّلَةً لِمَا سَبَقَ في الحواميم السِّتِّ السابقة.

(٤)
دُروس سورة (الأحقاف)

بَدَا لي تقسيم هٰذِهِ السُّورةِ إلى (١٤) درساً:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٣).

وفي آيَات هَـٰذَا الدَّرْس بَدْءٌ بالحديث عَنِ القرآنِ مُطَابِقٌ لما جاء في صَدْرِ سُورةِ (الجاثية) السُّورة السَّادِسة مِنَ (الحواميم السَّبع).

وَبَعْدَهُ إِعَادةُ بَيَانِ مَا جَاءَ في الآية (٢٢) من سورة (الجاثية/ ٦٥ نزول) مِن أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقّ، ولكِنْ جاء في (الأحقاف/ ٦٦ نزول) بِصِيغَة الْحَصْر، مع إِضَافَةِ بَيَانِ أَنَّ اسْتِمْرَارَ نظام الحياة الدُّنيا للسَّمَاوَاتِ والأَرْضِ مُحَدَّدٌ بِأَجَلٍ مُسَمَّىٰ، وإضافةِ بيان أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْرِضُونَ غَيْرُ عَابِئِينَ بِمَا أُنْذِرُوا بِهِ مِنْ إِنْذَارَاتٍ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَكُونُونَ فِيه خَالِدِين.

الدَّرس الثَّانِي: الآية (٤).

وَفِي هَـٰذِهِ الآيَةِ تَعْلِيمُ حِوَارٍ جَدَلِيٍّ يُحَاوِرُ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وكُلُّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ المشْرِكِينَ حَوْلَ شركائِهِمْ الَّذِينَ يَعْبُدونَهُمْ مِنْ دُونِ الله.

الدرس الثالث: الآيَتَان (٥ و٦).

وفيهما بيانٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَا يُوجدُ أَضَلُّ مِنَ المشْرِكِ الَّذِي يَعْبُدُ مِنْ دونِ اللهِ مَنْ لا يَنْفَعُهُ بشيءٍ، وَسَوْفَ يَكُونُ لَهُ عَدُوّاً يَوْمَ القِيَامَة.

الدَّرس الرابع: الآيات من (٧ ـ ١٠).

وفي آيَات هَـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ مَوْقِفٍ مِنْ مَوَاقِفِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيد، ومُبَلِّغِهِ عَنْ رَبِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، مَعَ تَعْلِيمِ اللهِ رَسُولَهُ أُسْلُوباً حِوَارِيًّا لَهُمْ حَوْلَ مَوْقِفِهِمْ هـٰذَا.

الدرس الخامس: الآيتان (١١ و١٢).

وفيهما بَيَانُ الْمَوْقِفِ الاسْتِكْبَارِيِّ الَّذِي وَقَفَهُ أَئِمَّةُ الشِّرْك وَالكُفْرِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، مِنْ ضُعَفَاءِ المؤمِنِينَ، إِذْ قَالُوا: لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ الَّذِي يَتْلُوهُ مُحَمَّدٌ خَيْراً مَا سَبَقَنَا هَؤُلَاء الضَّعُفَاءُ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ عِلْيَة قَوْمِنَا إِلَىٰ الإيمانِ بِهِ.

وفيهما تَعْلِيقٌ رَبَّانِيٌّ عَلَىٰ هـٰذَا الموقِفِ مِنْ مَوَاقِفِهِمْ مِن القرآن.

الدرس السادس: الآيتان (١٣ و١٤).

وفِيهِمَا وَعْدٌ رَبَّانِيٌّ مُجْمَلٌ بِالثَّوَابِ العظيم لِلَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا.

الدرس السابع: الآيتان (١٥ و١٦).

وفيهما بَيَانُ وَصِيَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْإِنْسان بوالِدَيْه، وَوَعْدِ الْوَلَدِ الْبَارِّ بِوالِدَيْهِ بِثَوَابٍ عَظِيمٍ جَزِيلٍ ادَّخَرَهُ اللهُ له.

الدّرس الثامن: الآيات من (١٧ ـ ١٩).

وفيها بَيَانُ حالِ الْوَلَدِ المكَذِّب بِيَوْمِ الدِّينِ العاقِّ لِوَالِدَيهِ المسْتَغِيثَيْنِ اللَّذَيْنِ يَقُولَانِ لَهُ: وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حقّ. فَيَقُولُ لَهُمَا: ما هذا إلّا أساطِيرُ الأَوَّلِينَ.

وفِيها بَيانُ جَزَاءِ اللهِ لِلْكَافِرِينَ المكَذِّبين.

الدرس التاسع: الآية (٢٠).

وَفِيا عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم الْقِيَامَةِ خاصٌّ بالَّذِينَ كَفَرُوا.

الدرس العاشر: الآيَاتُ من (٢١ ـ ٢٦).

وفيها بيانٌ مُوجَزٌ عَنْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام وَقَوْمِه عَاد، مُتَكَامِلٌ مَعَ مَا جَاءَ فِي سُوَرِ القرآنِ مِنْ قِصَّةِ هُود عَلَيْهِ السَّلَام وقومه.

الدرس الحادي عشر: الآيَتان (٢٧ و٢٨).

وفيهما إنْذَارٌ لِلْمُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِم مِنْ مُشْرِكِي مَكَّة بأَنَّهُمْ إذا تَمَادَوا فِي غَيّهِمْ أَهْلَكَهُمْ رَبُّهُمْ كَمَا أَهْلَكَ كُفَّارَ أَهْلِ الْقُرَىٰ مِنْ حَوْلِهِمْ، فَمَا نَصَرَتْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي كانُوا قَدِ اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ.

الدَّرس الثاني عشر: الآيات من (٢٩ ـ ٣٢).

وَفِيهَا بَيَانُ حَادِثَةِ اسْتِمَاعِ نَفَرٍ مِنَ الْجِنِّ القرآنَ من الرسُول ﷺ، وَرُجُوعِهِمْ إلَىٰ قَوْمِهِمْ مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، دُعَاةً إلى اللهِ فِي قَوْمِهِمْ مِنَ الْجِنّ.

الدرس الثالث عشر: الآيَتَان: (٣٣ و٣٤).

وفيهما بيانٌ إقْنَاعِيٌّ مُوَجَّهٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمُنْكِرِي الْبَعْث، مَصْحُوبٌ بإنْذَارٍ بِعَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

الدرس الرابع عشر: الآية (٣٥) آخر السورة.

وفيها تَوْجِيهٌ للرَّسُولِ ﷺ بأَنْ يَصْبِرَ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ من الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِه، وبأَنْ لَا يَسْتَعْجِلَ للمعالَجِينَ الإهْلَاكَ الَّذِي يَطْلُبُونَ تَعْجِيلَهُ، تَعْبِيراً عَنْ إنْكَارِهِمْ رِسَالَةَ الرَّسُول مُحَمد ﷺ، مَعَ تَهْدِيدِ اللهِ لَهُمْ، وإشْعَارِهِم بأَنَّهُ لَا يُهْلِكُ إهْلَاكاً جماعِيًّا شامِلاً إلَّا الْقَوْمُ الفاسِقُون، المتَوَاطِئُونَ على الكُفْرِ والْفُسُوق.

❀ ❀ ❀

(٥)
التدبّر التحليلي للدّرس الأوّلِ من سورة (الأحقاف)
الآيات من (١ ـ ٣)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾.

القراءات:

(١) • سَكَتَ أبو جعفر على: (حَا) و(ميم) سَكْتَةً لطيفة.

(٢) • قرأ قَالُون: [**وَمَا أَنَاْ إِلَّا**] بإثْبَاتِ ألف «أَنا» في الْوَصْلِ والوقف، ولَهُ وَجْهُ الحذف في الوصل.

وقرأها باقي القراء الْعَشَرَة بِحَذْفِ ألف «أَنَا» وَصْلاً وَوَقْفاً.

تَمْهيد:

في آيات هٰذَا الدَّرْس بَدْءٌ بالْحَدِيث عَنِ القرآن مُطابقٌ لِمَا جَاءَ فِي صَدْرِ سُورَةِ (الجاثية/ ٦٥ نزول) السّورة السَّادِسة من (الْحَوَامِيم السَّبع).

وبَعْدَهُ إعَادَةُ بَيَانِ مَا جاء في الآية (٢٢) مِنْ سُورة (الجاثية) مِنْ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ بالحقِّ، ولَكِنْ جاء في سورة (الأحْقَاف) بِصِيغَة الْحَصْر: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ مع إضَافَةِ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ وإضافَةِ بَيَانِ أَنَّ نِظَام الحياةِ الدُّنْيا للسَّماوَاتِ والأَرْضِ مُحَدَّدٌ بأجَلٍ مُسَمّىٰ، وإضَافَةِ بَيَانِ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْرِضُونَ غَيْرُ عَابِئِينَ بِمَا أُنْذِرُوا بِهِ مِنْ إنْذَارَاتٍ بعذابٍ أَلِيمٍ يَكُونُونَ فِيهِ خَالِدِين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾:

هـٰذَا الافتِتَاحُ مُطَابِقٌ لِبدَايَةِ سورة (الجاثية/ ٦٥ نزول) فَمَا جاء مِنْ تَدَبُّرِ هُنَاكَ يُغْنِي عَنِ الْإِعَادَةِ هُنَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾:

سبَقَ تَفْصِيلٌ وافٍ لِكَوْنِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ بالْحَقِّ لَدَىٰ تَدَبُّرِ الْآية (٧٣) من سورة (الأنْعَام/ ٥٥ نزول) فَلْيُرْجَعْ إلَيْهِ.

وَجاءَ في هَـٰذِهِ الآيَةِ إضَافَةُ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾: أي: وَمَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ مِنْ كَائِنَاتٍ حَيَّةٍ وَغَيْرِ حَيَّةٍ، فَهِي دَاخِلَةٌ فِي عُمُومِ كَوْنِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ خَلقَهَا بالْحَقِّ عَلَىٰ مَا جَاءَ تَفْصِيلُهُ لَدَىٰ تَدَبُّرِ آيَةِ (الأنعام).

وَجاءَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ إضَافَةُ بَيَانِ:

● ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: أي: وَجعلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بَقَاءَ نِظَام السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ مُحَدَّداً بِأَجَلٍ مُسَمَّى، فإذَا انْتَهَىٰ أَجَلُ الْبَقَاءِ وَجاءَ أَجَلُ الإنْهاء، هَدَمَ اللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ نِظَامَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا بِقِيَامِ السَّاعَةِ الْمُحَدَّدَةِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ لِلْإِنْهَاءِ.

ثُمَّ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ والسَّمَاوَاتُ لِيَوْمِ الْبَعْثِ، وبَدْءِ الحياة الْأُخْرَىٰ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِي سُورَةِ (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ أرضاً أُخْرَىٰ غَيْرَ هَـٰذِهِ الْأَرْضِ بِصِفَاتِهَا وَشَكْلِهَا، وَقَدْ يَكُونُ التَّبْدِيلُ مع المحافَظَةِ عَلَىٰ ذَرَّاتِهَا وَعَنَاصِرِها. وَتُبَدَّلُ السَّمَاوَاتُ سَمَاوات أُخرَىٰ غَيْرِ هَـٰذِهِ السَّمَاوَات بِصِفَاتِها وأشْكالِها كذلِكَ مع المحافظة عَلَىٰ عَنَاصِرِها، وَاللهُ أَعْلَم، فَتَبْدِيلُ الْعِمَارَة قَدْ يَكُونُ بِهَدْمِهَا وَإِعَادَةِ بِنَائِها بِنِظَامٍ هِنْدَسِيٍّ مُغايرٍ مَعَ اسْتِخْدَام الْعَنَاصِرِ الْمَهْدُومَةِ مِنْهَا، فِي الْبِنَاء الْجَدِيد.

• ﴿... وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾:

أي: وعَلَىٰ الرُّغم مِنْ كَوْنِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِسَامِي حِكْمَتِهِ وَعِظِيم قُدْرَتِهِ، خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بالْحَقِّ، وَهَـٰذَا الْحَقُّ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنيا حَيَاةُ امْتِحَانٍ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ حَيَاةٍ أُخرَىٰ يَكُونُ فِيها الْحِسَابُ وَفَصْلُ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذُ الجزاء، وَعَلَىٰ الرُّغْم مِنْ تَوْجِيهِ الرَّبِّ الْخَالِقِ الْعَظِيم إِنْذَارَاتِهِ الْمُرْهِبَةِ، لِمَنْ يَكْفُرُ بِمَا أَمَرَ اللهُ تَعالَىٰ بالإيمانِ بِهِ، عَلَىٰ لِسَانِ رُسُلِهِ المؤيَّدِينَ بالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُعْجزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، فالَّذِينَ كَفَرُوا باللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ، يُعْرِضُونَ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، غَيْرَ مُبَالِينَ بإِنْذَارَاتِ اللهِ المرْعبَةِ لِأُولِي الْأَلْبَاب.

وَفي هـٰذَا البيانِ إِشْعَارٌ بِسَفَاهَتِهِمْ وَقِلَّةِ عُقُولِهِمْ وَحَمَاقَتِهِمْ، إِذْ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِمْ أدلةُ الْعَقْلِ، وَلَا الْأَخْبَارُ الَّتِي تَشْهَدُ الآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ، والمعجزاتُ الْبَاهِرَاتُ بِصِدْقِ الرُّسُلِ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَها عَنِ اللهِ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ وَمَا بَيْنهما، وهُوَ الْعَلِيم الْعَزِيزُ الحكيم.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الأول مِنْ دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الأحقاف) الآية (٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾.

تَمْهِيد:

فِي هٰذِهِ الآيَة تَعْلِيمُ حِوَارٍ جَدَلِيٍّ يُحَاوِرُ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وكُلُّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، المشْرِكِينَ حَوْلَ شُرَكَائِهِم الَّذِينَ يَعْبُدونَهُمْ مِنْ دُونِ الله.

التدبّر التحليلي:

أي: ﴿قُلْ﴾ أيُّها الدَّاعِي إلى الله، وإِلَىٰ الإيمانِ بأَنَّ لَهُ وَحْدَهُ الرُّبُوبِيَّةَ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، فَلَهُ وَحْدَهُ الإِلَهِيَّةَ فِي الْوُجُودِ كُلّه، لِلْمُشْرِكِينَ.

- ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: أيْ: أَتَفكَّرْتُمْ تَفْكِيراً سَدِيداً بأَنَاةٍ وتَعَمُّقٍ، حَتَّىٰ أَدْرَكْتُم إِدْرَاكاً عِلمِيّاً يُشْبِهُ الرُّؤْيَةَ الْبَصَرِيَّة.
- ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ بِعِبَادَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا الدُّعاءُ لِتَحْقِيقِ الْمَطَالِب والرَّغَبَات، فَإِنْ تَوَصَّلْتُم إِلَىٰ أَنَّ لَهُمْ رُبُوبِيَّةَ مَا فِي الكَوْنِ فَأَخْبِرُونِي.
- ﴿أَرُونِي﴾ بِمُشَاهَدَةٍ حِسِّيَّةٍ، أَوْ بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ فِي رُؤْيَةٍ ذِهْنِيَّةٍ فِكْرِيَّة.
- ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؟: أي: مَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي خَلَقُوهُ مِنَ الْأَرْضِ. «ذَا» هُنَا بِمَعْنَىٰ «الَّذِي» و«مَا» قَبْلَهَا اسْمُ اسْتِفْهَام.

فالمعنى: مَا هو الشيءُ الَّذِي خَلَقُوهُ مِنَ الْأَرْضِ فَكَانُوا بِهِ شُرَكَاءَ الله فِي رُبُوبِيَّتِهِ لِلأَرْضِ، حَتَّىٰ يَسْتَحِقُوا أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَ اللهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ في الْأَرْض.

- ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؟: أي: بَلْ. أَرُونِي بِمُشَاهَدَةٍ حِسِّيَّةٍ أَوْ بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ مَاذَا خَلَقُوا مِنَ السَّمَاوَاتِ، فَلَهُمْ بِهٰذَا الْخَلْقِ مُشَارَكَةٌ للهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ لِلسَّمَاءِ، حَتَّىٰ يَسْتَحِقُّوا أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَ للهِ فِي الإِلَهِيَّة.

إِنَّهُم لَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُثْبِتُوا مُشَارَكَةَ مَا يَعْبُدونَ للهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ لِلأَرْضِ وَلَا لِلسَّمَاءِ، فَاتِّخَاذُهُمْ شُرَكَاءَ للهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ قَضِيَّةٌ بَاطِلَةٌ سَاقِطَةٌ مَرْفُوضَةٌ، لَا يَسْتَمْسِكُ بِهَا ذُو عَقْلٍ رَشِيد. وَرَأْيٍ سَدِيد.

بَقِيَ أَنْ يَدَّعُوا أَنَّ اللهَ الَّذِي لَهُ الرُّبُوبِيَّةُ فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَهُ الإِلَهِيَّةُ وَحْدَه، قَدْ أَمَرَ بِعِبَادَةِ آلِهَتِهِمُ الَّتِي يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ اللهِ، ولِدَفْعِ هٰذَا الادِّعَاءِ الْبَاطِلِ جاءَ في التَّعْلِيم الْجَدَلِيِّ الرَّبَّانِيِّ ما يلي:

• ﴿... ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾:

أي: أَحْضِرُوا كِتَاباً رَبَّانِيًّا صَحِيحاً أَنْزَلَهُ اللهُ مِنْ قَبْلِ هٰذَا القرآنِ، وَفِيهِ مَا يُثْبِتُ ادِّعَاءَكُمُ الْكَاذِبَ، أو فِيهِ أَنَّ اللهَ أَذِنَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ من خَلْقِهِ.

فإنْ لَمْ تَأْتُوا بِنَصٍّ مِنْ كِتَابٍ رَبَّانِيٍّ صَحِيح يُثْبِتُ ادِّعَاءَكُمْ، فَأْتُوا بِبَقِيَّةٍ مِنْ عِلْمٍ صَحِيحٍ مَوْرُوثٍ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ.

أَثَارَة: أَي: بَقِيّة. فالأَثَارَةُ مِنَ عِلْمٍ هِيَ الْبَقِيَّة الْمَحْفُوظَةُ مِنْ عِلْمٍ صَحِيحٍ مَوْرُوثٍ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ.

وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يأتُوا بِكِتَابٍ صَحِيحٍ وَلَا بأثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ صَحِيح.

• ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أي: إن ادَّعَيْتُم أَنَّ اللهَ أَمَرَ بعِبَادَةِ آلِهَتِكُمْ أو أذن بها، فَأَنْتُمْ كاذِبُونَ لَا تَسْتَطِيعُونَ إِثْبَاتَ ادِّعائِكُمْ.

وبهذا انْتَهَىٰ تدبُّر الدرس الثاني من دُروس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث من دروس سورة (الأحقاف)
الآيتان: (٥ و٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَضَلُّ مِنَ المشْرِكِ، الّذِي يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ بِشَيْءٍ، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ مِنَ الضُّرِّ شَيْئاً، وَسَوْفَ يَكُونُ لَهُ عَدُوّاً يَوْمَ الْقِيَامَة.

التَّدَبُّر التَّحْلِيليّ:

الاسْتِفْهَامُ في: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾؟ يُرَادُ بِهِ نَفْيُ وُجُودِ مَنْ هُوَ أَضَلُّ، لَكِنْ يُوجَدُ مَنْ يُشَارِكُهُ فِي دَرَكَةِ الضَّلَال.

والمعنَىٰ: لَا يُوجَدُّ أَكْثَرُ ضَلَالاً مِنَ الَّذِي يَعْبُد مَعْبُوداً أَوْ أَكْثَرَ مِنْ دُونِ اللهِ، بأيِّ لَوْنٍ مِنْ أَلْوانِ الْعِبَادَةِ، وَفي مُقَدِّمَتِهَا الدُّعَاءُ لِتَحْقِيقِ مَرْغُوبٍ فِيهِ، أَوْ دَفْعِ مَكْرُوهٍ، وَالْمَعْبُودُ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَابِدِهِ بِشَيْءٍ طَوَالَ وُجُودِهِ فِي الحياةِ الدُّنْيَا، وعِنْدَ الْمَوْتِ وَبَعْدَهُ إِلَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَة، وَلَوْ كَانَ الْمَعْبُودُ ذَا حَيَاةٍ مِنَ الإِنْسِ أو الْجِنِّ أو الْمَلَائِكَةِ، إِذْ هُوَ غَافِلٌ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ يَعْبُدُه، فالَّذِينَ يَعْبُدونَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ عِيسَىٰ بشَيْءٍ، لِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْلُبَ لِعَابِدِيهِ نَفْعاً، أَوْ يَدْفَعَ عَنْهُمْ ضُرّاً، وَهُوَ غَافِلٌ عَمَّنْ يَعبُدُه لَا يَدْرِي عَنْهُ شيئاً، وحِينَ يَعْلَمُ أَنَّ أُنَاساً يَعْبُدُونَهُ كَانَ مِنْهُمْ مُتَبَرِّئاً، وَعَلَيْهِم سَاخِطاً، وَمِنْهُم نَاقِماً، إِذْ لَا يَرْضَىٰ بِمَا يُسْخِطُ الله رَبَّهُ جلَّ جَلَالُهُ.

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَة، وَكَانُوا جُثِيًّا فِي مَحْكَمَةِ اللهِ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وجُمِعَ بَيْنَ الْعَابِدِينَ والْمَعْبُودِينَ، مِنْ ذَوِي الحياة، أَمَّا الْأَوْثَانُ فكَانَتْ رُمُوزاً لِمَعْبُودِين كَانُوا أَحْيَاءَ، وَكَانَ المشْرِكُونَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لَهُمْ أَرْوَاحاً ذَاتَ نَفْعٍ وَدَفْعِ ضُرٍّ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، فإِنَّ الْمَعْبُودِينَ يَتبرَّؤُون مِنْ عَابِدِيهِمْ وَيكُونُونَ لَهُمْ أَعْدَاءً خَوْفاً مِنْ عِقَابِ اللهِ لهم، وَإِنَّ الْعَابِدِينَ يَكُونُونَ أَعْدَاءً لِمَعْبُودِيهِمْ، إِذْ لَا يَجِدُونَ عِنْدهُمْ مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ، وَيَسُوؤُهُمْ تبرُّؤُهُمْ مِنْهُمْ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ لَهُمْ، وكذَلِكَ يَكْفُرُ الْمَعْبُودُونَ بِعِبَادَةِ عَابِدِيهِمْ لَهُمْ، فَإِنْ كَانُوا صَالِحينَ قَالُوا لهم: إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ وَكُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَهْوَاءَكُمْ، وَلَمْ تَكُونوا تَعْبُدُونَنَا حَقًّا، وَلَمْ نَكُنْ عَلَىٰ عِلْمٍ بعِبَادَتِكُمْ لنا.

الحشْرُ: الْجَمْعُ والسَّوْق.

يُلاحَظُ في الآية (٦) أَنَّهَا تَعْرِضُ مَشْهَداً مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُو لَقْطَةٌ مِنْ لَقَطَاتِ مَوْقِفِ الْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الْأَحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٨)

التدبّر التحليلي للدّرسِ الرابع من دُروس سورة (الأحقاف) الآيات من (٧ ـ ١٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ
﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا

تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ مَوْقِفٍ من مَوَاقِفِ أئِمَّةِ الشِّرْكِ والْكُفرِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، مِنَ الْقُرْآنِ المجيدِ، وَمُبَلِّغِهِ عَنْ رَبِّهِ مُحَمّد ﷺ، مَعَ تَعْلِيمِ اللهِ رَسُولَهُ أُسْلُوباً حِوارِيًّا لَهُمْ حَوْلَ مَوْقِفِهِمْ هٰذَا.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ أئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ والعِنَادِ المعالَجينَ في هٰذِهِ السُّورَةِ وَفِي سَائِرِ الْحَوَامِيم السَّابِقَةِ، مُتَحِدِّياً بضمير المتكلّمِ العظيم:

• ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

أي: وحِينَ تُتْلَىٰ عَلَىٰ الْمَدْعُوِينَ إِلَىٰ دِينِ اللهِ في مَكَّة، آيَاتُنَا المنزَّلَاتُ مِنْ كِتَابِنَا، حَالَةَ كَوْنِهَا بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتِ الدَّلَالَاتِ، واضِحَاتٍ فِي كَوْنِهَا حَقًّا وَمُنَزَّلَةً مِنْ لَدُنَّا قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهم كُفراً جُحُودِيًّا عِنَادِيًّا مُوجِهينَ قَوْلَهُمْ لِلْحَقِّ الَّذِي فَهِمُوهُ مِنْ آيَاتِنَا وَلِتَأْثِيرَاتِهِ في العقول والنُّفُوسِ والضَّمَائِرِ، وَلِسَائِرِ المشاعِرِ الَّتِي تَتَأَثَّرُ بالْقَوْلِ الْحَقِّ الْبَلِيغِ، فَوزَ سَمَاعِهِم لَهُ، هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ، لِيَصُدُّوا أَتْبَاعَهُمْ عَنِ التَّأْثِيرِ بِهِ، والاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا آيَاتُنَا.

هٰذِهِ الْحَرَكَةُ التَّمْوِيهِيَّةُ الَّتِي يُرَادُ بِهَا الصَّرْفُ والصَّدُّ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الدَّاعِي إلى الحقِّ والْهُدَىٰ، مِنَ الْمَكْرِ الَّذِي يَمْكُرُهُ أئِمَّةُ الضَّلَالِ فِي الأَرْضِ.

«لَمَّا» الحينيَّة مِنْ وُجُوهِهَا أَنْ تَخْتَصَّ بالْمَاضِي فَتَقْتَضِي جُمْلَتَيْنِ وُجِدَتْ ثَانِيَتُهِمَا عِنْدَ وُجُودِ أُولاهُما.

دَلَّ اتِّهَامُهُمْ لآيَاتِ القرآنِ الْبَيِّنَاتِ بأَنَّهُ سِحْرٌ، عَلَىٰ انبهَارِهِمْ بِمَا فِيهَا مِنْ حَقٍّ وإعْجَازٍ، وَدَهْشَتِهِمْ مِنْ تَأْثِيراتها، لَكِنَّهُمْ وَجَدُوا أَنَّ حِيلَةَ اتِّهَامِهَا بأَنَّها نَوْعٌ مِن أنواع السِّحْر، حِيلَةٌ مُنَاسِبَةٌ تَصْرِفُ أَتْبَاعَهُمْ مِنْ جَمَاهِيرِ قَوْمِهم عَنِ التَّأَثُّرِ بما فيها من حقٍّ وإعْجَاز.

وَزَادُوا في الادّعَاءِ التَمْويهِيّ وصْفَهُمْ هـٰذَا السِّحْرَ بأَنَّهُ سِحرٌ مُبينٌ، أي: سِحْرٌ وَاضِحٌ لِكُلِّ ذِي نَظَرٍ فِكْرِيٍّ أَنَّهُ سِحْرٌ، ولَيْسَ حقيقَةً ذَاتَ تأْثِيرٍ بِمَا فِيها مِنْ حَقٍّ فِكْرِيٍّ وَإِعْجَازٍ بَيَانِيٍّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيث عَنْهُمْ، مَعَ تَعْلِيمِ الرَّسُولِ مَا يَرُدُّ بِهِ عَلَيْهِم:

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾.

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾؟: أي: بَلْ أَيَقُولُونَ مُحَمَّدٌ افْتَرَىٰ القرآن الَّذِي زَعَمُوا فِي الْقَوْلِ السَّابِقِ أَنَّهُ سِحْرٌ مُبِينٌ؟!

اسْتِفْهَامٌ فِيهِ غَايَةُ التَّعْجِيبِ مِنْ أَمْرِهِمْ والإنْكَارِ عَلَيْهِمْ.

إِنَّهُمْ مُضَطَّرِبُونَ في أَمْرِهِمْ، فَبَعْدَ انْدِهَاشِهِمْ مِنْ عَظَمَةِ القرآنِ واتِّهَامِهِمْ لَهُ بأَنَّهُ سِحْرٌ مُبين، وبعد أَنْ تَمُرَّ عَارِضَةً تَأَثُّر جَمَاهِيرِهِمْ بِمَا فِي القرآن مِنْ حَقٍّ، وَمَا فِي آيَاتِهِ مِنْ بَيَانٍ بَلِيغٍ مُعْجِز، يَتَحَوَّلُونَ إِلَىٰ إِقْنَاعِ جَمَاهِيرِهِمْ بأَنَّ مُحمّداً ٱفْتَرَىٰ الْقُرْآن مِنْ عِنْدِهِ، ويَزْعُمُ أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنْ لَدُنْهُ، ويُبَلِّغُه إِيَّاهُ رسُولُ الْوَحْي جِبْرِيل.

الافْتِرَاء: اخْتِلَاقُ الْكَذِبِ واصْطِنَاعُهُ عَنْ عَمْدٍ.

• ﴿... قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ...﴾: أي: إنِ افْتَرَيْتُهُ أَهْلَكَنِي اللهُ وَلَمْ يُمَكِّنِّي مِنْ أَنْ أُبَلِّغَكُمْ كَلِمَةً مِنْهُ، لِأَنَّنِي مُؤَيَّدٌ مِنَ اللهِ بالآياتِ الْبَيِّنَاتِ والمعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، واللهُ لَا يُؤَيِّدُ بآيَاتِهِ مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِ، فَإِنْ تَوَجَّهَتْ نَفْسُهُ لِأَنْ يَكْذِبَ عَلَيْهِ سَلَبَ حَيَاتَهُ حَتَّىٰ لَا يَنْبِس بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ كَذِباً عَلَيْهِ، أَتَحْسِبُونَ أَنَّ مِنَ الْهَيِّنِ أَنْ يَكْذِبَ رَسُولٌ أو نَبِيٌّ عَلَىٰ رَبِّهِ، وَقَدْ أَيَّدَهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ صَادِقٌ فيما يُبَلِّغُ عَنْهُ.

وإِنْ كُنْتُم تُرِيدُونَ اسْتِدْرَاجِي كَمَا سَبَقَ أَنْ طَلَبْتُمْ مِنِّي أَنْ أفْتَرِي علَىٰ رَبِّي شَيْئاً، فَآتِيَكُمْ بِقرْآنٍ غَيْرِ هذا القرآن، فِيهِ مَا يُرْضِيكُمْ مِمَّا يُوَافِقُ مُعْتَقَداتِكُمْ وَقَبَائِحَ أعْمالِكُمْ، فإِنْ أَرَدْتُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ أَهْلَكَنِي اللهُ، فَلَا تَمْلِكُون لِي مِنْ رَدٍّ مَا يَقْضِي بِهِ اللهُ بِي مِنْ شيءٍ مَهْمَا كَانَ شيئاً قَلِيلاً.

جاء اسْتِعْمَالُ حَرْفِ الشَّرْط «إِنْ» لِلْإِشْعَارِ بأَنَّ افْتَرَاءَهُ عَلَىٰ رَبِّهِ أَمْرٌ مَيْؤُوسٌ مِنْهُ، فَلَا يَطْمَعُوا باسْتِدْرَاجِهِ لِأَنْ يَفْتَرِيَ عَلَىٰ اللهِ شَيْئاً.

وَقَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّ الْمُرادَ بالْعِبَارَة: فَإِنِ افْتَرَيْتُ قُرْآناً كَمَا تُحِبُّونَ لِأُرْضِيكُمْ، كَمَا سَبَقَ أَنْ طَلَبْتُمْ مِنِّي، إِبَّانَ نزُول سُورَةِ (يُونُس/ ١٠ مُصْحَف/ ٥١ نُزُول) فأَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فيها الآيَاتِ من (١٥ ـ ١٧) عَاقَبَنِي اللهُ عِقَاباً شَدِيداً أَدْنَاه أَنْ يُمِتْنِي ويَمْنَعَنِي من أَن أَنْطِقَ بِمَا افْتَرَيْتُه. وَلَوْ كَانَ مَا أُبَلِّغُكُمْ عَنْ رَبِّي مِن افْتِرَائِي لَافْتَرَيْتُ لَكُمْ مَا يُرْضِيكُمْ مِنِّي لِتَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِي.

• ﴿... هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ... ﴿٨﴾﴾:

تُفِيضُونَ فِيهِ: أيْ: تَنْدَفِعُونَ فِيهِ بِهِمَّةٍ وَقُوَّةٍ وَحَرَكَةٍ فِيهَا نَشَاطٌ فَوْقَ الْعَادَة.

والمعنَىٰ: أَنْتُمُ الآنَ فِي هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ مَسِيرَةِ دَعْوَتِي بَيْنَكُمْ، تُدَبِّرُونَ وَتَمْكُرُونَ وَتَكِيدُونَ، وَتَنْدَفِعُونَ بِهِمَّةٍ وَقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ، لِإيقافِ دَعْوَتِي

إِلَىٰ رَبِّي واضّطهادِ الَّذِينَ آمَنُوا بِي، وَإِسْكَاتِ كَلِمَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ وَلَوْ بِقُوَّةِ السِّلَاحِ والْقِتَالِ والْحَرْبِ.

وَاعْلَمُوا أَنِّي مُتوكِّلٌ عَلَىٰ رَبِّي الَّذِي نَبَّأَنِي وَبَعَثَنِي للنَّاسِ رَسُولاً، وَلَنْ يَتَخَلَّىٰ عَنْ حِمَايَتِي وَحِمَايَةِ مَسِيرَتِي الدَّعَوِيَّةِ، وَحِمَايَةِ المؤمنين الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِي واتَّبَعُونِي، فَهُمْ أَوْلِيَاؤُه وَأَنْصَارُ دِينِهِ، وَهُو نَاصِرُهُمْ وَمُؤَيِّدُهُمْ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ رَبِّي أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيمٍ فِيكُمْ، بِمَا تُدَبِّرُونَ، وَتَمْكُرُونَ، وَتَكِيدُونَ، وَتَنْدَفِعُونَ فِيهِ بِهِمَّةٍ وَقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ، لِمُقَاوَمَةِ دَعْوَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، وَمُقَاتَلَةِ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدِيرٌ عَلَىٰ إِحْبَاطِ كُلِّ مَا تُفِيضُونَ فِيهِ، وَرَدِّ كَيْدِكُمْ إِلَىٰ صُدُورِكُمْ، وَجَعْلِكُمُ الْمَخْذُولِينَ الْمَغْلُوبِينَ النَّادِمِينَ.

• ﴿... كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ ... ﴿٨﴾﴾.

الباء في [بِهِ] زَائِدَةٌ لِلتَّوْكِيد، أي: كَفى اللهُ.

شَهِيداً: الشّهِيدُ: الحاضِرُ الْمُعَاين.

والمعنى: أؤكِّدُ لَكُمْ أَنَّهُ كَفَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ شَهِيداً حَاضِراً مُعَايناً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ، فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِنَا خَافِيَةٌ، وَمِنْهَا أَعْمَالُنَا الَّتِي نَنْصُرُ بِها دِينَهُ وَنَدْعُو إِلَيْه، وَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ خَافِيَةٌ، وَمِنْهَا أَعْمَالُكُمُ الَّتِي تَعْمَلُونَهَا لِمُقَاوَمَةِ دِينِهِ وَكِتابِهِ وَرَسُولِهِ، واضطهادِ المؤمنينَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا سِيمَا المسْتَضْعَفُون مِنْهُمْ.

فَهَلْ تَرَوْنَ أَنَّ الله يَتَخَلَّىٰ عَنْ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، وَعَنِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الشَّهِيدُ الْحَكِيمُ الْقَدِير؟.

إِذَا كُنْتُمْ أَهْلَ عَقْلٍ وَرُشْدٍ لَمْ تَتَمَادَوْا فِي غَيِّكُمْ.

وفي هَـٰذِهِ العبارة إلْماحٌ خَفِيٌّ إِلَىٰ عُقُوبَةٍ شَدِيدَةٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

• ﴿... وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾: بَعْدَ الإلْمَاحِ إِلَىٰ الْعُقُوبَةِ الشَّدِيدَة، كانَ مِنَ الحكمَةِ الإطْمَاعُ بِالْمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ، لِمَنْ فِي قَلْبه خَيْرٌ مَا، قَابِلٌ لِأَنْ يَسْتَجِيبَ لِدَعْوةِ الْحَقِّ، وَيَتَخَلَّصَ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وَعِنَادٍ وَجُحُودٍ، طَمَعاً فِي أَنْ يَغْفِرَ اللهُ سَوَابِقَ كُفْرِهِ وآثَامِهِ، وأَنْ يَشْمَلَهُ بِرَحْمَتِهِ.

الْغَفُور: أي: ذو المغفرة العظيمة الْجَلِيلَةِ، **والمغفرة**: سَتْرُ الذُّنُوب الْمُسْتَلْزِمُ عَدَمَ المؤاخَذَةِ عليها ـ واللَّفْظُ صيغة مبالغة لاسم الفاعِلِ «غافِر» وهو اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ.

الرَّحِيم: اسم من أسماء اللهِ الحسْنَىٰ، أي: ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فينالُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ من يَتَعَرَّضُ لِنَفَحاتِهَا وَتَنَزُّلَاتها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً تَعْلِيمَ رَسُولِهِ مَا يُحَاوِرُ بِهِ المقْصُودِين بالْعِلاجِ في السّورة:

• ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾:

الْبِدْعُ: الشيءُ المبْتَدَعُ الّذِي لم يَسْبُقْ أَنْ وُجِدَ نَظِيرٌ له.

في هَـٰذِهِ الآية يُعَلِّمُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِلْمُعَالَجِينَ في السُّورَةِ وأَمْثَالِهِم مِنْ مُنْكِرِي رِسَالَتِهِ أَرْبَعَ قَضَايا:

الْقَضِيَّةُ الأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾: أيْ: مَا أَنَا الرَّسُولُ الأَوَّلُ فِي تَارِيخِ النَّاسِ، الْمُبْتَدَعُ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ أَنْ وُجِدَ فِي تَارِيخ البَشَرِ نَظِيرٌ له، بَلْ جَاءَ مِنْ قَبْلِي رُسُلٌ كَثِيرُون كُنْتُمْ تَتَحَدَّثُونَ عَنْهُمْ في مَجَالِسِكِمْ، مِنْهُمْ إبراهيم وإسْمَاعِيل ومُوسَىٰ وهَارُونُ وعِيسَىٰ عَلَيْهِمُ السَّلام وغَيْرُهُمْ: فَمَا الأَمْرُ الَّذِي جَعَلَكُمْ تُنْكِرُونَ

رِسَالَتِي، وادَّعَيْتُمْ أَنِّي افْتَرَيْتُ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ رَبِّي، وقَد آتاني من الآيَاتِ مَا يثْبِتُ أَنِّي نَبِيُّ اللهِ حَقًّا وَصِدْقاً، ورَسُولُهُ حَقًّا وَصِدْقاً؟!

فَكَيْفَ صَحَّ فِي أَذهَانِكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِرُسُلٍ سَابِقِين، وَتَجْحَدُوا رَسُولاً أَجْرَىٰ اللهُ لَهُ آيَاتٍ وهُوَ فِيكُمْ، وهـٰذِهِ الآيَاتُ تَشْهَدُ لَهُ بأَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقًّا وَصِدْقاً؟!

الْقَضِيَّةُ الثَّانِية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في الآية: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾: أي: أَنَا أُبَلِّغُكُمْ مَا أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أُبَلِّغَكُمْ إِيَّاه، وَيَتَوَقَّفُ عِلْمِي عِنْدَ حُدُودِ مَا يُعَلِّمُنِي رَبِّي، وَلَمْ يُعْطِنِي رَبِّي عِلْمَ كُلِّ شيءٍ، فَلَسْتُ أَعْلَمُ أَحدَاثَ مُسْتَقْبَلِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، إِلَّا إذا أَنْبَأَنِي اللهُ بِشَيْءٍ مِن ذَلِكَ، وَمِنَ الْأَحْدَاثِ مَا سَأَكْسِبُهُ مُسْتَقْبَلاً، وَمَا يَبْتَلِينِي اللهُ بِهِ، فِي جَسَدِي أَوْ فِي نَفْسِي، وَحَيَاتِي ومَوْتِي، وهـٰذَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (لُقْمان/ ٥٧ نزول)

﴿... وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾.

وَكَذَلِكَ مَا أَدرِي مَا يُفعَلُ بِكُمْ فِي أَحْدَاثِ مُسْتَقْبَلِكُمْ فِي الحياةِ الدُّنيا، إِلَّا مَايُعْلِمُنِي اللهُ بِهِ عَنْ طَرِيق الوحْي، وأَمَّا مَا أُخبِرُكُمْ بِهِ مِنْ جَزَاءِ رَبِّكُمْ يَوْمَ الدِّين، فَعِلْمِي بِهِ مَحْدُودٌ بِحُدُودِ مَا أَنْزَلَ ويُنَزِّلُ عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ، وَتُوجَدُ تَفَاصِيلُ كَثِيرَة لَا أَعْلَمُهَا مَا لَمْ يُعْلِمْنِي اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ بِشَيْءٍ مِنْها.

فَلَا تُطالِبُونِي بأَنْ أُخبِرَكُمْ بِمَا لَمْ يُعْطِنِي اللهُ بِهِ عِلْماً، مَا أَنَا إِلَّا عَبْدٌ للهِ مِثْلِكُمْ، اصْطَفَانِي بالنُّبُوَّة، وأمرنِي بِأَنْ أُبَلِّغَكُمْ رِسَالَتَهُ إِلَيْكُمْ وَإِلَىٰ النَّاسِ أَجْمَعِينَ عن طَرِيق المبلغينَ مِنْ أُمَّتِي.

الْقَضِيَّة الثَّالِثَة: دَلَّ عليها قول الله تعالى في الآية: [**إِن أتبع إلا ما**

يوحى إلي]: «إنْ» حرف نَفْي بمعنى «ما» أي: مَا أَتَّبِعُ فِي مَسَائِلِ الدِّينِ وَقَضَايَاهُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَلَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ نَفْسِي، وَلَا مَا يَتَوَصَّلُ إلى إِدْرَاكِهِ فِكْرِي وعَقْلِي، وَلَا أَتَّبِعُ أَحداً مِنَ الإِنْسِ أَو الْجِنِّ. فَلَا تَطْمَعُوا فِي أَنْ أَتَّبِعَ أَهْوَاءَكُمْ أو أَسْتَجِيبَ لِشَيْءٍ مِنْ مَطَالِبِكُمْ، فالدِّينُ دِينُ اللهِ، وأَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْرُجَ عَنْ حُدُودِ رِسَالَتِهِ الَّتِي بَعَثَنِي بِهَا أَقلَّ مِقْدارٍ، فَلَا تُحَاوِلُوا اسْتِدْرَاجِي وَلَا اسْتِنْزَالِي وَكُفُّوا عَنْ إغْرَاءاتِكُمْ لي.

الْقَضِيَّةُ الرابِعَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الْآيَة: ﴿... وَمَآ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾: أي: وَمَا أَنَا بالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ إِلَّا مُنْذِرٌ لَكُم بِعَذَابِ رَبِّكُمْ، بَعْدَ أَنْ دَعَوْتُكُمْ وَتَلَوْتُ عَلَيْكُمْ مِقْدَاراً كَبِيراً مِنْ آيَاتِ رَبِّكُمْ، وَبَيَّنْتُ لَكُمْ أَرْكَانَ الْإِيمَانِ، وكَثِيراً مِنْ مَحَاسِنِ الإِسْلَام، وَشَرَحْتُ لَكُم بِمُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ، أَنَّ الشِّرْكَ الَّذِي تَسْتَمْسِكُونَ بِهِ بَاطِلٌ، مُخَالِفٌ لِلْحَقِّ، وَلِمَا تَقْتَضِيهِ دَلَائِلُ الْعَقْلِ وَبَرَاهِينُهُ، وَبَشَّرْتُكُم بِجَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ إِنْ آمَنْتُمْ، وأَطْمَعْتُكُم بِمَغْفِرَةِ اللهِ لِكُلِّ خَطَايَاكُمُ السَّابِقَةِ إِنْ أَسْلَمْتُمْ، وَقَدْ أَدَّيْتُ لَكُم كُلَّ حَلْقَاتِ سِلْسَلَةِ وَظَائِفِ رِسَالَتِي، فَاعْلَمُوا أَنَّ الْحَلْقَةَ الْأَخِيرَةَ مِنْهَا، هِيَ إِنْذَارُكُمْ بِعَذَابِ رَبِّكُمْ الآجِلِ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَعَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَةُ الله مِنْ انْتِقَامٍ مُعَجَّلٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَعْدَ أَنْ وَصَلْتُمْ إِلَى حَالَةٍ مَيْؤُوس مِنْها.

فَالْقَصْر فِي عِبَارَةِ: ﴿وَمَآ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ هُو مِنْ قَبِيلِ الْقَصْرِ الإِضَافِي، أي: بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ يَا مَنْ وَصَلْتُمْ إِلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْهَا، بَعْدَ مُعَالَجَتِكُمْ بِمُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ وَصُنُوفِ الْعِلَاجِ، مُنْذُ بَدْءِ بِعْثَتِي حَتَّىٰ تَارِيخ نُزُولِ سورة (الأَحْقَاف).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ تَعْلِيمَ رَسُولِهِ مَا يُحَاوِرُ بِهِ المقْصُودِينَ بالْعِلَاجِ في السورة:

• ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ أَفَكَّرْتُمْ تَفْكِيراً سَدِيداً بِعُمْقٍ وَإِمْعَانِ نَظَرٍ، حَتَّىٰ رَأَيْتُمْ بِفِكْرِكُمْ رُؤْيَةً مُشَابِهَةً لِلرُّؤْيَةِ الْبَصَرِيَّة، إِنْ كَانَ القرآنُ الَّذِي زَعَمْتُمْ أَنَّنِي افْتَرَيْتُهُ عَلَىٰ رَبِّي هو مِنْ عِنْدِ اللهِ حَقًّا وصِدْقاً، وَالْحَالُ أَنَّكُمْ كَفَرْتُمْ بِهِ، وهُو لَيْسَ بِدْعاً فِي الكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ فَقَدْ شَهِدَ شَاهِدٌ فأَكْثَرُ بِلَا حَصْرٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ كِتَابَ التَّوْرَاةِ عَلَىٰ مُوسَىٰ، وأَنْزَلَ كُتُباً عَلَىٰ الرُّسُلِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، وهٰذَا الشَّاهِدُ فأَكْثَرُ قَدْ آمَنُوا بالكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ المنَزَّلَةِ عَلَىٰ رُسُلِ اللهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، وَقَدْ كَفَرْتُمْ بما أُنْزِلَ عَلَىٰ رَسُولِكُمْ اسْتِكْباراً وَجُحُوداً وَمُعَانَدَةً لِلْحَقِّ، وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْيَهُودَ والنَّصَارَىٰ هُمْ أَهْلُ كِتَابٍ رَبَّانِي، كَيْفَ تَكُونُ مُوَاجَهَتُكُمْ لِرَبِّكُمْ لَدَىٰ حِسَابِكُمْ عَلَىٰ الكُفْرِ بِكِتَابِهِ؟! وَمَا هُوَ الْعُذْرُ الَّذِي تَعْتَذِرُونَ بِهِ، إِذْ رَفَضْتُمُ الإِيمَانَ بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِلِسَانِكُمْ، وَهُو هُدىً وَنُورٌ وَرَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ جَمِيعاً؟!

أَفَلَا تَقُومُ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَيَحْكُمُ اللهُ عَلَيْكُمْ بِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ ضَالِّينَ ضَلَالاً إِرَادِيًّا باخْتِيَارِكُمُ الْحُرّ، وَبِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ جُحوداً واسْتِكْبَاراً، وتَسْتَحِقُّونَ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّار؟؟!

• ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: إِنَّ اللهَ الحقَّ، الْحَكَمَ الْعَدْلَ، مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَحْكُمَ بِهِدَايَةِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ظُلْماً مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ واسْتِحْقَاقِ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار.

نَفْيُ الْهِدَايَةِ هُنَا يرادُ بِهِ نَفْيُ الْحُكْم بِهِدَايَةِ مَنْ ثَبَتَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ ظَالِمُونَ بالكُفْر، وبِجُحُودِ الْحَقِّ عِنَاداً واسْتِكْبَاراً، واتِّبَاعاً لِلْأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ، وَمَطَالِبِ النفْسِ مِن مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَاتِها.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الرابع من دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٩)
التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دُروس سورة (الأحقاف) الآيتان (١١ و١٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

القراءات:

(١٢) • قرأ نافع، والْبَزِّي، وابْنُ عَامر، وأَبُو جَعْفر، ويَعْقُوبُ: [لِتُنْذِرَ] بتاء المخاطب، خطاباً للرّسول ﷺ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِيُنْذِرَ] بِيَاءِ الْغَائب، والضمير عائِدٌ على: [**كِتَابٌ مُصَدِّقٌ**].

وبَيْنَ القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد.

تَمْهيد:

فِي آيَتِي هٰذَا الدَّرس بَيَانُ الموْقِفِ الاسْتِكْبَارِيِّ الَّذِي وَقَفَهُ أئِمَّةُ الشِّرْكِ وَالْكُفرِ فِي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَفُقَرَائِهم، إذْ قَالُوا: لَوْ كَانَ القرْآنُ الَّذِي يَتْلُوهُ مُحَمَّدٌ خيْراً، مَا سَبَقَنَا هٰؤلَاءِ الضُّعَفَاءُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ لَيْسُوا هُمْ مِنْ عِلْيَةِ قَوْمِنَا إِلَىٰ الإيمان به.

وفيهما بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ بِشَأْنِ هٰذَا الموقِفِ مِنْ مَوَاقِفِهِمْ مِن القرآن المجيد.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

أي: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بالْقُرْآنِ وَبِرِسَالَةِ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ، مُوَجِّهِينَ قَوْلَهُمْ لِوَاقِعِ حَالِ ضُعَفَاءِ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمين وَفُقَرَائِهِمْ: لَوْ كَانَ الْقُرْآن خَيْراً، حَقًّا وَصِدْقاً، مَا سَبَقَنَا هَـٰؤُلَاءِ الضُّعَفَاءُ وَالْفُقَرَاءُ إِلَىٰ الإيمانِ بِهِ، والاسْتِجابَةِ لِدَعْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَالُوا هَـٰذَا الْقَوْلَ بِدَافِعِ الاسْتِكْبَارِ والتَّعَالِي والتَّرفُّع عَنْ مُشَارَكَةِ ضُعَفَاء المسْلِمِينَ وفقرائِهِمْ في مِلَّةٍ جَدِيدَةٍ سَبَقُوا إلى الدخول فيها والاستجابَةِ لِدَعْوَةِ داعِيها.

ويخْطُر لي أنّ أصل العبارة: وقالَ الّذِين كفرُوا للّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خيراً مَا سَبَقْتُمونا إِلَيْهِ، وإِذْ أشاعوا مَقُولتهم كان من الإيجازِ الحكيم أنْ تأتي العبارة القرآنيةِ: مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ.

فَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّهُم إِذِ اسْتَكْبَرُوا وَلَمْ يَسْتَجيبوا وَلَمْ يَهْتَدُوا بِمَا فِيهِ مِنْ هُدىً إِلَىٰ الْحَقِّ والْخَيْرِ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ فَضَائِلَ عَظِيمَةٍ، فَسَيَقُولُونَ بِشَأنِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ القرآنُ مِنْ تَوْحِيدٍ وَحَقٍّ يَتَعَلَّقُ بِكَمالَاتِ اللهِ، وَتَنزُّهِهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ به، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْبَاءِ الآخِرَةِ وَيَوْم الدِّين، والحساب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَالجزاء، والْجَنَّةِ دَارِ المتَّقِين، والنَّارِ دَارِ الْمُجْرِمِينَ: هـٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ جاءَ فِيمَا سَمِعْنَا مِنْ أَخْبَارِ أَدْيَانٍ سَابِقَةٍ.

الإِفْكُ: افْتِرَاءُ الْكَذِبِ عَنْ عَمْدٍ.

وَوَصَفُوهُ بأَنَّهُ قَدِيمٌ، كَمَا قَالُوا بِشَأْنِهِ فِي مَرَاحِلَ سَابِقَةٍ: أَسَاطِيرُ

الْأَوَّلِينَ، أَيْ: مَكْتُوبَاتٌ مِنْ مَكْتُوبَاتِ الْأَوَّلِينَ نَقَلَهَا مُحمَّدٌ ﷺ وادَّعَىٰ أَنَّ اللهَ يُوحِي بِهَا إِلَيْهِ، تَكْذِيباً لِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَته.

تَـضَـمَّـنَـتْ عِـبَـارَة: ﴿... وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ الدَّلَالَةَ عَلَىٰ أَنَّهُمْ ضَالُّونَ بِعَدَم الاهْتِدَاءِ بما في القرآنِ مِنْ هُدىً، وأَنَّ مَقَالَتَهُمْ حِيلَةٌ جَدَلِيَّةٌ يُرِيدُونَ بها سَتْرَ مَوْقِفِهِمْ الجاحِدِ الظَّالِمِ أَمَامَ جَمَاهِير أَتْبَاعِهِمْ، وإِيْهَامَهُمْ أَنَّ القرآن الَّذِي يَتْلُوهُ مُحمَّدٌ لَا حَقَّ فِيهِ وَلَا هُدًى، هَـٰذِهِ حَرَكَةٌ إِعْلَامِيَّةٌ يُرَادُ بِهَا الصَّدُّ والصَّرْفُ عَنْ دِينِ اللهِ الْحَقّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ بِدْعًا بَيْنَ الْكُتُب الرَّبَّانِية، فقد جَاءَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ التَّوْرَاةُ الَّذِي لَا يَجْحَدُهُ الْمُعَالَجُونَ فِي السُّورَةِ مِنْ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّة:

● ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾:

أي: هُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّا أَنْزَلْنَا كُتُباً لِهِدَايَةِ النَّاسِ عَلَىٰ عَدَدٍ مِنَ الْمُرْسَلِين، مِنْ قَبْل هـٰذَا الكِتابِ الَّذِي نُنَزِّلُهُ على محمّدٍ نَبِيِّنَا ورَسُولَنَا، ومِنْهَا كِتَابُ مُوسَىٰ وهُو التوراةُ الّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِمَاماً ورَحْمَةً.

﴿إِمَامًا﴾: **الإمَام**: هُو في اللُّغَةِ مَا يُؤْتَـمُّ بِهِ، ومَنْ يُؤْتَـمُّ بِهِ، أي: يُتَّبَعُ. فَكَوْنُ التَّوْرَاةِ إِمَاماً يَدُلُّ عَلَىٰ وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ فِي مُدَّةِ وُجُوبِ الْعَمَلِ بِهِ فِي قَضَايَا الْعَقَائِدِ وأُصُولِ الإيمان، وفي قَضَايَا الْأَخْلَاقِ والمعامَلَاتِ الاجْتِمَاعِيَّة، وفي أحكام الحلال والحرام والواجِب والمنْدوب والْمَكْرُوه، وفي كُلِّ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ وَصَايَا.

﴿وَرَحْمَةً﴾: أَيْ: وأَثَراً مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبادِه، إِذْ يَهْدِيهِمْ إِلَىٰ مَا فِيهِ سَعَادَتُهُمْ ونَجاحُهُمْ وَفَلَاحُهُمْ فِي الدُّنْيَا وفِي الآخِرَة.

• ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾: أي: وَهـٰذَا الْقُرْآنُ كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ السَّابقة، كَمَا سَبَقَ أَنْ جَاءَ فِي الآيَةَ (٩٢) مِنْ سُورَةِ (الأنْعَام/ ٥٥ نزول) وَفِي الآية (٣١) من سورة (فاطر/٤٣ نزول).

والْمُرَادُ بِتَصْدِيقِ الْقُرآنِ الكُتُبَ الَّتِي سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ، تَصْدِيقُ أَنَّ أُصُولَهَا الصَّحِيحَةَ قَبْلَ التَّحْرِيفِ هِيَ مُنَزَّلَةٌ مِن اللهِ حَقاً وَصِدْقاً، وَلَيْسَ الْمُرَادُ تَصْدِيقَ كُلِّ مَا فِيها بَعْدَ التَّحْرِيفِ والتَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ الَّتِي دَخَلَ إليها، بِدَلِيلِ مَا جَاءَ في القرآن مِنْ بَيَانِ تَحْرِيفِ أَهْلِ الكِتابِ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِم فِي الآية (٧٥) من سورة (البقرة/ ٨٧ نزول) وفي الآية (٤٦) من سورة (النساء/ ٩٢ نزول) وفي الآيَتيْن (١٣) و(٤١) من سورة (المائدة/ ١١٢ نزول).

فَلَا يَكُونُ التَّصْدِيقُ لِأَيِّ تَحْرِيفٍ دَخَلَ فِيها.

• ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾: أَيْ: حَالَةَ كَوْنِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ مُنَزَّلاً بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيّ، الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ لِخَاتِمَةِ كُتُبِهِ لِلنَّاسِ.

وَيُلَاحَظُ فِي هٰذَا الْبَيَانِ اسْتِثَارَةٌ لاعْتِزَازِ جَاحِدِي كَوْن القرآنِ مُنَزَّلاً مِنْ عِنْد الله، وَهُمْ يُفَاخِرُونَ بِعُرُوبَتِهِمْ وَبِلِسَانِهِمْ أَلَيْسَ مِنْ مَنَازِعِ نُفُوسِهِمْ الَّتِي تَفْخَرُ بِلِسَانِهِمْ أَنْ يُسَارِعُوا إلى الْإِيمان به، والدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّفَاخُرِ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ؟!

• ﴿لِّيُنذِرَ﴾: أَيْ: الْقُرْآن بِمَا فِيهِ مِنْ إِنْذَارَاتٍ، وفي القراءة الْأُخْرَىٰ: [لتنذر] خِطَاباً لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَىٰ الْمُراد، إِذِ الْقُرآنُ بِنُصُوصِهِ مُنْذِرٌ، والرَّسُولُ بِبَيَانَاتِهِ المقْتَبَسَةِ مِنَ القرآنِ مُنْذِرٌ.

• ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: أي: الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْر.

وإِنْذَارُهُمْ يَكُونُ بإعْلَامِهِمْ بأَنَّهُمْ إذا أصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَمَاتُوا عَلَيْهِ كَانُوا يَوْمَ القيامَةِ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّار، مَعَ مَا قَدْ يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ فِي الحياة الدُّنيا، إذا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ ذَلِك.

أو لِيُنْذِرَ كُلَّ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ فَمَا دُونَهَا، وَهُمْ مُرْتَكِبُو الكَبَائِرِ بِعِقَابٍ مِنَ اللهِ يُلَائِمُ ظُلْمَ كُلِّ ظَالِمٍ مِنْهُمْ.

• ﴿... وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾:

الْبُشْرَىٰ: اسْمٌ للتَّبْشِيرِ، وهُوَ الإخْبَارُ بِمَا يَسُرُّ وَيُفْرِح.

أُطْلِقَتِ «الْبُشْرَىٰ» الّتِي هِيَ بِمَعْنَىٰ «التَّبْشِيرِ» على سَبِيلِ التَّنْوِيعِ فِي الْبَيَانِ الرَّفِيعِ، أي: وَلِيُبَشِّرَ الْقُرآنُ وَلِتُبَشِّرَ يا مُحَمَّد الْمُحْسِنِينَ بالأَجْرِ الْعَظِيم، والثَّوابِ الْجَزِيلِ فِي المَرَاتِبِ الْعَلِيَّةِ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

أُقِيم اسْمُ المصْدَرِ مَقَامَ الفِعْل، كَمَا يَقُولُ الجواد: أذْبَحُ عَشَرَةَ كَبُوشٍ لِضُيُوفِي لِأُطْعِمَهُمْ وتَكْرِيماً لَهُمْ، أي: وَلِأُكَرِّمَهُمْ.

• ﴿... لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾: وَهُمْ أَهْلُ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، أَعْلَىٰ مَرَاتِب الْمُؤْمِنِينَ، وَدُونَهُمْ أَهْلُ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، أَمَّا الْمَرْتَبَةُ الدنيا فَهِي مرتبَةُ المتَّقِينَ، وَلِكُلٍّ مِنْ هٰذِهِ المراتِبِ دَرَجَاتٌ لَا تُحْصَرُ، للتَّفَاضُلِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ.

وفِي أَهْلِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ ظَالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بارْتِكَابِ الكَبَائِر، وَهٰؤُلَاءِ مُعَرَّضُونَ لِعِقَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ بِحَسَبِ مَعَاصِيهِمْ، وَيَعْفُو اللهُ عَنْ كَثِير.

وَباسْتِطَاعَةِ المتدبِّرِ أَنْ يَسْتَخْرِجَ المطْوِيَّاتِ الَّتِي تَقْتَضِيها اللَّوازِمُ الْفِكْرِيَّة.

أي: وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ، ولِلْأَبْرَارِ، وللمتَّقِينَ، بِحَسَبِ دَرَجَاتِ كُلٍّ مِنْهُم.

أَمَّا مُسْتَحِقُّو العِقَاب مِنْ ظالِمِي المؤمنين فينالُونَ عِقَابَهُمْ عَلَىٰ مَا يَقْضِي بِهِ اللهُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ والْخُلُودِ فِي نَعِيمها.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الخامس من دُروس سورة (الأحقاف)

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٠)
التدبّر التحليلي للدرس السادس من دُروس سورة (الأحقاف) الآيتان (١٣ و١٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

القراءات:

(١٣) • قرأ يَعْقُوب: [**فَلَا خَوْفَ**] بِفَتْحِ الفاء.

وقرأهَا بَاقِي القرّاء العشرة: [**فَلَا خَوْفٌ**] بالرَّفع مَعَ التَّنْوين. وهما وَجْهَان عَرَبيان لما بَعْدَ كَلِمَةِ «لا» النَّافية لِلْجِنْس.

تَمْهيد:

فِي آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْس وَعْدٌ رَبَّانِيٌّ مُجْمَلٌ بالثواب العظيم لِلَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا الله، ثُمَّ اسْتَقَامُوا.

التدبّر التحليلي:

مَا جَاءَ مُجْمَلاً في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ، جَاءَ مُفَصَّلاً فِي نُصُوص قرآنِيَّة

كَثِيرة، فَمِنْهَا مَا سَبَقَ تَدَبُّرُهُ مِنْ نُجُومِ التَّنْزِيلِ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ (الْأَحْقاف) وَمِنْهَا مَا نَزَلَ مِنَ القرآنِ بَعْد هَـٰذِهِ السورة.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾: أي: إِنَّ الَّذِينَ أَعْلَنُوا بِصِدْقٍ أَنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ رَبُّهُمْ، فَلَا رَبَّ لَهُمْ فِي الْوُجُودِ غَيْرُهُ، ومِنْ لَازِمِ إِيمانِهِمْ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ للهِ إِيمَانُهُمْ بأَنَّهُ لَا إِلَهَ فِي الْوُجُودِ غَيْرُهُ، لِأَنَّ الْعِبَادَةَ حَقُّ الرَّبِّ، وَمَنْ لَا رَبُوبِيَّةَ لَهُ فَلَا إِلَهِيَّةَ له.

اسْتُفِيد القصر من تَعْرِيفِ طَرَفَي الإسناد: «رَبُّنَا اللهُ».

• ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ إعْلَانِهِم الإيمانَ والإسلامَ بِصِدْقٍ اسْتَقَامُوا فِي مَسِيرَتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ، سَالِكِينَ صِرَاطَ اللهِ المستقيم، المشْتَمِل عَلَىٰ أَحْكَامِ الْحَلَالِ والْحَرَامِ والْوَاجِبِ والمنْدُوبِ والمكْرُوه.

إِنَّ الاسْتِقَامَةَ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ فِي مَسِيرَةِ الْحَيَاةِ، أَشَقُّ عَلَىٰ النَّفْسِ مِنَ الانْدِفَاعِ للقِيَامِ بِعَمَلٍ كَبِيرٍ في سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ في يَوْمٍ أو عِدَّةِ أَيَّام.

إِنَّ النَّفْسَ تُصَابُ بالسَّأَم والْمَلَلِ مِنْ طُولِ الالْتِزَامِ بِالاسْتِقَامَةِ، فَتَمِيلُ إلى الانْحِرَافِ ذَاتَ الْيَمِينِ أَوْ ذَاتَ الشِّمَال، وَيَشُقُّ عَلَيْهَا أَنْ تَصْبِرَ مَعَ تَتَابُعِ الْأَيَّامِ واللَّيَالِي على الالْتِزَامِ بالاسْتِقَامَة.

وكَلِمَةُ ﴿ثُمَّ﴾ دَلَّتْ عَلَى طُولِ مُدَّةِ الاسْتِقَامَةِ فِي مَسِيرَة حَيَاةِ المؤمِنِ الْمُسْلِم.

• ﴿... فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾:

أُشْرِبَ اسْمُ الموصُول فِي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ معنىٰ الشَّرْط فجاءَتِ الفاء في ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ في جوابِهِ.

أيْ: كُلُّ مَنْ آمَنَ إِيمَاناً صَحِيحاً، وأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ صَادِقاً، وَاسْتَقَامَ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ فِي مَسِيرَةِ حَيَاتِهِ، فَلَا يَتَسَلَّطُ عَلَيْهِمْ خَوْفٌ مِنْ مُرْهِبَاتِ

قَادِمَاتٍ مُسْتَقْبَلَاتٍ، لِأَنَّ اللهَ ـ جلَّ جَلَالُهُ ـ جَعَلَ لَهُمُ الْأَمْنَ مُنْذُ لَحْظَةِ مَوْتِهِمْ، فَلَا يَخَافُونَ مِن عَذَابٍ وَلَا عِقَابٍ سَيَنْزِلُ بِهِمْ، لِأَنَّ اسْتِقَامَتَهُمْ على صراط اللهِ جَعَلَتْهُمْ مِنْ أَهْلِ الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا مِنْ دَرَجَاتِ المتَّقِينَ، فَلَمْ يَرْتَكِبُوا كَبَائِرَ الذُّنُوب الَّتِي رَتَّبَ اللهُ عَلَيْهَا عِقَاباً، حَتَّىٰ يَخَافُوا مِن عِقَاب اللهِ عَلَيْها، وأَمَّا صَغَائِرُ الذُّنُوب فَيَعْفُو اللهُ عَنْهَا، ويُكَفِّرُهَا بِرَحْمَتِهِ.

• ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: أي: وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَىٰ شيءٍ فَاتَهُمْ مِنْ دُنْيَاهُمْ، لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ أعْظَمُ وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ مَا فِي الدُّنْيَا، من مَتَاعٍ وَزِينَةٍ وَمَحَابِّ نُفُوسهم.

• ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

أشِيرَ إِلَيْهِمْ باسْم الإشارة في: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموضوع للمشَارِ إِلَيْهِمِ الْبَعِيدِين، للدَّلَالَةِ علىٰ ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِمْ، وَعُلُوِّ مَقَامِهِمْ.

أي: أُولَٰئكَ الْفُضَلَاءُ ذَوُو المنْزِلَةِ وَالْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الْمُلَازِمُونَ لَهَا بِفَضْلِ رَبِّهِم، حَالَةَ كَوْنِهِمْ خَالِدِينَ فِيها خُلُوداً أَبَدِيًّا لَا نِهَايَةَ لَهُ، وهُمْ يَنَالُونَ هٰذَا الْفَضْلَ الرَّبَّانِيَّ عَلَيْهِمْ جزَاءً بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ صَالِحَاتٍ بَاطِنَاتٍ وَظَاهِرَاتٍ، وَعَدَ اللهُ أَنْ يَجْزِيَ عِبَادَهُ عَلَيْهَا بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

ومِنَ الْبَاطِنَاتِ الإيمانُ والنيَّاتُ وأَعْمَالُ الْقُلُوبِ المختَلِفَةِ الَّتِي فِيها رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ.

وأَمَّا الظَّاهِرَاتُ فمِنْهَا الْعِبَادَاتُ، والدَّعْوَةُ إلى دِينِ اللهِ، والجهادُ في سَبِيلِ اللهِ بالْأَمْوَالِ والْأَنْفُس، وَأفْعَالُ الْخَيْرِ الَّتِي دَعَا الإسْلامُ إليها.

أَرَىٰ أَنَّ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ خَاصَّتَانِ بِمُسْتَوْفِي حُقُوقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، فِي مَسِيرَتِهِمْ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، وَيُلْحَقُ بِهِمْ مَنْ تَجَاوَزَ اللهُ عَنْ تَقْصِيراتِهِمْ

وَسَيِّئَاتِهِمْ وَغَفَر لَهُمْ، فَجَعَلَهُمْ بِمَثَابَةِ مُسْتَوفِي حُقُوقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَى، وهي أَدَاءُ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَات.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السادس من دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١١)
التدبّر التحليلي للدّرسِ السابع من دُرُوس سورة (الأحقاف) الآيتان (١٥ و١٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

القراءات:

(١٥) • قرأ نَافع، وٱبْنُ كثير، وأَبُو عمْرو، وابْنُ عامر، وأَبُو جَعْفر، ويَعْقُوب: [حُسْناً].

وقَرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِحْسَاناً].

وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تكَامُلٌ فِي أَدَاء المعْنَىٰ المراد.

(١٥) • قرأ نَافِعٌ، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وَهِشَامٌ، وأَبُو جعفر: [كَرْهَا] بفَتْح الْكَافِ في الموضعين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[كُرْهاً]** بضمّ الكاف في الموضِعَيْن. وهما بمَعْنًى وَاحِدٍ لُغَةً.

(١٥) • قَرَأَ يَعْقُوب: **[وَفَصْلُهُ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَفِصَالُهُ]**.

ومُؤَدَّى القراءتَيْنِ واحد.

(١٥) • قرأ ورْش، والْبَزِّي: **[أَوْزِعْنِيَ أَنْ]** بفَتْح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم.

(١٦) • قرأ حفص، وحمْزَة، والكِسَائيّ، وَخَلَفٌ: **[نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ]**.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ]** بالْمَبنِيّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وَمُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ وَاحد، وهُمَا مِنَ التَّفَنُّنِ في التَّعْبِير وفي قراءة الجمهور دَلِيلٌ على أنَّ مَا جاء في القرآنِ بالمبنِيِّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ فالفاعلُ فِيه هو الله جلَّ جلالُهُ إذا كان مِمَّا يليق بالله تعالى.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ وَصِيَّةِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِلْإِنْسَانِ بِوَالِدَيْه.

وفيهما وَعْدٌ لِلْوَلَدِ الْبَارِّ بوالِدَيْهِ بِثَوَابٍ عَظِيم جزِيلٍ ادَّخَرَهُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ لَهُ يَنَالُهُ يَوْمَ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

جاء بشَأْنِ وَصِيَّةِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ في الْقُرْآنِ المجيد ثَلَاثَةُ نُصُوص:

النّص الأوَّل: الآيَتَانِ (١٤ و١٥) من سورة (لقمان/ ٥٧ نزول). وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُهُ فِي مَوْضِعِهِ من سُورَةِ (لقمان).

النَّصّ الثاني: الْآيَتَانِ (١٥ و١٦) من سُورَةِ (الْأَحْقاف/ ٦٦) الْجَارِي بِمَعُونَةِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ تَدَبُّرها.

النَّصُ الثَّالث: الآية (٨) من سُورَة (الْعَنْكَبُوت/ ٨٥ نزول) وهي قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ فيها:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

جَاءَ في آيَةِ سورة (الْعَنْكَبوت/ ٨٥ نزول): ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ﴾.

وَجَاءَ في نَصّ سُورَة (الْأَحْقاف/ ٦٦ نزول): ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ﴾. وفي القراءَة الثَّانِيَةِ: **[حسناً]**.

وَجَاءَ نَصُّ سُورَة (لُقْمان/ ٥٧ نزول) مُطْلَقاً: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ أيُّ لَفْظٍ من اللَّفْظَتَيْنِ.

وَقَدْ تَأَمَّلْتُ تَأَمُّلاً تَدَبُّرِياً فِي هٰذَا الاخْتِيار القرآنيِّ، فَظَهَرَ لِي أَنَّ كَلِمَةَ «حُسْناً» رَاعَتْ حَالَ الْوَالِدَيْنِ الْكَافِرِين، فَمَعْنَىٰ «الْحُسْنِ» هُو مُطْلَقُ الْجَمَالِ، يُقَالُ لُغَةً «حَسُنَ الشَّيْءُ، يَحْسُنُ، حُسْناً» أي: جَمُلَ.

أَمَّا كَلِمَةُ «إِحْسَاناً» فَتَدُلُّ عَلَىٰ إِرَادَةِ فِعْلِ مَا هُو الأتْقَنُ والْأَجْوَدُ وَالْأَفْضَلُ، وَهَـٰذِهِ تُلَائِمُ حَالَ الْوَالِدَيْنِ المؤمِنِيْنَ، فاللهُ تَعَالَىٰ يُوصِي بِزِيَادَةِ بِرِّهِمَا وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا بِمَا يُرْضِيهِمَا حقًّا.

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ: **[حُسْناً]**.

يُقَالُ لغة: «وَصَّىٰ، وأوصَىٰ فُلَاناً بالشَّيْءِ» أي: أَمَرَهُ بِهِ وَفَرَضَهُ

عَلَيْهِ، إِذَا كَانَ ممَّا يُطْلَبُ فِعْلُه، وَنَهَاهُ عَنْهُ وَحَرَّمَهُ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مِمَّا يُطْلَبُ تَرْكُهُ.

والمعنى: وَأَمَرْنَا الْإِنْسَانَ مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ، وَبَدْءِ التَّكَاثُرِ الْبَشَرِيّ بأنْ يُعَامِلَ وَالِدَيْهِ بالإحْسَانِ إِلَيْهِمَا، وَزِيَادَةِ بِرِّهِمَا بِمَا يُرْضِيهِمَا إِذَا كَانَا مُؤْمِنين، وَبِأَنْ يُعَامِلَهُمَا بِحُسْنٍ وَيُصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا بالْمَعْرُوفِ إذا لَمْ يَكُونَا مُؤْمِنَيْن.

• حملته أمه كرها ووضعته كرهاً وفي القراءة الأُخْرَىٰ [**كَرْهاً**] **الْكَرْهُ والْكُرْهُ**: المشَقَّةُ ـ أي: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ مُعْظَمَ مُدَّةِ حَمْلِهِ لَهُ حَمْلَ مَشَقَّةٍ وَتَعَبٍ، وَهِيَ رَاضِيَةٌ صَابِرَةٌ حَرِيصَةٌ عَلَىٰ سَلَامَتِهِ، وَوَضَعَتْهُ حِينَ وِلَادَتِهِ وَضْعَ مَشَقَّةٍ وَتَعَبٍ، وهِيَ رَاضِيَةٌ صَابِرَةٌ حَرِيصَةٌ عَلَىٰ سَلَامَتِهِ فَرِحَةٌ بِهِ وَلِيداً لها.

• ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وفي قراءة يعقوب: [**وَفَصْلُهُ**].

الْفِصَال: فِطَامُ الرَّضِيعِ عَنِ الرَّضَاعِ. وهو الْمُرَادُ بالقراءَةِ الأُخْرَىٰ: [**وَفَصْلُهُ**] أي: إبْعَادُهُ عَنْ أنْ يَرْضَعَ مِنْ ثَدْيَيْ أُمِّهِ، وهٰذَا الْفَصْلُ فِطَامٌ لَهُ.

جَمَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَ أَدْنَىٰ مُدَّةِ الْحَمْلِ وأَقْصَىٰ مُدَّةِ الرَّضَاعِ بِثَلاثِين شهراً، فَقَدْ جَاءَ فِي سُورَةِ (الْبَقَرَة/ ٨٧ نزول) قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ... ﴿٢٣٣﴾﴾: أي: (٢٤) شَهراً، فَبَقِي لِأَقَلِّ الْحَمْلِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ.

وكان هٰذَا مِمَّا تَنَبَّهَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ باسْتِنْبَاطِهِ الرائِعِ، رَضِي اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاه، وَرُوِي مِثْلُ هٰذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاس رضِي اللهُ عَنْهُما.

• ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

يُقَدِّمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هٰذَا البيان صُورَةَ عَنِ الإنْسَانِ المؤمِنِ الْمُسْلِمِ، الشَّاكِرِ لِرَبِّهِ، الْبَارِّ بوالدِيْهِ.

أَشُدُّ كُلِّ شيءٍ: اكْتِمَالُ تَنَامِيهِ بِحَسَبِ صِفَاتِهِ الْقَابِلَةِ للاكْتمال، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾: هٰذَا الْعُمْرُ هو ذِرْوَةُ اكتمالِ الْأَشُدِّ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ أَغْلَبِ النَّاس.

والمعنى: وعَمِلَ الْوَلَدُ المؤمِنُ الْمُسْلِمُ الشَّاكِرُ لِرَبِّهِ الْبَارُّ بوالِدَيْهِ الْمُحْسِنُ إِلَيْهِمَا، بِوَصِيَّةِ اللهِ لَهُ، واسْتَمَرَّ شَاكِراً بَارّاً، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ اكْتِمَالَهُ بِحَسَبِ تَكْوِينِهِ الْفِطْرِيّ، وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَنَضَجَ عَقْلُهُ، وَقَوِيَ إيمانُهُ، وَشَعَرَ بأَنَّ خَطَّ حَيَاتِهِ الصَّاعِدَ بَدَأَ يَنْحَنِي قَلِيلاً قَلِيلاً، تَوَجَّهَ دَاعِياً رَبَّهُ مُسْتَعِيناً بِهِ قَائِلاً:

- ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾: أي: رَبِّ أَلْهِمْنِي واجْعَلْنِي مُولَعاً مُتَعَلِّقاً تَعَلُّقَ حُبٍّ وَرَغْبَة.

- ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾: بالْقِيَامِ بأَعْمَالِ التَّقْوَىٰ والْبِرِّ والإحْسَانِ، تَقَرُّباً إِلَيْكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ.

فَدَلَّ هٰذَا البيانُ عَلَى أنّ مِنَ الْبِرِّ بالْوَالِدَيْنِ، أَنْ يَشْكُرَ الْوَلَدُ اللهَ رَبَّهُ عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَىٰ وَالِدَيْهِ.

- ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾: أي: وأَنْ أَعْمَلَ فَوْقَ وَاجِبِ الشُّكْرِ لَكَ مَكْسَباً مِنَ الْعَمَلِ صَالِحاً تَرْضَاهُ حَتَّىٰ أَنَالَ قُرْباً مِنْكَ يَا رَبّ.

- ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾: أي: وأَكْرِمْنِي بأَنْ تَجْعَلَ لي فِي ذُرِّيَّتِي مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ صَالِحِينَ.

والْمُرَادُ: فَمَنْ اخْتَارَ مِنْ ذُرِّيَتِي أَنْ يَكُونَ مُؤْمِناً مُسْلِماً، فأَعِنْهُ، وَوَفِّقْهُ حَتَّىٰ يَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ.

- ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: أي: إِنِّي رَجَعْتُ إِلَىٰ طَاعَتِكَ، رَاجِياً أَنْ تَغْفِرَ ذُنُوبِي، وتُكَفِّرَ عَنِّي سَيِّئَاتِي، وتَعْفُو عَنِّي.

- ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: أي: وإني مُسْلِمٌ مِن الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ

أعْلَنُوا اسْتِسْلَامَهُمْ لَكَ في أوامِرِكَ وَنَواهِيكَ وَكُلِّ وَصَايَاك.

هُنَا اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ فِي الْبَيَانِ، أَنْ يَذْكُرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الَّذِي رَتَّبَهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُهُ - لِلْأَوْلَادِ الشَّاكِرِينَ لِرَبِّهِمْ، الْبَارِّينَ الْمُحْسِنِينَ إِلَىٰ والِدِيهِمْ، الْحَرِيصِينَ عَلَىٰ صَلَاحِ ذَرارِيهِمْ، فقال تَعالَىٰ بضمير المتكلّم العظيم ذي الفضلِ الْجَسِيم:

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾:

يقال لغة: «قَبِلَ الشَّيْءَ» أي: أَخَذَهُ عَنْ رِضًى، ويقال: «قَبِلَ اللهُ الدُّعَاءَ» أي: اسْتجَابَهُ. ويقال: «قَبِلَ اللهُ الْعَمَلَ الصَّالح» أي: رَضِيَهُ، ورَتَّبَ عَلَيْهِ الثوابَ الحسَنَ.

ويقال: «تَقَبَّلَ اللهُ الْعَمَلَ الصَالح» أي: قَبِلَهُ بِعِنَايَةٍ وَتَكْرِيمٍ وَثواب جَزِيلٍ، أخْذاً مِنْ صِيغَةِ «تَفعَّلَ» وَقَدْ يُقَالُ: «تَقَبَّلَ مِنْهُ» عَلى مَعْنَىٰ تَقَبَّلَ الْعَمَلَ المنْطَلِقَ مِنْه. وقد يُقالُ: «تَقَبَّلَ عَنْهُ» على معْنَىٰ تَقَبَّلَ الْعَمَلَ الصَّادِرِ عَنْه.

أي: أولَئِكَ رَفِيعُو المكانَةِ، الْأَوْلَادُ الشَّاكِرُونَ الْبَرَرَةُ بوالِدِيهِمْ، نَتَقَبَّلُ مِنَ الصَّادِرِ عَنْهُمْ مِنْ كَسْبٍ في رِحلَةِ امْتِحَانِهِمْ أحْسَنَ مَا عَمِلُوا، وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَنَجْعَلُهُمْ فِي أصْحَابِ الْجَنَّةِ، حَالَةَ كَوْنِ ذَلِكَ تَحْقِيقاً لِوَعْدِ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَهُ فِي الحياةِ الدُّنيا.

وأَحْسنُ مَا عَمِلُوا هُوَ فِعْلُ الْوَاجِبَاتِ والمندوبَاتِ والمستَحَبَّاتِ، وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ والمكْرُوهَاتِ وَمَا هُوَ خِلَافُ الأَوْلَىٰ.

أَمَّا المباحَاتُ بِدُونِ نِيَّةٍ تَرْفَعُ قِيمَتَهَا، فَلَيْسَتْ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا رِضْوَانُ اللهِ حَتَّىٰ يَتَقَبَّلَهَا الله عَزَّ وَجَلَّ.

ويَزِيدُ اللهُ مِنْ فَيْضِ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، فيتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِم، فَلَا يُؤَاخِذُهُمْ عليها.

وبهٰذَا انتهى تَدَبُّر الدّرس السابع مِنْ دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٢)
التدبُّر التحليلي للدرس الثامن من دروس سورة (الأحقاف) الآيات من (١٧ ـ ١٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

القراءات:

(١٧) • قرأ نَافع، وحفص، وَأبو جَعْفر: [**أُفٍّ**].

وقرأها ابْنُ كثير، وابْنُ عَامر، ويَعْقُوب: [**أُفَّ**].

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [**أُفِّ**].

وهي لُغَاتٌ لِهٰذِهِ الكلمة، وتُنْطَقُ أَيْضاً بِوُجُوهٍ أُخْرَى كثيرة، بضَمّ الهمزة، وبِكَسْرِها، وبِفَتْحِ الفاء وضَمِّها وَكَسْرِها مُنَوَّنَةً وغَيْر مُنَوَّنة، وبإسْكَانها.

وهي كَلِمَةُ تَضَجُّرٍ وَتَكَرُّهٍ.

(١٧) • قرأ هِشَام: [أَتَعِدَانِّي أَنْ] مَعَ المَدِّ المشْبَع.

وقرأها نافع، وابْنُ كثير، وأَبُو جَعْفر: [أَتَعِدَانِنِيَ أَنْ] بِفَتْحِ ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَتَعِدَانِنِي أَنْ] بإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم.

(١٩) • قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وَهِشَام، وعَاصم، ويَعقُوب: [وَلِيُوَفِّيهُمْ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلِنُوَفِّيهُمْ] بنُونِ المتكلم العظيم.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدرس بيان حَال الْوَلَدِ المكَذِّبِ بِيَوْمِ الدِّينِ، الْعَاقِّ لِوَالِدَيْهِ اللَّذَيْنِ يَسْتَغِيثَانِ اللهَ خَوْفاً عَلَىٰ وَلَدَهِمَا مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النار يَوْمَ الدِّين، وَيَقُولانِ لَهُ: وَيْلَكَ آمِنْ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ. فيقولُ الْوَلَدُ الكافِرُ الْعَاقُّ مَا هـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ.

وفيها بيانُ جَزَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَافِرِينَ المكذِّبين.

التدبّر التحليلي:

فِي مُقَابِلِ المثَلِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ للمؤمِنِ التَّقِيِّ الشَّاكِرِ لِرَبِّهِ البارّ بوالدَيْه، الملْتَجِيءِ إِلَيْهِ بالدُّعَاء، الموعُودِ بالأَجْرِ العظيم، وهُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ في الدَّرْسِ السَّابع، ضَرَبَ اللهُ مَثلاً آخَرَ لِلْوَلَدِ الْكَافِرِ الْعَاقِّ لِوَالِدَيْهِ المؤمِنِينَ الْحَرِيصَيْنِ عَلَىٰ إيمانِ وَلَدَيْهِمَا، وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ أَنْ يُؤْمِنَ، وَيَقُولَانِ لِوَلَدِهِمَا: وَيْلَكَ آمِنْ لِتَنْجُوَ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ يَوْمَ الدِّين، وهُوَ يُصِرُّ عَلَىٰ تَكْذِيبِهِ بالحياة بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيَزْعُمُ أَنَّ أَخْبَارَ السَّاعَةِ وَيَوْم

الْقِيَامَةِ أَكَاذِيبُ الْأَوَّلِينَ، الَّتِي لَيْسَ لَهَا أَسَاسٌ صَحِيحٌ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ وَيُوثَقُ بِهِ.

وَقَدْ جَاءَ ضَرْبُ المثَلِ بأسْلُوبِ عَرْضِ قِصَّةِ إِنْسَانٍ مَا، عَطْفاً عَلَىٰ قِصَّةِ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ المؤمِنِ التَّقِيِّ الشَّاكِرِ لِرَبّه، الْبَارِّ بوالِدَيْه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى ... ﴿١٧﴾﴾:

دَلَّ هَـٰذَا الْبَيَانُ عَلىٰ أَنَّ وَالِدَيْ هَـٰذَا الإنْسَانِ الْكَافِرِ بِيَوْمِ الدِّينِ، قَدْ جَاهَدَا وَلَدَهُمَا جِهَاداً طَوِيلاً رَجَاءَ أَنْ يُؤْمِنَ بالْبَعْثِ، والْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، والْجَزَاءِ عَلَىٰ مَا يُقَدِّمُ الإنْسَانُ مِنْ عَمَلٍ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، حَتَّىٰ أَضْجَرَاهُ فَقَالَ لَهُمَا: أُفٌّ لَكُمَا. لَقَدْ أَضْجَرْتُمَانِي.

«أُفٌّ» اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَىٰ «أَتَضَجّر». وزَادَ هَـٰذَا الابْنُ الكافِرُ العاقُّ فِي وَقَاحَتِهِ فَأَبَانَ أَنَّ تَضَجُّرَهُ مُوَجَّهُ لَهُمَا، فَهُوَ يَقْصِدُهُمَا بِهِ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ تَضَجُّرٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ.

وبأَسْلُوب الاسْتِفْهَام الإنْكَارِيِّ قال لَهُما:

● ﴿... أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى ...﴾:

أي: أَتُصَدِّقَانِ نَبَأَ الْبَعْثِ بَعْدَ الموتِ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، والجزاء، وتُؤْمِنَانِ بِهِ، فَأَنْتُمَا تُحَذِّرَانِ مِنْهُ كَأَنَّكُمَا أَصْحَابُ الْوَعْدِ نَفْسِهِ، فَتَقُولَانِ لِي: إِنَّكَ سَتُخْرَجُ مِنَ الْمَوْتِ إِلَىٰ الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، وَسَوْف تُحَاسَبُ عَلَىٰ كُفْرِك وَكُلِّ سَيِّئَاتِكَ الَّتِي تَقْتَرِفُهَا فِي الحياةِ الدُّنيا عِنْدَ رَبِّكَ يَوْمَ الدِّين، وَالْحَالُ أَنَّ قُرُوناً كَثِيرَةً قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِي، دُونَ أَنْ يُبْعَثَ مِنْ مَوْتَاهَا أَحَدٌ عَلَىٰ مَا تَذْكُرَانِ فِي أَقْوَالِكُمَا وَنَصَائِحِكُمَا الَّتِي أَضْجَرْتَمَانِي بها.

الْقَرْنُ مِنَ الناس: أَهْلُ زَمَانٍ واحد، وجَمْعُه «قُرون».

• ﴿... وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ... ﴿١٧﴾﴾:

﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾: أي: يَطْلُبَانِ من اللهِ الْعَوْنَ والنُّصْرَةَ عَلَىٰ إصْلَاحِ وَلَدِهِمَا، رَجَاءَ أَنْ يُؤْمِنَ، لكِنَّ اللهَ لَا يَجْبُرُ أحداً عَلَىٰ الإيمان أو الكُفْرِ، وَهو في رِحْلَةِ امْتِحَان. فإذا آمَنَ أَمَدَّهُ اللهُ بِمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ.

• ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾: **وَيْل**: كَلِمَةُ عذاب، وفيها مَعْنَىٰ الْوَعِيدِ بِخُلُودِ عِقَابِ الله.

أي: إذا لَمْ تُؤْمِنْ حَلَّ بِكَ عِقَابُ اللهِ الشَّدِيد.

• ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: أي: إنَّ الْبَعْثَ يَوْمَ القيامَةِ والحساب، وفَصْلَ القضاء، وتَحْقِيق الجزاء، وَعْدٌ مِنَ اللهِ، وَهُوَ حَقٌّ، فاللهُ لَا يُخْلِفُ الميعاد.

• ﴿... فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾: أي: فيقول الولَدُ الكافِرُ العاقُّ لوالِدَيْه: مَا هٰذَا الّذِي تَذْكُرانِ عَنِ البعْثِ بَعْدَ الموْتِ، والْيَوْمِ الآخِرِ، والْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، إلَّا أَسَاطِيرُ الأَوّلِين وأكاذِيبُهُمْ وَأَبَاطِيلُهُمْ.

الأساطِير: الأَبَاطِيلُ، والأحاديث الّتِي لَا نِظَام لها، وهي جمع «إسْطار، وإسْطَارة، وأسْطُور، وأسْطُورَة».

وَإِذْ كانَ هٰذَا الكافِرُ العاقُّ لِوَالِدَيْهِ مَثَلاً لَهُ أَشْبَاهُ ونُظَرَاءُ كَثِيرُونَ، كانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيانِ اعْتِبَارُ هٰؤُلَاءِ زُمْرَةً مُنْفَصِلَةً مُتَمَيِّزَةً مِنْ زُمَرِ أَهْلِ الكُفْرِ، والْحَدِيثُ عَنْ جَزَائِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ باعْتِبَارِهِمْ جَمَاعَةً مُتَمَيِّزَة:

■ فقال الله تَعالَىٰ بِشَأْنِهِم:

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾:

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي: الْبُعَدَاءُ المنْحَطُّونَ إِلَىٰ جِهَةِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ من النار.

• ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾: هَٰذِهِ العبارَةُ وأشباهُهَا، قَدْ جَاءَتْ في القرآنِ الْمَجِيدِ بِمَعْنَىٰ تَحقُّقِ كَلِمَةِ اللهِ بِالْعِقَابِ، العاجِلِ مِنْهُ وَالْآجِلِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّين.

أي: ثَبَتَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ بِالْعِقَاب. وجاء اسْتِعْمَالُ حرف «على» مُنَاسِباً لقرار العقاب الَّذِي يَسْقُطُ عَلَيْهِم، كَمَا يَسْقُطُ الْعِقَابُ نَفْسُهُ على المعَاقَبِينَ.

• ﴿... فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ ... ﴿١٨﴾﴾:

أي: وَهُمْ يَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَارَ عَذَابِ المجْرِمِينَ يومَ الدِّين، ضِمْنَ أُمَمٍ كَافِرَةٍ أَمْثَالِهِمْ قَدْ مَضَتْ في تاريخ الْجِنِّ والإنْسِ مِنْ قَبْلِهِمْ، مُنْذُ بَدْءِ رِحْلَةِ الامْتِحَانِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا، وَيَسْتَمِرُّ هَٰذَا حَتَّىٰ آخِرِ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ.

هَٰذَا البيان من الأدلَّةِ عَلى أَنَّ الْجِنَّ مَوْضُوعُونَ فِي الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ قَبْلَ الْإِنْسِ، ثُمَّ بَعْدَ خَلْقِ آدمَ وَتَكَاثُرِ سُلَالَتِهِ.

• ﴿... إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾: أي: إِنَّهُمْ جَمِيعاً بَعْدَ عُبُورِهِمْ رِحْلَةَ الامْتِحَانِ كَانُوا خَاسِرِينَ أَعْظَمَ خَسَارَة، إذ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَهُمْ أَحْرَارٌ الإيمانَ عَلَىٰ الكُفْر، والضَّلَالَ على الْهُدَىٰ، فكانَ عِقَابُهُمْ خَسَارَةَ كُلِّ شيءٍ حَتَّىٰ نُفُوسِهِمْ، بأَنْ صَارُوا في الْعَذَابِ خَالِدِين.

وبياناً لِقَاعِدَةٍ عَامَّةٍ مِنْ قَانُونِ الجزاء الرَّبَّانِي جَاءَتِ الآيَةُ التَالِية:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾:

في هَٰذِهِ الآيَةِ ثَلاثُ فقرات:

الفقرة الأولى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾: أي: وَلِكُلٍّ مَنْ عَبَرَ

رِحْلَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُمْتَحَناً، ووقَفَ يَوْمَ القيامَة مَوْقِفَ الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاء، دَرَجَةٌ مِنَ الدَّرَجَاتِ الصَّاعِدَاتِ إلىٰ الْفِرْدَوسِ الْأَعْلَىٰ بِفَضْلِ الله، أو النَّازِلَاتِ الْهَابِطَاتِ إلى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ من النَّارِ بِعَدْلِ الله، وهٰذِهِ الدَّرَجَاتُ مَأْخُوذَات مِنْ بَعْضِ مَا عَمِلُوا، إِذْ يَعْفُو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ كَثِيرٍ من السَّيِّئَاتِ فَلَا يُحَاسِبُ عَلَيْها، لِصَاعِدِي الدَّرَجَاتِ أَوْ هَابِطِيها.

الفقرة الثّانية: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾: أي: ولِيُعْطِيَ كُلًّا مِنْهُمْ جَزَاءَ عَمَلِهِ وَافِياً تاماً غَيْرَ مَنْقُوص.

أَمَّا إِتْمَامُ جَزَاءِ الصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ فَيَكُونُ بِحَسَبِ الْوَعْدِ بِمُضَاعَفَةِ الثواب.

وَأَمَّا إِتْمَامُ جَزَاءِ السَّيِّئَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ فَأَقْصَاهُ جَزَاءَ كُلِّ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا. وَجَاءَ فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ بِفَضْلِهِ، فَمِنَ التَّوْفِيَةِ الْعَفْوُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوص.

الْفِقْرَة الثَّالِثَة: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾: أي: وهُمْ جَمِيعاً لَا يُظْلَمُونَ، أَمَّا الْمَجْزِيُّونَ بِالثَّوَابِ فاللهُ يُضاعِفُ ثوابَهُمْ عَلَىٰ كُلِّ مِثْقَالِ ذَرَةٍ مِنْ خَيْرٍ عَمِلُوهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله. وأَمَّا الْمَجْزِيُّونَ بِالْعِقَابِ فَهُمْ مَهْمَا اشْتَدَّ عِقَابُهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يُعَاقَبُونَ إِلَّا بِالْعَدْلِ التَّام، فإذَا أُضِيفَ إِلَىٰ هٰذَا التَّجَاوُزُ عَنْ سَيِّئَاتٍ كَثِيراتٍ، كانَ مِنَ الْبَدَهِيّ أَنَّ الْمُعَاقَبِينَ لَا يُظْلَمُونَ مُطْلقاً، بَلْ هُمْ يَكُونُونَ مَحْظُوظِين بِتَجَاوُزِ كَثِيرٍ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ وعَدَمِ مُؤَاخَذَتِهِمْ عَلَيْهَا.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثامِنِ مِنْ دُروس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❋ ❋ ❋

(١٣)
التدبر التحليي للدرس التاسع من دروس سورة (الأحقاف) الآية (٢٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

تَمْهيد:

فِي آيَةِ هـٰذَا الدَّرس عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامَةِ خاصٌّ بالَّذِينَ كَفرُوا.

التدبّر التحليلي:

أي: يُقَالُ لِلّذِينَ كَفرُوا يَوْمَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ النَّارِ وَيَرْوَنَ مَوَاقِعَ دَرَكَاتِهِمْ فيها:

• **[أذهبتم طيباتكم في الحياة الدنيا]**: أي: بَذَلْتُمْ كُلَّ طَاقَاتِكُمْ الْمَادِيَّةِ والْفِكْرِيَّة وَالمعْنَوِيَّة، وَكُلَّ جِهادِكُمْ وَمُجاهَدَاتِكُمْ، لِلْحُصُولِ عَلَىٰ لَذَّاتِكُمُ الطَّيِّبَاتِ فِيمَا كُنْتُمْ تَتَصَوَّرُونَ، مِنْ لَذَّاتِ الْحياةِ الدُّنْيا، مآكِلِها وَمَشَارِبِهَا وَمَنَاكِحِهَا، وَقُصُورِهَا وَجَنَّاتِهَا وَمُتْرِفَاتِها، وَمَا فِيها مِنْ لَهْوٍ وَلَعِبٍ وَزِينَةٍ وَتَفَاخُرٍ وَتكاثرٍ.

وَلَمْ تُوَجِّهُوا عَملاً مَا لآخِرَتِكُمْ، وَلِمَا فِي الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا مِنْ طَيِّبَاتٍ، حَتَّىٰ الْإيمانَ الَّذِي يُنْجِيكُمْ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار، بَلْ كَفَرْتُمْ وَكَذَّبْتُمْ رُسُلَ رَبِّكُمْ فِيما بَلَّغُوكُمْ عَنْه.

• ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾: أي: وَحَصَلَتْ لَكُمْ لَذَّاتٌ مَا، طَلَبْتُمُوهَا مِنْ

مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيَا، وَهِيَ لَذَّاتٌ ضَئِيلاتُ الْقِيمَةِ سَرِيعَاتُ الزَّوَالِ، وهٰذَا شَأْنُ كُلِّ مَتَاعٍ، بِخِلَاف النَّعِيم.

• ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾:

الْهُونُ: الخِزْيُ، والذِّلَّة. و«عَذَابُ الْهُونِ» هو الْعَذَابُ الْخَاصُّ المصْحُوبُ بِمَا يُخْزِي الْمُعَذَّبَ وَيُصَغِّرُهُ ويُحَقِّرُه، جَزَاءَ اسْتِكْبَارِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فِي الحياةِ الدُّنْيَا حَيَاةِ الابْتِلَاءِ.

أي: وَيُقَالُ لَهُمْ أيضاً تَفْرِيعاً عَلَىٰ مَا سَبَقَ، ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ وهُوَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿تُجْزَوْنَ﴾ أي: تُقَابَلُ أَعْمَالُكُمْ بِمَا يُلائِمُها ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: عَذَابَ الإِخْزَاءِ والإِذْلَالِ والتَّحْقِير ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا إِذْ كَانَتِ الأَرْضُ دَارَ امْتِحَانِكُمْ، تُبَالِغُونَ فِي تَكَبُّرِكُمْ عَلَىٰ النَّاس، وَتَكَبُّرِكُمْ عَنِ الإيمانِ بِرُسُلِ رَبِّكُمْ واتِّبَاعِهِمْ، وكُلُّ ذَلِكَ بِغَيْرِ حَقٍّ تَعْتَذِرُونَ بِهِ، بَلْ كُنْتُمْ باسْتِكْبَارِكُمْ مُبْطِلِينَ ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾: أي: وبسبب مَا كُنْتُمْ تَرْتَكِبُونَ مِنْ كَبَائِرِ الآثَامِ والذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي مِنْ دَرَكَاتِ الجرائِمِ والكُفر.

الفِسْقُ: مُصْطَلَحٌ إِسْلَامِيٌّ لارتِكَاب المعاصِي، مأخُوذٌ من قَوْلِ العرب: فَسَقَتِ الرُّطبَةُ، أي: خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتها، ومَعْلُومٌ أَنَّها إذا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِهَا فَسَدَتِ، وسُمِّيَتِ الفأرة فُوَيْسِقَة، لِأَنَّها مُفْسِدَة.

ويُطْلَقُ في المصْطَلح الإسْلَامِيّ عَلَىٰ كُلِّ المعَاصِي مِنْ أَخَفِّ المحرَّمَاتِ إِلَىٰ أَشَدِّها، حتَّىٰ الكُفْرِ بما جاء عن اللهِ جحوداً وَعِناداً وإصراراً على الباطِلِ واتِّباعاً للهوى. وأَكْثَرُ مَا اسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ المادّةُ في القرآنِ للدّلَالَةِ على الْعِصْيَانِ من دَرَكَة الكفر.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر هٰذَا الدَّرْس من دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(١٤)
التدبر التحليلي للدرس العاشر من دروس سورة (الأحقاف) الآيات من (٢١ ـ ٢٦)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا
لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ
ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا
مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا
وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟
يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

القراءات:

(٢١) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وأَبُو جَعْفر: **[إِنِّيَ أَخَافُ]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسْكَانِ.

(٢٣) • قرأ أبُو عَمْرو: **[وأُبْلِغُكُمْ]** مِنْ فعل: «أَبْلَغَ» المهْمُوز.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وأُبَلِّغُكُمْ]** من فعل: «بَلَّغ» المضعف.

وهما متكافِئَان في المعنَىٰ.

(٢٣) • قرأ نَافع، والْبَزِّي، وأَبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر: **[وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكانِ يَاء المتكلّم.

(٢٥) • قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب، وخلف: **[لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ]** بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِله.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَا تَرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ]** بالبناء لِلْمَعْلُوم الْمُخَاطَب، أي: لَا تَرَىٰ أيُّها الرَّائي إذا شَهِدْتَ أَرْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ.

(٢٦) • قرأ أبو جَعْفر: **[يَسْتَهْزُون]** وَصْلاً وَوَقْفاً، وكذلِكَ حمزةُ في الوقف، ولَهُ تَسْهِيلُ الْهَمْزَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الواو، ولَهُ إِبْدَالُها يَاءً خَالِصَةً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَسْتَهْزِئُونَ]**.

والقراءتان من اللَّهَجَاتِ الْعَرَبِيَّةِ في النُّطْق.

تَمْهيد:

في آيَات هٰذَا الدَّرْس بَيَانٌ مُوجَزٌ عَنْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ عاد، وهُوَ مُتَكَامِلٌ مَعَ مَا جَاءَ فِي سُوَرِ القرآنِ مِنْ قِصَّةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ.

التدبُّر التحليلي:

سَبَقَ تَدَبُّر مَا جَاءَ في القرآنِ كُلِّهِ بِشَأْنِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام وقومِهِ عادٍ تَدَبُّراً تَكَامُلِيًّا، في الْمُلْحَقِ الثاني من مَلاحِقِ تَدَبُّر سورة (هود/ ٥٢) لِذَا أَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّر فقراتِ هٰذَا النَّصّ، وهو نَصٌّ يَصِفُ آخِرَ مَسِيرَةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام الدعوية في قومه:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِكُلِّ صَالِحٍ لِلْخِطَاب:

• ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾:

النُّذُر: جَمْعُ «المنْذِر» وهو المخْبِرُ بعواقب غَيْرِ سَارَّة.

أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتَلَقِّي لِهٰذَا الْبَيَانِ أيًّا كُنْتَ هُود عَلَيْهِ السَّلَام، أخَا قَبِيلَةِ عَادٍ الْعَرَبِيَّةِ نَسباً وَلُغَةً، أحْدَاثاً جَرَتْ وَقْتَ أَنْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ الَّذِينَ كَانُوا مُقِيمِينَ بأرْضِ الْأَحْقَاف.

الأحْقَاف: أَرْضٌ تَقَعُ في شَمَالِ «حَضرَمَوْت» ويَقَعُ في شَمَالِ «الْأَحْقَاف» مَا يُسَمَّىٰ «الرُّبع الخَالِي» وفي شَرْقِها «عُمَان» ومَوْضِعُ بِلَادِهِم اليوم رِمَالٌ قَاحِلَةٌ، لَا أَنِيسَ فِيهَا وَلَا دَيَّار، وَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ هُو «هُودٌ» عَلَيْهِ السَّلَام.

والْحَالُ أَنَّ هُوداً قَدْ مَضَتِ الرُّسُل المنْذِرُونَ مِنْ قَبْلِ بِعْثِته، وكذَلِكَ مَضَتِ النُّذُرُ فِي الْقُرُونِ الّتِي جَاءَتْ فِي الأَزْمَانِ بَعْدَه.

وقَال هُودٌ لِقَوْمِهِ مِثْلَما قَالَ الَّذِينَ جَاؤوا مِنْ قَبْلِهِ، ومِثْلَمَا قَالَ الَّذِينَ جَاؤوا مِنْ بَعْدِه: لَا تَعْبُدوا إِلَّا اللهَ.

وَقَال هُودٌ لِقَومِهِ: فإذا لَمْ تَسْتَجيبوا لي، وقَدْ أَقَمْتُ فيكُمْ زَمَناً مَدِيداً أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ يَكُونُ فِيهِ هَلَاكُكُمْ هَلَاكاً جَماعِيًّا سَاحِقاً مَاحِقاً.

● ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: قَالَ الْمُتَحَدِّثُونَ عَنْ قَوْمِ «عَادٍ» لِرَسُولِهِمْ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَجِئْتَنَا بِدِينِكَ الْجَدِيدِ لِتَصْرِفَنَا عَنْ عِبَادَةِ آلِهَتِنَا الَّتِي وَرِثْنَا عِبادَتَهَا عَنْ آبَائِنَا وَأَجْدَادِنَا، وَتُنْذِرُنَا بِعَذَابٍ يُبِيدُنا فِي يَوْم عَظِيم، فَأْتِنَا بِهٰذَا الْعَذَابِ الْمُهْلِكِ لَنَا إِهْلَاكاً جَمَاعِيًّا سَاحِقاً مَاحِقاً إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِين بِوَعْدِكَ الَّذِي تُنْذِرُنَا بِهِ.

الْوَعْدُ: يَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَيَكُونُ في الشَّرِّ.

وإِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ في كَوْنِكَ نَبِيًّا وَرَسُولاً مَبْعُوثاً مِنْ رَبِّ العالمين. إِنَّهُمْ كَانوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُ كاذِبٌ فِي نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِهِ، فَتَحَدَّوْهُ بأنْ يَأْتِيَهُمْ بِمَا يَعِدُهُمْ بِهِ مِنْ إِهْلَاكٍ مُكَرِّراً حِيناً فَحِيناً أَوْ ثُمَّ حِيناً.

لَقَدْ أَعْمَتْهُمْ أَهْوَاؤُهم وشَهَوَاتُهُمْ وتَقَالِيدُهُمُ الْعَمْيَاءُ، عَنْ رُؤْيَةِ الحقيقَةِ، فَدَفَعَتْ بِهِمْ ظُنُونُهُمُ الْبَاطِلَةِ إلى هَاوِيَةِ الكُفْرِ والْهَلَاكِ والْعَذَابِ الأَلِيم.

• ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: قال «هُودٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ مُجِيباً قَوْمَهُ عَلَىٰ تَحَدِّيهِمْ لَهُ بأنْ يأْتِيَهُمْ بِمَا يَعِدُهُمْ بِهِ مِنْ إِهْلَاكٍ وَعَذَاب، بِثَلَاثِ فقَرَات:

الفقْرَة الأُولَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي: مَا الْعِلْمُ كُلُّهُ إِلَّا عِنْدَ الله، وَأَنَا لَا أَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنَّنِي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا يُعْلِمُنِي اللهُ بِهِ، وَمِنْهُ عِلْمُ مَتَىٰ يُنزلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكُمْ انْتِقَامَهُ، فَهُوَ المنْزِلُ، وَهُوَ الّذِي يُحَدِّدُ وَقْتَ الإِنْزَالِ، وَهُوَ الْعَلِيم به.

الفقرة الثانية: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾: أي: وأُعْلِمُكُمْ أَنَّ حُدُودَ رِسَالَتِي قَاصِرَةٌ عَلَىٰ أَنْ أُبَلِّغَكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، وأُمِرْتُ أَنْ أُبَلِّغَكُمْ إِيَاه، فَلِلَّهِ الرُّبُوبِيَّة الشَّامِلَة، والإِلَهِيَّةُ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيها شَرِيك.

الفقْرَة الثالِثَة: ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾: أي: وظَهَرَ لِي بالتَّجْرِبَةِ الطَّوِيلَةِ لَكُمْ أَنَّكُمْ لَسْتُمْ أُولي أَلْبَاب تُعَالِجُونَ قَضَايَا مَصِيرِكُمْ بِعَقْلٍ وَرُشْد، وَلَكِنّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَسْتَجِيبُونَ لانفِعَالَاتِ غَضَبِكُمْ آناً فَآناً، وقَدْ عَطَّلْتُمْ مَوَازِينَ عُقُولِكُمُ الَّتِي فَطَرَكُمُ اللهُ عَلَيْهَا.

﴿تَجۡهَلُونَ﴾: أصْلُ الْجَهْلِ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ العرب: «جَهِلَتِ الْقِدْرُ، تَجْهَلُ جَهْلاً» أي: اشتَدَّ غَلَيَانُها، ضِدَّ تَحَلَّمَتْ. فالْجَهْلُ تَعْبِيرٌ عَنْ ثَوَرانِ الْغَضَبِ في النَّفْسِ وهَيجَانِهِ، والْعَاقِلُ الرَّصِينُ لَا يَجْهَلُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءِۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

عَارِضاً أي: سَحاباً قَادِماً.

لَمْ يَطُلْ بِهِمُ الزَّمَانُ بَعْدَ أَنْ تَحَدَّوا رَسُولَهُمْ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَام، بأنْ يأتِيهُمْ بِمَا كَانَ يَعِدُهُمْ بِهِ، حَتَّىٰ رَأَوْا مُقَدِّمَاتِ عَذَابِهِمْ وإهْلاكهم سَحاباً مُسْتَقْبِلاً أَوْدِيَتَهُمْ وَمُتَّجِهاً لَهَا، فَحَسِبُوهُ سَحاباً قَادِماً بِغَيْثٍ، فَقَالُوا: هٰذَا سَحَابٌ سَيُمْطِرُنَا مطراً نَافِعاً.

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ لَمْ يَجِدُوهُ سَحَاباً مُمْطِراً مطراً نَافِعاً، بَلْ وَجَدُوا أَنَّ مَقَادِيرَ اللهِ تَقُولُ لَهُم: لَيْسَ هٰذَا كَمَا حَسِبْتُمْ، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رَسُولَ رَبِّكُمْ، إِنَّهُ وَسَائِلُ تَعْذِيبِكُمْ وإهْلَاكِكُمْ. إِنَّهُ رِيحٌ عَاتِيَةٌ شَدِيدَةٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ لِأَحْيَائِكُمْ، وهِيَ بِشِدَّتِها وقُوَّةِ سُرْعَتِها تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ يَأْمُرُهَا رَبُّهَا أَنْ تُدَمِّرَهُ، هٰذَا مَا كُنْتُمْ تَسْتَعْجِلُونَهُ وَكُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ بِهِ.

فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهٰذِهِ الرِّيحِ الْعَاتِيَةِ، فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ قَائِماً فِي أَرْضِهِمْ إِلَّا مَسَاكِنهُمْ، أَمَّا الْأَحْيَاءُ فَأَصْبَحُوا صَرْعَىٰ هَلْكَىٰ، باسْتِثْنَاءِ المؤمنين الَّذِينَ أَنْجَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ رَسُولِهِمْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وجعلَهُمْ خَارِجَ مَنَازِل العذابِ والإهلاك.

● ﴿... كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: كَذَلِكَ الْجَزَاءِ الْعِقَابِيِّ الْوَخِيم، نجزي كُلَّ الْمُجْرِمِينَ الكَفَرَةِ، ضِمْنَ قَانُونِ الْعَدْلِ الَّذِي نَجْزِي به.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُخَاطِباً الْمُعَالَجِينَ في السُّورة، وهُمْ أَئِمَّةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ فِي مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيلِ مُحذِّراً وَمُنْذِراً:

• ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: وَلَقَدْ مَكَّنَّا عَاداً مِنْ قَبْلِكُمْ فِي الَّذِي مَكَّنَاكُمْ فِيهِ يَا مُعَانِدِي مَكَّة.

التَّمْكِينُ: الإقْدَارُ عَلَىٰ التَّصَرُّفِ الموصِلِ إلى تَحْقِيقِ المطْلُوبِ مَعَ التَّثْبِيتِ في الْمَكَانِ، والْقُدْرَةِ عَلَىٰ التَّحَرُّكِ فِيهِ.

والمعنى: لَقَدْ كَانَت عَادٌ أَكْثَرَ مِنْكُمْ قُدْرَةً وَامْتِلاكاً لِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ تَدْفَعُ عَنْهُمُ المخاطِرَ والمهلكاتِ، وأَكْثَرَ مِنْكُمْ قُدْرَةً عَلَىٰ الحرْبِ، وحيَازَةً لِأَمْوَالِ وَمُمْتَلَكَاتٍ، بِتَقْدِيرنا وَقَضَائِنا.

وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً يَسْمَعُونَ بِهِ مَا يَدُلُّهُمْ عَلَىٰ الْحَقِّ والْبَاطِلِ، والْخَيْرِ والشَّرِّ، والضَّلَالِ والْهُدَىٰ، وجَعَلْنَا لَهُمْ أبْصَاراً يُبْصِرُونَ بِهَا آيَاتِنَا فِي كَوْنِنَا، وآيَاتِ مُعْجِزَاتِنَا، وآيَاتِ جَزَاءَاتِنا، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَفْئِدَةً يُدْرِكُونَ بِهَا مَا يُوصِلُ إِلَيْهَا سَمْعُهُمْ مِنْ آيَاتِنَا الْبَيَانِيَّة، وَمَا تُوصِلُ إِلَيْهِمْ أبْصَارُهُمْ مِنْ دَلَائِلِ آياتنا، لَكِنَّهُمْ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ وَتَقَالِيدَهُمْ الْعَمْيَاءَ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا مِمَّا جَعَلْنَا لَهُمْ مِنْ أَدَوَاتِ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وإدْرَاك، فَلَمْ تَصْرِفْ عَنْهُمْ شَيْئاً مِنْ عَذَابِنَا، إذْ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِيمَا خُلِقَتْ مِنْ أَجْلِهِ، بَلِ اسْتَعْمَلُوا نَوَازِعَ نُفُوسِهِمْ، في الْجُحُودِ بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَدَم الاعْتِرَافِ بِهَا مَعَ عِلْمِهِمْ بأنها حَقٌّ.

وَنَزَلَ بِهِمْ وَأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ به، حِينَ كَانَ يُنْذِرُهُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّهِمْ، فاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا مِثْلَهُم.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس العاشِرِ من دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(١٥)

التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر من دُروس سورة (الأحقاف) الآيتان (٢٧ و٢٨)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْس خِطَابٌ مُبَاشِرٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُعَالَجِينَ فِي السُّورَةِ، وهُمْ أَئِمَّةُ الكُفْرِ الجحوديّ الْعِنَادِي مِنْ مُشْرِكِي مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيل، وإنْذَارٌ لَهُمْ بأَنَّهُمْ إذا أصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وتَمَادَوْا فِي غَيِّهِمْ، أَهْلَكَهُمْ كَمَا أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ كُفَّار أَهْلِ الْقُرَىٰ مِنْ حَوْلِهِمْ، فَمَا نَصَرَتْهُم آلِهَتُهُمُ الَّتِي كَانُوا قَدِ اتَّخَذُوها مِنْ دُونِ الله.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلْمُعَالَجِينَ في السُّورَةِ إبَّانَ التَّنْزِيلِ بضمير المتكلّم العظيم:

• ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

هٰذَا البيان معطوف على البيان الذي اشْتَمَلَ على ذكْرِ عادٍ قَوْم هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وإهْلَاكِ اللهِ لهم بِسَبَبِ كُفْرِهِم الجحودي.

• ﴿وَلَقَدْ﴾ تَأْكِيد بالْقَسَمِ المنوي، وبِحَرْفِ قَدْ الَّذِي هُو للتَّحْقِيق.

• ﴿أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾: أَنْزَلْنا بِمَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ عَذاباً نُعَذِّبُ بِهِ كُفَّارَ أهْلِهَا الْمُجْرِمِينَ، ويَكُونُ بِهِ إهْلَاكُهُمْ إِهْلَاكاً جَمَاعِيًّا شَامِلاً يَكُونُون بِهِ صَرْعَىٰ.

ونَعْرِفُ مِنَ الْقُرَىٰ المهْلَكَةِ حَوْلَ أَهْلِ مَكَّة قُرىٰ عَادٍ، وثَمُود، وأصحابِ الرَّسِ، وقُرَىٰ قَوْمِ لُوط، وقَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِمَا السَّلام.

أُطْلقَ لَفظُ الْقُرَىٰ والمرَادُ أَهْلُها عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ، أي: لَوْ كَانَتِ الْقُرَىٰ وهِي المبَاني والْمَسَاكِنُ ذَوَات حَيَاةٍ، لَكانَتْ هَالِكَةً مع الكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ الْهَالِكِينَ الصَّرْعَىٰ.

• ﴿... وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: وَقَبْلَ أَنْ نُهْلِكَهُمْ نَوَّعْنَا عَلَيْهِم الآيَاتِ البيانيَّة، والإعْجازِيَّة، والتَّذْكِيرِيَّة بإنْزَالِ الضَّرَّاءِ بِهِمْ، رغْبَةً مِنَّا فِي أَنْ يَرْجِعُوا إِلَىٰ أَصْلِ فِطْرَتِهِمْ الإيمانيَّةِ، وَيَنْبِذُوا ما هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ وَضَلالٍ وَجَرائِمَ فِي السُّلُوكِ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الَّتِي كَانَ رُسُلُنَا يُبَلِّغُونَهُمْ إِيَّاها، وكَذَّبُوهُمْ فِيمَا أَنْذَرُوهُمْ بِهِ، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ نُهْلِكَهُمْ إِهْلاكاً جَماعِيّاً مُسْتَأْصِلاً، وَأَنْ نُنْجِيَ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ المؤمِنِينَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَهُ بِشَأْنِ الْقُرَىٰ الَّتِي أَهْلَكَهَا:

• ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

• ﴿فَلَوْلَا﴾: أي: فَهَلَّا. «لَوْلَا» حَرْفُ تَحْضِيضٍ بمعنى «هلّا».

• ﴿قُرْبَانًا﴾: قال الكِسَائي: **القُرْبَان**: كُلُّ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَىٰ اللهِ من طَاعَةٍ وَنَسِيكَة، وَجَمْعُهُ «الْقَرَابِين».

وقَدْ سَبَقَ أَنْ عَلِمْنَا أَنَّ بَعْضَ المشْرِكِينَ حِينَما سَقَطَتْ ذَرَائِعُهُمْ بِشَأْنِ عِبَادَاتِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، قَالُوا: مَا نَعْبُدُهُم إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ، وَيَظْهَرُ أَنَّ هَـٰذِهِ الذَّرِيعَةَ هي مِنَ الذَّرَائِعِ الَّتِي تَمَسَّكَ بِهَا مُشْرِكُو الْقُرَىٰ الْمُهْلَكَة حِينَ أُقِيمَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ بأَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تَجْلُبُ لَهُمْ نفعاً ولَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضرًّا.

• ﴿إِفۡكُهُمۡ﴾: **الإفْك**: الْحَدِيثُ والكَلَامُ الكَذِب، ولَوْ لَمْ يَتَعَمَّدْ قَائِلُهُ أَنْ يَكُونَ كَاذِباً.

• ﴿يَفۡتَرُونَ﴾: **الافْتِرَاءُ**: اخْتِلَاقُ الْكَذِب واصْطِنَاعُهُ عَنْ عَمْدٍ.

المعنى: فإنْ كَانَ مُشْرِكُو الْقُرَىٰ الْمُهْلَكَةِ صَادِقِينَ فِي ادّعَائِهِمْ أَنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً، يَعْبُدُونَهُمْ لِيَتَقَرَّبُوا بِعِبَادَتِهِمْ إِلَىٰ اللهِ، فَجَعَلُوهُمْ قُرْباناً آلِهَة، وهٰذَا جَمْعٌ تَنَاقُضِيٌّ بَيْنَ الْعَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللهِ، وَبَيْنَ كَون المعْمُول لَهُ إِلَهاً يُعْبَدُ، فإنْ كَانُوا صَادِقِينَ في ادِّعَاءِ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تَنْفَعُهُمْ فِي مَطَالِبِهِمْ، ومِنْهَا النَّصْرُ، فَهَلَّا اسْتَجَابَتْ لَهُمْ آلِهَتُهُمْ فَنَصَرَتْهُمْ وَدَفَعَتْ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ، وإهْلَاكَهُ لَهُمْ، وَتَدْمِيرَهُ قُراهُمْ.

إِنَّ آلِهَتَهُمْ لَمْ تَنْفَعْهُمْ بِشَيْءٍ، وَلَمْ تَرُدَّ عَنْهُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ شيئاً.

• ﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ﴾: أي: بَلْ غَابُوا عَنْهُمْ، وَضَاعُوا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ أثراً، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ شَيْءٌ، وَلَا مِنَ الإلَهِيَّةِ شيء.

• ﴿... وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾: أي: وَذَلِكَ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ هُوَ عَاقِبَةُ إِفْكِهِمُ الَّذِي كَانُوا يُرَدِّدُونَهُ مُتَوَهِّمِينَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تَنْفَعُهُمْ، وَعَاقِبَةُ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَهُ اخْتِلَاقاً واصْطِنَاعاً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، ظُلْماً وَعُدْواناً عَلَىٰ حَقِّ اللهِ الَّذِي لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا إِلَهَ سِوَاه.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الحادي عشر مِنْ دُرُوس سورة (الأحْقَاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٦)
التدبر التحليلي للدّرس الثاني عشر من دُروس سورة (الأحقاف) الآيات من (٢٩ ـ ٣٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾:

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ حَادِثَةِ اسْتِمَاعِ نَفَرٍ مِن الْجِنِّ القرآنَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَرُجُوعِهِمْ إلَىٰ قوْمِهِمْ مِنَ الْجِنِّ مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، دُعَاةً إلَىٰ اللهِ وَمُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِين.

وفيها إشعارٌ للمعالجين في السُّورَة بأَنَّ الْإِسْلَام بدأ يَنْتَشِرُ في فُضَلاء الجنّ، وهم ما زالُوا مُتَشَبِّثِينَ بمَوْقِفِهِمُ العِنَادِيّ الجحوديّ الكُفْرِي على الرغم من كُلِّ الدواعي الداعية لهم إلى الإيمان بالحق الرّبانيّ.

التدبّر التحليلي:

سَبَقَتْ دِرَاسَةٌ شَامِلَةٌ لِلْجِنّ لَدَىٰ تَدَبُّرِ سُورَةِ (الجنّ/ ٤٠ نزول) لِذَا فإنّي أَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّرِ مَا يَتَعَلَّقُ بهٰذَا النّصّ مِنْ سورة (الأحقاف).

لَيْسَ في هٰذَا النَّصِّ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لم يَكُنْ يَعْلَمُ بِحُضُورِهِمْ لَدَىٰ وُفُودِهِمْ إِلَيْهِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ مَا وَرَدَ مِنَ

الْأَحَادِيثِ، الَّتِي جاء فِيها ذِكْرُ وِفَادَةِ الْجِنِّ إلى الرَّسولِ محمّد ﷺ، بخلافِ ما جاء في سُورة (الجنّ).

• ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾: أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ يَا مُحَمَّدُ هـٰذَا الْحَدَثَ الَّذِي جَرَىٰ وَقْتَ صَرْفِ نَفَرٍ مِنَ الْجِنِّ عَمَّا كَانُوا فِيهِ، وأرْسَلْنَاهُمْ إِلَيْكَ، واذْكُرْهُ فِي بَيَانَاتِكَ الَّتِي تَدْعُو بِها إلى سَبِيلِ رَبِّكَ.

ضُمِّنَ فِعْل: «صَرَفَ» معْنَىٰ فِعْل: «أَرْسَلَ» وَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بِحَرْف «إِلَىٰ» فَأَغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن، إِحداهُمَا دَلَّ عَلَيْهَا الْفِعْل في: ﴿صَرَفْنَآ﴾ والْأُخْرَىٰ دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارَة: ﴿إِلَيْكَ﴾ وَهذا مِنَ الإيجاز الْبَدِيع في القرآن المجيد.

أصْلُ فِعْل «صَرَفَ» يُعَدَّىٰ بِحَرْفِ «عَنْ» يُقَالُ لغة: صَرَفَهُ عَنِ الْأَمْر، أَوْ عَنِ الْعَمَلِ. والمناسِبُ للتَّعْدِيَةِ بـ ﴿إِلَيْكَ﴾ في هـٰذَا البيان، فِعْل: «بَعَثَ» أَوْ «أَرْسَلَ».

وتَحدَّثَ اللهُ ـ جلَّ جلالُهُ ـ في هـٰذَا البيان بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم، للإشْعَارِ بأنَّ هـٰذَا الصَّرْفَ وهـٰذَا الإرْسَالَ قَدْ كَانَا بِوَسَائِلَ لَطِيفَةٍ خَفِيَّةٍ، لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا الرَّبُّ القديرُ اللَّطِيفُ الْخبِير.

• ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾: النَّفرُ يُطْلَقُ عَلَىٰ عَدَدٍ مِنَ الرِّجالِ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَىٰ العشَرَة. وَ ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بمَحْذُوف هُو صِفَةٌ للفظ ﴿نَفَرًا﴾ أي: كَائِناً مِنَ الْجِنِّ، أَوْ ذَا عِلْمٍ وَمَكَانَةٍ وَفَضْلٍ مِنْ كُبَرَاءِ الْجِنِّ وَسَادَاتِهِم.

• ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ﴾: جُمْلَةٌ في مَحَلِّ نَصْبٍ على أَنَّهَا صِفَةٌ لِـ «نفراً» أي: نَفَراً مُسْتَمِعِينَ لِلْقُرْآنِ بِعِنَايَةٍ وَقَصْدٍ، ويَدُلُّ عَلَىٰ هـٰذَا أَنَّهُمْ قَدْ بَلَغَتْهُمْ أَنْبَاءُ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَنُزُولِ كِتَابٍ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَانْبَعَثُوا لاسْتِمَاعِ بَعْضِ مَا جَاءَ فِي هـٰذَا الكِتَاب، مِنْ تِلَاوَةِ الرَّسُولِ الَّذِي أَرْسَلَهُ الله لِلْإِنْسِ ولِلْجِنّ.

فالمعْنَىٰ: نفراً مَوْصُوفِينَ بأَنَّهُمْ مِنَ الجنّ، وبأَنَّهُمْ قَدِمُوا وهم يقْصِدُونَ مِنْذُ بَدْءِ تَوَجُّهِهِمْ اسْتِمَاعَ القرآنِ مِنَ الرَّسُولُ محمّد ﷺ.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَـٰؤُلَاءِ النَّفَرُ مِنْ فُضَلَاءِ وَعُقَلَاءِ وَسَادَةِ قَوْمِهِمْ مِنَ الجنّ، وَلَعَلَّهُمْ قَدْ وَفَدُوا إِلَىٰ الرَّسُول ﷺ بِطَلَبٍ مِنْهُمْ، إِذِ انْتَشَرَ بَيْنَ الْجِنِّ أَنَّ رَسُولاً فِي مَكَّةَ أَرْسَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَاباً.

أَمَّا كَيْفَ صَرَفَهُمُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ إلى الرسُول ﷺ، فَلَمْ يَأْتِ فِي النَّصِّ وَلَا فِي بَيَانَاتِ الرَّسُولِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

• ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾: أي: فَحِينَ حَضَرُوا الْقُرْآنَ والرَّسُولُ ﷺ يَتْلُوه، وَشَهِدُوا تِلَاوَتَهُ مِنْهُ.

يُقَالُ لغة: «حَضَرَ فُلَانٌ الْمَجْلِسَ وَنَحْوَهُ» أي: شَهِدَهُ.

• ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾: أي: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اسْكُتُوا، وَلَا يَكُنْ مِنْ أَحَدِكُمْ صَوْتٌ ما، حَتَّىٰ نُحْسِنَ الاسْتِمَاعَ.

الإنْصَات: هُو السُّكُوتُ وَعَدَمُ الْكَلَام، وَعَدَمُ إِحْدَاثِ صَوْتٍ مَا بِمَعْنًى أَوْ بِغَيْرِ مَعْنًى. والسَّبَبُ فِي طَلَبِ الإنْصَاتِ تَهْيِئَةُ الْجَوِّ لِلاسْتِمَاعِ الْجَيّد.

ويُقَالُ لغة: «أَنْصَتَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: أَسْكَتَهُ. ويقال: «أَنْصَتَ الرَّجُلُ» أي: أَحْسَنَ الاسْتِمَاعَ لِلْحَدِيثِ.

• ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾: أي: فَحِينَ أُنْهِيَ المقْدَارُ الَّذِي كَانَ الرَّسُولُ قَدْ عَمَدَ إِلَىٰ تِلَاوَتِهِ مِنَ القرآن.

«قُضِيَ» بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَنَائِبُ الْفَاعِلِ ضَمِيرٌ يَعُودُ على القرْآنِ الَّذِي كان الرَّسُول ﷺ يَتْلُوه.

• ﴿... وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: أَدْبَرُوا وَنَأَوْا ذَاهِبِينَ

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ مِنَ الْجِنّ ﴿مُّنذِرِينَ﴾: أي: مُبَلِّغِينَ أَوَّلاً، وَدَاعِينَ إِلى دِينِ اللهِ، ومُبَشِّرِينَ مَنْ آمَنَ بالنَّعِيمِ المقيم في جنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين، وَمُنْذِرِينَ أخيراً مَنْ كَفَرَ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، حَرِيقاً فِي الْجَحِيم.

جَاءَ التَّعْبِيرُ بالإنْذَارِ، وهُوَ آخِرُ فِقْرَةٍ مِنْ فِقَرَاتِ الدَّعْوَةِ إلىٰ دِينِ اللهِ، لِيَدُلَّ باللُّزُومِ الذِّهْنِي عَلىٰ مَا يَكُونُ قَبْلَهُ مِنْ فِقَرَاتٍ دَعَوِيَّة، يَقْتَضِيهَا التَّرْتِيبُ الْحَكِيمُ، في البيان والإعْلَام، والدَّعْوَةِ إلىٰ الدُّخُولِ فِي دِينٍ مُتَكَامِلِ الْبُنْيَانِ، رَاسِخِ الْأَرْكَانِ عَظِيمِ الإِتْقَانِ، بِحِكْمَةِ الْحَكِيمِ الدَّيَّان.

الإِنْذَارُ: الإعْلَامُ بِمَا هُوَ مَحْذُوفٌ مِنْهُ، ويَجِبُ على أهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ أَنْ يَتَّقُوهُ، وَيَتَّقُوا مُسَبِّبَاتِهِ.

والإنْذَار: التَّحْذِيرُ والتَّخْوِيفُ مِنْ شَرٍّ قَادِم.

• ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ﴾: هٰذَا بَيَانٌ تَمْهِيدِيٌّ لِبَدْءِ دَعْوَتِهِمْ قَوْمَهُمْ مِنَ الجِنّ، وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْجِنَّ أَقْوَامٌ يُشْبِهُونَ فِي تَقْسِيمَاتِهِمْ أَقْوَامَ الإنْسِ.

• ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾: أي: إِنَّا سَمِعْنَا آيَاتٍ مِنْ كِتَابٍ رَبَّانِيّ، أُنْزِلَ عَلَىٰ رَسُولٍ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ وَكِتَابِهِ التَّوْرَاة.

هٰذَا البيانُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هؤلَاءِ النَّفَرَ مِنَ الْجِنِّ كَانُوا يَهُوداً، لِذِكْرِهِمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام وَكِتَابَهُ، وَعَدَمِ ذِكْرِهِمْ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام والكِتاب الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ.

• ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي: مُصَدِّقاً لِمَا سَبَقَ إنْزَالُهُ مِنْ كُتُبٍ رَبَّانِيَّةٍ، ولِلأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ السَّابِقِينَ للرَّسُولِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ هٰذَا الكِتَابُ الَّذِي سَمِعْنَا بَعْضَ آيَاتِهِ المنَزَّلَاتِ.

الزمَانُ الماضِي هو مَا بَيْنَ يَدَيْ الأَحْيَاءِ الْمُدْرِكة، وأمَّا المسْتَقْبَلُ فَهُوَ الَّذِي يَكُونُ خَلْفَهُمْ لِأَنَّهُمْ يَجْهَلُونه.

• ﴿... يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾: أي: يَـهْـدِي بـمـا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانٍ إِلَىٰ أَصْلَيْنِ رَئِيسَيْن، هما:

الأَصْلُ الأول: الْحَقُّ فِي بَيَانِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّة، وفي بَيَانِ الْأَخْبَارِ الْمَاضِيَةِ، والْحَاضِرَةِ، والمسْتَقْبَلَةِ، وَفِي بَيَانِ مَا في الكَوْنِ.

الأَصْلُ الثاني: الطَّرِيقُ المستَقِيمُ، وَهُوَ طَرِيقُ سُلُوكِ ذوي الإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ، في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، سَوَاءٌ أَكَانَ سُلُوكاً ظَاهِراً أَمْ سُلُوكاً بَاطِناً.

يُقَالُ لُغَةً: «هَدَىٰ فُلَانٌ فُلَاناً الطَّرِيق. وَهَدَاهُ لَهُ. وَهَدَاهُ إِلَيْهِ» أي: عَرَّفَهُ بِهِ وَبَيَّنَهُ له.

• ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ...﴾: نداءٌ دَعَوِيٌّ بَعْدَ النِّدَاءِ التَّمْهِيدِيّ الأَوَّل.

أي: يَا قَوْمَنَا أَطِيعُوا دَاعِيَ اللهِ مُحَمّداً فِيما يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ إِيمَانٍ وَعَمَلٍ.

يُقَالُ لغة: «أجَابَ فُلَانٌ دَعْوَةَ الدَّاعِي» أي: قَبِلَ دَعْوَتَهُ، وَأَطَاعَهُ، وَحَقَّقَ مَا طَلَبَ مِنْه.

وصَفُوا الرَّسُولَ محمّداً ﷺ بأَنَّهُ دَاعِي اللهِ، أي: الدَّاعِي المبَلِّغُ دِينَ اللهِ.

وكَذَلِكَ وَصَفُوا القرآن بأَنَّهُ دَاعِي الله، أي: الْبَيَانُ الْمُبيّنُ دِينَ اللهِ لِعِبَادِهِ الموضُوعِينَ فِي الحياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

فَكُلٌّ مِنْهُمَا يُنَادِي: اسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ اللهِ، وَأَطِيعُوهُ، وَلَا تَعْصُوا، وَنَحْنُ نُنَادِيكُمْ فَنَدْعُوكُمْ إِلَىٰ قَبُولِ الدَّعْوَةِ، والطَّاعَةِ، والاسْتِجَابَةِ بالإيمان بالحق، وسُلُوكِ الطَّرِيق المستقيم في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ في الحياة الدُّنيا.

• ﴿وَءَامِنُوا بِهِۦ﴾: يَعُودُ الضَّمِيرُ في ﴿بِهِۦ﴾ عَلَىٰ الدَّاعِي، وهُوَ يَشْمَلُ الرَّسُولَ وَالقرآن. أَمَّا الرَّسُولُ ﷺ فَلِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ الَّذي يُبَلِّغُ عَنِ اللهِ كِتَابَهُ، وَبَيَانَاتِ الدِّينِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ به. وأَمَّا القرآن فَلِأَنَّهُ كِتَابُ اللهِ المشْتَمِلُ عَلَىٰ مَطْلُوبِ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم.

• ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: أي: يَسْتُرْ لَكُمْ بَعْضَ ذُنُوبِكُم بِسَبَبِ الإجَابَةِ والإيمان، وَإِذَا سَتَرَهَا فإِنَّهُ لَا يُحَاسِبُكُمْ عَلَيْهَا، وَلَا يُجَازِيكُم بِعَذَابٍ على اقْتِرَافِكُمْ لها.

ذَكَرُوا بَعْضَ الذُّنُوبِ احْترازاً مِنَ الذُّنوبِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِهَا حُقُوقُ العباد.

غَفْرُ الذُّنوب: سَتْرُها، وَفَوْقَهُ الْعَفْو، وَفَوْقَهُمَا رَفْعُ الْجُنَاح، وَفَوْقَهَا جَمِيعاً أَنْ يُبَدِّلَ اللهُ سَيِّئَاتِ الْمُذْنِبِ حَسَنَاتٍ.

• ﴿... وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾: أي: وَيَحْمِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ فِي جَهَنَّمَ، فَلَا يُعَذِّبُكُمْ بِالْحَرِيقِ فِيها بِسَبَبِ إيمَانِكُمْ، إِذِ الْإِيمَانُ يَكُونُ سَبباً فِي وِقَايَتِكُمْ مِنْ عَذابِ الحريق.

يقال لُغَةً: «أَجَارَ فُلَانٌ فُلَاناً» أَيْ: حَمَاهُ وَحَفِظَهُ، وَدَفَعَ عَنْهُ مَا يَكْرَهُ، وَوَقَاهُ مِمَّا اسْتَجَارَ بِهِ مِنه.

فالْجِنُّ يُعَذَّبُونَ في النَّارِ كَالإِنْسِ، إِذَا كَانُوا مِنَ الْكَافِرِينَ المجرمِينَ.

وَمَنْ أَجَارَهُ اللهُ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ لَا مَحَالَةَ، سَوَاءٌ أَكَانَ مِنَ الإِنْسِ أَمْ مِنَ الجنّ.

• ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾: أي: وَمَنْ يَعْصِ بِعَدَمِ إجَابَتِهِ دَعْوَةَ الرَّسُولِ، ودَعْوَةَ القرآن، إلى الْإِيمَانِ والإِسْلام، واتِّبَاعِ الرَّسُول، واتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ لِلْمَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي الحياة الدُّنْيا مِنْ رَبِّهِمْ.

«مَنْ» اسْم شَرْط جازم «لَا يُجِبْ» هٰذَا الفِعْلُ مَجْزُوم عَلَىٰ أَنَّهُ فِعْلُ الشَّرْطِ، وَجوابُه دَلَّتْ عَلَيْهِ الْعِبَارَة التالِيَة:

• ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: فَلَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُفْلِتَ مِنْ عِقَابِ اللهِ وَعَذَابِهِ، مَهْمَا كَانَتْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَىٰ الْهَرَب، واجْتِيَازِ الْمَسَافَاتِ بِسُرْعَاتٍ فَائِقَات، إِذْ هو مُحَاطٌ بِقُدْرَةِ الرَّبِّ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ الأَبْعَادِ، الَّتِي يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ يُمْكِنُ أن يَهْرُبَ إِلَيْهَا، بِقُدْرَاتِهِ الْعِفْرِيتِيَّة.

وَقَدْ جَاءَتْ هٰذِهِ العبارةُ كِنَايَةً عَنْ جَوَابِ الشَّرْط، الَّذِي يَدُلُّ دَلَالَةً مُبَاشِرَةً عَلَىٰ نُزُولِ الْعِقَابِ بِهِ لَا محالَةَ.

والمعْنَىٰ: فَهُوَ مُعَذَّبٌ عَذَاباً شَدِيداً لَا مَحَالَة، فَلَوْ حَاوَلَ الْهَرَبَ لِيَفْلَتَ مِنَ الْعَذَاب، فَلَيْسَ بِمُعْجِزِ الْمَلَائِكَةَ المأْمُورِينَ بالْقَبْضِ عَلَيْهِ، وَبِتَعْذِيبِهِ، وبإِدْخَالِهِ جهَنَّمَ دَارَ عَذَابِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِين، فَضْلاً عَنْ أَنْ يُعْجِزَ اللهَ هَرَباً، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُ وَمَنَحَهُ قُدْرَاتِهِ الَّتِي يَقْطَعُ بِهَا الْمَسَافَاتِ الشَّاسِعَات، بِسُرْعَاتٍ فَائِقَات.

وجاءتْ عِنَايَةُ هؤلَاءِ النَّفَرِ المؤمِنِينَ مِنَ الْجِنِّ، بالتَّوْجِيهِ فِي دَعْوَتِهِمْ لِقَوْمِهِمْ، لحقيقَةِ أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ رَبَّهُمْ فِي الأَرْضِ، إِذَا أَرَادَ اللهُ مُعَاقَبَتَهُمْ، نَظَراً إلى أَنَّ قَوْمَهُمْ مِنْ صِنْفِ الْجِنِّ الطَّيَّارِين، الذين قَدْ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَىٰ الْهَرَبِ مِن جُنُودِ الله، بِسَبَبِ ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ سُرْعَاتٍ فَائِقَات.

• ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾: أي: وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ نُصَرَاءُ يَنْصُرُونَهُ، فَيَدْفَعُونَ عَنْهُ عَذَابَ اللهِ على مَعْصِيَتِهِ وَكُفْرِه.

الأَوْلياء: هُنَا النُّصَرَاءُ الَّذِينَ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ نُصْرَةِ أَتْبَاعِهِم، أَوْ إِخْوَانِهِم، والَّذِينَ كانُوا في أَزْمَانِ الامْتِحَانِ يُحَرِّضُونَ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ عَلَىٰ الإِثْمِ وَالظُّلْمِ وَنَشْرِ الْفَسَادِ فِي الأَرْض.

• ﴿... أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢﴾: أي: أولَئِكَ الَّذِينَ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيَ اللهِ الْبُعَدَاءُ عَنْ تَنَزُّلَاتِ رَحَمَاتِ اللهِ باخْتِيَارِهِم الحرّ، هُمْ مُنْغَمِسُونَ فِي ضَلَالٍ جَلِيٍّ واضِحٍ.

مُبِين: اسم فاعل من فعل «أَبَانَ» اللَّازم بمَعْنَىٰ وضَحَ وظَهَر.

إِنَّ دَعْوَةَ هؤلَاءِ الْفُضَلَاءِ مِنَ الْجِنِّ كانَتْ حَكِيمَةً، إِذِ اخْتَارُوا فِيها التَّوْجِيهَ لِلْكُلِّيَّاتِ الكُبْرَى، الَّتِي تَقَعُ في الدَّرَجَةِ الْأُولَىٰ مِنَ الْأَوْلَوِيَّاتِ الدَّعَوِيَّةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقّ.

وبهٰذَا انتهى تَدَبُّر الدّرس الثاني عشر من دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٧)
التدبّر التحليلي للدّرس الثالث عشر من دُرُوس سورة (الأحقاف) الآيتان (٣٣ و٣٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٣٣ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٤﴾:

القراءات:

(٣٣) • وَقف يَعْقُوبُ بهاء السَّكْت على: [**بِخَلْقِهِنَّ**].

(٣٣) • قرأ يَعْقُوبُ: [**يَقْدِرُ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِقَادِرٍ].

والمؤدّىٰ واحِدٌ، وهُمَا مِنَ التَّفَنُّنِ فِي البيان.

تَمْهيد:

فِي آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْس بَيَانٌ إقْنَاعِيٌّ مُوَجَّهٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِمُنْكِرِي الْبَعْثِ، مَصْحُوبٌ بإنْذَارٍ بِعَذَابِ النَّارِ يَوْم الدِّين، بأسْلُوب عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً عَنْ مُنْكِرِي الْبَعْثِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَلِيلٌ غَيْرُ مُجَرَّدِ الاستِبْعَادِ والاسْتِغْرَابِ، مُتَجَاهِلِينَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْض وَكُلَّ الْأَحْيَاءِ فِيهِمَا ولَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي الكَوْن مَوْجُوداً قَبْل خَلْقِهِ، ومِنْهُمُ المعالَجُونَ في السورة:

• ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾:

الْواو في: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَطْوِيٍّ يُمْكِنُ بالتَّأَمُّلِ اسْتِخْرَاجُهُ، أي: أَعَطَّلُوا عُقُولَهُمْ وَجِهَازَ التَّفكيرِ الَّذِي هُوَ مِنْ عَنَاصِرِ تَكْوِينِهِمْ، وَلَمْ يَرَوْا رُؤْيَةً فِكْرِيَّةً تُشْبِهُ الرُّؤْيَةَ الْبَصَرِيَّةَ أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لِكُلِّ شيءٍ، السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا مِن أشْيَاء وأَحْيَاء، وَلَمْ يَعْجَزْ عَنْ خَلْقِهِنَّ، بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ، كَمَا بَدَأَ خَلْقَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، دُونَ أَنْ يَكُونُوا شَيْئاً مَذْكُوراً؟!!

يُقَالُ لغة: «عَيِيَ، يَعْيَىٰ، عَيًّا، وعِيًّا» أي: عَجَزَ.

• ﴿بِقَٰدِرٍ﴾: الْبَاءُ مَزِيدَةٌ لِلتَّوكيد، وَلَفْظُ «قَادِرٍ» خَبَرُ «أَنَّ» مَجْرُورٌ بِحَرْفِ الْجَرِّ الزَّائد لفظاً، وَمَحَلُّهُ الرَّفع.

وَجَوَابُ الاسْتِفهام مَطْوِيٌّ تَقْدِيرُه: بَلَىٰ لَقَدْ رَأَوْا هَـٰذِهِ الحقيقَةَ وَلَكِنَّهُمْ جَحَدُوهَا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم.

وَجَاءت عبارَة: ﴿... بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾: تَكْذِيباً لِمَقُولَةٍ مَطْوِيَّةٍ لَهُمْ، قَالُوا فِيها: لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ.

أي: بَلَىٰ يَبْعَثُ اللهُ الْمَوْتَىٰ فِي الْوَقْتِ المحدَّدِ لِبَعْثِهِمْ، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ يَشَاؤُهُ قَدِيرٌ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُنْذِراً وَمُرْهِباً لِمُنْكِرِي الْبَعْث:

• ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: ويُقَالُ لِلّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ النَّارِ وَيَرون مواقِعَهُمْ مِنْ دَرَكَاتِها: أَلَيْسَ هـٰذَا الّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِهِ جُحُوداً؟؟!

استفهام تَوْبِيخٍ وَتَحْسِيرٍ وَتَنْدِيم. فَكَانَ جَوابُهم:

• ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾: أي: بَلَىٰ هـٰذَا حَقٌّ وَأَكَّدُوا اعْتِرَافَهُمْ بِالْقَسَم: ﴿وَرَبِّنَا﴾ طَمَعاً فِي أَنْ يُخَفِّفَ اللهُ مِنْ عَذَابِهِمْ، لَكِنَّ اعْتَرَافَهُمْ بَعْدَ الشُّهُودِ لَا يُفِيدُهُمْ شَيْئاً، فَقَدَ مَضَىٰ زَمَنُ الامْتِحَانِ وَجَاءَ يَوْمُ الجزاء.

الباء في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مَزِيدَةٌ لِلتَّوْكِيدِ فِي خَبَرِ لَيْسَ.

عِنْدَئِذٍ يَقُولُ لَهُمُ الّذِين كَانَ قَدْ سَأَلَهُمْ سُؤالَ تَوْبِيخٍ وَتَحْسِيرٍ وَتَنْدِيم ما جَاءَ بَيَانُه في الآيَة:

• ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾:

أي: فَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ فِي جَهَنَّم، بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ في الحياة الدُّنْيا حَيَاةِ الامْتِحَانِ تَكْفُرُونَ بالْحَقِّ كُفْرَ جُحُودٍ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ عُذْرٌ بِهِ تَعْتَذِرُونَ.

وَهٰذَا الْقَوْلُ قَدْ يُقَالُ لَهُمْ قَبْلَ إِلْقَائِهِمْ فِي جَهَنَّم، أَوْ عِنْدَ إِلْقائِهِم فِيها، أَوْ بَعْدَ إِلْقَائِهِمْ وَاسْتِقْرَارِهِمْ فِي مَوَاقِعِهِمْ مِنْها، أو في كُلِّ هٰذِهِ الْأَحْوَال.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث عشر من دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٨)
التدبر التلحيلي للدّرس الرابع عشر من دُروس سورة (الأحقاف) الآية (٣٥) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

تَمْهيد:

في آيَةِ هٰذَا الدَّرسِ الأخير توجيهٌ للرسُول ﷺ بأنْ يَصْبِرَ كَمَا صَبَرَ أُولوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ، وَبِأَنْ لَا يَسْتَعْجِلَ لِلْمُعَالَجِينَ الإهْلَاكَ الَّذِي يَطْلُبُونَ تَعْجِيلَهُ، تَعْبِيراً عَنْ إنْكَارِهِمْ رِسَالَتِهِ، مَعَ تَهْدِيدِ اللهِ لَهُمْ، وَإِشْعَارِهِمْ بِأَنَّهُ جلَّ جَلَالُهُ لَا يُهْلِكُ إهْلَاكاً جَمَاعِيًّا شَامِلاً إلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ المتواطِئِينَ على الكُفْرِ والْفُسُوق.

التدبّر التحليلي:

جاء بيانُ تَوْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بالصَّبْرِ فِي القرآنِ كُلّه، فِي المقولَةِ الثَّالِثَةِ من الفصل الأول من الباب الثاني (الصّفات التّي

يَجبُ أن يَتحَلّىٰ بها حَملَةُ الرِّسالَة)[١] من كِتَابِ «فقْهِ الدَّعْوَةِ إلَىٰ اللهِ وَفِقْه النُّصْحِ والإرْشَادِ والأمْرِ بالمعروف والنَّهْي عَنِ المنكر».

بَعْدَ أَنْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، أَنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي عَدَمَ إجْرَاءِ آيَةٍ إعْجَازِيَّةٍ كُبْرَىٰ، بِحَسَبِ طَلَبِ كُبَرَاء قَوْمِهِ مِنْهُ، لِئَلَّا يَتَعَرَّضَ قَوْمُهُ لِلْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ إذا أَصَرُّوا عَلَىٰ الكُفْرِ بَعْدَ إجْرَائِهَا، وَمُعْظَمُهُمْ لَمْ يَصِلُوا بَعْد إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْ إصْلَاحِهِم مَعَهَا عَنْ طَرِيق إرَادَاتِهِمْ الحرَّةِ.

وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ خَطَرَتْ لَهُ خَوَاطِرُ تَعْجِيلِ عِقَابِ مُسْتَحِقّي الْعِقَابِ مِنْ قَوْمِهِ، دُونَ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ شيئاً مِنْ ذَلِكَ، فأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هَـٰذِهِ الآيَة الْأَخِيرَةَ من سُورَة (الأحْقَاف).

أي: فاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ: «نُوح، وإبراهيم، وَمُوسَىٰ، وعِيسَىٰ» فَقَدْ لَاقَوْا مِنْ أَقْوَامِهِمْ جُحُوداً لِلْحَقِّ وَعِنَاداً شَدِيداً وَلَمْ يَسْأَلُونِي أَنْ أُعَجِّلَ عِقَابِي للمعانِدِينَ المكابِرِين، فَتَأَسَّ بِهِمْ.

وَلَا تَسْتَعْجِلِ لِمُعَانِدِي قَوْمِكَ الإهْلَاكَ الْمُعَجَّلَ الَّذِي يُطَالِبُونَكَ بِهِ، لَا رَغْبَةً فِيهِ، وَلَكِنْ تَعْبِيراً عَنْ تَكْذِيبِكَ في نُبُوَّتِكَ وَرسالَتِكَ وَإِنْذَارَاتِكَ لهم.

أَمَّا الْعَذَابُ الَّذِي وُعِدُوا بِهِ يَوْمَ الدِّينِ فإنَّهُ آتٍ لَا مَحالَة إِذَا مَاتُوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَجُحُودِهم، وهُمْ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا بَيْنَ الموْتِ والْبَعْثِ إلَّا سَاعَةً مِنْ نهارٍ.

• ﴿... بَلَٰغٌۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾:

بَلَاغ: اسْمٌ بِمَعْنَىٰ المصْدَرِ، الّذِي هُو الإبْلَاغُ أو التَّبْلِيغ.

أي: هـٰذَا بَلَاغٌ مِنَ اللهِ عَامٌّ لِكُلِّ المؤمنِينَ لِقَطْعِ تَطَلُّعَاتِ نُفُوسِهِمْ لإهْلَاكِ جَمَاعَاتِ الْكَافِرِينَ، قَبْلَ أَنْ تَقْتَضِيَ حِكْمَةُ اللهِ الْعَلِيمِ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ إهْلَاكَهُمْ.

---

(١) انظر الصفحات من (١٤٢ ـ ١٦٠) من الجزء الأول.

وَقَدْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هـٰذَا البلاغ أَنَّ الإِهْلَاكَ الشَّامِلَ لِقَوْمٍ مِنَ الْأَقْوَامِ إِنَّمَا يَكُونُ حِينَما يَصِيرُ فِسْقُهُمْ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ أَمْراً عَامًّا شَامِلاً، وحِينما يُمْسِي إصْلاحُ أَفْرادٍ مِنْهُمْ ميؤوساً مِنْهُ.

وبهـٰذَا انْتَهىٰ تَدَبُّر الدّرس الرابع عشر من دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

(١٩)
ملحق: مُستَخرَجَات بَلاغيّة من سورة (الأحقاف)

في سورة (الأحقاف) اختيارات بلاغيّة متعدّدة، أستخرج منها ما يلي، وأترك الباقي لِذَوي الاهتمامات الْبَلاغِيَّة.

أوّلاً:

مِنْ خُرُوج الاستفهام عَنْ أَصْل دَلَالته، قولُ الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

الاستفهام في ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾؟ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَا أَحَدَ أَضَلُّ مِنْ هـٰذَا الّذِي يَعْبُد آلِهةً لَا تَستَجِيبُ لَهُ بِشَيْءٍ إلى يَوْمِ الْقِيامَة، ويَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُونَ أعْدَاءً. فالانقطاعُ مُسْتَمِرٌّ دواماً.

ثانياً: من القصر

١ ـ قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴿٣﴾﴾.

فِي هٰذَا الْبَيَان قَصْرٌ بالنَّفْي والاستِثْنَاءِ، وهو قَصْرٌ إضَافِي مِنْ قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَة.

٢ ـ وقول الله عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّم رسوله مَا يقوله لِقومه:

﴿... إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾.

فِي هٰذَا البيان قصران بالنفي والاسْتثناء، وهما من قبيلِ الْقَصْرِ الإضَافي، ومن قَصْرِ مَوْصوفٍ عَلَىٰ صفة.

ثالثاً: من الكناية

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

أي: إنَّ اللهَ لَا يَحْكُمُ لَكُمْ بالْهِدَايَةِ، لِأَنَّكُمْ ظَالِمُونَ، وَلِأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

رابعاً:

من الاقتطاعِ مِنْ أحداث الماضي أو المستقبل كَأَنَّ الحديثَ يَجْرِي عِنْدَ ساعَة التكلّم:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: يُوجَّهُ لَهُمْ هٰذَا البيان: ﴿أَذْهَبْتُمْ ... ﴿٢٠﴾﴾.

خامساً:

من التوكيد بِحَرْفِ الجرّ الزائد ما يلي:

١ - ﴿... فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ ... (٢٦)﴾.

٢ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾.

٣ - ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)﴾.

وأَكْتَفِي بهـٰذَا القدر، والحمْدُ للهِ على مَعْونَتِهِ، وتَوفيقه، وفتحه.



سُورَة الذاريات

٥١ مصحف ٦٧ نزول

وهي كلُّها مَكِّيَّةٌ باتفاق

(١)

نصّ السورة وما فيها مِنْ فَرْشِ القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ
﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ
عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ
سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ
يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾
وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ
﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ
﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ

---

٣ ـ • قرأ أبو جعفر: [يُسُراً] بضمّ السين.
وقرأها باقي القراء العشرة [يُسْراً] بإسْكان السّين.
ومُؤَدّاهما واحد، وهما بمعنى السُّهُولَةِ واللّين والانقياد وعَدَمِ العُسْر.

١٥ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وابْنُ ذَكْوان، وشعبة، وحمزة، والكِسائيّ: [وَعِيُونٍ] بِكَسْر العَيْن.
وقرأهما بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [وَعُيُونٍ] بضمّ العين.
وهما لغتانِ عَرَبيتان.

إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ
إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ
مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ
إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ
وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن
طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾
وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ
أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ

٢٣ - • قرأ شعبة، وحمزة، والكِسائي، وخلَف: [مِثْلُ] بالرَّفع وصْفاً لـ «حَقٌّ».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِثْلَ] بالنَّصبِ على أنَّها حَال.
٢٤ - • قرأ هِشام: [إِبْرَاهَامَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِبْرَاهِيمَ]. وهُمَا نُطْقَان لاسْمِهِ عَلَيْهِ السَّلَام.
٢٥ - • قرأ حمزة، والكِسَائي: [قَالَ سِلْمٌ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [قَالَ سَلَامٌ].
ومؤدَّاهُمَا وَاحِدٌ، فالسِّلْمُ والسَّلام كِلاهُمَا تَأْمِينٌ وتَحِيَّة.
٢٧ - • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَيْهِمْ] بِكَسْرِ الهاء.
وهُما نُطْقَانِ عَرَبِيَّان.

أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾
وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ
أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ
يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾
وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا
بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى
ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا

٤١ ـ • قرأ أبو عمرو: [عَلَيْهِمِ الرِّيحَ] بكسر هاء الضمير والميم بَعْدَها.
وقرأها حمزة، والكِسائي، ويعقوب، وخلف: [عَلَيْهُمُ الرِّيحَ] بضم هاء الضمير والميم بَعْدَها.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عَلَيْهِمُ الرِّيح] بِكَسْر هَاء الضمير وضمّ الميم بعْدَها.
وهي وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ في النطق.

٤٤ ـ • قرأ الكِسَائي: [الصَّعْقَةُ]. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الصَّاعِقَةُ].
الصَّعْقَةُ: الْهَلاكُ.
الصَّاعِقَةُ: العذابُ الْمُهْلِك.
فَمُؤَدَّىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ واحد.

٤٦ ـ • قَرأ أَبُو عَمْرو، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [وَقَوْمِ نُوحٍ] عطفاً على «وَفي ثَمُودَ».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَقَوْمَ نُوحٍ] أي: وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ.

٤٩ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخَلف: [تَذَكَّرُونَ] أَصْلُها تَتَذَكَّرُون.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَذَّكَّرُونَ] بإدغام التاء الثانية بِالذّال.

ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ
هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ
فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ
﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

٥٦ و٥٧ و٥٩ ـ ● قرأ يعقُوب بإثبات ياء المتكلّم في [لِيَعْبُدُونِي ـ يُطْعِمُونِي ـ يَسْتَعْجِلُونِي] وصلاً ووقفاً، ولم يُثْبِتْها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ.

٦٠ ـ ● قرأ أبو عمرو ويعقوب: [يَوْمِهِمِ الَّذِي] بِكَسْر هاء الضمير والميم بعدها.

وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف: [يَوْمِهُمُ الَّذِي] بضمّ هاء الضمير والميم بَعْدَها.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَوْمِهِمُ الَّذِي] بِكَسْر هاء الضمير وضم الميم بَعْدها.

(٢)
موضوع سُورة (الذّاريات)

ظهر لي أَنَّ موضوع هٰذِهِ السورة يَدُورُ حَوْلَ مُتَابَعَةِ معالَجَةِ مُنْكِري الْبَعْث والجزاء يَوْمَ الدِّينِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، إِذْ يُوجَدُ فِيهِمْ مَنْ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إلى مَرْحَلَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْهُم مَعَها. وَجَاءَت هٰذِهِ المتابَعَةُ بأفَانِينَ وَتَصارِيف مِنَ البيان، ضِمْنَ الكُلِّيَّاتِ العامَّة للمعالجة، رَغْبَةً في أَنْ يتخلَّصُوا بإرَادَاتِهِم الحرَّةِ من الكُفْرِ والجحود، وأن يُؤْمِنُوا بالحقِّ طَائِعِينَ مُخْتَارِين.

وهَـٰذِهِ التصاريف تدورُ حَوْلَ الإقناع بالحقّ، والترهيب، والترغيب.

ومِنَ الإقْنَاعِ الْعَوْدَةُ إِلَىٰ التنبيهِ على بَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، في الأرضِ، وفي الأنْفُسِ، وفي السَّمَاءِ، في مَوْضِعَيْنِ من السورة، ومِنْهَا أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ خَلَقَ مِنْ كُلِّ شيءٍ في الكَوْن زَوْجَيْن، من الأجناسِ والأنواعِ والْأَصْنَافِ.

ومِنَ الترهيب عَرْضٌ مُوجَزٌ لِتَعْذِيب وإهْلَاكِ أقوامٍ مُكَذِّبِينَ سَبَقُوا في التاريخ: (قوم لوط ـ فرعَوْنُ وجُنُودُه ـ عاد ـ قوم نوح).

وفيه توجيهُ الرَّسُول ﷺ وَكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أنْ يَجْعَلَ مِن عناصِرِ دَعْوَتِهِ مُطَالَبَةَ غَيْرِ المؤمِنِينَ بأَنْ يَفِرُّوا مِنْ مواقِعِهِم الكُفْرِيَّة، الَّتِي هِيَ مَوَاقِعُ تَنَزُّلَاتِ سَخَط اللهِ وَغَضَبِهِ وَوَسَائِلِ تَعْذِيبِهِ وَإِهْلَاكِهِ للمجْرِمين، إِلَىٰ الاحْتِمَاءِ بالإيمانِ باللهِ والإسلام لَهُ رَبًّا لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبوبيّتِهِ، وإلَهاً لَا شَرِيكَ لَهُ في إلهيته.

وَفِيهِ تَسْلِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَهُ بِشَتَائِهِم مِنْ كُبَراء قَوْمِهِ مَسْبُوقُونَ بأَمْثَالِهِم مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَة.

وفيه تَوصِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ بِأَنْ يَتَوَلَّىٰ مُدْبِراً بِظَهْرِهِ عَنِ المعَانِدين الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَىٰ دَرَكَةٍ ميؤُوسٍ مِنْ إصْلَاحِهِمْ مَعَها عَنْ طَرِيق إرَادَاتِهِم الحرَّةِ، وَأَنْ يُوَجِّهَ تَذْكِيرَهُ لِمَنْ يَرْجُو أَنْ يُؤْمِنُوا وَلَوْ رَجَاءً ضَعِيفاً، فَمَخَايِلُ الخيْرِ تُلْمَحُ مِنْ بَعْضِ تَصَرُّفَاتِهِم.

وَخَتَم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السُّورَة بِبَيَانِ مَطْلُوبِهِ التكليفيّ مِنْ عِبَادِهِ فِي رِحلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وهي أَنْ يَعْبُدوه لَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أحداً، لَا أَنْ يَرْزُقُوهُ أَوْ يُطْعِمُوه، كَمَا يَتوهَّمُ بَعْضُ المشْرِكِينَ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ آلِهَتِهِمُ الباطلة، وأَتْبَعَهُ بإنْذَارِ الظَّالِمِينَ الْكَافِرِينَ المعانِدِين، بِعَذَابٍ مُعَجَّلٍ، ثُمَّ بِعَذَابٍ أَبَدِيّ في جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين.

(٣)
دُروس سورة (الذَّارِيات)

تشتمل هَـٰذِهِ السورة على (١٣) دَرْساً فِيما ظَهَرَ لي:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٦).

وفي هـٰذَا الدَّرْس قَسَمٌ بِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ علىٰ أنَّ الوعْد بالجزاء يَوْمَ الدِّينِ وَعْدٌ صَادِقٌ، وعلَىٰ أَنَّ الْجَزَاءَ سَوْف يَكُونُ يَوْمَ القيامَةِ حَقِيقَةً وَاقِعَةً لَا مَحالَة.

الدرس الثاني: الآيات من (٧ ـ ١٤).

وفي هـٰذَا الدَّرْس قَسَمٌ بِبَعْضِ آياتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ مُوجَّهٌ للكافِرِينَ على أَنَّهم لَيْسَتْ لَهُمْ وَحْدَةٌ فِكْرِيَّةٌ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا في قَضَايَا الدِّينِ، بَلْ أقوالُهُمْ فيها مُتَخَالِفَةٌ قَدْ يَصِلُ التخالُفُ فيها إلى التَّضَادّ والتَنَاقُضِ والسَّبَبُ في هـٰذَا اعْتِمَادُهُمْ فِيها عَلَىٰ الظُّنُونِ الضَّعِيفَةِ والأكاذِيبِ، فَهُمْ بِسَبَب هـٰذَا مُبْعَدُونَ عَنْ مَوَاقِعِ الحقِّ فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ، وَمُنْغَمِسُونَ في أُمُورِ شهواتِهِمْ وأهوائهم سَاهُونَ، ويَتَلَفَّظُونَ لاسْتِبْعَادِ يَوْم الدِّينِ بالسُّؤَالِ عَنْ زَمَنِ وُقُوعِهِ، لكِنَّهُمْ سَوْفَ يَنَالُونَ عَذَابَ تَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَيُقَالُ لَهُمْ: ذُوقُوا عَذَابَ تَكْذِيبِكُمْ وَكُفْرِكُمْ، وهُوَ الْعَذَابُ الَّذِي كُنْتُمْ تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ تَعْبِيراً عَنْ إِنْكَارِكُمْ له.

الدّرس الثالث: الآيَات من (١٥ ـ ١٩).

وفِي هـٰذَا الدَّرسِ عَرضُ مَشْهَدٍ تَرْغِيبِيٍّ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامَةِ، وَهُوَ يَتَعَلَّقُ بالمتَّقِينَ الّذِين بَلَغُوا إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ بأَعْمَالِهِم فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَهُمْ يُنَعَّمُونَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتاهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ فُيُوضِ عَطَاءَاتِهِ.

الدّرس الرابع الآيات من (٢٠ ـ ٢٣).

وفِي هٰذَا الدَّرْس حثٌّ عَلَىٰ التَّفكُّرِ في آيَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وإلٰهِيَّتِهِ في الأَرْضِ وَفي الأَنْفُسِ، مُوجَّهٌ مِنَ اللهِ بالخِطَابِ الْمُبَاشِرِ للَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ، وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ هِيَ الَّتِي تَرْزُقُهُمْ مِنَ الأَرْضِ، فأَبَانَ اللهُ لَهم أنَّ رِزْقَهُمْ في السَّمَاءِ بأَوَامِرَ رَبَّانِيَّةٍ، وكَذٰلِكَ مَا يُوعَدُونَ مِنْ جَزَاءٍ بأوامِرِ رَبَّانِيَّة، وأقْسَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرُبُوبِيَّتِهِ لِلسَّمَاءِ والأَرْضِ، عَلَىٰ أَنَّ هٰذَا حَقٌّ مُمَاثِلٌ لِمَا يَنْطِقُونَ بأَلْسِنَتِهِمْ في حَرَكَةِ حَيَاتِهِمْ.

الدّرْس الخامس: الآيات من (٢٤ ـ ٣٧).

وَفِي هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ لَقَطَاتٍ مُوجَزَاتٍ مِنْ قصَّةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَإهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ المجْرمِينَ، ليَعْتَبِرَ الكَفَرَةُ بِمَنَ سَبَقَهم.

الدرس السادس: الآيات من (٣٨ ـ ٤٠).

وَفِي هٰذَا الدَّرْس عَرْضُ لَقطَةٍ مُوجَزَةٍ عَنْ إهْلَاكِ فِرْعَوْنَ وجُنُودِهِ.

الدرس السابع: الآيتان: (٤١ و٤٢).

وَفِي هٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقْطَةٍ مُوجَزَةٍ عَنْ إهْلَاك عَادٍ قوم هودٍ عَلَيْهِ السَّلَام.

الدرس الثامن: الآيَات من (٤٣ ـ ٤٥).

وفي هٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقْطَةٍ مُوجَزَةٍ عَنْ إهْلَاكِ ثمود قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَام.

الدرس التاسع: الآية (٤٦).

وفي آيَةِ هٰذَا الدَّرس بيانُ إهلاكِ قَوْمِ نُوحٍ بِسَبَبِ كونِهِمْ قَوْماً فَاسِقِين.

الدرس العاشر: الآيات من (٤٧ ـ ٤٩).

وَفِي هٰذَا الدَّرْس يُوجِّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ للتَّفَكُّرِ بِبَعْضِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ.

الدرس الحادي عشر: الآيتَان (٥٠ و٥١).

وَفِي هٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ أَسْلُوباً دَعَوِيًّا فِيهِ إِبْدَاعٌ فِكْري.

الدرس الثاني عشر: الآيَات من (٥٣ ـ ٥٥).

وَفِي هٰذَا الدَّرْسِ تَسْلِيَةٌ للرَّسُولِ ﷺ تُجاهَ مَا يَلْقَىٰ مِنْ أذًى وشَتَائِمَ مِنْ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ المعاندين، وَنُصْحٌ لَهُ بأَنْ يَتَوَلَّىٰ مُدْبراً عَنْهم، ويُوجَّه تَذْكِيرَهُ بالقرآنِ وَبَقضَايا الدِّين للَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إلى دَرَكَةِ الميْؤُوسِ مِنْ إصْلَاحِهم عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهم الحرَّة.

الدرس الثالث عشر: الآيات من (٥٦ ـ ٦٠) آخِر السورة.

وَفِي هٰذَا الدَّرْسِ الختامِيِّ بَيَانٌ لِمَطْلُوبِ اللهِ مِنْ عباده في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياةِ الدُّنْيا، وَهِيَ أَنْ يَعْبُدوه.

وَفِيهِ إِنْذَارٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بالكُفْرِ بِعَذَابٍ مَا مُعَجَّلٍ، وإنْذَارٌ لَهُمْ بالْعَذَابِ الشَّدِيدِ في جهنَّم يَوْمَ الدِّينِ خَالِدِينَ فِيهِ.



(٤)
التدبّر التحليليّ للدّرس الأول من دُروس سورة (الذّاريات) الآيات من (١ ـ ٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾.

القراءات:

(٣) • قرأ أبو جعفر: [يُسُراً] بضَمّ السّين.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُسْراً] بإسْكَانِ السِّين.

ومؤدّى القراءتَيْنِ وَاحد، إذْ هُمَا بمَعْنَىٰ السُّهُولَة، واللّين، والانقياد، وعَدَمِ الْعُسْر.

تَمْهيد:

فِي هٰذَا الدَّرْس قَسَمٌ بِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنه، عَلَىٰ أنَّ الْوَعْدَ بالجزاءِ يَوْمَ الدِّينِ وَعْدٌ صَادِقٌ، وَعَلَىٰ أَنَّ الجَزَاءَ سَوْف يَكُونُ حَقِيقَةً وَاقِعَةً لَا مَحَالَة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١﴾:

الذَّرْوُ: هو الْبَثُّ والنَّشْرُ لِذَرَّاتِ أيّ شَيْءٍ لَهُ دَقَائِقُ صَغِيرَةٌ يُمْكِنُ بَثُّهَا فِي فضاءٍ واسِعٍ، كَبَثِّ وَنَشْرِ الْغُبَارِ والتُّرَابِ، والدقيق، وَذَرَّاتِ الماء، وذَرَّاتِ بُخَارِ الماء، واللّقَاحَاتِ الصُّغْرَىٰ وتوزيعها عَلَىٰ الْمُلَقَّحَاتِ مِنَ الْأشجار، والأزْهَارِ، والثمَرَاتِ.

ومَعْلُومٌ مِنَ الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّةِ أَنَّ الرِّيَاحَ هِيَ السَّبَبُ فِي هٰذَا الذَّرْوِ الّذِي يَحْدُثُ فِي الكَوْن.

فلفظ «الذَّارِيَاتِ» هو وصْفٌ لموصُوفٍ مَحْذُوفٌ يَنْطَبِقُ عَلَىٰ الرِّيَاحِ في ظَاهِرَات الكَوْن.

وجاءَ توكيدُ هٰذَا الحدث الوصْفِيِّ بالمفْعُولِ المطْلَقِ «ذَرْواً» لِتَفْخِيمِ

شَأْنِ هٰذِهِ الظَّاهِرَة، وآثارِهَا العظيمة في الكَوْنِ نفعاً، أَوْ ضراً، نِعْمَةً أَوْ نِقْمَةً. ونظراً إلى عَظَمَةِ هَٰذِهِ الظَّاهِرَةِ من ظاهرات قُدْرَة اللهِ وحِكْمَتِهِ في كَوْنِهِ أَقْسَمَ اللهُ بها لتأكِيد صِدْقِ وَعْدِهِ بإحْيَاءِ النَّاسِ يَوْمَ القيامَةِ، وأَنَّ الدِّينَ وَهُو الجزاء واقعٌ لَا مَحالَة.

وَقَدْ سَبَقَ في «الملحق الثاني» مِنْ مَلَاحق تدبر سورة (المرسلات/٣٣ نزول) دِرَاسَةٌ شَامِلَةٌ تكَامُلِيَّةٌ للنُّصُوصِ القرآنيَّة المتعَلِّقَةُ بالرِّياح[1]، فَلْيُرْجَعْ إليه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾:

الْوِقْرُ بِكَسْرِ الواو هُو في اللُّغَةِ الشَّيْءُ الثَّقِيل، والعملُ الثَّقِيلُ، وجَمْعُهُ «أَوْقَار».

جَاءَتْ هَٰذِهِ الْعِبَارَةُ مَعْطُوفَةً بالْفَاءِ، على مَعْنَىٰ الْقَسَم بِالْحَامِلَاتِ حِمْلاً ثَقِيلاً، وَهٰذَا قَدْ يَكُونُ مُرَجّحاً لِأَنْ تَكُونَ الْحَامِلَاتُ وِقْراً هِيَ الرِّيَاحُ نَفْسُها، إِذْ هِيَ تَحْمِلُ فِي الْجَوِّ السُّحُبَ الثِّقَالَ بِالْمَاءِ، عَلَىٰ أَنَّ السُّحُبَ هِي حَامِلَاتٌ وِقْراً أَيْضاً، وَمَحْمُولَةٌ بالرِّيَاحِ فِي جَوِّ السَّمَاء.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾:

أي: فالجارِيَاتِ جَرْياً يُسْراً هَيّناً لَيِّناً رَفِيقاً لَا عُسْرَ فِيهِ.

هٰذَا الْوَصْفُ يَصْلُح أَنْ يَكُونَ للرِّيَاحِ، ويَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ للسُّفُنِ في الْبَحْرِ الَّتِي تُجْرِيها الرِّياح.

---

(١) انظر هذا الملحق في المجلّد الثاني الصفحات من (٦٢١ ـ ٦٦٤).

وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ مِنَ الْعَطْفِ بالْفَاءِ يُرَجِّحُ أَنْ تَكُونَ الرِّيَاحُ هِيَ المرادَة أَيْضاً، إِذْ مِنْ صِفَاتِ الرِّيَاح أَنْ تَجْرِيَ أحْيَاناً جَرْياً يُسْراً، وهـٰذَا مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ.

وَكُلُّ هَـٰذِهِ الصِّفَاتِ للرِّيَاحِ مِنْ تَصَارِيفِ اللهِ فيها الدَّالَّاتِ عَلَىٰ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَسَامِي حِكْمَتِهِ، في تقديرِهِ وتَدْبِيره وخَلْقِهِ، فَالْقَسَمُ بِهَا هُو فِي الْحَقِيقَةِ قَسَمٌ بِبَعْضِ صِفَاتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾:

جَاءَ في أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْمُقَسِّمَاتِ أمْراً أَصْنَافٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، تَقُومُ بِوَظِيفَةِ التَّقْسِيمِ بأمْرِ اللهِ.

وَأَرَىٰ أَنَّ وَصْفَ الرِّيَاحِ بأَنَّهَا مُقَسِّمَاتٌ أَمْراً، مُتَّسِقٌ مَعَ كَوْنِهَا ذَارِيَاتٍ، وَحَامِلَاتٍ وِقْراً، وَجَارِيَاتٍ يُسْراً، لِأَنَّ كُلَّ مَا يَجْرِي فيها مِنْ تَدْبِيرِ الله، وتَقْدِيرِهِ، وَخَلْقِهِ، فَلَيْسَتْ هِيَ في الحقيقَةِ الَّتِي تَذْرُو، وَلَا الَّتِي تَحْمِلُ، وَلَا الَّتِي تَجْرِي، وَلَا الَّتِي تُقَسِّمُ، والْفَاعل الحقيقيُّ المدبِّر والْمُقَدِّرُ وَالْخَالِقُ هُوَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وَالتَّقْسِيمُ الَّذِي يَجْرِي بِالرِّيَاحِ بعدَ الذَّرْوِ، والْحَمْلِ، والْجَرْيِ الْيُسْر، لَهُ وَجُوهٌ كَثِيرَةٌ لَا نَسْتَطِيعُ حَصْرَها، ومِنْهُ تَقْسِيمُ اللِّقَاحَات عَلَىٰ الْأَشْجَارِ والثمراتِ والْأَزْهار، وَتَقْسِيمُ نَوَيَاتِ اللِّقَاحِ عَلَىٰ بُخَار المَاءِ فِي السُّحُبِ لِتَكُونَ حَبَّاتِ مَاءٍ تَنْزِلُ أمْطاراً، وتَقْسِيمُ السُّحُبِ عَلَىٰ الْبِلَادِ الَّتِي قَدَّرَ اللهُ أَنْ يُغِيثَها بالْأَمْطَارِ، وَتَقْسِيمُ المنافِعِ والمضَارِّ عَلَىٰ النَّاسِ بِتَقْدِير اللهِ وَقَضَائِهِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ كثيرة، جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهَا بِعِبَارَةِ «أَمْراً».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾:

هٰذَا هو المُقْسَمُ عَلَيْهِ بالرِّياحِ ذَواتِ الأَوْصَافِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا وَبَيَانُها.

أي: إنَّ الَّذِي تُوعَدُونَهُ بِمُتَابَعَةٍ وَتَكْرِيرٍ، من البعث والْيَوْمِ الآخِرِ والجزاء بدار النعيم أو بدار العذاب، لَوَعْدٌ صَادِقٌ، وَلَيْسَ لِمُجَرَّدِ التَّخْوِيفِ والتَّرْهِيبِ وَالإيهامِ بأشْيَاءَ لَنْ يَكُونَ لَهَا وُجُودٌ حَقِيقِيٌّ.

وَإِنَّ الدِّينَ وَهُوَ الْجَزَاءُ عَلَىٰ مَا يَكْسِبُهُ الْمَوْضُوعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، لِأَمْرٌ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ يَوْمَ الْقِيَامَة.

• ﴿لَوَٰقِعٌ﴾: أي: لَسَوْفَ يَقَعُ فِعْلاً بِتَقْدِيرِنَا وَسُلْطَانِ قَضَائِنَا وخَلْقِنا.

اسم «الفاعل» وهو «وَاقع» مُسْتَعْمَلٌ بَدَلَ الفِعْلِ المضارع، وهُوَ هُنَا يَدُلُّ عَلَىٰ الاسْتِقْبَال.

وَجَاءَتِ الجمْلَتَانِ في الآيَتَيْنِ (٥ و٦) مُؤَكَّدَتَيْن بالمؤكِّدَاتِ التَّالِيَاتِ:

«إنَّ ـ والْجُمْلَة الاسْمِيَّة ـ واللَّامِ المزَحْلَقَة ـ والْقَسَمِ المسَلَّطِ عَلَيْهِما بالرِّياح».

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الأول من دُرُوس سورة (الذَّاريات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٥)
التدبر التحليلي للدّرس الثاني مِن دُرُوسِ سُورَة (الذاريَات) الآيات من (٧ ـ ١٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢

يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ قَسَمٌ بِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ مُوَجَّهٌ مِنَ اللهِ لِلْكَافِرِينَ، عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ وَحْدَةٌ فِكْرِيَّةٌ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا فِي قَضَايَا الدِّين، بَلْ أَقْوَالُهُمْ فِيهَا المعبِّرَاتُ عَنْ مَفْهُومَاتِهِمْ مُتَخَالِفَةٌ، قد يَصِلُ التَّخَالُفُ فِيهَا إِلَىٰ التَّضَادِّ وَالتَّنَاقُضِ، والسَّبَبُ فِي هٰذَا اعْتِمَادُهُمْ فِيها عَلَىٰ الظُّنُونِ الضَّعِيفَةِ والأَكَاذِيب، فَهُمْ بِسَبَبِهَا مُبْعَدُونَ عَنْ مَوَاقِعِ الْحَقِّ فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ، وَهُمْ مُنْغَمِسُونَ فِي أُمُورِ شَهَوَاتِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ سَاهُونَ، وَيَتَلَمَّظُونَ لاسْتِبْعَادِ يَوْم الدِّينِ بالسُّؤَالِ عَنْ زَمَنِ وُقُوعِهِ، لَكِنَّهُمْ سَوْفَ يَنَالُونَ عَذَابَ تَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَسَوف يُقَالُ لَهُمْ: ذُوقُوا عَذَابَ كُفْرِكم فِي نَارِ جهَنَّم، وَهُوَ العذابُ الَّذِي كُنْتُمْ تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ تَعْبِيراً عَنْ إِنْكَارِكُمْ لَهُ، وتَكْذِيبكُمْ رَسُولَ رَبِّكُمْ، وَتَكْذِيبكُمْ بِكِتَابِهِ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾:

- ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾:

ذَاتِ الْحُبُك: أي: ذَاتِ الطَّرَايِقِ الْمُحْكَمَةِ الَّتِي تَسِيرُ ضِمْنَ حُدُودِهَا النُّجُومُ والكواكِبُ والمجرَّاتُ بإتْقَانٍ عَجِيبٍ مُذْهِشٍ.

الْحُبُك: جَمْعُ «الْحَبِيكَةِ» وهي كُلُّ طَرِيقَةٍ مِنْ خُصَلِ الشَّعْر، وكُلُّ طَرِيقَةٍ مِنْ طَرَائِقِ الرَّمْلِ فِيما تَحْبِكُهُ الرِّيَاحُ إِذَا جرت عَلَيْهِ، وَكُلُّ طَرِيقَةٍ مِنْ طَرَائِقِ الماءِ المنْبَسِطِ إذا مَرَّتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ فَجَعَلَتْ عَلَىٰ سَطْحِهِ تَجَاعِيدَ كأنَّهَا بِتَمَوُّجَاتِهَا الدَّقِيقَةِ طَرَائِق.

وَجاءَ فِي تَفْسِيرِ: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ أَنَّهَا ذَاتُ الْخَلْقِ الْمُحْكَمَ المتَمَاسِكِ الْقَوِي.

والمعنى اللُّغَوِيُّ الأَوَّلُ هُو الْمُلَائِمُ لِعَظَمَةِ خَلْقِ السَّمَاوات، وهُوَ الْمُطَابِقُ لِمَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ عُلَمَاءُ الأَجْرَام الْعُلْيَا فِي السَّمَاوَاتِ، مِنْ أَنَّ كُلَّ الكواكِبِ والنجومِ والمجرَّاتِ تَجْرِي سَابِحَةً فِي أفلاكِهَا فِي مَسِيرَاتِهَا ضِمْن نظامٍ مُتْقَنٍ عَجِيبٍ، فَلَا يَصْطَدِمُ بَعْضُها بِبَعْضٍ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيم، مَعَ ضَبْطِ كُلِّ مُتَحَرِّكٍ مِنْهَا بِنِظَامِ الْجَاذِبِيَّةِ المذهِشَة.

على أنّ المعْنَىٰ الذي جَاءَ عِنْدَ المفَسِّرين هو مِنْ لَوَازِم المعْنَىٰ اللُّغَوِيّ لِلْحُبْك، فكَوْنُ كَوَاكِبِ السَّمَاءِ ونُجُومِهَا ومَجَرَّاتِها ذَوَات طُرُقٍ تَسِيرُ فيها بانْتِظَامٍ رَائِعٍ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُ مَا لَمْ تَكُنِ السَّمَاءُ ذَاتَ خَلْقٍ مُحْكَمِ البناء مُتَمَاسِكٍ قَوِي.

• ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾:

أي: إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ فِي الأَرْضِ لَيْسَ لَكُمْ وَحْدَةٌ فِكْرِيةٌ جَامِعَةٌ لِعَقَائِدِكُمْ وَمَفْهُومَاتِكُمْ حَوْلَ الْوُجُودِ والْحَيَاةِ والنَّشْأَةِ والْمَصِير، بَلْ أَنْتُمْ فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي تُثْبِتُهُ الْبَرَاهِين والأَدِلَّة المقبولَةُ فِي مَقَايِيس الْعُقُولِ السَّلِيمَة، وَفِي قَوْلٍ عَامٍّ مُخْتَلِفِ الاتِّجَاهَاتِ مُتَضَارِبٍ وَمُتَضَادٍّ وَمُتَنَاقِضٍ. فَمِنْكُمْ مِنْ يُنْكِرُ وُجُودَ رَبٍّ لِلْكَوْنِ وَيَجْعَلُ تَصَارِيفَ الكَوْنِ تَجْرِي بِنَفْسِهَا دُونَ رَبٍّ يُدَبِّر وَيُقَدِّرُ وَيَقْضِي وَيَخْلُق، وَمِنْكُم مَنْ يُؤْمِنُ بِأَرْبَابٍ مُتَعَدِّدين لَوْ كَانَ لَهُمْ وُجودٌ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ والأَرْض، وَمِنْكُمْ مَنْ يَجْعَلُ للهِ شُرَكَاءَ فِي إِلَهِيَّتِهِ عَلَىٰ خِلَاف مَنْطِقِ الْعَقْلِ وَأَدِلَّتِهِ. وَمِنْكُمْ مِنْ يُنْكِرُ الْجزَاءَ الرَّبَّانِيَّ والْيَوْمَ الآخِرِ، وَكُلُّ فَرِيقٍ مِنْكُمْ لَهُ مَفْهُومَاتٌ مُخْتَلِفَاتٌ عَنْ مَفْهُومَاتِ الْفُرَقَاءِ الآخرينَ بِشَأْنِ أَنْظِمَةِ السُّلُوكِ فِي الحَيَاةِ، وَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ عَمَّا هُوَ خَيْرٌ وَصَالِحٌ وَحَسَنٌ، بَلْ فِيها ضُرٌّ وظُلْمٌ وَعُدْوانٌ وَفَسَادٌ وَإِفْسَادٌ في الأَرْض.

وَسَبَقَ أَنْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ في سورة (ق/ ٣٤ نزول):

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۝٥﴾.

مَرِيج: كَلِمَةٌ تَدُورُ حَوْلَ المعانِي التالِيَة: «مُلْتَوٍ أَعْوَج، مُلْتَبِسٌ مُخْتَلِطٌ، مُخْتَلِفٌ، مُضْطرب، قَلِقٌ، فَاسِدٌ».

وهُنَا في سورة (الذَّارِيَات/ ٦٧ نُزول) خَاطَبَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ مُؤَكّداً:

- ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨﴾.

جَاءَتْ هٰذِهِ العبارة مُؤَكَّدَة بالمؤكِّدَاتِ التَّالِيَاتِ: «الْقَسَم بالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ـ إِنَّ ـ الْجُمْلَة الاسْمِيَّة ـ اللَّام المزحْلَقَة».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾:

أي: يُصْرَفُ مِنْكُمْ عَنْ هٰذَا الْقَوْلِ المخْتَلِفِ الْبَاطِلِ، إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ الَّذِي يَدْعُوكُمْ رَسُولُ رَبِّكُمْ إِلَىٰ الإيمانِ بِهِ واتِّبَاعِهِ، مَنْ صُرِفَ باسْتِجَابَتِهِ لِدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّة، فَمَنِ اسْتَجَابَ لِقَضَايَا الإيمانِ الكُبْرَىٰ، وَأَسْلَمَ للهِ طَائِعاً مُخْتاراً، أَعَانَهُ اللهُ وَزَادَهُ تَوْفِيقاً، فَصَرَفَهُ عَنْ كُلِّ أَوْهَام وَضَلاَلاَتِ الْمُضِلِّينَ فِي الْحَيَاةِ، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بالْفُرُوعِ وَأَنْوَاعِ السُّلُوكِ، فَلاَ تَخْدَعُهُ رَأْسْمَالِيَّة، وَلاَ اشْتِرَاكِيَّة، وَلاَ شُيُوعِيَّة، وَلاَ دِيمقراطِيَّة، وَلاَ سَائِرِ الآرَاءِ والمفْهُومَاتِ الْبَاطِلاَتِ مِنْ أَوْضَاعِ النَّاسِ.

فَمَنِ اخْتَارَ سُلُوكَ صِرَاطِ اللهِ سَدَّدَهُ اللهُ، وَصَرَفَهُ عَنِ الْمَيْلِ إِلَىٰ الطُّرُقِ الْجَانِبِيَّة الْخَارِجَةِ عَنْهُ، وَالْمُنْحَدِرةِ إِلَىٰ أَوْدِيَةِ الْفَسَادِ والإِفْسَادِ والْعَذَاب.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢﴾.

• ﴿قُتِلَ﴾: أي: لُعِنَ وَطُرِدَ، جاء التَّعْبِيرُ بالْقَتْل للدَّلاَلَة عَلَىٰ مَعْنَىٰ اللَّعْنِ والطَّرْدِ، لِأَنَّ الْقَتْل أَبْلَغُ إِذْ فِيهِ صَرْفُ الْحَيِّ مِنَ الْوُجُودِ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَل فِيهِ شيئاً.

• ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ جمع «الْخَرَّاص» وَهُوَ الكَذَّاب، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الَّذِي يُقَدِّرُ الْأُمُورَ بالظَّنِّ الضَّعِيفِ الّذِي لَا يَصِحُّ أَنْ يُعْتَمَدَ عَلَيْهِ لإِثْبَاتِ قَضِيَّةٍ ما، أَوْ نَفْيِ قَضِيَّةٍ ما، من القضايا ذَوَات الشَّأْن.

• ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾: أي: الَّذِينَ هُمْ مُنْغَمِسُونَ فِي ضَلاَلَةٍ، تَارِكُونَ النَّظر في بَرَاهِين الْحَقِّ وَأَدِلَّتِهِ.

الْغَمْرَة: الضَّلاَلَةُ الَّتِي تَغْمُرُ صَاحِبَها. وَتأْتِي بِمَعْنَىٰ الماء الكَثِير الْغَامِرِ لِمَنْ نَزَلَ فِيهِ.

سَاهُون: أي: غَافِلُونَ تَارِكُونَ النَّظَر في براهينِ دَعْوَة الحقِّ الرَّبَّانِيَّة.

• ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾: أي: يَتَعَلَّلُون لإِنْكَارِ يَوْمِ القيامَةِ الّذِي يَكُونُ فِيه الْحِسَابُ، وَفَصْلُ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذُ الجزاءِ الرَّبَّانِي، بالسُّؤَال عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ يَوْمُ الدِّين، وَهُو يَوْم الجزاء الرَّبَّانِيّ.

أَيَّانَ: اسْمُ اسْتِفْهَامٍ يُسْتَفْهَمُ بِهِ عَنِ الزَّمان، وَيُسْتَعْمَلُ فيما يُرَادُ اسْتِعْظَامُهُ، واسْتِغْرَابُهُ، واسْتِبْعَادُه.

جَاءَت هَـٰذِهِ الآيات الثلاث من (١٠ ـ ١٢) للدَّلاَلَةِ بأسْلُوب غَيْرِ مُبَاشِرٍ، عَلَىٰ أَنَّ دَاءَ الْمُخَاطِبين، وهُمُ الْكَافِرُونَ المنْغَمِسُونَ فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ، فَلَيْسَ لَهُمْ وَحْدَةٌ فِكْرِيَّةٌ اعْتِقَادِيَّةٌ جَامِعَة يَرْجِعُ إلىٰ ثَلاَثَة جُذُور:

الْجَذْرُ الْأَوَّل: الْخَرْص، وهُو الكَذِبُ الصُرَاح، وَاعْتِمَادِ الظُّنُونِ الضعيفَةِ التوهُّمِيَّةِ أَحْيَاناً، في قَضَايَا تَحْتَاجُ بَرَاهِينَ وأَدِلَّةً يَقِينِيَّة تُفيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينيّ.

الْجِذْرُ الثاني: انْغِمَاسُهُمْ في أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ من الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُوَ الَّذِي جعلَهُمْ سَاهِينَ غَافِينَ عَنْ بَرَاهِينِ دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، وَمَسُوقِينَ إِلَىٰ ضَلَالاتٍ غَامِرَاتٍ لَهُمْ.

الْجِذْرُ الثالث: مُحَاوَلَاتُهُمْ لِسَتْرِ انْحِرَافِهِمْ عَنِ الْحَقِّ المؤيَّدِ بِالْبَرَاهِين الَّتِي تُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينِيّ، بِتَوْجِيهِ تَعِلَّاتٍ لَا يَدْعَمُهَا فِكْرٌ سَلِيمٌ يُوهِمُونَ بِهَا أَنَّهُمْ مَعْذُورونَ فِي عَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة.

فَأَبَان اللهُ لَهُمُ الْوَعِيدَ بِعَذَابِ الْحَرِيقِ بالنَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، مُقَابِلَ تَعَلُّلِهِمُ الْبَاطِلِ بالسُّؤَالِ عَنِ الزَّمَنِ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ فِيهِ، وَهُمْ جَاحِدُونَ اسْتِغْرَاباً، واسْتِبْعَاداً.

فَقَال اللهُ تَعَالَىٰ:

● ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أَصْلُ مَعْنَىٰ الْفَتْنِ: صَهْرُ الشَّيْءِ في النَّارِ لاخْتِبَارِهِ، كَمَا يَفْعَلُ الصَّائِغُ في الذَّهَبِ وَالْفِضَّة، تَقُولُ: «فَتَنَ الصَّائِغُ الذَّهَبَ يَفْتِنُهُ فَتْناً وَفُتُوناً» أي: أَذَابَهُ بالنَّارِ لِيَخْتَبِرَه.

وَمِنَ التَّوَسُّعَاتِ اللُّغَوِيَّة إِطْلَاقُ الفِتْنَةِ عَلَىٰ الإِحْرَاقِ بالنَّارِ أَوِ التَّعْذِيبِ بها عِقَاباً. وهٰذَا الْمَعْنَىٰ هُوَ الْمُرَادُ فِي هٰذَا البيان كَمَا يَظْهَرُ.

فَالْمَعْنَىٰ: إِنَّهُمْ سَوْفَ يَتَحَسَّرُونَ وَيَنْدَمُونَ وَلَا يَكُونَ لَهُمْ خَلَاصٌ مِن عَذَابِ رَبِّهِمْ بالْحَرِيق، يَوْمُ هُمْ عَلَىٰ لَهَبِ النَّارِ يُعَذَّبُونَ، عِقَاباً لَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ بالْحَقِّ الَّذِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهُ رَسُولُ رَبِّهِمْ، وَيُقَالُ لَهُمْ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ بِالْحَرِيقِ: ذُوقُوا عَذَابَكُمْ الَّذِي رَفَضْتُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ حِينَمَا كُنْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ في الحياة الدُّنيا. وَيُقَالُ لَهُمْ أَيْضاً: هٰذَا الَّذِي تَذُوقُونَهُ الْيَوْمَ هُوَ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ تَعْبِيراً عَنْ تَكْذِيبِكُم بِهِ تَكْذِيباً لَا مُسَوِّغَ لَهُ إِلَّا مُجَرَّدُ الاسْتِبْعَادِ والاسْتِغْرَاب دُونَ مُحَاكَمَةٍ عَقْلِيَّةٍ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوه.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرس الثاني من دُرُوس سورة (الذَّارِيَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٦)
التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس سُورة (الذّارِيَات) الآيَات من (١٥ ـ ١٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

القراءات:

(١٥) • قرأ ابْن كثير، وابْنُ ذَكْوان، وشُعْبَة، وَحَمْزَة، والكِسَائي: [وَعِيُونٍ] بِكَسْرِ الْعَيْن.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَعُيُونٍ] بِضَمِّ العين.

وهُمَا لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَان.

تَمْهيد:

فِي هـٰذَا الدَّرْس عَرْضُ مَشْهَدٍ تَرْغِيبيٍّ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم الْقِيَامَة، خاصٍ بالمتَّقِينَ الَّذِينَ بَلَغُوا إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَاتِ الَّتِي هِيَ مِنَ الْقُرُبَاتِ والنَّوافِلِ، فَوْقَ فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، فِي رِحلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا.

وَهـٰذَا المشْهَدُ يُقَدِّمُ لَقْطَةً وَجيزَةً مِنْ نَعِيمِهِمْ وَهُمْ يُنَعَّمُونَ فِي جَنَّاتٍ وَعيونٍ، آخِذِينَ مَا آتاهُم رَبُّهُمْ مِنْ فُيُوضِ عَطاءَاتِهِ.

التَّدَبُّر التحليلي:

جَاءَ في هـٰذَا الدَّرْس بَيَانُ لَقْطَةٍ مُجْمَلَةٍ مِنْ جَزَاءِ الْمُحْسِنِين، وَهُمْ

أَهْلُ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ أعْلَىٰ مَرَاتِبِ المؤمِنِينَ، وَدُونَها مَرْتَبَةُ الْأَبْرَارِ، وَدُونَهُمَا مَرْتَبَةُ المتقين، وهُمْ الَّذِينَ يَقْتَصِرُونَ في صَالِحَاتِهِم عَلَىٰ فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، وهِي مَرْتبة ذَاتُ دَرَجَاتٍ كَثِيراتٍ بِحَسَبِ الالْتِزَام.

وَلَمَّا كَانَتْ مَرْتَبَةُ التَّقْوَىٰ أُدْنَىٰ مَرَاتِبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ تَحَقُّقُهَا شَرْطاً في الارْتقاءِ إلىٰ مَا فَوْقَهَا، كَانَ الْحَدِيثُ عَنْ المتَّقِينَ مَدْخَلاً إلَىٰ الْحَدِيثِ عَنْ ثَوَابِ الْمُحْسِنِين، لِأَنَّ الْمُحْسِنِينَ هُمْ مُتَّقُونَ وَأَبْرَارٌ مع زيادة إحْسَانٍ، وفيه إشْعَارٌ بأنَّ المراتِب الْأَدْنَىٰ شُرُوطٌ طَبِيعِيَّةٌ للارْتِقَاءِ إلَىٰ المراتِبِ الْأَعْلَىٰ.

• ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾: أي: إنَّ الَّذِينَ أَدَّوْا حُقُوقَ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، وَزَادُوا عَلَيْهَا مِنَ النَّوافِلِ والْقُرُبَاتِ، حتَّىٰ دَخلُوا في دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، ثُمَّ زَادُوا مِنْ صَالِحَاتِ الأعْمَالِ حتّىٰ ارْتَقَوْا إلى دَرجاتِ مَرْتبَةِ الإحْسَان، هَٰؤُلَاءِ يَكُونُونَ فِي جَنَّاتٍ سَامِيَاتِ الرِّفْعَةِ، وفي عُيُونٍ كَثِيراتٍ مِنْ لَبَنٍ، وَعَسَلٍ مُصَفًّىٰ، وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وخَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّارِبين.

• ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ مِنْ أَنْوَاعِ وَصُنُوفِ نَعِيمٍ دَائِمٍ، سُعَداءَ بِمَا بِهِ يَنَعَّمُون.

• ﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾: أي: إنَّهُمْ كَانُوا قَبلَ ذَلِكَ إذْ كَانُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، مُحْسِنِينَ أَبْرَاراً مُتَّقِينَ.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَان أَنَّهُمْ:

• ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾:

الْهُجُوعُ: النَّوْمُ في اللّيل، يُقَالُ لغة: «هَجَعَ، يَهْجَعُ، هَجْعاً، وَهُجُوعاً» أي: نَام ليلاً.

أي: يَقُومُونَ مُعْظَمَ اللَّيْلِ يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَه، وهَٰذَا من مَرْتبَة الإحْسَان.

• ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾:

أي: فَإِذَا جَاءَتْ أَوْقَاتُ السَّحر اجْتَهَدُوا في سُؤَالِ اللهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ سَوَابِقَ ذُنُوبِهِمْ وَتَقْصِيراتهم. وهٰذَا أيضاً هُوَ مِنْ مَرْتَبَةِ الإحْسَان، إِذْ يَخَصِّصُونَ آخِرَ اللَّيْلِ للاسْتِغْفَارِ.

الأسْحَارِ : جَمْع «السَّحَر» وَهُوَ أواخِرُ اللَّيْلِ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ.

وَجاءَ تَوْكِيدُ الصِّفَةِ هَٰذِهِ بِضَمِير الْفَصْلِ «هُمْ».

• ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾:

نَزَلَ هٰذَا قَبْلَ فَرْضِ الزَّكَاةِ بِتَحْدِيدِ مِقْدَارِ الْوَاجِبِ من الأمْوَالِ، وَبِتَحْدِيدِ الْأَنْصِبَةِ الَّتِي تَجِبُ فِيها الزَّكاة.

فَهُمْ مُحْسِنُونَ إِذْ جَعَلُوا فِي أَمْوَالِهِمْ حَقّاً يَبْذُلُونَهُ لِلسَّائِلِ المسْكِينِ، ولِلْفَقِيرِ الْمَحْرُوم مِمَّا يَكْفِيهِ وَيَكْفِي مَنْ يَعُولُهُمْ مِنْ أُسْرَتِهِ، وَكَانَ هٰذَا قَبْلَ أن يُنْزِلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ فَرِيضَةَ الزَّكَاةِ الْمُحَدَّدَةِ بِمَقَادِيرها، وَبالأَنْصِبَة الَّتِي تَجِبُ فِيها الزَّكَاةِ عَلَىٰ كُلِّ ذِي مَالٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، قَدْ بَلَغَ مَا يَمْلِكُ مِنْ مَالِ النِّصَابَ الَّذِي تَجِبُ عَلَيْهِ فِيهِ الزَّكَاة.

هٰذَا الْبيانُ الَّذِي جَاءَ فِي هٰذَا الدَّرْسِ مِنْ أَبْرَعِ وأَدَقِ الْبَيَانَاتِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ مَرَاتِبِ المؤمِنِين، مَعَ دَلَالَاتِ نُصُوصٍ أُخرى:

(١) مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، وهي مَرْتَبَةُ المتقين، ذات الدرجات المتفاضلات.

(٢) ومَرْتَبَةِ الْبِرّ، وهي مَرْتَبَةُ الْأَبْرَار، ذات الدرجات المتفاضلات.

(٣) وَمَرْتَبَةِ الْإحْسَان، وهي مَرْتَبَةُ المحسنين، ذات الدرجات المتفاضلات.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثالِثِ من دُرُوس سورة (الذَّارِيَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٧)
التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (الذّاريات) الآيَات من (٢٠ ـ ٢٣)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

القراءات:

(٢٣) • قرأ شُعْبَة، وَحَمْزَة، والْكِسَائِيّ وَخَلَف: [مِثْلُ] بالرَّفع وَصْفاً لـ «حَقٌّ».

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِثْلَ] بالنَّصْبِ عَلَىٰ أَنَّها حال.

تَمْهيد:

فِي هـٰذَا الدَّرس حَثٌّ عَلَىٰ التَّفَكُّرِ في آيَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَإِلَٰهِيَّتِهِ فِي الأرض وَفِي الأنْفُس، وهو مُوجَّهٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجلَّ بالْخِطَاب المباشِرِ لِلَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ، وَيَتَوهَّمُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ هِي الَّتِي تَرْزُقُهُمْ مِنْ الْأَرْضِ، فَأَبَانَ اللهُ لَهُمْ أَنَّ رِزْقَهُمْ فِي السَّمَاءِ بِأَوَامِرَ رَبَّانِيَّة، وَكَذَلِكَ مَا يُوعَدُونَ مِنْ جَزَاءٍ بِأَوَامِرَ رَبَّانِيَّة. وَأَقْسَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِرُبُوبِيَّتِهِ للسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، عَلَىٰ أَنَّ هـٰذَا حَقٌّ مُمَاثِلٌ لِمَا يَنْطِقُونَ بأَلْسِنَتِهِمْ فِي حَرَكَةِ حَيَاتهم.

التَّدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ:

• ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

أي: وتُوجَدُ في الْأَرْضِ المعدَّةِ لإقامَتِكُمْ وَكُلٌ تصاريف حيواتكم، وَتُوجَد في أنْفُسِكُمْ، آيَاتٌ كَثِيرَاتٌ لَا تَسْتَطِيعُونَ إحْصَاءَهَا وَلَا حَصْرَهَا، مَادِّيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ، مَشْهُودَةُ الذَّوَاتِ وغَيْرُ مَشْهُودَةِ الذَّواتِ، وَلَكِنْ لَهَا آثَارٌ ظَاهِرَاتٌ، كَأَجْهِزَةِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وأَجْهِزَةِ الْعَوَاطِفَ النفْسِيَّة، وكَقُوىٰ الجاذِبيَّاتِ في الْأَشْيَاءِ، وكثيرٍ مِنَ الطَّاقَات.

وهَـٰذِهِ الآيَاتُ الكَثِيرَاتُ دَالَّاتٌ عَلَىٰ رُبُوبِيَّةِ اللهِ لِكَوْنِهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا شَيءٌ، وَمَتَىٰ ثَبَتَتْ حَقِيقَةُ أَنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ الرَّبُّ الَّذِي لَا يُشَارِكُهُ شيءٌ وَلَا أَحَدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، كَانَ مِنَ اللَّازِمِ الْعَقْلِيِّ الْبَدَهِيِّ أَنَّهُ لَا إِلَهَ في الوجود كُلِّهِ غَيْرُهُ، فَهُوَ المسْتَحِقُّ وَحْدَهُ لِأَنْ يُعْبَدَ.

وَلِكِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَىٰ هَـٰذِهِ الحقِيقَةِ ويَسْتَمْسِكُ بِهَا، هُمُ الَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ النَّفْسِيُّ لِأَنْ يُوقِنُوا بالْحَقِّ الَّذِي تَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ بَرَاهِينُهُ وأَدِلَّتُهُ، وَلِأَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَيَتَّبِعُوه.

• ﴿... أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾؟ اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ الْحَثُّ عَلَى الْبَحْثِ والتَّفَكُّرِ في آيَاتِ اللهِ فِي الْأَرْضِ وفي الْأَنْفُسِ، لِلْوُصُولِ إلى الْعِلْمِ الْيَقِينِيّ الْمُشَابِهِ لِلْعِلْمِ الّذِي يَحْصُلُ عَنْ طَرِيق الإدْرَاكِ الْبَصَرِيّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

كَانَ المشْرِكُونَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ هِيَ الَّتِي تَرْزُقُهُمْ، فَأَبَانَ اللهُ أَنَّ رِزْقَ الْأَحْيَاءِ فِي السَّمَاءِ وإِنَّمَا يَتِمُّ بِأَوَامِرَ رَبَّانِيَّةٍ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاء، وَلَيْسَ لِأَحدٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ دُونِ اللهِ فِي السَّمَاءِ تَأْثِيرٌ فِي تَقْدِيرِ الأَرْزَاقِ والقضاء بها، وَخَلْقِهَا، غَيْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وأَتْبَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَضِيَّةَ مَا يُوعَدُ الموضُوعُون في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابْتِلَاء مِن جزاءٍ، وَلَا سِيَّما الجزاءُ الأَكْبَرُ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ الْبَعْثِ، بِقَضِيَّة الرِّزْقِ، فَأوامرُ تَحْقِيقِها في أوقاتِهَا الْمُحَدَّدَة، أَوَامِرُ رَبَّانِيَّةٌ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ كَأَوَامِرِ الأَرْزَاق.

وأَقْسَمَ اللهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ للسَّمَاءِ والأَرْضِ، عَلَىٰ أَنَّ مَا ذَكَرَ بِشَأْنِ قَضِيَّتي الرِّزْقِ والجزاءِ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ.

هَلْ تَشْعُرُونَ بشَكٍّ فِي أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ، حينَمَا تُرِيدُونَ أَنْ تُعَبِّرُوا بأفْوَاهِكُمْ وَبِنُطْقِكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا فِي نُفُوسِكُمْ؟!

الجواب: لَا.

كَذَلِكَ قَضِيتَا رزْقِكُمْ وَمَا تُوعَدُون، لَا أَحَدَ يَتَصَرَّفُ فِيهما إِلَّا اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ بأَوَامِرَ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ لَدُنْه.

• ﴿... إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: إِنَّـهُ لـحـقٌّ حـالَـةَ كَوْنِهِ مُشَابِهاً لِنُطْقِكُمْ، بِحَسَبِ قراء النَّصْب.

وإِنَّهُ لَحقٌّ مُمَاثِلٌ للنُّطْقِ الذي تَنطقُونه، بِحَسَبِ قراءة الرَّفعِ.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الرابع مُنْ دُرُوس سورة (الذَّارِيَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٨)
التدبّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (الذّارِيَات) الآيَات من (٢٤ ـ ٣٧)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ

سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ
ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ
إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ
﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ
﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾».

القراءات:

(٢٤) • قرأ هِشام: [إِبْرَاهَام].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِبْرَاهِيمَ]. وهُمَا نُطْقَان لاسْمِهِ عَلَيْهِ السَّلام.

(٢٥) • قرأ حمزة، والكِسَائي: [قَالَ سِلْمٌ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [قَالَ سَلام].

ومؤدَّاهُمَا وَاحِدُ، فالسِّلْمُ والسَّلام كِلاهُمَا تأْمِينٌ وتَحِيَّة.

(٢٧) • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَيْهِمْ] بِكَسْرِ الهاء.

وهُما نُطْقَانِ عَرَبيَّان.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرس بَيَانُ لَقَطاتٍ مُوجَزاتٍ من قِصَّةِ إبراهيم وقِصَّةِ لُوطٍ عَلَيْهِمَا السَّلامُ، وإِهْلاكِ قَوْم لُوطِ الْمُجْرِمِين.

التدبّر التحليلي:

سَبَقَ تَدَبُّر آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَدَبُّراً تَكَامُلِيًّا مَعَ سَائِرِ النُّصُوصِ

المتعَلِّقَةِ بِشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وقَوْمِهِ المجرمين، في الْمُلْحقِ الخامس مِنْ مَلَاحِق تَدَبُّر سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول)[١]، فَأَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدبُّرِ فَقَراتِ هٰذَا الدَّرْس.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾.

الاستفهامُ بـ «هَلْ» هُنَا يُفِيد معنى: خُذْ أَيُّها المتَلَقِّي حَدِيثَ ضَيْفِ إبراهيم.

«ضَيْف»: يُطْلَقُ عَلَىٰ الواحد والاثْنَيْنِ فَأَكْثَر، والمرادُ عَددٌ مِنَ الملائِكَةِ أَرْسَلَهُمُ الله على شكل ضُيوفٍ من البشر، ووَصَفُهُمْ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأَنَّهُمْ مُكْرَمُونَ، إشَارَةً إلَىٰ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بَشراً، بَلْ هُمْ مَلَائِكَة، إذْ جَاءَ وَصْفُ الملائكة في الآية (٢٦) من سُورَة (الأنبِيَاء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بأَنَّهُمْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ.

• ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

«إذْ» بِمَعْنَىٰ «حِين» أي: حِينَ دَخَلُوا عَلَىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

وقَدْ بَدؤُوه بالتَّحِيَّةِ قَائِلِينَ لَهُ: «سَلاماً» أي: نُسَلِّمُ عَلَيْكَ سلاماً، لَفْظُ «سَلاماً» مَفْعُول مطلق لِفِعْلٍ مَحْذُوف.

• ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾: أي: قَال: تَحِيَّتِي لَكُمْ: سَلامٌ.

(١) انظر المجلد الخامس، الصفحات من (٢٧٩ ـ ٣٥١).

قال الْبَلَاغِيُّونَ: «سَلامٌ» جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ مَع المبتدأ المحذوف. و«سَلاماً» جُمْلَةٌ فِعْلِيَّة مع العامِلِ المحذوف والجملة الاسميَّة أقْوَىٰ وآكَدُ مِنَ الْجُمْلَةِ الفِعْلِيَّة. وعلَىٰ هٰذَا فَقَدْ رَدَّ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام تَحِيَّةَ الضُّيُوف مِنَ الْمَلَائِكَةِ بأحْسَنَ مِنها.

• ﴿... قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾: أي: أَنْتُمْ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُ أَشْخَاصَكُمْ، وَلَا أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ، وَلَكِنْ لَكُمْ عَلَيَّ حَقُّ ضِيَافَتِكُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧﴾.

• ﴿فَرَاغَ﴾: أي: فَذَهَبَ بِخِفَّةٍ وَسُرْعَةٍ لِضِيَافَتِهِمْ وإِكْرَامِهِمْ، دُونَ أَنْ يُظْهِرَ عَلَامَاتِ إرادَةِ إكْرَامِهِم، مِنْ شِدَّةِ مَا لَدَيْهِ مِنْ جُودٍ وَسَخَاءِ نَفْسٍ.

دَلَّت «الفاء» في ﴿فَرَاغَ﴾ على سُرْعَةِ ذَهَابِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ أَهْلِهِ عَقِبَ قُدُوم الضَّيْفِ إِلَيْهِ، وهُوَ يَجْهَلُ مَنْ هُمْ.

• ﴿... فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦﴾ وَجاء في سورة (هود/ ٥٢ نزول) بَيَانُ أَنَّهُ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. أي: فجاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ مَشْوِيٍّ بالدَّسِّ فِي النَّارِ، أَوْ فِي حِجَارَةٍ مُحْمَاةٍ بالنَّار.

لَقَدْ كَانَتْ قُطْعَانُ الأبقار هِي المفضَّلَةَ في مَوَاشيهم، وكانَتْ ثَرْوَةُ إبراهيم ولُوطٍ عَلَيهما السلام من المواشي، وهي تَرْعَىٰ مِنَ الكَلأ المباح.

ومَعْلُومٌ أَنَّ لَحْمَ الْعِجْلِ السَّمِين أَطْيَبُ والَذُّ مِنْ لُحُومِ الأَبْقار الكبيرة.

ودَلت «الفاء» في: ﴿فَجَآءَ﴾ على سُرْعَةِ عَوْدَتِهِ بالْعِجْلِ السَّمِين المشْوِيّ.

ويَظْهَرُ أَنَّ مَطْبَخَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام عِنْدَ أَهْلِهِ قَدْ كَانَ مُسْتَعِدّاً دواماً

لتَقْدِيم الطَّعَامِ المطْهُوِّ النَّاضِجِ للضُّيُوفِ الَّذِينَ يأتُونَهُ نَهاراً أوْ ليلاً.

وَدَلَّ جَهْلُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّىٰ تَقْدِيم الطَّعَامِ لَهُمْ بأَنَّهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَة، عَلَىٰ قَابِلِيَّةِ الْمَلَائِكَةِ للتشكُّلِ بالْأَشْكَالِ الْجِسْمَانيّة البشريَّة تَشكُّلاً لَا تُكْشَفُ مَعَهُ حَقِيقَتُهُمْ، حَتَّىٰ عَلَىٰ نَبِيٍّ رَسُولٍ مِنْ أُولِي الْعَزْم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾؟.

عَرْضٌ بِصِيغَةِ الاسْتِفْهَامِ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ الْعِجل السَّمِين المشْوِيّ الَّذِي قَرَّبَهُ إِلَيْهِم، وَجَعَلَهُ قَرِيباً مِنْ مَكَانِ جُلُوسِهم.

وَقَدْ دَلَّ هـٰذَا عَلَىٰ أَنَّ مِنْ فَضَائِلِ الْمُضِيفِ وَكَرَمِهِ فِي الضِّيَافَةِ أَنْ يُقَرِّبَ إِلَىٰ ضُيُوفِهِ مَا يأكُلُونَهُ وَما يَشْرَبُونَهُ، وَقَدْ كانَ هـٰذَا مِنْ عَادَاتِ الكُرَمَاءِ، قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَ النَّاسُ الْخِوَانَ الكَبِيرَ الَّذِي تُوضَعُ حَوْلَهُ الْكَراسي، وَيَصْعُبُ تَقْرِيبُهُ لِلضُّيُوف.

وَهُنَا يُوجَدُ مَطْوِيٌّ جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَة (هود/ ٥٢ نزول) في الآيَة (٧٠) وَهو أَنَّ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَىٰ لَحْمِ العِجْلِ وَلَا يَأْكُلونَ مِنْه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: فَأَحَسَّ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام فِي نَفْسِهِ خَوْفاً مِنْ غَرَضِهِمُ الَّذِي جَاءُوا بِهِ، لِأَنَّهُمْ بَشَرٌ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ، وَلَمْ يأكُلوا مِنْ طَعَامِهِ.

قالُوا: لَا تَخَفْ إِنَّا رُسُلٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَبَعْدَ أَنْ طَمْأَنوهُ بَشَّرُوهُ بِغَلَامٍ عَلِيمٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ «سَارَة» من وَرَاءِ الْحِجَابِ إذْ كَانَتْ تَتَسَمَّعُ مَا يَجْرِي، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِم في ﴿صَرَّةٍ﴾: أي: فِي ضَجَّةٍ وَصَيْحَةٍ، وَأَصْوَاتٍ وَكَلِمَاتٍ مُخْتَلِطَاتٍ، كَعَادَةِ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي فِي طِبَاعِهِنَّ حِدَّةٌ، إِذَا أَثَارَهُنَّ أَمْرٌ جَلَلٌ يَمَسُّهُنّ ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: أي: فَضَرَبَتْ وَجْهَهَا بِكَفَّيْهَا عَلَىٰ عَادَةِ النِّسَاء.

حَرَكَاتٌ دَلَّتْ عَلَىٰ غَلَيَانٍ فِي نَفْسِهَا، وَهَيَجَانٍ فِي دَاخِلِهَا، بدافِعٍ مِنْ غَيْرَتِهَا أَنْ يَتَزَوَّجَ زَوْجُها إبْرَاهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، زَوْجَةً ضَرَّةً لها، صالِحَةً لِأَنْ تَحْمِلَ وَتَلِدَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النِّسَاءَ الذَّكِيَّاتِ الْغَيُورَاتِ يُسَيْطِرُ عَلَيْهِنَّ الاحْتِمَالُ الْمَكْرُوهُ لِنُفُوسِهِنَّ، واسْتِبْعَادُ الاحْتِمَالِ الْمَحْبُوبِ وَلَوْ كَانَ هُو الْأَرْجَىٰ في الْمَوْقِفِ.

• ﴿... وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾: أي: كَيْفَ تُبَشِّرُونَ زَوْجِي إبْرَاهِيمَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ وَأَنَا عَجُوزٌ عَقِيمٌ لَا أَلِدُ؟!

فأَعْلَمَهَا الرُّسُلُ أَنَّ الْغُلَامَ الْعَلِيمَ هُوَ وَلَدٌ لَهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: كَذَلِكَ الَّذِي بَشَّرْنَاكُمَا بِهِ قَالَ رَبُّكِ، وَقَوْلُهُ حَقٌّ، فَالْبِشَارَةُ لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِنَا، وَلَيْسَتْ مِنْ أَمْرِنَا، وإِنَّمَا هِي مِنْ عِنْدَ رَبِّكِ وَمِنْ أَمْرِهِ فَلَا تَعْجَبِي مِنْ أَمْرِ الله، إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي لَهُ الْحِكْمَةُ الْكَامِلَةُ، فَهُوَ الْحَكِيمُ، وَلَهُ الْعِلْمُ الشَّامِلُ الْكَامِلُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شيءٍ، فَهُوَ الْعَلِيمُ وَحْدَه.

• ﴿الْحَكِيمُ﴾: أي: الْكَامِلُ الْحِكْمَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ في مَوَاضِعِهَا، وَيَخْتَارُ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ وَأَتْقَنَهَا وَأَحْسَنَهَا، مِنَ الْأُمُور المختَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النَّتَائِجَ.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: أي: الكامِلُ العِلْم، المُحِيطُ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْماً، وبِسَبَبِ كمالِ عِلْمِهِ وَشُمُولِهِ فَهُوَ يَخْتَارُ أَحْكَمَ الأَشْيَاءِ، ويُصْلِحُ مَا كَانَ سبباً لِلْعُقْم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: قال إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلام فَمَا أَمْرُكُمْ وَمَا شَأْنُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ، إِذْ أَدْرَكَ أَنَّ لَهُمْ أمراً جَلَلاً عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا به؟؟.

الْخَطْب: في اللُّغَةِ هو الأَمْرُ والشَّأْنُ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ الْمُخَاطَبَة.

قَالُوا: إِنَّا أُرْسِلْنَا مِنْ رَبِّنَا إِلَىٰ إِهْلَاكِ قَوْم مُجْرِمِينَ وَتَعْذِيبِهِمْ، وَهُمْ بِسَبَبِ كَوْنِهِمْ مُجْرِمِينَ يَسْتَحِقُّونَ التَّعْذِيبَ والإِهْلَاكَ الشَّامل.

وَمِنْ وَسَائِلِ تَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِم الشَّامل، أَنْ نُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ، أي: حِجَارَةً كَانَ أَصْلُهَا طِيناً فَتَحَجَّر، وَلَعَلَّ تَحَجُّرَهَا كَانَ بِسَبَبِ إِحْمَائِهَا بالنّار، فَهِي مُتَحَجِّرَةٌ مُحْمَاةٌ شَدِيدَة الْحَرارة. وهُمْ قَوْمُ لُوط عَلَيْهِ السَّلام.

• ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾: أي: مُعَلَّمَةً بِعَلَامَاتٍ تَخُصُّ المهْلَكِينَ بِهَا المسْرِفِين. وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْمَ لُوطٍ بِأَنَّهُمْ مُسْرِفُونَ، أَي: هُمْ غُلَاةٌ مُتَوَغِّلُونَ فِي الضَّلَالِ وَفِعْلِ الجرائم والآثام وَكَبَائِرِ الْفَوَاحِشِ والمنْكَرَاتِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾:

طَوَىٰ البيانُ هُنَا أَحْدَاثاً كثيرةً جاءَ تَفْصِيلُها في نُصُوصٍ قرآنيَّةٍ أُخْرَىٰ، واقْتَصَرَ على فِقْرَتَيْنِ مِنْ أَحداثِ إِهْلاكِ قَوْمِ لوط عَلَيْهِ السَّلَام.

الفقرة الأولى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فَأَصْدَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمْرَهُ للرُّسُلِ من الملائكةِ المَكَلَّفِينَ أَنْ يُعَذِّبُوا وَيُهْلِكُوا مُجْرِمي قَوْمِ لُوطٍ، بأَنْ يُخْرِجُوا مِنْ كُلِّ أَرْضِهِمْ حَيْثُ تَنزلُ عَلَيْهِمْ وَسَائِلُ التَّعْذِيب والإهلاك، كُلَّ مُؤْمِنٍ صَادِقِ الإيمانِ، وهُوَ مَنْ كَانَ مُؤْمِناً بِقَلْبِهِ مُعْلِناً بِصِدْقٍ إِسْلَامَهُ وانْقِيادَه.

ولَكِنْ بِالْبَحْثِ والتَّنْقِيبِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وبالاسْتِنَادِ إِلَىٰ عِلْمِ اللهِ الشَّامِل، لَمْ يُوجَدْ فِي كُلِّ أَرْضِ هَـٰؤلاءِ الْقَوْمِ غَيْرَ بَيْتٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، هُوَ بَيْتُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام، قَالُوا: هُو وابْنَتَاهُ، أَوْ بَنَاتُهُ الثَّلَاث، أَمَّا امْرَأَةُ لُوطٍ فَقَد كَانَتْ كَافِرَةً وَمَعَ هَوَىٰ قَوْمِهَا فَلَمْ تُحْسَبْ أَنَّها مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَأَهْلَكَهَا اللهُ مَعَ قَوْمِهَا.

الفقرة الثانية: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾:

أي: وَتَرَكْنَا فِي الْأَرْضِ الَّتِي كَانَ هٰؤلَاءِ المجْرِمُونَ المسْرِفُونَ يَعِيشُونَ فِيها عَلامَةً بَاقِيَةً دَالَّةً عَلَىٰ مَا أَنْزَلْنَا بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ وَتَدْمِيرٍ وَإِهْلَاك، وَهٰـذِهِ الآيَةُ يَنْتَفِعُ بِهَا الَّذِينَ يَخافُونَ عَذَابَ اللهِ الأَلِيم.

لَقَدْ دُفِنَتْ قُرَىٰ قَوْم لُوطٍ، بَعْدَ أَنْ قُلِبَتْ فَجَعَلَ اللهُ عَالِيَهَا سَافِلَها، فِي قَاعِ الْبَحْرِ الميّتِ، فَمَكَانُ إِهْلَاكِهِمْ مَعْرُوفٌ مَشْهُودٌ لِلّذِينَ يَمُرُّونَ بِجَانِبِ هـٰذَا الْبَحْر.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الخامسِ من دُرُوس سورة (الذَّارِيَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٩)

التدبّر التحليلي للدّرس السادس من دُروس سورة (الذّاريات) الآيَات من (٣٨ ـ ٤٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقْطَةٍ مُوجَزَةٍ عَنْ إهْلَاكِ فِرْعَوْن وَجُنُودِهِ، إغْرَاقاً فِي الْبَحْرِ.

التدبّر التحليلي:

أي: وفي مُوسَىٰ نبيّنا وَرَسُولِنَا آيَةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ، إذ أرْسَلْنَاهُ برسَالاتنا وَآياتِنَا الْعُظْمَى، الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا مُفَصَّلَةً فيمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ سُوَرٍ قَبْلَ سُورَة الذَّارِيَات، إلى فِرْعَوْنَ، وَكَانَ مُوسَىٰ مَصْحُوباً بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ، سُلْطَانِ الْحُجَّةِ الْبُرْهَانِيَّةِ الدَّامِغَةِ، وَسُلْطَانِ الآيَاتِ الْخَوَارِقِ الباهِرَات، فَأَدْرَكَهَا فِرْعَوْنُ وَعَرَفَ أَنَّهَا حَقٌّ، وَلَكِنَّهُ أَبَىٰ أَنْ يُؤْمِنَ وَيَسْتَجِيبَ لِدَعْوَةِ الحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، مُسْتَكْبِراً بِمُلْكِهِ وَجُنُودِهِ، وَتَوَلَّىٰ مُبْتَعِداً مُدْبِراً، مُعْتَزاً بِرُكْنِ قَصْرِهِ الْفِرْعَوْنِيّ وَمَالَهُ فِي مِصْرَ مِنْ قُوَّةٍ تَخْضَعُ لِأَمْرِهِ ونَهْيِهِ وَسُلْطَانِهِ، فَالرُّكْنُ يُطْلَقُ عَلَى الْقُوَّة النَّاصِرَة.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ عَنْ مُوسَىٰ: هـٰذَا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، كَمَا قَالَ كُبَرَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ عَنْ رَسُولِ الله مُحَمَّدٍ ﷺ.

يَقُولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِضَمِير المتَكَلِّم الْعَظِيم الْجَبَّار: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾: أي: بتدابيرنا الحكيمَة إذْ جَعَلْنَاهُ وَجَيْشَهُ يُلاحِقُون بَنِي إسْرَائِيلَ

الـخـارجِـيـنَ مِـنْ مـصـر ﴿فَأَخَذْنَهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ فَأَغْرَقْنَاهُمْ جَمِيعاً وقائدهم فرعونُ عاصٍ وهم له تابعون.

النبذُ: طَرْحُ المنبوذِ طَرْحاً مَقْرُوناً باسْتِهَانَةٍ به. **مُلِيمٌ**: أي: عَاصٍ بِما يُلامُ وَيُعَاقَبُ عَلَيْهِ.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس السادس من دُرُوس سورة (الذاريات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٠)
التدبر التحليلي للدرس السابع من دُروس سورة (الذَّارِيَات) الآيتان (٤١ و٤٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

القراءات:

(٤١) • قرأ أبو عمْرو: [**عَلَيْهِمْ الرِّيحَ**] بكسر هاء الضمير والميم بَعْدَها.

وقرأها حمزة، والكِسائي، ويعقوب، وخلف: [**عَلَيْهُمُ الرِّيحَ**] بضم هاء الضمير والميم بَعْدَها.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**عَلَيْهِمُ الرِّيح**] بِكَسْر هَاء الضمير وضمّ الميم بعْدَها.

وهي وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ فِي النطق.

تَمْهيد:

في آيَتَي هـٰذَا الدَّرْس عَرْضُ لَقْطَةٍ مُوجزَةٍ عَنْ إهْلَاكِ عَادٍ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وقد سبق تَدَبُّر النصوص القرآنية تَدَبُّراً تكامُلِيًّا بشأنهم في الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة (هود/ ٥٢ نزول).

التدبّر التحليلي:

«**الرِّيحُ الْعَقِيمُ**»: هِيَ الرِّيحُ الَّتي لَا تَأْتِي بِمَطَرٍ، بَلْ قَدْ تَأْتِي بِعَذَاب.

«**الرَّمِيمُ**» البالي المتفتّتِ الَّذِي صَارَ غَيْرَ مُتَمَاسِكِ الذَّرَّات.

أي: وَفِي قَبِيلَةِ «عَادٍ» قَوْمِ النبيّ الرَّسُول «هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام» آيَةٌ لِلْمُعْتَبِرِين، إذْ عَذَّبْنَا كُفَّارَهُمْ وَأَهْلَكْنَاهُمْ عَلَىٰ مَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا بِشَأْنِهِمْ، فيما أَنْزَلْنَا مِنْ سُوَرٍ قَبْلَ سُورَةِ الذَّارِيَات، وَكَانَتْ وَسِيلَةُ تَعْذِيبِهِمْ الرِّيحَ الْعَقِيمَ، الَّتِي مَا تَتْرُكُ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَبْنِيَةٍ وَغَيْرِهَا أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ مُتَفَتِّتاً كالرِّمَال الناعِمَاتِ، بِشِدَّتِهَا وسُرْعَتِهَا وَقُوَّةِ تَأْثِيرِها، وَلَسْتُمْ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ أَكْرَمَ عَلَىٰ رَبِّكُمْ مِنْ كُفَّارِ عَادٍ، أَوْ كُفَّارِ سَائِرِ الْأُمَم.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس السابع من دُرُوس سورة (الذَّارِيَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١١)
التدبر التحليلي للدّرسِ الثامن من دُروس سورة (الذَّارِيَات) الآيَات من (٤٣ ـ ٤٥)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

القراءات:

(٤٤) • قرأ الكِسَائي: [**الصَّعْقَةُ**]. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الصَّاعِقَةُ**].

الصَّعْقَةُ: الْهَلَاكُ.

الصَّاعِقَة: العذابُ الْمُهْلِك.

فَمُؤَدَّىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ واحد. وهما من التفنّنِ في البيان.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقْطَةٍ مُوجزَةٍ عَنْ إِهْلَاكِ «ثمود» قَوْمِ النبيّ الرَّسُول صَالِحِ عَلَيْهِ السَّلَام.

التدبّر التحليلي:

• ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾: أي: اسْتَكْبَرُوا مُتَجَاوِزِينَ أَمْرَ رَبِّهِم.

يقال لغة: «عَتَا، يَعْتُو، عُتُوّاً، وَعُتِيًّا، وَعِتِيًّا»: أي اسْتَكْبَرَ وَجَاوَزَ الحدَّ المحتَمَلَ فِي المخالفة. والْعَاتِي الطَّاغِيَةُ الْجَبَّارُ المفْسِد.

أي: وفي قَبيلَة «ثَمُود» قَوْم النبي الرسُولِ صالح عَلَيْهِ السَّلَام آيَةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ، إِذْ أَنْذَرَهُمْ رَسُولُهُمْ بعذابٍ وَإِهْلَاكٍ يَشْمَلُ غَيْرَ مَنْ آمَنَ وَأَسْلَمَ مِنْهُمْ، فَاسْتَكْبَرُوا وَطَغَوْا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَائِلَ التَّعْذِيبِ الْمُهْلِكَةَ لَهُمْ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ، فَسَقَطُوا صَرْعَىٰ، وَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَقُومُوا قِيَاماً مَا، وَحَاوَلُوا التَّخَلُّصَ مِنْ نُزُولِ مَا نَزَلَ بِهِم وَلَكِنَّهُمْ مَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ.

«مِنْ» في «مِنْ قِيامٍ» مَزِيدَةٌ لِلتَّوْكيد، أَصْلُها فَما اسْتَطَاعُوا قياماً.

وَقَدْ سَبَقَت دِرَاسَةُ النصوص القرآنية المتعلقة بثمود ورَسُولِهِم في الملحق الثالِثِ من مَلَاحِق تَدَبُر سورة (النمل/٤٨ نزول) فَلْيُرْجَع إِلَيْه.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثامن من دُرُوس سورة (الذاريات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(١٢)

التدبر التحليلي للدرس التاسع من دُرُوس سورة (الذَّارِيَات) الآية (٤٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

القراءات:

(٤٦) • قَرأ أَبُو عَمْرو، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [**وَقَوْمِ نُوحٍ**] عطفاً على [**وَفي ثَمُودَ**] أي: وفي قومِ نوح آيَة كما في ثمود.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَقَوْمَ نُوحٍ**] بالنَّصْب، أي: وَأَهْلَكْنا قَوْمَ نُوحٍ وَفي إِهْلَاكهم آيَةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ.

تَمْهيد:

في آية هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ إِهْلَاكِ قَوْمِ نوحٍ بِسَبَبِ أَنَّهُم كانُوا قَوْماً فاسِقِين.

وقَد سَبَقَ لِي تَدَبُّرُ كُلِّ مَا فِي القرآنِ بِشَأْنِ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومِهِ تَدَبُّراً تَكامُلِيًّا، فِي كِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ بعنوان «نوح عَلَيْهِ السَّلَام وقومُهُ فِي القرآن المجيد».

التدبّر التحليلي:

أي: وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ كَمَا وَصَفْنَا لَكُمْ فِي سُوَرٍ سَابِقَاتٍ لِسُورَةِ الذَّارِيَات بالطُّوفان الشَّامِلِ، بِسَببِ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِين فِسْقاً مِنْ دَرَكَاتِ الكُفْرِ العناديّ الْجُحُودِي الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ الإِهْلَاكَ الشَّامل، وأَنْجَيْنَا نُوحاً والَّذِينَ آمَنُوا مَعه فِي الْفُلْكِ الَّتِي أَمَرْنَاهُ بأنْ يَصْنَعَها، فَأَتَمَّ صُنْعَها بأعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا.

وهٰذِهِ الآيَةُ مُضَافَةٌ إِلَىٰ الآيَاتِ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا إِهْلَاكُ قومِ لُوط، وفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، وَكُفَّارِ عَاد، وكُفَّارِ ثَمُود.

فاعْتَبِرُوا يَا كُفَّارَ مَكَّة إِبَّان التَّنْزِيلِ وجَبَابِرَتَهَا وَعُتَاتها.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس التاسع من دُرُوس سورة (الذاريات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٣)
التدبر التحليلي للدّرس العاشر من دُرُوس سورة (الذّاريات) الآيات من (٤٧ ـ ٤٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

القراءات:

(٤٩) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[تَذَكَّرُونَ]** أَصْلُها تَتَذَكَّرُون.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَذَّكَّرُونَ]** بإدغام التاء الثانية بِالذّال.

تَمْهيد:

فِي آيَات هـٰذَا الدَّرْسِ يُوجِّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ للتَّفَكّرِ بِبَعْضِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وفي إِلَٰهِيَّتِهِ.

وهـٰذَا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ بِمَا سَبَقَ فِي السُّورَةِ مِنْ دُرُوسٍ تُوَجِّهُ للنظَّرِ والتَّفكُّرِ في آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ.

التدبّر التحليلي:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْجِيهٌ للتفكُّرِ في ثَلَاثِ آيَاتٍ عُظْمَىٰ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ:

الآيَةُ الكَوْنِيَّةُ الْأُولَىٰ: وَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ للتفكُّر فيها بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

يُطْلَقُ البِنَاءُ في اللُّغَةِ عَلَىٰ بِنَاءِ جِدَارٍ ونحوِهِ، وعلى بِنَاء سَفِينَةٍ بَحْرِية، وَعَلَىٰ بِنَاءِ خِباءٍ، وعَرِيشٍ، وبيتٍ مِنْ شَعَر، وَتَوَسَّعَتْ دَلَالَةُ الكَلِمَةِ حتَّىٰ صَارَ يقالُ: بَنَىٰ الطَّعَامُ جِسْمَ فُلَانٍ، أي: عَظَّمَهُ وَنمَّاهُ.

أقول: إنَّ بِنَاء كُلِّ شيْءٍ يَكُونُ بِحَسَبِ الحاجَةِ الدَّاعِيَةِ إليه: فَبُيُوتُ الْعَرَبِ في البوادي تُبْنَىٰ مِن الْجُلُودِ والأصواف والأوبار المنْسُوجَةِ ونَحْوها. والْعَرِيشُ يُبْنَىٰ مِنْ أَخْشَابِ الشَّجَرِ وفُرُوعِهَا وأفْنَانِها. وبُيُوت القرىٰ والمُدُنِ تُبْنَىٰ مِنَ الحجارَةِ والآجُرِّ والطِّينِ وَالجصِّ والْخَشَبِ والإسْمِنْتِ والْحَدِيد ونحوها. والْعَنْكَبُوتُ تَبْنِي بَيْتَها مِنْ خُيُوطٍ دَقِيقَةٍ جدّاً تُفْرِزُهَا مِنْ غُدَّةٍ فِي جِسْمِهَا.

فَبِنَاءُ السَّمَاءِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِحَسَبِ نِظَامِ التَّمَاسُكِ بَيْنَ أَجْرَامِهَا، والْغِلَافُ الْجَوِيُّ الْمُحِيطُ بالأَرْضِ مَبْنِيٌّ كما هُو مُشَاهَدٌ مِنَ الْغَازَاتِ، والمجرَّاتُ مَبْنِيَّةٌ كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ بالمناظِير والمجَاهِرِ لِعُلَمَاءِ الْفَلَكِ الرّاصِدِينَ من النُّجُومِ وَالْكَواكِب، وَتَمَاسُكُها حَاصِلٌ بِقَانُونِ الْجَاذِبِيَّةِ غير المشْهُودَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ فيها.

وَقَدْ تَكُونُ مَجْمُوعَةُ مَجَرَّاتٍ مُتَرابِطَةٍ بِنِظَامٍ مَا فِيمَا بَيْنَهَا إحْدَى السَّمَاوَاتِ السَّبعِ الكُبْرَىٰ، وَهَكَذَا تَسَلْسُلاً إلى سَائِرِ السَّماواتِ السَّبع.

ومِنَ الخيْرِ والأَحْكَم للنَّاسِ تَرْكُ هـٰذَا الموضوع لِلْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ الإنْسَانِيِّ وَمَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ في هـٰذَا المجال، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ مَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ عِلْماً يَقِينيًّا بأدِلَّةٍ صَحِيحَةٍ مَقْطُوعٍ بها.

وَمَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ مَعْرِفَةِ عَظَمَةِ بِنَاءِ السَّمَاءِ شيءٌ مُدْهِشٌ يَدُلَّ عَلَىٰ عَظَمَةِ الخالِقِ الرَّبِّ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شيءٍ صُنعاً.

• ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ مَفْعُول بِهِ لِفِعْلٍ مَحْذُوف يُفَسِّرُهُ الْفِعْلُ فِي: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ لِأَنَّهُ اشْتَغَلَ بِضَمِيرِهِ عَنْهُ، وهٰذَا التَّعْبِيرُ فِيهِ تَوْكِيدٌ وَتَعْظِيمٌ لِشَأْنِ السَّمَاءِ ذَاتِ البناء العجيب.

• ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾: يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم، لِأَنّ بناء السَّمَاءِ أَمْرٌ عظيمٌ جليل.

• ﴿بِأَيْيْدٍ﴾: أي: بِقُوَّةٍ وشِدَّةٍ عظيمتَيْن. يُقَالُ لغة: «آدَ فُلَانٌ، يَئِيدُ، أَيْداً، وآداً» أي: اشْتَدَّ وَقَوِيّ. ويُقَالُ: «رَجُلٌ أَيِّدٌ» أي: عَظِيمُ الْقُوَّة.

وَمِنْ بَدَائِهِ الْعُقُولِ، أَنَّ «السَّمَاءَ» الشَّامِلَ لِكُلِّ السّمَاوَاتِ السَّبْعِ لَا يَتَحقَّقُ إيجادُهَا وَلَا بِنَاؤُها إِلَّا بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ لَا تَصِلُ أَوْهَامُ النَّاسِ إلى إِدْرَاكِ مَدَاهَا الْأَقْصَىٰ.

• ﴿. . . وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾: أي: وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ فِيهَا خَلْقاً وَامْتِدَاداً بَعْدَ خَلْقِهَا الْأَوَّل مَعَ تَوَالِي الْأَزْمَان، وَهٰذَا مَا بَدَأَتِ الدِّرَاسَاتُ الْفَلَكِيَّةُ الْمُعَاصِرَةُ تُثْبِتُه.

الآيَةُ الكَوْنِيَّة الثانية: وَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلتّفكُّرِ فيها بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

الْفَرْشُ: الْبَسْطُ والتَّوْسِعَةُ، والْمُرَادُ أَخْذاً مِنَ الواقِعِ المشهود، بَسْطُ كَثِيرٍ مِنْ سُطُوحِ الْأَرْضِ لِصَالِحِ سُكْنَىٰ النَّاسِ، وَزِرَاعَتِهِمْ، وَكَثِيرٍ مِنْ مَصَالِحِهمْ عَلَىٰ الْأَرْض.

المَاهِدُونَ: يُقَال لغة: «مَهَدَ فُلَانٌ الْفِرَاش» أي: بَسَطَهُ ووطَّأَهُ.

فالمعنى: وَبَسَطْنَا أَقْسَاماً مِنْ سُطُوحِ الْأَرْضِ بِحَسَبِ مَصَالِحِ النَّاسِ

بَسَطْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ لِهٰذِهِ المنْبَسِطَاتِ مِنَ الأَرْضِ عِنَايَةً مِنَّا بِمَصَالِحِ النَّاسِ عَلَيْهَا.

وهٰذَا الْبَسْطُ والتَّمْهِيدُ لِأَقْسَامٍ مِنْ سُطُوحِ الأَرْضِ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ نِعَمٍ عَظِيمةٍ عَلَىٰ النَّاسِ في الْأَرْضِ.

الْآيَةُ الْكَوْنِيَّةُ الثالِثَة: وَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ للتفكّرِ فِيها بِقَولِهِ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

سَبَقَ التنبيهُ عَلَىٰ هٰذِهِ الآيَةِ الكَوْنِيَّةِ العظيمَةِ مِنْ آيَاتِ اللهِ الإتقانِيَّةِ في الآية (٣٦) من سورة (يس/ ٤١ نزول) وهي قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

أَعْلَمَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ أَنَّ نِظَامَ الزَّوْجِيَّةِ في الكَوْنِ لَيْسَ خَاصّاً بِالنَّاسِ، وَلَا بالْأَحْيَاءِ الْأُخْرَىٰ الَّتِي نَشْهَدُ نِظَامَهَا الزَّوْجِيَّ بَلْ هُوَ نِظَامٌ تَخْضَعُ لَهُ النَّبَاتَاتُ أَيضاً، وَتَخْضَعُ لَهُ أَشْيَاءُ أُخْرَىٰ لَا يَعْلَمُهَا الناس.

وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ مِنْهَا عَنْ طَرِيقِ الْبُحُوثِ الْعِلْمِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَىٰ التَّجْرِبَةِ وَالْمُلَاحَظَةِ، نِظَامَ الزَّوْجِيَّةِ في الذَّرَات، ونِظَام الزَّوْجِيَّةِ فِي الكَهْرُبَاء، فَعَرَفْنَا الْمُوجِبَ والسَّالِب، وَنِظَام الزَّوْجِيَّة في المغناطِيس.

والآيَةُ هُنَا فِي سُورَةِ (الذَّارِيَات/ ٦٧ نزول) تُبَيِّنُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِعَظِيم قُدْرَته خَلَقَ مِنْ كُلِّ شيْءٍ في الكَوْنِ زَوْجَيْنِ، كَمَا تُشَاهِدُونَ نِظَامَ الزَّوْجِيَّةِ فِي الْأَحْيَاءِ.

● ﴿... لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: نُبَيِّنُ لَكُم هٰذِهِ الحقيقَةَ التَّكْوِينِيَّةِ رَاغِبِينَ أَنْ تَضَعُوهَا فِي ذَاكِرَتِكُمْ أَيُّها المتَلَقُّونَ المتَدبِّرُونَ، فَكُلَّمَا اكْتَشَفْتُمْ وُجُودَ نِظَامِ الزَّوْجِيَّةِ في شيءٍ جَدِيدٍ كَانَ خَفِيًّا عَلَيْكُمْ تَذَكَّرْتُمْ هٰذَا الْبَيَانَ

مِنْ تَنْزِيلِ رَبِّكُمْ في كِتَابِهِ المجيد، فَعَلِمْتُمْ أَنَّ الْقُرآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْهُ، فازْدَادَ إيمانُكُمْ بِهِ، وازْدَادَ إِيمانُكُمْ بِصِدْقِ نُبُوَّةِ وَرِسَالَةِ مُبَلِّغِهِ عَنْ رَبِّهِ محمّد بن عَبْدِ الله ﷺ، وازْدَادَ حِرْصُكُمْ عَلَىٰ اتباعِ تَعْلِيمَاتِ الإسْلَام، وأَوَامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ فيه.

وارْجِعْ إلى مَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُهُ فِي تَدَبر آيَةِ سُورة (يس/ ٤١ نزول) فَفِيهِ بَيَانٌ أَوْسَعُ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس العاشر من دُرُوس سورة (الذَّارِيَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٤)
التدبُّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دُروس سورة (الذَّارِيات) الآيتان (٥٠ و٥١)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

تَمْهيد:

فِي هـٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ أُسْلُوباً دَعَوِيًّا بَارِعاً فِيهِ إبداعٌ فِكْرِيٌّ.

التدبُّر التّحليلي:

الدَّعْوَةُ إِلَىٰ دِينِ اللهِ أُسْلُوبُهَا الطَّبِيعِيُّ الْمُعْتَادُ: تَعَالَ، أَقْبِلْ، انْظُرْ مَا لَدَيْنَا مِنْ حَقٍّ وَخَيْرٍ وهُدىً.

وَلَـكِنْ جَاءَ الْأَسْلُوبُ أسْلُوبَ داعٍ إلَىٰ الْفِرَارِ مِنْ خَطَرٍ عَظِيم، وَعذابٍ ألِيمٍ، وَهَلَاكٍ عَمِيم، أي: نَادِ قَوْمَكَ أيُّها الداعيّ فَقُلْ لَهُمْ: فِرُّوا إلى الله.

هَكَذَا كَانَ يَفْعَلُ النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ الَّذِي يُحَذِّرُ قَوْمَهُ مِنْ خَطَرٍ قَادِمٍ مُدَاهِمْ.

أَيْ: أَنْتُمْ أَيُّهَا المشرِكُونَ فِي مَوَاقِعِكُمُ الشِّركيَّة، يَقْتَرِبُ مِنْكُمْ الْعَذَابُ والْهَلَاكُ شيئاً فَشَيْئاً عَلَىٰ مَا تُمَارِسُونَهُ مِنْ شِرْكٍ وَكُفْرٍ وَجَرائِم، فَفِرُّوا مِنْ هَـٰذِهِ الْمَواقِعِ قَبْلَ أَنْ يُفَاجِئَكُمُ الْعَذَابُ الْمُهْلِكُ الشَّامِلُ، وَفِرارُكُمْ الَّذِي يُنْجِيكُمْ لَا يَكُونُ إلَّا إلى اللهِ، وَلَا يُدْخِلُكُمْ فِي حِمَىٰ اللهِ إلَّا بأَنْ تَنبِذُوا الشِّرْك، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ.

• ﴿... إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: عِبَارَةٌ جَاءَتْ مُكَرَّرَةً في الآيَتَيْنِ، لِتَوْكِيد الدَّعْوَةِ إلى الفِرَارِ مِنْ مَوَاقِعِ الْأَخْطَارِ، تَحْقِيقاً للإنْذار بَعْدَ تأدِيَةِ الوظائفِ السَّابِقَةِ له من تبليغٍ، وبيانٍ، وإقناعٍ، وتبشير.

أي: إنّي نَذِيرٌ لَكُمْ مُرْسَلٌ مِع اللهِ مُبِينٌ فِي إِنْذَارِي وكُلِّ دَعْوَتِي.

وبهـٰذا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الحادي عشر من دُرُوس سورة (الذّارِيات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٥)
تدبُّر الدّرس الثاني عشر من دُروس سورة (الذّارِيات) الآيَات من (٥٢ ـ ٥٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾

أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

تَمْهِيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْس تَهْوِينٌ عَلَىٰ قَلْبِ الرَّسُولِ محمّد ﷺ وَتَسْلِيَةٌ لَهُ، تُجاهَ مَا يَلْقَىٰ مِنْ أذًى وشَتَائِم من كُبَرَاءِ قَوْمِهِ المعانِدِينَ، وَنُصْحٌ لَهُ بِأَنْ يَتَوَلَّىٰ مُدْبِراً عَنْهُمْ، وَبِأَنْ يُوَجِّهَ تَذْكِيرَهُ بِالْقُرْآن وَبِقَضَايَا الدِّينِ لِلَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إِلَىٰ دَرَكَةِ الميْؤُوسِ مِنْ إِصْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَتِهِمُ الحرَّة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ مُهَوِّناً وَمُسَلِّياً:

● ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

لَقَدْ صَارَ كُبَرَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَمُعَانِدِيها وَطُغَاتِها إِبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (الذَّارِيَات) يُرَدِّدُونَ هُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ بَيْنَ الْجَمَاهِيرِ أَنَّ مُحَمَّداً سَاحِرٌ فِيمَا يَأْتِي بِهِ مِنْ آيَاتٍ خَوارِقَ، وَبَيَانَاتٍ بَاهِرَات يُؤَيِّدُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا، وَمَجْنُونٌ إِذْ يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَىٰ النَّاسِ أَجْمَعِين، لَا إِلَىٰ الْعَرَبِ فَقَطْ، فَهَلْ يُرِيدُ أَنْ يَتَّبِعَهُ كُلُّ الْأُمَم فِي الْأَرْضِ وفيهم الدُّوَل العُظْمَىٰ، فارِسُ، والرُّوم، والْحَبَشَةُ، وَغَيْرُهَا، إِنَّ هـٰذَا طُمُوحٌ لَا يَدَّعِيهِ إِلَّا مُخْتَلُّ الْعَقْلِ والنَّفْسِ مَجْنُون.

فَوَجَّهَ اللهُ الرَّؤُوفُ الرَحِيمُ لِرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ عِبارَةَ تَسْلِيَةٍ وَمُوَاسَاةٍ، تَهْوِيناً عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَأَبَانَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَهُ بأَقْوالِهِمْ وَشَتائِمِهِمْ قَوْمٌ طَاغُون.

● ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: كَذَلِكَ الَّذِي وَاجهَكَ بِهِ يَا مُحَمّدُ كُبَرَاءُ كُفَّارِ قَوْمِكَ وَمُجْرِمُوهم مِنْ أذًى وَشَتَائِمَ، وَأَنْتَ بَعِيدٌ عَنْهُ بُعْدَ الْحَقِّ عَنِ الْبَاطِلِ، وَاجَهَ أَمْثَالُهُمْ مِنْ كُبَرَاءِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ رُسُلَ رَبِّهِمْ، فَاتَّهَمَ كُلُّ ذَوِي سُلْطَانٍ فِي قَوْمِهِمْ وَذَوِي اسْتِعْلَاءٍ وَطُغْيَانٍ، رَسُولَ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ وَبِأَنَّهُ مَجْنُون، وَيُعَلِّلُونَ شَتَائِمَهُمْ بِأَيَّةِ تَعِلَّة تَقْبَلُهَا جَمَاهِيرُهُمُ المقلِّدُونَ لَهُمْ.

• ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ . . . ﴿٥٣﴾﴾؟ اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، لِلانْتِقَالِ إِلَىٰ إِثْبَاتِ الصِّفَةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ السَّابِقِينَ وَالْمُعَاصِرِينَ.

• ﴿. . . بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾: أي: لَا لَمْ يَتَوَاصَوْا بالَّذِي اتَّهَمُوا بِهِ رُسُلَ رَبِّهِمْ، بَلْ هُوَ أَثَرُ طُغْيَانٍ فِي نُفُوسِهِمْ، جَعَلَهُمْ يَرْفُضُونَ دَعْوَةَ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة المؤيَّدَةَ بالْبَرَاهِينِ الْقَوَاطِع، وَيَشْتُمُونَ رَسُولَ رَبِّهِمْ بالسِّحْرِ والجنُون.

الطُّغْيَانُ: تَجَاوُزُ الحدِّ الطبيعيِّ المقْبُول، إلى مواقِعِ الضَّرَرِ، والإفْسَادِ، والظُّلْمِ، والْجَوْرِ، والْبَغْي، والْعُدْوَان.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُوصِي رَسُولَهُ بِشَأْنِ هَٰؤُلَاءِ المُسْتَكْبِرِينَ المعانِدِين:

• ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

• ﴿فَتَوَلَّ﴾: فِعْلُ «تَوَلَّ» يأتي بِمَعْنَىٰ «نَأَى» ويَأْتِي بِمَعْنَىٰ «أَدْبَرَ».

• ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾: أي: إذا تَوَلَّيْتَ مُدْبراً عَنْهُم فَلَسْتَ بِفَاعِلٍ شَيْئاً تُلَامُ عَلَيْهِ.

الباء في «بِمَلُومٍ» مَزِيدَةٌ للتوكيد.

• ﴿وَذَكِّرْ﴾: **التَّذْكِير**: إعَادَةُ وَتَكْرِيرُ مَا سَبَقَ الإعْلَامُ بِهِ، لإخْرَاجِهِ من مَرَاكِزِ الْمَعْرِفَةِ الْكَامِنَةِ إِلَىٰ سَاحَةِ الذَّاكِرَةِ الحاضِرَةِ المؤثِّرَةِ فِي تَوجِيهِ الإرَادَة.

• ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: الذِّكْرَىٰ: اسْمٌ لِلتَّذْكِيرِ.

• ﴿تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: فإنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ دَاخِلِيٌّ لِأَنْ يُؤْمِنُوا، وَلَمْ يَصِلُوا إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا أَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِم الحرَّة.

المعنى: فَتَوَلَّ مُدْبراً عَنْ هَؤلَاءِ المسْتَكْبِرِينَ المعانِدِينَ، وَلَا تُتَابِعْ مُعَالَجَتَهُمْ، تَوْفِيراً لِطَاقَاتِكَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَبْذُلَهَا فِي آخَرِينَ مَطْمُوعٍ فِي اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحَقّ، فإذَا تَوَلَّيْتَ عَنْ هَـٰؤُلَاءِ فَلَسْتَ بِفَاعِلٍ شَيْئاً تُلَامُ عَلَيْهِ، لِأَنَّكَ قَدْ بَذَلْتَ فِيمَا سَبَقَ كُلَّ مَا يَحْسُنُ أَنْ تَبْذُلَهُ فِي مُعَالَجَتِهِمْ. وَوَجِّهْ تَذْكِيرَكَ لِلَّذِينَ تَطْمَعُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ تَذْكِيرُكَ، إِذْ تَرَىٰ بفراسَتِك لَدَيْهِمْ بِوَارِق الْمَيْلِ للاسْتِمَاعِ إلى دَعْوَةِ الْحَقّ، وَتَشْعُرُ بأَنَّ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَاداً دَاخِلِيًّا لِأَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ يَوْماً ما.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الثاني عشر من دُرُوس سورة (الذاريات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٦)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث عشر من دُروس سورة (الذّاريات) الآيَات من (٥٦ ـ ٦٠) آخِر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾.

القراءات:

(٥٦ و٥٧ و٥٨) • قرأ يعقوب بإثبات ياء المتكلّم في [**لِيَعْبُدُونِي - يُطْعِمُونِي - يَسْتَعْجِلُونِي**] وصلاً ووقفاً، ولم يُثْبِتْها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ.

(٦٠) • قرأ أبو عمرو ويعقوب: [**يَوْمِهِمِ الَّذِي**] بِكَسْر هاء الضمير والميم بعدها.

وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف: [**يَوْمِهُمُ الَّذِي**] بضمّ هاء الضمير والميم بَعْدَها.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَوْمِهِمُ الَّذِي**] بِكَسْر هاء الضمير وضم الميم بَعْدها.

وَهِي وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ في النُّطْق.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ الختامِيّ للسُّورَةِ بَيَانٌ لِمَطْلُوبِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ عِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وهِيَ أَنْ يَعْبُدُوه.

وَفِيهِ إنْذَارٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بِالْكُفْرِ بِعَذَابِ مَا مُعَجَّلٍ، وَإنْذَارٌ لَهُمْ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ خَالِدِينَ فِيها.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَطْلُوبَهُ مِنَ الجِنّ والإِنْسِ في رِحْلَةِ امْتِحانهم:

• ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾:

كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُسَيْطِرُ عَلَيْهِمْ وَهْمُ أَنَّ آلِهَتَهُمُ الَّتِي يَعْبُدونَها مِنْ دُونِ اللهِ تَطْلُبُ مِنْ عُبَّادِهَا رِزْقاً، أَوْ طَعَاماً تَنْتَفِعُ مِنْهُ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوه،

كَرَائِحَةِ لَحمِ الْقَرَابِينَ وَدِمَائِها، وَكَانَ هٰذَا بِتَأْثِير سَدَنَةِ آلِهَتِهِمُ الْوَثَنِيَّةِ، لِأَنَّ هٰؤُلَاءِ السَّدَنَةَ هُمُ المنتَفِعُونَ مِنَ الأَرْزَاقِ وَالْأَطْعِمَةِ الَّتِي يُقَدِّمُهَا عُبَّادُ الأَوْثَانِ، فَهُمْ يَصْطَنِعُونَ الْأَكَاذِيبَ الإِيهَامِيَّةِ الَّتِي يَخْدَعُونَ بِهَا عُبَّاد أَوْثَانِهِمْ، زَاعِمِينَ أَنَّ مَطَالِبَهُمْ مِنْ آلِهَتِهِمْ لَا تَتَحَقَّقُ مَا لَمْ يُقَدِّمُوا لَهَا الْقَرَابِينَ مِنَ الأَرْزَاقِ والأَطْعِمَة.

فاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ فِي الْبَيَانِ الرَّبَّانِي، أَنْ يُعْلِمَ اللهُ الْجِنَّ الَّذِينَ كَانُوا مُمْتَحَنِينَ قَبْلَ الإنْسِ في الحياة الدُّنْيا، وأَنْ يُعْلِمَ الإِنْسَ، بِأَنَّ مَطْلُوبَهُ مِنْ عباده الموضوعين مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنيا، مَقْصُورٌ عَلَىٰ عِبَادَتِهِمْ لَهُ، بالإيمانِ بما أَمَرَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وبإعْلَانِ الإسْلَامِ لَهُ في أوامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ.

وَاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ أَنْ يُعْلِمَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَطْلُبُ مِنْ عِبَادِهِ رِزْقاً وَلَا طَعَاماً، فَهُوَ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مُنَزَّهٌ عَنِ الْحَاجَةِ لِأَيِّ شَيْءٍ في الْوُجُودِ، إِذْ كُلُّ شيءٍ هُو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، فالأَرْزَاقُ كُلُّهَا مِنْ خَلْقِهِ، وَهُوَ يُنْعِمُ بِهَا عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنَ الإِنْسِ والْجِنّ، وَعَلَىٰ سَائِرِ الأَحْيَاءِ ذَاتِ الحاجَة إلى الرِّزْقِ والطَّعَامِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقضائه.

إِنَّ اللهَ الْأَزَلِيَّ الْأَبَدِيَّ الأَحَدَ الصَّمَدَ، هُو الرَّزَّاقُ الَّذِي يَرْزُقُ كُلَّ ذِي حَاجَةٍ إِلَىٰ الرِّزْقِ، الّذِي يُمِدُّهُمْ بِهِ لِيَمْنَحَهُمُ الْقُوَّة، وهُوَ ذُو الْقُوَّةِ الذَّاتِيَّةِ الْأَزَلِيَّةِ الأَبَدِيَّةِ، الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِمْدَاداً مِنْ شَيْءٍ، وَهُوَ الْمَتِينُ الصُّلْبُ، الَّذِي لَا تَتَنَاقَصُ قُوَّتُهُ مَهْمَا فَعَلَ مِنْ أَشْيَاءَ عُظْمَىٰ فِي هٰذَا الكَوْنِ الكبير الْفَسِيحِ.

كثيرٌ مِنَ النَّاسِ يُخْطِئونَ فِي فَهْمِ قَوْلِ اللهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ فَيَرَوْنَ أَنَّ اللَّامَ فِي ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ هِيَ لَامُ التعليل، وَأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْجِنَّ وَالإنْسَ لِعِبَادَتِهِ، فَعَصَىٰ الْعُصَاةُ مِنْهُمْ

إِرَادَةَ اللهِ فِيهم، وَهـٰذَا المعْنَىٰ مُصَادِمٌ مُصَادَمَةً كُلِّيَّة لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ سُورَة (يس/ ٤١ نزول) فلَوْ كَانَ مُرَادُ اللهِ أَنْ يَكُونُوا عَابِدِينَ، لَكَانُوا جَمِيعاً كَالْمَلَائِكَةِ، لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، لِأَنَّ إرادَتِهِ فِي كُلِّ شيءٍ لَا بُدَّ أَنْ تتحقَّقَ.

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَىٰ نُصُوصِ الابْتِلَاءِ وَجَدْنَاهَا مُتَواطِئَةً عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الإنْسَ وَالْجِنَّ لِيَبْلُوهم، أي: لِيَمتَحِنَهُمْ في ظُرُوف الحياة الدُّنْيا، وَهـٰذَا المعنَىٰ نَافِذٌ ومُتَحَقِّقٌ فِي كُلِّ مُؤَهَّلٍ للامْتِحَانِ فِي هـٰذِهِ الحياة.

وسَبَبُ الْخَطأِ تَشَبُّثُ الْمُخْطِئِينَ بأنَّ اللَّامَ فِي: ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ هِي لَامُ التَّعْلِيلِ، مَعَ أَنَّ هـٰذَا الْمَعْنَىٰ هُو أَحَدُ الْمَعَانِي الَّتِي أَوْصَلَهَا عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ إِلَىٰ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَعْنًى لِلَّام الْجَارَة.

وَالْمَعْنَىٰ الَّذِي انْتَهَيْتُ إِلَيْهِ، الْجَامِعُ الَّذِي تَتَكَامَلُ بِهِ النُّصُوصُ، هُوَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْجِنَّ وَالإنْسَ لِيَبْلُوهُمْ، وَهـٰذَا المعنَىٰ نَافِذٌ وَمُتَحَقِّقٌ فِي كُلِّ مُؤَهَّلٍ مِنْهُمْ لِلابْتِلَاءِ، عَلَىٰ وَفْقِ مُرَادِ الله فِيهم، وَالمطْلُوبُ فِي هـٰذَا الابْتِلَاءِ هُوَ أَنْ يَعْبُدُوه، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مُخَالَفَةَ الْمَطْلُوبِ لَيْسَ فِيهِ مُخَالَفَةٌ لإرَادَةِ اللهِ، إِذْ أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ الْمَوْضُوعِينَ فِي الحياةِ الدُّنْيا مَوْضع الامْتِحَانِ أَنْ يَمْنَحهُم حُرِّيَّةَ الإرادَة، وَمِنْ خِلَالِ هـٰذِهِ الْحُرِّيَّةِ الَّتِي مَنَحَهُمُ اللهُ إِيَّاهَا يُكلِّفُهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُطِيعُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْصِي، وَاللهُ بِسُلْطَانِ خَلْقِهِ يَخْلُقُ لَهُمْ مَا يُرِيدُون.

فَاللَّامُ في قولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ هِي لَامُ الْمَطْلُوبِ وَلَيْسَتْ لَامَ التَّعلِيل.

ولِهذا تفصيلٌ مُوسَّعٌ في الملحق الثالث مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّرِ سورة (فَاطِر/ ٤٣ نزول)[١].

• ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: لَسْتُ كآلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّتي يَتَقَرَّبُ إلَيْها عَابِدُوهَا بالْأَرْزَاقِ والْأَطْعِمَةِ، الَّتي هِيَ في تَصَوُّرِهِمْ مُحْتَاجَةٌ إلَيْها، فأنَا الغنيُّ بذاتي عَنْ كُلِّ شيءٍ.

الرِّزْق: كُلُّ مَا يَنْتَفَعُ بِهِ مِمَّا يُؤْكَلُ وَيُلْبَسُ وَيُشْرَبُ حَتَّىٰ الْهَوَاء، وَكُلُّ مَا يَحْتَاجُهُ الْحَيُّ لِحَيَاتِهِ.

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: إنَّ اللهُ الَّذِي هُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ الْأَزَلِيُّ الْأَبَدِيُّ هُو الرَّزَّاقُ الَّذِي يَخْلُقُ أَرْزَاقَ الْعِبَاد، وَهُوَ ذُو الْقُوَّةِ الْأَزَلِيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ الَّتِي لَا تَتَنَاقَصُ حَتَّىٰ تَحْتَاجَ إِمْدَاداً بالرِّزْقِ، وَهُوَ الْمَتِينُ الصُّلْبُ الَّذِي لَا تَتَنَاقَصُ قُوَّتُهُ مَهْمَا فَعَلَ مِنْ أَشْيَاءَ عُظْمَىٰ فِي هـٰذَا الْوُجُودِ الْفَسِيح، فَخَلْقُهُ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ السَّبْعَ، والكُرْسِيَّ والْعَرْش، وَمِثْلَ هـٰذَا الْوُجُودِ كُلِّهِ مَرَّاتٍ بِلَا نِهَايَةٍ لَوْ شَاءَ، لَا يَنْقُصُ مِنْ قُدْرَتِهِ وقُوَّتِهِ وَمَتَانَتِهِ شَيْئاً جَلَّ جَلَالُهُ.

فِي هـٰذِهِ الْجُمْلَةِ قَصْرٌ حقيقي بتعريف طَرَفي الإسناد مع ضمير الفصل.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُنْذِراً للظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر في آخِرِ السُّورَة.

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبر سورة (فاطر ٤٣): «تَوْحِيدُ الرُّبوبية وتوحيد الإلَهِيّة في الدلالاتِ القرآنية» المجلد السابع. الصفحات من (٢٩١ ـ ٣٥٣) وانظر مَا جَاء في كتاب «ابتلاء الإرَادة بالإيمان والإسلام والعبادة» للمؤلف حول هذا الموضوع ففيه تفصيلات واسعات.

• ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

الذَّنُوبُ: الدَّلْوُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي يَسْتَخْرِجُ بِهَا السُّقَاةُ الْمَاءَ مِنَ الْبِئْرِ.

فِي الآيَةِ (٥٩) إِنْذَارٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفرِ فِي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيل، الَّذِينَ بَلَغُوا دَرَكَةً مَيْؤُوساً مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ مَعَهَا لِدَعْوَةِ الْحَقّ، بِعَذَابٍ مُعَجَّلٍ فِي الدُّنْيَا يَذُوقُونَ آلامَهُ وَيَكُونُونَ بِهِ هَالِكِينَ، وَصَفَهُمُ اللهُ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُون.

وَلَمَّا كَانَ هٰذَا الْعَذَابُ الْمُهْلِكُ، مِنْ أَمْثَالِ الْعَذَابِ المألُوفِ فِي الحياة الدُّنْيَا، الَّذِي يَتْبَعُهُ الْمَوْتُ وَلَا يَطُولُ أَمَدُهُ، أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَنَّهُ يُشْبِهُ صَبَّ ذَنُوبٍ مِنْ مَاءٍ حَمِيمٍ يَغْلِي غَلَيَاناً شَدِيداً عَلَىٰ المعذَّبِ، فَيَذُوقُ آلامَهُ الشَّدِيدَةَ لِمُدَّةٍ لَيسَتْ طَوِيلَةً، وَيَعْقُبُهُ مَوْتُهُ، وَعِنْدَئِذٍ يَدْخُلُ عَتَبَةَ الْآخِرَةِ وَيَكُونُ لَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ مِثْلُ مَا لِسَائِرِ الْكَافِرِين.

اسْتُعِير لَفْظُ «الذَّنُوبِ» لِلْإِشَارَةِ إِلَىٰ المِقْدَارِ الَّذِي يَكُونُ عَلَيْهِ الْعَذَاب، والَّذِي يَتْبَعَهُ الْهَلَاكُ، وَنَفْهَمُ مِمَّا جَاءَ في سُورَةِ (الدُّخان/ ٦٤ نزول) بِشَأْنِ الْمُعَذَّبِ في جهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ، وهُو قول الله تعالى:

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾:

أَنَّ مُحْتَوىٰ الذَّنُوب يَشْبِهُ مَاءً شَدِيدَ الحرارَةِ يَغْلِي، فَهُو عَذَابٌ يُشْبِهُ الذَّنُوبَ فِي مِقْدَارِهِ، وَيُشبِهُ فِي نَوْعِهِ الْعَذَابَ بالْمَاءِ الشَّدِيدِ الْحَارِّ، الَّذِي يَغْلِي إِذَا صُبَّ فَوْقَ رَأْسِ المعَذَّبِ الَّذِي يَذُوقُ آلاماً شَدِيدَةً، وَيَكُونُ بِهِ مَوْتُه.

المعنى: فإنَّ لَكُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِقْدَاراً مِنَ العذاب فِي الدُّنيا، مُمَاثِلاً لِمَقَادِيرِ الْعَذَابِ الَّتِي عُذِّبَ بِهَا أَصْحَابُكُمْ الْمُمَاثِلُونَ لَكُمْ فِي الظُّلْمِ

مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، فَانْتَظِرُوا هٰذَا العَذَابَ الآتِي لَا مَحَالَة، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا رَبَّكُمْ فِي ظَوَاهِرِ عِبَارَاتِكُمْ، مُسْتَهِينِينَ بِبَلَاغَاتِ رَسُوله.

وقد جَاءَ الْبَيَانُ الْقُرْآنِي يَتَحَدَّثُ عَنِ الظَّالِمِينَ المعاصِرِينَ للتَّنْزِيل، بِحَدِيثٍ عَنْهُمْ وَهُمْ غَائِبُونَ لِغَرَضِ إِدْخَالِ أَمْثَالِهِمْ مَعَهُمْ، وإعْرَاضاً عَنْهُمْ لِأَنَّهُمْ مُدْبِرُون وَمُبْتَعِدُونَ، غَيْرُ مُبَالِينَ بِمَا وُجِّهَ لَهُمْ مِن إِنْذَارَاتٍ.

وفي الآية (٦٠) آخِر السُّورَة، إِنْذَارٌ مِنْ اللهِ لِأَئِمَةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، ضِمْنَ عُمُوم الَّذِينَ يَمُوتُونَ كَافِرِين بِعَذَابٍ شَدِيد يَوْمَ الدِّينِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يُوعَدُونَهُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ آنًا فآناً، وَيُوصَفُ لَهُمْ فِيهَا شِدَّتُهُ وأَهْوَالُهُ، وَأَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِيهِ خَالِدِينَ فِي دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ.

• ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

أي: فَعَذَابٌ شَدِيدٌ لِلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَافِرُونَ أَخْذاً مِنْ دَلَالَاتِ نُصُوصٍ أُخْرَىٰ.

• ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾: أي: مِنْ يَوْم عَذَابِهِمُ الشَّدِيد الذي يَكُونُون خَالِدِينَ فِيهِ، وَهُوَ يَوْمُ الدّين ـ يَوْمُ القيامة ـ يَوْمُ الجزاء الأَكْبر.

• ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾: أي: الّذِي يُوعَدُونَهُ آناً فآناً فِي نُجُومِ التَّنْزِيل، وَتَتَبُّعُ مَا سَبَقَ إِنْزَالُهُ مِنْ سُوَرٍ قَبْلَ سُورَةِ (الذَّارِيَات) يَكْشِفُ لِلْبَاحِثِ المتَدَبِّرِ أَنَّ مُعْظَمَ مَا سَبَقَ إِنْزَالُهُ قَبْلَ هٰذِهِ السُّورَةِ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ الْوَعِيدِ بِعَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّينَ لِلْكَافِرِينَ، كَمَا يَشْتَمِلُ عَلَىٰ الْوَعْدِ بالنَّعِيمِ الْخَالِدِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر سُورة (الذَّارِيَات) على ما فتح اللهُ به.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❋ ❋ ❋

(١٧)
ملحق: مُستَخرجات بلاغية من سُورَة (الذَّارِيَات)

في هَـٰذِهِ السُّورَةِ اختيارَاتٌ بَلَاغِيَّة نَفِيسَةٌ، اسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا ما يلي:

أوّلاً: مِنَ الاسْتِعَارَة

المثال الأول: في قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾:

اسْتُعِيرَ هُنَا فِعْلُ «قُتِلَ» للدَّلَالَة عَلَىٰ الطَّرْدِ الشَّدِيدِ المبالَغِ فِيهِ.

المثال الثاني: في قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾:

اسْتُعِيرَ هُنَا لفظ «ذَنُوبِ» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْعَذَابِ المشَابِهِ لِصَبِّ الماء الْحَمِيم الشّدِيدِ الحرارة الَّذِي يَغْلِي، مِنْ فَوْقِ رَأسِ الْمُعَذَّب.

الذَّنُوبُ: الدَّلْو، والْمُرَادُ مَا يَحْوِيهِ مِنْ مَاءٍ حَمِيم شدِيد الحرارة، إذْ يَكُونُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ التَّعْذِيب.

ثانياً: مِنَ الْقَصْر

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾.

في هَـٰذِهِ الآيَةِ قَصْرُ كُفّارِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، عَلَىٰ قَوْلِ كُلِّ أُمَّةٍ مِنْهُمْ عَنْ رَسُولِ رَبِّهِمْ: سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون، وهو مِنْ قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَة.

وهو قَصْرٌ إضَافِيٌّ، والأداة فِيهِ النَّفْيُ والاسْتِثْنَاءُ.

الْمِثَالُ الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾:

فِي هٰذَا النَّصِّ قَصْران:

الْأَوَّل: قَصْرُ مَطْلُوبِ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ الْجِنِ والإنْسِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيَا عَلَىٰ عِبَادَتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَزَّ سُلْطَانُهُ ـ وهو قَصْرٌ حَقِيقي.

والأدَاة فِيه النَّفْيُ والاسْتِثْنَاء، وهُو مِنْ قَصْر موصُوف على صِفَة.

الثَّاني: قَصْرُ صِفَاتِ الرَّزَّاق ذي الْقُوَّةِ الْمَتِين في الوجود كُلِّه على اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهو مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ على مَوْصوفٍ، والْأَدَاةُ فِيهِ تَعْرِيف طَرَفي الإسْنَادِ مَعَ ضَمِيرِ الْفَصْل، وهُو قَصْرٌ حَقِيقي.

ثَالِثاً: مِن الاقْتِطَاع

قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّين وَعَرْضِ مَشْهَدٍ يتعلَّقُ بهم:

• ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾:

الآية (١٤) مُقْتَطَعَةٌ مِنَ الْحَدَثِ المسْتَقْبِلِيّ وفْقَ المنْهَجِ القرآني المبتكر.

رَابِعاً: من خُروج الاستفهام عَنْ أصْلِ دَلَالَته

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤﴾؟:

أي: اسْتَمِعْ هٰذَا الحديث عَنهم.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الكُفَّارِ المعاصِرين للتَّنْزِيلِ، وكُفَّارِ الْقُرُونِ السَّالِفَة:

• ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾؟:

أي: مَا تَوَاصَوْا بأَنْ يَقُولَ كَفَرَةُ كُلِّ أُمَّةٍ عَنْ رَسُولِ رَبِّهِمْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونَ، بَلْ هُوَ ظَاهِرَةٌ مِنْ ظَواهِرِ تَشَابُهِ صِفَاتِهِمْ فِي الطُّغْيَان، إِذِ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ مُتَشَابِهَةٌ فِي التَّكْوِينِ.

خامساً: من التوكيد لِوُجُودِ دَاعٍ إِلَيْه

المثال الأول: قَول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾:

فِي هٰذَا النَّصِّ قَسَمَان بِبَعْضِ آيَات اللهِ العظِيمَاتِ فِي كَوْنِهِ تَوْكِيداً لحقيقَتَيْن كُبْرَيَيْن، وَمَعَ الْقَسَمَيْنِ التوكيد أيضاً بـ «إِنَّمَا» وبـ «إِنَّ» في مَوْضِعَيْن.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ إِهْلَاكِ «ثَمود».

• ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

فِي هَٰذِهِ الآية تَوْكِيدُ عُمُومِ النفي بِحَرْفِ الجرِّ الزَّائِدِ «مِنْ».

المثال الثالث: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

فِي هٰذَا النَّصّ التوكيد في مَوَاضع:

(١) في: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾: هَٰذِهِ الجملَةُ بِقُوَّة جُمْلَتَيْنِ لاشْتِغَالِ الفِعْلِ فِي ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ بِضَمِير السَّمَاء الَّذِي أَحْوَجَ لَفْظَ «السَّمَاء» إلى تَقْدِير

عَامل يُفَسِّرُهُ الفِعْلُ فِي: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾، وَهَـٰذَا مِنْ أَسَالِيب التوكيد القويَّة.

(٢) وَفِي ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ففي هَـٰذِهِ الجملة التوكيد بـ «إِنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللَّام المزحْلَقَة».

(٣) وفي: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ وهـٰذِهِ الجمْلَةُ بِقُوَّةِ جُمْلَتَيْنِ أَيْضاً كالجملَةِ الأولى.

المثال الرابع: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ تَوْكِيدُ عُمُومِ النفي بِحَرْفِ الجرّ الزّائِد «مِنْ» في مَوْضِعَين.

المثال الخامس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾:

فِي هـٰذِهِ الآيَةِ تَوْكِيدُ عُمُومِ النَّفي بحرف الجرِّ الزَّايد في ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾.

وأقتَصِر على هَـٰذِهِ المستخرجَاتِ الْبَلَاغِيَّة مِنْ سُورَةِ (الذَّارِيَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



سُورَة الغاشِية

٨٨ مصحف ٦٨ نزول

وهي كُلُّها مَكِّيَّةٌ باتّفاق

(١)

نصّ السورة وَمَا فيها مِنْ فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾
عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ
﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن
جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي
جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾
فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾
وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾
وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾
وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ
﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾

٤ ـ • قرأ أبو عمرو، وشعبة، ويعقوب: [تُصْلَىٰ] من فعل «صَلَاه» المتعدي.
وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَصْلَىٰ] من فِعْلِ «صَلِيتُ» فهي «تَصْلَىٰ».

١١ ـ • قرأ نَافع: [لَا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ].
وقرأها ابْنُ كثير، وَأبو عمْرو، ورُوَيْس: [لَا يُسْمَعُ فِيها لَاغِيَةٌ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا تَسمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً].

٢٢ ـ • قرأ حمزةُ، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم الهاء.
وقرأها الباقون: [عَلَيْهِمْ] بِكَسْر الهاء.

٢٢ ـ • قرأ هِشَامٌ: [بِمُسَيْطِرٍ] بالسّين.
وقرأها حمزة بِخُلْفٍ عَنْ خَلَّاد: الصَّادِ زاياً. =

فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

= وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِمُصَيْطِرٍ] وهو الوجْهُ الثاني لِخَلَّادٍ.

٢٥ - • قرأ أبو جعفر: [إِيَّابَهُمْ] بِتَشْدِيدِ الياء، وعلى رأي ابْنِ جني مصدَرٌ مِنْ فِعْل «أَيَّبَ» بِمَعْنَىٰ «رَجَعَ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِيَابَهُمْ] بِتَخْفِيفِ الياء، من فعل «آبَ يَؤُوبُ إِيَاباً» بِمَعْنَىٰ رَجَعَ.

فَمُؤَدَّى القراءتَيْنِ واحد.

(٢)
ممّا وَرَدَ بِشَأن سورة (الغاشية)

رَوَى مُسْلِمٌ وَغَيْرُه عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشيرٍ، أَنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَيَوْمَ الجُمُعَةِ «بِسَبِّح اسْمَ رَبِّكَ» و«هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَة» وَرُبَّمَا اجْتَمَعَا فِي يَوْمٍ واحِدٍ فَقَرأهما.

(٣)
مَوضوعُ سُورَة (الغَاشِية)

يَدُور مَوْضُوعُ هـٰذِهِ السورة حَوْلَ تقديم مَشْهَدَيْنِ مِنْ مَشَاهِدِ القيامة، مَشْهِدٍ مِنْ مَشَاهِدِ أَهْلِ النَّارِ، وَمَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ أَهْلِ الجَنَّة.

وبَعْدَهُمَا حَثٌّ عَلَىٰ النَّظَر التَّفَكُّرِيِّ بِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ عَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ الْبَعْثِ وَأَحْدَاثِ يَوْم الدِّينِ، وَهِيَ لِمَنْ تَفَكَّرَ فِيهَا تفكُّراً سَلِيماً، مَاسِحَةٌ أَوْهَامَ تَشَكُّلِهِ فِي قُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَة، وإِجْرَاءِ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ عَلَىٰ وَفْقِ مُرَادِهِ، وَمَا جَاءَ فِي وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، بِآيَاتِ كِتَابِهِ المجيد.

وأخيراً يُحَدِّدُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وظيفَتَهُ فِي رِسَالَتِهِ، وَهِيَ أَنَّهُ مُبَلِّغٌ مُذَكِّرٌ بما أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُبَلِّغَهُ مُبَشِّراً وَمُنْذِراً، وبما أَمَرَهُ أَنْ يُذَكِّرَ به، وَأَنَّهُ لَيْسَ مُسَيْطِراً عَلَىٰ النَّاسِ وَلَا مُجْبِراً لَهُمْ على الإيمان والإسلام، وَأَنَّ مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَر مَتْرُوكٌ أَمْرُهُ إِلَىٰ اللهِ، فَهُوَ الَّذِي يُعَذِّبُهُ بِعَدْلِهِ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ يَوْمَ الدِّينِ، إِذْ سَوْفَ يُعِيدُهُ إِلَىٰ الحياةِ يَوْمَ الْقِيَامةِ، لِيُحَاسِبَهُ، ويَفْصِلَ قَضَاءَهُ بِشَأْنِهِ، وَيُنَفِّذَ فِيهِ جَزَاءَه، كما يُنَفِّذُ جزاءَهُ فِي كُلِّ عباده.

(٤)
دروس سورة (الغاشية)

تشْتَمِل هَـٰذِهِ السُّورَة فيما ظَهَرَ لِي عَلَىٰ ثلاثَةِ دُروس:

الدَّرْس الأول: الآيَات من (١ ـ ١٦).

وَفِيهِ عَرْضُ مَشْهَدَيْنِ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامَةِ، مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ أهل النَّار، وَمَشهَدٍ آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِ أهل الجَنَّة.

الدَّرس الثاني: الآيَات من (١٧ ـ ٢٠).

وَفِيهِ حَثٌّ عَلَىٰ النَّظَرِ التَّفَكُّرِي بِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، الدَّالَّة عَلَىٰ قُدْرَةِ الله عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ الْبَعْثِ وَأَحْدَاثِ يَوْم الدِّين، بما فيها من وَعْدٍ وَوَعيد.

الدَّرسُ الثالِث: الآيات من (٢١ ـ ٢٦) آخر السورة.

وَفِيه بيانٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ يُحَدِّدُ لَهُ فِيهِ وَظيفَتَهُ فِي رسالته، وهي التَّبْلِيغُ والتَّذْكِير، وَأَنَّهُ لَيْسَ مُجْبِراً وَلَا مُسَيْطِراً.

أَمَّا الجزاء الْأَكْبَرُ فَيَتَوَلَّاهُ اللهُ يَوْمَ الدِّين.

❁ ❁ ❁

(٥)
التدبُّر التحليلي للدّرس الأوّل من دُروس سورة (الغاشية) الآيات من (١ ـ ١٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾.

القراءات:

(٤) • قرأ أبو عمرو، وشعبة، ويعقوب: **[تُصْلَىٰ]** بالبناء لِمَا لم يُسَمَّ فاعله، من فعل «صَلاه» المتعدي.

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَصْلَىٰ]** من فِعْلِ «صَلِيَ» اللّازم. أي: هو يَحْتَرِق ضِمْنَ نارٍ.

(١١) • قرأ نَافع: **[لَا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ]**.

وقرأها ابْنُ كثير، وَأبو عمْرو، ورُوَيْس: **[لَا يُسْمَعُ فِيها لَاغِيَةٌ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَا تَسمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً]**.

وهي من التفنُّنِ في الأداء البياني.

تَمْهيد:

فِي هـٰذَا الدَّرس عَرْضُ مَشْهَدَيْنِ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامة:

المشْهَدُ الأَوّل: هُوَ من مشَاهِدِ أَهْلِ النَّار، مِنَ الآية (١ ـ ٧).

المشْهَدُ الثاني: هُوَ مِنْ مَشَاهِدِ أَهْلِ الجنة، من الآية (٨ ـ ١٦).

التدبُّر التحليليّ:

• ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١﴾؟.

الاسْتِفْهَامُ بِـ «هَلْ» هُنَا فِيهِ مَعْنَىٰ الدَّعْوَةِ إِلَى اسْتِماعِ الحدِيثِ المرادِ بَيَانُهُ عَنِ الْغَاشِيَةِ، وفيه مَعْنَىٰ التَّشْويقِ إلى هـٰذَا الحديث.

الغاشِية: في اللّغَةِ الغِطَاءُ، ويقال لغة: «غَشِيَ الشَّيْءُ شَيْئاً» أي: غَطّاهُ، وجَلّلَهُ، فَحَجَبَهُ.

وأُطْلِقَ لَفْظُ «الْغَاشِيَةِ» صِفَةً لمؤنّثَةٍ ذَاتِ صِفاتٍ، مَحْذُوفَة، والْمُرَادُ بِهَا أَحْدَاثُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَوَقَائِعها، لِأَنَّهَا تَغْشَىٰ الْخَلَائِقَ وَتَعَمُّهُمْ، فصار لفظ «الْغَاشِيَةِ» اسْماً مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ القيامة.

فالمعنى: اسْتَمِعْ بعنايَةٍ أَيُّهَا المَتَلَقِّي أيّا كُنْتَ هـٰذَا الحديث عن الغاشِيَةِ.

إِنَّ النَّاسَ فِي الْغَاشِيَةِ فَرِيقَانِ: فَرِيقٌ مَجزِيٌّ بالْعَذَابِ على مَا قَدَّمَ فِي رِحلَةِ ابْتِلَائِهِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وفَرِيقٌ مَجْزِيٌّ بالنَّعِيمِ ثَوَاباً عَلَىٰ مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدُّنيا.

ـ فَإِلَيْكَ يَا أَيُّهَا المتَلَقِّي لَقْطَةً مِنْ مَشَاهِدِ الْفَرِيقِ الّذِينَ يُجازَونَ بِالْعَذَابِ:

• ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧﴾:

• ﴿خَٰشِعَةٌ﴾: أي: خاضِعَةٌ، خائِفَةٌ، سَاكِنَةٌ، مُنْكَسِرَة الأبْصارِ تَنْظُرُ إِلَىٰ الأَرْضِ مِنَ الذِّلّةِ والضَّعَة.

• ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾: أي: تُكَلَّفُ أَنْ تَعْمَلَ أَعْمَالاً شَدِيدَةً مُتْعِبَةً تُوصِلُها إلى حَدِّ التَّعَبِ الشَّدِيدِ والإعْيَاء. **النَّصَبُ**: التَّعَبُ الشّدِيدُ إلى حَدِّ الإعياء.

• ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾: أي: تَذُوقُ عَذاب الاحْتِرَاقِ بِنَارٍ حَامِيَةٍ شَدِيدَةِ الْحَرَارَة، فالنَّار ذَاتُ دَرَجَاتٍ مِن الْحَرَارَةِ بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، والنَّارُ الحامِيَةُ هِيَ نَارٌ ذَاتُ دَرَجَةٍ شَدِيدَةٍ مِنَ الحرارة.

وَقِرَاءَةُ [**تُصْلَىٰ**]: تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا تُدْخَلُ دَاخِلَ نَارٍ لِتُعَذَّبَ بِمَسِّ لَهَبِهَا، وَبِشِدَّةِ حَرِّها.

• ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾: أي: تُسْقَىٰ سَائِلاً مِنْ عَيْنٍ شَدِيدَةِ الْحَرَارَة، فَهٰذَا شَرَابُهَا الْمُهَيَّأُ لَهَا. يُقَالُ لغة: «أَنَىٰ الماءُ وَنَحْوُه، يَأْنِي، أَنْياً، وإِنًى، وَأَنَاةً» فَهُوَ «آنٍ» وهِيَ «آنِيَةٌ» أي: بَلَغَ غَايَةَ الحرارَةِ.

• ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾.

الضَّرِيع: هُوَ نباتُ الشِّبْرِقِ إِذَا كانَ أَخْضَرَ، وهو ذُو شَوْكٍ تَرْعَاهُ الْجِمَالُ وهو يَمْتَدُّ على الأَرْض، وَيُوجَدُ في الحجاز، فإذا يَبِسَ فَهُوَ الضَّرِيع، ويكونُ حينئذٍ سَامّاً.

أُطْلِقَ لَفْظُ «وُجُوه» والْمُرَادُ أصْحَابُها، وهٰذَا مِن إطْلَاقِ الْبَعْضِ وإِرَادَةِ الْكُلّ، ومعلُومٌ أَنَّ الْوُجُوهَ أفْضَلُ مُمَيِّزٍ يُمَيِّزُ الْفُرُوقَ بَيْنَ الأَفراد.

الْمَعْنىٰ:

خُذْ أَيُّها المتلقِّي الدَّرَّاكُ هَـٰذِهِ اللَّقْطَةَ مِنْ مَشَاهِدِ الْفَرِيقِ الَّذِينَ يُجَازَوْنَ بِالْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

إِنَّكَ تَرَىٰ وُجُوهَهُمْ تَتْبَعُهَا أَجْسَادُهُمْ خَاضِعِينَ، خائِفِينَ سَاكِنِينَ، مُنْكَسِرِي الأَبْصَارِ، يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الأَرْضِ مِنَ الذِّلَّةِ والضَّعَةِ، يَكِدُّونَ بأعْمَالٍ

شَاقَّةٍ يَتْعَبُونَ بِهَا تَعَباً شَدِيداً إلى حَدِّ الإعْيَاءِ، ويُعَذَّبُونَ دَاخِلَ نَارٍ حَامِيَةٍ شَدِيدَةِ الحرارةِ تَمَسُّ جُلُودَهُمْ بِلَهَبِهَا، فإذا اشْتَدَّ ظَمَؤُهُمْ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا مَاءً أَوْ سَائلاً آخَرَ يَخْرُجُ مِنْ عَيْنٍ، وهُوَ شَدِيدُ الحرارة قَدْ بَلَغَ مِنَ الحرارَةِ غَايَتَها، وإِذَا اشْتَدَّ جُوعُهُمْ لَمْ يَجِدُوا طَعَاماً يَأْكُلُونَ مِنْهُ، إِلَّا نَبَاتاً مِنْ صِنْفِ نَبَاتِ الضَّرِيع، وهٰذَا الطَّعَامُ لا غِذَاءَ فِيهِ يُسْمِنُ الأَجْسَاد، وَلَا يَصْرِفُ جُوعاً.

ـ وإِلَيْكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لقْطَةً مِنْ مشَاهِدِ الْفَرِيقِ الَّذِينَ يُجَازَوْنَ بالنَّعِيم، ثَواباً عَلَىٰ مَا قَدَّموا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنْيَا مِنْ صالحات:

• ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾:

• ﴿وُجُوهٌ﴾: أطْلِقَ لفظ «وُجوه» والمرادُ أصْحَابُها، وهٰذَا مِن إطْلَاقِ الْبَعْضِ وإرادَةِ الكُلِّ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ فَرِيق المعذَّبينَ يَوْم الدِّين.

• ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: أي: يَوْمَ أَحْدَاثِ الْغَاشِيَة الَّتِي هِي القِيَامَةُ.

• ﴿نَّاعِمَةٌ﴾: أي: نَضِرَةٌ، طَيِّبَةٌ، مُرَفَّهَةٌ، هادِئَةٌ، مُسْتَرِيحةٌ، مَسْرُورَةٌ، فَرِحَةٌ، لَيِّنَةُ الْمَلْمَسِ، بما تَنَالُ مِنْ نَعِيم في جَنَّاتِ النَّعِيم. يُقَالُ لُغَةً للدَّلَالَةِ على هٰذِهِ المعاني: «نَعِمَ، يَنْعَمُ، نَعَماً، وَنَعْمَةً، وَنَعِيماً» فهو ناعم، وهي نَاعِمَة.

• ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾: أي: لِأَجْلِ سَعْيِهَا بِرِحْلَةِ حياةِ الابْتِلَاءِ في الدُّنْيَا بِمَا يُرْضِي الله عَنْها، رَاضِيَةٌ بِثَوَابِ اللهِ الْعَظِيم يَوْمَ الدِّينِ، الَّذي يَفِيضُ عَلَيْهَا بالنَّعِيم مِنْ كُلِّ مَكَانٍ تُحِسُّ فِيهِ بِلَذَّاتِهِ.

• ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾: أي: مُقِيمينَ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةِ الْمَكَانِ عالِيَةِ المنْزِلَةِ بِصِفَاتِهَا النَّفِيسَةِ الرَّفِيعَةِ الْمُمْتَازَة، الْجَامِعَةِ لِكُلِّ وَسَائِلِ النَّعِيمِ المقِيمِ الخالد.

• ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾: أَيْ: إذا كُنْتَ أَيُّهَا المتَلَقِّي مِنْ أَهْلِها.

• ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾و **[لا يسمع فيها لاغية]** بِحَسَب القراءتَيْنِ الْأُخرَيَيْنِ، رُوعِيَ في «لَا تَسْمَعُ» أنْ لفْظَ «لَاغية» مؤنَثٌ، وَرُوعِيَ في «لَا يُسْمَعُ» أَنَّ لفظ «لَاغِيَةٌ» مَجَازِيُّ التَّأنيث يجوز فيه التذكير والتأنيث.

• ﴿لَٰغِيَةً﴾: أي: كائِنَةٌ لَاغِيَةٌ مِنْ ذَواتِ الصَّوت، اسم فاعل من اللَّغْو، وهُوَ مَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ مِنْ كَلَام وَغَيْرِهِ إِذْ لَا فَائِدَة مِنْهُ، وَلَا يَدْخُلُ فِي اللَّغْوِ مَا تَتَلَذَّذُ بِهِ النُّفُوسُ مِنْ أَصْوَاتٍ، كَأصْوَاتِ مُغَرِّدَاتِ الطُّيُورِ، وَأَصْوَاتِ الْغِنَاءِ الْجَمِيلِ الَّذِي تَطْرَبُ لَهُ النُّفوسُ وتَلَذُّه. إِذْ فِي الجنَّةِ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ على قَلْبِ بَشر، وفيها مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُس وتَلَذُّ الْأَعْيُنُ والْأَصْوَاتُ الْحَسَنَةُ الْجَمِيلَةُ مِمَّا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَنَعَّمُ بِهِ.

• ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾: يُرَادُ بِلَفْظِ «عَيْنٍ» جِنْسُ الْعُيُونِ الَّتِي تَتَدَفَّق نَابِعَةً مِنْ مَنَابِعَ في الجنَّةِ، عَلَىٰ كَثْرَةِ أَعْدَادِهَا، وَتَنَوُّعِ صِفَاتِهَا وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا من أَشْرِبَةٍ لِأَهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وأفرِدَتْ لاشتراكِ أَهْلِ الجنَّةِ بها.

• ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾: **سُرُرٌ**: جَمْعُ «سَرِيرٍ» وهُوَ الْمُضْجَعُ ذُو الْقَوائم الْأَرْبَعَةِ الَّتِي تَرْفَعُهُ عَنِ الْأَرْضِ، ونحوه، وَيُبْسَطُ عَلَيْهِ الْفِرَاشُ اللَّيِّنُ على مِقْدَار المسَطَّحِ مِنْه.

وجُمِعَتِ السُّرُرُ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَكُونَ أفرادُهَا مَخْصُوصَاتٍ لِأَصْحَابِها، فَهِي مُوزَّعَةٌ بَيْنَهُمْ.

وَوُصِفَتْ بِأَنَّهَا مَرْفُوعَةٌ، لِلإِشَارَةِ إِلَىٰ أَنَّ ارْتِفَاعَهَا زَائِدٌ عَلَىٰ مَا يُعْلَمُ مِنَ الْأَسِرَّةِ الَّتِي يَتَّخِذُهَا الْمُلُوكُ، وَأَهْلُ الثراء والرَّفَاهِيَةِ فِي الدُّنيا، وللدَّلَالَةِ علىٰ نَفَاسَتِهَا وارْتِفَاع قِيَم ذَواتِها.

• ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾: **أَكْوَابٌ**: جَمْعُ «كُوب» وهُو قَدَحٌ مِنْ

زُجَاجٍ ونَحْوِهِ، مُسْتَدِيرُ الرَّأْسِ، لَا أُذُنَ لَهُ وَلَا عُرْوَة، وَهُوَ مِنْ آنِيَةِ الشَّرَاب.

وَجَاءَ لفظ «أَكْوَاب» مَجْمُوعاً، لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ كَثْرَتِها، وَتَنَوُّعِ أَشْكَالِهَا وَتَنَوُّعِ مُحْتَوَيَاتِها.

وَوُصِفَتْ بِأَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ، للدَّلَالَةِ على أَنَّهَا مُهَيَّأَةٌ ومُعَدَّةٌ دواماً، بِحَسَبِ رَغَبَاتِ المنَعَّمِينَ بِهَا، وَأَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ بالْقُرْبِ مِنْ تَنَاوُلِهِمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَوَاضِعُهَا مِنْ أَنْفَسِ مَا تُوضَعُ عَلَيْهِ الْأَكْوَاب.

• ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾: **نَمَارِقُ**: جَمْعُ «نُمْرُق» وهي وِسادَةٌ صَغِيرَةٌ يُتَّكَأُ عَلَيْهَا. وَوُصِفَتْ بِأَنَّهَا مَصْفُوفَةٌ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ كَثْرَتِها وإِمْكَانِ التَّنَاوُلِ مِنْهَا بِحَسَبِ حَاجَةِ أهل جَنَّاتِ النعيم إِلَىٰ الاتكاءِ عليها.

• ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾: **زَرَابِيُّ**: جَمْعُ «زَرْبِيَّة» وهي الْبِسَاط، والطنْفِسَة مثلّثة الطاء، الّتِي تُنْسجُ مِنْ الصُّوف النَّاعِمِ الملوَّن، وتُفْرَشُ على الأرضِ للزينَة، والْجُلوسِ عليها. ومِنْهَا مَا يُعْرَفُ فِي أَيَّامِنا بالسَّجَّاد.

مَبْثُوثَة: أي: مُوزَعَةٌ مُفَرَّقَةٌ تَوْزِيعاً جَمَالِيًّا، على اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا وَأَنْوَاعِهَا وأَصْنَافِهَا ورُسُومِهَا وأشْكَالِ جَمَالِهَا.

جَاءَ في هَـٰذِهِ الآيَاتِ من (٨ ـ ١٦) تَقْدِيمُ لَوْحَةٍ تَصْوِيرِيَّةٍ، لِلَقْطَةٍ فَنِّيَّةٍ مِنَ اللَّقَطَاتِ الْمُخْتَارَاتِ لِلْعَرْضِ الْقُرْآنِيّ الْبَيَانِيّ، الَّذِي يَشْتَمِلُ المعروض فِيهِ، عَلَىٰ مَشهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ المنَعَّمِينَ في الْجَنَّةِ، وَبَعْضِ الْوَسَائِلِ النَّفِيسَةِ الَّتِي يَكُونُونَ فِيهَا وَبِهَا مُنَعَّمِينَ، تَرْغِيباً فِي الإِيمانِ والْعَمَلِ الصالحِ المؤهِّلَيْنِ لِهَـٰذَا الْفَوْزِ الْعَظِيم.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الْأَوَّلُ من دُرُوس سورة (الغاشية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٦)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الغَاشية) الآيات من (١٧ ـ ٢٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

تَمْهيد:

فِي هٰذَا الدَّرْسِ حَثٌّ عَلَىٰ النَّظَرِ التَّفَكُّرِيِّ بِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، الدَّالَّاتِ على قُدْرَةِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ، وَعَلَىٰ إِبْدَاعِهِ وَإِتْقَانِ صُنْعِهِ، وَمِنْهَا قُدْرَتُهُ على الْبَعْثِ وَأَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ، بِمَا فيها مِنْ وَعْدٍ بالنَّعِيمِ الْعَظِيمِ، وَوَعِيدٍ بالْعَذَابِ الأَلِيمِ.

التدبّر التحليلي:

الاسْتِفْهَامُ في صَدْرِ هٰذَا الدَّرْسِ بِعِبَارَة ﴿أَفَلَا﴾ يُدْرِكُ المتدبّرُ فِيهِ أَنَّ «الْفَاءَ» تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ مِنَ السَّهْلِ اسْتِخْرَاجه، والتَّقْدِير: أَنْطَمَسَتْ أَبْصَارُ وَبَصَائِرُ مُنْكِرِي تَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَمُنْكِرِي الْبَعْثِ وَيَوْم الدِّينِ وَمَا فِيهِ مِنْ جَزَاءٍ بالثَّوَابِ وَبِالْعِقَاب، فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ بَعْضِ آثَارِ خَلْقِ اللهِ في كَوْنِهِ، وَمِنْهَا خَلْقُ الإِبِلِ، وَرَفْعُ السَّمَاءِ، وَنَصْبُ الْجِبَالِ، وَسَطْحُ الأَرْضِ؟؟.

- ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾:

الْإِبلُ: هِيَ الْجِمَالُ، وَتُسَمَّىٰ النُّوقُ، وَلفظ: «الْإِبل» اسْمُ جِنْسٍ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، وهُو مُؤَنَّث، فيقالُ: «هِي الإِبل» ويُجْمَعُ لفظ «الْإِبِلِ» عَلَىٰ «آبَال» ويُقَالُ لِلْقَطِيعَيْنِ مِنَ الإِبِلِ: «إِبِلَان».

ويُوصَفُ الْجَمَلُ بأَنَّهُ سَفِينَةُ الصَّحْرَاء.

وَيَذْكُرُ عُلَمَاءُ الْأَحْيَاءِ لِلْجَمَلِ صِفَاتٍ وَخَصَائِصَ إتْقَانِيَّةٍ مُدْهِشَة، مِنْهَا مَا يلي:

(١) يُسْتَخْدَمُ الْجَمَلُ فِي قَضَاءِ كَثِيرٍ مِنْ حَاجَاتِ النَّاسِ الْيَوْمِيَّة، ومِنْهَا جَرُّ الْمَحَارِيثِ لإعْدَادِ الْأَرْضِ الزِّرَاعِيَّة وَتَهْيِئَتِهَا للزِّرَاعَة، ونَضْحُ الْمَاءِ مِنَ الْآبَارِ بالسَّوَانِي وَغَيْرِها، وَمِنْهَا حَمْلُ وَنَقْلُ مَا يَحْتَاجُ إلى حَمْلٍ وَنَقْل.

(٢) والجِمالُ مَصْدَرٌ ذُو قِيمَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ مَصَادِرِ الغذاء لسُكَّانِ الصَّحَاري، فَيأكُلون مِنْ لُحُومِهَا وَشُحُومِهَا، وَيَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِها، وَكَذلِكَ لِسُكَّانِ الْمُدُنِ والْقُرَىٰ.

(٣) وفي أَوْبَارِ الْجِمَالِ وَجُلُودِهَا وعِظَامِهَا مَنَافِعُ كثيرةٌ للنَّاس.

(٤) تَفْقِدُ كُلُّ الْجِمَال وَبَرَها فِي فَصْلِ الرَّبِيع، وتَكْتَسِي وَبَراً جَدِيداً فِي فَصْلِ الخريفِ بَعْدَ ذَلِكَ.

(٥) لِلْجَمَلِ عَيْنَانِ وَاسِعَتَانِ عَلَىٰ جَانِبَيْ رَأْسِهِ، ولِكُلِّ عَيْنٍ رُمُوشٌ مُقَوَّسَةٌ تَقِي الْعَيْنَيْنِ مِنَ الرِّمَالِ إذَا هَبَّتِ الرِّياح. وَلَهُ جُفُونٌ كَثِيفَةُ الشَّعْرِ تَقِي عَيْنَيْهِ مِنْ شَمْسِ الصَّحْرَاءِ، وَلَا تَسْمَحُ بِدُخُولِ ضَوْءٍ زَائِدٍ يُؤْذِيهِمَا.

(٦) وَيَتَكَوَّنُ سَنَامُ الْجَمَلِ في مُعْظَمِهِ مِنَ الشَّحْم، وهُوَ الْمَخْزَنُ الْأَعْظَمُ الَّذِي تَتَزَوَّدُ مِنْهُ غِذَاءَهَا عِنْدَ فَقْدِ الطَّعَامِ الَّذِي تَحْتَاجُ إلَيْهِ في الصَّحْرَاءِ.

(٧) لِلْجَمَلِ قُدْرَةٌ عَلَىٰ الْعَيْشِ بِدُونِ مَاءٍ لِأَيَّام كثيرةٍ قَدْ تَصِلُ إلى شُهُورٍ، إذْ يَكْتَفِي بالْمَاءِ الَّذِي يَمتصُّهُ مِنْ طَعَامِهِ الرَّطْب، وهُوَ يَحْتَفِظُ بِمُعْظَمِ مَقَادِيرِ الماءِ في جِسْمِهِ.

إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ أجْسَامِ الْجِمَالِ، المهيَّأَةِ والْمُعَدَّةِ إعْدَاداً تَامَّ الْإِتْقَانِ والإِحْكَامِ لِوَظِيفَتِهَا النَّفْعِيَّةِ للنَّاسِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

• ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨﴾:

إنَّ النَّاسَ فِي الْأَرْضِ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ ثَقِيلٍ مِنَ الْأَجْرَامِ مُرْتَفِعٍ في الْجَوِّ، لَا بُدَّ لَهُ مِنْ جُدْرَانٍ أَوْ أَعْمِدَةٍ يُحْمَلُ عَلَيْهَا، عَلَىٰ مَا يُشَاهِدُونَ بِرُؤْيَتِهِمُ السَّاذَجَةِ أَنَّ الْأَرْضَ ثَابِتَةٌ وَأَنْ الْأَجْرَامَ الْعُلْوِيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَحْمُولَةً عَلَيْهَا، وَلَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ في بَالِهِمْ أَنَّ طَاقَةً عُظْمَىٰ هِيَ طَاقَةُ الجاذبيَّة، هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ أَجْرَامَ السَّمَاءِ مُحَافِظَةً عَلَىٰ مَوَاقِعِها.

فَجَاءَتْ هٰذِهِ الْآيَةُ حَاثَّةً عَلَىٰ التَّفَكُّرِ بِنَظَرٍ عَقْلِيٍّ، لاكْتِشَافِ عَظَمَةِ الرَّبِّ الْخَالِقِ فِي جَعْلِ أَجْرَامِ السَّمَاءِ الْعُظْمَىٰ مُرْتَفِعةٍ فِي أبْعَادِ الْفَضَاءِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهَا أَعْمِدَةٌ تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا وَتُثَبِّتُهَا فِي مَوَاقِعِهَا مِنَ السَّمَاءِ، حَتَّىٰ جَاءَتِ الْبُحُوثُ الْعِلْمِيَّةُ الإنْسَانِيَّةُ، فاكْتَشَفَ النَّاسُ طَاقَةَ الْجَاذِبِيَّةِ الْمَجْهُولَةِ الْهَوِيَّة، فَدَلَّ هٰذَا الاكْتِشَافُ عَلَىٰ عَظَمَةِ قُدْرَةِ اللهِ فِي الْخَلْقِ، وَعَظِيمِ إتْقَانِهِ لِمَا خَلَقَ.

• ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩﴾:

نُصِبَتْ: أَيْ: أُعْلِيَتْ عَنْ سَطْحِ الْيَابِسِ من الأَرْض. يُقَالُ لُغَةً: «نَصَبَ الشَّيْءَ» أَيْ: أَقَامَهُ وَرَفَعَهُ، وَمِنْهُ «نَصَبَ الْعَلَمَ، ونَصَبَ الْبَابَ» أَيْ: رَفَعَهُمَا.

والتَّوْجِيهُ لِظَاهِرَةِ الْجِبَالِ، وَكَيْفَ رُفِعَتْ عَنْ سَطْحِ الْيَابِسَةِ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا مِنَ الظَّاهِرَاتِ الْكَوْنِيَّةِ فِي الْأَرْضِ، الْقَائِمَةِ عَلَىٰ حَرَكَاتٍ عَجِيبَاتٍ، ذَوَاتِ إتْقَانٍ فِي الْخَلْقِ، وَتَدْبِيرٍ مُدْهِشٍ، أَدَّىٰ إلى ظُهُورِهَا عَلَىٰ سُطُوحِ الْيَابِسَةِ، وَتَحْقِيقِ مَنَافِعَ جَلِيلَةٍ وَمُتَنَوِّعَةٍ لِسُكَّانِ الْأَرْضِ عَلَيْهَا.

وَلِعُلَمَاءِ الْبُحُوثِ الْعِلْمِيَّةِ في الْأَرْضِ، دِرَاسَاتٌ كَشَفَتْ لَهُمْ بَعْضَ عَجَائِبِ الإتْقَانِ الرَّبَّانِي، الَّذِي نَتَجَ عَنْهُ ارْتِفَاعُ الْجِبَالِ، وَكَشَفَتْ لَهُمُ المنافِعَ الْفَطْمِيَّةَ لِوُجُودِ الْجِبَالِ فِي الْأَرْضِ.

وألْتَقِطُ مِمَّا ذَكَرَهُ عُلَمَاءُ الأَرْضِيَّاتِ مِنْ مَنَافِعِ الجبالِ، مَا يَلِي:

(١) سَلَاسِلُ الجبالِ هِي المتحكِّمَةُ فِي مُنَاخ وَتَدَفُقِ مِيَاهِ المناطِقِ الْمُجَاوِرَةِ لها.

(٢) وهِيَ ذِوَاتُ أَسْبَابِ نَافِعَةٍ لِمَا يَعِيشُ عَلَيْهَا مِنْ نَبَاتَاتٍ وَحَيَوَانَات.

(٣) والْجِبَالُ مَصْدَرٌ عَظِيمٌ لِلْمَعَادِنِ وَلِكَثِيرِ مِنْ كُنُوزِ الأَرْض.

(٤) ولِلْجِبَالِ تَأْثِيرٌ عَلَىٰ نَشَاطَاتِ الإنْسَانِ وَأَسْلُوبِ مَعِيشَتِهِ، فِي تَنَقُّلِهِ، وَمُوَاصَلَاتِهِ، وَأماكِنِ إقَامَتِهِ والتَّرويح عَنْ نَفْسِهِ.

(٥) والجبالُ تَحْمِي الْيَابِسَةَ مِنَ الانقِلَابِ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَنْتُجَ مِنَ هِيَاجِ الأَمْوَاجِ فِي الْمِيَاهِ الَّتِي تَتَجَاوَزُ مَسَاحَتُهَا سَبْعِينَ في المِئَةِ مِنْ عُمُوم مَسَاحَةِ الأَرْض، وَضِدَّ أَيِّ تَقَلُّبَاتٍ كَوْنِيَّةٍ أُخْرَىٰ، ومِنْهَا الْبَرَاكِين.

(٦) وللجبالِ تأثِيرٌ قَوِيٌّ فِي حَرَكَاتِ الْهَواء، وتَسَاقُطِ الأَمْطَارِ والثُّلُوجِ وَنَحْوِهَا.

(٧) وَللجبالِ تَأْثِيرٌ فِي تَوْفِيرِ الْمِيَاه لِكَثِيرِ مِنَ الأَرَاضِي الْبَعِيدَة، وَهِيَ مَخَازِنُ لكثِيرِ مِنْ مِيَاهِ الأَرْضِ الْمَحْفُوظَةِ عَلَىٰ شَكْلِ ثُلُوجِ عَلَىٰ ظُهُورِ بَعْضِهَا، وأَحْوَاضٍ فِي بُطُونِ بَعْضِهَا.

إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَنَافِعَ كبيرة لِسُكَّانِ الأَرْضِ بِسَبَبِ كَوْنِ الْجِبَالِ مُنْتَصِبَةً بالشَّكْلِ الَّتِي هِيَ عَلَيْهِ في الأَرْض.

• ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾:

أي: كَيْفَ سَطَحَ اللهُ وَبَسَط وَسَوَّىٰ أَمَاكِنَ كَثِيرَةً مِنَ الأَرْضِ، لِمَنَافِعِ النَّاسِ وَسُكْنَاهُم وزِرَاعَاتِهِمْ وَكَثِيرِ مِنْ حَاجَاتِ حَيَواتهم.

يُقَالُ لُغَةً: «سَطَحَ فُلانٌ الشَّيْءَ، يَسْطَحُهُ، سَطْحاً» أي: بَسَطَهُ وَسَوَاه،

وَيَكْفِي كَوْنُ كَثِيرٍ مِنْ أَمَاكِنِ الْأَرْضِ مَسْطُوحاً، عَلَىٰ كُرَتِهَا للتعبير عَنْهَا بأَنَّها «سُطِحَتْ».

وفي هٰذَا الدَّرْسِ مِنَ الجوانب الأدَبِيَّةِ فَنِّيَّةُ تَرْتِيب جُمَلِهِ.

قَدْ يَهْدِفُ تَرْتِيبُ الْجُمَلِ الْقُرْآنِيَّةِ إِلَىٰ عَرْضِ لَوْحَةٍ فَنِّيَّةٍ مِمَّا خلَقَ اللهُ فِي كَوْنِهِ، حتَّىٰ كَأَنَّهَا رَسْمٌ قَدْ رُوعِيَتْ فِيهِ كُلُّ الشُّرُوطِ الْفَنِيَّةِ الَّتِي تُرَاعَىٰ في الرُّسُوم والصُّوَرِ الرَّفِيعَة، فَتَبْدُو الصُّورَةُ مِثَالاً مُطَابِقَاً لِحَرَكَةِ تَتَابُعِ المشْهَدِ في نَفْسِ الْمُشَاهِدِ.

تَصَوَّرْ أَنَّكَ جَالِسٌ في بَادِيَةٍ في خَيْمَةٍ، كَوَاحِدٍ مِنْ عُرْبَانِ الْبَادِيَةِ، وَأَمَامَكَ سَهْلٌ مُمْتَدٌّ، وبَعْدَهُ سِلْسِلَةُ جِبَالٍ مُتَتَابِعَةٍ، وَمَرَّتْ قَافِلَةُ جِمَالٍ في هٰذَا السَّهْلِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْجِبَالِ.

فَكَيْفَ تَتَنَقلُ نَفْسُكَ فِي هٰذَا المشْهَدِ، بَعْدَ هٰذَا الْحَدَثِ المتَحَرِّكِ المثِير، وهُوَ قَافِلَةُ الْجَمَال.

لَقَدْ تَمَثَّلْتُ هَٰذِهِ الصُّورَةَ فَوَجَدْتُ أَنَّنِي أَتَنَقَّلُ فِي مُتَابَعَتِهَا، مُرَكِّزاً عَلَىٰ بُؤْرَةِ المشْهَدِ مَرْحَلَةً فَمَرْحَلَةً عَلَىٰ الوجْهِ التَّالي:

اللَّقْطَةُ الْأُولى: صُورَةُ قَافِلَةِ الجِمَالِ الَّتِي تَمْشِي مُعْتَرِضَةً في السَّهْلِ الممْتَدّ، إِذْ كَانَتْ أَوَّلَ لَافِتٍ لِنَظَرِي، بِسَبَبِ الْحَرَكَةِ، وَغَرَابَةِ المشْهَدِ، وَرَغْبَةِ النَّفْسِ في مُتَابِعَةِ مُشَاهَدَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَغِيبَ عَنِ النظر، فَكَانَتْ فِي حِسّي هِيَ بُؤْرَةَ المشْهَدِ الْبَارِز، وَمَا سِوَاهَا كَانَ أَرْضِيَّةً لَهَا.

اللَّقْطَةُ الثَّانِيَة: صُورَةُ السَّمَاءِ مِنْ جِهَةِ الْأُفُقِ الْبَعِيدِ وَرَاءَ الْقَافِلَة، إِذِ اكْتَفَتْ نَفْسِي مِنْ مُتَابَعَةِ التَّركيزِ عَلَىٰ قَافِلَةِ الْجَمَال، فَتَرَكْتُهَا وَجَعَلْتُهَا مَعَ أَرْضِيَّةِ الصُّورَةِ، وانْتَقَلْتُ إِلَىٰ التَّأَمُّلِ فِي السَّمَاءِ، فَكَانَتِ السَّمَاءُ فِي حِسِّي هِيَ بُؤْرَة المشْهَدِ الْبَارِزَة، وَتَوَجَّه بَصَرِي لِلتَّرْكِيزِ عَلَىٰ السَّمَاءِ بَحْثاً وَتَأَمُّلاً، حَتَّىٰ إِذَا اكْتَفَيْتُ مِنْ هٰذَا ظَهَرَتْ فِي شُعُورِي لَقْطَةٌ أُخْرَىٰ.

اللَّقْطَةُ الثَّالِثَة: هِي صُورَةُ الْجِبَالِ المتَتَابِعَةِ، إِذْ أَخَذَتْ تَبْرُزُ فِي حِسِّي، فَتَكُونُ هِي بُؤْرَةَ المشْهَدِ، وَتَوَجَّه بَصَرِي لِلتَّرْكِيزِ عَلَىٰ الْجِبَالِ بَحْثاً وَتَأَمُّلاً فِيها.

وَأَدْرَكْتُ أَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ النُّفُوسِ لَدَىٰ مُشَاهَدَةِ مَشْهَدٍ مُتَعَدِّد الْعَنَاصِرِ، أَنْ تَبْدَأَ بِالْمُتَحَرِّكِ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ إِثَارَةً، ثُمَّ تَنْتَقِلَ إِلَىٰ أَعْلَىٰ المشْهَدِ، ثُمَّ تَتَدَلَّىٰ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّىٰ أَدْنَاه.

ولمَّا اكْتَفَتْ نَفْسِي مِنَ التَّأَمُّلِ فِي الْجِبَالِ ظَهَرَتْ في شُعُورِي اللَّقْطَةُ الَّتِي وَرَاءَهَا.

اللّقطة الرابعة: هِي صُورَةُ الأَرْضِ المنْبَسِطَةِ الممتَدَّةِ أَمَامِي كَأَنَّهَا السَّطْحُ، إِذْ أَخَذَتْ تَبْرُزُ فِي حِسِّي، فَتَكُونُ بُؤْرَةَ المشْهَدِ، وتَوَجَّهَ بَصَرِي للتَّرْكِيزِ عَلَىٰ الْأَرْضِ بَحْثاً وَتَأَمُّلاً فِيها.

عِنْدَئِذٍ عَلِمْتُ الْحِكْمَةَ الَّتِي دَعَتْ إِلَىٰ تَرْتِيبِ الْجُمَلِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي هٰذَا الدَّرْسِ مِنْ دُروس السُّورَةِ، وَمَا فِيهَا مِنْ تَصْوِيرٍ كَلامِيٍّ، مُتَابِعٍ لِحَرَكَةِ النَّفْسِ لَدَىٰ مُشَاهَدَةِ مِثْلِ هَٰذِهِ اللَّوْحَةِ الرَّائِعَة.

وقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنَّهَا بهٰذَا الترتيب تُقَدِّمُ لَوْحَةً فَنِّيَة تُطَابِقُ مَا يَحْدُثُ لِمُشَاهِدٍ وَاقِعٍ فِي مِثْلِ هٰذَا المشْهَدِ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثاني مِنْ دُرُوس سورة (الغاشية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الغاشية) الآيات من (٢١ ـ ٢٦) آخِر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

القراءات:

(٢٢) • قرأ حَمْزَةُ، ويَعْقُوب: [**عَلَيْهُمْ**] بِضَمِّ الْهَاءِ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**عَلَيْهِمْ**] بِكَسْر الهاء.

وَهُمَا نُطْقَانِ عَرَبِيَّان.

(٢٢) • قرأ هِشَامٌ: [**بِمُسَيْطِرٍ**] بالسّين.

وقرأها حمزةُ بِخُلْفٍ عَنْ خَلَّاد، باشْمَامِ الصَّادِ زاياً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بِمُصَيْطِرٍ**] بالصَّادِ الخالصَة، وهُوَ الوجْهُ الثاني لِخلَّادٍ.

(٢٥) • قرأ أبو جعفر: [**إِيَّابَهُمْ**] بِتَشْدِيدِ الياء، وهي علىٰ رأي ابْنِ جِنّي مَصْدَرٌ مِنْ فِعْل «أَيَّبَ» بِمَعْنَىٰ «رَجَعَ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**إِيَابَهُمْ**] بِتَخْفِيفِ الياء، مِنْ فعل «آبَ، يَؤُوبُ، إِيَاباً» بِمَعْنَىٰ رَجَعَ.

فَمُؤَدَّى القراءتَيْنِ واحد.

تَمْهيد:

فِي هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، يُحَدِّدُ لَهُ فِيهِ وَظِيفَتَهُ فِي رِسَالَتِهِ، وهي التَّبْلِيغُ والتَّذْكِير، وأَنَّهُ لَيْسَ مُجْبِراً وَلَا مُسَيْطِراً، أَمَّا الجزاء الأَكْبَر فَيَتَوَلَّاهُ اللهُ يَوْمَ الدِّين، بَعْدَ البَعْثِ لِلْحَيَاةِ الأُخرى.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾:

• ﴿فَذَكِّرْ﴾: أيْ: فَأَعِدْ مَا سَبَقَ أَنْ أَعْلَمْتَهُ وَأَبْلَغْتَهُ لِقَوْمِكَ مِنَ القرآنِ، وَمِنْ قَضَايَا الدِّين.

• ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾: أي: مَا أَنْتَ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَجْمُوعِ قَوْمِكَ فِي مَكَّةَ، إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ، إِلَّا مُذَكِّرٌ لِلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ إلى دَعْوَةِ الْحَقّ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ أَبْلَغْتَهُمْ، وَبَيَّنْتَ لَهُمْ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرآن، وَمَا أُمِرْتَ بِتَبليغِهِمْ إِيَّاهُ مِنْ قَضَايَا الدِّين، وَالْآنَ أَنْتَ مَعَ المطْمُوعِ باسْتِجَابَتِهِمْ في مَرْحَلَةِ التَّذْكِير.

أَمَّا الميْؤُوسُ مِن اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ فَقَدْ سَبَقَ فِي سُورَةِ (الذَّارِيَات/ ٦٧ نزول) أَنْ قُلْنَا لَكَ:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

• ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾:

الْمُصَيْطِرُ ـ والمسَيْطِرُ: الْمُجْبِرُ الْمُكْرِه.

أي: لَسْتَ مُسَلَّطاً عَلَيْهِمْ لإجْبَارِهِمْ وإِكْرَاهِهِمْ على الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقّ، إِذْ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، إِنَّ الاسْتِجَابَة للدُّخُولِ فِي الدِّينِ لَا تُقْبَلُ مَا لَمْ تَكُنْ عَنِ اخْتِيَارٍ حُرٍّ، لَا إِجْبَارَ فِيهِ وَلَا إِكْرَاه.

أَصْلُ العبارة: لَسْتَ بِمُصَيْطِر عَلَيْهِمْ، فَعِبَارَةُ «عَلَيْهِمْ» مَعْمُول لمصَيْطِر. أي: لَسْتَ مُسَلَّطاً عَلَيْهِمْ تَسَلُّطَ مُجْبِرٍ مُكْرِه.

• ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾:

• ﴿إِلَّا﴾ هُنَا أَدَاةُ اسْتِدْرَاكٍ بِمَعْنَىٰ «لَكِنْ».

• ﴿مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾: مَنْ أَدْبَرَ وَنَأَىٰ، وَكَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ، وَبِمَا أَوْجَبَ الإيمانَ بِهِ، والإِسْلَامَ لَه.

• ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: فَيُدْخِلُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جهَنَّم خَالِداً فِيهَا أبداً، ويُعَذِّبُهُ فِيها الْعَذَابَ الأَكْبَرَ وَهُوَ عَذَابُ الْحَرِيقِ، مَعَ أَنْوَاعِ عَذَابِ أُخْرَىٰ، جَاءَ فِي نُصُوصِ القرآنِ بَيَانُ بَعْضِهَا.

• ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾:

إِنَّ الْمَوْتَ خُرُوجٌ مِنَ الْوُجُودِ الْحَيِّ لِلْأَحْيَاءِ، وَهُوَ خُرُوجٌ مُؤَقَّت، وَبَعْدَهُ بَعْثٌ وَإِيَابٌ إِلَىٰ الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، ولَكِنَّ هٰذَا الْإِيَابَ سُوفَ يَكُونَ إِلَىٰ الدَّارِ الآخِرَةِ الَّتِي لَا يَكُونُ فِيهَا مُلْكٌ إِلَّا للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فإيَابُهُمْ سَوْفَ يَكُونُ إِلَيْهِ وَحْدَه.

ثُمَّ بَعْدَ أَحْدَاثٍ تَكُونُ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ، يُجْمَعُونَ إِلَىٰ مَحْكَمَةِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، وَحينَئِذٍ يَتَوَلَّىٰ اللهُ حِسَابَهُمْ، وفَصلَ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يُسَاقُونَ إِلَىٰ مَوَاطِنِ جَزَائِهِم.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّرُ سُورَة (الْغَاشِيَة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٨)
ملحق: مستخرجات بلاغية من سورة (الغاشية)

في هٰذِهِ السُّورَة اختياراتٌ بَلَاغِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة:

أولاً: مِنْ خُرُوج الاستفهام عَن أَصْل دَلَالَتِهِ

(١) الاسْتِفْهَامُ بحرف الاستفهام «هَلْ» في صَدْرِ السُّورَة، يُرَادُ به الدَّعْوَةُ إلى اسْتِمَاعِ الحديثِ عَنِ الْغَاشِيَةِ مع التَّشْوِيق إِلَيْه.

(٢) الاستفهام في: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾؟:

يُرَادُ بِهِ الْحَثُّ عَلَى النَّظَرِ، مَعَ تَلْوِيم المؤهَّلِينَ للنَّظَرِ إذْ لَمْ يَنْظُرُوا، أَوْ لَمْ يَنْتَفعُوا مِنَ النَّظَرِ الَّذِي دَلَّهُمْ عَلَىٰ عَظَمَةِ الرَّبِّ، وَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ الْبَعْثِ، وَخَلْقِ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّين، وإقَامَةِ الجزاء بالفضل أَوْ بِالْعَدْل.

ثانياً: مِنَ الحَذْفِ الَّذِي يُسْتَخْرَج بِقَلِيلٍ مِن التَّأَمُّل

في قوله تَعَالَىٰ في وَصْفِ الجنَّة: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ⦗١١⦘﴾:

«لَاغية» صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوف تَقْدِيرُه: لَا تَسْمَعُ فِي الْجَنَّة ذَاتُ صَوْتٍ لَاغِيَة، تَنْطقُ بِلَغْوٍ مِن الأَصْوات.

ثالثاً: من الْقَصْر

في قولِ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ⦗٢١⦘﴾:

أي: مَا أَنْتَ في المرحَلَةِ الّتِي بَلَغْتَ إِلَيْهَا إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَة، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قَوْمِكَ فِي مَكَّةَ إِلَّا مُذَكِّرٌ لِمَنْ تَأْنَسُ مِنْهُمْ قَابِلِيَّةَ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَة الْحَقّ.

وَهٰذَا الْقَصْرُ إِضَافِيّ، وَهُوَ مِنْ قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَة، وَالْأَدَاةِ فِيهِ أَدَاةُ الْحَصْرِ «إِنَّمَا».

رَابِعاً: التوكيد لِوُجُودِ الدَّاعي الْبَلَاغِي إِلَيْهِ

(١) التوكيد بالباء الزائدة في: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ⦗٢٢⦘﴾.

(٢) التوكيد بـ «إِنَّ ـ والْجُمْلَة الاسْمِيَّة» في:

ـ ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ⦗٢٥⦘﴾.

ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ⦗٢٦⦘﴾.

وبهذا أَكْتَفِي من المستخرجات البلاغيَّةِ في سورة (الغَاشية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَتَوْفِيقِهِ.

سُورَة الكهْف

١٨ مصحف ٦٩ نزول

وهي مَكِّيَّةٌ كُلُّها على الراجح

وقيل توجد آيَات فيها مدنية

(١)

نصُّ السّورة وَمَا فِيها مِنْ فَرْش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ
قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ (١)
يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ
أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم
بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن
لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ
زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صَعِيدًا جُرُزًا (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ
كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟

١ ـ • سَكَتَ حَفْصٌ في حالَة الوصل عَلَىٰ ألف عِوَجاً من: [عِوَجاً قَيِّماً] سَكْتَةً لَطِيفَةً بِدُونِ تَنَفُّسٍ.
ولم يَسْكُتْها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ:

٢ ـ • قَرَأَ شُعْبَةُ: [مِنْ لَدْنِهِي] بإسكان الدّال مع إشْمَامِهَا الضم، وكَسْرِ النون والهاء، وصِلَتِهَا بِيَاءٍ لَفْظِيَّةٍ.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِنْ لَدُنْهُ].

٢ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائِي: [وَيَبْشُرُ] من فعل «بَشَرَهُ» بمعنَىٰ «بَشَّرَهُ».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَيُبَشِّرُ] من فعل «بَشَّرَهُ» أي: أخبره بما يَسُرُّه ويُفْرِحه.

رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾
فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ
بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ
عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى
﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ
لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞
وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا

١٠ - • قرأ أَبو جعفر، وحمزة، وهِشَام: [وَهَيِّي] بياءٍ أخِيرةٍ ساكِنَةٍ في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَهيِّئْ] بِهمزَةٍ سَاكِنَةٍ أخِيرَة وصلاً ووقفاً.

١٦ - • قرأ السُّوسي، وأَبو جعفر، وحمزة: [فَاوُوا] بألف مَدِّية بَعْدَ الفاء في الوقف فقط.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَأْوُوا] وصلاً ووقفاً.

١٦ - • قَرَأَ أبو جَعْفَر: [وَيُهَيِّي].
وكذلك حَمزة، وهشام في الوقف وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَيُهَيِّيءْ].

١٦ - • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [مَرْفِقاً].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِرْفَقاً]. وهما لغتان عَربيتان.

١٧ - • قرأ ابن عامر، ويعقوب: [تَزْوَرُّ].
وقرأها عاصم، وحمزة، والكِسَائي: [تَزَاوَرُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَزَّاوَرُ].

غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُۚ ذَٰلِكَ مِنْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ
لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ وَنُقَلِّبُهُمْ
ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ
ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾
وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ
لَبِثْتُمْۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا
لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ

١٧ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [فَهُوَ الْمُهْتَدي] في الوصل.
وكذلك يعقوب في الوصلِ والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَهُوَ الْمُهْتَدِ] بِحَذْفِ الياء في الوصل والوقف.
١٨ ـ • قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: [وَتَحْسَبُهُمْ] بفَتْح السين.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَتَحْسِبُهُمْ] بِكَسْرِ السين.
وهما لغتان عَرَبيتان.
١٨ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير: [وَلَمُلِّئْتَ] بتَشْدِيد اللام المكسورة، وهمزة ساكنة بَعْدَها.
وقرأ السُّوسي: [وَلَمُلِيتَ] بلام مَكْسُورَةٍ غير مُشَدَّة، وبإِبْدَالِ الهمزة ياءً مَدِّيَّة.
وكذلِكَ قرأ حمزةُ في الوقف.
وَقَرَأها أَبُو جعفر: [وَلَمُلِّيتَ] بلام مَكْسُورَةٍ مُشَدَّدَة، وبإِبْدَالِ الهمزة ياءً مَدِّيَّة.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَمُلِئْتَ] بلام مكسورة غير مُشَدَّدة، وهمزة ساكنة بعدها.
١٨ ـ • قرأ ابن عامر، والكِسَائي، وأبو جعفر، ويعقوب: [رُعُباً] بضم العين.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [رُعْباً] بإسكان العين.
١٩ ـ • قرأ أبو عمرو، وشُعْبَة، وحمزة، وخلف، ورَوْح: [بِوَرْقِكُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِوَرِقِكُمْ].

أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ
بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ
يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ
فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ
أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم
مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ
سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ
كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ
فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا
تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ
وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ

---

٢١ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ]. وقرأها الباقون: [عَلَيْهِمْ].

٢٢ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أَعْلَمُ] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسكان.

٢٢ ـ • قرأ يعقوب: [فِيهُمْ].

وقرأها الْبَاقون: [فِيهِمْ].

٢٤ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبُو جعفر: [أَنْ يَهْدِيَنِي] بإثبات يَاءِ المتكلّم فِي الوصل.

وكذلك ابن كثير، ويعقوب في الوصْلِ والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنْ يَهْدِينِ] بحذف ياءِ المتكلم في الوصل والوقف.

هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ
تِسۡعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي
حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ
لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ وَٱصۡبِرۡ
نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ
وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ
أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ
ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا
لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ
كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ
عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ

٢٥ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائِيُّ، وَخَلَفٌ: [ثَلَاثَ مِائَةٍ] بكسر تاء مائة دُون تنوين.
وقرأها أبو جعفر: [ثَلَاث مِيَةٍ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [ثَلَاثَ مِائَةٍ].
٢٦ ـ • قرأ ابْن عامر: [وَلَا تُشْرِكْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَا يُشْرِكُ].
وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنَى المراد.
٢٨ ـ • قرأ ابن عامر: [بِالْغُدْوَةِ]. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بالْغَدَاةِ]:
٢٩ ـ • قرأ ورْش، والسّوسي، وأبو جعفر: [بِيسَ] بإبدال الهمزة ياءً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِئْسَ].
٣١ ـ • قرأ أبو عَمْرو، ويعقوب: [مِنْ تَحْتِهِمِ الْأَنْهَارُ]. =

يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا
﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ
أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ
أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ
ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا
﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ
هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ
رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ

= وقرأها حمزة، والكسائي، وخلَف: [مِنْ تَحْتِهُمُ الأَنْهارُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهارُ].

٣١ ـ • قرأ أبو جعفر: [مُتَّكِينَ]. وكذلِكَ حَمْزة في الوقف، ولَهُ التَّسهِيلُ أيضاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مُتَّكِئِينَ].

٣٣ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كَثير، وأبو عمْرو: [أُكْلَهَا] بإسكان الكاف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أُكُلَهَا] بضمّ الكاف.
وهُمَا لُغَتَان عَربيتَانِ.

٣٤ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [ثُمْرٌ] بضمّ الثاء وإسكان الميم.
وقرأها عاصم، وأَبُو جَعْفر، ويَعْقُوب: [ثَمَرٌ] بفتح الثاء والميم. وقرأ بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [ثُمُرٌ] بضم الثاء والميم. وهي لغات.

٣٤ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر، بإثبات ألف «أَنا» من [أَنَا أَكْثَرُ] وصلاً. وقرأ الباقون بِحَذْفِهَا وَصْلاً.
واتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَىٰ إِثْبَاتِها في الوقف.

٣٦ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابن عامر، وأبو جعفر: [مِنْهُمَا] أي: مِنْ جنَّتَيه.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِنْهَا] أي: من جنَّتِهِ الجامِعَةِ للجنَّتَيْنِ.

أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠
أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا
﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

٣٨ ـ • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، وَرُوَيس: [لَكِنَّا هُوَ] بإثباتِ الألف وصلاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بحذف الألف وصْلاً.
واتَّفَقُوا على إثباتِها وقْفاً اتباعاً للرَّسم.

٣٨ ـ • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [بِرَبِّيَ أَحَداً] بفَتْحِ ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكان ياء المتكلّم.

٣٩ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [أَنَاَ أَقَلَّ] بإثْبَاتِ ألف «أنا».
وقرأها الباقون بِحَذْفِهَا وَصْلاً.
واتَّفَقُوا على إثباتها وَقفاً.

٣٩ ـ • قرأ قَالُون، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [إِنْ تَرَنِي أَنَا] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً.
وقرأها ابْنُ كثير، ويَعْقُوب كذلِكَ في الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِنْ تَرَنِ أَنَا] بحذف ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

٤٠ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أَنْ] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها الباقون بإسكانها.

٤٠ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [يُؤْتِيَنِي] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً.
وكذلِكَ يعقوبُ في الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُؤْتِيَنِ] بحذف ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

٤٢ ـ • قرأ أبو عمْرو: [بِثُمْرِهِ].
وقرأها عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: [بِثَمَرِهِ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِثُمُرِهِ]. ومعهم رُوَيس.

٤٢ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [بِرَبِّيَ أحَداً] بِفَتْحِ ياءِ المتكلّم.
وقرأها الباقون بإسكانها.

٤٣ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائِي، وخلف: [وَلَمْ يَكُنْ] بالياء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَمْ تَكُنْ] بالتَّاء.

٤٣ ـ • قرأ أبو جعفر: [فِيَةٌ] بإبدال الهمزة ياء وصلاً ووقفاً.
وكذلِكَ حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فِئَةٌ].

٤٤ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائِي، وخلف: [الْوِلَايَةُ] بِكَسْرِ الواو.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الْوَلَايَةُ] بِفَتْحِ الواو.
وَهُمَا لغتان عربيَّتَان.

٤٤ ـ • قرأ أبو عَمْرو، والكِسَائِيُّ: [الحقُّ] صفة للوَلَايَة.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الحقِّ] صفةً: «للهِ».

٤٤ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، وخَلَف: [عُقْباً].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عُقُباً].

٤٥ ـ • قرأ حمزة، والكسائيّ، وخلف: [الرِّيحُ] بالإفراد..
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الرِّيَاحُ] بالجمع.

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ
رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً
وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ
جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا
﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ
يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ
أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ
ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن
دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ
أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ

---

٤٧ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: [تُسَيَّرُ الْجِبَالُ] بالمبنيّ لما لم يُسَمَّ فاعله.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نُسَيِّرُ الْجِبَالَ] بضمير المتكلّم العظيم.

٥٠ ـ • قرأ أبو جعفر: [لِلْمَلَائِكَةُ اسْجُدُوا] بضمّ تاء «لِلْمَلَائِكَةِ» اتباعاً لجيم «اسْجُدُوا» وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا] على الأصل.

٥٠ ـ • قرأ ورش، والسّوسي، وأبو جعفر: [بِيسَ] بإبدالِ الهمزة ياءً.

وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِئْسَ].

٥١ ـ • قرأ أبو جعفر: [مَا أَشْهَدْنَاهُمْ]. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مَا أَشْهَدْتُهُمْ].

٥١ ـ • قرأ أبو جعفر: [وَمَا كُنْتَ] بفتح التاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَمَا كُنْتُ] بضم التاء.

مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا
ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا
﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ
ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ
جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ
وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى
ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ

٥٢ ـ • قرأ حمزة: [وَيَوْمَ نَقُولُ] بضمير المتكلّم العظيم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَيَوْمَ يَقُولُ].

٥٤ ـ • قرأ ابن كثير: [الْقُرَانِ]. وكذلك حمزة في الوقف.
وَقَرَأَها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الْقُرْآنِ].

٥٥ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب: [قِبَلًا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [قُبُلاً]. ومؤدّى القراءتين واحد.

٥٦ ـ • قرأ حفص: [هُزُواً].
وقرأها حمزة: [هُزْءاً] في الوصل.
وكذلك خلف وَصلاً ووقفاً.
وقرأها حمزة: [هُزاً وهُزْواً] في الوقف وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [هُزُواً].
وهي وُجوهٌ في النطق العربي.

لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ
لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ
لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ
حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ
فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ
لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى
الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ
وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ
فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا
آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ

٥٨ ـ • قرأ ورْش، وأبو جعفر: [يُوَاخِذُهُمْ] بإبدال الهمزة واواً، وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُؤَاخِذُهم] على الأصل.

٥٩ ـ • قرأ شُعْبَةُ: [لِمَهْلَكِهِمْ] مصدر ميمي لفعل «هَلَكَ» وقرأها حَفْصٌ: [لِمَهْلِكِهِمْ] اسم زمان على وزنِ «مَفْعِل» وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِمُهْلَكِهِمْ] مَصْدر مِيمي مِنْ فِعل «أَهْلَكَ».
ومُؤَدّى القراءات واحد.

٦٣ ـ • قرأ حفص: [أَنْسَانِيهُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنْسَانِيهِ] وهما نُطْقَان عَربيان.

٦٤ ـ • قرأ نَافع، وأبو عمرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [نَبْغِي] في الوصل.
وكذلك ابن كثير، ويعقوب، فِي الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَبْغِ] وصلاً وَوَقفاً.

مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ
إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ
بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى
لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ
أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ
خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ
أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا
نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا

٦٦ ـ • قرأ نَافع، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر: [تُعَلِّمَني] بإثبات ياء المتكلم في الوصل.
وكذلِكَ ابن كثير، ويعقوب، في الوصْلِ والوقف.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [تُعَلِّمَنِ] في الوصل والوقف.
٦٦ ـ • قرأ أبو عمْرو، ويعقوب: [رَشَداً].
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [رُشْداً].
٦٧ ـ • قرأ حفص: [مَعِيَ صَبْراً] بفتح ياء المتكلم، وقرأها الباقون بالإسكان.
٦٩ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [سَتَجِدُنِيَ إِنْ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ بالإسْكان.
٧٠ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [فَلَا تَسْأَلَنِّي].
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [فَلَا تَسْأَلْنِي].
ولابن ذَكوان وجهان في إثبات ياء المتكلم وحذفها وصلاً ووقفاً.
٧١ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [لِيَغْرَقَ أَهْلُها].
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا].
وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد.
٧٢ ـ • قرأ حفص: [مَعِيَ صَبْراً] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ بالإسكان.
٧٣ ـ • قرأ ورش، وأبو جعفر: [لَا تُوَاخِذْني] وقفاً ووصلاً. وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [لَا تُؤَاخِذِني].

غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا
نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا
﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن
لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا
فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى
وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ
وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ

٧٣ ـ • قرأ أبو جعفر: [عُسُراً] بضم السين.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عُسْراً] بإسكان السّين. وهما لغتان عربيتان.

٧٤ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورُوَيس: [زَاكِيَةً] وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [زَكِيَّةً]. والمؤدّى واحد.

٧٤ ـ • قرأ نافع، وابنُ ذكوان، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب: [نُكُراً] بضمّ الكاف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نُكْراً] بإسكان الكاف. وهما لغتان بمعنى الأمْرِ الشديد الصعب.

٧٥ ـ • قرأ حفص: [مَعِيَ صَبْراً] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسكان.

٧٦ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [مِنْ لَدُنِي]. وقرأها شعبة: [مِنْ لَدْنِي] بإسكان الدال مع إشمامها الضمّ.
وَلَهُ وَجْهٌ آخر وهو اختلاسُ ضمة الدال.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِنْ لَدُنِّي] بِتَشْديد النون.

٧٧ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [لَتَخِذْتَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَتخَذْتَ].

أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ
أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا
ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ
لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا
وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ
تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ
قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ
وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ
مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ
قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾

٨١ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [يُبَدِّلَهُمَا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُبْدِلَهُمَا].

٨١ ـ • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [رُحُماً] بضم الحاء وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [رُحْماً] بإسكان الحاء.
الرُّحْمُ: الْعَطْفُ والرَّحْمَة.

٨٥ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [فاتَّبَعَ سَبَباً]
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَأَتْبَعَ سَبَباً].
اتَّبَعَ، وأَتْبَعَ: كِلَاهما بمعنى: تَبِعَ.

٨٦ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب: [حَمِئَةٍ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [حَامِيَةٍ].
حَمِئَة: أي: ذَاتُ حَمَإٍ وهو الطّينُ الأسود المنتن.
حَامِية أي: شديدة الحرارة.
فبينهما تكامل.

قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا
نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ
لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ
ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا
﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى

٨٧ ـ • قرأ نافع، وابن ذكوان، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب: [نُكُراً] بضم الكاف.
وقرأ بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نُكْراً] بإسكان الكاف.
وهما لغتان بمعنى الأمرِ الشَّدِيد الصَّعْب.

٨٨ ـ • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وابْن عامر، وشعبة، وأبو جعْفر: [جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ] على الإضافة، أي: الجنة الحسنىٰ، أو المثوبَةِ الحسنَىٰ، وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [جَزَاءً الْحُسْنَىٰ]: أي: فله الحسْنَىٰ جزاءً.

٨٩ و٩٢ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: [ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَباً] في الموضعين.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً] في الموضعين.
اتَّبَعَ وأَتْبَعَ: كِلاهما بمعنى: «تَبِعَ».

٩٣ ـ • قَرَأَ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وحفص: [السَّدَّيْنِ] بفتح السِّين المشَدَّدة.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [السُّدَّيْنِ] بضم السِّين المشَدَدة.
وهما لُغَتَان، يقال: «سُدّ وسَدّ».

٩٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [يُفْقِهُونَ] بضم الياء وكَسْر القاف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَفْقَهُونَ].
وبين القراءتَيْنِ تَكامل، إذْ هؤلاء الْقَومُ لَا يَعْرِفُونَ لُغَاتِ النَّاس فَلَا يَفْقَهُونَ كَلَامَ الأقوام غيرهم، وَلَهُمْ لُغَةٌ خَاصَّةٌ بِهِمْ لَا يَعْرِفها غَيْرُهم.

٩٤ ـ • قرأ عاصم: [يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ]. =

ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾
قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا
﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟
حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا
ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ
مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾
۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ
جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ
كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

= وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَاجُوجَ ومَاجوجَ]** بإبْدالِ الهمزة ألفاً في اللَّفْظَتَيْن. وهما نُطْقَان لاسم هؤلاء القوم.

٩٤ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: **[خَرَاجاً]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[خَرْجاً]**.
الْخَرْجُ والْخَرَاجُ مَا يُبْذَلُ مِنْ مَالٍ أجْراً على عَمَل، أو جزيَةً، أو نحو ذلك.

٩٤ ـ • قرأ نافع، وابْنُ عَامر، وشُعبَة، وأَبُو جَعْفر، ويعقوب: **[سُدّاً]**. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[سَدّاً]**.

٩٦ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عمرو، وابْنُ عَامر، ويعقوب: **[الصُّدُفَيْنِ]** وقرأها شُعْبة: **[الصُّدْفَيْنِ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[الصَّدَفَيْن]**.
الصَّدَفُ والصُّدْفُ والصُّدُف: لغات بمعنى الجبل وكلّ بناء عظيم مُرْتفع.

٩٨ ـ • قرأ عَاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[دَكَّاءَ]** أي: مُسْتَوِياً بالأرض.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[دَكّاً]** مَصْدَرُ «دَكَكْتُه» وهو بمعنى اسم المفعول، أي: مُدْكُوكاً.
الدَّكُّ: الدَّقُّ والتكْسِيرُ والْهَدْم فالمؤدّى واحد.

أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ
أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾
ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا
﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ
وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا
حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ
أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ
فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

١٠٢ ـ • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [مِنْ دُونِيَ أَوْلِيَاءَ] بفتح ياء المتكلم وقرأها باقي القراء العشرة بإسكان ياء المتكلم.

١٠٤ ـ • قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: [يَحْسَبُونَ] وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَحْسِبُونَ] وهما لغتان.

١٠٦ ـ • قرأ حفص: [هُزُوًا].
وقرأها حمزة: [هُزْءًا] في الوصل. وكذلك خلف في الوصل والوقف.
وقرأها حمزة في الوقف: [هُزًا] و[هُزْوًا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [هُزُؤًا].
وهي وُجوه في النطق.

١٠٩ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائِي، وخَلَف: [أَنْ يَنْفَدَ] وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنْ تَنْفَدَ].
وهما وجهان جائِزَان عَربيًا، لأنَّ لفظ «كلمات» مجازيُّ التَّأنيث.

(٢)
مما ورد بشأن سُورَة (الكهف)

(١) روى مُسْلِمٌ وَأَحْمَد وغيرهما عَنْ أبي الدَّرْدَاء أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

«مَنْ حفظ عشْرَ آيَاتٍ من أول سورة الكهف عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّال».

وأنّ رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ قرأ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الكَهْف عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّال».

(٢) ورَوى البخاريّ ومُسْلِمٌ وَغَيْرُهُما عَنِ البراء قال: قرأ رَجُلٌ سُورَة الكَهْفِ، وفي الدَّارِ دَابَّةٌ، فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ، فَنَظَرَ فإذَا ضَبَابَةٌ أَوْ سَحَابَةٌ قَدْ غَشِيَتْهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فقال:

«اقْرأْ فُلَانُ، فَإِنَّ السَّكِينَةَ نَزَلَتْ لِلْقُرْآن».

وجاء عند الطبراني أنَّ هـٰذَا الَّذِي كَانَ يَقْرَأُ هُو أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ رضي اللهُ عنه.

(٣) وروى ابن مَرْدَوَيْه، والضياء في المختارة، عن عليّ رضي الله عنْهُ، قال: قال رسول اللهِ ﷺ:

«مَنْ قرأ الكَهْفَ يَوْمَ الْجُمعَةِ فَهُوَ مَعْصُومٌ إِلَىٰ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ تَكُونُ، فإنْ خَرَجَ الدَّجَّالُ عُصِمَ مِنْهُ».

(٤) وروى الطبراني في الأوسط، والحاكم وصحَّحهُ، والبيهقي، وغيرهم، عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأَ سُورَة الكَهْفِ كانَتْ لَهُ نُوراً مِنْ مَقَامِهِ إلى مكَّة».

إلى غير هذه الأحاديث في فضائل سورة الكهف.

(٣)
مَوضُوع سورة (الكهف)

سورة (الكهف/ ٦٩ نزول) سورة عجيبةٌ ذَاتُ مَوْضوعٍ كُلِّي مُتَشابِكِ الْفُرُوعِ فِي دُرُوسِهَا وَآيَاتِها، وهـٰذَا الموضُوعُ الكُلِّيُّ يَتعَلَّقُ بقَضَايَا كُبْرَىٰ مِنْ أَرْكَانِ الْإيمان وَمُشْتَقَّاتٍ مِنْهَا، وَبِبَعْضِ مَا يُنَاقِضُهَا مِنْ بَاطِلِ الناس.

ولكِنَّ لَهَا خُطُوطاً رَئِيسَةً تَسِيرُ عليها، هي ما يلي:

الْخَطُّ الأوّل: خَطُّ الْقُرانِ المجيد.

- وَيَدْخُلُ في هـٰذَا الْخَطّ تَكْلِيفُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ أَن يَتْلُوَ مَا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ مِنْه.
- ويَدْخُلُ فِيهِ بيانُ مَا اشتمل عليه القرآن من التصريف والتَّنْويع.
- ويَدْخُلُ فِيه بَيَانُ وظيفَةِ الرَّسُولِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، وهِيَ تَبْلِيغ أحكام دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ.
- ويَدْخُلُ فِيهِ بَيَانُ حِكَمِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في مَجَارِي مَقَادِيرِهِ، الّتِي قَدْ يُوهِمُ ظَاهِرُهَا مُخَالَفَةَ أَحْكَام الشَّرْعِ، ومِنْهَا مَا جَاءَ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ والخضر عليهما السلام.

الخطُّ الثاني: خطُّ الْيَوْمِ الآخر.

- ويَدْخُلُ في هـٰذَا الخطَّ قِصَّةُ أصحاب الكهف.
- ويدخُلُ فيه قِصَّةُ الحوار بين الصَّاحِبَيْن، الغنيّ الكافِرِ بيوم الدّين صاحِبِ الجنَّتين، والفقير المؤمن الداعي إلى دين الله الحقّ.
- ويدخُلُ فِيه مَشَاهِدُ مِنْ مَشَاهِدِ القيامَةِ ويَوْمِ الدِّين، وبَعْضِ أحكامٍ تَتعَلَّقُ بِهِ.

الخطّ الثالث: خَطُّ الكُفرِ والْكَافِرينَ، وبَعْضِ بَيَانَاتٍ تَتعَلَّقُ به.

الخطُّ الرابع: تَرْبِيَةُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ ﷺ بالنِّسْبَةِ إلى عَدَدٍ من القضايا.

• وَيَدْخُلُ فِي هٰذَا الخطّ مَا يَتعَلَّقُ بِشَخْصِ الرَّسُولِ ﷺ وحُزْنِهِ مِنْ أجْلِ الَّذِينَ لم يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّةِ مِنْ قَوْمِهِ.

• ويَدْخلُ فِيهِ مَا هُوَ مُطَالِبٌ به.

• ويَدْخُلُ فِيه تَعْلِيمَاتٌ دَعوِيَّةٌ له، وَيُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِه.

• ويَدْخُلُ فِيه التَّأْكِيدُ عَلَىٰ أَنَّ وَظِيفَةَ الرَّسُولِ الْبِشَارَةُ والإنْذَارُ، بَعْدَ التَّبْلِيغ والبيان والْقِيامِ بوظائِفِ الرِّسَالَةِ المختلفة.

• ويَدْخُلُ فِيه بيانُ أَنَّ من وَظائِفِ الرَّسُولِ تَرْبِيَةَ الدُّعَاة وقادَةِ الفتح الإسْلَامي، مع ضَرْبِ مَثَلٍ تَاريخيٍّ للفاتِحِ المؤمن المسلم، وهُو ذُو القرنَيْنِ.

• وَيدْخُلُ فِيه بَيانَاتٌ مُرَافقاتٌ بِشَأْنِ بَعْضِ الأسْبابِ الَّتِي تَجْعَلُ الْكَافِرِينَ يَمْتَنِعُونَ عَنِ الإيمان.

الخطّ الخامس: بيان أنَّ الغايَةَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ الابتلاء، مع بياناتٍ تَتعلَّقُ بِمُشْتَقَاتِ مُلَائِمَاتٍ لبيان هٰذِهِ الغاية.

(٤)
دُروس سورة (الكهف)

تفكَّرْتُ في تَقْسِيم السُّورة إلى دُرُوس، فظهر لي أنَّ مِنَ المُمْكِنِ تَقْسِيمِهَا إلى (١١) دَرْساً:

الدرس الأوّل: الآيَات من (١ ـ ٨).

فِي هٰذَا الدَّرْس إلْماح لخُطُوط موضوع السّورة الخمسة الّتي سبَقَ آنفاً الحديث عَنْها، فَهُوَ بِمَثَابَةِ عُنْوَاناتٍ لهٰذَا الموضوع.

الدرس الثاني: الآيات من (٩ ـ ٢٦).

وَفِي هٰذَا الدَّرْسِ بيانُ قصة أصحاب الكهف، وضِمْنَها استطرادات وتعليقاتٌ قَيِّمَةٌ عظِيمَةٌ مِن المفهوماتِ الإسْلَامِيَّةِ الأصول.

ويمكن تَقْسِيمُهُ إلىٰ أرْبَعَةِ فُصُول.

الدّرْسُ الثالث: الآياتُ من (٢٧ ـ ٣١).

وَفِي هٰذَا الدَّرْسِ تَوْجِيهاتٌ تَرْبَوِيَّةٌ، وَتَعْلِيمَاتٌ دَعَوِيَّةٌ، مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

الدَّرْسُ الرابع: الآيات من (٣٢ ـ ٤٤).

وفي هٰذَا الدّرْسِ بيانُ قِصَّةِ الحوار بَيْنَ الصَّاحِبَيْنِ:

- الغَنِيُّ الكافِرِ بِيَوْمِ الدِّينِ صاحِبِ الجنَتَيْنِ، الّذِي صَارَ بَعْدَ نِكْبَتِهِ مؤمناً.
- والفقير المؤمِنِ الدَّاعِي إلى دِينِ اللهِ الحقّ.

الدَّرْسُ الخامس: الآيات من (٤٥ ـ ٥٠).

وَفِي هٰذَا الدَّرس بَيَانٌ إِقْنَاعِيٌّ بِشَأْنِ الحياةِ الدُّنْيَا وَنِهَايَتِهَا، مَعَ وَصْفِ بَعْضِ أحداثِ القيامَةِ وَيَوْمِ الدِّين.

الدرس السادس: الآيات من (٥١ ـ ٥٣).

وَفِي هٰذَا الدَّرْسِ بيانٌ بشأنِ المشركين مَقْرُونٌ بإنْذَارهم بالعقاب الْأَلِيمِ يَوْمَ الدِّين.

الدرس السابع: الآيات من (٥٤ ـ ٥٩).

وفي هـٰذَا الدَّرْسِ بيانٌ بِشَأْنِ اشْتِمَالِ القرآنِ الْمَجِيدِ عَلَىٰ مَا يَكْفِي لْلإِقْنَاعِ، وَبَيَانُ لِعِلَّةِ الْمُعَانِدِينَ النَّفْسِيَّة، وَبَيَانٌ لِلْغَايَةِ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسلِ، وَبَيَانٌ لِمَجَادَلَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ، مع بَيَانَاتٍ مُرَافِقَاتٍ مُتَّصِلَاتٍ بما سبق.

الدرس الثامن: الآيات من (٦٠ ـ ٨٢).

وَفِي هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ المقصود بيانُهُ مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ والْخَضَرِ عَلَيْهِما السَّلَام.

الدّرْسُ التاسع: الآيَات من (٨٣ ـ إلى (يَمُوج في بعض) من الآية ٩٩).

وفي هـٰذَا الدَّرْس بَيَانُ المقصود بيانُهُ مِنْ قِصَّةِ ذي الْقَرْنَيْن.

الدَّرْسُ العاشر: الآيَات من منْتَصف الآية (٩٩ ـ ١٠٢).

وفِي هـٰذَا الدَّرْس عَرْضُ لقْطَةٍ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ مَقْرُونَةٍ بِتَلْوِيمِ وإنْذَارٍ لِلْكَافِرِينَ.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (١٠٣ ـ ١١٠) آخر السّورة.

وَفِي هذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ دَعَوِيٌّ موجَّهٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لرسُولِه ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ من أُمَّتِهِ.



(٥)
التدبُّر التحليلي للدّرس الأوّل من دُروس سورة (الكهف) الآيات من (١ ـ ٨)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ

أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾.

القراءات:

(١) • سَكَتَ حَفْصٌ في حالَة الوصل عَلَىٰ ألف «عِوَجاً» من: **[عِوَجاً قَيِّماً]** سَكْتَةً لَطِيفَةً بِدُونِ تَنفُّسٍ. ولم يَسْكُتْها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ.

(٢) • قَرَأَ شُعْبَةُ: **[مِنْ لَدْنِهِي]** بإسكان الدّال مع إشْمَامِهَا الضّم، وكَسْرِ النون والهاء، وصِلَتِهَا بِيَاءِ لَفْظِيَّة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مِنْ لَدُنْهُ]**.

(٢) • قرأ حمزة، والكِسَائِي: **[وَيَبْشُرُ]** من فعل «بَشَرَهُ» بمعنَىٰ «بَشَّرَهُ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَيُبَشِّرُ]** من فعل «بَشَّرَهُ» أي: أخبره بما يَسُرَّه ويُفْرِحه.

تَمْهيد:

في هـٰذَا الدَّرْس إلْمَاحٌ لخُطوطِ مَوْضوع السُّورة الخمسة، وهي خطُّ القرآن المجيد.

خطُّ اليوم الآخر.

خَطُّ الكُفرِ والكافِرين.

خَطُّ تَرْبِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ بالنسبة إلى عِدَّةِ قَضَايَا.

٥ ـ خطُّ بيان أنَّ الغايَةَ من خَلْقِ النَّاسِ الابتلاء، مع بَيَانَاتٍ تتعلّق بمُشْتَقَّاتٍ مُلَائِمَاتٍ لبيان هَـٰذِهِ الغاية.

فَهُوَ يُشِيرُ إلى عُنْوَانَاتِ مَوْضُوع السُّورَة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا . . . ﴿٢﴾﴾.

• ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: كُلُّ الْحَمْدِ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُحْمَدَ بِهِ مَحْمُودٌ مَا، اللهُ وَحْدَهُ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ اسْتِحْقَاقَ اسْتِغْرَاقٍ شَامِلٍ.

• ﴿. . . ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ . . .﴾:

فِي هَـٰذِهِ الْجُمْلَةِ بَيَانُ المناسَبَةِ هُنَا الدَّاعِيَةِ إلى الثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِأَنَّ لَهُ كُلَّ الْحَمْد، وهِيَ مُنَاسَبَةُ إِنْزَالِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ المشَرَّفِ بِعُبُودِيَّتِهِ الْكَامِلَةِ لِرَبِّهِ بإِرَادَتِهِ الجازِمَةِ، الكِتَابَ الْخَاتِمَ لِكُتُبِ اللهِ للنَّاسِ وَهُوَ الْقُرْآنِ.

فَشَرَّفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بِعُبُودِيَّتِهِ الكامِلَةِ لله، ووصَفَ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ الكِتَابُ إشَارَةً إلى كَمَالِهِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْغَايَةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي أُنْزِلَ مِنْ أَجْلِهَا، مع الدَّلَالَةَ عَلَىٰ وُجُوبِ تَدْوينِهِ فِي كِتَابٍ لَا يَتَعَرَّضُ مَعَهُ لِأَيّ تَغْيِيرٍ أَوْ زِيادَةٍ أَوْ نَقْصٍ، ويلاحظ أَنَّ التَّعْبِيرَ بعبارة: ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ مِنَ إطلاق الكُلِّ وإرادةِ الْبَعْضِ، أو أنزلَ ما أُنزِلَ مِنْهُ وسَيُنْزِلُ سَائِرَهُ عَلَىٰ وَفْقِ مَا قَدَّرَ وَقَضَىٰ.

• ﴿. . . وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾:

الْعِوَجُ: بِكَسْرِ الْعَيْنِ عَدَم الاسْتِقَامَةِ في الْأَشْيَاءِ المعنويَّة، كالفِكْر، والقَوْلِ، والمذهب، ومِنْهَاجِ السُّلُوك.

وعَدَمُ الاسْتِقَامَةِ خروج عَنْ صِرَاطِ اللهِ الحقّ، والقرآنُ كُلُّهُ لَا خُرُوجَ لشَيْءٍ فِيهِ عَنِ الحقِّ.

فالمعنَىٰ: أنْزَلَ اللهُ الْقُرْآن وَلَمْ يَجْعَلْ لِشَيْءٍ فِيهِ صِفَةَ الْعِوَجِ عَنِ الحقّ والصَّوَابِ وَمَا هُوَ الْأَحْكَمُ لِهِدَايَةِ الْمَوْضُوعِينَ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

والأظْهَرُ أَنَّ هَـٰذِهِ الْجُمْلَة حَالِيَّة فيما أرَىٰ.

• ﴿قِيَمًا﴾: أي: مُسْتَقِيماً لَاعَوَجَ فِيهِ عَنِ الحقِّ والْخَيْرِ وَمَحَاسِنِ السُّلُوك.

جَمَعَ اللهُ فِي هـٰذَا الْبَيَانِ بَيْنَ سَلْبِ الْعِوَجِ وإثْبَاتِ الاسْتِقَامَة للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْقرآنَ مُبيِّنٌ صِرَاطَ الحقِّ المستقيمَ، إذْ قَدْ يُوصَفُ شَيْءٌ مَا بأنَّهُ لَاعِوَجَ لَهُ كالنُّقْطَةِ والْكُرَةِ، لَكِنْ لَا يُوصَفُ بأنَّهُ مُسْتَقِيمٌ، إذْ لَا امْتِدَادَ لَهُ، فجاءَ وَصْفُ الاسْتِقَامَةِ بَعْدَ نَفْيِ الْعِوَجِ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ صِرَاطٌ ذُو امْتِدَادٍ، وَهُوَ وَاقِعُ حَالِ الدِّينِ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَىٰ بَيَانِهِ كِتَابُ اللهِ المجيد.

وهـٰذَا من إبْدَاعَاتِ القرآنِ البيانيَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾.

الإِنْذَارُ: الْوَعِيدُ بما هو مَكْرُوه، والإعلامُ بِمَخُوفٍ مِنْه.

البأسِ: الْعَذَابُ الشَّدِيدُ، والشِّدَّةُ في الْحَرْب.

مِنْ لَدُنْه: **لَدُنْ**: ظَرفٌ زَمَانِيٌّ وَمَكَانِيٌّ بمنزلَةِ «عِنْد» إلَّا أَنَّهُ أقربُ مِنْ «عِنْد» وَأخصُ مِنْه. وَلَدُنْ مُلَازِمَةٌ للإضافة.

التَّبْشِيرُ: الإخْبَارُ بِمَا يَسُرُّ وَيُفْرِح.

فالمعنَىٰ: الحمْدُ للهِ الَّذي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ القرآنَ مُبيّناً فِيهِ قَضَايَا الدِّين وأحْكَامَهُ، وَحَدَّدَ فِيهِ الصِّرَاطَ المسْتَقِيم لِلْمُوْضُوعِينَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، وأَبَانَ فِيهِ الْجزَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيُنْذَرَ عَنْ طَرِيقِ كِتَابه وبَلاغَاتِ رَسُولِهِ الكُفَّارَ والْعُصَاةَ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ يَوْمَ الدِّينِ، ويُبَشِّرَ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ الَّتِي تُرْضِي اللهَ عَنْهُمْ بأجْرٍ حَسَنٍ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِيهِ أبداً في جَنَّاتِ النَّعِيمِ، عَلَىٰ تَفَاضُلِ دَرَجَاتِهِمْ فيها بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوا مِنْ إيمانٍ وعَمَلٍ صالح.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾:

أي: ويُنْذِرُ أيضاً عَنْ طَرِيقِ كِتَابِهِ وبَلاغَاتِ رَسُولِهِ إنْذاراً خاصّا غَيْرَ إنْذَارِ عُمُوم الْكَافِرين، مُرْتكِبي عَظِيمَةٍ مِنْ عَظِيماتِ الْكُفْرِ، وهُمُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً مِنْ نَسْلِهِ أَوْ بالتَّبَنِّي مِمَّا خلَقَ، وَيَنْطَبِقُ هـٰذَا عَلَىٰ النَّصارَىٰ، وبعضِ الْيَهُودِ، وبَعْضِ مُشْرِكِي الْعَرَب الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْمَلائِكَةَ بَنَاتُ الله.

• ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ ...﴾: أي: مَا لَهُمْ بِهـٰذَا الْقَوْلِ عِلْمٌ مَا وَلَوْ كَانَ مِنْ أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الْعِلْم، لَا هم وَلَا آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلِهِم الذين ورثُوا عَنْهُمْ مَقُولَتهم.

«مِنْ» زيدَت لِتَوْكيد عُمُومِ النفي، والتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

• ﴿... كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ ...﴾:

• ﴿كَبُرَتْ﴾: صِيغَةُ «كَبُرَ» على وَزْنِ «فَعُلَ» جارِيَةٌ هنا مَجْرَىٰ «بِئْسَ» في الذَّمّ عَلَىٰ سَبِيلِ المبالغة، مع زِيَادَةِ مَعْنَىٰ التَّعْجِيبِ من أَمْرهم: أي: بِئسَتْ كَلِمَةً كَبِيرَةً شَنِيعَةً تَخْرُجُ مِنْ أفواهِهِمْ، وأَعْجِبْ بِهِمْ كَيْفَ تَصْدُرُ عَنْهُمْ هـٰذِهِ الكَبِيرَةُ الشَّنِيعَةُ، وهِيَ كَذِبٌ مَحْضٌ يَصِفُونَ بِهِ اللهَ رَبَّ

الْعَالَمِينَ، وَخَالِقَ كُلِّ مَوْجُودٍ سِوَاه، فَهُوَ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ عَنِ الْوَلَدِ وَعَنْ كُلِّ شيءٍ، بِأَنَّ لَهُ وَلَداً.

• ﴿كَلِمَةً﴾: تَمْيِيزٌ للضَّمِيرِ الفاعِلِ المستَتِرِ في «كَبُرَتْ».

• ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: أي: تُخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمُ الصَّغِيرَةِ الْحَجْم كَلِمَةٌ كَبِيرَةٌ جِدًّا، شَدِيدَةُ الْقَبَاحَةِ والشَّنَاعَةِ تَتَفَاقَمُ شَنَاعَتُهَا تَفَاقُماً، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهَا، وتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ مِنْهَا هدّاً[1].

• ﴿... إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾: أي: مَا يَقُولُونَ بِكَلِمَتِهِم الكَبِيرَةِ الشَّنِيعَةِ الَّتِي يُكَرِرُونَ وَصْفَ الله بِهَا إِلَّا قَوْلاً كَذِباً، افْتَرَاهَا شَيَاطِينُهُمْ وأَخْبَاثُهُمْ، وَقَلَّدَهُمْ في اعتقادِهَا وَتَرْدِيدِها أَتْبَاعُهُمْ ظُلْماً وَعُدْواناً، دُونَ إِذْنٍ لَهُمْ من اللهِ بذلك، ودُون حُجَّةٍ مَقْبُولَةٍ يَعْتَذِرُون بها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ:

• ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾:

• ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾:

كلمة «لعَلّ» مستعملة هنا بمعنى الإشفاقِ بأسْلُوبِ الاستفهام. **أَسَفاً**: أي: حُزْناً.

وسَبَقَ أنْ أنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ في سورة (الشعراء/٤٧ نزول) قولَهُ:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾.

---

(١) وكما سَبَقَ أنْ جاء في الآيات من (٨٨ ـ ٩٥) من سورة (مريم/ ٤٤ نزول).

﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: أي: قَاتِلٌ نفْسَكَ يَا مُحَمَّدُ، أَصْلُ الْبَخْعِ فِي اللُّغَةِ أَنْ يَذْبَحَ الذَّابِحُ ذَبِيحَتَهُ، حَتَّىٰ تَبْلُغَ سكِّينُهُ قَرِيباً مِنْ فَصْلِ الرَّأسِ كُلِّهِ عَنْ سَائِرِ جَسَدِها.

والنَّظَرُ التَّدَبُّرِيُّ فِي هَـٰذَيْنِ النَّصَّيْنِ يَكْشِفُ أَنَّهُمَا يَتَضَمَّنَانِ تَرْبِيَتَيْنِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ أَمْرَيْنِ مُخْتَلِفَيْن.

فَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الشُّعَرَاء/ ٤٧ نزول) كَانَ بِشَأْنِ هَمِّهِ وَحُزْنِهِ وَخَوْفِهِ أَنْ لَا يَكُونَ قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ الأَقْرَبُونَ مُؤْمِنِينَ، فَهُوَ حَرِيص أَنْ يُنْزِلَ اللهُ آيَةً من السَّمَاءِ تُطَأْطِئُ لَهَا أَعْنَاقُهُمْ وَيُؤْمِنُوا بِسَبَبِهَا، وَقَدْ قَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ بِشَأْنِهِمْ أَنْ لَا يُنْزِلَ هَـٰذِهِ الآيَة.

وَمَا جَاءَ في سورة (الكهف/ ٦٩ نزول) كَانَ بِشَأْنِ مُجاهَدَةِ الرسُولِ قَوْمَهُ مُجَاهَدَةً مُضْنِيَةً، وَهُمْ مُدْبِرُونَ عَنْهُ يَنْأَوْنَ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَهُوَ يُتَابِعُ آثَارَهُمْ وَيُلَاحِقُهُمْ للتَّأْثِيرِ عَلَيْهِمْ، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُ مِنْ أَجْلِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهـٰذَا الْحَدِيث، وَهُوَ القرآن كتابُ اللهِ المجيد.

وفـــي عـــبـــارة: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ مَعْنَىٰ الاسْتِفهَام العِتابيِّ، وَقَد سَبَقَ أَنْ أوصَاهُ اللهُ بأَنْ يُعْرِضَ عَنْهُمْ، إذْ وَصَلُوا إلى حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعهَا أَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمْ الْحُرَّة، وذَلِكَ بقوله تَعَالَىٰ في سورة (النجم/ ٢٣ نزول):

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

وأَرَىٰ أَنَّ الْفَاءَ فِي ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَطْوِيٍّ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَخْرَجَ بالتَّأَمُّل، والتقدير:

قَدْ أَدَّيْتَ وَظِيفَتَكَ يَا مُحَمَّدُ عَلَىٰ الْوَجْهِ المطْلُوب مِنْكَ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مُعَانِدِي قَوْمِكَ، وَكُنَّا أَوْصَيْنَاكَ بِأَنْ تُعْرِضَ عَنْهُمْ لِأَنَّهُمْ تَوَلَّوْا فَأَدْبَرُوا وَنَأَوْا، لَكِنَّكَ مَا زِلْتَ تُلَاحِقُهُمْ، تُتَابِعُ دَعْوَتَهُمْ، وَمُجَاهَدَتَهُمْ، وَتَخْطُو فِي مَسِيرَتِكَ

الدَّعَوِيَّة عَلَىٰ آثَارِهِمْ، حِرْصاً مِنكَ عَلَىٰ أَنْ يُؤْمِنُوا، فَلَعَلَّكَ تَقْتُلُ نَفْسَكَ أَسَفاً إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا القرآن، هَوِّنْ عَلَىٰ نَفْسِكَ الْأَمْرَ، وَلَا تَحْزَنْ مِنْ أَجْلِهِمْ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ، فَهُمْ مَوْضُوعُونَ في الْحَياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ لِإِرَادَاتِهِمْ الحرَّة.

أَشْفِقْ على نَفْسِكَ يَا مُحَمَّد مِنْ أَنْ تُعَرِّضَهَا لِلْقَتْلِ بِسَبَبِ الْهَمّ والْغَمّ، مِنْ أَجْلِ قَوْمَ لَمْ يُشْفِقُوا هُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ الَّذِي أَوْعَدَهُمْ بِهِ، مع اسْتِيقَانِ قُلُوبِهِمْ مِنْ صِدْقِ نُبُوَّتِكَ وَرِسَالَتِكَ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي تَتْلُوهُ عَلَيْهِم مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَبِمَا أَنَّ رِحْلَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رِحْلَةُ امْتِحَانٍ لِلْمَوْضُوعِينَ فِيهَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَأْتِي في البيانِ الْقُرْآنِيِّ بَعْدَ مَا سَبَقَ:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾:

الزِّينَة: مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ، **والتَّزْيِينُ**: جَعْلُ الشَّيْءِ مُلَائِماً لِمَا تَسْتَحْسِنُهُ النفوس، أو تُحِبُّهُ، أو تَشْتَهِيه.

لِنَبْلُوَهُمْ: لِنَخْتَبِرهم، ونَمْتَحِنَهُمْ.

الصَّعِيدُ: وَجْهُ الْأَرْض.

الْأَرْضُ الْجُرُز: هي الَّتِي اسْتُؤْصِلَ مَا عَلَيْهَا مِنْ نَبَاتٍ وَشَجرٍ فَصَارَتْ جَرْداءَ.

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ بِضَمِيرِ المتكلِّم العظِيم الْجَلِيلِ مُبَيِّناً أَنَّهُ جَعَلَ بِحِكْمَتِهِ السَّنِيَّةِ كُلَّ مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ مِمَّا تُحِبُّ النُّفُوسُ امْتِلَاكَهُ، أو الانْتِفَاعُ بِهِ، أو الاسْتِمْتَاعَ بالطَّيِّبِ مِنْهُ، والتَّلَذُّذَ بِمَا يَلَذُّهَا مِنْهُ، أَوِ التَّفَاخُرَ بِهِ، أَو

الاسْتِعْلَاءَ بِهِ والتَّقَوِّي عَلَىٰ النَّاسِ، إلى سَائِرِ مَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ مَتَاعٍ مُحَبَّبٍ أَوْ مَرْغُوبٍ للنُّفُوسِ، جَعَلَهُ بِحِكْمَتِهِ زِينةً لِلْأَرْضِ، تَتَعَلَّقُ بِهِ النُّفُوسُ والْقُلُوبُ بِصِفَةٍ عَامَّة.

وَالْغَرَضُ مِنْ هٰذَا التَّزْيينِ أَنْ يَمْتَحِنَ جلَّ جَلَالُهُ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، وهٰذَا الامْتِحَانُ يَكُونُ بِمُطَالَبَتِهِمْ بِتَرْكِ كَثِيرٍ مِمَّا يَهْوَوْنَ فِعْلَه، وَفِعْلِ كَثِيرٍ مِمَّا يَهْوَوْنَ تَرْكَهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَةِ اللهِ فيما يَطْلُبُ مِنْهُمْ فِعْلَهُ أَوْ تَرْكَهُ، وَهٰذِهِ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي الْتِزَامَ الْحَقِّ وَنَبْذَ الْبَاطِلِ، وفِعْلَ الْخَيْر وتَرْكَ الشّرّ، واخْتِيَارَ الْأَفْضَلِ وَالْأَحْسَنِ وَالْأَرْفَعِ دَرَجَاتٍ في الصُّعُودِ الكَمَالِي فِعْلاً أَوْ تَرْكاً.

وَبِهٰذَا الاخْتِيَارِ يَظْهَرُ أَيُّ الممتَحَنِينَ أحْسَنُ عَمَلاً في دَرَجَاتِ الارْتِقَاءِ، وأيُّ الممتَحَنِينَ أَسْوَأُ عَمَلاً في دَرَكَاتِ الانْحِطَاطِ حَتَّىٰ الدَّرْكِ الْأَسْفَل.

جَاءَ الاسْتِغْنَاءُ بِذِكْر الشِّقِّ الصاعِدِ، عَنْ ذِكْرِ الشِّقِّ الهابِطِ المنْحطّ، إذْ يَدُلُّ عَلَيْهِ تَقَابُلُ التَّضَادِّ.

وَهٰذَا الامْتِحَانُ يَسْتَتْبِعُ الْحِسَابَ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ، وتَحْقِيقَ الجزاءِ، بِمُقْتَضَىٰ حِكْمَةِ الرَّبِّ الحكيم الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لهٰذَا حَيَاةً أخرَىٰ غَيْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وجَعَلَ فِيها دَارَيْنِ، دَاراً لِلْجَزَاءِ بالثواب وهي جَنَّاتُ النَّعِيم، وَدَاراً لِلْجَزَاءِ بالْعِقَابِ، وَهِيَ النَّارُ ذَاتُ الْعَذَابِ الْأَلِيم، عَلَىٰ دَرجَاتٍ وَدرَكَاتٍ كُلٍّ مِنْهُمَا.

وَقبْلَ الْبَعْثِ إِلَىٰ الْحَيَاةِ الْأُخرَىٰ سَيُنْهِي اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ نِظَامَ وَظُرُوفَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ:

• ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾:

أي: وَإِنَّا بِعَظَمَةِ قُدْرَتِنَا عَلَىٰ مَا نَشَاءُ، سَنَجْعَل مُسْتَقْبَلاً كُلَّ مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ زِينَةً لها، مُسْتَأْصَلاً اسْتِئصَالاً تاماً، حَتَّىٰ يَصِيرَ وَجْهُ الْأَرْضِ خَالِياً مِنْ كُلِّ بِنَاءٍ وَشَجَرٍ وَنَبَاتٍ وَأَحْيَاءٍ، قاعاً صَفْصَفاً مُسْتَوِياً، فَلَا تَرَى فِي الْأَرْضِ عِوَجاً وَلَا أَمْتاً.

استعمل اسْمُ الفاعل في ﴿لَجَٰعِلُونَ﴾ بِمَعْنَىٰ الْفِعْلِ المضارع الدَّالّ على الاستقبال.

الأَرْض الْجُرُزُ: التي اسْتُؤْصِلَ مَا عَلَيْهَا مِنْ شَيءٍ، مِنْ نَبَاتٍ وَشَجَرٍ فَصَارَتْ جَرْدَاءَ.

وَبِهَذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الْأَوَّلِ مِنْ دُروس سورة (الكهف)

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٦)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الكهف)
الآيات من (٩ ـ ٢٦)

وفِيهِ أَرْبَعَةُ فصول:

الفصل الأول من قِصَّةِ أصحاب الكهف
الآيات من (٩ ـ ١٢)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾.

القراءات:

(١٠) • قرأ أَبُو جعفر، وحمزة، وهِشَام: [وَهَيِّي] بياءٍ أَخِيرَةٍ ساكِنَةٍ في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَهِيِّئ] بِهَمزَةٍ سَاكِنَةٍ أخِيرَةٍ وصلاً ووقفاً.

تَمْهيد:

فِي هَـٰذَا الْفَصْلِ مُلَخَّصٌ وَجِيزٌ لِقِصَّةِ أَصْحَابِ الكَهْف، وهُو بِمَثَابَةِ فاتِحَةٍ فَنِّيَّةٍ للدُّخُولِ في التَّفْصِيلَات المقْصُودِ بَيَانُهَا مِنْ قِصَّتِهِمْ.

قِصَّةُ أَهْلِ الكَهْفِ أَخْذاً مِن المؤرِخِينَ الموثُوقِ بِهِمْ:

كانَ أصْحَابُ الكهف فِتْيَةً مِنْ أهَالِي «أَبْسُس» وهِي بَلْدَةٌ مِنْ ثُغُورِ «طَرْسُوس» بَيْنَ حَلَب، وبِلَادِ أَرْمِينْيَةَ وأَنْطَاكِية.

ويظهر أَنَّهم تَنَصَّرُوا تَأَثُراً بالدّعَاةِ إلى النَّصْرَانِيَّةِ الموَحِّدين الَّذِينَ كانُوا يَأْتُونَ إِلَىٰ الْبِلَادِ تَحْتَ سِتَارِ صَانِعِي الخيام، فَيَحُطُّونَ رِحَالَهُمْ خَارِجَ مَسَاكِنِهَا، وَيَصْنَعُونَ الخيامَ لِطُلَّابِها، وَيَدْعُونَ إِلَىٰ الإيمان باللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِلَىٰ نَبْذِ الْوَثَنِيَّاتِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي مُعْظَمِ بِلَادِ الدُّنيا، مَا تَيَسَّرَ لَهُمْ ذَلِكَ مُسْتَخْفِينَ.

وَكَانَ أَهْلُ «أَبْسُس» وثَنِيِّينَ يَعْبُدُونَ الأَصْنَام.

وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ الَّذِينَ آمَنُوا بِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ دِينٍ حَقٍّ، فِي زَمَنِ الإِمْبراطور «دُوقْيُوس» أو «دُقْيَانُوس» الَّذِي لَمْ يَدُمْ مُلْكُهُ أَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ واحدة، هي سنة «٢٣٧م» وَكَانَ شَدِيدَ التَّعَصُّبِ لِلْوَثَنِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ، وَشَدِيدَ الكراهِيَّةِ لِلنَّصْرَانِيَّةِ الَّتِي يَنْشُرُهَا دُعَاتُهَا في مُخْتَلِفِ الأَقَالِيم.

وأظْهَرَ هؤلَاءِ الْفِتْيَةُ الَّذِينَ تَنَصَّرُوا كراهِيَتَهُمْ، وَمُقَاوَمَتَهُمْ لِلْوَثْنِيَّةِ الَّتِي هِي دِيَانَةُ الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ في أَيَّامِهِمْ، فأنْذَرَهُمْ «دُوقْيُوس» إذا لَمْ يَعُودُوا إلى مِلَّةِ قَوْمِهِمْ الْوَثْنِيَّة بالتَّعْذِيبِ والْقَتْلِ.

فاتَّفَقَ هؤلاء الْفِتْيَةُ على أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مَدِينَةِ «أَبْسُس» وَيَأْوُوا إلَىٰ كَهْفٍ في جَبَلٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المدينة قُرَابَةُ فَرْسَخَيْن، وَهما (٦) أميال، تُقَدَّرُ بنحو (٩,٦) كيلو متراً وزيادة.

وحَاول «دُوقْيُوس» تَنْفِيذَ مَا تَوَعَدَهُمْ بِهِ لَكِنْ عَاجَلَتْهُ مِنِيَّتُه.

وضَرَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ مَوْتَةً مُؤَقَّتَةً، بَعْدَ أَنْ أَوَوْا إلى الكَهْفِ، ثُمَّ بَعَثَهُمْ إلَىٰ الْحَياة، بَعْدَ سِنِينَ طَوِيلَة، وَظَنُّوا أَنَّ نَوْمَتَهُمْ لَمْ تَطُلْ أَكْثَرَ مِنْ يَوْمٍ، وَأَحَسُّوا بالحاجَةِ إلى الطَّعَامِ، فأرْسَلُوا واحداً مِنْهُمْ لِيَشْتَرِي لَهُمْ طَعَاماً بِفِضَّةٍ مَضْرُوبَةٍ نُقُوداً، فَرَأَى النَّاسَ غَيْرَ مَنْ يَعْرِفُ، وَرَأَىٰ أَنَّ النُّقُودَ الَّتِي يَتَعَامَلُ بِهَا النَّاسُ على غَيْرِ صُورِ نُقُودِهِم الفِضِيَّة، وبذلِكَ انْكَشَفَ أَمْرُهِ وأَمْرُ أَصْحَابِهِ، وَكَانَ دِينُ الدَّولَةِ الرُّومَانِيَّةِ قَدْ تَغَيَّرَ، وَصَارَ للدِّيَانَةِ النصرانِيَّة انْتِشَار.

ويَظْهَرُ أَنَّ بَعْضَ رِجالِ الدَّوْلَةِ قَدْ وَصَلُوا إلَىٰ الكَهْفِ الَّذِي أَوَىٰ الْفِتْيَةُ إِلَيْهِ، وَرَأَوْا هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةَ وَحَادَثُوهُمْ وَعَرَفُوا قِصَّتَهُمْ، وَلَمْ يَطُلْ بِهِمُ الْأَمْرُ، إِذْ أَعَادَهُمُ اللهُ إلَىٰ الْمَوْتِ.

واخْتَلَطَتْ رِوَايَاتُ مُؤَرِّخِي قِصَّتِهِمْ اخْتِلاطاً يَدْعُو إلى الإعراضِ عَنْهَا، وَعَدَم الثِّقَةِ بِشَيْءٍ مِنْهَا، وَحَسْبُنَا مَا جَاءَ فِي القرآن المجيد بِشَأْنِهِم، وَدَلَالَةِ بَعْثِهِمْ بَعْدَ (٣٠٠) سنة شَمْسِيَّة، عَلَىٰ بَعْثِ اللهِ الْمَوْتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُ كُلَّ مُتَلَقٍّ صَالِحِ للخطاب:

• ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾:

• ﴿أَمْ﴾: يَنْحَلُّ مَعْنَاهَا إلى «بَلْ» الَّتِي هي للإضراب الانْتِقَالِي مع استفهام.

• ﴿حَسِبْتَ﴾: أي: ظَنَنْتَ ظَنًّا تَوَهُّمِيًّا ضَعِيفاً.

• ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾: أيْ: أنْ أصْحَابَ الكَهْفَ المؤمنين الَّذِينَ تَوَفَّيناهُمْ تَوَفِّيًا رُقَادِيًّا مِئَاتٍ مِنَ السِّنين، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ أحْيَاءً فِي الدُّنيا.

• ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾: **الرَّقِيم**: أي: المرقُوم بمَعْنَىٰ المكْتُوب، فَهُو يُطْلَقُ على لَوْحٍ كُتِبَتْ عَلَيْهِ كتابَةٌ ما، ويُطْلَقُ عَلَىٰ كِتَابٍ فِيهِ مَكْتُوبٌ ما.

والرَّاجِحُ أَنَّ المُرَادَ لَوْحٌ مَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ أَسْمَاؤُهُمْ وبَعْض مَا يَتَعَلَّقُ بِقِصَّتِهِمْ، وَكَيْفَ تَوَفَّاهُمْ رَبُّهُمْ سِنِينَ كَثِيرَةً ثُمَّ بَعَثَهُمْ.

• ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾: **الْعَجَبُ**: الأمْرُ الخارِقُ المثِيرُ للدَّهْشَةِ لِغَرَابَتِهِ، يُقَالُ: هـٰذَا أَمْرٌ عَجَبٌ، أي: مُثِيرٌ للدَّهْشَةِ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَأْلُوفِ الشَّبِيهِ.

والمعنى: أَتَحْسَبُ تَوَهُّماً أَنَّ قِصَّةَ هؤلَاءِ مُتَمَيِّزَةٌ بِكَوْنِها أَمْراً عَجَباً، مِنْ بَيْنِ سَائِرِ آيَاتِنَا الْعُظْمَىٰ فِي كَوْنِنَا.

إنَّ هـٰذَا الظَّنَّ التَّوَهُّمِيَّ لا أَسَاسَ لَهُ مِنَ الْحَقِّ، إِذْ كُلُّ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ مُثِيراتٌ للدَّهْشَةِ وَالْعَجَبِ الْعُجَاب، وَلَا دَاعِي لَهُ إِلَّا الْغَفْلَةُ عَنْ سَائِرِ آيَاتِ اللهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَنْفُسِ، وَقَضِيَّةُ الْوَفَاةِ بالرُّقَادِ والْبَعْثِ بَعْدَ مِئَاتِ السِّنِينَ مِنْ صُغْرَيَاتِ آيَاتِ اللهِ، إنَّ تَحْوِيلَ المادَّةِ الَّتِي لَا حَيَاةَ فِيها إلَىٰ حَيٍّ لَهُ صِفَاتُ الْأَحْيَاءِ الرَّاقِيَةِ أعْظَمُ مِمَّا أجْرَاهُ الْخَالِقُ لِأَصْحَابِ الكهْف، على أنَّ كُلَّ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ قُدْرَتِهِ سَوَاءٌ، لِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ ـ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ بأمْرِ التَّكْوِين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

• ﴿إِذْ﴾: ظَرْفٌ للزَّمَنِ الماضِي.

• ﴿أَوَى﴾: بمعنى نَزَلَ وسَكَن، يُقَالُ لغةً: «أَوَىٰ المَكَانَ، وأَوَىٰ إِلَيْهِ» أي: نَزَلَ بِهِ وَسَكَنَهُ.

• ﴿ٱلْكَهْفِ﴾: تَجْوِيفٌ فِي باطِنِ جَبَلٍ لَهُ مَدْخَلٌ يُدْخَلُ إِلَيْهِ مِنْهُ، وهو أَكْبَرُ وَأَوْسَعُ مِنَ: «الغار». «وال» في لفظ: «الكهف» للجنْسِ.

المعنى: ضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي قِصَّةَ الْفِتْيَةِ المؤمِنِينَ الّتِي بَدَأَتْ حِينَ أَوَوْا إِلَىٰ الكَهْفِ فِراراً بِدِينِهِم الحقِّ، مِنْ طُغْيانِ الكَفَرَةِ ذَوي البأسِ والسُّلْطانِ، الَّذِينَ تَوَعَّدُوهم بالتَّعْذِيب والْقَتْلِ، إِذَا لَمْ يَعُودُوا إِلَىٰ دينهم الْوَثَنِيّ.

وحِينَ أَوَوْا إلى الكَهْفِ دَعَوْا رَبَّهُمْ قائِلِينَ:

• ﴿... رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾:

أي: يَا رَبَّنَا أعْطِنَا مِنْ أَقْرَبِ عِنْدِيَّةٍ لَكَ، أَثَرَ رَحْمَةٍ عَظِيمَةٍ تَحْمِينَا بِهَا مِنْ أَعْدَاءِ دِينِكَ، الَّذِينَ تَوَعَّدُونَا بالتَّعْذِيب والْقَتْلِ، لِأَنَّنَا آمَنَّا بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ رَسُولُكَ، وَقُمْنَا نَدْعُو إِلَيْهِ فِي قَوْمِنَا، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا فِي حَيَاتِنَا سُلُوكاً رَشداً، مُوَافِقاً لِمَا يُرْضِيكَ مِنَّا، اعْتِقَاداً، وقَوْلاً، وَعَمَلاً، وخُلُقاً.

الرَّشَدُ، والرُّشْدُ، والرَّشادُ: السُّلُوكُ الْفِكْرِيُّ، والنَّفْسِيُّ، والْخُلُقِيُّ، والْعَمَلِيُّ، الموافِقُ لِلْحَقِّ والصَّوَابِ، أو لِمَا هُوَ الأَفْضَلُ والأَحْسَنُ، والأَكْثَرُ نَفْعاً، والأَبْعَدُ عَنِ الضَّرَر.

وبِهٰذَا الدُّعاء طَلَبُوا الْحِمَايَةَ مِنَ اللهِ، وَطَلَبُوا أَنْ يُهَيِّئَ لَهُمْ سُلُوك

الصِّرَاطِ المسْتَقِيم، الَّذِي يُحَقِّقُونَ بِهِ رِضْوَانَهُ، والظَّفَرَ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾:

• ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾:

الضَّرْب: إلْصَاقُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ بِقُوَّةٍ وعُنْفٍ، وَقَدْ يَنْفُذُ المضْرُوبُ بِهِ إلى عُمْقِ المضْرُوب، كالضَّرْبِ بالسَّيْف أو الرُّمْحِ أوِ السِّكِّينِ، أو نحوها.

أي: وَعقِبَ دُخُولِهِمْ إلى الكَهْفِ وَدُعَائِهِمْ، واضطجاعِهِمْ للرّاحَةِ بَعْدَ سَيْرِهِم الطَّوِيل إلَيْهِ، ضَرَبَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِمَضْرُوبٍ مَا هُوَ يَعْلَمُهُ، جَعَلَهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ سَبَباً لإِنَامَتِهِمْ إنَامَةً طَوِيلَةً، هِيَ بِمَثَابَةِ الْوَفَاةِ الصُّغْرَىٰ.

وَقَدْ يَكُونُ الْمَضْرُوبُ بِهِ نَافِذاً إلَىٰ مَرَاكِزَ فِي آذَانِهِمْ، تُؤَثِّرُ عَلَىٰ جِهَازِ النَّوْمِ فِي أدْمِغَتِهِمْ، فَتجْعَلُهُمْ يَنامُونَ نَوْماً عَمِيقاً كَالمُخَدَّرِينَ تَخْدِيراً كَامِلاً لإجراء الجراحَةِ في أَجْسَادِهِمْ.

• ﴿... فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾: أي: فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ حَالَةَ كَوْنِهِمْ مضطّجعينَ في الكَهْفِ، وَجَعَلْنَا هَـٰذَا الضَّرْبَ مُسْتَمِراً سِنِينَ ذَوَاتَ عَدَدٍ كَثِيرٍ، بالنِّسْبَةِ إلَىٰ مَفْهُومِ النَّاسِ فِي مُعْتَادَاتِهِمْ.

دَلَّ لَفظ «عَدَداً» عَلَىٰ كَوْنِهِ كَثِيراً، إذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَثِيراً لِمَا احْتَاجَ وَصْفُ «سِنينَ» به.

«عَدَداً» مَصْدَرُ «عَدَّدَ الشَّيْءَ» بِمَعْنَىٰ «عَدَّه».

• ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ السِّنِينَ الكَثِيرَةِ الَّتِي جَعَلْنَاهُمْ فيها رُقُوداً أَيْقَظْنَاهُمْ.

«**الْبَعْث**» من معانيه الإيقاظُ مِنَ النَّوْم.

• ﴿... لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾:

الحزْب: الجماعَةُ المتفقَةُ المتناصِرَةُ على أمْرٍ ما.

• ﴿أَحْصَىٰ﴾: يقال لغة: «أَحْصَىٰ الشَّيءَ» أيْ: عَرَفَ مِقْدَارَه. وعند سيبويه وابْن عُصْفُور يجُوزُ أن يكون «أحْصَىٰ» اسْمَ تفضيل إذْ يَجُوزُ عندهما صوغ اسْمِ التفضيل «أفْعَل» من الْفِعْلِ المزيد قياساً مُطَّرِداً.

• ﴿أَمَدًا﴾: **الأَمَدُ**: الغايَةُ والنِّهايَة، فأمَدُ الشيءِ غايتُه ونهايَتُه.

والأمد: الزمن الذي يكُونُ غَايَةَ الأجل، وتَكُونُ عنْدَهُ نِهايَةِ المدَّة، ويُطْلَقُ الْأَمَدُ على الزَّمن الذي يَبْدأ عِنْدَ عُمْرُ الشيْءِ الحادث، كوقْتِ مِيلادِ الحيّ. و﴿أَمَدًا﴾ تمييز، وهو من تمييز نِسْبَةِ الفِعْلِ إلى المفعول.

واللُّبْثُ: هُو الإقَامَة في المكان.

وَذِكْرُ «الْحِزْبَيْن» دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الَّذِينَ اكْتَشَفُوهُم مِنْ أَهْلِ المدينَةِ، الَّتِي كَانُوا قَدْ فَرُّوا مِنْ طُغْيَانِ جبَّارِها، قد انْقَسمُوا إلَىٰ فَرِيقين. في تَحْدِيدِ مُدَّةِ رُقُودِهِمْ في الكَهْفِ، أَخْذاً مِنْ أَقْوَالِ أَهْل الكهْفِ، واسْتِنْباطاً مِنْ نُقُودِ الْفِضَّةِ الَّتِي كانَتْ مَعَهُمْ، وَهـٰذَا بَعْدَ أَنْ رَجَعَ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُمْ لِيَشْتَرِيَ لَهُمْ طَعَاماً، وأمَاتَهُمُ اللهُ بَعْدَ إيقاظِهِم، فَفَرِيقٌ مِنَ الْحِزْبَيْنِ كانَ أَقْرَبَ إِلَىٰ إِحْصَاءِ الزَّمَنِ الَّذِي بَدَأَ عِنْدَهُ دُخُولُهُمْ إِلَىٰ الكَهْف.

فالمعنى: ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ بَعْدَ رُقُودِهِمُ الطَّوِيلِ سِنِينَ ذَوَاتَ عَدَدٍ كثيرٍ، لِنَعْلَمَ أَنَّ مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ الحِزْبَانِ في أَمَدِ لُبْثِهِمْ في الكَهْفِ؛ بَعْدَ عُثُورِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ، مُطَابِقٌ لِمَا سَبَقَ عِلْمُنَا بِهِ، لَمْ يَخْتَلِفْ عَنْهُ فِي شيءٍ صَغِيرٍ وَلَا كبير، وَهـٰذَا مِنْ خَصَائِص الْعِلْم الرَّبَّانِيِّ الشَّامِلِ لِمَا كَانَ، وَلِمَا هُوَ كَائِنٌ، وَلِمَا سَيكُونُ، وَلِمَا سَوْفَ يَكُونُ، وَلَوْ كَانَ مِنَ اخْتِيَارَاتِ الَّذِينَ مَنَحَهُمْ اللهُ إِرَادَاتٍ حُرَّة.

وقَالَ اللهُ ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: وَلِنُعْلِمَكُمْ بِشُمُولِ عِلْمِنَا السَّابقِ لِمَا تَخْتَارُونَ آنَاً فآنَاً بإرَادَاتِكُمْ الْحُرَّة، فَقَدْ سَبَقَ عِلْمنَا به، وَيُطَابِقُ عِلْمُنَا بِهِ بَعْدَ الْوُقُوع مَا سَبَقَ بِهِ عِلْمُنَا، دُونَ أَنْ يَكُونَ مِنَّا جَبْرٌ لإِرَادَاتِ ذَوِي الإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ في اخْتِيَارَاتِها.

نُعْلِمُكُمْ بهذه الحقيقة المتَعَلِّقَةِ بِشُمُولِ عِلْمِنَا، وَإِنْ كَانت عُقُولُكُمْ عاجِزَةً عَنْ إدْراكها، كَمَا هِيَ عاجِزَةٌ عن إِدْرَاكِ الأَزَلِ والْخَلْقِ مِن العدم، وغيرِ ذَلِكَ ممَّا لَا تَصِلُ عُقُولُكُمْ إِلَىٰ إِدْراكه.

الفصل الثاني من قصّة أصحاب الكهف
الآيات من (١٣ ـ ١٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَتَحَدَّثُ بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم:

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.

القراءات:

(١٦) • قرأ السُّوسي، وأَبو جعفر، وحمزة: **[فَاوُوا]** بألف مَدِّية بَعْدَ الفاء في الوقف فقط.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَأْوُوا]** بهمزة ساكنة وصلاً ووقفاً.

(١٦) • قَرَأَ أَبو جَعْفَر: **[وَيُهَيِّي]** وَصْلاً ووقفاً، وكذلك حَمزة، وهشام في الوقف فقط.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَيُهَيِّيءُ] وصلاً ووقفاً.

(١٦) • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [مَرْفِقاً].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِرْفَقاً].

وهما لغتان عَرَبِيّتان بِمَعْنَىٰ الانْتِفَاعِ والاسْتِعَانَةِ.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الْفَصْلِ مَقْطَعٌ تَفْصِيليٌّ أَوَّلُ من قِصَّةِ أصْحابِ الكَهْف.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يتَحَدَّثُ بِضَمِيرِ المتكلّمِ العظيم الذي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً:

• ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾.

• ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾: أي: نَحْنُ بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِنَا وشُمُولِ عِلْمِنَا كُلَّ شيءٍ كَانَ، أَوْ هُوَ كائنٌ، أَوْ سَيَكُونُ، نُحَدِّثُكَ بِمَا قَضَتِ الْحِكْمَةُ أَنْ نُحَدِّثَكَ بِهِ مِنْ أَخْبَارِ أَصْحَابِ الكَهْف.

الْقَصُّ: تَتَبُّعُ الأَثَرِ شَيْئاً فَشَيئاً. ويُقَالُ لغةً: «قَصَّ فُلَانٌ عَلَىٰ فُلَانٍ الْخَبَرَ» أي: حَدَّثَهُ بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ.

• ﴿نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾: أي: خَبَرَ أَصْحَابِ الكَهْفِ الْبَارِزَ ذَا الشَّأْنِ مُتَّصِفاً بأَنَّهُ حقٌّ.

النَّبَأُ: الْخَبرُ البارِزُ ذُو الشَّأْنِ الرَّفِيعِ الَّذِي يَشْغُلُ الأَفْكَارَ.

• ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾: أي: إِنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ فِتْيَةٌ.

الْفِتْيَةُ: جَمْعُ «الْفَتَىٰ» وهُو الشَّابُّ أَوّل شَبابِهِ بَيْنَ المراهَقَةِ والرُّجُولَة.

• ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾: أي: خَطَوَا بإرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ الْخُطُوَاتِ الأُولىٰ في صِرَاطِ الْهُدَىٰ، فَآمَنُوا بِرَبِّهِمْ، وَهـٰذَا الإيمَانُ الصَّحِيحُ هُوَ مِفْتَاحُ الْمَسِيرِ السَّلِيمِ فِي صِرَاطِ الْهُدَىٰ، فزادَهُمُ اللهُ هُدَىٰ بِمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ لِيُتَابِعُوا الْمَسِيرَ عَلَىٰ صراط اللهِ المستقيم في الأَقْوَالِ والأعْمَالِ والنِّيات.

ونَفْهَمُ مِنْ هـٰذَا أَنَّ مَنْ بَدَأَ بإرَادَتِهِ الحرَّةِ خُطْوَةَ الْإِيمانِ الأولى، فآمَنَ إيماناً صَحِيحاً، زَادهُ اللهُ هُدًى بِمَعُونَتِهِ وتَوْفِيقِهِ وحفْظِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يتابعُ قِصَّة أصْحَاب الكهف:

• ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾:

• ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: الرَّبْط عَلَىٰ الْقَلْبِ أو الْقُلُوبِ في دَلَالَات النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّة مَعْنَاهُ التَّثْبيتُ والتَّقْوِيَةُ، للتَّحمُّلِ والصَّبْرِ، والثِّقَةِ باللهِ والتَّوكُّلِ عَلَيْهِ، وهُوَ مِنْ قَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ الْقَائِمَةِ عَلَىٰ تَشْبِيهِ الْقَلْبِ بِشَيْءٍ قَابِلٍ للتَّمزُّقِ والتوزُّع في الْجِهَاتِ، فَإِذَا أُدِيرَ عَلَيْهِ حَبْلٌ وَرُبط طَرَفَاهُ، مَنَعَهُ هـٰذَا الرَّبْطُ من التَّمزُّقِ والتَّوزُّع، بِسَبَبِ الضَّوَاغِطِ الْمُمَزِّقَة لَهُ مِنْ دَاخِلِهِ، كالْخَوْفِ، والْحُزْنِ، والطَّمعِ، والْحُبِّ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعَوَاطِفِ الْمُفَجِّرَة.

• ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: وثَبَّتْنَاهم وَقَوَّيْنَاهُم حِينَ قَامُوا بِجُرْأَةٍ وَشَجَاعَةٍ في كُبَرَاءِ قَوْمِهِم المشْرِكِين، دَاعِينَ إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ وإِلَىٰ نَبْذِ الشِّرْكِ، فَقَالُوا: رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، لَا أَوْثَانُكُمُ الَّتِي تَعْبُدُونها وَتَتَّخِذُونَهَا أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ.

وَهـٰذَا يَدْخُلُ فِي عموم: ﴿وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾.

وتابَعَ الْفِتْيَةُ المؤمِنُون دَعْوَتَهُمْ فِي كُبَرَاءِ قَوْمِهِم: فقالوا:

● ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

نَفْهَمُ مِنْ هٰذَا الْبَيان أَنَّ كُبَرَاءَ قَوْمِهِمْ أَلْزَمُوهم بأَنْ يَعُودُوا إِلَىٰ الشِّرْكِ، فقالُوا لَهُمْ بِجُرْأَةٍ وَشَجَاعَةٍ وَثَبَاتٍ وَحَزْمٍ: لَنْ نَعْبُدَ مِنْ دُونِ رَبِّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ إِلَهاً، فاقْطَعُوا أَمَلَكُم بإعَادَتِنَا إلىٰ الشِّرْك.

واعْلَمُوا أَنَّنَا إِنْ قُلْنَا بِوُجُودِ إِلَهٍ غَيْرِ رَبِّنَا، فَنُقْسِمُ أَننا لَقَدْ قُلْنَا إِذاً قَولاً فِيهِ شَطَطٌ عَظِيمٌ، وَجَوْرٌ، وَظُلْمٌ، وَمُجَاوَزَةٌ لِلْحَقِّ بَعِيدَةٌ.

الشَّطَطُ: الجوْرُ، والظُّلْمُ، وَمُجَاوَزَةُ حَدِّ الحقِّ وَواجِبِ الْعَدْلِ، بإِفْرَاطٍ لَا تَقْبَلُهُ العقولُ السَّلِيمَة.

﴿إِذًا﴾: يَقُولُ عُلَماء الْعَرَبِيَّةِ هِي هُنَا لَغْوٌ، لِأَنَّ مَا قَبْلَهَا مُفْتَقِرٌ إِلَىٰ مَا بَعْدَهَا، وأَقُولُ: هِيَ بِمَعْنَىٰ «حِينَئِذٍ». أي: لَقَدْ قُلْنَا حينَئِذٍ شططاً، نظراً إلى مُخْتَلِفِ اسْتِعْمَالَاتِهَا، واللهُ أعلم.

واسْتُعْمِلَ فِعْلُ «نَدْعُوا» ومُشْتَقاتُهُ في القرآن بِمَعْنَىٰ نَعْبُد كثيراً. لِأَنَّ الدُّعَاءَ بِمَعْنَىٰ طَلَبِ مَرْغُوبٍ فِيهِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هو من العبادة للهِ تبارك وَتَعَالَىٰ، وَهُوَ أَوَّلُ الْعِبَادَاتِ، بَعْدَ الإيمان.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً قِصَّةَ أَصْحَابِ الكهف:

● ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنِۭ بَيِّنٍۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾:

دَلَّ هٰذَا الْبَيَانُ عَلَىٰ أَنَّهُمْ فَارَقُوا قَوْمَهُمْ بَعْدَ دَعْوَتِهِمْ بما سَبَقَ بَيَانُه، فَقَالُوا فِي حَدِيثٍ تَبادَلُوهُ بَيْنَهُمْ مُعْتَزِلِينَ جَماهِيرَ قَوْمِهِمْ الْمُشْرِكِين، خُلَاصَتُهُ مَا يلي:

(١) ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾: أَيْ: هَـؤُلَاءِ قَـوْمُـنَـا

السُّفَهَاءُ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ رَبِّهِمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي لَهُ الحقُّ وَحْدَهُ أَنْ يَعْبُدوه، آلِهَةً يَعْبُدونها لاعْتِقَادِهِمْ بأنَّ لَهَا رُبُوبِيَّةً ما، فَهُمْ يَرْجُونَ أَنْ تَجْلُب لَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ وَتَدْفَعَ عَنْهُمْ مَا يَضُرُّهُم.

(٢) ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ﴾: أي: إِنَّهُم لمَّا حاوَرْناهُم لم يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَأْتُوا بِدَلِيلٍ ما تَقْبَلُهُ العقول، هَلَّا يأْتُونَ بِبُرْهَانٍ وَاضِحٍ عَلَىٰ صِحَّةِ عِبَادَتِهِمْ لِآلِهَةٍ مِنْ دُون الله، حتَّىٰ يَكُونُوا مَعْذُورِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وعِنْدَ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ مِنَ الناس.

- ﴿لَّوْلَا﴾ حَرْفُ تَحْضِيضٍ بِمَعْنَىٰ «هَلَّا».
- ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: أي: بِحُجَّةٍ بِرْهَانِيَّةٍ واضِحَة.

(٣) ﴿... فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾: أي: وإِذْ لَا سُلْطَانَ لَهُمْ عَلَىٰ شِرْكِيَّاتِهِم المتَعَلِّقَةِ بِرَبِّهِم رَبِّ السَّمَاوات والأَرْضِ، فَهُمْ ظَالِمُونَ مِنْ أَخَسِّ دَرَكَاتِ الظُّلْم. وَقَدْ جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْ هَٰذِهِ الفِكْرَةِ بأسْلُوب الاسْتِفْهَام الَّذِي يُرَادُ بِهِ النفي، أَيْ: لَا أَحَدَ أَشَدُّ ظُلْماً مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً.

افْتِراءُ الكَذِبِ: اخْتِلَاقُ الكَذِبِ واصْطِنَاعُهُ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ كَذِبٌ مُخَالِفٌ لِلْحَقِّ والْوَاقِع، ومِنْهُ الْتِزَامُ الْبَاطِلِ الَّذِي لَا بُرْهَانَ له.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً قِصَّةَ أَصْحَابِ الكَهْفِ ومُبَيِّناً مَا قَالُوا:

- ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾:

الاعْتِزَالُ: الْبُعْدُ والتَّنَحِّي عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي حَصَلَ الاعْتِزَالُ عَنْهُ، مَادِّياً أَوْ مَعْنَوِيًّا.

- ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: وَكُلَّ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ مَعْبُودَاتٍ وَمَعْبُودِين، باسْتِثْنَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

• ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾: أي: فَاجْعَلُوا مَسْكَنَكُمْ الَّذِي تُقِيمُونَ فيه، الكَهْفَ المناسِبَ لَكُمْ الَّذِي أخْتَرْتُمْ أَنْ تَحْتَمُوا بِهِ، حَتَّىٰ لَا يَعْتَدِي عَلَيْكُمْ كُبَرَاءُ قَوْمِكُمْ، الَّذِينَ سَخِطُوا أَنْ تَتْرُكُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ وَثَنِيَّاتٍ، وَتُؤْمِنُوا باللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَوَعَّدُوكُمْ بالتَّعْذِيبِ والْقَتْل.

• ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾: **النَّشْرُ**: الْبَسْطُ والمدُّ، وَتَوْسِيعُ وَجُودِ الشَّيْءِ أَوْ أَجْزَائِهِ فِي أَمَاكِنَ مُتَعَدِّدَة، بِحَسَبِ قُوَّةِ النَّشْرِ، والغايَةِ الَّتِي يَصِلُ إِلَيْها.

أي: فأْوُوا إِلَىٰ الكَهْفِ مُحْتَمِينَ بِهِ، يَبْسُطَ لَكُم رَبُّكُمْ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ مَا يَحْفَظُكُمْ ويَحْمِيكُمْ بِهِ، وَمَا تَطْمَئِنُّ بِهِ قُلُوبُكُم مِنْ أَمْنٍ وَراحَةٍ، وَمَا تَطْلُبُونَ مِنْ حَياةٍ طَيِّبَةٍ، فَهٰذَا الكَهْفُ بَعِيدٌ عَنْ عُيُونِ أَهْلِ مَدِينَتِكُمْ، وَمَجْهُولٌ لَهُمْ غَيْرُ مَعْرُوفٍ أَنَّهُ مَلْجأٌ مُناسِبٌ لِلْفَارِّين.

• ﴿... وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾: أَيْ: وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِ حَياتِكُمْ وَرِزْقِكُمْ، بعِنَايَتِهِ بِكُم، وَبِأَلْطَافِهِ الْخَفِيَّةِ، مَا تَرْتَفِقُونَ بِهِ، أَيْ: مَا تَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَتَسْتَعِينُونَ بِهِ، فِي حَاجَاتِ حَيَوَاتِكُمْ وَمَطَالِبِكُمْ فيها.

فأنامَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ولَمْ يُحْوجهمْ إِلَىٰ طَعَامٍ وشَرابٍ ونحوهما.



الفصل الثالث من قِصَّةِ أصحاب الكهف
الآيتان (١٧ و١٨)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ

وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾.

القراءات:

(١٧) • قرأ ابن عامر، ويعقوب: **[تَزْوَرُّ]**.

وقرأها عاصم، وحمزة، والكِسَائي: **[تَزَاوَرُ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَزَّاوَرُ]**.

(١٧) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأَبُو جعفر: **[فَهُوَ الْمُهْتَدي]** في الوصل.

وكذلك يعقوب في الوصْلِ والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَهُوَ الْمُهْتَدِ]** بِحَذْفِ الياء وصلاً ووقفاً.

(١٨) • قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: **[وَتَحْسَبُهُمْ]** بفَتْح السين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَتَحْسِبُهُمْ]** بِكَسْرِ السين.

وهما لغتان عَرَبيتان.

(١٨) • قرأ نافع، وابْنُ كثير: **[وَلَمُلِّئْتَ]** بتَشْدِيد اللام المكسورة، وهمزة ساكنة بَعْدَها.

وقرأ السُّوسي: **[وَلَمُلِيتَ]** بلام مَكْسُورَةٍ غير مُشَدَّة، وبإِبْدَالِ الهمزة ياءً مَدِّيّة. وكذلِكَ قرأ حمزةُ في الوقف فقط.

وَقَرأها أَبُو جعفر: **[وَلَمُلِّيتَ]** بلام مَكْسُورَةٍ مُشَدَّدَة، وبإِبْدَالِ الهمزة ياءً مَدِّيَّة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَلَمُلِئْتَ]** بلامٍ مكْسُورَةٍ غَيْرَ مُشَدَّدَةٍ، وهمزة سَاكِنَةٍ بَعْدَهَا.

(١٨) • قرأ ابن عامر، والكِسَائي، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: [رُعُباً] بضم العين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [رُعْباً] بإسْكَانِ الْعَيْن.

وهُمَا لغتان عَرَبِيَّتان.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هـٰذَا الْفَصْلِ وَصْفٌ لِحَالَةِ أصْحَابِ الكَهْفِ، بَعْدَ أَنْ أَلْقَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ الطَّوِيل.

وَطَوَىٰ النَّصُّ فِي السُّورَةِ بَيَانَ وُصُولِهِمْ إلى الكَهْفِ، وَدُخُولِهِمْ إلَىٰ دَاخِلِهِ، وَاضطِّجاعِهِمْ للرَّاحَةِ، وَإلْقَاءِ النَّوْمِ عَلَيْهِمْ، لإمْكَانِ إدْرَاكِ كُلِّ ذَلِكَ بشَيْءٍ مِنَ التَّأَمُّلِ الْفِكْرِيّ.

التَّدَبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِكُلّ صالحٍ لِتَلقِّي الخطاب:

• ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾.

• ﴿تَّزَٰوَرُ﴾: أي: تتَزَاوَرُ، مَأْخُوذٌ مِنَ الزَّوَرِ وَهُو الْمَيْلُ، والمعنىٰ: أَنَّ الشَّمْسَ تَتَمَايَلَ عَنْ كَهْفِهِمْ إِذَا طَلَعَتْ إِلَىٰ الْجِهَةِ ذَاتِ الْيَمِين بِحَسَبِ المشارِقِ المختَلِفَةِ، وبِحَسَبِ مَسِيرَتِهَا الْيَوْمِيَة.

• ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾: أي: تَعْدِلُ عَنهُمْ وَتَتْرُكُهم، نقولُ لُغَةً: «قَرَضْتُ المكَانَ» أَيْ: عَدَلْتَ عَنْهُ. أصل الْقَرْضِ: الْقَطْعُ.

والمعنىٰ: أنّ الشَّمْسَ عِنْدَ الْغُرُوبِ تَعْدِلُ عَنْ كَهْفِهِمْ إلى الْجِهَةِ ذَاتِ الشِّمَالِ، فَلَا تُصِيبُهُمْ أَشِعَّتُهَا، وتَنْقَطِعُ عَنْهُمْ دُونَ تَدرُّج.

• ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾: أيْ: وهُمْ فِي مَكَانٍ مِنَ الكَهْفِ مُتَّسِعٍ.

الْفَجْوَة: المتَّسَعُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، وفَجْوَةُ الدَّارِ سَاحَتُها.

والمعنى: وتَرَىٰ أَيُّهَا المتَلَقِّي أيًّا كُنْتَ إنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَصْلُحُ للرُّؤيَةِ، الشَّمْسَ فِي مَطَالِعِهَا عِنْدَ الشُّرُوق، تَقَعُ عَلَىٰ مَدْخَلَ كَهْفِهِمْ قَلِيلاً، وتَمِيلُ عَنْهُ مُتَّجِهَةً إلَىٰ جِهَةِ يَمِينِ الكَهْف، وَإِذَا اقْتَرَبَ غُرُوبُهَا تَعْدَلُ عَنْهُمْ وَعَنْ كَهْفِهِمْ مُتَّجِهَةً إلى جِهَةِ شَمَالِ الكَهْف منقطعة انقطاعاً دُونَ تَدَرُّج.

ويمين قُرصِ وجْهِ الشَّمْس يكُونُ إلَىٰ جِهَةِ شِمَال وَجْهِ فَوْهَةِ الكَهْفِ، وبِحَسَبِ سَيْرِ الشَّمْسِ انْطِلَاقاً مِنْ مَشَارِقِهَا يَتَدَرَّجُ مَيْلُ أَشِعَّتِهَا إلَىٰ جِهَةِ يَمِينِ الكَهْف، وقُبَيْلَ غُرُوبها تَنْقَطِعُ أشعَّتُها دُونَ تدرُّجٍ عَنْ مَدْخَلِ الكَهْفِ، وَتَعْدِلُ إلَىٰ جِهَةِ شِمَالِهِ.

هـٰذَا تَحْدِيدٌ لمكانِ الكَهْفِ يَحْتَاجُ إلَىٰ بَيانِ خَبِيرٍ جُغْرَافِيٍّ، يُلاحِظُ فيه مَشَارِقِ الشَّمْسِ وَمَغَاربها، إذْ لَا يَنْحصِرُ هـٰذَا الوصف في زَمَنٍ مُعَيَّن من السَّنة.

• ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي: ذَلِكَ الَّذِي حَصَلَ لِهَؤلَاءِ الْفِتْيَةِ من إيوائِهِمْ إلَىٰ الكَهْفِ، وَإلْقَاءِ النَّوْمِ الطَّويل عَلَيْهِمْ، وحِمَايَتِهِمْ مِنْ كُبَرَاء قَوْمِهِمْ الَّذِينَ تَوَعَّدُوهُمْ بالتَّعْذِيب والْقَتْلِ، هو مِنْ آياتِ اللهِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَىٰ نُصْرَةِ أَوْلِيَائِهِ وَحِمَايَتِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، بِتَقْدِيرَاتِهِ وَتَدْبِيراتِهِ وأَلْطَافِهِ الْخَفِيَّة.

• ﴿... مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ⑰﴾:

أي: مَنْ يَحْكُمِ اللهُ لَهُ بالْهِدَايَةِ لِأَنَّهُ اهْتَدَىٰ باخْتِيَارِه الْحُرّ، فَهُوَ الْمُهْتَدِي، الَّذِي يَعْتَنِي اللهُ بِهِ، وَيَحْمِيهِ، ويُثِيبُهُ ثَوَاباً عظيماً يُرْضِيهِ، وَمَنْ يَحْكُمِ اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلَالَةِ، لِأَنَّهُ ضَلَّ باخْتِيَارِه الْحَرِّ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُ فِي الْوُجُودِ

كُلِّهِ نَاصِراً يَنْصُرُهُ، فَيَحْكُمُ لَهُ بالْهِدَايَةِ، وَيُوَفِّقُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ رَشِيداً فِي مَسِيرَتِهِ في حَيَاتِهِ.

الولي: النَّاصِر.

الْمُرْشِد: المسَدِّدُ على طَرِيق الحقّ والخير والصواب، ويرادُ بِهِ هُنَا مَنْ يَحْكُمُ بالرَّشَادِ والْهِدَايَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾:

• ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ﴾: دَلَّتْ هٰذِهِ العبارَةُ عَلَىٰ أنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ أَنَامَهُمْ مِنْ مَرَاكِزِ النَّوْمِ في أَدْمِغَتِهِمْ، وأَبْقَىٰ أجْفَانَهُم مُنْفَتِحَةً عَنْ عُيُونِهِمْ، حَتَّىٰ إذَا رَآهُمْ راءٍ مَا حَسِبَهُمْ أيْقاظاً لَا نَائِمين.

أيْقاظ: جمْع «يَقِظ» وَهُو الصَّاحِي خلاف النَّائم.

رُقُود: جمع «راقِد» وهو النائم.

• ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾: وَدَلَّتْ هٰذِهِ العبارَة عَلَىٰ أَنَّ اللهَ أَبْقَاهُمْ أحْيَاءً في حَالَةِ نَوْم، وَلم يُمِتْهُمْ، إذْ رُكُودُ الْأَجْسَادِ الحيَّةِ عَلَىٰ جِهَةٍ واحِدَةٍ مُدَّةً طَوِيلةً مِنَ الزَّمَنِ يُعَرِّضُهَا لِلْفَسَادِ فَتَظْهَرُ فيها الْقُرُوح، وتَتَكَاثَرُ في قُرُوحها الجراثيم. وهٰذَا التَّقْلِيبُ يُشْعِرُ مَنْ يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أحْياء.

• ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾: أي: جِهَةَ الْيَمِينِ وَجِهَةَ الشِّمَالِ، فلَفْظ «ذَاتَ» مَنْصُوبٌ عَلىٰ الظَّرْفِيَّة.

• ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ﴾: **الوصيد**: يُطْلَقُ على فناء الدَّار،

وعلى عَتَبَةِ البَابِ. فَمِنَ المرَجَّحِ أَنْ يَكُونَ كَلْبُهُمْ باسِطاً ذِراعَيْهِ قُرْبَ فُوَّهَةِ الكَهْفِ مِنَ الدَّاخِلِ كَعَادَةِ الكِلَابِ في الْحِرَاسَة.

فَدَلَّ هٰذَا الْبَيَانُ عَلَىٰ أَنَّ لَهُمْ كَلْباً مُصَاحِباً لَهُمْ إذا حَلُّوا أو ارتَحَلُوا.

• ﴿... لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾:

أي: لَو اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ أَيُّهَا المطَّلِعُ مِنَ النَّاسِ أَيًّا كُنْتَ، لَوَلَّيْتَ عَنْ مَكَانِ كَهْفِهِمْ تَوَلِّيَ فِرَارٍ خَوْفاً مِنْ شَرٍّ يُصِيبُكَ مِنْ قبلِهم، وَلَمُلِئَتْ نَفْسُكَ مِنْهُمْ رُعْباً.

وَلَّيْتَ: أي: أَدْبَرْتَ وَنَأَيْتَ.

وَلَمُلِئْتَ: وفي القراءة الأُخرىٰ: **ولَمُلِّئْتَ**: بالتَّشْدِيد، أي: لأَصَابَ كُلَّ نَفْسِكَ الرُّعْبُ مِنْهُم، ورُوعيَ بقراءة التَّشْدِيدِ حَالُ مَنْ يَشْتَدُّ خَوْفُهُ مِنَ الْمُرْعِبَاتِ.

وأَرَىٰ أَنَّ فِي هٰذَا الْبَيَانِ كِنَايَةً عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا مُسَلَّحِينَ، عَلَىٰ صِفَةِ قُطَّاعِ الطُّرُقِ الْقَتَلَةِ، الَّذِينَ يَخْشَىٰ النَّاسُ شَرَّهُمْ، فإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ شَخْصٌ مُنْفَرِدٌ مِنَ النَّاسِ، خَافَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْهُمْ أَنْ يَقْتُلُوهُ وَيَسْلُبُوهُ، فَهُوَ يَفِرُّ مُبْتَعِداً عَنْ مَكَانِ كَهْفِهِمْ خَوْفاً مِنْ شَرِّهِم.

فِرَاراً: مَنْصُوبٌ عَلَىٰ أَنَّهُ نَائِبٌ عَنْ مَفْعُولٍ مُطْلَقٍ مُبَيِّنٌ لِنَوْعِهِ.

رُعْباً: تَمْييزٌ مُحَوَّلٌ عَنِ الْفَاعِل، أي: وَلَمَلأَ الرُّعْبُ قَلْبَكَ ونَفْسَك.

❀ ❀ ❀

الفصل الرّابع من قصّةِ أصحاب الكهف
الآيات من (١٩ ـ ٢١)

قال الله عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

القراءات:

(١٩) • قرأ أبو عمرو، وشُعْبَة، وحمزة، وخلف، ورَوْح: [**بِوَرْقِكُمْ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بِوَرِقِكُمْ**].

الْوَرِقُ: الفضَّة، وكانَتْ فِضَّتُهُمْ مَسْكُوكَةً نُقُوداً. وإسْكَانُ الرَّاءِ لُغَةٌ أو تخفيف.

(٢١) • قرأ حمزة، ويعقوب: [**عَلَيْهُمْ**] بضمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**عَلَيْهِمْ**] بِكَسْرِ الهاء.

وهُما لغتان.

تَمْهيد:

في آياتِ هٰذَا الْفَصْلِ بَيانُ مَرْحَلَةِ إيقاظِ أَهْلِ الكَهْفِ بَعْدَ سِنِينَ عَدِيدَةٍ مِنْ إنَامَتِهِمْ، واكْتِشَافِ أَمْرِهِمْ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ أهل مَدِينَتهم.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُتَابِعُ قِصَّة أَصْحَاب الكهف بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

• ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾: أي: وَكَذَلِكَ الْفِعْلِ الْعَجِيب الَّذِي كَانَ مِنَّا، حِينَ أَنَمْنَا أَهْلَ الكَهْفِ سِنِينَ عَدِيدَةٍ، بَعَثْنَاهُمْ، أَيْ: أَيْقَظْنَاهُمْ مِنْ نَوْمِهِمْ بِعَجِيبَةٍ أُخْرَىٰ.

• ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾: أي: لِتَجْرِيَ سِلْسِلَةُ أَحْدَاثٍ تَنْتَهِي بأَنْ يَعْلَمَ الشَّاكُونَ بالْبَعْثِ مِنَ الْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيها، وَأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَوْفَ يُحَاسِبُ عِبادَهُ، وَيَفْصِلُ القضاءَ بَيْنَهُمْ، ويُنَفِّذُ جَزَاءَهُ.

وأَوَّلُ أَحْدَاثِ هٰذِهِ السِّلْسِلَة تَساؤُل أَهْلِ الكَهْفِ فيما بَيْنَهُمْ عَنْ مُدَّةِ لُبْثِهِمْ فِي الكَهْفِ.

• ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟: أي: قَالَ قائِلٌ مِنْ أَهْلِ الكَهْفِ لِرِفاقِهِ: كَمْ أَقَمْتُم في الكَهْفِ مُنْذُ أَوَيْتُمْ إِلَيْهِ؟.

• ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: دلَّ هٰذَا البيانُ على قَضيَّتَيْن:

الْقَضِيَّةُ الأُولَىٰ: أَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لِنُفُوسِهِمْ إحْسَاسٌ بِمُرُور الزَّمَنِ الطَّوِيلِ وَهُمْ نَائِمُونَ، إِذْ كَانَ تَقْدِيرُهُمْ أَنَّهُمْ لَبِثُوا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَّة: يَظْهَرُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ أَنَامَ كَلْبَهُمْ مَعَهُمْ، وَأَيْقَظَهُ مَعَهُمْ، إِذْ لَوْ مَاتَ الْكَلْبُ لَظَهَرَتْ بَقَايَا مِنْهُ تَدلُّ عَلَىٰ مَوْتِهِ، وَعِنْدَئِذٍ لَا يَقُولُونَ: «لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْم»، وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ الْكَلْبِ أَنْ يَتْرُكَهُمْ فِي هٰذِهِ الْمُدَّةِ الْوَجِيزَة.

وجاء في البيان وَصْفُ كَلْبِهِمْ بِأَنَّهُ باسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالْوَصِيدِ وَهُمْ رُقُود.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ الرَّبَّانِيَّة تتَكَامَلُ بِإنَامَةِ كَلْبِهِمْ وإِيقاظِهِ معهم.

• ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾: إِنَّهُمْ تَرَدَّدُوا مُتَحَيِّرِينَ فِي مُدَّةِ إِقَامَتِهِمْ في الكَهْف، فَكَانَتْ كَلِمَتُهُمْ الأَخِيرَةُ الَّتِي اتَّفَقُوا عَلَيْهَا جَمِيعاً: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بالْمُدَّةِ الَّتِي لَبِثْتُمُوهَا فِي الكَهْفِ نائِمِينَ.

وَبَعْدَ اسْتِيقَاظِهِمْ مِنْ نَوْمِهِمْ أَحَسُّوا بالْجُوعِ، وَكَانَتْ مَعَهُمْ نُقُودٌ فِضِّيَّةٌ كَانَ قَوْمُهُمْ يَتَعَامَلُونَ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْوُوا إِلَىٰ الكَهْفِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ الطَّعَام.

• ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾:

• ﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾: أي: بِنُقُودِكُم الْفِضِّيَّةِ هٰذِهِ الَّتِي تَمْلِكُونها.

• ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾: أي: فَلْيَنْظُرْ فِي سُوقِ المدينَةِ أيُّ الأَطْعِمَةِ فِيهِ أَكْثَرُ نَماءً وَزِيَادَةَ غِذَاءٍ يَصْلُحُ للارْتِفَاقِ بِهِ أَطْوَلَ مُدَّةٍ مِن الزَّمَنِ، وَيَصْلُحُ للادّخار حَتَّىٰ يُغْنِينا عَنْ تَكْرِيرِ الذَّهَابِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لِجَلْبِ طَعَامِنَا. أَوْ أَكْثَرُ طَهَارَةً مِنَ النجاسَاتِ المادِّيَّةِ والمعْنَوِيَّةِ.

الزَّكاةُ: يَدُورُ مَعْنَاهَا في اللُّغَةِ حَوْلَ مَعَانِي النَّمَاءِ والزِّيَادَةِ والطَّهارَةِ، فالنَّمَاءُ والزِّيَادَةُ يَدُلَّانِ عَلَىٰ وَفْرَةِ مَا فِي الطَّعَامِ مِنْ غِذَاءٍ يُدَّخر، والطَّهارَةُ

تَدُلُّ عَلَىٰ خُلُوِّ الطَّعَامِ من النجاسَاتِ المادِّيَّةِ والمعْنَوِية، الَّتِي تَجْعلُهُ مَمْنُوعاً أَوْ مَكْرُوهاً شَرْعاً.

• ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾: **الرِّزْقُ**: مَا يُنْتَفَعُ بِهِ لِجِسْمِ الحيِّ مِنْ طَعَامٍ وَغَيْرِهِ. والمرادُ بالرِّزْقِ هُنَا طَعَامٌ يأْكُلُونَ مِنْهُ.

• ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾: أيْ: وَلْيَكُنْ لَطِيفاً رَفِيقاً في دُخُولِهِ الْمَدِينَةِ وَمُحَاوَلَاتِهِ شِرَاءَ الطَّعَامِ مِنَ الْبَاعَةِ فِيها، فَلَا يُمَاكِسْ وَلَا يُجَادِلْ أحداً حَتَّىٰ لَا يَنْكَشِفَ أَمْرُنَا.

• ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾: أي: وَلَا يُعْلِمَنَّ أَدْنَىٰ عِلْمٍ بِكُمْ وَلَا بِمَكَانِ اخْتِفَائِكُمْ أَحداً.

إِنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مَا زَالُوا فِي زَمَنِ الْمَلِكِ الطَّاغِيَةِ الَّذِي تَوَعَّدَهُمْ بالتَّعْذِيبِ والقَتْلِ، وكَلَّفَ أَهْلَ مَدِينَتِهِ بِرَجْمِهِمْ إِذَا اكْتَشَفُوهُمْ، فَتَوَاصَوْا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْقَوْا مُخْتَفِينَ، وَأَوْصَوْا مَنْ يَذْهَبُ مِنْهُمْ لِشِرَاءِ طَعَام لَهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ، بأَنْ يَذْهَبَ مُسْتَخْفِياً، وَيَدْخُلَ سُوقَهَا مُتَلَطِّفاً، وَيعُودَ بِرِزْقٍ مِنْهَا مُسْتَخْفِياً.

• ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾: أي: إِنْ يَطَّلِعْ أَهْلُ مَدِينَتِكُمْ عَلَيْكُمْ يُلْزِمُوكُمْ بأَنْ تَعُودُوا عَنْ دِينِكُمُ الَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ دِينِ الْحَقِّ والتَّوْحِيدِ، وَتَدْخُلُوا فِي مِلَّتِهِم الوَثَنِيَّةِ الشِّرْكِيَّة، فإِنْ اسْتَجَبْتُمْ لَهُمْ فَلَنْ تُفْلحُوا إِذاً أبداً، وإِنْ لَمْ تَسْتَجِيبُوا لَهُمْ قَتَلُوكُمْ رَجْماً بِالْحِجارَة، وَقَدْ كَانَ الرَّجْمُ بالْحِجارَةِ هُوَ الطَّرِيقةَ المتَّبَعَة قَدِيماً عِنْدَ مِلَلِ أَهْلِ الكُفرِ لِقَتْلِ مَنْ يُفَارِقُ مِلَّتَهُمْ الْبَاطِلَة.

الْفَلَاح: النجاة، والفوز، والظفر، وأصْلُ الْفَلَاحِ البقاء في النَّعِيمِ والْخَيْرِ.

﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾: أي: فَلَنْ تَنْجُوا، وَلَنْ تَفُوزُوا، وَلَنْ تَظْفَرُوا، يَوْمَ القيامَةِ بِجنَّاتِ النعيم، إِذَا تَرَكْتُمْ مِلَّتَكُمْ وَدَخَلْتُمْ في مِلَّتِهِمْ، إِذْ تَكُونُونَ عِنْدَ رَبِّكُمْ مِنَ الْخَالِدِينَ أَبداً في عَذَابِ النار.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً قِصَّةَ أَصْحَابِ الكَهْفِ بضَمِيرِ المتكَلِّم العظيم:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾: أي: وَكَذلِكَ الْفِعْلِ الْعَجِيبِ الَّذِي أَنَمْنَا بِهِ أَهْلَ الكَهْفِ سِنينَ عَدِيدَة، والْفِعْلِ الْعَجيب الَّذِي أَيْقَظْنَاهُمْ بِهِ بَعْدَ هَـٰذِهِ السِّنين، جَعَلْنَا أَهْلَ مَدِينَتِهِمْ يَعْثُرُونَ عَلَيْهِمْ، أي: يَعْلَمُونَ بِأَمْرِهِمْ مُصَادَفَةً دُونَ قَصْدٍ مِنْهُمْ وَلَا تَتَبُّعٍ.

ويظهرُ أَنَّ النُّقُودَ الْفِضِّيَّة الَّتِي أَرَادَ أَنْ يَشْتَرِيَ بِها مَبْعُوثُ أَهْلِ الكَهْفِ طَعَاماً، غَيْرُ النُّقُودِ الَّتِي صَارَ يَتَعَامَلُ بِهَا أَهْلُ مَدِينَتِهِمْ، فاكْتَشَفَ النَّاسُ هـٰذَا الْأَمْرَ، وأَطْلَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً على هـٰذِهِ النُّقُود واكْتَشفُوا أَنَّها قَدِيمَةُ الشَّكِّ، وأَنَّ أَهْلَ هـٰذِهِ المدينَةِ كَانُوا يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنْ قُرابَةِ ثلاثمائة سنة، وأَنَّ جَالِبَ هـٰذِهِ النُّقُودِ يَتَكَلَّمُ بِلَهْجَةٍ وَبَعْضِ كَلِمَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ عَمَّا تَطَوَّرَتْ لَهُ لُغَتُهُمْ الْحَالِيَةُ، وَكَانَتْ قَدِ انْتَشَرَتْ فِي الْمَدِينَةِ الدِّيَانَةُ النَّصْرَانِيَّةُ فِيمَا يَتَرَجَّحُ، وسَقَطَ سُلْطَانُ الْوَثَنِيِّينَ الْجَبابرَةِ.

وإِذْ عَلِمَ مَبْعُوثُ أَهْلِ الكَهْفِ باخْتِلَافِ أَوْضَاعِ الْمَدِينَةِ وأَهْلِهَا، أَعْلَمَهُمْ بِقِصَّتِهِ وَقِصَّةِ أَصْحَابِهِ، فَتَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَدَهَشُوا، وَحَمَلَ عِلْيَةُ الْقَوْمِ لَهُمْ طَعَاماً وَانْطَلَقُوا لِمُقَابَلَتِهِمْ فِي كَهْفِهِمْ، ووصَلُوا إِلَيْهِمْ وشَهِدُوهم أَحْيَاءً أَيْقَاظاً، وَحَادَثُوهُمْ، وَعَلِمُوا مِنْهُمْ قِصَّةَ فِرَارِهِمْ بِدِينِهِمْ مِنْ

أَهْلِ مَدِينَتِهِمْ الْوَثْنِيِّين. وَيَظْهَرُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَاتَهُمْ عَقِبَ أَنْ أَعْلَمَ الْقَوْمَ بِقِصَّتِهِمْ، وَشَاعَ خَبَرُهُمْ فِي المدينَةِ.

● ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾:

أي: وَكَذَلِكَ أعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ أَهْلَ مَدِينَتِهِمْ لِيَعْلَمُوا مِنْ قِصَّةِ إنَامَتِهِمْ قُرَابَةَ ثَلاثمائة سَنَة، وإيقَاظِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، أَنَّ وَعْدَ اللهِ بالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَفَنَاءِ الْأَجْسَادِ وَعْدٌ حَقٌّ وصِدْقٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ الَّتِي يُنْهِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا نِظَامَ الْحَياةِ الدُّنْيا، وَيُمِيتُ بِهَا جَمِيعَ الْأَحْيَاءِ، وكذلِكَ السَّاعَةُ الثَّانِيَةَ الَّتِي يَبْعَثُ اللهُ بِهَا الْمَوْتَىٰ، لِلْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء، في الحيَاةِ الْأُخْرَىٰ والدَّارِ الْآخِرَةِ لَا رَيْبَ فيها، إذْ هِيَ حَقٌّ مُسْتَنِدٌ إلى وَعْدِ اللهِ الَّذِي أَرْسَلَ لِبَيَانِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ.

وَقَدْ عَلِمَ هٰذِهِ الْحَقِيقَةِ وَآمَنَ بِهَا أَهْلُ الْعَقْل والرُّشد، وَهُمْ مُعْظَمُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ نَبَذُوا الْوَثَنِيَّةَ الْقَدِيمَة، وعَظُمَ في قُلُوبِهِمْ شَأْنَ هٰؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ، وَمَا أَكْرَمَهُمُ اللهُ بِهِ مِنْ حِفْظِ وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ هنْ أَجْرٍ عَظِيمٍ عِنْدَه، وَكَيْفَ جَعَلَهُمْ مِثَالاً مَشْهُوداً للبَعْثِ والحياة بَعْدَ الموت.

● ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًاۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾:

التَّنَازُعُ: التَّخالُف، وَمِنْهُ التَّخَالُفُ في الرَّأْي، وَسُمِّيَ تَنَازُعَاً لِأَنَّ كُلَّا مِنَ المتَخَالِفين يَنْزِعُ رَأْيَهُ مِنْ مَجْمُوعَةِ الآرَاءِ لِيَجْعَلَهُ هُوَ الرأْيَ السَّائِدَ عَلَىٰ سَائِرِ الآرَاء.

دَلَّ هَـٰذَا البيانُ عَلَىٰ أَنَّ كُبَرَاءَ أَهْلِ مَدِينَتِهِمْ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي أَمْرِ أَهْلِ الكَهْف، واحْتِمَالَاتُ الاخْتِلَاف تَدُور حَوْلَ مَا يَلِي:

(١) هَلْ يَنْقُلُونَهُمْ إِلَىٰ مَقَابِرِ أَهْلِ الْمَدِينَة؟

(٢) هَلْ يَبْنُونَ عَلَىٰ مَدْخَلِ كَهْفِهِمْ بُنْيَاناً، وَيَتْرُكُونَهُمْ دَاخِلَ كَهْفِهِمْ مَوْتَىٰ، فَرَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ؟

(٣) هَلْ يَبْنُونَ عَلَيْهِمْ مَسْجداً تكْرِيماً لَهُمْ وَتَذْكِيراً بِقِصَّتِهِمْ، وبِمَكان كَهْفِهِمْ؟

• ﴿... قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾:

أي: قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا بَقِيَّةَ الْمُتَنَازِعِينَ عَلَىٰ أمْرِهِم: لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجداً، واتَّفَقَ الْجَمِيعُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ هـٰذَا الرَّأْي.

وانْتَقَلَ سِيَاقُ الْقِصَّةِ إِلَىٰ أَحْدَاثٍ لَاحِقَةٍ بَعْدَ انْتِهَائها.



الفصل الخَامس من قِصّةِ أصحاب الكهف
الآيات من (٢٢ ـ ٢٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

القراءات:

(٢٢) • قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أَعْلَمُ] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسكان.

(٢٢) • قرأ يعقوب: [فِيهُمْ]. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فِيهِمْ].

(٢٤) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأَبُو جعفر: [أَنْ يَهْدِيَنِي] بإثبات يَاءِ المتكلّم فِي الوصل، وكذلك ابن كثير، ويعقوب وصلاً ووقْفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنْ يَهْدِيَنِ] بحذف ياءِ المتكلم وصلاً ووقفاً.

(٢٥) • قرأ حَمْزَةُ، والكِسَائِيُّ، وَخَلَفٌ: [ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ] بِكَسْرِ تاء «مائةِ» دُونَ تَنْوين.

وقرأها أبو جعفر: [ثَلَاث مِيَةٍ سِنِينَ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [ثَلَاث مِائَةٍ سِنِينَ].

(٢٦) • قرأ ابْن عامر: [وَلَا تُشْرِكْ] بِتَاءِ المخاطب.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَا يُشْرِكْ] بياء الغائب.

وبين القراءتَيْنِ تكَامُلٌ في أداء المعنَى المراد.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الفصْل تَعْقِيبَاتٌ عَلَىٰ نِقَاطٍ ذات شأنٍ فِي قِصَّةِ أصْحَابِ الكهف.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾:

فِي هـٰذَا الْبَيَان تَوصِيَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِالْعِنَايَةِ بمواضِعِ الفائِدَةِ والنَّفعِ والعِظَةِ مِنَ الْقِصَّةِ، وَعَدَمِ الاشْتِغَالِ بِمَا لَا نَفْعَ فِيهِ وَلَا فَائِدَةَ وَلَا عِظَةَ، كَمَعْرِفَةِ عَدَدِ الْجَماعَةِ أَصْحَابِ الْقِصَّة.

وَفِيهِ استِغْلَالُ حَدَثٍ تَاريخيٍّ خَاصٍّ لِيَدُلَّ عَلَىٰ تَوْجِيهٍ عَامٍّ بِشَأْنِ كُلِّ القِصَصِ التَّاريخيَّة، وَلَا سيما القِصَصُ القرآنيَّة.

فأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّ النَّاسَ بَعْدَ سَمَاعِهِمْ مَا نَزَلَ فِي الْقُرْآنِ بِشَأْنِ أَصْحَابِ الكَهْف، سَيَشْغَلُونَ أَنْفُسَهُمْ بالظُّنُونِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي لَا تُفِيدُ عِلْماً صحيحاً، فَيَقُول بعضُهم: أَصْحَابُ الكَهْف ثَلَاثَةٌ رَابِعُهمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: أصحاب الكهف خمسةٌ سادِسُهُمْ كلبُهُم، ويقول بَعْضُهُمْ: هم سَبْعَةٌ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ.

• ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾: أي: وَهُـمْ يَـقُـولُـونَ دُونَ دَلِـيـلٍ مَـا يَـدُلُّ عَـلَـىٰ أقوالِهِم، وَلَوْ كَانَ دَلِيلاً ضَعِيفاً، إِنَّهُمْ يَقْذِفُونَ أقوالهم، كَمَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَرْجُمَ هَدَفاً لَهُ فِي ظُلُمَاتٍ دَامِسَاتٍ لَا يَرَىٰ فِيهَا شَيْئاً، وَلَا يَعْلَمُ أَيْنَ يَكُونُ هَدَفُهُ فِيهَا، إِنَّهُ يَرْجُمُ حِجَارَتَهُ بالغيب الَّذِي لَا يَعْرِفُ أَيْنَ يَكُونُ فِي هـٰذَا الْغَيْبِ الْهَدَفُ الَّذِي يَرْمِي إِلَيْهِ.

وَأَرَىٰ أَنَّ الْوَاوَ فِي عِبَارَةِ ﴿وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ اقْتَضَاهَا فَصْلُ الاحْتمالِ الْأَخِيرِ الْمَذْكُورِ عَنِ الاحْتِمَالَيْنِ السَّابِقَيْنِ له، للاشْعَارِ بأَنَّه المذكورُ هُوَ الْأَخِيرَ، وَلَا أَصْلَ لِمَنْ زَعَمَ أَنَّهَا وَاو الثمانية.

• ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾:

أي: قُلْ يَا مُحمَّدُ: لَا تَشْغَلُوا أنفُسَكُمْ بِمَعْرِفَةِ عَدَدِ أَشْخَاصِهِمْ، وَلَا بِالْبَحْثِ عَنْ عَدَدِهِمْ فَهُوَ أَمْرٌ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ، رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتهِمْ وَلَمْ يُخبِرْنَا عَنْ عَدَدِهِمْ لِعَدَمِ الْفَائِدَة مِنْ ذِكْرِ العَدَدِ، مَا يَعْلَمُ عَددَ أَشْخَاصِهِمْ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ.

• ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾:

أي: فَلَا تُجادِلُ فِي أمْرِ عَدَدِهِمْ إلَّا جِدالاً ظاهراً، إنْ وَجَدْتَ أَنَّكَ مُحْرَجٌ لِمِثْلِ هٰذَا الْحِوار، وَلَا تَلْتَزِمْ بالرَّأْيِ الَّذِي تُرَجِّحُهُ.

• ﴿... وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: وَلَا تَسْأَلْ فِي عَدَدِهِمْ مِن الْمُخْتَلِفِينَ فِيهِ أحداً، لِأَنَّ أَقْوالَهُمْ فِيهِ مُتَخَالِفَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَلِأَنَّ مَعْرِفَةَ عَدَدِهِم لَا تُفِيدُ في عِظَةٍ وَلَا عِبْرَةٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾:

بِمُنَاسَبَةِ قَوْل أَصْحَابِ الكَهْفِ بَعْضِهِمْ لِبَعْض:

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾:

وَلَمْ يَقُولُوا: «ويَفْعَلِ اللهُ لَكُم مِنْ أَمْرِكُمْ مَا يَشَاءُ» الَّذِي كانَ هُو الْأَوْلَىٰ بِمِثْلِهِمْ، إِذْ هُمْ فِتْيَةٌ مُؤْمِنُونَ اعْتَزَلُوا قَوْمَهُمْ المشْرِكِين، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ لَا يَفْعَلُ لِعِبادِهِ إلَّا مَا يَشَاءُ، وَقَدْ ضَرَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ الطَّوِيلَ، وَلَمْ يُهَيِّئْ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ مِرْفَقاً مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَنَحْوِهما كَمَا كَانَ فِي تَصَوُّرِهِم.

بِهٰذِهِ المناسَبَةِ جَاءَ التَّعْقِيبُ التَّعْلِيمِيُّ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِه ﷺ، فَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمْ، أَنْ يُعَلِّقَ عَلَىٰ مَشِيئَةِ اللهِ مَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ مُسْتَقْبلاً، لِأَنَّ الْعِبَادَ لَا يَمْلِكُونَ تَنْفِيذَ مُرَادَاتِهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا لَمْ يَشَأ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ بِأَنْ يُنَفِّذُوهَا، فإذَا لَمْ يَأْذَنْ بِتَنْفِيذِهَا لَمْ يَسْتَطِيعُوا تَنْفِيذَها.

فالْأَدَبُ مَعَ اللهِ فِي السُّلُوكِ، أَنْ يَقُولَ الْمُؤْمِنُ الْمُسْلِمُ إِذَا تَحَدَّثَ بأَنَّهُ سَيَعْمَلُ بَعْدَ لَحْظَةِ التَّكلُّم عَمَلاً مَا: سَأَفْعَلُ كَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ، وإِذَا عَزَمَ عَلَىٰ فِعْلِ شَيْءٍ دُونَ أَنْ يَتَحَدَّثَ بِلِسَانِهِ عَنْهُ، فَمِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ أَنْ يَجْعَلَ في تَصَوُّرِهِ الذِّهْنِيِّ التَّعْلِيقَ عَلَىٰ مَشيئَةِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وَلَا يَجْرِي فِي كَوْنِهِ إِلَّا مَا قَدَّرَهُ وقضاه، أَوْ أَذِنَ بِهِ لِذَوِي الإِرَادَاتِ الْحُرَّة.

ولَمَّا كَانَ مِنَ الْحَرَجِ عَلَىٰ الإِنْسَانِ فِي الْعَمَلِ الْيَوْمِيّ المتَتابِعِ، أَنْ يَقُولَ مَعَ كُلِّ عَمَلٍ يَوْمِيٍّ يَتَحَدَّثُ أَنَّهُ فَاعِلُهُ: إِنْ شَاءَ اللهُ، هَوَّنَ اللهَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ التَّكْلِيفَ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْأَعْمَالِ الْيَوْمِيَّةِ، فَقالَ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ:

- ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ . . . ﴿٢٤﴾﴾.

فأعْفَاهُ مِنْ هٰذَا التَكلِيفِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الأَعْمَالِ والأفْعَال الْيَوْمِيَّة:

اسْتُعْمِلَتْ صِيغَةُ «فاعل» في المستقبل كالْفِعْلِ المضَارع.

«غداً» ظَرْفٌ لِلْيَوْمِ الَّذِي بَعْدَ الْيَوْمِ الحالِي، والمراد هُنَا فَمَا بَعْدَهُ. وَقَدْ يُطْلَقُ هٰذَا اللّفظ على زَمَنٍ قَادِمٍ بَعِيد.

المعنى: وَلَا تَقُولَنَّ مُشَدِّدِينَ لَكَ النَّهْيَ أَيُّهَا المؤمِنُ الْمُسْلِمُ: إِنّي سَأَفْعَلُ ذَلِكَ الْفِعْلَ غداً، أَوْ فِي زَمَنٍ مَا بَعْدَهُ، مُؤَكِّداً عَزْمَكَ بمؤكّداتٍ، إِلَّا مَقْرُوناً قَوْلُكَ بأَنْ يَشَاءَ اللهُ، فالاسْتِثْنَاءُ هو مِنْ عُموم النَّهْي، ويتحقَّقُ المطْلُوبُ الدِّينِيُّ بأنْ يَقُولَ: إِنِّي سَأَفْعَلُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ، بِتَعْلِيقِ الفِعْلِ عَلَىٰ مَشِيئَة اللهِ، أَوْ بِأَيِّ عبارة أُخرَىٰ فِيها هٰذَا التَّعْلِيق.

- ﴿. . . وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾:

أي: وإِذَا نَسِيتَ أَنْ تُعلِّقَ عَلَىٰ مَشِيئَةِ اللهِ حِينَ تَقُولُ: إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غداً، وَتَذَكَّرْتَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّكَ نَسِيتَ هٰذَا التَّعْلِيقَ، فَاذْكُرْ رَبَّكَ بِذِكْرٍ يُلائِمُ

حَالَتَكَ حِينَ تَتَذَكَّرَ، كَأَنْ تَقُولَ: لَا شيءَ يَقَعُ في كَوْنِ اللهِ إِلَّا بِتَقْدِيرِه وقَضَائِهِ، أَوْ بإِذْنه.

وَحِينَ يَفُوتُكَ مَا عَزَمْتَ عَلَىٰ فِعْلِهِ إِذْ لَمْ يَأْذَنِ اللهُ بِفِعْلِهِ، وكُنْتَ حَرِيصاً عَلَىٰ تَحْقِيقِهِ، وَشَدِيدَ الرَّغْبَةِ فِيهِ، فَارْضَ عَنِ اللهِ بِمَا تَمَّ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ، وَفَوِّضْ أَمْرَكَ إِلَيْهِ، وَقُلْ: عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِتَحْقِيقِ أَمْرٍ آخر أَقْرَبَ رَشداً مِنْ هـٰذَا الْأَمْرِ الَّذِي كُنْتُ حَرِيصاً عَلَيْهِ وَرَاغِباً فِيهِ، وأَكْثَرَ تَحْقِيقاً لِمَا يُرْضِينِي وَيَسُرُّنِي.

الرَّشَدُ: مَا هُو الأفْضَلُ، وَالْأَحْسَنُ، والْأَكْثَرُ نَفْعاً، والأبْعَدُ عَنِ الضَّرَرِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾:

لَقَدْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مُدَّةَ لُبْثِ أَهْلِ الكَهْفِ نِيَاماً فِي كَهْفِهِمْ، لِمَا فِي هـٰذَا الْبَيَانِ مِنْ فَائِدَةٍ تَتَعَلَّقُ بِقُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ، وَمِنْهَا قُدْرَتُهُ عَلَىٰ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ يَوْمَ القيامَةِ، بخلاف مَا يَتَعَلَّقُ بِعَدَدِ أَشْخَاصِهِمْ، فَقَدْ أَرْشَدَ إِلَىٰ عَدَمِ النَّظَرِ إِلَيْهِ إِذْ لَا يَتَعَلَّقُ بِمَعْرِفَتِهِ عِظَةٌ وَلَا عِبْرَةٌ، وَلَا فَائِدَةٌ تُقْصَدُ فِي الدِّين.

وَجَمَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي التَّعْبِيرِ بَيْنَ التَّارِيخَيْنِ الشَّمْسِيِّ والْقَمَرِي، ففي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ بَيَانُ عَدَدِ السِّنين بِحَسَبِ مقدار السَّنَةِ الشَّمْسِيَّة، وَهُوَ (٣٦٥) يَوْماً تَقْرِيباً، أَمَّا عَدَدُ سِنِي لُبْثِهِمْ نياماً فِي كَهْفِهِمْ بِحَسَبِ مِقْدَارِ السَّنَةِ القَمَرية، وهو (٣٥٤) يوماً، فَيَزِيدُ (٩) سِنِينَ مَعَ تَجَاوُزِ الكُسُورِ فتكون (٣٠٩) سنَة، وَهـٰذَا مِنْ إِبْدَاعَاتِ القرآنِ المجيد وإيجازَاتِهِ.

وَإِذَا خَالَف هـٰذَا البيانَ الرَّبَّانِيَّ مُخَالِفُونَ فَلَا تَعْبَأ بِهِمْ، وَ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: لَهُ وَحْدَهُ عِلْمُ كُلِّ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، الَّذِي هُوَ غَيْبٌ عَنْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، أَوْ عَنْ بَعْضِهِمْ، أَمَّا هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فَلَا شَيْء فِي الكَوْنِ هُو غَيْبٌ عَنْهُ، بَلْ هُوَ مَشْهُودٌ لَهُ.

• ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾: صيغَةُ «أَفْعِلْ بِهِ» هِي الصِّيغَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ صِيغَتِي التَّعَجُّب: «مَا أَفْعَلَهُ، وأَفْعِلْ بِهِ».

والمرادُ باسْتِعْمَالِ صِيغَةِ التَّعَجُّبِ هُنَا الدَّلَالَةُ عَلَىٰ شُمُولِ إِبْصَارِهِ جَلَّ جَلَالُهُ كُلَّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُبْصَرَ فِي الْوُجُودِ كُلِّه، وشُمُولِ سَمْعِهِ كُلَّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْمَعَ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، مَعَ كُلِّ أَقَلِّ زَمَنٍ يَمُرُّ، أَيْ: فاعْجَبْ أَيُّهَا المتَلَقِّي مِنْ هـٰذِهِ الْإِحَاطَةِ وَمِنْ هـٰذَا الشُّمول لِبَصَرِ اللهِ وَسَمْعِهِ.

• ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾: أي: إِنَّ الّذِينَ يَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ، بِغْيَةَ جَلْبِ نَفْعٍ مِنْهُمْ أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ، أَوْ تَحْقِيقِ نَصْرٍ، لَيْسَ لَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ وَلِيٌّ مَا يَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعاً، أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُمْ ضرًّا، أو يَنْصُرُهُمْ إِذَا احْتَاجُوا نصراً.

«مِن» في: ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ مَزِيدَةٌ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْيِ والتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

• ﴿... وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾: وهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مُتَفَرِّدٌ فِي كُلِّ تَصَارِيفِ حُكْمِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي كَوْنِهِ، فَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحداً، إِذْ كُلُّ كائِنٍ في كَوْنِهِ مَخْلُوقٌ لَهُ، وَهُوَ خَاضِعٌ لِحُكْمِ اللهِ فِيهِ.

حُكْمُ اللهِ: هُوَ قَضَاؤُهُ الّذِي يَقْضِيهِ عَلَىٰ وَفْقِ تَقْدِيرِهِ إِيجاداً أو إِعْدَاماً، أَوْ تَشْرِيعاً، أو تَكْلِيفاً، أَوْ جَزَاءً، أَوْ غَيرِ ذَلِكَ.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٧)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الكهف)
الآيات من (٢٧ ـ ٣١)

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

القراءات:

(٢٨) • قرأ ابن عامر: [**بالْغُدْوَةِ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بالْغَدَاةِ**].

(٢٩) • قرأ ورْش، والسّوسي، وأبو جعفر: [**بِيْسَ**] بإبدال الهمزة ياءً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بِئسَ**].

(٣١) • قرأ أبو عَمْرو، ويعقوب: [**مِنْ تَحْتِهِمِ الأَنْهارُ**].

وقرأها حمزة، والكسائي، وخلَف: [**مِنْ تَحْتِهُمُ الأَنْهارُ**].

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهارُ**].

(٣١) • قرأ أبو جعفر: [**مُتَّكِينَ**]. وكذلِكَ حَمْزة في الوقف، ولَهُ التَّسْهِيلُ أيضاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مُتَّكِئِينَ].

تَمْهيد:

فِي هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْجِيهاتٌ تَرْبَوِيَّة، وَتَعْلِيمَاتٌ دَعَوِيَّةٌ، مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُوله ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

تَعْطِفُ «الواو» في صَدْرِ هَـٰذِهِ الآيَة على الأمْرِ الرَّبَّانِيِّ لِرَسُولِهِ الّذِي جاء في الآيَة (٢٦).

• ﴿وَٱتْلُ﴾: أي: واتَّبِعْ، يُقَالُ لغة: «تَلاهُ، يَتْلُوهُ، تُلُوّاً» أي: تَبِعَهُ، واسْتُعْمِلَ فِي تِلَاوَةِ القرآنِ، بِمَعْنَىٰ النُّطْقِ بِهِ مَعَ تَتَبُّعِ حُرُوفِهِ وَكَلِمَاتِهِ كَمَا أَنْزَلَهُ اللهُ، وَيُمْكِنُ حَمْلُ التكليفِ على المعنيينِ.

• ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾: أي: لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُبَدِّلَ كَلِمَاتِ رَبِّكَ، تَبْدِيلاً ذَا أَثَرٍ فِي وَاقِعِ الكَوْنِ، وَلَا يَدْخُلُ في التَّبْدِيلِ المنْفِيِّ كَذِبُ الكَذَّابِينَ عَلَىٰ اللهِ وَوَضْعُ الْوَضَاعِين، فإِنَّهُ غَيْرُ ذِي أَثَرٍ فِي كَوْنِ اللهِ وَتَرَاتِيبِهِ وَتَدَابِيرِهِ وَمُسْتَتْبَعَاتِ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ الجزائِيَّة.

فَكَلِمَاتُ اللهِ الْخَبَرِيَّةُ لَا مُبَدِّلَ لَهَا تَبْدِيلاً يُغَيِّرُ وَاقِعَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، فِي كُلِّ شيءٍ مَهْمَا كَانَ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً.

وَكَلِمَاتُ اللهِ المبَيِّنَاتُ لِمَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ نَافِذَةٌ لَا مَحالَة، وَلَا أَحَدَ فِي الْوُجُودِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبَدِّلَ فِيها تَبْدِيلاً ذَا أَثَر، فَحِينَ قَدَّرَ اللهُ وَقَضَىٰ أَنْ يُنْجِىٰ

مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام وَبَنِي إِسْرائِيلَ مَعه، وأنْ يُهْلِكَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ فِي الوجود أَنْ يُبَدِّلَ كَلِمَاتِ اللهِ فِي ذَلِكَ تَبْدِيلاً ذَا أَثَر.

وَكَلِمَاتُ اللهِ في أوامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَتكالِيفِهِ، لَا مُبَدِّلَ لَهَا تَبْدِيلاً ذَا أَثَرٍ.

فَتَكْلِيفُ اللهِ عِبَادَهُ الموضُوعِينَ في الحياة الدّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان الإيمانَ والْعَمَلَ الصَّالِحِ على وَفْقِ مَا أَنْزَلَ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ في ذَلِكَ تَبْدِيلاً ذَا أَثَرَ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِعِبَادَةِ عِيسَىٰ وَجَعَلَ يَعْبُدُهُ هُو ومُتَّبِعُونَ، فإِنَّهُمْ لَا يَنْجُونَ مِنْ جَزَاء اللهِ العقابِيِّ خُلُوداً في عَذَاب جَهَنَّم يَوْمَ الدِّينِ، فَتَبْدِيلُهُمْ لَا يُغَيِّرُ أثَرَ كَلِمَاتِ اللهِ في أَوَامِرِهِ ونواهِيهِ وتكالِيفِهِ.

• ﴿... وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾:

﴿مُلْتَحَدًا﴾: أي: مَلْجأً. لِأَنَّ اللَّاجِئَ يَلْتَحِدُ إليه، يُقَالُ لغة: «الْتَحَدَ إليه» أي: مَالَ إِلَيْهِ وَالْتَجأَ، فَهُوَ مُلْتَحِدٌ، واسْمُ المفْعُول: مُلْتَحَدٌ إِلَيْهِ.

أي: وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِ رَبِّكَ إِذَا لَمْ تَتْلُ مَا أُوحي إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِهِ، مَلْجأً تَلْجأُ إِلَيْهِ، إِذَا أَرَادَ مُعَاقَبَتَكَ عَلَىٰ مُخَالَفَتِه.

هٰذَا الْخِطَابُ مُوَجَّهٌ للرَّسُولِ ﷺ فِي ظَاهِرِ النَّصِّ. وهُوَ فِي مَضْمُونِهِ مُوَجَّهٌ لِكُلِّ الْمَوْضُوعِين في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، لأَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ أَنْ يَتَّبِعُوا مَا أَوْحَىٰ اللهُ لِرَسُولِهِ مِنْ كِتَابِهِ، اعْتِقَاداً وَعَمَلاً، كَمَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ مُكَلّف.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابعُ خِطَابَه لِرَسُولِه ﷺ:

• ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾:

• ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾: أي: واحْبِسْ نَفْسَكَ، يُقَال لغة: «صَبَرَ فُلَانٌ نَفْسَهُ» أي: حَبَسَهَا وَأَلْزَمَهَا أَنْ تَكُونَ صابِرَة بإرادةٍ قَوِيَّة وَعَزْمٍ وَحَزْم.

• ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾: أي: مُصَاحِباً وَمُلازِماً المؤمنين الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ بالمطْلُوبِ مِنْهُمْ مِنْ عِبَادَات، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا الدُّعَاءُ بِمَا يَرْغَبُونَ فِيهِ من أُمُورِ دُنْيَاهُمْ وأُمُورِ آخِرَتِهِم. أُطْلِقَ فِعْلُ «دَعَا يَدْعُو» في الْقُرْآنِ كثيراً بِمَعْنَىٰ العبادة.

• ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾: «الْغَدَاةُ» و«الْغُدوَةُ»: الوقت مَا بَيْنَ صَلاةِ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ. «الْعَشِيُّ»: الْوَقْتُ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ وَغُرُوبِ الشَّمْسِ.

الَّذِي أَرَاهُ أَنَّ الْمَطْلُوبَ أَنْ يَحْبِسَ الرَّسُولُ نَفْسَهُ مُعَلِّماً، وهَادِياً وَدَاعِياً، فِي مُصَاحَبَةٍ وَمُلَازَمَةٍ للمؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ الْحَرِيصِينَ عَلَىٰ تَلَقِّي الْمَعْرِفَةِ الدِّينِيَّة، مُخَصِصاً لَهُمْ لِقَاءَيْنِ يَوْمِيًّا بِالْغَدَاةِ والْعَشِيّ، مَهْمَا كَانَ وَضْعُ مُحِبّي التَّلَقِّي لِلْمَعْرِفَةِ الدّينِيَّةِ مِنَ الطَّبَقَاتِ الَّتِي يَسْتَكْبِرُ عِلْيَةُ قَوْمِهِ عَنْ أَنْ يُجَالِسُوهم وَيَكُونُوا مَعَهُمْ، لِفَقْرِهِمْ وَلِمِهَنِهِمُ الْوَضِيعَةِ أو لِكَوْنِهِمْ مِنَ الْعَبِيدِ.

• ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾: أي: يُرِيدُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ذَاتَهُ جَلَّ جَلالُهُ، لَا يُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ أَحداً وَلَا شَيْئاً، وَإِفْرَادُهُ تَعَالَىٰ بالْعِبَادَةِ هُوَ الَّذِي يُحَقِّقُونَ بِهِ رِضْوَانَهُ، وَثَوَابَهُ العظيم.

• ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾: أي: وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ نَظَرَهُمَا عَنْهُمْ، فَتَصْرِفَاهُ عَنْ مُلَاحَظَتِهِمْ، والْعِنَايَةِ بِهِمْ، والْعَطْفِ عَلَيهم.

يقالُ لُغَةً: «عَدَا فُلَانٌ فُلاناً عَنِ الْأَمْرِ» أي: صَرَفَهُ وَشَغَلَهُ عَنه.

والمرادُ: وَلَا تَجْعَلْ عَيْنَيْكَ تَصْرِفَانِ نَظَرَهُمَا عَنْ مُلَاحظَتِهِمْ، والعنايَةِ بِهِمْ، والْعَطْفِ عَليهم، فَهُمْ قَاعِدَةُ بِنَاءِ الْأُمَّةِ الإسلاميَّة.

طُوِيَ المفعولُ بِهِ: «نَظَرَهُمَا» لإمكَانِ إدْرَاكِهِ واسْتِخْرَاجِهِ مِن الطَّيّ، وتَقْدِيرِهِ لَدَىٰ التدبُّرِ المتأنِّي.

• ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: أيْ: تُريدُ إرْضَاءَ أَهْلِ الوجَاهَةِ والْمَالِ والمتْرَفِينَ في حَيَاتِهِمْ، طَمَعاً في أَنْ يَكُونَ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدنيا مِنَ الْمُسَاعِدَاتِ عَلَىٰ انْتِشَارِ دَعْوَتِكَ، وَقَبُولِهَا مِنْ جماهِيرِ قَوْمِكَ.

سَبَقَ أَنْ جَاءَ في الآيَةِ (٥٢) من سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) نَهْيُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ، عَنْ أَنْ يَطْرُدَ عَنْ مَجَالِسِهِ الضُّعَفَاء والفقراء وَذَوي الْمِهَنِ الْوَضِيعَةِ، اسْتِجَابَةً لِطَلَبِ كُبَرَاءِ مُشْرِكي قَوْمِهِ، فقال لَهُ فيها:

﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ . . .﴾.

وأطاعَ الرَّسُولُ ﷺ فِيما نَهَاهُ اللهُ عَنْهُ، فَلَمْ يَطْرُد أَحداً مِنْ هؤلاء.

وَهُنَا في سُورَةِ (الكَهف/ ٦٩ نُزُول) زَادَ التكليفُ الرَّبَّانِي للرَّسُول صلوات الله وسلاماتُهُ عَلَيْه، فَأَمَرَهُ اللهُ بأَنْ يَصْبِرَ نَفْسَهُ مَعَهُمْ، وَأَنْ يُتَابعَ أَفْرَادَهُمْ بِنظَرِهِ، مُلاحَظَةً وَعِنَايَةً وَعَطْفاً، وَنَهَاهُ عَنِ التَّطَلُّعِ إِلَىٰ زِينَةِ الحياة الدُّنْيَا الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا كُبَرَاءُ قَوْمِهِ، وَلَوْ رَأَىٰ بِاجْتِهَادِهِ أَنَّ اسْتِرْضَاءَ هَـٰؤُلَاءِ الكُبَرَاءِ أَرْجَىٰ لانْتِشَارِ دَعْوَةِ الْحَقِّ فِي جَمَاهِيرِ قَوْمِهِ.

• ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطًا﴾:

أي: وَلَا تُطِعْ مَنْ وَجَدْنَا قَلْبَهُ غافِلاً عَنْ ذِكْرِنَا، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ المتَعَلِّقَ بِشَهَوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ وَمَتَاعَاتِهِ مِنْ زينات الْحَياةِ الدُّنيا **«وكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً»**: أي وَكَانَ أَمْرُهُ ظُلْماً، واعْتِدَاءً، وتَرْكاً وَتَجاوزاً لِلْحَقِّ والْخَيْرِ والْوَاجِبِ.

ومعلومُ أَنَّ كُبَرَاءَ قَوْمِهِ المصِرِينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وشِرْكِهِمْ، والمستكْبِرِينَ بِمَا يَمْلِكُونَ مِنْ زِينَةِ الْحَياة الدُّنيا، مُدَنَّسُونَ بالصِّفَاتِ الثَّلَاثِ الْوَارِدَاتِ في هـٰذَا البيان الرَّبَّاني:

(١) فَقُلُوبُهُمْ غافِلَةٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ الْجَلِيلِ العظيم الَّذي يُمِدُّهُمْ في حيواتِهِمْ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيته.

(٢) وَهُمْ مُتبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَمَطَالِبَهُمْ مِنْ زِينَاتِ الحياة الدُّنيا.

(٣) وأمُورُهُمْ ظُلْمٌ، واعْتِدَاءٌ، وتَرْكٌ لِلْحَقِّ والْخَيْرِ والْوَاجِب.

وَهٰؤُلَاءِ قَدْ طَالَبُوا الرَّسُولَ محمّداً ﷺ بِأَنْ يَطْرُدَ مِنَ الّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، الطَّبَقَةَ الضَّعِيفَةَ الْمَهِينَة، لِيَجْلِسُوا مَعَهُ وَيَسْتَمِعُوا إِلَيْهِ فنهاهُ اللهِ عَنْ طَاعَتِهِمْ بالاسْتِجَابَةِ لمطلبهم.

وَقَدْ سَبَقَ لَدَىٰ تَدبُّرِ الآيَةِ (٥٢) من سورَة (الأنعام/ ٥٥ نزول) مَا رُوِي في السُّنَّةِ، مِنْ طَلَبِ بَعْضِ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ مِنْهُ هٰذَا الطلب، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً وَصَايَاهُ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ بَعْضِ عَنَاصِرِ دَعْوَتِهِ:

• ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾:

• ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: أي: وقُلْ لِمَنْ تَدْعُوهُمْ إلَىٰ أَنْ يَدْخُلوا فِي دِينِ الله الَّذِي اصْطَفَاهُ لعباده، ابْتِدَاءً أو تكْرِيراً وَتَذْكِيراً: مَا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَاب اللهِ الْقُرْآن، هُو الحقُّ الَّذِي لَا بَاطِلَ فِيهِ، المنزَّلُ مِنْ رَبِّكُم لِبَيَانِ مَطْلُوبِهِ مِنْكُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ في الحياة الدُّنيا.

• ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾: أي: أَنْتُم بالنِّسْبَةِ إلى عَنَاصِرِ امْتِحَانِكُم، ذَوُوا إراداتٍ حُرَّةٍ مُخَيَّرُونَ فِيهَا لَا مَجْبُورونَ، وَهٰذَا التَّخْيِيرُ مُقْتَرِنٌ بِالْمَسْؤُولِيَّةِ، وَمُسْتَتْبَعٌ بالْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنفِيذِ الجزاءِ.

فَمَنْ شَاءَ بما آتاهُ اللهُ مِنْ إرَادَةٍ حُرَّةٍ، أَنْ يُؤْمِنَ بِمَا كَلَّفَ اللهُ عِبَادَهُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، فَلْيُؤْمِنْ.

ومَنْ شَاءَ بما آتاهُ الله مِنْ إرادةٍ حُرَّةٍ أَنْ يَكْفُرَ بما كَلَّفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عِبَادَهُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، فَلْيَكْفُرْ.

فَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ جَزَاءَ مَنْ يَكْفُرُ الْخُلُودَ في عذاب النّار يَوْمَ القيامة، إِذَا أَنْهَوْا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ كَافِرِينَ.

وَجَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ جَزَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ الْخُلُودَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

• ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾:

• ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾: يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم: «إِنَّا». «أَعْتَدْنَا». أي: أَعْدَدْنَا وَهَيَّأْنَا بِعِنَايَةٍ وإِتْقَانٍ.

• ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: لِلظَّالِمِينَ بِمَعْصِيَةِ مَا أَمَرْنَا عِبَادَنَا بِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ مِن دَرَكَاتِ الكُفْرِ.

• ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾: أي: دَارَ عَذَابٍ تَتَوَقَّدُ فِيهَا نَارٌ ذَاتُ تَعْذِيبٍ شَدِيدٍ للظَّالِمِينَ الْكَافِرِين، نُدْخِلُهُمْ فِيهَا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا، فَقَدْ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا، أي: سُورها العظيم الْمَانِعُ لِمَنْ هُوَ فِي دَاخِلِهَا مِنَ الْمُعَذَّبِينَ من الْخُرُوجِ مِنْهَا.

السُّرَادِقُ: كُلُّ مَا أَحَاطَ بِشَيْءٍ مِنْ جدارٍ أَوْ سُورٍ ونَحْوِهِمَا.

رَوَىٰ أحمد، والتّرمذي وابْنُ حبان والحاكم وصحّحه وَغَيْرُهُمْ عن أبي سَعِيد الْخُدْرِيّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قال:

«لِسُرَادِقِ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ، كَثَافَةُ كُلِّ جدارٍ مِنْهَا مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً».

• ﴿... وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾:

الاسْتِغَاثَةُ: طَلَبُ الْعَوْنِ لِأَمْرٍ ما.

الْمُهْلُ: يُطْلَقُ على الْقِطرَانِ السَّائل، وَعَلَىٰ الْمَعْدِنِ الذَّائِب، وَعَلَىٰ عَكَرِ الزَّيْتِ.

• ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾: أي: هو حَارٌ شَدِيدُ الْحَرَارَة، إذَا اقْتَرَبَ مِنْهُ الظَّمْآنُ الْمُعَذَّبُ لِيَشْرَبَ مِنْهُ شَوَىٰ بُخَارُهُ الحارُّ وَجْهَهُ، كَمَا يُشْوَىٰ اللَّحْم عَلَىٰ النَّارِ أَوِ الْبُخَارِ لإنْضَاجِهِ.

• ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾: بِئْسَ: فِعْلٌ جَامِدٌ لإنْشَاء الذَّمِّ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَة. **الشَّرَابُ**: فَاعِلُ «بِئْسَ». أي: بِئْسَ الشَّرَابُ الْمَاءُ الَّذِي يُغَاثُونَ بِهِ الَّذِي يُشْبِهُ الْمُهْلَ.

﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾: **سَاءَ**: كَلِمَةٌ تُقَالُ لإنْشَاءِ الذَّمِّ مِثْل: «بِئْسَ».

الْمُرْتَفَق: كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ للارْتِفَاقِ بِهِ والانْتِفَاعِ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ مَطَالِبِ الْجَسَدِ أو النَّفْس.

أي: وسَاءَتْ دَارُ الْعَذَابِ النَّارُ، للارْتِفَاقِ والانْتِفَاعِ بشَيْءٍ مَا مِنْهَا، في كُلِّ أمْرٍ مِنْ مَطَالِبِ الْجَسَدِ أو النَّفْس.

المعنى: إنَّ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ الخالِدِينَ في النَّارِ يَوْمَ الدِّين، يَشْتَدُّ ظَمَؤُهم، فَيَسْتَغِيثُونَ طَالِبِينَ مَاءً يَشْرَبُونَ مِنْهُ، فَيُغَاثُونَ بماءٍ يُشْبِهُ الْقَطِرَانَ أَوْ عَكَر الزَّيْتِ فِي لَوْنِهِ، وَهُوَ حَارٌّ شَدِيدُ الحرارَةِ بُخَارُهُ يَشْوِي الْوُجوه الَّتِي تَقْتَرِبُ مِنه، وَالشُّرْبُ مِنْهُ شُرْبٌ كَريهٌ فِيهِ تَعْذِيبٌ للشَّارِبِينَ، لَا يَصْبِرُ عَلَىٰ الشَّرْبِ مِنْهُ إلَّا مَنْ كَانَ ظَمَؤُهُ أَشَدَّ تَعْذِيباً لَهُ مَنْ أَنْ يَتَجرَّعَهُ، وَلَا يَقْتَصِرُ الذَّمُّ عَلَىٰ الشُّرْبِ مِنْ شَرَابِ دَارِ العذاب، بَلْ كُلُّ مَا فِي دَارِ الْعَذَابِ مَذْمُومٌ أَبْلَغَ الذَّمّ، مِمَّا يَحْتَاجُ المعَذَّبُونَ أَنْ يَرْتَفِقُوا وَيَنْتفعُوا بِهِ، في كُلِّ أَمْرٍ مِنْ مَطَالِبِ أَجْسَادِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ المنَعَّمِينَ فِيها، في مَقَابِلِ بيانِ بَعْضِ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ الخالِدِينَ فيها، ويتحدَّث بِضَمير المتكلِّم العظيم.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن

ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾: يُؤَكِّدُ رَبُّنَا بـ «إِنَّ ـ والجملة الاسميَّة».

أي: إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً بِحَسَبِ مَطْلُوبِ اللهِ مِنْ عبادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَكَانَ لإِيمانِهِمُ الصَّادِقِ فِي قُلُوبِهِم أَعْمَالٌ صَالِحَاتٌ في سُلُوكِهم الظَّاهِرِ والْبَاطِنِ.

• ﴿... إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾: أي: لَهُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ عِنْدَنا يُنَاسِبُ عَظَمَةَ رُبُوبِيَّتِنَا، لِأَنَّنَا لا نُضِيعُ أجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً، طَاعَةً لَنَا، وابتغاء مَرْضَاتِنَا.

جُمْلَة: «إِنَّا لَا نُضِيعُ...» واقعة مَوْقِعَ التَّعْلِيلِ لِجُمْلَةٍ مَطْوِيَّة دَلَّتِ الجملَةُ المذكُورَة عَلَيْهَا.

• ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ﴾: أي: إِنَّا لَا نُهْمِلُ أَجْرَ وَلَا نَجْعَلُ مَفْقُوداً مَعْدُوماً.

• ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾: أيْ: مَنْ عَمِلَ عَمَلاً حَسَناً طَاعَةً لَنَا وابتغاءَ مَرْضَاتِنَا، وَطَلَباً لِلثَّوَاب الَّذِي وَعَدْنَا بِهِ.

• ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾: أي: أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أَصْحَابُ المنْزِلَةِ الْعَالِيَةِ الرَّفِيعَةِ عِنْدَنَا.

• ﴿لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾: أَيْ: لَهُمْ عِنْدَنَا يَوْمَ الدِّينِ جَنَّاتُ إِقَامَةٍ واسْتِقْرَارٍ دَائم وَثَباتٍ. **جَنَّاتُ عَدْن**: هِيَ وَسَطُ الجنَّاتِ[1] دُونَ الفردوس الأعْلَى، وَفَوْقَ مَا دُونَهَا مِنْ جَنَّاتٍ.

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة مريم بشأن جنَّات عَدْن.

• ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: أي: تَجري مِنْ تَحْتِ شُرفَاتِ قُصُورِهِم الْأَنْهارُ الْمُتنوّعَات، مِنْ مَاءٍ، ولَبنٍ، وَعَسَلٍ مُصَفًّىٰ، وَخَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّارِبينَ لا غَوْلَ فيها.

• ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾: أي: يُحَلَّوْنَ في جَنَّاتِ عَدْنٍ حُلِيًّا مُنوَّعَةً بَدِيعَةً رَائِعَةً مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ أَنْفَسِ المعادِن.

• ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾:

الثياب الْخُضْر: ثِيابُ أَهْلِ جنَّاتِ عَدْن.

مِنْ سُنْدُسٍ: أي: مِنْ نَوْعِ ثِيَابٍ يُقَالُ لَهُ: «سُنْدُس» وهي ثيابٌ رقيقَةٌ نَاعِمَةٌ مَنْسُوجَةٌ مِنَ الْحَرِير، وهي من أصناف الدِّيباج.

واسْتَبْرَق: أي: وَمِنْ نَوْعِ ثِيَابٍ يُقَالُ لَهُ: «اسْتَبْرَق» وهي ثيابٌ غليظةٌ مَنْسُوجَةٌ من الحرير أيضاً، وَهِي أَيْضاً مِنْ أَصْنَافِ الدِّيباج.

• ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: **الأرائك**: جَمْعُ «الْأَرِيكَة» وهي المقْعَدُ المنجَّدُ الْوَثِيرُ. أي: حَالَةِ كَوْنِهِمْ مُتَّكِئِينَ في جَنَّاتِ عَدْنٍ عَلَىٰ الْأَرائِك.

الاتِّكَاءُ: الْجُلُوسُ بتمكُّنٍ عَلَىٰ مَقْعَدٍ وَثِيرٍ، بصاحِبُهُ غَالِباً وضْعُ الْيَدَيْنِ عَلَىٰ مَا يَحْمِلُهُمَا للرَّاحَة.

• ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾: «نِعْم»: فِعْلٌ جَامِدٌ لإنْشَاءِ الْمَدْحِ عَلَىٰ سَبِيلِ المبالغة. «**الثوابُ**» فَاعِلُ «نِعْمَ». والمخصُوصُ بالْمَدْحِ ثَوَابُهُمْ الّذِي دَلَّ عَلَيْهِ المذكُورَاتُ سَابقاً في الآيَة.

• ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾: أي: وَحَسُنَتْ جَنَّاتُ عَدْنٍ مُرْتَفقاً. جَاءَتْ هَـٰذِهِ العبارة في مُقَابِلِ وَصْفِ دَارِ العذاب بأَنَّهَا سَاءَت مُرْتَفقاً.

حَسُنَ: كَلِمَةٌ تُقَالُ لإنْشَاءِ المدْحِ عَلَىٰ سَبِيلِ المبالَغَةِ، مثل: «نِعْمَ».

الْمُرْتَفَقُ: كُلُّ يُحتَاجُ إلَيْهِ للارْتِفَاقِ والانْتِفَاعِ بِهِ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ مَطَالِبِ الْجَسَدِ أَوِ النَّفْس.

أي: وَحَسُنَتْ جنَّاتُ عَدْنٍ للارْتِفَاقِ بأيّ شيءٍ مِنْهَا، فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ مَطَالِبِ الْجَسَدِ أَوِ النَّفْسِ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدبُّر الدّرس الثَّالِثِ من دُرُوس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

(٨)
التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (الكهف) الآيات من (٣٢ ـ ٤٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُوله:

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا
نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا
﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ
أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ
صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ
مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن
يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾
أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ
عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ
تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ
خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

القراءات:

(٣٣) • قرأ نَافع، وابْنُ كَثير، وأبو عمْرو: **[أُكْلَهَا]** بإسكان الكاف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[أُكُلَهَا]** بضمّ الكاف.

وهُمَا لُغتان عَربيتَانِ.

(٣٤) • قرأ أبو عَمْرو: **[ثُمْرٌ]** بضمّ الثاء وإسْكان الميم.

وقرأها عاصم، وأَبُو جَعْفر، ويَعْقُوب: **[ثَمَرٌ]** بفتح الثاء والميم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[ثُمُرٌ]** بضم الثاء والميم. وهي لغات عَرَبِيَّة.

(٣٤) • قرأ نافع، وأبو جَعْفر، بإثْبَات ألف «أَنَا» من **[أَنَا أَكْثَرُ]** في الوصل.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بِحَذْفِهَا في الْوَصْل.

واتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَىٰ إِثْبَاتِها في الوقف.

(٣٦) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابن عَامر، وأبو جعفر: **[مِنْهُمَا]** أي: مِنْ جنّتَيه.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مِنْهَا]** أي: من جنَّتِهِ المنْقَسِمَةِ إلى جنّتَيْنِ.

(٣٨) • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، وَرُوَيس: **[لَكِنَّا هُوَ]** بإثباتِ الألف وصلاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بحذف الألف وصْلاً.

واتَّفَقُوا على إثباتِها وقْفاً اتّباعاً للرَّسم.

(٣٨) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: **[بِرَبِّيَ أَحَداً]** بفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكان ياء المتكلّم.

(٣٩) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [أَنَآ أَقَلَّ] بإثْبَاتِ ألف «أنا».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بِحَذْفِهَا وَصْلاً.

واتَّفَقُوا على إثباتها وَقفاً.

(٣٩) • قرأ قَالُون، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [إِنْ تَرَنِي أَنَا] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً.

وقرأها ابْنُ كثير، ويَعْقُوب كذلِكَ في الوصل والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِنْ تَرَنِ أَنَا] بحذف ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

(٤٠) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أَنْ] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسكانها.

(٤٠) • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [يُؤْتِيَنِي] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً. وكذلِكَ يعقوبُ في الوصل والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُؤْتِيَنِ] بحذف ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

(٤٢) • قرأ أبو عمْرو: [بِثُمْرِهِ].

وقرأها عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: [بِثَمَرِهِ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ وَمَعَهُمْ رُوَيس: [بِثُمُرِهِ] وهي لغاتٌ عَرَبِيَّة.

(٤٢) • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [بِرَبِّيَ أَحَداً] بِفَتْحِ ياءِ المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسكانها.

(٤٣) • قرأ حمزة، والكِسَائِي، وخلف: [وَلَمْ يَكُنْ] بالياء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَمْ تَكُنْ] بالتَّاء.

(٤٣) • قرأ أبو جعفر: [فِيَةٌ] بإبدال الهمزة ياءً وصْلاً ووقْفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فِئَةٌ].

(٤٤) • قرأ حمزة، والكِسَائِي، وخلف: [الْوِلَايَةُ] بِكَسْرِ الواو.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الْوَلَايةُ] بِفَتْحِ الواو.

وَهُمَا لغتان عربيّتان.

(٤٤) • قرأ أبو عَمْرو، والكِسَائِيُّ: [الحقُّ] صفة للوَلَايَة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الحقِّ] صفةً: «لله».

(٤٤) • قرأ عاصم، وحمزة، وخَلَف: [عُقْباً].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عُقُباً].

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْس بيانُ قِصَّةِ حِوَارٍ جرَىٰ بَيْنَ صَاحِبَيْن:

• **أَحَدُهُمَا:** غَنِيٌّ كَافِرٌ بِيَوْمِ الدِّينِ آتَاهُ اللهُ مِنْ زِينَةِ الحياة الدُّنيا جنَّتَين.

• **والآخر:** فَقِيرٌ مُؤْمِنٌ صَادِقُ الْإِيمانِ، يَدْعُو إلى دين اللهِ الحقِّ، وَإلى الإيمانِ بالجزاءِ ويَوْمِ الدّين.

والْحِوَارُ الدِّينيُّ بَيْنَهُمَا جرَىٰ حَوْلَ قَضِيَّتَيْنِ:

الْقَضِيَّةُ الأُولَى: قضيَّةُ الإيمانِ باللهِ الخالِقِ الرَّبِّ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي إلَٰهِيَّتِهِ.

وَمِنَ الإشراك باللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ اعْتِقَادُ أَنَّ الْأَسْبَابَ تَفْعَلُ بذاتها، لَا أَنَّهَا بِمَثَابَةِ قَنَوَاتٍ تَسْتُرُ جَرَيَانَ أَفْعَالِ اللهِ فِي الْخَلْقِ بِمُقْتَضَىٰ مَا سَبَقَ أَنْ قَدَّرَهُ وَقَضَاه.

القضيَّةُ الثانِيَة: قَضِيَّةُ الإيمانِ بالْيَوْمِ الآخِرِ، الَّذِي يُحَاسِبُ فِيه اللهُ الَّذِينَ كَانُوا مَوضُوعِينَ في الحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان، عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا وَأخرَّوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهم، وبَعْدَ الْحِسَاب يَفْصِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ القضاءَ بَيْنَهُم، ثُمَّ يُجَازِيهِمْ في جَنَّاتِ النَّعِيم، أَوْ فِي النَّارِ بِعَذَابٍ أَلِيم.

وأَحَدُ هٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ كَافِرٌ بِهَاتَيْنِ القضيَّتَيْنِ، بتأْثِير الْغُرُورِ بزينَةِ الحياةِ الدُّنيا وَفِتْنَتِها، كُفْراً لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِن اسْتِجَابَتِهِ مَعَهَا إِلَىٰ الْحَقِّ عَنْ طَرِيقِ إرادتِهِ الحرَّةِ، وَهُوَ ذُو ثَرَاءٍ وَسَعَةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَزِينَةٍ مِنَ الحياة الدُّنيا تَوَصَّلَ إِلَيْهَا بما اسْتَخْدَمَ مِنْ أَسْبَابٍ هَيَّأَهَا اللهُ لَهُ، وَذُو قُوَّةٍ بأَنْصَارِهِ مِنْ أَوْلَادِهِ وَغَيْرِهِم، وَمِمَّا يَمْلِكُ جَنَّةٌ كَبِيرَة، هِي بُسْتَانٌ كبير، يَفْصِلُهُ مِنْ وَسَطِهِ نَهَرٌ جَارٍ، يَتَدَفَّقُ بِلَا انْقِطَاع، فَصَارَ بِمَثَابَةِ جَنَّتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا عَنْ يَمِينِ النهر، والْأُخْرَىٰ عَنْ شِمَالِهِ.

لَقَدْ أَنْسَاهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ، أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَهُ بِتَيْسِيرِ الْأَسْبَابِ لَهُ كُلَّ مَا تَحْتَ يَدِهِ مِنْ أَمْوَالٍ وَقُوَّةٍ يَعْتَزُّ بِها.

والرَّجُلُ الآخَرُ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ دَاعِيَةٌ إلى دِينِ اللهِ، حَرِيصٌ عَلَىٰ هِدَايَةِ الضَّالِّين، وإرْشَادِهِمْ إلى صِرَاطِ اللهِ المستقيم، عَقِيدَةً وَعَمَلاً، إِلَّا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُؤْتِهِ سَعَةً مِن المال، وَلَا كَثْرَةً مِنَ الْأَوْلَادِ والْأَنْصَار.

ولمّا أَتْلَفَ اللهُ للكافِرِ جنَّتَيْهِ آمَنَ باللهِ والْيَوْم الآخر.

التَّدَبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِه فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ فِي تَعْلِيم دَعَوِيّ:

• ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾:

أي: واضربْ لِمُشْرِكِي مَكَّةَ المعْتَزِّينَ الْمُتِفَاخِرِينَ بِكَثْرَةِ أَمْوَالهم، وقُوَّةِ رِجَالِهِمُ الَّذِينَ يَنْصُرُونَهُمْ ضِدَّكَ وَضِدَّ دَعْوَتِكَ وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ واتَّبَعُوك، مَثلاً قِصَّةَ رَجُلَيْنِ: مُؤْمِنٍ فَقِيرٍ دَاعٍ إلى اللهِ، وَكَافِرٍ غَنِيٍّ وَسَّعَ اللهُ في الرزْقِ مِنْ زِينَةِ الحياة الدُّنيا.

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ وَصْفٌ كَلَامِيٌّ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ تَحْدِيدٍ لِخَرِيطَةِ جَنَّتَي الرَّجُلِ الثَّرِيِّ، وَمَا فيهما من أشْجَارٍ وَزُرُوعٍ، باسْتِثْنَاءِ المسَاحَةِ والْعَدَدِ.

فالجنَّتَانِ مَزْرُوعَتَان بأشْجَارِ الْعِنَب، ذواتِ العروق والْفُرُوعِ الْمُمْتَدَّةِ، وأَفْضَلُ بَسَاتِينَ الْعِنَبِ مَا كَانَتْ فُرُوعُ أشْجَارِه مُمَدَّدَةً عَلَىٰ عُرُوشٍ مِنَ الْأَخْشَابِ الْمُرْتَفِعَةِ عَنْ الأَرْضِ بأعْمِدَةٍ، لَكِنْ لَمْ يَأْتِ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ذِكْرُ الْعُرُوش، إنَّمَا جَاءَ في أواخِرِ بيانِ الْقِصَّة ذِكْرُها بِعِبَارَة: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ عنْدَ بيانِ إهْلَاكِ ثمرِ الجنَّتَيْنِ.

والْجنتَانِ مَحْفُوفَتَانِ بِأَشْجَارِ النَّخِيلِ الشَّاهِقَةِ، لِتَحْمِيَ أَشْجَارَ الْعِنَبِ مِنَ الرِّيَاحِ الْبَارِدَة، وَمِنْ لَفَحاتِ الصَّقِيعِ الَّتِي تَأْتِي بِهَا، المتْلِفَةِ لِلثِّمَارِ والْأَزْهَار، ويقولُ اللهُ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً بضمير الْمُتَكَلِّم العظيم:

• ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾: أي: وَأَحَطْنَاهُمَا بِأَشْجَارِ نَخْلٍ. يُقَالُ لغة: «حَفَّ فُلَانٌ الشَّيْءَ بالشيء» أي: جَعَلَهُ مُحِيطاً بِهِ، وَمُسْتَدِيراً حَوْلَه.

• ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾: أي: وَفي المساحَاتِ الْفَارِغَاتِ بَيْنَ الْأَشْجَارِ جَعَلْنَا زُرُوعاً أَرْضِيَّةً نَافِعَةً لِأَكْلِ النَّاسِ والْأَنْعَام.

• ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾: أي: وَقَدْ وَصَلَتِ الْأَشْجَارُ إِلَىٰ كَمَالِ نُضْجِهَا، فآتَتْ فيما سَبَقَ أُكُلَها، أي: ثَمَرَاتِها الَّتِي

تُؤْكَلُ مِنْهَا، دُونَ أَنْ تَتَعَرَّضَ لِنُقْصَانٍ، فَلَمْ تَظْلِمْ مِنْ أُكُلِهَا شَيْئاً، أي: لَمْ تَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئاً.

الأُكُل: بضَمِّ الكاف وإسْكَانِها مَا يُؤْكَلُ، وأُكُلُ الشَّجَرَةِ جَنَاهَا الَّذِي يُؤْكَلُ مِنها.

• ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾: أي: وأَخْرَجْنَا عَيْنَ مَاءٍ تَنْبَعِثُ مِنْهَا الحياةُ بِقُوَّةٍ وَتَدَفُّقٍ، وَشَقَقْنَا لَهُ نهراً يَجْرِي فِيهِ الماء لسُقْيَا الجنتَّيْن.

وسواءٌ حَصَلَ هـٰذَا بأَسْبابٍ اتَّخَذَهَا الرَّجُلُ، أَمْ دُونَ أَسْبَابٍ مِنْهُ، فالْأَمْرُ كُلُّهُ قَدْ تَمَّ بِتَقْدِيرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَضائِهِ وخَلْقِهِ.

إنَّ الأَسْبَابَ الإنْسَانِيَّةَ إنَّمَا تَتِمُّ بإقْدَارِ اللهِ وإلْهَامِهِ وَتَوْفِيقِهِ، وهي في الحقيقَةِ آثَارُ فِعْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

• ويُمْكِنُ تَقْسِيمُ قِصَّةِ هٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إلى ثَلاثَةِ فُصُول، وخاتِمَةٍ عَقِبَها.

الفصل الأول

مُقَدّمة:

يظْهَرُ أَنَّ الرَّجُلَ المؤمِنَ الداعِيَةَ إلَىٰ دِينِ اللهِ والْتِزَامِ صِراطِهِ المسْتَقِيم، وقَدْ بَدَأَ يَنْصَحُ مَالِكَ الجنَّتَيْنِ ذَا الْقُوّةِ بأمْوَالِهِ وأنْصَارِه، المفْتُونَ بِمَا آتَاهُ اللهُ مِنْ زينَةِ الْحَياةِ الدُّنْيَا لِيَبْلُوَه، فَيَدْعُوهُ إلَىٰ الإيمَانِ الْكَامِلِ الصّحِيحِ باللهِ الْخَالِقِ الرَّبّ، الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شيءٍ فِي الْوُجُود، والَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، حَتَّىٰ الأَسْبَاب فإنَّهَا لَا تُؤَثِّرُ إلَّا بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ وَقُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ، وَالَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ في إلَهِيَّتِهِ، أي: في اسْتِحْقَاقِهِ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ دُونَ شَيْءٍ سِوَاهُ فِي الوجود، وأَخَذَ يُقَدِّمُ لَهُ الأَدِلَّةَ عَلَىٰ التَّوْحِيد، وَيُبَيِّنُ لَهُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ النَّاسَ فِي هَـٰذِهِ الحياة الدُّنْيَا

لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وأَنَّ هَـٰذِهِ الحياة الدُّنْيا كُلَّها سَتَنْتَهِي بِقِيامِ السَّاعَةِ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ النَّاس إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، يَوْمِ الحِسَاب، وَفَصْلِ القضاء، ثُمَّ تَنْفِيذِ الجزاء، بالثواب في جَنَّاتِ النَّعِيم، أَوْ بالعقابِ في دَارِ الْعَذَابِ الأَلِيم.

فَرَدَّ عَلَيْهِ ذُو المالِ الواسِعِ المعْتَزُّ بِكَثْرَةِ أَوْلَادِهِ وَنَفَره، بقولِهِ له: إِنَّ إِيمَانَكَ بِرَبِّكَ وَطَاعَتَكَ لَهُ لَمْ تَجْلُبْ لَكَ مَالاً كثيراً، وَلَا قُوَّةً وَلَا مَنَعَةً بالأَوْلَادِ وَالأَنْصارِ بَيْنَ النَّاس.

فَلَوْ كَانَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ صَحِيحاً لَكَانَ اللهُ قَدْ وَسَّعَ عَلَيْكَ وَمَنَحكَ الْقُوَّة.

أَمَّا أَنَا فَقَدِ اسْتَخْدَمْتُ وَسَائِلِي، وَذَكَائِي، وعِلْمِي، فَصِرْتُ أَكْثَرَ مِنْكَ مَالاً، وَأعزَّ نَفَراً، وهـٰذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الأَمْرَ لَا يَتَجَاوَزُ ظُرُوفَ هَـٰذِهِ الحياةِ وَأَسْبَابِهَا.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ المؤمِنُ قَدْ حَاوَرَهُ حَوْلَ دَلِيلِهِ هَـٰذَا، فَأَبَانَ لَهُ أَنَّ ظُرُوفَ الحياة الدُّنْيا ظُرُوفُ امْتِحَان، والامْتِحَانُ يَكُونُ بِالْغِنَىٰ والْقُوَّةِ أَحْيَاناً وَلِبَعْضِ النَّاسِ، وَلَيْسَ هـٰذَا تَكْرِيماً مِن اللهِ لَهُمْ، وَيَكُونُ بالتضْيِيقِ وَعَدَمِ الْقُوَّة أَحْياناً ولِبَعضِ النَّاسِ، وَلَيْسَ هـٰذَا إِهَانَةً لَهُمْ، بَلْ كُلٌّ مِنَ الأَمْرَيْنِ للابْتِلَاءِ والامْتِحَان.

إِلَّا أَنَّ ذَا الْغِنَىٰ المعْتَزَّ بأَمْوَالِهِ وَأَوْلَادِهِ وَنَفَرِهِ، والمتفاخِرَ بِكُلِّ ذَلِكَ، لَمْ يَعْبَأْ بِجَوَابِ الرَّجُلِ المؤمِنِ الْقَائِمِ عَلَىٰ الدَّلِيلِ النَّظَرِيِّ الْفِكْرِيِّ الْعِلْمِيِّ، المسْتَنِدِ إِلَىٰ أَدِلَّةِ الإيمان باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ، وَحِكْمَتِهِ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ فِي هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا، لِأَنَّهُ مَفْتُونٌ بِمَا يَمْلِكُ مِنْ زِينَتِها، مَحْجُوبُ الْبَصِيرَةِ عَنْ إِدْرَاكِ الحقيقَةِ، إِذْ أَكْسَبَهُ افْتِتَانُهُ طُغْيَاناً فِي نَفْسِهِ.

وفي مَوْسِمٍ مِنْ مَوَاسِمِ قَطْفِ الثِّمَارِ، كَانَتْ جَنَّتُهُ ذَاتَ ثَمَرٍ بَهِيجٍ،

وَكَانَ قَدْ دَنَا قِطَافُهُ، فَتحرَّكَتْ نَفْسُهُ بِرَغْبَةِ الافْتِخَارِ عَلَىٰ صَاحِبه المؤمِنِ الدَّاعِيَةِ الَّذِي لَمْ يُؤْتِهِ اللهُ مِثْلَ مَا آتاهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ واسْتَصْحَبَهُ، لِيُطْلِعَهُ عَلَىٰ بُسْتَانِهِ، المفْتُونِ بإنْشَائِهِ وَإِعْمَارِهِ وإتْقَانِهِ، ذِي الْجَنَاحَيْنِ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ، وَمِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ، وَذِي النَّهْرِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا، وَالَّذِي يَتَفَجَّرُ جَارِياً مُتَدَفِّقاً شَاقًّا الْبُسْتَانَ إِلَىٰ جَنَاحَيْنِ، فَكَانَ بِمَثَابَةِ بُسْتَانَيْنِ مُنْفَصِلَيْن، لَكِنْ يَجْمَعُهُمَا سُورٌ عَامٌّ واحِدٌ، فَهُمَا جَنَّتَانِ مُتَفَاصِلَتَانِ، فِي جَنَّةٍ عَامَّةٍ وَاحِدَةٍ ذَاتِ سُورٍ عَامٍّ وَاحِدٍ، وَقَصَدَ مِن اسْتِصْحَابِهِ التَّفَاخُرَ عَلَيْه، وَإِقْنَاعَهُ بأَنَّ نِظَامَ الحياةِ نظام أسْبَابٍ وَمُسَبَّبَات.

فَلْنُتَابِعْ بالتَّدَبُّر التحليليّ فِقَرَاتِ البيانِ الرَّبَّانِي فِي كِتَابِ اللهِ المجيد.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾:

أي: وَفِي مَجْلِسِ حِوَارٍ بَيْنَهُمَا احْتَجَّ الْغَنِيُّ المفتونُ بمالِهِ والمغْرُورِ بِعِزَّتِهِ بأولاده وخَدَمِهِ، فقالَ فِي حِوَارِهِ محتجّاً وَمُتَفَاخِراً على المؤمِنِ الدَّاعِيَةِ إلى اللهِ، الَّذِي لَمْ يُؤْتِهِ اللهُ سَعَةً مِنَ الْمَالِ، وَلَا قُوَّةً وَعِزًّا بالأَوْلَادِ وَالْخَدَم، وَكَانَ لَهُ فِي جَنَّتَيْهِ ثَمَرٌ اقْتَرَبَ أَوَانُ قِطَافِهِ، فَقَال لصاحِبِهِ:

• ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾: أي: مَعَ أَنِّي لَا أُومِنُ بِمَا تَدْعُونِي إِلَىٰ الإيمان بِهِ، فَلَوْ كَانَ مَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ حَقًّا لَأَغْنَاكَ رَبُّكَ وأعَزَّكَ بالأَوْلَادِ والنَّفَر، وَلَسَلَبَنِي مَا أَنَا فِيهِ مِنْ مَالٍ وعِزٍّ.

• ﴿وَأَعَزُّ﴾: أي: وَأَقْوَىٰ وأَغْلَب، تقولُ العرب: «مَنْ عَزَّ بَزَّ» أي: مَنْ غَلَبَ سَلَب.

• ﴿نفَرًا﴾: النَّفرُ الرِّجالُ مِنْ ثَلاثَةٍ إلى عَشرة، وكانُوا أوْلادَهُ وَخَدَمَه.

• ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: أَبانَ اللهُ بِهـٰذا أَنَّ جَنَّتَيْهِ جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ، نظراً إلَىٰ السُّورِ الواحِدِ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا، وَإِذْ كانَ النَّهَرُ الْجَارِي بَيْنَهُما قَدْ فَصَلَهُمَا، فَهُمَا بهذا الاعتبار جَنَّتَانِ.

وَوَصَفَ اللهُ الرَّجُلَ بِأَنَّهُ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، لأنَّهُ عَرَّضَ نَفْسَهُ بِكُفْرٍ، لاسْتِحقَاقِ عَذَابٍ أَلِيمٍ خُلُوداً فِي دَار العذاب النَّارِ يَوْمَ الدين، إذَا لَمْ يَتُبْ وَلَمْ يُؤْمِنْ قَبْل مَوْتِهِ، ومِنْ كُفْرِهِ مَا يلي:

(١) أَنَّهُ جَعَلَ الْأَسبَابَ هِيَ الْفَاعِلِ الحقيقيَّ، جاحداً أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُوَ الَّذي يَخْلُقُ مِنْ خِلالِها.

(٢) وَقَدْ أنكَرَ يَوْمَ الدِّينِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بالْبَعْثِ، والْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

• ﴿... قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾:

هَـٰذِهِ عِبارَاتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ عَناصِرَ كُفْرِهِ، وهِيَ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ أَخَذَ بِيَدِ مُحَاوِرِهِ المؤمِنِ حَتَّىٰ أَوْصَلَهُ إِلَىٰ بُسْتَانِهِ، وأراهُ ثِمارَهُ مُتَدَلِّياتٍ عَلَىٰ أشْجَارِهَا، وَأَعْلَنَ ابْتِهَاجَهُ وَفَرَحَهُ بِجنَّتِهِ فقالَ لَهُ: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾: أي: مَا أَظُنُّ أَنْ تَهْلكَ هَـٰذِهِ الجنَّةُ في كُلِّ أَزْمَانِ المسْتَقْبَلِ وَتَنْقَرِضَ، مَا دُمْتُ أَتَّخِذُ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَجْعَلُهَا مُسْتَمِرَّةَ الْبَقَاءِ والإِنْتَاجِ الْوَفِير.

إِنَّهُ لَمَّا اسْتَبْعَدَ مِنْ تَصَوُّرِهِ أَنَّ الْحَيَاةَ هَـٰذِهِ حَيَاةُ ابْتِلَاءٍ، وَأَنَّ وَرَاءَهَا حَيَاةً أُخْرَىٰ، في دَارٍ هي دَارُ الْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وَتَنْفِيذِ الجزاء، تَصَوَّرَ أَنَّ الْوُجُود كُلَّهُ مُنْحَصِرٌ في ظُرُوف هَـٰذِهِ الحياة، وَتَصَوَّرَ أَنَّ هَـٰذا

النِّظَامَ مُسْتَمِرٌّ فِيها مِنَ الْأَزَلِ إِلَىٰ الْأَبَدِ، عَلَىٰ مَذْهَبِ الدَّهْرِيّين، وتَصَوَّرَ أَنَّ أَحْدَاثَ هَـٰذِهِ الحياةِ الَّتِي تَجْرِي فِيها خَاضِعَةٌ لِنِظَام الْأَسْبَابِ والْمُسَبَّبَاتِ، فَمَا دَامَ الإِنْسَانُ يَتَّخِذُ أَسْبَابَ الإِنْشَاءِ والتَّعْمِيرِ والتَّرْبِيَةِ والتَّنْمِيَةِ، فإِنَّ الْأَسْبَابَ مُسْتَمِرَّةُ الْعَطَاءِ فِي نِظَامٍ أَبَدِيٍّ لَا انْقِطَاعَ له. وبِمَا أَنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، واتَّخَذَ الْأَسْبَابَ الصَّحِيحَةَ السَّلِيمَةَ الْكَامِلَةَ، لإِنْشَاءِ بُسْتَانِهِ ذي الجناحَيْن، إِنْشاءً كَامِلَ الصِّفَاتِ والشُّرُوطِ التَّنْمَوِيَّةِ وَالْوِقَائِيَّةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُعْطِي عَطَاءَهُ دواماً وافراً غير مَنْقُوص، وهـٰذَا الْأَمْرُ قَدِ امْتَحَنَهُ وأَخْضَعَهُ لِلتَّجْرِبَة خِلَالَ سَنَوَاتِ حَيَاتِهِ السَّابقات.

لِذَلِكَ فَهُوَ لَا يَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ جَنَّتُهُ هَـٰذِهِ أَبَداً، مَا دَامَتْ أَسْبَابُ إِمْدَادِهَا بالْبَقَاءِ والتَّجْدِيدِ والتَّحْسِينِ والْحِمَايَةِ مُسْتَمِرَّةً، وَتَصَوَّرَ أَنَّ هـٰذَا هو قَانُونُ الْوُجودِ الّذي لَا يَتَعَرَّضُ لِمَا يُلْغيهِ مِنْ قُوَّة رَبَّانِيَّةٍ خارقَة.

وَنَفْيُ الظَّنِّ كُلِّهِ قَوِيِّهِ وَضَعِيفِهِ عَنِ النَّقِيضِ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ النَّقِيضِ الآخَرِ بلا شَكّ، أي: فَهِيَ دَائِمَةٌ بِلَا انْقِطَاعِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هـٰذَا أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِخُلُودِ نَفْسِهِ، إِلَّا أَنَّ وَهْمَهُ جَعَلَهُ يُؤْمِنُ بِخُلُودِ نظامِ الكَوْنِ، وَنِظَامِ تَعَاقُب صُوَرِ الْحَيَاةِ في الْأَرْض.

وَإِذْ سَيْطَرَتْ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِكْرَةُ خُلُودِ هـٰذَا النِّظَام الْكَوْنِيّ بِلَا انْقِطَاع، فَمِنْ لَوَازِمِ هَـٰذِهِ الفِكْرَةِ أَنْ لَا يَظُنَّ أَنَّ السَّاعَةَ الَّتِي حَدَّثَ الرُّسُلُ عَنْهَا، وَأَثْبَتَتْهَا الْكُتُبُ الرَّبَّانِيَّةُ سَاعَةٌ قَائِمَةٌ، لَا سَاعَةُ الإِفْنَاءِ، وَلَا سَاعَةُ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ حَيَاةِ البقاء، فقال:

• ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآيِمَةً﴾.

وهَـٰذَا النفيُ يَتَضَمَّنُ إثبَاتَ النَّقِيضِ أيْضاً، وهو أَنَّ السَّاعَة لَنْ تَقُومَ لَكِنَّهُ لَمْ يَجْزِمْ جَزْماً قَاطِعاً بِأَنَّهُ لَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الحياة بَعْدَ الْمَوْت، فقال:

• ﴿... وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾:

إِنَّهُ أقْسَمَ مُؤَكِّداً، فاللّامُ في «لَئِنْ» مُوَطِّئَةَ لِقَسَمٍ مَنْوِيّ، فقال: لَئِنْ أُرْجِعْتُ إِلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْت لِيُحَاسِبَنِي رَبِّي عَلَىٰ سَبِيلِ الاحتمال الضعيف الذي دَلَّتْ عليْهِ: «إِنْ» فِي نظامٍ غَيْرِ هَـٰذَا النِّظَامِ المشْهُودِ لِلْكَوْنِ، لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْ هَـٰذِهِ الجنَّةِ مُنْقَلَباً أَنْقَلِبُ إليه.

الْمُنْقَلَبُ: المكانُ الَّذِي يَحْصُل الانْقِلَابُ، أي: الرُّجُوعُ إِلَيْهِ.

أي: فَعِلْمِي وَقُدْرَتِي اللَّذَيْنِ جَعَلَانِي أجْمَعُ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاة مَا جَمَعْتُ وأُأَسِّسُ مَا أَسَّسْتُ، وأنْشِئُ مَا أنْشَأْتُ، سَيُمَكِّنَاني مِنْ أَنْ أكْتَسِبَ أَمْثَالَهَا، إِنْ تَحَقَّقَتْ هَـٰذِهِ الرَّجْعَةُ إِلَىٰ الحياة بَعْدَ الْمَوْتِ، لَكِنَّنِي لَا أَرَىٰ هَـٰذَا فَمَزَاعِمُ الحياة الْأُخرىٰ مَزَاعِمُ لَا دَلِيلَ عَلَيْها فِيمَا نُشَاهِدُ مِنْ مَقَابِرِ أَهْلِ الْقُرُونِ الْأُولى.

الفصل الثاني

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾:

• ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾:

نُلَاحِظُ بِهـٰذَا أَنَّ المحاور المؤمِنَ حَاوَلَ فِي مُحَاوَرَتِهِ لصاحِبِهِ فِي الْحِوَارِ، المغْرُورِ بما آتاهُ اللهُ مِنْ مَالٍ وَأَنْصار، إِعَادَتَهُ إِلَىٰ المنْطَلَقِ الْأَوَّلِ

لِلْفِكْرِ الإيماني، وهُوَ الإيمانُ بالْخَالِقِ الرَّبِّ، المنْشِئِ لَهُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ العظْمَىٰ مِنَ التُّراب.

فَسأَلَهُ عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِفْهَام الإنْكَارِيّ، عَنْ نَظْرَتِهِ إلى النِّظَام السَّبَبِيِّ الَّذِي تَجْرِي بِمُقْتَضَاهُ أَحْدَاثُ الْكَوْنِ وأَطْوَارُهُ، هَلْ هُوَ يُؤْمِنُ بالأَسْبَابِ مُنْقَطِعَةً عَنِ الرَّبِّ الَّذِي يَخْلُقُ كُلَّ مَا فِي أَحْدَاثِ كَوْنِهِ ضِمْنَ قَنَوَاتِهَا؟!.

أي: إنَّ وُجُودَكَ بِخلْقِ اللهِ قَدْ كَانَ خاضِعاً لنظامِ الْأَسْباب، فاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ أجْرَىٰ أَسْبَابَ خَلْقِكَ بدْأً مِن التُّراب المختَلِطِ بالماء، إلَىٰ النَّبَاتِ، إلَىٰ الغذاء، إلى الدِّماء، ثُمَّ إلَىٰ النُّطْفَةِ، وَتَتَابَعَتْ سِلْسِلَةُ الْأَسْبَابِ حَتَّىٰ صِرْت جَنِيناً، ثُمَّ دَبَّتْ فِيكَ الرُّوحُ بِخَلْقِ اللهِ وأَمْرِه، ثُمَّ يَسَّرَ اللهُ أَسْبَابَ وِلَادَتِكَ، وَتَتَابَعَتْ أَسْبَابُ إمْدَادِكَ بالْبَقَاءِ حَتَّىٰ صَيَّرَكَ اللهُ طِفْلاً، ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً مُكْتَمِلاً، تَتَعَاطَىٰ الْأَسْبَابَ، وَتَتِمُّ الْمُسَبَّبَاتُ بِخَلْقِ اللهِ مِنْ قَنَوَاتِها.

فَاللهُ الْخَالِقُ الرَّبُّ المتابِعُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ العظيمة، مِنْ بَوَاطِنِ الظَّوَاهِرِ السَّبَبِيَّة أَعْمَالَ الْخَلْق، هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ المسَبَّبَاتِ، كَمَا هُوَ خَالِقٌ لِلْأَسْبَاب، وَلَوْلَا خَلْقُهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وَسَمَتْ حِكْمَتُهُ وَقُدْرَتُهُ ـ لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ مِنها.

والْأَسْبَابُ لَا تَفْعَلُ بِذَاتِهَا شَيْئاً، لِأَنَّهَا أَشْيَاءُ لَا مَشِيئَةَ لَهَا، وَلَا عِلْمَ وَلَا حِكْمَةَ وَلَا غَايَة، بَيْنَمَا نُشَاهِدُ أَنَّ كُلَّ أَحْدَاثِ الكَوْنِ وَتَطَوُّرَاتِهِ مُقْتَرِنَةٌ بِحِكْمَةٍ وَغَايَةٍ، وَهُمَا لَا تَكُونَانِ إلَّا بِعِلْمٍ وَمَشِيئَة، وَهَـٰذِهِ صِفَاتُ رَبٍّ عَلِيمٍ حَكِيمٍ قدير، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيُختار.

فَهَلْ أَنْتَ نَظَرْتَ إلَىٰ أَطْوَارِ وُجُودِكَ عَلَىٰ أَنَّهَا أَسْبَابٌ فَاعِلَةٌ بِذاتها. غَيْرُ مُسَيَّرَةٍ بِخَلْقِ رَبٍّ خَالِق؟!

وَيَظْهَرُ أَنَّ المفتونَ بِنِظَامِ الْأَسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ أَخَذَ يُرَاوِغُ، وَيَطْرَحُ

الاحْتِمَالَاتِ النظرِيَّة، ومِنْهَا أَنَّ الْأَسْبَابَ مَشْهُودَةٌ لَنَا فَنُؤْمِنُ بِها، وَكَوْنُ اللهِ هُوَ الرَّبّ الْخَالِقَ مِنْ بَوَاطِنِ الظواهِرِ السَّبَبِيَّةِ أَمْرٌ غَيْرُ مَشْهُودٍ، وَجَعلَ يَتَهَرَّبُ مِن الإِذْعَانِ لِلْحَقّ.

ويَظْهَرُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِوُجُودِ خالِقٍ أَعْلَىٰ، لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي تَتَابُعِ أَحْدَاثِ الكَوْن، وَيَجْعَلُ لَهُ شُرَكَاءَ مِنْ دُونِهِ، ويَظْهَرُ أَنَّ شِرْكَهُ مِنْ نَوْعِ شِرْكِ فَاعِلِيَّةِ الْأَسْبَابِ بِذَاتِها، فَهُو فِي هَـٰذِهِ القضيَّةِ عَلَىٰ مَذْهَبٍ شَبِيهٍ بِمَذْهَبِ الدَّهْرِيّين.

فَلَمَّا عَلِمَ صَاحِبُهُ فِي الْحِوَارِ المؤمِنُ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ اعْتِقَادٍ فَاسِدٍ، وَكُفْرٍ بِرَبِّهِ، وَكُفْرٍ بِيَوْمِ الدِّينِ، والجزاء، والحياة الأُخْرَىٰ، قَالَ لَهُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً لمقالِهِ:

• ﴿لَٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٣٨﴾:

أي: لَكِنْ أَنَا لَسْتُ عَلَىٰ مَذْهَبِكَ الْفَاسِد، فأنَا مُؤْمِنُ باللهِ رَبِّي الَّذِي يَخْلُقُ كُلَّ شَيْءٍ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً مِمَّن لَهُمْ حَيَاةٌ وإِرادَةٌ وَعِلْمٌ وَقُدْرَة، فَضْلاً عَنْ أُشْرِكَ بِهِ أَسْبَاباً لَا حَيَاةَ لَهَا وَلَا إرادَةَ وَلَا عِلْماً وَلَا قُدْرَةَ.

• ﴿لَٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾: أَصْلُهَا لَكِنْ أَنَا هُوَ اللهُ رَبّي. لَكِنْ حَرْفُ اسْتِدْرَاكٍ يَسْتَدْرِكُ بِهِ عَلَىٰ اعْتِقَادِ المفْتُونِ بأسْبَابِه، وبما لَدَيْهِ مِنْ مَالٍ وأنْصار، فَيُبَيِّن لَهُ أَنَّهُ يُخالِفُهُ، وَيُؤْمِنُ باللهِ رَبِّهِ.

ضَمِيرُ ﴿أَنَا﴾ في مَحَلِّ رَفْعِ مُبْتدأ. و﴿هُوَ﴾ ضَمِيرُ الشَّأْنِ الْعَظِيم مُبْتَدأٌ خَبَرُهُ جُمْلَةُ ﴿ٱللَّهُ رَبِّي﴾ وَجُمْلَةُ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ خَبَرُ: ﴿أَنَا﴾.

فأبانَ الرَّجُلُ المؤمِنُ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، اعْتِقَادَهُ بِجُمْلَةٍ عَلَىٰ إيجازِهَا الشَّدِيد فيها عِدَّةُ مُؤَكّدات: «الجملة الاسمية ـ وضَمِيرُ الشأن ـ والخبر المؤلف مِنْ جُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ مُعَرَّفَةِ الطَّرَفَيْنِ تُفِيدُ الْقصر».

وبَعْدَ أَنْ أَبَانَ المؤمِنُ الدَّاعِيَةُ اعْتِقَادَهُ المخالِفَ لاعْتِقَادِ مُحَاوِرِهِ الْكَافِرِ، شَرَعَ يَنْصَحُهُ وَيُحَذِّرُه، فقالَ لَه:

• ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾:

أي: وَهلَّا حِينَ دَخلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ: هٰذَا مَا شَاءَهُ اللهُ بِفَضْلِهِ عليَّ، وَلَمْ يَكُنْ بِعِلْمِي وقُدْرَتي وبأسْبَابِي دُونَ تَقْدِير اللهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ مِنْ باطِنِ الأَسْبَاب.

• ﴿لَوْلَآ﴾ هُنَا حَرْفُ تَحْضِيضٍ بِمَعْنَىٰ «هلَّا».

وعبارة «مَا شَاءَ اللهُ» عبارَةٌ مُخْتَزَلَةٌ للتعْبِيرِ عن الإيمان، وللتَّحْصِين. وكَلِمَةُ «مَا» خَبَرُ مُبْتدأ مَحْذُوفٍ تَقْدِيره «هذا» وهي اسْمُ مَوْصُولٍ، والعائد عليه محذوف تَقْدِيره: «شَاءَهُ».

فَمَنْ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ لَهُ أوْ لِغَيْرِهِ فَلْيُحَصِّنْهُ بعبارَة «مَا شَاء الله» إِذْ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ هُوَ الّذِي شَاءَ، وَيَسَّرَ الأَسْبَاب، وأَجْرَىٰ أَعْمَالَ خَلْقِهِ مِنْ بواطِنِها، وبهٰذَا التَّحْصِينِ يَحْفَظُهُ اللهُ، ويَدْفَعُ عَنْهُ السُّوء، وَيَقِيهِ مِنْ إِصَابَاتِ الْعَيْن.

• ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾: أي: لَا قُوَّةَ لِأَحدٍ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَلَا قُوَّةَ لِشَيْءٍ مَا، إِلَّا بإمْدَادٍ لَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بالْقُوَّةِ الَّتِي يُسَخِّرُهَا لَهُ، وَيُمَكِّنُهُ من اسْتِخْدَامِهَا.

وَبهٰذِهِ العبارة يَتَبَرَّأُ المؤمِنُ المسْلمُ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ قُوَّةٌ ما، مَادِّيَّةٌ أَوْ مَعْنَوِيَّةٌ، ويُعلنُ أَنَّ مَا لَدَيْهِ مِنْ قُوَّةٍ هُوَ مِنْ عَطَاءِ اللهِ وإمْدَادِه وخَلْقِهِ.

• ﴿. . . إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾:

﴿إِن تَـرَنِ﴾: إنْ حَرْفُ شَرْطٍ جَازِمٍ «تَرَنِ» أصلُهُ «تَرَني» حُذِفَتْ يَاءُ المتكلِّمِ إيجازاً، وَحَذْفُهَا كثيرٌ في لسان العرب، وأمثالُهُ في القرآنِ كثيرة، والْفِعْلِ «تَرَنِ» مجزومٌ بحرْف الشَّرْط، وَعَلامَةُ جَزْمِهِ حَذْفُ آخِرِهِ لِأَنَّهُ مُعْتَلُّ الآخِرِ بالألف.

• ﴿أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾: أي: وأقلَّ مِنْكَ قُوَّةً وَأنْصاراً.

«أنا» تَأْكِيدٌ لِضَمِيرِ المتكلّم المحذوفِ لفظاً، والملاحظ ذهْناً.

«أقلَّ» مَفْعول بِهِ ثان للفعل في «إنْ تَرَنِ».

• ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾: أي: فَمِنَ المُمكِنِ احْتِمَالاً بالنظر إلَىٰ التَّقَلُّبَاتِ الَّتِي يُجْرِيهَا اللهُ فِي عِبَادِهِ، أَنْ يُبَدِّلَ اللهُ فَقْرِي، فَيُغْنِيَنِي، فَيُؤْتِيَنِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ.

فعل «عَسَىٰ» يَدُلُّ عَلَىٰ الْأَمْرِ المحْتَمَلِ المرتقب، مثل «لعَلَّ». ويُسْتَعْمَلُ بمعْنَىٰ «التَّرَجّي». لَكِنَّهُ قَدْ يُسْتَعْمَلُ لمطْلَقِ الاحْتِمَالِ المتوقَّع كما هو هُنَا، إذْ لَيْسَ مِنْ خُلُقِ المؤمِنِ المسْلِمِ أَنْ يَرْجُوَ زَوَالَ نِعْمَةِ اللهِ عَلَىٰ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ كَانَ كافراً، فَحِكْمَةُ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَاده لَا تُقَابَلُ مِنَ المؤمِنِ المسْلِمِ بِرَجَاءٍ يُشْعِرُ بِحَسَدٍ أَوِ اعْتِرَاضٍ عَلَىٰ تَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ.

• ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾: أي: ومِنَ الممْكِنِ احْتِمَالاً بالنَّظَرِ إلَىٰ التَّقَلُّبَاتِ الَّتِي يُجْرِيهَا اللهُ في عبادِهِ، أَنْ يُرْسِلَ اللهُ عَلَىٰ جَنَّتِكَ مُهْلِكَاتٍ مُتْلِفَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ لَيْلاً فَتُصْبِحَ أرْضاً خَالِيَةً مِن كُلِّ شَجَرٍ وَنَبَاتٍ، وتُصْبِحَ طِيناً رَغْوِيًّا يَزْلَقُ مَنْ يَضَعُ قَدَمَهُ عَلَىٰ أيّ مَكَانٍ مِنها.

ومِنَ الممْكِنِ احْتِمَالاً أَنْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غائِراً في الْأَرْضِ إلَىٰ أعْمَاقٍ، لَا تَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إلَيْهِ وَلَا اسْتِخْرَاجَهُ بِوَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ، فَأَنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ طَلَبَهُ، إذْ تَرَىٰ أَنَّكَ عَاجِزٌ عَنِ اسْتِخْرَاجِهِ مِنْ أَغْوَارِهِ.

• ﴿حُسۡبَانٗا﴾: الْحُسْبَانُ في الأصْلِ مَصْدَرٌ كالْحِسَاب، وبما أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ اللهِ بِمِقدار، والمقاديرُ تُقَدَّرُ بالحاسب، أُطْلِقَ الْحُسْبَانُ هُنَا مُراداً بِهِ النَّوازِلُ الْمُهْلِكَةُ والمتْلِفَةُ الَّتِي يُرْسِلُهَا عَلَىٰ بَعْضِ عِبَادِهِ، أَوْ عَلَىٰ بَعْضِ مُمْتَلكاتِهم وأشْيَائِهِم بِحِسَابٍ دقيقٍ، تَأْدِيباً لَهُمْ، أَوْ عُقُوبَةً مُعَجَّلَةً قَبْلَ عُقُوبَاتِهِ المؤجَّلَةِ إلَىٰ يَوْمِ الدّين.

• ﴿صَعِيدٗا زَلَقًا﴾: أي: أَرْضاً خَالِيَةً مِنْ أيِّ شَجَرٍ أَوْ زَرْعٍ، وَطِيناً رَغوِيًّا مُزْلِقاً لَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الأَقْدَام.

الصَّعِيد: وَجْهُ الْأَرْضِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّه لَا يَظْهَرُ كُلُّ وَجْهِ الأَرْضِ إِلَّا إِذَا زَالَ كُلُّ مَا فِيها مِنْ شَجَرٍ وَنَبَاتٍ.

الزَّلَق: المكان المزْلَقَةُ الَّذِي لَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ قَدَمٌ، بِسَبَبِ مَا فِيهِ مِنْ طِينٍ رَغوِيّ.

• ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ۝٤١﴾:

غَوْرُ كُلِّ شيءٍ عُمُقُهُ، ويُقَالُ لغة: «مَاءٌ غَوْرٌ» أي: ماءٌ غائِرٌ، عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْوَصْفِ بالمصْدَرِ، والماءُ الْغَائِرُ في عُمْقِ الْأَرْضِ قَدْ لَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ اسْتِخْرَاجَهُ.

طَلَباً: أُطْلِقَ لفظ الطَّلَب، وَأُرِيدَ الْغَايَةُ مِنْهُ، وهُوَ تَحْصِيلُهُ، والوصُولُ إِلَيْهِ واسْتِخْرَاجُهُ، وهو مِنْ إِطْلَاقِ السَّبَبِ الْمُعبِّرِ عَنِ الْحَاجَةِ، الَّتِي تَدْفَعُ إِلَىٰ اتِّخاذِ سِلْسِلَةِ الأَسْبَابِ، عَلَىٰ المطْلُوبِ الْغَائِيِّ، وَهُوَ اسْتِخْرَاجُ الماءِ والحصُولُ عَلَيْهِ فِي أغْوَارِ الأَرْض.

دَلَّتْ آيَاتِ هـٰذَا الْفَصْلِ عَلَىٰ أَنَّ الرَّجُلَ المؤمِنَ الْمُسْلِمَ الدَّاعِيَة إِلَىٰ الله، قَدْ نَصَحَ صَاحِبَهُ المفْتُونَ بِمَا لَدَيْهِ مِنْ أَمْوالٍ وأَوْلَادٍ يَنْصُرُونه، نَصِيحَتَيْنِ كُبْرَتَيْنِ، تَشْتَمِلَانِ عَلَىٰ عِدَّةِ نَصَائِحَ فَرْعِيَّةٍ.

النَّصِيحَةُ الأُولى: قالَ لَهُ فِيهَا: هَلَّا إِذْ دَخلْتَ جَنَّتَكَ ذَاتَ الْجَناحَيْنِ عَلَىٰ شَاطِئِ النَّهْرِ الَّذِي يَجْرِي وَسَطَها، قُلْتَ: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾: أي: هٰذَا الَّذِي أَرَاهُ فِي جَنَّتِي هُوَ شَيْءٌ قَدْ شَاءَهُ اللهُ، فَهُوَ الَّذِي هَيَّأَ لِي الأَسْبَابَ، وَهُوَ الَّذِي أَمَدَّنِي بالْقُوَّةِ لاتِّخَاذِهَا. إِنَّ الْقُوَّةَ الَّتِي اتَّخَذْتُ بِهَا أَسْبَابِي لَمْ تَكُنْ لِي إِلَّا بِخَلْقِ اللهِ، وإمْدَادِه، ومَعُونَتِهِ، وَتَوْفِيقِهِ.

النَّصِيحَة الثانية: قَالَ لَهُ فيها: إِنَّ تَفَاخُرَكَ عَلَيَّ بِكَثْرَةِ أمْوالِكَ وَأَوْلَادِكَ، تَفَاخُرٌ بأمْرٍ غَيْرِ مَضْمُونِ الثَّبَاتِ والدَّوامِ، فَمِنْ سُنَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادِهِ أَنَّهُ يُعْطِي وَيَمْنَعُ، لِيَمْتَحِنَ كُلًّا بِمَا آتاهُ بالشُّكْرِ أَوْ بالصَّبْرِ والرِّضا، وَمَنْ أَعْطاهُ فِي حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ رُبَّمَا سَلَبَهُ مَا كَانَ أَعْطاهُ إِيَّاهُ فِي حِينٍ آخر، وَمَنْ ضَيَّقَ عَلَيْهِ فِي حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ، رُبَّمَا وَسَّعَ عَلَيْهِ فِي حِينٍ آخر.

فَلَا يَغُرَّنَّكَ مَا أَنْتَ فِيهِ الآن، إِنَّهُ صُورَةٌ مِنْ صُوَرِ امْتِحَانك، وَمِنَ المُمْكِنِ الَّذِي قَدْ يَحْصُلَ، أَنْ يَشَاءَ اللهُ فَيُعْطِيَنِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِك، وَمِنَ المُمْكِنِ أيضاً أَنْ يَسْلُبَكَ جَنَّتَكَ بِسَبَبٍ مِنَ الأَسْبَابِ الكَوْنِيّة، الَّتِي نُشَاهِدُ أَمْثَالَهَا في صُرُوفِ الدَّهر.

كَأَنْ يُرْسِلَ عَلَىٰ جَنَّتِكَ نَوَازِلَ مِنَ السَّمَاءِ مُهْلِكَةً مُتْلِفَةً مُبِيدَةً، مُقَدَّرَةً بِحُسْبَانٍ دَقِيقٍ لَا تُصِيبُ غَيْرَ جَنَّتِكَ، كَلَفَحاتِ صَقِيعٍ، أَوْ لَفَحاتِ سَمُومٍ مُحْرِقَةٍ، أَوْ صَوَاعِقَ مُحْرِقَة، أَوْ بَرَدٍ شَدِيدٍ مُحَطِّم، لَا يُبْقِي مِنَ الْجَنَّةِ شيئاً، فَتُصْبِحَ صَعِيداً، أَرْضاً خَالِيَةً، مِنْ أيِّ شَجَرٍ أَوْ نَبَاتٍ، قَد اخْتَلَطَ تُرَابُهَا وَنَباتُهَا بِمَا نَزَلَ عَلَيْهَا مِنْ بَردٍ وَثَلْجٍ، فَتَصِيرَ زَلَقاً لَا تَثْبُتُ عَلَيْهَا الأَقْدَامُ، كَمَا يَحْدُثُ أحْيَاناً فِي بَعْضِ الْبَسَاتِين وَالْغَابَاتِ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَيْهَا مُهْلِكَاتٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَهٰذَا أَمْرٌ مُشَاهَدٌ فِي صَرُوفِ الدَّهْرِ وَعُقُوبَاتِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ.

ومِنَ الممْكِنِ أَنْ يُصْبحَ الماءُ الْجَارِي الَّذِي تُسْقَىٰ مِنْهُ جَنَّتُكَ مَاءً غَوْراً، غائراً في أعْمَاقِ الْأَرْضِ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ، وَلَا الْحُصُولَ عَلَيْهِ، وَإِذَا غَارَ الماءُ فِي أعْمَاقِ الْأَرْضِ وأنْتَ لَا تَمْلِكَ بَدَائِلَ لَهُ، يَبِسَ كُلُّ مَا فِي بُسْتَانِكَ الّذِي تَفَاخِرُ بِهِ، وَتَزْعُمُ أَنَّهُ لَنْ يَبِيدَ أبداً، فَكَمْ مِنْ ماءٍ كَانَ نَهْراً جَارِياً، فَغَارَ فِي أَعْمَاقِ الْأَرْضِ، فَيَبِسَتِ الْأَشْجَارُ والزُّرُوعُ الَّتِي كَانَ يَسْقِيهَا.

أَلَيْسَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنَ الاحْتِمَالَاتِ الَّتِي تَكَرَّرَتْ نَظَائِرِهَا فِي صَرُوفِ الدَّهر؟؟.

مَوْقف المغْرُور مِنْ هَاتَيْنِ النّصِيحَتَيْن:

لَكِنَّ الرَّجُلَ المفْتُونَ المعْتَمِدَ عَلَىٰ أسْبَابِهِ اسْتَمَرَ مَغْرُوراً بِنَفْسِهِ، وَبِمَا يَمْلِكُ مِنْ أسْبَابِ، مَخْدُوعاً بالظَّوَاهِرِ، غَيْرَ مُؤْمِنٍ بِأَنَّ مَا هُوَ فِيهِ قَدْ كَانَ بِعَطَاءِ اللهِ لَهُ، لِيَمْتَحِنَهُ فِي ظُرُوف الْحَياةِ الدُّنيا.

الفصل الثالث

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾:

مقدّمة:

لقد شَاء اللهُ أَنْ يُعَاقِبَ المغْرُورَ المفْتُونَ بأسْبَابِهِ عِقَابَ تَأْدِيبٍ، لِيَرُدَّهُ إِلَىٰ صوابه، وَيُوقِظَهُ مِنْ غَفواتِهِ، وَيُقَدِّمَ لَهُ مَا يُقْنِعُهُ بالجزاء المؤجّلِ إلى يَوْم الدِّينِ، فَأَرْسَلَ عَلَىٰ جَنَّتِهِ حُسْبَاناً مِنَ المتلفات أحَاطَتْ بِكُلِّ ثَمرِهِ فَاتْلَفَتْهُ، كَلَفْحَةِ مِنَ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ الْبُرُودَة، الَّتِي تُحَوِّلُ الثَّمَرَاتِ وأَوْرَاقَ

الْأَشْجَارِ والنَّبَاتِ إِلَىٰ جَلِيدٍ مُتْلِفٍ مُهْلِكٍ، فَمِنَ المعْرُوفِ أَنَّ الصَّقِيعَ يُتْلِفُ الثَّمَرَ وأَوْرَاقَ الشَّجر.

وحِينَ أتْلَفَ اللهُ لَهُ ثِمَارَ جنَّتِهِ لَمْ تكُنْ لَهُ فِئَةٌ مِنْ دُونِ اللهِ يَنْصُرُونَهُ، لَا أَوْلَادُهُ وَلَا خَدَمُهُ الَّذِينَ كَانَ يَعْتَزُّ بِهِمْ وَلَا غَيْرُهم، وَمَا كانَ هُوَ بِقُوَّتِهِ مُنْتَصِراً عَلَىٰ مَقَادِيرِ اللهِ الْعِقَابِيَّة.

وَذَهَبَ الرَّجُلُ المغْرُورُ المفْتُونُ إِلَىٰ جَنَّتِهِ صَباحاً كَعَادَتِهِ، فَوَجَدَ كُلَّ ثِمارِهَا وأَوْرَاقِهَا مُتَفَحِّمَةً بالصَّقِيع، فَصارَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ حَسْرَةً عَلَىٰ ما انْفَقَ مِنْ أمْوَالٍ فِي إعْمَارِ جَنَّتِهِ لاسْتِثْمَارِهَا، وَرآهَا خَاوِيَةً مِنَ الثِّمَارِ، مُتَسَاقِطَةَ الْأَغْصَانِ والْعُرُوقِ عَلَىٰ عُرُوشها، فَقَدْ كَانَتْ ثِمَارُهَا مِنَ الْعِنَبِ في مَوْسِمِ قِطَافِهِ، ومِنَ الْجَيِّدِ في أشْجَارِ العِنَبِ أَنْ تُمَدَّدَ أغْصَانُهَا عَلَىٰ عُرُوش، أي: عَلى أخْشَابٍ مُتَفرِّقةٍ بَيْنَهَا مَساحَاتٌ فَارِغاتٌ، وَهِيَ مَرْفُوعَةٌ عَنِ الْأَرْضِ، حَتَّىٰ تَتَدَلَّىٰ عَنَاقِيدُ الْعِنَبِ مِنَ الْأَغْصَانِ، وَتَأْخُذَ الْأَغْصَانُ حَظَّهَا الَّذِي تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّمْسِ والْهَواء، وَتكُونُ مَحْمُولَةً عَلَىٰ الْعُرُوشِ.

ومِنْ عَادَة الرَّجُلِ العاقِلِ الرَّزِينِ، الَّذِي يَتَحَسَّرُ عَلَىٰ مَا فَقَدَ مِنْ أَمْوَالٍ، أَنْ يَضْرِبَ كَفَّ الْيَدِ الْيُمْنَىٰ عَلَىٰ كَفِّ الْيَدِ الْيُسْرَىٰ، فَكَفَّ الْيَدِ الْيُسْرَىٰ عَلَىٰ كَفِّ الْيَدِ الْيُمْنَىٰ بَعْدَ قَلْبِهما، وَهكَذَا بالتَّتَابُعِ يُقَلِّبُهُمَا، وَيَضْرِبُ الْعُلْيَا مِنْهُمَا عَلَىٰ السُّفْلَىٰ تَحسُّراً وَندَماً.

أَمَّا غَيْرُ العاقِلِ الرَّزِينِ فَرُبَمَا بَكَىٰ وَصَاحَ وضَرَبَ رَأْسَ نَفْسِهِ بِيَدِهِ، أَوْ بِشَيْءٍ يَرَاهُ قَرِيباً مِنْهُ.

واتَّعَظَ الرَّجُلُ بِمَا جَرَىٰ لَهُ مِنْ عِقَابٍ تَأْدِيبِيّ، فَصَارَ يَقُولُ مُكَرِّراً: يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِك بِرَبِّي أحداً، وَيُكَرِرُ حَرَكَةَ تَحَسُّرِهِ وَنَدَمِهِ بِتَقْلِيبِ كَفّيْهِ وَضَرْبِ الْعُلْيَا مِنْهُمَا عَلَىٰ السُّفْلَىٰ.

وَكَانَتْ هَـٰذِهِ الْعُقُوبَةُ الرَّبَّانِيَّةُ التَّأْدِيبيَّةُ سَبَبَ تَخلُّصِهِ مِنَ الشِّرْكِ، وَسَبَبَ اسْتِمْسَاكِهِ بالإيمان الصّحيحِ الكامل، ورجْعَتِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ تَائِباً مُنِيباً.

التدبّر التحليلي:

• ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾: جاءَ الفِعْلُ عَلَىٰ صِيغَةِ المبنيّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ إيجَازاً، لِلْعِلْمِ مِنَ السِّباقِ بأنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي عَاقَبَهُ عِقَابَ التَّأْدِيب، فأرْسَلَ عَلَىٰ جَنَّتِهِ مَا يُحِيطُ بِثَمَرِهَا مِنَ المتْلِفَاتِ المهْلِكَاتِ، فَأَتْلَفَتْهُ له.

• ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾: دَلَّ هـٰذَا البيـان عَلَـىٰ أَنَّ مُتْلِفَاتِ الثّمار نَزَلَتْ عَلَىٰ جنَّتِهِ لَيْلاً، فَأَتْلَفَتْهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ رَآهَا تَالِفَةً، فَصَارَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ تَحَسُّراً وَنَدَماً عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِي إعْمَارِهَا مِنْ أَمْوَالٍ، وَجَهْدٍ مِنَ الأَعْمَالِ.

• ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: أي: والـحَـالُ أَنَّ جـنَّـتَـهُ خَـاوِيَـةٌ مِـنْ ثِمَارِهَا، مُتَسَاقِطَةُ الْأَغْصَانِ والْفُرُوعِ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، بِسَبَبِ مَا أَصَابَهَا مِنَ الصَّقِيعِ الَّذِي أَتْلَفَهَا فَأَفْقَدَهَا مَا فِيهَا مِنْ حَيَاةٍ تَنْهَضُ بِهَا مُتَسامِيَةً فِي السَّمَاءِ.

• ﴿... وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾﴾: أي: وَيَـقُـولُ مُـكَـرِّراً أَخْذاً مِنْ دَلَالَةِ الفِعْلِ المضارع.

• ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾: الَّذِي تَرَجَّح لَدَيَّ أنّ «ما» في مِثْلِ هـٰذَا التَّعْبِيرِ هي «يا» الّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي النُّدْبَة، فَهُوَ يَنْدُبُ أُمْنِيَّةً فَاتَتْهُ، وَهُوَ عَاجِزٌ عَنْ تَدَارُكِهَا، وهِيَ أَمْنِيَّةُ التَّوْبَةِ قَبْلَ نُزُولِ الْعِقَاب.

• ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾:

أي: حِينما نَزَلَ بِهِ الْعِقَابُ التَّأْدِيبِيُّ، لَمْ تَنْفَعْهُ أَوْلَادُهُ الَّذِينَ كَانَ يَفْتَخِرُ بِكَثْرَتِهِمْ عَلَىٰ صَاحِبِهِ المؤمِنِ الْمُسْلِمِ النّاصِحِ له، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ تَحْمِيهِ مِنْ نُزُولِ عِقَابِ اللهِ في ثَمَرَاتِ جَنَّتِهِ، لِأَنَّ النَّاسَ مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَاهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَحْمُوا أَنْفُسَهُمْ وَلَا غَيْرَهُمْ مِمَّا تَمَّ بِهِ تَقْدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤُهُ، وَحَانَ وَقْتُ التَّنفيذ.

وَلَمْ يَكُنْ هُوَ مُنْتَصِراً لِنَفْسِهِ بِوَسائِلِهِ وَأَسْبَابِهِ، فَقَضَاءُ اللهِ لَا يُعَانَدُ، وَعُقُوبَاتُه لا تُرَدُّ.

التعليقُ الخِتَامِيّ

جاء في خَاتِمَةِ الدَّرْسِ عَقِبَ الفُصُولِ الثلاثَةِ:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾:

• ﴿هُنَالِكَ﴾: المشَارُ إِلَيْهِ يَوْمُ الدِّين.

• ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾: بِفَتْحِ الواو وَكَسْرِهَا، بِمَعْنَىٰ الملْكِ التّامِ الَّذِي لَا تَسْتُرُهُ ظَوَاهِرُ سَبَبِيَّة.

• ﴿لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾: أي: للهِ الثَّابِتِ ذي الوجود الأزلِيّ الأَبَدِي بذاتِهِ الَّذِي يَسْتَحِيلُ في العقل عَدَمُه.

• ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾: أي: هُو خَيْرٌ عَطاء ثَوابٍ لِلْمُتَّقِينَ والأَبْرَارِ والمحسنين، مِنْ كُلِّ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ متاعٍ يَسُرُّ وَيَغُرُّ، وما يَعْقِبُهُ لَهُمْ خَيْرٌ عَاقِبَةً.

العُقْبُ. والعُقُبُ: بإسْكانِ القافِ وَضَمِّها، العاقبة.

جَاءَ هٰذَا الختام تَعْلِيقاً عَلَىٰ الظَّوَاهِرِ السَّبَبِيَّة الّتي رَتَّبَهَا اللهُ في كَوْنِهِ لِنِظَامِ الحياة الدُّنْيا، حَيَاةِ الامْتِحَانِ، وَمُبَيِّناً أَنَّهَا لَنْ يَكُونَ لَهَا وُجُودٌ يَوْمَ الدِّين، في الحياة الأُخرى، بَلْ سَتَكُونُ هُنَالِكَ الْوِلَايَةُ كُلُّهَا ظاهِراً وَبَاطِناً للهِ الحقِّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَا فِي الظَّاهِرِ وَلَا فِي الباطن، وَهُوَ خَيْرُ عَطَاءَ ثَواب، وخَيْرُ مانِحَ عَاقِبَةٍ حَسَنَةٍ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الرابع من دُرُوس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❃ ❃ ❃

(٩)
التدبُّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (الكهف)
الآيات من (٤٥ ـ ٥٠)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَٰبُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

القراءات:

(٤٧) • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: **[تُسَيَّرُ الْجِبَالُ]** بالمبنيّ لما لم يُسَمَّ فاعله.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[نُسَيِّرُ الْجِبَالَ]** بضمير المتكلّم العظيم.

(٥٠) • قرأ أبو جعفر: **[لِلْمَلَائِكَةُ اسْجُدُوا]** بضمّ تاء «لِلْمَلَائِكَةِ» اتباعاً لجيم «اسْجُدُوا» وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا]** على الأصل.

(٥٠) • قرأ ورش، والسّوسي، وأبو جعفر: **[بِيسَ]** بإبدالِ الهمزة ياءً.

وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِئْسَ].

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ إقْنَاعِيّ بِشَأْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَنِهَايَتِها، مَعَ وَصْفِ بَعْضِ أَحْدَاثِ الْقِيَامَةِ وَيَوْمِ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ دِينِ اللهِ مِنْ أُمّتِهِ:

● ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾:

بِمُنَاسَبَةِ مَا جَاءَ في الدَّرْسِ الرَّابِعِ بِشأْنِ الرَّجُلَيْنِ المتحاوِرَيْن، واغْتِرَارِ الَّذِي كَانَ كَافِراً قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِمَا آتَاهُ اللهُ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

ولَمَّا كَانَتْ عِلَّةُ مُعْظَم الْكَافِرِينَ اغْتِرَارُهُمْ بالْحَيَاةِ الدُّنيا، وَمَا فِيها مِنْ زِينَةٍ وَمَتَاعَاتٍ مُحَبَّبَاتٍ لِنُفُوسِ النَّاس، وَمِنْهُمْ المتَمَسِّكُونَ بِشِرْكِهِمْ إِبَّانَ التَّنْزِيل.

كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ في عِلَاجِهِمْ الإقْنَاعِيِّ تَشْبِيهِ ظُرُوفِ كُلِّ هٰذِهِ الْحَيَاةِ الْأُولَىٰ، وَكُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِها مِنْ مَكَانٍ وَنِظَامٍ وَتَصَارِيفَ وأَحْدَاثٍ، بِمَوْسِمٍ مِنَ الْمَوَاسِمِ الزِّرَاعِيَّةِ المتكَرِّرَة فيها، إذْ تَنْبُتُ الزُّرُوعُ وَتَخْرُجُ الثِّمار، وَتَزْدَهِرُ الْأَرْضُ وَتَتَزَيَّنُ بِمَا يَخْرُجُ فِيها مِنْ زِينَاتٍ وَكُلِّ شَيْءٍ بَهِيجٍ، ثُمَّ يَنْتَهِي بالاصْفِرَارِ والْيُبْسِ والتَّكَسُّرِ، وَتَأْتِيهِ رِيَاحٌ فَتَنْسِفُهُ، وَتَذْرُوهُ، فَلَا تُبْقِي لَهُ في الْمَكَان الَّذِي نَبَتَ فِيهِ أثراً.

● ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أَصْلُ مَعْنَىٰ الضَّرْبِ إلْصَاقُ شيءٍ

بشَيْءٍ بِقُوَّةٍ وَعُنْفٍ، ومِنْهُ ضَرْبُ صَفائح الذَّهَبِ والْفِضَّةِ، لِجَعْلِهَا دَنَانِير وَدَرَاهِمَ مُقَسَّمَةً، وَمَحْفُوراً عَلَيْهَا الْخُطُوطُ والرُّسُومُ الَّتِي وُضِعَتْ لها.

وَحَصَلَ تَوَسُّعٌ في معْنَىٰ الضَّرْبِ هـٰذَا، فَصَارَ يُسْتَعْمَلُ في ضَرْب المثَلِ، بِمَعْنَىٰ ذِكْرِ شَبِيهِ الْمُمَثَّلِ لَهُ.

أي: واذْكُرْ للكافِرِينَ شَبِيه الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِكُلِّ ظُرُوفها، أَوْ وَصْفَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

لمَّا قَضَىٰ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ في تَدْبِيرِهِ لِكَوْنِهِ، أَنْ يَجْعَلَ لِلأَحْيَاءَ الْعُلْيَا فِيهِ حَيَاتَيْنِ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا أَلْوَاناً وَظُرُوفاً تُلَائِمُ الْغَايَةَ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَمِنَ الْأَحْيَاءِ الْعُلْيَا الْإِنْسُ والْجِنُّ، وَجَعَلَ اللهُ الْحَيَاةَ الْأُولَىٰ لابْتلَاءِ المؤهَّلِينَ للامْتِحَانِ من الجنِّ والإِنْسِ، وَجَعَلَ الْحَيَاةَ الْأُخْرَىٰ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاء، وَتَنْفِيذِ الجزاء.

وَسَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في كتابِهِ الحياةَ الْأُولَىٰ باسم «الحياة الدُّنيا». وسمَّىٰ الحياة الثَّانِيَة باسْم: «الأُخْرَىٰ».

الدُّنيا: مؤنَّثُ «الْأَدْنَىٰ» بِمَعْنَىٰ «الأقْرَب» من فعل: «دَنَا مِنه، وإِلَيْهِ، ولَه، يَدْنُو» أي: قَرُبَ، يَقْرُب.

وجاء إِطْلَاقُ اسْم «الحَيَاةِ الدُّنْيَا» على الحياة الأولَىٰ، لِأَنَّهَا هِيَ الْحَيَاةُ الملْتَصِقَةُ بالْأَحْيَاءِ فِيهَا، يُبَاشِرُونها زَمَناً فَزَمَناً مَا دَامُوا أَحْيَاءَ فِيهَا، فَهِيَ الْأَقْرَبُ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، وهي الْأَدْنَىٰ لهم.

أَمَّا الحياةُ الْأُخرىٰ فَهِيَ آتِيَةٌ لَا مَحالَة، وَكُلُّ آتٍ قَرِيب، فهِيَ قَرِيبةُ بِوَجْهٍ عامٍّ وَلَيْسَتِ الْأَقْرَب.

أَمَّا الْمُشَبَّهُ بِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَقَدْ جاءَ فِيهِ ذِكْرُ فِقَرَاتٍ ظاهِرَاتٍ مِنْهُ، وَقَبْلَ هـٰذِهِ الفِقَرَاتِ وَبَيْنَهَا وَبَعْدَهَا مَطْوِيَاتٌ كَثِيرَاتٌ مُكَمِّلَاتٌ لِصُورَةِ الْمَوْسِمِ الزِّرَاعِيِّ المشبَّهِ به.

الفقرةُ الأُولَىٰ: وَهِيَ فِقَرَةٌ مُتَوَسِّطَةٌ مِنْ فِقَرَاتِ جُمْلَةِ أَحْدَاثِ الممثَّلِ به، قَبْلَهَا مَطْوِيَّاتٌ وَبَعْدَهَا مَطْوِيَات، دَلَّ عليها، قول الله تعالى:

• ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: كَأَرْضٍ صَالِحَةٍ للإِنْبَات، فيها بزُورُ نَبَاتَاتٍ مُنبِتَاتٌ فِي تُرْبَتِها، أَنْزَلَ الرَّبُّ الْجَلِيلُ الْعَظِيمُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِ قُدْرَتِهِ وَسَامِي حِكْمَتِهِ مِنَ السَّمَاءِ (أي: من السَّحاب، فَكُلُّ مَا عَلَا فَأَظَلَّ فَهُوَ في اللُّغَةِ سَمَاء) مَاءً كَانَ في الْأَرْض مَاء ثُم تَبَخَّرَ فَتَجَمَّعَ فَصَارَ سَحَاباً، ثُمَّ أَنْزَلَهُ اللهُ مَاءً طَهُوراً.

الْفِقَرة الثَّانِية: وهي فِقَرَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْفِقَرَةِ السَّابِقَةِ مطويّاتٌ، وَبَعْدَهَا مَطْوِيَّات، دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾:

أي: فَصَارَ تُرَابُ الْأَرض مُبَلَّلاً بالْمَاءِ، فامْتَصَّتْ مِنْهُ ومِنْ عَنَاصِرِ تُرَابِ الْأَرْضِ الْبُزُورُ الْمُنْبَتَةُ في الْأَرْض، فَأَنْبَتَهَا اللهُ وأَخْرَجَهَا اللهُ نَبَاتَاتٍ مُخْتَلِفَاتِ الْأَجْنَاسِ، وَالْأَنْوَاعِ، والْأَصْنَافُ، وَقَدِ اخْتَلَطَتْ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ المياهُ والْعَنَاصِرُ دَاخِلَ النَّبَاتَاتِ مُتَنَامِيَةً، بَدِيعَةً بَهِيجَةً ذَات ثَمَرَات.

الاخْتِلَاطُ: انْضِمَامُ الأشْيَاءِ بَعْضِهَا إِلَىٰ بَعْض، يُقَالُ لغة: «اختَلَط الشَّيْءُ بالشَّيْء» أي: انْضَمَّ إليه، وهٰذَا الاخْتِلَاط يَكُونُ عَلَىٰ سَبِيلِ اللِّقَاءِ فقط، كاخْتِلَاطِ الْقَطِيعِ بالْقَطِيعِ. ويَكُونُ على سَبِيلِ الامْتِزاج واتِّحَادِ الذَّرَّاتِ اتِّحاداً كِيميائِيًّا، تَختَلِفُ بِهِ صِفَاتُ الذّرّاتِ المتّحداتِ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَكُلٌّ مِن الْأَمْرَيْنِ يَحْدُثُ في اخْتِلَاط الماء بَنَبَاتِ الْأَرْض، وَفْقَ نِظَامِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيّ للنَّبَاتَّات.

الْفِقْرَة الثالِثَة: وَهِي فِقرةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْفِقْرَةِ الثَّانِيَةِ مَطْوِيَاتٌ كثيرات، وَجَاءَتْ هِي الْأَخِيرَةَ في ضَرْبِ المثل لِأَنَّهَا المقْصُودُ الْأَكْبَرُ مِن ضَرْبِ

المثَلِ، إِذْ تُشْبِهُهَا الْمَرْحَلَةُ الأَخِيرَةُ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنيا، وَقَدْ دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ؛

• ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾: أي: وَبَعْدَ فَصْلٍ اسْتَمْتَعَ النَّاسُ فِيهِ بِنَبَاتِ الْأَرْضِ وَثَمَراتِهِ اسْتِمْتَاعاً حَسَناً، وابْتَهَجُوا بِهِ ابْتِهَاجاً سَارًّا مُفْرِحاً، صَارَ مَا كَانَ يُزَيِّنُ الْأَرْضِ بالرَّونق، وَيَجْعَلُهَا مَلِيئَةً بِالْخُضْرَةِ والنُّضْرَةِ والْخَيْرَاتِ الْحِسَانِ، هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياح.

الْهَشِيم: مَا يَبِسَ مِنَ النَّبَاتِ وَتَكَسَّرَ تَكَسُّراً يَجْعَلُ الرِّيَاحَ تَنْسِفُهُ فَلَا تُبْقِي لَهُ فِي مَوَاضِعه أَثَراً.

تَذْرُوه: أي: تَبُثُّه وَتَنْشُرُهُ، يقال لغة: «ذَرَتِ الرِّيحُ التُّرابَ، تَذْرُوهُ ذَرْواً» أي: أَطَارَتْهُ وَفَرَّقَتْهُ.

وهٰذَا مِثَالُ الْمَرْحَلَةِ الأَخِيرَةِ مِنْ كُلِّ الحياةِ الدُّنْيَا وَنِظَامِهَا وأوضَاعِها.

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ شَيْءٍ في هٰذَا الْوُجُودِ خَاضِعاً لِسُلْطَانِ اللهِ وَتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ بِقُدْرَتِهِ خَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الآيَة بِقَولِهِ:

• ﴿... وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾: أي: واللهُ فِي الكَيْنُونَةِ الدَّائِمَةِ مِنْ الْأَزَلِ إِلَىٰ الْأَبَدِ مُقْتَدِرٌ عَلَىٰ فِعْلِ وَخَلْقِ وإيجادِ وإعْدَامِ كُلِّ شَيْءٍ يَشَاؤُه، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ.

الْمُقْتَدِر: أَيْ: ذُو الْقُدْرَةِ العظيمَةِ الَّتِي يَفْعَلُ بِهَا مَا شَاءُ. وهٰذَا اللَّفظ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاء الله الحسْنَىٰ.

وَفِي هٰذَا الْخِتَام تَذْكِيرٌ بِبَعْضِ عَنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّةِ، وَمَا جَاءَ قَبْلَهُ فِي الْبَيَانِ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ هٰذَا الْعُنْصُرِ الْعَظِيم مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾:

وبُمنَاسَبَةِ قَوْلِ المحاوِرِ لصاحبه الداعِيَةِ إلَىٰ دينِ اللهِ الّذِي سَبَقَ بيانُهُ في الدَّرسِ الرابع السَّابق: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ اغْتِراراً بِأَمْوَالِهِ وَأَوْلَادِهِ وَأنْصَارِهِ، جَاءَ هٰذَا الْبَيَانُ في هٰذِهِ الآية (٤٦) مُبَيّناً أنّ الْمَالَ والْبَنِينَ زينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةُ بِفَنَائِهَا، وَأَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ الْمُرْضِيَاتِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، هِيَ ذَاتُ الْأَثَارِ الْبَاقِيَاتِ المسْعِداتِ لِفَاعِلِيهَا عِنْدَ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يَوْمَ الدِّينِ، ثَوَاباً مِنْهُ بِحَسَبِ وَعْدِهِ الْكرِيم، وَأَمَلاً وَفْقَ ذَلِكَ يَطْمَعُ بِنَيْلِهِ السَّابِقُونَ في الْعَمَلِ بمراضِي رَبِّهِمْ جلَّ جَلالُهُ، وعَظْمَ سُلْطَانه وفضْلُهُ وَجُودُه.

• ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: المالُ الكَثِيرُ الوَفِيرُ، والْبَنُونَ الكَثِيرُونَ، زِينةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْعُظْمَىٰ، الَّتِي يَشْتَرِكُ في طَلَبِهَا وَتَمَنِّيهَا مُحِبُّو هَٰذِهِ الْحَيَاةِ عَلَىٰ اخْتِلافِ طَبَقَاتِهِمْ وَشِرائِحم الاجْتِمَاعِيَّة.

الزِّينَة: كُلُّ مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ، ممَّا تَسْتَحْسِنُهُ النُّفُوس، أَوْ تُحِبُّهُ أَوْ تَشْتَهِيهِ، وهي شيءٌ زَائِدٌ عَلَىٰ مَطَالِبِ الْجَسَدِ والنَّفْسِ الضروريَّة فِي الحياة.

• ﴿... وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾:

إِنَّ الْأَعْمَالَ الَّتِي يَكْسِبُهَا الْمُمْتَحَنُ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاة الدُّنْيَا كُلُّهَا بَاقِيَاتِ الْأَثَرِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَهِي قِسْمَان: صَالِحَاتٌ، وَسيِّئَاتٌ، فالصَّالِحَاتُ تَسْتَحِقُّ الجزاءَ بالثواب بِفَضْلِ اللهِ وَوَعْدِهِ الْكريم، والسَّيِّئَاتُ تَسْتَحِقُّ الجزاءَ بالْعِقَابِ بَعَدْلِ اللهِ، وَقَدْ يَتفَضَّلُ اللهِ بالْغُفْرَانِ أَو الْعفْوِ عَنْ بَعْضِها.

فالأعْمَالُ الْبَاقِيَاتُ الْأَثَرِ، الموْصُوفَةُ بِأَنَّهَا صَالِحَاتٌ لِأَنَّهَا مُحقّقَاتٌ

لِمَرْضَاةِ اللهِ، هِيَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ أَيُّها المُتَلَقِّي ثواباً مِنْ كُلِّ مَا في الحياةِ الدُّنْيَا مِمَّا هُوَ زِينَةٌ لَها. وَهِيَ خَيْرٌ أَيْضاً أَملاً.

الأمَلُ: الرَّجَاءُ، وأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ هـٰذَا اللَّفْظِ في المرغُوب فيه المستَبْعِدِ الحصُولُ عليه.

أي: وَبِمَا أَنَّ النَّاسَ يَشْتَدُّ حِرْصُهُمْ عَلَىٰ وَفْرَةِ الْأَمْوَالِ والْبَنِينَ، لِمَا يأْمُلُونَهُ مِنْ خَيْرٍ دُنْيَوِيٍّ يأْتِيهِمْ مِنْهُمَا، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الأعْمَالِ الباقِيَاتِ الصَّالِحَات: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: وهِيَ خَيْرٌ لِتَحْقِيقِ مَرْغُوبٍ فِيهِ مُسْتَبْعَدِ الحصُولِ عَلَيْهِ من الأموال والبنين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي عَرْضِ لَقَطَاتٍ مِنْ أَحْدَاثِ إنْهَاء ظُروف الحياة الدُّنيا، وأَحْدَاثِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، اسْتَدْعَتْهَا المناسَبَة، مُتَحَدِّثاً بضمير المتكلّم العظيم:

• ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾:

• ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾: أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي أَيًّا كُنْتَ، أَنَّنَا سَنُسَيِّرُ الْجِبَالَ في زَمَنٍ قَادِمٍ مِنَ الْأَزْمَانِ، هُوَ زَمَنُ قِيَامِ سَاعَةِ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا[1].

والْمُرَادُ بِتَسْيِيرِ الْجِبَالِ إِزَالَتُهَا عَنْ مَوَاضِعِهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَإِلْغَاءُ وُجُودِهَا مَنْصُوبَةً فَوْقَ سُطُوحِ الْأَرْض، حَتَّىٰ تَصِيرَ الْأَرْضُ قَاعاً صَفْصَفاً مُسْتَوِياً، لَاعِوَجَ فِيهِ وَلا ارْتِفاعَاتٍ وانْخِفاضَات.

---

(١) سبق لدى تدبّر سورة (المرسلات/٣٣ نزول) بحث عن الجبال ومَا سَيَجْري فيها مِنْ تغيرات، وهي (١١) مَرْحَلَة، مِنْهَا التَّسْيير.

• ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾: أي: وَتَرَىٰ الْأَرْضَ أَيُّهَا المتَلَقِّي إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَرَىٰ يَوْمَئِذٍ الْأَرْضَ كُلَّهَا بَارِزَةً ظَاهِرَةً لَا شَيءَ يَحْجُبُ شيئاً مِنْ سَطْحِهَا، وَلَا شَيْءَ يَسْتُرُ شيئاً مِنْه مِنْ بُنْيَانٍ أَوْ نَبَاتٍ.

الْأَرْضُ الْبرَازُ: هي الْأَرْضُ الْفَضَاءُ الْوَاسِعَةُ الخالِيَةُ مِنْ كُلِّ ساتِرٍ لَهَا.

• ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾: أي: وَحَشَرْنَا الْخَلَائِقَ الَّذِينَ بَعَثْنَاهُمْ أَحْيَاءً بَعْدَ بَرْزَخِ الْمَوْت.

الحشْرُ: الْجَمْعُ، والسَّوْق.

• ﴿... فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾: أي: فَلَم نَتْرُكْ مِنْهُمْ أَحداً لَمْ نَجْمَعْهُ وَلَمْ نَسُقْهُ، لِيَقِفَ فِي الْمَوْقِفِ الخاصِّ لِلْعَرْضِ عَلَيْنَا.

• ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾:

أي: وَعُرِضَ مَنْ حَشَرْنَاهُمْ بَعْدَ الْبَعْثِ عَلَىٰ رَبِّكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِبَيَانِنَا فِي كِتَابِنا، حَالَةَ كَوْنِهِمْ مَصْفُوفِينَ صَفًّا.

الصَّف: الْقَوْمُ المصْطَفُّونَ المنْتَظِمُونَ كالسَّطْرِ المسْتَقِيم، ولفظ «صَفًّا» مَصْدَرُ فِعْلِ «صَفَّ» بِمَعْنَىٰ انتظَمَ على سَطْر، وهـٰذَا المصدر صَالِحٌ لِأَنْ يُطْلَقَ عَلَىٰ صَفٍّ واحِدٍ، وَأَنْ يُطْلَقَ على صُفُوفٍ، لأنَّ مَعْنَىٰ الانْتِظَام مَوْجُودٌ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنها.

والظَّاهِرُ أَنَّ الْمَعْرُوضِينَ يَكُونُونَ صُفُوفاً بِحَسَبِ أَحْوَالِ وصِفَاتِ كُلِّ صَفٍّ مِنْهُمْ.

وَحِينَ يَأْتي عَرْضُ صُفُوفِ الَّذِينَ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بالْبَعْثِ ويَوْم الدِّين وَالحياةِ الْأُخْرَىٰ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، والجزاء، يَقُولُ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ لَهُم:

• ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾:

لَقَدْ كَانَ مُنْكِرُو الْآخِرَةِ في حَيَاةِ الامْتِحَانِ في الدُّنيا، يُجَادِلُونَ فِي نَبَأِ الْبَعْثِ والْآخِرَة، وَيَجْحَدُونَ اسْتِبعاداً دُونَ دَلِيلٍ تَقْبَلُهُ العقول.

(١) فقال قائِلُهُمْ كَمَا جَاءَ في سُورة (يس/ ٤١ نزول):

• ﴿... مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

فَجَاء الجوابُ الرَّبَّانِيّ:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

(٢) وقال قائِلُونَ مِنْهُمْ كَمَا جَاءَ في سورة (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول):

• ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾.

(٣) وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَـٰذِهِ الحقيقَةَ الْبُرْهَانِيَّة، فَقَالَ تبارك وَتَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (الْأَنْبِيَاءِ/ ٧٣ نزول):

• ﴿... كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

(٤) وَأَبَانَ تَقْدِيرَهُ وَقَضَاءَهُ فِيها بقولِهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الرّوم/ ٨٤ نزول):

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

فَقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في مَوْقِفِ الْعَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِلَّذِينَ كَانُوا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَالدَّارَ الْآخِرَة في الحياة الدُّنيا اسْتِبْعَاداً واسْتِغْراباً:

• ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾:

فِيهِ تَذْكِيرٌ لَهُمْ بالْحُجَّةِ الْبُرْهَانِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُقَالُ لَهُمْ فِي كِتَابِ رَبِّهِمْ، وَعَلَىٰ لِسَانِ رُسُلِهِ، فَلَا يَعْبَؤُونَ بِهَا وَيُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِم، فَهَلْ بَعْدَ إِحْيَائِهِمْ وَعَرْضِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ يَسْتَطِيعُون أَنْ يُنْكِرُوا وَاقِعَهُمْ.

والمعنى: لَقَدْ بَعَثْنَاكُمْ، وَخَلَقْنَاكُمْ خلْقاً جَدِيداً، بَعْدَ أَنْ أَمَتْنَاكُم وَأَفْنَيْنَا أجْسَادَكُمْ، إلَّا نَوَاةً صُغْرَىٰ في عَجْبِ ذَنَبِ كلّ واحِدٍ مِنْكُم، وأَحْضَرْنَاكُمْ فَجِئْتُمْ إِلَىٰ مَوْقِفِ الْعَرْضِ عَلَيْنَا بالتَّكْوِينِ الْجَبْرِي.

وَكَانَ خَلْقُنَا الثاني هٰذَا لَكُمْ مُمَاثِلاً لِخَلْقِنَا لَكُمْ أَوَّلَ مَرَّة.

• ﴿... بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾:

أي: لَمْ تَكُونُوا تُصَدِّقُونَ أَنْبَاءَ الْبَعْثِ وَأَحْدَاثَ يَوْمِ الدِّين، وَلَمْ تَكُونُوا تَقْبَلُونَ الحجج الْبُرْهَانِيَّةَ عليها، بَلْ كُنْتُم تَزْعُمونَ تَوَهُّماً وَإِيهاماً أَنْ لَنْ نَخلُقَكُمْ خَلْقاً جَدِيداً، وَلَنْ نُحَاسِبَكُم عَلَىٰ مَا قَدَّمْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ، وَنَفْصِلَ الْقَضَاء بَيْنَكُمْ، ثُمَّ نُجَازِيكُمْ بِحَسَبِ أَحْكَامِنَا عَلَىٰ كلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، فِي مَوْعِدٍ زَمَانِيٍّ وَمَكَانِيٍّ نُحَدِّدُهُ لَكُمْ.

الْمَوْعِدُ: هُنَا يُرَادُ بِهِ زَمَانُ الْوَعْدِ، وَمَكَانُهُ، أُطْلِقَ الْمَوْعِدُ عَلَىٰ سَبِيلِ الكِنَايَةِ، للدَّلَالَةِ عَلىٰ سَوَابِقِهِ مِنْ بَعْثٍ وَحَشْرٍ وَعَرْضٍ، وَعَلَىٰ مَا يَكُونُ فِيهِ، وَعَلَىٰ مَا يَتْبَعُ سِلْسِلَةَ الْأَحْدَاثِ مِنْ تَنْفِيذِ الجَزَاء الرَّبَّانِيّ في العباد.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً:

• ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾:

هٰذَا مَشْهَدٌ مِنْ مَشَاهِدِ مَوْقِفِ الْحِسَابِ يَوْمَ الدِّينِ، يَحْصُلُ بَعْدَ الْعَرْضِ الَّذِي سَبَقَ بيانُهُ فِي الآية (٤٨) ويَظْهَرُ أَنَّهُ خاصٌّ بالْكَافِرِين، لِأَنَّهُمْ

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ نَادِبِينَ مُتَحَسِّرِينَ، نَادِمِينَ عَلَىٰ مَا أَسْلَفُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا مِنْ كُفْرٍ وعِصْيانٍ، وَبَغْيٍ وطُغْيَان.

جَاءَ في القرآن المجيد بالنِّسْبَةِ إلى صُحُفِ أَعْمَالِ الَّذِينَ كانُوا في الحياة مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ عِدَّةُ نُصُوص:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سُورَةِ (التَّكْوِيرِ/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).

- ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾:

أي: وُزِّعَتْ عَلَيْهِمْ تَوْزِيعاً إِفْرَادِيًّا، حَتَّىٰ تكُونَ في يَدِ كُلِّ واحدٍ مِنْهُمْ صَحِيفَةُ أَعْمَالِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، وَسُمِّيَتْ في هـٰذَا النَّصّ صُحُفاً، وفي النصُوصِ الأُخْرَىٰ كُتُباً، والمؤدَّىٰ واحد، ولَعَلَّ الصُّحُف مُلَخَّصَاتُ مَا في الكتب، والله أعلم.

(٢) وقول اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سورة (الإسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

- ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

وَهـٰذَا النَّصُّ يَدُلُّ بِظَاهِرِهِ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ إنْسَانٍ كَانَ مَوْضُوعاً في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحانِ، يُوَزَّعُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ الَّذي سُجلَتْ فِيه أَعْمَالُهُ الإرَادِيَّةُ الَّتِي يُحَاسَبُ عَلَيْهَا يَوْمَ الدِّين فِي المحكَمَةِ الرَّبَّانِيَّة.

(٣) وقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سُورَةِ (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) في وَصْفِ بَعْضِ أَحْدَاثِ يَوْمِ القيامَة خطاباً للنَّاس:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا

حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾.

وهٰذَا النّصُّ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ مَسُوقٍ لِلْعَرْضِ عَلَىٰ اللهِ، والْوُقُوفِ فِي المحكَمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّين، يُؤْتَىٰ كِتَابَ أَعْمَالِهِ.

فالْمُؤْمِنُونَ الّذِين يَكُونُ مَصِيرُهُمْ إِلَىٰ الْجنة، وَلَوْ بَعْدَ أَنْ يَنَالُوا مَا يَسْتَحِقُونَ مِنْ عَذَابٍ عَلَىٰ مَعَاصِيهِمْ، يُؤْتَوْنَ كُتُبَ أَعْمَالِهِمْ بأَيْمَانِهِم.

والَّذِينَ سَيَكُونُ مَصِيرُهُمْ إلى الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ لِكُفْرِهِمْ، يُؤْتَوْنَ كُتُبَ أَعْمَالِهِمْ بِشَمَائِلِهِمْ.

بقي مَا جاء في سورة (الكهف/ ٦٩) الجاري تَدَبُّرُها وَهُوَ قول اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾:

التَّفكُّرُ في هَـٰذِهِ الآيَةِ بِتَأَمُّلٍ وَأَنَاةٍ يَهْدِي إِلَىٰ أَنَّ هـٰذَا الكِتَابِ كِتَابٌ يَخْتَصُّ بِعُمُومِ المكَذِّبينَ الكَفرةِ الْمُجْرِمِين الَّذِين قَالَ اللهُ لهم عِنْدَ عَرْضِهِمْ عَلَيْهِ صَفًّا.

• ﴿... لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾.

وَأَنَّهُ بِمَثَابَةِ لَوحٍ كَبِيرٍ يُعْرَضُ عَلَيْهِم جَمِيعاً عَرْضاً مُتَتَابِعاً، فَيَرَىٰ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُجْرِمِينَ فِيه تَارِيخَ ذَاتِهِ عَنْ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الحياة الدُّنْيا، بالصُّورَةِ والصَّوْتِ وَحرَكَاتِ النَّفْسِ، وَخَوَاطِرِ الْفِكْرِ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ عقَائِدَ وَنِيَّاتٍ وَرَغَبَاتٍ وَإِرَادَاتِ شَرٍّ أَوْ خَيْرٍ.

• ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: أي: وَوُضِعَ الكِتَابُ الْعَامُّ الشَّامِلُ لِتَارِيخ حياةِ

الْمُجْرِمِينَ، أَمَامَهُمْ لِيُشَاهِدُوهُ، وَقَدْ يَكُونُ مُقَسَّماً إِلَىٰ لَوْحَاتٍ، حَتَّىٰ يَسْهُلَ عَلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَشْهَدَ اللَّوْحَةَ الْخَاصَّة بِهِ، وَلَوْحَاتٍ مَنْ يَشَاءُ أَنْ يَعْرِفَ لَوْحَاتِ تَارِيخِ أَعْمَالِهِمُ الإِرَادِيَّةِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ.

• ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾: أيْ: فَيَكُونُ الكَفَرَةُ الْمُجْرِمُونَ خَائِفِينَ مِنَ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بِمَا فِيهِ مِنْ أَعْمَالٍ إِجْرَامِيَّةٍ، يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهَا الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّارِ، وإِنْ كُنْتَ أَيُّهَا المتَلَقِّي مِمَّنْ يَرَىٰ هٰذَا الْحَدَثَ فإِنَّكَ سَوْفَ تَرَىٰ مَا نُحَدِّثُكَ بِهِ رُؤْيَا عَيْنٍ، فَهُوَ حَقٌّ.

• ﴿وَيَقُولُونَ﴾: بِصِفَةٍ إِفْرَادِيَّةٍ، وَقَدْ يَكُون بِصِفَةٍ جَمَاعِيَّةٍ أَيْضاً مِنْ قِبَلِ بَعْضِ الزُّمَرِ.

• ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾: أي: يا مُصِيبَتَنَا العظيمَةَ بالْعَذَابِ الأَلِيمِ الخالِدِ الذي سَنَلْقَاهُ فِي جَهَنَّم، نُدْبَةً وَتَحَسُّراً وَتَفَجُّعاً وَنَدَماً، هٰذَا مَا رَأَيْتُهُ فِي مِثْلِ هٰذَا التعبير، **الْوَيْل**: في اللُّغَةِ كَلِمَةُ عَذَاب.

• ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾:

«مَا» اسم استفهام، مُسْتَعْمَلٌ هُنَا بِمَعْنَىٰ التَّعَجُّبِ، واللَّام بِمَعْنَىٰ الاخْتِصَاص.

أي: مَا هِيَ الصِّفَاتُ الْعَظِيمَةُ المثيرَةُ لِأَشَدِّ الْعَجب، الَّتِي لِهَذا الكِتَاب الرَّبَّانِيِّ العجيب، إِذْ كَانَ لَا يَتْرُكُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً مِنْ أَعْمَالِنَا إِلَّا سَجَّلَهَا بإِحْصَاءٍ شَامِلٍ للظَّاهِرِ والبَاطِنِ.

لَا يُغَادِرُ: أي: لَا يَتْرُكْ. يقالُ لغةً: «غادَرَهُ، مُغَادَرَةً، وَغِدَاراً» أي: «تَرَكَهُ» ويأتي بِمَعْنَىٰ «أَبْقَاهُ».

الإِحْصَاءُ: عِلْمُ مِقْدَارِ الْعَدَدِ، ويُقَالُ: «أَحْصَىٰ الكِتَابَ» أي: حَفِظَ جَمِيعَ مَا فِيه. «إِلَّا أَحْصَاهَا» أي: إِلَّا سَجَّلَهَا كَمَا هِيَ في الْوَاقع.

• ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ﴾: أي: وَوَجدُوا كُلَّ مَا عَمِلُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَاضِراً أَمَامَهُمْ، مَشْهُوداً لَهُمْ بِكُلِّ تفَاصِيلِهِ وَدَقَائِقِهِ، حتَّىٰ كَأَنَّهُ ذَاتُ مَا عَمِلُوا بِظَوَاهِرِهِ وَبَوَاطِنِهِ.

• ﴿... وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾: أي: وَيَقْضِي اللهُ بَيْنَهُمْ، وَيُصْدِرُ أَحْكَامَهُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَيَأْمُرُ بِتَنْفِيذِ جَزَاءِ كُلٍّ مِنْهُمْ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً مِثْقَال ذَرَّةٍ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذٰلِكَ، في حُكْمِهِ عَلَيْهِ وَلَا فِي مُجَازَاتِهِ لَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في آخِرِ هـٰذَا الدَّرْسِ نُصْحاً للَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ وَهُمْ فِي حَيَاةِ الامْتِحَان، حتَّىٰ لَا يَكُونُوا يَوْمَ القيامَةِ مَع الْمُجْرِمِين:

• ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوُّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾:

أي: وَضَعُوا يا مَنْ لَمْ تَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الحقّ الْمُوَجَّهَةِ لَكُمْ مِنا فِي ذَاكِرَتِكُمْ، قِصَّةَ هـٰذَا الْمَثَلِ التَّارِيخيّ، واتَّعِظُوا بالْعِظَاتِ المستفادَاتِ مِنْهُ.

إِنَّها قِصَّةُ آدَمَ وَالْمَلَائِكَةِ وإِبْلِيسَ الَّذي انْدَسَ في الملائِكَةِ واعْتَبَرَ نَفْسَهُ واحداً مِنْهُمْ، إِذْ مَكَّنَاهُ مِنْ هـٰذَا وَهُوَ فِي تَكْوِينِهِ وَطَبِيعَتِه مِنَ الْجِنِّ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ، وذُو إِرَادَةٍ حُرَّةٍ مُمْتَحَنٌ كَسَائِرِ الْجِنِّ الْمَوْضُوعِينَ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، بِخِلَافِ الْمَلَائِكَةِ فإِنَّهُم مَخْلُوقُون مِن النُّورِ، وَمَفْطُورُونَ عَلَىٰ طَاعَةِ رَبِّهِمْ، لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ الملائكَةَ الَّذِينَ انْدَسَّ فِيهِمْ إبْلِيس بأَنْ يَسْجُدُوا لآدَمَ، وأَمَرَ إِبْلِيسَ مَعَهُم بأنْ يَسْجُدَ لآدم، فَعَصَىٰ أَمْرَ رَبِّهِ وَأَبَىٰ أَنْ يَسْجُدَ مَع

الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ سَجَدُوا جَمِيعاً، وَكَانَ عِصْيَانُ إبْلِيسِ بِسَبَبِ الكِبْرِ والحسَدِ، وأصَرَّ عَلَىٰ عِصْيَانِهِ عِنْدَ مُحَاكَمَتِه فِي جَلْسَاتٍ ثَلَاثٍ، وَأعْلَنَ تَعَهُّدَهُ بِأَنْ يُغْوِيَ آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ بما يَسْتَطِيعُ مِنْ وَسَائِلَ، حَتَّىٰ يَجْعَلَ أَكْثَرَهُمْ كَافِرِينَ بِرَبِّهِمْ وَخَالِدِينَ فِي دَار العذاب النَّارِ يَوْم الدِّين، وَقَدْ سَبَقَ تَفْصِيلُ هَـٰذِهِ الْقِصَّةِ أَخْذاً مِنْ نُصُوصِ القرآنِ كُلِّهِ في مُلْحَقٍ مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّر سورة (ص/ ٣٨ نزول)[١].

تَدَبُّر الآية:

• ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾: أيْ: وَضَعُوا أَيُّهَا الْمَعْنِيُّونَ بالبيانِ أَحْدَاثَ هَـٰذِهِ الْقِصَّةِ حِينَ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ مِنْ أَهْلِ الْمَلأ الأعْلَىٰ: اسْجُدُوا لآدَم، وأمَرْنَا إبْلِيسَ مَعَهُمْ بالسُّجُود إذ كان مُنْدَسًّا فِيهِمْ بِتَمْكِينٍ مِنَّا لَهُ بذلك.

• ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾:

أي: فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ المأمُورُونَ بالسُّجُودِ جَمِيعاً إلَّا إبْلِيسَ فإنَّهُ لَمْ يَسْجُدْ مع أَنَّهُ كَانَ مَأْمُوراً بالسُّجود مَعَ الملائكة.

كَانَ إبْلِيسُ قَبْلَ أَنْ يَنْدَسَّ في مَلَائِكَةِ المَلأ الأَعْلَىٰ مِنَ الْجِنِّ الْمَخْلُوقِينَ مِنْ نَار السَّمُوم، فَطَبيعَتُهُ كَطَبِيعَةِ سَائِرِ الْجِنِّ، ذُو إرَادَةٍ حُرَّةٍ، وَمَوْضُوعٌ فِي الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحان.

فَفَسَقَ إبْلِيسُ عَاصِياً وَخَارِجاً وَمُبْتَعِداً عَنْ طَاعَةِ أَمْرِ رَبِّهِ لَهُ بالسُّجُودِ لآدَم مع الْمَلَائِكَةِ الْمَأْمُورِينَ بِأَنْ يَسْجُدُوا له.

---

(١) انظر الملحق الرابع من ملاحق تدبّر سورة (ص/ ٣٨ نزول) بعنوان: «قصّة خلق آدم في القرآن المجيد ومَا رَافَقَ خَلْقَهُ مِنْ أحداث» في المجلّد الثالث. الصَّفَحَات من (٦٦٨ ـ ٧٢٩).

الْفِسْق: الْعِصْيَانُ، والتَّرْكُ لِأَمْرِ اللهِ بِعَدَمِ تَنْفِيذِهِ، والْخُرُوجُ عَنِ الحقّ، وهو مصطَلَحٌ إسْلَامِيٌّ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفاً عِنْدَ العرب بهذا المعنىٰ.

● ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾: أي: وَقَدْ سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ أَنْ أعْلَمْتُكُمْ يَا عِبَادِي أَنَّهُ تَعَهَّدَ بِأَنْ يُغْوِيَ آدَمَ وَزَوْجَهُ وَذُرِّيَّاتِهِما، وَحَمَلَ فِي نَفْسِهِ الْعَدَاوَةَ الشَّدِيدَةَ لَهُمْ، وَقَدْ جَعَلَ مِنْ وَسَائِلِهِ الدُّخُولَ إلَىٰ أنْفُسِكُمْ مِنْ مَسَالِكِ أهوائِكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ وَرَغَبَاتِكُمْ مِنْ زِينَةِ الحياة الدُّنيا.

أفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ بَعْدَ أَنْ حَذَّرْتُكُمْ مِنْهُمْ، أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي، تَتَّبِعُونَ وَسَاوِسَهُمْ وَتَسْوِيلاتِهِمْ فِي صُدُورِكُمْ، وَتَنْخَدِعُونَ بإطْمَاعِهِمْ لَكُمْ بِالْبَاطِلِ، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟؟!

الاستفهام هنا اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ وَتَعْجِيبِيّ مِن حالِ مُتَّبِعِي عَدُوّهم.

الْعَدُوّ: ذُو العداوة يُطْلَقُ على المذكَّر، والمؤنَّثِ والواحد والاثنين والجمع.

● ﴿... بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾: بئس: فعل ذَمّ على سَبيلِ المبالغة. أي: بئْسَ إبْليس وَذُرِّيَّتُهُ للظَالِمينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهم وَيَجْعَلُونَهُمْ أَوْلياء، بدلاً عَنْ وِلَايَةِ اللهِ لهم، الَّذِي يَرْضَىٰ لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا سُعَداء في جنَّاتِ النعيم.

وبهذا انتهى الدرس الخامس من دُروس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٠)
التدبُّر التحليلي للدّرس السادس من دُروس سورة (الكهف) الآيات من (٥١ ـ ٥٣)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

القراءات:

(٥١) • قرأ أبو جعفر: [**مَا أَشْهَدْنَاهُمْ**]. بِضَمِير المتكلِّم العظيم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مَا أَشْهَدْتُهُمْ**] بضمير المتكلّم المفرد..

(٥١) • قرأ أبو جعفر: [**وَمَا كُنْتَ**] بفتح التاء خطاباً للرَّسُول ﷺ..

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَمَا كُنْتُ**] بضمِّ التاء.

(٥٢) • قرأ حمزة: [**وَيَوْمَ نَقُولُ**] بِضَمير المتكلّم العظيم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَيَوْمَ يَقُولُ**] أي: ويَوْمَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُشْرِكين.

تَمْهِيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ بِشَأْنِ المشركين مَقْرُونٌ بإنْذَارِهِم بالعذاب الْأَلِيم يَوْم الدِّين.

وهٰذَا الدَّرْس مَوْصُول بِما جاء في الآية (٤) من السُّورة بشأن الَّذِينَ قَالُوا: اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً، وَمَوصُولٌ بما جاء في قِصةِ أَهْلِ الكَهْفِ واعْتِزَالِهِمْ

قَوْمَهُم الْمُشْرِكِين، الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً، افتراءً علىٰ اللهِ وَزُوراً.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾:

أي: هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنِّي اتَّخَذْتُ وَلَداً، والَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ لِي شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِي، فَجَعَلُوا شُرَكَائِي في رُبُوبِيَّتِي آلِهَةً يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِي، هَلْ أَحْضَرْتُهُمْ فَشَهِدُوا خَلْقِي للسَّمَاوَاتِ والأَرْضِ؟ وَهَلْ أَحْضَرْتُهُمْ فَشَهِدُوا خَلْقِي لِأَنْفُسِهِم، فَكَانُوا مَعَ خَلْقِي لَهُمْ فِي الْأَطْوَارِ الَّتِي مَرُّوا بِهَا حِينَ إِنْشَائِهِم طَوْراً فَطَوْراً، فَيَرَوْنَ كَيْفَ تَكَامَلَ إِنْشَاؤُهُمْ شَيْئاً فَشَيئاً، حَتَّىٰ صَارُوا مُكْتَمِلِي الصِّفَاتِ الْجَسَدِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ، وَبِحُضُورِهِمْ رَأَوْا وَلَداً لِي يُسَاعِدُني في أَعْمَالِ رُبُوبِيَّتِي؟ أَو رَأَوْا شُرَكَاءَ لِي يُسَاعِدُونَنِي في أَعْمَالِ خَلْقِي؟.

وَهَلْ كَانُوا مُسَاعِدِين لي فِي رُبُوبِيَّتِي يَعْضُدُونني، ويُؤَازِرُونَنِي؟.

لَكِنَّ الْوَاقِعَ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَعْتَرِفُونَ بِهِ يُثْبِتُ أَنِّي مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وَمَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ، وَأَنِّي مَا كُنْتُ مُتَّخِذاً إِيَّاهُمْ مُسَاعِدِينَ لِي في أعْمَالِ خَلْقِي بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِي.

جاء في الْبَيَانِ وَصْفُهُمْ بِعِبَارَةِ ﴿ٱلْمُضِلِّينَ﴾ بَدَلَ اسْتِعْمَال الضَّمِير الّذِي يَعُودُ عَلَيْهِمْ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ ادِّعَاءاتِهِم الكُفْرِيَّةِ ادِّعَاءَاتٌ كاذِبَاتٌ يُرَادُ بِهَا تَضْلِيلُ السُّفَهَاء صِغَارِ العقول من الناس.

● ﴿عَضُدًا﴾: **الْعَضُدُ**: مَا بَيْنَ الْمِرْفَقِ إِلَىٰ الكَتِف، وَجَاءَ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ، للدَّلَالَةَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الإعَانَةِ والمنَاصَرَة. ويُقَالُ لغة: «عَضَدَهُ، يَعْضُدُهُ، عَضْداً» أيْ: أعانَهُ وَنَصَرَه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَعْرِضُ مَشْهداً مِنْ مشاهِدِ يَوْمِ القيامَة، يَتَعَلَّقُ بالَّذِينَ كَانُوا مُشْرِكِينَ فِي حَيَاةِ الامْتِحان:

• ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾:

هٰذَا المشْهَدُ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَةِ يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يُصْدِرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ حُكْمَهُ عَلَىٰ المشْرِكِينَ بأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِهَا، إذْ يَبْقَىٰ لَهُمْ أَمَلٌ قَبْلَ إِصْدَارِ الْحُكْم عَلَيْهِمْ، بأنْ يَتَجاوَزَ اللهُ جَلَّ جَلاَلُهُ عَنْهُمْ فَلَا يَجْعَلَهُمْ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ فِي النَّار، لَكِنْ يَظُنُّونَ ظَنًّا قَوِيًّا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوها، أي: مُخَالِطُوا أدَوَاتِ التَّعْذِيبِ فيها بِدُخُولِهَا لِأَنَّ جَرِيمَتَهُمْ هي مِنْ دَرَكَةِ الشِّرْكِ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

• ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾: أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِهٰذَا الْبيَانِ، هٰذَا المشْهَدَ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم الْقِيَامَةِ حِينَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِلْمُشْرِكِينَ: نَادُوا الشُّرَكَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُرَكَائِي فِي رُبُوبِيَّتِي وَإِلَهِيَّتِي، فَعَبَدْتموهُمْ مِنْ دُونِي لِيَجْلُبُوا لَكُمْ مَنَافِعَ في دُنْيَاكُمْ، ويَدْفعُوا عَنْكُمْ مَضارّ.

نَادُوهُمْ لِيَدْفَعُوا عَنكُمْ عَذَابَ رَبِّكُمْ، الَّذِي جَعَلْتُمْ لَهُ شُرَكَاءَ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ، وَلَيْسَ لَكُمْ عَلَىٰ مَا زَعَمْتُمْ بُرْهان.

• ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾: دَلَّ هٰذَا الْبَيَانُ عَلَىٰ أَنَّ الْمشْرِكِينَ سَوْفَ يُنَادُونَ الَّذِينَ كَانُوا آلِهَتَهُمْ في الدُّنْيَا، لِيَدْفَعُوا عَنْهُمْ عَذَابَ رَبِّهِم، وَجَاءَ التَّعْبِيرُ باسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ الماضِي اسْتِقْطَاعاً مِنَ الْحَدَثِ المسْتَقْبَلِيِّ، للدَّلاَلَة عَلَىٰ أَنَّهُ سَوْفَ يَتَحقَّقُ وُقُوعُهُ مُسْتَقْبلاً يَوْمَ الْقِيَامَة.

فَيُنَادِي عَابِدُ الأَوْثَانِ أَوْثَانَهُ، أَوِ الْمَرْمُوزَ لَهُمْ بأَوْثَانهم.

ويُنَادِي عَابِدُو الْجِنِّ مَنْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنَ الجنّ.

ويُنَادِي عَابِدُو الْمَلَائِكَةِ مَنْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَة.

ويُنَادِي عَابِدُو عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام يا عِيسَىٰ.

ويُنَادِي عَابِدُو الْعُزَيز يَا عُزَيْر.

ويُنَادِي عَابِدُو بَعْضِ الْعُظَمَاءِ، أَوْ بَعْضِ الصُّلَحَاءِ، مَنْ كَانُوا يَعْبُدُونهم.

فَلَا يَسْتَجِيبُ أَحَدٌ مِمَّنْ كَانُوا مَعْبُودِينَ فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ لِمَنْ كانُوا يَجعَلُونَهُمْ شُرَكَاءَ للهِ وَيَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونه.

عِنْدَئِذٍ يَنْكَشِفُ لَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا ضَالِّين يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَتَظْهَرُ خَيْبَتُهُمْ، وَيَسْكُتُونَ أذِلَّاءَ نَادِمين.

• ﴿... وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾:

الْمَوْبِقُ: كُلُّ حَاجِزٍ بَيْنَ شَيْئَيْن، أي: وَأَقَمْنَا بَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا مُشْرِكِينَ فِي الدُّنْيَا، وبَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا اتَّخذُوهُمْ شُرَكَاءَ للهِ حَاجزاً، لِقَطْعِ التَّخَاصُمِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي هٰذَا المشْهَدِ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامة.

• ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾: أي: وَرَأَىٰ الْمُجْرِمُونَ المشْرِكُونَ النَّارَ إِذْ كُشِفَتْ لَهُمْ بَعْضُ مَوَاقِعِهَا.

• ﴿فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾: أي: فَظَنُّوا ظَنًّا قَوِيًّا أَنَّهُمْ دَاخِلُونَ فيها، وَمُخَالِطُونَ مَا فِيهَا مِنْ عَذَابٍ شَدِيد، لَكِنْ يَبْقَىٰ لَدَيْهِمْ أَمَلٌ ضَعِيفٌ بِأَنْ يَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُمْ، إِذْ لَمْ تَصْدُر بِحَقِّهِمْ بَعْدُ أَحْكَامُ إِدْخَالِهِمْ فِيهَا خَالِدِينَ، وَلِهٰذَا جَاءَ فِي الْبَيَانِ اسْتِعْمَالُ فِعْلِ الظَّنّ، دُونَ اسْتِعْمَالِ فِعْلِ الْيَقِين.

• ﴿... وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾: أي: وَلَكِنْ بَعْدَ مُحَاكَمَتِهِمْ

وإصْدَارِ أَحْكَامِ اللهِ فيهم، لَمْ يَجِدُوا مَكَاناً يَنْصَرِفُونَ إلَيْهِ، لِيَتَحَوَّلُوا عَمَّا أَحَاطَ بِهِمْ، وَجَعَلَهُمْ مُلْجَئِينَ إلْجَاءً إلَىٰ الدُّخولِ في دَارِ الْعَذَابِ النَّار.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السّادِس مِن دُرُوس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١١)

التدبُّر التحليلي للدّرس السابع من دُروس سورة (الكهف)
الآيات من (٥٤ ـ ٥٩)

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ
شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ
أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا
مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى
وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ
يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى
ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا
كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

القراءات:

(٥٤) • قرأ ابن كثير: [**الْقُرَانِ**]. وكذلك حمزة في الوقف.

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الْقُرْآنِ**].

(٥٥) • قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وابن عامر، ويعقوب: [**قِبَلًا**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [قُبُلاً].

ومؤدّى القراءتين واحد.

(٥٦) • قرأ حفص: [هُزُواً].

وقرأها حمزة: [هُزْءاً] في الوصل. وكذلك خلف في الوصل والوقف.

وقرأها حمزة: [هُزاً وهُزْواً] في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [هُزُءاً].

وهي وُجوهٌ في النطق العربي.

(٥٨) • قرأ ورْش، وأبُو جعفر: [يُوَاخِذُهُمْ] بإبدال الهمزة واواً، وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُؤَاخِذُهم] على الأصل.

(٥٩) • قَرأ شُعْبَةُ: [لِمَهْلَكِهِمْ] مصدر ميمِي لفعل «هَلَكَ» وقرأها حَفْصٌ: [لِمَهْلِكِهِمْ] اسم زمان على وزْنِ «مَفْعِل».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِمُهْلَكِهِمْ] مَصْدر مِيمي مِنْ فِعل «أَهْلَكَ».

ومُؤَدّى هذه القراءات واحد.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بيانٌ بشَأْنِ اشْتِمَالِ الْقُرآن المجيدِ عَلَىٰ مَا يَكْفِي للإقْنَاعِ، وَبَيَانٌ لِعِلَّةِ الْمُعَانِدِينَ النَّفْسِيَّةِ، وَبَيَانٌ لِلْغَايَةِ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسل، وبَيَانٌ لِمُجادَلَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا بالباطِلِ، مَعَ بَيَانَاتٍ أُخْرَىٰ مُرَافِقَاتٍ مُتَّصِلَاتٍ بِمَا سَبَقَ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ القرآن المجيد:

• ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾:

• ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ يُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ باللّام الواقِعَةِ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيٍّ وبحرف «قَدْ» الدَّالِّ عَلَىٰ التحقيق.

صَرَّفْنَا: **التَّصْرِيف**: التدبيرُ، والتَّنْوِيعُ، والتَّغْيير، واتِّخاذُ مُخْتَلِفِ الْوُجُوهِ الممكنة لِلْوصُولِ إلى الْغَايَةِ المقْصُودَة.

• ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾:

دَلَّ هٰذَا البَيَانُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ إِحْدَىٰ مُعْجِزَاتِ الْقُرآنِ المجيد، وَهِيَ اشْتمالُهُ عَلَىٰ ذِكْرِ نَمُوذَجٍ «مَثَلٍ» أَوْ أَكْثَرَ، لِكلِّ نَوْعٍ أو عَمَلٍ أَوْ تَشْرِيعٍ، أَوْ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللهِ في كَوْنِهِ، ممَّا تَقْتَضِيهِ هِدَايَةُ اللهِ لِعِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وهٰذَا بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا قَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنْزَالَهُ مِنَ الدِّينِ حَتَّىٰ إِنْزَالِ سُورَةِ (الكَهْفِ) أَوْ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا سَيُنْزِلُهُ اللهُ مِن قرآنٍ أَيْضاً، إِذْ قَدَّرَ اللهُ وَقَضَىٰ أَنْ يُنْزِلَهُ كُلَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مُحمَّدٍ ﷺ.

• ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: أي: مِنْ كُلِّ نَمُوذَجٍ هُو فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ صِنْفِهِ، أَوْ نَوْعِهِ، أَوْ جِنْسِهِ، لِقِيَاسِ سَائِرِ أَمْثَالِهِ عَلَيْهِ فِي حُكْمِهِ.

• ﴿... وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾:

جَدَلاً: أَصْلُ المجَادَلَةِ في اللُّغَةِ المصارَعَة، يُقَالُ لغة: «جَادَلَ فُلَانٌ فُلَاناً مُجَادَلَةً وَجِدَالاً فَجَدَلَهُ» أي: صَارَعَهُ فَغَلَبَهُ.

وأُطْلِقَتِ المجادَلَةُ عَلَىٰ الْمُخَاصَمَةِ الْكَلَامِيَّةِ، وَعَلَىٰ المحاورة حَوْلَ فِكْرَةٍ ما، لإِثْبَاتِهَا أَوْ نَفْيِهَا.

أي: وَالْحِكْمَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ أَنْ نُصَرِّفَ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، أَنَّ الإِنْسَانِ أَكْثَرُ جَدَلاً مِنْ كُلِّ مُجَادِلٍ في الْوُجُودِ، وَجَاءَ ذِكْرُ «شَيْءٍ» لِإِدَارَةِ التَّعْمِيم الَّذِي يَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ صَالِحٍ لِأَنْ يُجَادِلَ، أَوْ قَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُجَادِلَ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ أَكْثَرَ الأَشْيَاءِ فِي الْوُجُودِ لَا تَمْلِكُ حَيَاةً وَلَا فِكْراً وَلَا قُدْرَةَ تَعْبِيرٍ حَتَّىٰ تُجَادِلَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾:

أي: وَمَا مَنَعَ مُشْرِكي مَكَّةَ وَلَا سِيمَا كُبَرَاؤُهُمُ الْمُعَانِدُونَ الْمُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، مِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْحَقِّ الَّذِي أَمَرْنَاهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا به، إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ في كِتَابِ رَبِّهِمْ وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ، ومِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ طَالِبِينَ مِنْهُ أَنْ يَسْتُرَ مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَيَتَجَاوَزَ عَنْهَا، إِلَّا اغْتِرَارُهُمْ بِإمْهَالِنَا لَهُمْ، وَتَأْخِيرِ أَنْ تَأْتِيَهُمْ مِنَّا سُنَّتُنَا بِاسْتِئْصَالِ كُفَّارِ الْأَوَّلِينَ بِمُهْلِكَاتٍ مُبِيدَاتٍ، أَوْ أَنْ يأْتِيَهُمْ مِنَّا مُتَتَابِعٌ مِنَ الْعَذَابِ غَيْرُ مُسْتَأْصِلٍ، وَتُعَايَنُ وَسَائِلُهُ الْقَادِمَةُ، نَزْلَةً فَنَزْلَةً، وعذاباً فَعَذَاباً.

سَوابِقُ الآيَةِ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بالنَّاسِ المِصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِم مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، ويُقَاسُ عَلَيْهِمْ أَمْثَالُهُمْ دَواماً.

• ﴿قُبُلًا﴾: جَمْعُ «قَبِيل» كَمَا قَالَ الْفَرَّاءِ، أي: مُتَفَرِّقاً يَتْلُو بَعْضُهُ بَعْضاً مِنْ أنواعِ العذابِ وأَصْنافِهِ وَ ﴿قِبَلًا﴾ بِحَسَب القراءة الأخرى، أي: عِيَاناً يُعَايِنُونَ وسَائِلَه.

فَدَلَّتِ القراءتانِ معاً عَلَىٰ التَّفْرِيقِ والتَّنْوِيعِ والمعاينَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾: إنَّ قَصْرَ وظيفة إرْسَالِ الرُّسلِ عَلَىٰ التَّبْشِيرِ والإنْذَارِ، هو قَصْرٌ إضَافِيٌّ، أي: بالْإِضَافَةِ إلَىٰ الإكْرَاهِ والْجَبْرِ، فَلَا إكْرَاهَ وَلَا جَبْرَ في دِينِ اللهِ عِنْدَ جَمِيعِ رُسُلِ اللهِ، وَلَكِنَّهُمْ يُبَلِّغُونَ النَّاسَ دِينَ اللهِ، وَيَتَّخِذُونَ الْوَسَائِلَ لإقْنَاعِهِمْ بِهِ، بَيَاناً وَمُجَادَلَةً وَقُدْوَةً حَسَنَةً، وَيُبَشِّرُونَ مَنْ آمَنَ وأُسْلَمَ بِجَنَّاتِ النَّعِيم، وَيُنْذِرُون مَنْ كَفَرَ وَلم يَسْتَجِبْ لِدَعْوَة الحقّ الرَّبَّانِيَّةِ بالْخُلُودِ فِي عذاب النَّارِ يَوْمَ الدِّين.

• ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾:

الجدالُ: حِوارٌ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ حَوْلَ قَضِيَّةٍ مَا لإثْبَاتِهَا أَوْ نَفْيِهَا.

بالْبَاطِلِ: أي: بالدَّلِيلِ الْبَاطِلِ، والكلامِ الكَذِبِ الباطل. **والباطِلُ** هُوَ ضِدُّ الْحَقِّ.

الإدْحَاضِ: الإزْلَاقُ عَنْ مَكَانِ الثَّبَاتِ فِي المزَالِقِ إلَىٰ مَكَانِ مُوحِلٍ لَا ثَبَاتَ فيه، واسْتُعِير فِعْلُ «يُدْحِضُ» للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ مَعَنَىٰ إخْرَاجِ الْمُحَاوِرِ مِنْ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ إلَىٰ اعْتِقَادِ الْبَاطِلِ حَقًّا.

المعنى: الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَادِلُونَ دُعَاةَ الْحَقِّ والمؤمِنِينَ بالْبَاطِلِ مِنَ المذاهِبِ والْأَفْكَارِ وَالأكاذِيبِ وزُخْرُفِ الْأَقْوَال، لِيُزْلِقُوا الْحَقَّ فِي مَزَالِقِ الشُّبُهَاتِ والتَّلْبِيسَاتِ، فَيُزِيلُوهُ عَنْ مَوَاقِعِ ثَبَاتِهِ فِي قُلُوبِ المؤمنين به.

• ﴿... وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦﴾:

أي: وَجعَلُوا آيَاتِ اللهِ الْبَيَانِيَّةَ المشتَمِلَةَ عَلَىٰ بَرَاهِينِ الحقِّ وَأَدِلَّتِهِ شَيْئاً يُسْتَهْزَأ بِهِ، إذْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُقَابِلُوا مَا فِيهَا مِن حُجَجٍ وَبَرَاهِينَ بما يُكَافِئُهَا، بَلْ بأدِلَّةٍ ظاهِرَةِ الْبُطْلَانِ، فَسَتَرُوا عَجْزَهُمْ بإظْهَارِ الْهُزْءِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لإشْعَار أتْبَاعِهِمْ الْجُهَلَاءِ بأنَّهَا لِشِدَّةِ ضَعْفِهَا لَا تَسْتَحِقُّ أكْثَرَ مِنْ أَنْ يُسْتَهْزَأ بِهَا.

الْهُزْءُ: مَصْدَرٌ، وأُطْلِقَ بِمَعْنَىٰ اسْم «الْمَفْعُولِ» أي: المهْزُوءِ به.

وَجَعَلُوا أيْضاً مَا أُنْذِرُوهُ مِنْ عِقَاب اللهِ الْمُعَجَّلِ في الدُّنْيَا، والمؤجَّلِ إِلَىٰ يَوْم الدِّين، فِي كِتَابِ اللهِ أَوْ لِسَانِ رَسُولِهِ شيئاً يُسْتَهْزَأُ بِهِ أيضاً، تَعْبِيراً عَنْ تكْذِيبِهِمْ بمَا أُنْذِرُوهُ مِنْ عِقَاب.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾:

يُرَادُ بالاسْتِفْهَام في أوَّلِ هَـٰذِهِ الآيَةِ النَّفْيُ، أي: لَا يُوجَدُ أظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ بَعْدَ إبْلَاغِهِ إيَّاهَا، وإعْلَامِهِ بِدَلَالَاتِها، وإدْرَاكِهِ لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقَ، وَمِنْهَا حَقَائِقَ المطْلُوبِ الرَّبَّانِيِّ مِنْ عِبَادِهِ، وَحَقَائِقُ الْوَعْدِ والْوَعِيدِ العاجِلِ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا والآجِلِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا، أي: أعْطَىٰ عَارِضَ وَجْهِهِ لَهَا اسْتِهَانَةً بِهَا، وَرَفْضاً للاسْتِجَابَةِ لمضْمُونها، وما فيها مِنْ دَعْوَةٍ إِلَىٰ الْحَقِّ الرَّبَّاني.

• ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: أي: وَجَعَلَ مَا سَبَقَ أنِ اكْتَسَبَ مِنْ كُفْرٍ وجرائم في جِرَابِ التَّرْكِ والإهْمالِ والنِّسْيَانِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَخْشَ الوعيدَ عَلَيْهَا الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ آيَاتُ رَبِّهِ، إذْ لَمْ يُصَدِّقْ بها.

أَصْلُ النِّسْيانِ التَّرْكُ، ومَعَ طُولِ التَّرْكِ يُمْسَحُ مِنَ الذَّاكِرَة.

• ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾:

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم، فَيُبَيِّنُ أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ جَعَلَ عَلَىٰ قُلوب الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْ آيَاتِهِ أغْطِيَةً تَمْنَعُ مِنْ وُصُول مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ من هُدًى إلى عُمْقِهَا، وَتَحْجُبُهَا صَارِفَةً لها عَنْ فِقْهِهَا، وفَهْمِهَا

فَهْماً سَدِيداً، وجَعَلَ في آذَانِهِمْ صَمَماً أَوْ قَرِيباً من الصَّمَمِ فَهِي لَا تَسْمَعُ مَا تُذَكَّرُ بِهِ مِنْ آيَاتِنَا.

الأكِنَّة: الأغْطِية، جمع «كِنَان» وهو الغطاء، وكُلُّ شيءٍ يَحْجُبُ شيئاً يَسْتُرُه.

• ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: أي: مَن أَنْ يَفْهَمُوا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَاتُ رَبِّهِمْ.

الْوَقْرُ: الصَّمَم، أَو ثِقَلٌ شَدِيدٌ في السَّمْعِ قَرِيبٌ مِنَ الصَّمَم.

وَلَيْسَ جَعْلُ الْأَكِنَّةِ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَالْوَقْرِ في آذَانِهِمْ أَمْراً جَبْرِيًّا فُطِرُوا عَلَيْهِ، إنَّما هُوَ نَتِيجَةُ كَسْبِهِمُ الإرَادِيِّ الْخَاضِعُ لِسُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي نِظَام كَوْنِهِ.

إنَّ اتِّبَاعَهُمْ لِأَهْوَائِهِمْ وشَهَوَاتِهِمْ وَزِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، وَتَأَثُّرَهُمْ بِوَسَاوِسِ الشَّياطِينِ وَتَسْويلاتِهِمْ وإِطْمَاعِهِمْ بالْبَاطِلِ، وإعْرَاضَهُمْ عَنِ الحقِّ الرَّبَّانِيِّ الّذي هَدَتْ إِلَيْهِ آيَاتُ اللهِ، مِنْ آثَارِهِ في سُنَنِ اللهِ السَّبَبِيَّةِ في كَوْنِهِ أَنْ يُغَلِّفَ قُلُوبَهُمْ بِحُجُبٍ كَثِيفَةٍ تَمْنَعُهَا مِنْ فَهْم بَيَانَاتِ اللهِ في آيَاتِهِ، وأَنْ يَجْعَلَ فِي آذَانِهِمْ صَمَماً، أوْ شِبْهَ صَمَمٍ، فَلَا تَسْمَعَ أَقْوَالِ الحقِّ والْهُدَىٰ، وَلا آيَاتِ اللهِ في كتابِهِ المبِينِ.

• ﴿... وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

أي: وإنْ تَدْعُهُمْ أَيُّهَا الداعِي إلى اللهِ إِلَىٰ أَنْ يَسْتَمْسِكُوا بِهُدَىٰ اللهِ المنَزَّلِ فِي كِتَابِهِ، واتَّخَذْتَ مَعَهُمْ كُلَّ وَسَائِلِ الإقْنَاعِ والترغِيبِ والتَّرْهِيب، فَلَنْ يَهْتَدُوا مُسْتَجِيبينَ لِدَعْوَتِكَ أبداً، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مَحْجُوبَةٌ فِي أكِنَّةٍ، وَلأَنَّ آذَانَهُمْ مُصَابَةٌ بِدَاءِ الصَّمَم فَلَا يَفْقَهُونَ حَقًّا وَلَا خيراً وَلَا هِدَايَةَ، وَهَـٰذَانِ الدَّاءَانِ قَدْ كَانَ بِكَسْبِهِمُ الإرَادِي.

الْهُدَىٰ: ضِدُّ الضَّلال. **والْهُدَىٰ**: مَصْدَرُ «هَدَاهُ» بمعنَىٰ بَيَّنَ لَهُ وأَرْشَدَ. وَأُطْلِقَ لدَّلَالَةِ على صِرَاطِ اللهِ المستقيم.

أَبَداً: ظَرْفُ زَمَانٍ للمستقبَل، ويَدُلُّ على الاسْتِمْرَار.

وَلَنْ: أداة نَفْيٍ للمُستقْبَلِ مُؤَكَّد بالتَّأْبِيدِ.

و«إذاً» ظهرلي أنها بِمَعْنَىٰ «حِينئِذٍ» إذا كان مَا بَعْدَهَا لا يَسْتَغْنِي عَمَّا قَبْلَهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُطْمِعُ بالتَّوْبَةِ وَيُنْذِرُ المصِرِّينَ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ بالإهْلَاكِ الْمُعَجَّلِ كَمَا أَهْلَكَ كُفَّارَ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ:

• ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾:

أي: وَرَبُّكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِهَٰذَا الْبَيَانِ بالْإيمانِ والتَّسْلِيم، الْغَفُورُ مَغْفِرَةً عَظِيمَةً لِعِبادِه الَّذِينَ يَتُوبُونَ وَيُؤْمِنُونَ وَيُسْلِمُونَ، وذُو الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ بِالْمُجْرِمِينَ، فَهُو بِرَحْمَتِهِ يُمْهِلُهُمْ إمْهَالاً طَوِيلاً، فَلَا يُعَجِّلُ لَهُمُ الْعِقَابَ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتُوبُوا وَيُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا ويُنْقِذُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ الْمُعَجَّلِ فِي الدُّنيا الْمَقْرُونِ بعذابٍ أليم، وَمِنَ الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ يَوْمَ الدِّينِ فِي دَارِ الْعَذَابِ النَّار، خالِدِينَ فِيها لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ فِيهَا الْعَذَابُ.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الكَفَرَةَ الْمُجْرِمِينَ إِبَّانَ تَنْزِيلِ هَٰذِهِ السُّورَة، وَكَذَلِكَ أَمْثَالُهُمْ فِي كُلِّ عَصْرٍ، بِسَبَبِ مَا كَسَبُوا مِنْ كُفْرِيَاتٍ وَجَرَائِمَ، دُونَ أَنْ يُمْهِلَهُمْ رَحْمَةً بِهِمْ، لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ، وَلَأَنْزَلَهُ بِهِمْ، وَلَكَانَتْ مُدَّةُ الإمْهَالِ السَّابِقَةُ كَافِيَةً لِتَحْقِيقِ الْعَدْل.

وَلَكِنْ رَحِمَهُمْ فَلَمْ يُعَجِّلْ لَهُمُ الْعَذَابَ، وَلَمْ يُعْضِهِمْ مِنْ إنْزَالِهِ عَلَيْهِمْ فِي زَمَنٍ لَاحِقٍ، بَلْ لَهُمْ بَعْدَ الإمْهَالِ الَّذِي تَنْقَطِعُ فِيهِ كُلُّ أَعْذَارِهِم وَتَعِلَّاتِهِمْ، مَوْعِدٌ يُنْزِلُ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ عَذَابَهُ، وحِينَ يَقْتَرِب هَٰذَا الْمَوْعِدُ، وَيَجِدُونَ وَسَائِلَ تَعْذِيبِ اللهِ مُقْبِلَةً إِلَيْهِمْ، لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِ وُصُولِ العذاب

إليهم مَلْجأً يَلْجؤُونَ إِلَيْهِ، وَلَا مَرْجِعاً يَرْجُعُونَ إِلَيْهِ لِيَحْمِيَهُمْ مِنْهُ، إذْ يَكُونُ العذابُ مُحِيطاً بِهِمْ.

المؤئل: الْمَرْجِع ـ الْمَلْجَأُ.

الْمَوْعِد: يُطْلَقُ عَلَىٰ الْوَعْد، وعَلَىٰ مَكَانِهِ، وعَلَىٰ زَمَانِهِ وَيشْهَدُ لهٰذِهِ الحقيقة الَّتِي أَبنَّاهَا في الآية (٥٨) مَا أَجْرَيْنَاهُ مِنْ إهْلَاكِ أُمَمٍ كَافِرَةٍ مُجْرِمَة مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ السَّالِفَة، حِينَ انْتَهَىٰ أَجَلُ إمْهَالِهَا الطَّوِيل، وَجَاءَ مَوْعِدُ إِهْلَاكِهَا:

• ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾: أي: وتِلْكَ أُمَمُ الْقُرَىٰ الكافِرَةِ الْمُجْرِمَةِ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ بِكُفْرِهِم وَجَرائِمِهِمْ وكَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، وَاقْتَضَتْ حِكْمَتُنَا بَعْدَ إِمْهَالِهِمْ إهْلَاكَهُمْ.

• ﴿... وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾: أي: وَجَعلْنَا لِهَلَاكِهِمْ، وَلِمَكَانِ هَلَاكِهِمْ، وَلِزَمَانِ هَلَاكِهِمْ، مَوْعِداً مُبَيَّناً بِزَمَانِهِ وَمَكَانِهِ.

وتحقَّقَ إِهْلَاكُهُمْ في الموْعِدِ المحدَّدِ لَهُ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر السّابع الدّرس من دُرُوس سورة (الكهف/ ٦٩ نزول).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٢)

التدبّر التحليليّ للدّرس الثامن من دروس سورة (الكهف) الآيات من (٦٠ ـ ٨٢)

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ
حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ

إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ
سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾
فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ
لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ
أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا
﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا
لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞
قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا
فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ
أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ
لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع
عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ
فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً
وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ
لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً
مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾:

القراءات:

(٦٣) • قرأ حفص: [أَنْسَانِيهُ] بضمّ هاء الضمير.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنْسَانِيهِ] بِكَسْرِ هاء الضَّمير. وهما نُطْقان عَربيان.

(٦٤) • قرأ نَافع، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [نَبْغِي] بإثبات الياء في الوصل، وكذلِكَ قرأَهَا ابْنُ كثيرٍ ويعقوبُ في الوصْل والوقف.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَبْغِ] بحَذْفِ الياء وصْلاً ووقْفاً.

(٦٦) • قرأ نَافع، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر: [تُعَلِّمَنِي] بإِثْبَاتِ يَاءِ المتكلّم في الوصْل، وكذلِكَ قرأها ابن كثير، ويعقوب، في الوصْلِ والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تُعَلِّمَنِ] بِحَذْفِ الياء في الوصْل والوقف.

(٦٦) • قرأ أبو عمْرو، ويعقوب: [رَشَداً] بفتح الراء والشين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [رُشْداً] بضَمّ الراء وإسْكانِ الشين. وهُمَا لغتان عَرَبيَّتان لمعنى واحِدٍ.

(٦٧) • قرأ حفص: [مَعِيَ صَبْراً] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكان ياء المتكلم.

(٦٩) • قرأ نافع، وأبُو جَعْفر: [سَتَجِدُنِيَ إِنْ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسْكان.

(٧٠) • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [فَلَا تَسْأَلَنِّي].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَلا تَسْأَلْنِي].

ولابْنِ ذَكْوان وجهان في إِثْبَاتِ يَاءِ المتكلِّم وحَذْفِها وصلاً وَوَقْفاً.

(٧١) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [لِيَغْرَقَ أَهْلُها].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا].

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

(٧٢) • قرأ حفص: [مَعِيَ صَبْراً] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكانِ يَاءِ المتكلّمِ.

(٧٣) • قرأ ورْش، وأبُو جَعْفر: [لَا تُوَاخِذْني] وقفاً وَوَصلاً. وكذلك قَرَأَهَا حَمْزَةُ فِي الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا تُؤَاخِذْنِي].

(٧٣) • قرأ أبُو جعفر: [عُسُراً] بضم السين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عُسْراً] بإسْكانِ السّين. وهُمَا لُغَتَان عَرَبيّتَانِ.

(٧٤) • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وأبْو جعفر، ورُوَيس: [زَاكِيَةً] وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [زَكِيَّةً]. ومؤدّى القراءَتَيْنِ واحد.

(٧٤) • قرأ نافع، وابْنُ ذَكْوان، وشُعْبَة، وأَبو جعفر، ويعقوب: [نُكُراً] بضمّ الكاف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نُكْراً] بإسْكان الكاف. وهُمَا لغتان بِمَعْنَىٰ الْأَمْرِ الشَّدِيدِ الصَّعْبِ.

(٧٥) • قرأ حفص: [مَعِيَ صَبْراً] بفَتْح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسْكَان.

(٧٦) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [مِنْ لَدُنِي]. وكذلِكَ قرأها شُعْبَةُ بفتح اللّام وَإسْكَانِ الدّال مع إشْمَامِهَا الضَّمَّ، ولَهُ وجْهٌ آخَرُ وهُو اخْتِلَاسُ ضَمَّةِ الدَّال.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِنْ لَدُنِّي] بضَمّ الدَّالِ وَتَشْدِيدِ النُّون المكسُورَة.

(٧٧) • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، ويَعْقُوب: **[لَتَخِذْتَ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَتَّخَذْتَ]** من فعلِ: «اتَّخَذَ».

(٨١) • قرأ نافع، وأبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر: **[يُبَدِّلَهُمَا]** من الفعل المضعف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يُبْدِلَهُمَا]** من فِعل: «أَبْدَلَ». المهْمُوز.

(٨١) • قرأ ابْنُ عامر، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: **[رُحُماً]** بضَمِّ الحاء وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[رُحْماً]** بإسْكانِ الحاء.

الرُّحْمُ: والرُّحُمُ: الْعَطْفُ والرَّحْمَة ـ (مِنْ لِسَانِ العرب).

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ المقْصُودِ بَيَانُهُ مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ والْخَضرِ عَلَيْهِمَا السلام.

مَا جَاءَ في الصَّحِيحَيْنِ بشَأْنِ قِصةِ مُوسَىٰ والْخَضِر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

أَنْقُلُ هُنَا مَا ذَكَرَ الشَّوْكَانِي فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهُ أَتَمُّ الرِّوَايَاتِ الثابِتَةِ في صَحِيحَي البخاري ومُسْلِم، وهِيَ كما يلي:

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُلْتُ لابْنِ عبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفاً البِكَالِيّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَىٰ صَاحِبَ الْخَضِرِ لَيْسَ مُوسَىٰ صاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيل.

قال ابْنُ عَبَّاسٍ: كَذَبَ عَدُوُّ الله، حَدَّثَنَا أُبَيُّ بن كعْب، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول:

«إِنَّ مُوسَىٰ قَامَ خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيل، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاس أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْم إِلَيْهِ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْداً بِمَجْمعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ فَكَيْفَ لِي بِهِ؟.

قَال: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتاً فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ[1]، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُو ثَمَّ. فَأَخَذَ حُوتاً فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وانْطَلَقَ مَعَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُون، حتَّىٰ أَتَيَا الصَّخْرَةَ، وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا فَنَامَا، واضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ، فَسَقَطَ في الْبَحْرِ، فَاتَخَذَّ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً[2]، وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الْحُوتِ جَرْيَةَ الْمَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ[3]، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بالْحُوتِ.

فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، حَتَّىٰ إِذَا كَانَا مِنَ الْغَدِ، قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

قَال: ولَمْ يَجِدْ مُوسَىٰ النَّصَبَ حَتَّىٰ جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللهُ بِهِ. فقال لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

قَالَ: فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَباً، ولِمُوسَىٰ وَفَتَاهُ عَجباً.

فقال مُوسَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

قَال: فَرَجَعَا يَقُصَّانِ أَثَرَهُمَا حَتَّىٰ انْتَهَيَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ.

فقال الخضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟!

قَال: أَنَا مُوسَىٰ.

قال: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيل؟.

قال: نعم. قَالَ: أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً.

---

(١) الْمِكْتل: زَنْبيلٌ يُصْنَعُ مِن الْخوص، ويجمع على «مَكَاتِل».
(٢) السَّرَبُ: نَفَقٌ فِي الْأَرْضِ لَا مَنْفَذَ لَهُ.
(٣) الطَّاق: الطَّوق.

قال: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً، يَا مُوسَىٰ، إِنّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ عَلَّمَكَ اللهُ لَا أَعْلَمُه.

قال مُوسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

فقال لَهُ الْخَضِر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ، فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ[1].

فَلَمَّا رَكِبَا السَّفِينَةَ لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا والْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحاً مِنْ أَلْواحِ السَّفِينَةِ بِالْقَدُوم.

فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: قَوْمٌ حَمَلُونا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً[2]؟

قَالَ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

قَالَ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾.

قال: وَقَالَ رَسُول اللهِ ﷺ:

«فَكَانَتِ الْأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَاناً».

قال: وَجَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ في الْبَحْرِ نَقْرَةً، فَقَال لَهُ الْخَضِر: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْل مَا نَقَصَ هٰذَا الْعُصْفُورُ الَّذِي وَقَعَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ مِنْ هٰذَا الْبَحْر.

ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فبيْنما هُمَا يَمْشِيَان على السَّاحِلِ، إِذْ أَبْصَرَ

---

(١) **النَّوْلُ**: أَجْرُ رُكُوب السَّفِينَة.

(٢) أي: لَقَدْ جِئْتَ أَمْراً عَظِيماً مُنْكراً عجيباً.

الْخَضِرُ غُلَاماً يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ، فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ.

فَقَالَ مُوسَىٰ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾.

قَالَ: وَهَـٰذِهِ أَشَدُّ مِنَ الأُولى.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَـٰمَهُۥ﴾: قال: مَائل.

فَقَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَقَامَهُ.

فَقَالَ مُوسَىٰ: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا، ولَمْ يُضَيِّفُونَا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

﴿قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾.

فقال رَسُولِ الله ﷺ: وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ صَبَرَ حَتَّىٰ يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا

قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

أَلْتزِمُ في الْفَهْمِ التَّدَبُّرِيِّ مَا جاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَن الرَّسُول ﷺ الَّذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ.

إنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ خَطِيباً فِي بَنِي إسْرَائِيل، ويظْهَرُ أَنَّ هٰذَا حِينَ كَانَ بَنُو إسْرَائِيلَ فِي التِّيهِ، خِلَالَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً الَّتِي قَضَىٰ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ يَتِيهُوا فِي الْأَرْضِ، لِأَنَّهُمْ رَفَضُوا أَنْ يَدْخُلُوا الْأَرْضَ المقَدَّسَةَ مُقَاتِلِينَ.

فَسُئِلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَعْضِ قَوْمِهِ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: اللهُ أَعْلَمُ، أَنَا لَا أَدْرِي.

فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْداً بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ.

قال مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ، فَكَيْفَ لِي بِهِ؟.

قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتاً فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَل، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ، أي: فَهُوَ هُنَاك.

فَأَخَذَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام حُوتاً، فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ لِطَعَامِهِ وَطَعام فَتَاهُ يُوشَعُ بْنِ نُونٍ، الَّذِي كَانَ تِلْمِيذاً وَخَادِماً وَمُرَافِقاً مُوافِقاً، وَقَدْ نَبَّأَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام.

ثُمَّ انْطَلَقَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُرَافِقُهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُون مُسَافِرَيْنِ، وَقَصْدُ مُوسَىٰ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَجْمَعِ الْبَحْرَينِ لِيَلْقَىٰ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ، وهو الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِيَقْتَبِسَ مِنْهُ عِلْماً لَيْسَ عِنْدَهُ مِنْهُ، فهي رِحْلَةُ تِلْمِيذٍ لِيتَعَلَّم عِلْماً ليس عِنْدَهُ مِنْهُ مِن إِسْنَادٍ رَبَّانِي.

وتَرَجَّحَ عِنْدِي أَنَّ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ وَالْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلامُ، هُوَ مَكَانُ الْتِقَاءِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ بِخَلِيجِ العَقَبَةِ، فَقَدْ جَاءَ فِي تَقْرِيرِ لِبَعْثَةٍ عِلْمِيَّةٍ بَيْنَ جَامِعَةِ الْقَاهِرَةِ الْمِصْرِيَّةِ وَجَامِعَةِ أَدنْبَرَة الإنْكِيزِيَّة: أَنَّ مَاءَ الْبَحْرِ فِي خَلِيجِ الْعَقَبَةِ تَخْتَلِفُ خَواصُّهُ وَتَرَاكِيبُهُ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ. واسْتَطَاعَتِ الْبَعْثَةُ بِوَسَاطَةِ قِيَاسِ الْأَعْمَاقِ اكْتِشَافَ حَاجِزٍ مَغْمُورٍ عِنْدَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ مِتْرٍ.

وتَابَعَا سَفَرَهُمَا حَتَّى وَصَلَا إِلَىٰ مَكَانٍ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ فِيهِ صَخْرَةٌ وَكَانَا قَدْ تَعِبَا مِنْ طُولِ السَّفَرِ، واشْتَدَّ نُعَاسُهُمَا، فَوَضَعَا رُؤُوسَهُمَا فَنَامَا.

وَأَحْيَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحُوتَ، فَاضْطَرَبَ فِي المِكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ نَفَقاً يَحْجُزُهُ فَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِهٰذَا النَّفَقِ مَنْفَذٌ، وَكَانَ هٰذَا بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ، لِيَكُونَ عَلَامَةً لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامِ.

وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الْحُوتِ جَرْيَةَ الْمَاءِ حَتَّىٰ لَا يَأْخُذَهُ الْمَوْجُ إِلَىٰ وَسَطِ الْبَحْرِ، فَصَارَ الْمَاءُ عَلَىٰ الْحُوتِ مِثْلَ الطَّوْقِ الْمُحِيطِ بِهِ، فَهُوَ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ.

فَلَمَّا اسْتَيْقَظَا مِنْ نَوْمِهِمَا، نَسِيَ فَتَىٰ مُوسَىٰ «يُوشَعُ بْنُ نُون» الْحُوت، وَلَعَلَّهُ شَاهَدَ سُقُوطَهُ فِي الْبَحْرِ وانْحِبَاسَهُ فِي دَائِرَةِ الْمَاءِ فَنَسِيَ أَيْضاً أَنْ يُخْبِرَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَمْرِ.

فَانْطَلَقَا مُسَافِرَيْنِ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، وَيَظْهَرُ أَنَّهُمَا بَدَءَا سَفَرَهُمَا مَعَ الضُّحَىٰ، فَلَمَّا تَعِبَا نَامَا نَوْمَةَ الْقَيْلُولَةِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ، وَبَعْدَ أَنِ اسْتَيْقَظَا تَابَعَا سَفَرَهُمَا، حَتَّىٰ آخِرِ النَّهَارِ وقِسْمٍ مِنَ اللَّيْلِ، فَنَامَا كَالَّيْنِ مِنَ التَّعَب.

حَتَّىٰ إِذَا كَانَا مِنَ الْغَدِ، قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفَتَاهُ: «يُوشع بْنِ نون»: آتِنَا طَعَامَ غُدْوَتِنَا، أَيْ: طَعَامَ أَوَّلِ النَّهَارِ، فَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هٰذَا تَعَباً.

فَقَالَ: «يُوشَعُ بْنُ نُونٍ»: أَرَأَيْتَ يَا نبيَّ اللهِ إِذْ أَوَيْنَا إِلىٰ الصَّخْرَةِ ونِمْنَا، فإنّي نَسِيتُ الْحُوتَ هُنَاكَ، وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ فَمَنَعَنِي أَنْ أَذْكُرَه، والْأَمْرُ الْعَجِيبُ أَنَّهُ اضطَّرَبَ فِي المكْتَلِ، وَسَقَطَ في الْبَحْرِ، وَحَبَسَهُ نَفَقٌ فِيه، وَمَاءٌ أَحَاطَ بِهِ كالطَّوْقِ حَتَّىٰ لَا تَأْخُذَهُ أَمْواجُ الْبَحْرِ.

قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي، إذْ هُوَ الْمَكَانُ الْمُحَدَّدُ لِلِقَائِي بِمَنْ يُعَلِّمُنِي عِلْمَا لَيْسَ عِنْدِي مِنْهُ.

فَرَجَعَا يَتَتَبَّعَانِ أَثَرَ سَفَرِهِمَا فِي رِحْلَتِهِما، بَعِيداً عَنْ مَكانِ الصَّخْرَةِ الَّتِي كَانَا قَدْ نَامَا عِنْدَهَا نَوْمَةَ الْقَيْلُولَةِ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ، حَتَّىٰ وَصَلَا إِلَيْهَا.

وَيَظْهَرُ أَنَّ الْحُوتَ لَمْ يَكُنْ زَادَهُمَا الْوَحِيدَ مِنَ الطَّعَامِ، فَقَدْ كَانَ مَعَهُمَا غَيْرُهُ مِمَّا يُقِيتُهُمَا.

• ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾:

• ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾: أي: لَا أَزَالُ مُسْتَمِرّاً فِي سَفَرِي هٰذَا.

• ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: أي: حَتَّىٰ أَصِلَ إِلى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ الَّذِي جَعَلَهُ رَبِّي الْمَكَانَ الَّذِي اجْتَمِعُ فِيهِ بالْخَضِرِ الَّذِي آتاهُ اللهُ عِلْماً لَمْ يُؤْتِنِي مِنْهُ.

ومَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ فِيمَا تَرَجَّحَ عِنْدِي، هُوَ مَكانُ الْتِقَاءِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ بِخَلِيجِ الْعَقَبَةِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعْلُوماً أَنَّهُ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْن.

• ﴿... أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾: أي: أو أنْ أَذْهَبَ مُتَابِعاً سَفَرِي زَمَناً طَوِيلاً حتَّىٰ يَهْدِيَنِي اللهُ إِلَىٰ مَكانِ اجْتِمَاعِي بالْخَضِر.

الْحُقُبُ ـ والْحُقْب: المدَّةُ الطَّوِيلَةُ مِنَ الزَّمَنِ. وجمعه «حِقَاب» و«أَحْقَاب».

• ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾: أي: فَلَمَّا وَصَلا مَجْمَعَ الْتِقَاءِ الْبَحْرَيْن.

الْبَيْنُ: يَأْتِي بمعنَىٰ الافْتِرَاقِ والتَّبَاعُد. وَيَأْتِي بمَعْنَىٰ الاتِّصَالِ والالْتِصَاقِ. فَهُوَ مِنَ الكَلِمَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ الضِّدَّيْنِ، ومَعْنَىٰ الاتِّصَال هُو الْمُنَاسِبُ هُنَا.

• ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾: أيْ: بَعْدَ أَنْ أَوَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، وَوَضَعَا رُؤوسَهُمَا وَنَامَا، واضطرب الْحُوتُ في المكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ وسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، واحْتَبَسَ في النَّفَق، وَأَحَاطَ بِهِ مَاءٌ كالطَّوْقِ، حَتَّى لَا تَأْخُذُهُ أَمْوَاجُ الْبَحْرِ، كَمَا جَاءَ في الْحَدِيثِ الصَّحِيح.

ودَلَّ هـٰذَا الْبَيَان عَلَىٰ أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي نَامَا فِيهِ هُوَ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْن، لِذَلِكَ تَابَعَ سَيْرَهُ عَلَىٰ شَاطِئِ الْبَحْرِ وَمَعَهُ فَتَاهُ.

• ﴿. . . فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾: أي: فَاتَّخَذَ الْحُوتُ بَعْدَ أَنِ اضْطَرَبَ فِي المكْتَلِ إِذْ أَحْيَاهُ اللهُ وَسَقَطَ في الْبَحْرِ سَبِيلَهُ في الْبَحْرِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ نَفَقاً غَيْرَ نَافِذٍ، لِيَحْبِسَهُ.

السَّرَبُ: نَفَقٌ فِي الأَرْضِ لَا مَنْفَذَ لَهُ.

وَكَانَ هـٰذَا بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ عَلَامَةً لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا رَجَعَ يَقُصُّ الْأَثَرَ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي فَقَدَ فِيهِ الْحُوتَ.

وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ اللهَ أَمْسَكَ عَنِ الْحُوتِ جَرْيَةَ الْمَاءِ، فَصَارَ الْمَاءُ الثَّابِتُ فِي مَكَانِهِ كالطُّوْقِ الْمُحِيطِ بِهِ المانِعِ لَهُ مِنْ أَنْ تَسْحَبَهُ الأَمْوَاجُ.

• ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾: أي: فَلَمَّا جَاوَزَا مُبْتَعِدَيْنِ عَنْ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْن.

وَجَاءَ فِي بَيَانِ الرَّسُول ﷺ أَنَّهُمَا انْطَلَقَا جَادَّيْنِ في الْمَسِيرِ بَقِيَّة يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ.

• ﴿... قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾:

أي: قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام لِفَتَاهُ «يُوشع بن نُون»: آتِنَا غَدَاءَنَا.

الْغَدَاء: طَعَامُ الْغُدْوَةِ، وهُوَ الْوَقْتُ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ حتَّىٰ طُلُوعِ الشَّمْس.

فَطَلَبَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ «يُوشَع» إحْضَارَ طَعَامِ الْغُدْوَة، وَقَالَ لَهُ: لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هـٰذَا الَّذِي تَابَعْنَا السَّيْرَ فِيهِ تَعَباً.

النَّصَبُ: التَّعَبُ مِنْ مُتَابَعَةِ الْعَمَلِ وَبَذْلِ الْجُهْد.

عِنْدَئِذٍ تَذَكَّرَ «يُوشَعُ» أَنَّهُ نَسِيَ الْحُوتَ عِنْدَمَا أَوَيَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ وَنَامَا، عَلَىٰ شَاطِئِ الْبَحْرِ:

• ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾:

أي: قَالَ «يُوشَعُ» لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام: أَرَأَيْتَ الْمَكَانَ الَّذِي نَزَلْنَا فِيهِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ عَلَىٰ شَاطِئِ الْبَحْرِ، ونِمْنَا عِنْدَهُ، وَلَمَّا اسْتَيْقَظْنَا تَرَكْنَاهُ وَتَابَعْنَا سَفَرَنَا عَلَىٰ شَاطِئِ الْبَحْر، فإنّي نَسِيتُ أَنْ أَسْتَخْرِجَ الْحُوتَ مِنَ النَّفَقِ الَّذِي حَبَسَهُ فِي الْبَحْرِ، وأَنْ أَحْمِلَهُ فِي المِكْتَلِ.

وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ بِصَرْفِ ذِهْنِي عَنْ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَنَسِيتُ أَنْ أَذْكُرَ لَكَ الأَمْرَ الْعَجَبَ الَّذِي كَانَ مِنَ الْحُوتِ إِذِ اضطَرَبَ في المِكْتَلِ، وَخَرَجَ مِنْهُ، وَسَقَطَ في الْبَحْرِ، واتَّخَذَ سَبِيلَهُ في الْبَحْرِ سَرَباً احْتَبَسَ فِيهِ.

قال رسول الله ﷺ في الحديث: «فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَباً ولِمُوسَىٰ وَفَتَاهُ عَجَباً».

• ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾: أي: قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام لِفَتَاهُ «يُوشع بن نُون»: ذَلِكَ الَّذِي حَصَلَ؛ وَهُوَ فَقْدُنَا لِلْحُوتِ هُوَ مَا كُنَّا نَطْلُبُهُ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَىٰ لَهُ بِشَأْنِ الْتِقَائِهِ بالْخَضِر: «فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ» أي: فالْخَضِرُ هُنَاكَ.

• ﴿... فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾: أي: فَرَجَعَا سَائِرَيْنِ عَلَىٰ آثَارِهِمَا فِي الْأَرْضِ، مُتَتَبِّعَيْنِ هٰذِهِ الآثار شَيْئاً فَشَيْئاً.

تَقُولُ لغة: «قَصَصْتُ الشَّيْءَ، قَصّاً، وقَصَصاً» أي: تَتَبَّعْتَ أَثَرَهُ شَيْئاً فَشَيْئاً. ويُقَالُ: «قَصَّ آثَارَهُمْ» أي: تَتَبَّعَهَا.

• ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾:

أي: فَلَمَّا وَصَلَا إِلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي فَقَدَا فِيهِ الْحُوتَ، وَجَدَا عِنْدَهُ الرَّجُلَ الَّذِي آتَاهُ اللهُ عِلْماً خَاصًّا لَمْ يُؤْتِ مِنْهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وَهُوَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَام، وَقَدْ جَاءَتْ تَسْمِيَتُهُ: «الْخَضِر» في أَحَادِيثَ صَحِيحَة. وَجَاء في حديث عند البخاري وَغَيْرِهِ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ، عن النبيّ ﷺ أَنَّهُ قَال:

«إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرَ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَىٰ فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فإذَا هِي تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْرَاءَ».

وَوَصَفَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِهِ، أي: المتحقّقِينَ بِعُبُودِيَّتِهِمْ لَهُ. ووَصَفَهُ بأنَّهُ آتاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِه، أي: آثَارَ رَحْمَةٍ رَحِمَهُ بِهَا، وَيَظْهَرُ لِي أَنَّهَا نُبُوَّةٌ، إِذْ كَانَ يُوحَىٰ إِلَيْه، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ رسُولاً، لِأَنّ اللهَ لَمْ يُكَلِّفْهُ أَنْ يَحْمِلَ رِسَالَةً لِلنَّاسِ وَيُبَلِّغَهَا أُمَّتَهُ.

وَقَالَ اللهُ بِشَأْنِهِ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾: أي: عِلْماً خَاصًّا لَمْ نُعَلِّمْهُ الرُّسل.

ويَظْهَرُ لِلْمُتَدَبِّرِ مِنْ خِلَالِ مُرَافَقَةِ مُوسَىٰ لَهُ عَلَيْهِمَا السَّلَام، أَنَّ الْعِلْمَ الْخَاصَّ الَّذِي آتَاهُ اللهُ الْخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَام، عِلْمٌ يَتَعَلَّقُ بِبَعْضِ تَصَارِيفِ اللهِ فِي عِبَادِهِ، وَمِنْهَا مَا ظَاهِرُهُ شَرٌّ مَكْرُوهٌ، وَحَقِيقَتُهُ خَيْرٌ مَحْبُوب، إِذْ يَحْدُثُ نَظِيرُ مَا أَجْرَاهُ الْخَضِرُ بأَمْرِ اللهِ، فِيما يُجْرِيهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعِبَادِهِ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِه، مِمَّا لَا نَعْلَمُ الْحِكْمَةَ فِيهِ عِنْدَ حُدُوثِهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذَا قَوْل اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (البقرة/ ٨٧ نزول):

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

وَجَاء في الحديث الصحيح بشأْنِ الْتِقَاء مُوسَىٰ بالْخَضِر عليهما السَّلام:

«فَرَجَعَا يَقُصَّانِ أَثَرَهُمَا حَتَّىٰ انْتَهَيَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ، فإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْب، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنَّىٰ بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟! أي: من أَيْنَ يُوجَدُ بِهَـٰذِهِ الأرضِ السَّلام؟!.

قال: أَنا مُوسَىٰ. قَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيل؟ قَالَ: نَعَمْ: أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً قِصَّة مُوسَىٰ وَالْخَضرِ عليهما السلام:

• ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾:

• ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾:

الرُّشْدُ ـ والرَّشَدُ ـ والرَّشَاد: السُّلُوكُ الْفِكْرِيُّ، والنَّفْسِيُّ، والْخُلُقِيُّ،

والعَمَلِيُّ، الْمُوَافِقُ لِلْحَقِّ والصَّوَاب، أَوْ لِمَا هُوَ الأَفْضَلُ وَالأَحْسَنُ وَالأَكْثَرُ نَفْعاً والأَبْعَدُ عَنِ الضَّرَرِ.

جاء طَلَبُ موسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام من الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَام، بأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَام الَّذِي يَتَضَمَّنُ تَلَطُّفاً فِي الْعَرْضِ، وهـٰذَا هُو شَأْنُ أَدَبِ طَالِبِ التَّعَلُّمِ مَهْمَا كَانَ رَفِيعَ الْمَنْزِلَةِ الْعِلْمِيَّةِ، مِنْ مُعَلِّمٍ مَا لَدَيْهِ عِلْمٌ نَافِعٌ يُرِيد أَنْ يَسْتَفِيدَهُ مِنْهُ.

وَعَلِمَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام أَنَّ مَا عِنْدَ الْخَضَرِ مِنْ عِلْمٍ لَا يُسْتَفَادُ بِجَلْسَةٍ أَو عِدَّةِ جَلْسَاتٍ، بَلْ لَا بُدَّ لِتَحْقِيقِه مِن اتِّبَاعٍ وَمُلَازَمَةٍ، فَقَالَ لَهُ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾؟

وَمَعَ عِلْم مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام أَنَّ الْخَضِرَ لَا يُعَلِّمُهُ إِلَّا مَا فِيهِ رُشْدٌ، لِأَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ الَّذِي أَعْلَمَهُ بِهِ، وَدَلَّهُ عَلَيْهِ، وَأَوْصَلَهُ إِلَيْهِ، إِلَّا أَنَّهُ رَأَىٰ أَنْ يُقَيِّدَ مَا يَتَعَلَّمُهُ مِنْهُ بِأَنْ يَكُونَ رُشْداً. وَرُبَّما ذَكَرَ هـٰذَا الْوَصْفَ لِيَسْتَبْعِدَ عِلْماً لَا رُشْدَ فِيهِ كَعِلْمِ السِّحْرِ.

- ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾؟.

وَجاء في الْبَيَانِ الصَّحيح عن الرسُول ﷺ، أَنَّ الْخَضِرَ قَالَ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَام:

«إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً، يَا مُوسَىٰ، إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ عَلَّمَكَ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ».

الْخُبْرُ ـ والْخَبْرُ ـ والْخِبْرُ: مَعْرِفَةُ الشَّيْءِ على حَقِيقَتِهِ ظاهِرِه وَبَاطِنِه.

أي: إِنَّكَ يَا مُوسَىٰ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً إِذَا اتَّبَعْتَنِي، ورأيْت مِنِّي تَصَرُّفَاتٍ قَدْ لَا تُوَافِقُ فِي ظَوَاهِرِهَا مَا يَجِبُ أَنْ يَلْتَزِمَ بِهِ الْمَأْمُورُ بِتَنْفِيذِ

أَحْكَامِ دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ، وَأَنْتَ تَرانِي مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمُطَالِبِينَ بِتَنْفِيذِ أَحْكَامِ دِينِ اللهِ، وَمِنْ حَقِّكَ أَنْ تَعْتَرِضَ عَلَيَّ فِيها، عَمَلاً بِمَا لَدَيْكَ مِنْ أَحْكَامِ دِينِ اللهِ، وَلَا عِلْمَ لَدَيْكَ بالأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُنِي أَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَاتِي، فَكَيْفَ وَأَنْتَ تَحْمِلُ لِوَاءَ أَحْكَامِ الشَّرْعِ تَصْبِرُ عَلَىٰ تَصَرُّفٍ لَمْ يُحِطْ عِلْمُكَ بالأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ الدَّاعِيَةِ إِلَيْهِ؟!.

• ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴿٦٩﴾﴾:

أَعْطَىٰ مُوسَىٰ لِلْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلامُ، وَعْداً مُعَلَّقاً عَلَىٰ مشيئَةِ اللهِ، وَفْقَ أَدَبِ المؤمنِينَ مَعَ رَبِّهِمْ فِيمَا يَعِدُونَ بِفِعْلِهِ مُسْتَقْبلاً، بِأَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ مَا يَجِدُهُ مِنْ تَصَرُّفَاتِ الْخَضِرِ الَّتِي لَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهَا، وَوَعْداً بأَنْ لَا يَعْصِيَ لَهُ أَمْراً يَأْمُرُهُ بِهِ.

• ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٧٠﴾﴾:

أي: قَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَام: أُوَافِقُ عَلَىٰ أَنْ تَتَّبِعَنِي مُتَعَلِّمَاً، فَإِن اتَّبَعْتَنِي مُلْتَزِماً بالصَّبْرِ عَلَىٰ مَا يُخَالِفُ مَا تَعْلَمُ مِنْ أَحْكَامِ دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ، فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ سَبَبِ فِعْلِي لِشَيْءٍ أَفْعَلُهُ وَأَنْتَ لَا تَرْضَاهُ، حَتَّىٰ أُحْدِثَ أَنَا لَكَ مِنْهُ ذِكْراً بِقَوْلٍ أُبَيِّنَ لَكَ فِيهِ سَبَبَ فِعْلِ مَا فَعَلْتُ مِمَّا هُوَ خَارِجٌ عَنْ حُدُودِ عِلْمِكَ، وَهُوَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي أَوْ عَلَّمَنِي وَأَمَرَنِي بِفِعْلِ مَا فَعَلْتُ.

وتَمَّ الاتّفاقُ عَلَىٰ أَنْ يَتَّبِعَ مُوسَىٰ الْخَضِر عَلَيْهِمَا السَّلام، ويَظْهَرُ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ صَرَفَ فَتَاهُ «يُوشَع بن نون» لِيَنْطَلِقَ مُتَبِعاً الخضِرَ عَلَيْهِ السَّلام.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً قِصَّة مُوسَىٰ والخضر عليهما السلام:

• ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا

تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾:

• ﴿فَانطَلَقَا﴾: أي: فَذَهَبَ مُوسَىٰ والْخَضِرُ عَلَيْهِمَا السَّلامُ مُسْرِعَيْنِ بِهِمَّةٍ وَجِدٍّ وَنَشَاطٍ.

انْطَلَقَ: أي: ذَهَبَ مُسْرِعاً جادّاً، وهو مُطَاوعُ: «أَطْلَقَهُ فَانْطَلَق» وأَصْلُ الإِطْلَاقِ التَّحْرِيرُ مِنَ الْقَيْدِ.

هٰذَا الْبَيَانُ يُشْعِرُ بأَنَّ فَتَىٰ مُوسَىٰ «يُوشع بْن نُون» قَد انْصَرَف عَنْ سَيِّدِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، وَلَا يَكونُ هٰذَا إِلَّا بِتَوْجِيهٍ مِنْ مُوسَىٰ.

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾:

«ال» فِي لفظ «السَّفِينَة» لِلْجِنْسِ.

• ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾؟ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، أي: أَشَقَقْتَهَا وَقَطَعْتَ شَيْئاً مِنْهَا. يُقَالُ لُغَة: «خَرَقَ فُلَانٌ الشَّيْءَ، يَخرِقُهُ، ويَخْرُقُهُ، خَرْقاً». أي: شَقَّهُ وَمَزَّقَهُ.

• ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾: أي: لَقَدْ فَعَلْتَ فِعْلاً عَجِيباً مُنْكَراً.

يقالُ لغة: «جَاءَ فُلَانٌ الأَمْرَ» أي: فَعَلَهُ.

الإِمْرُ: الْعَجِيبُ الْمُنْكَرُ. يُقَالُ لُغَةً: «أَمْرٌ إِمْرٌ» أي: عجيبٌ مُنْكَرٌ.

وَجاءَ في الحديث الصّحيحِ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ:

«فانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ، فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ (أي: بِغَيْرِ أَجْرٍ).

فَلَمَّا رَكِبَا السَّفِينَةَ لَمْ يَفْجَأْ إلَّا والْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحاً مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ بالْقَدُوم.

فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً؟!».

فَدَلَّ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ عَلَىٰ أَنَّ الْخَرْقَ قَدْ كَانَ بِقَلْعِ لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِها بِالْقَدُوم، وأَصْحَابُ السَّفِينَةِ لَمْ يَعْتَرِضُوا عَلَىٰ فِعْلِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَام، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَهُ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّ لَهُ أَفْعَالاً عَجِيبَةً ذَاتَ غَايَاتٍ حَمِيدَة نَافِعة.

• ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾: اسْتِفْهَامٌ عَلَىٰ النَّفْيِ لِيُجِيبَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام بالإِثْبَاتِ فَيَقُول: بَلَىٰ.

• ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾:

دلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقَرَّ بالإِثْبَاتِ، واعْتَذَرَ بالنِّسْيَان، قال الرَّسُولُ ﷺ في الحديث الصّحيح: «فَكَانَتِ الْأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَاناً».

• ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾: أي: لَا تُجَازِنِي عَلَىٰ سُؤَالِي هَـٰذَا بِسَبَبِ نِسْيَانِي، إِذْ نَسِيتُ مَا وَعَدْتُكَ بِهِ مِنَ الصَّبْر.

• ﴿... وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾: أي: وَلَا تُحَمِّلْنِي مِنْ أَمْرِي مَعَكَ مَا هُوَ شَدِيدٌ عَلَيَّ وَصَعْبٌ عَلَيَّ أَنْ أَلْتَزِمَهُ كَحَالَةِ النِّسْيَان، فإِنِّي لَا أُطِيقُ أَنْ أَدْفَعَ عَنِّي حالَةَ النِّسْيَان.

الْعُسْر، والْعُسُر: الشِّدَّةُ، والصُّعُوبَة، وضِدُّهُ الْيُسْر.

صِيغَتَا: [**لَا تُؤَاخِذْنِي ـ وَلَا تُرْهِقْنِي**] صِيغَتَا الْتِمَاسٍ مَقْرُونٍ بِعُذْرِ النِّسْيان.

فَتَجَاوَزَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ هَـٰذِهِ الْأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام.

وَبَعْدَ هـٰذَا الحدَثِ أَبَانَ الرَّسُولُ ﷺ في الصّحِيح ما يلي:

«وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً. فَقَالَ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْم اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هـٰذَا الْعُصْفُورُ الَّذِي وَقَعَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ مِنْ هـٰذَا الْبَحْرِ».

• ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾: وفِي القراءة الأخرى: [**زَاكِيَةً**] أي: طَاهِرَةً بَرِيئَةً مِنَ ارْتكابِ الذُّنوب.

الْغُلَام: الصَّبِيُّ مُنْذُ وِلَادَتِهِ وَحَتَّىٰ سِنِّ الْبُلُوغ.

النُّكْرُ ـ والنُّكُرُ: الْأَمْرُ الشَّدِيدُ الصَّعْبُ ـ المنْكَرُ الْمُسْتَقْبَح.

وَجَاءَ في الحديث الصحيح قول الرسُول ﷺ:

«ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَة، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ السَّاحِلِ، إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلَاماً يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ».

لَقَدْ كَانَ قَتْلُ الْغُلَام الَّذِي لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ التَّكْلِيفِ مِنْ قِبَلِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَام حَدَثاً كَبِيراً، لَمْ يَتَحَمَّلْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام الصَّبْرَ عَلَيْهِ؛ بِحَسَبِ مَا يَعْلَمُ مِنْ أَحْكَام شَرْعِ اللهِ، وَهُوَ غَيْرُ نَاسٍ لِمَا وَعَدَ مِنَ الصَّبْرِ.

لَكِنْ كَانَ شَأْنُ الْخَضِرِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَشَأْنِ مَلَكِ الْمَوْتِ مُنَفِّذاً أَمْرَ اللهِ

لَهُ بِقَتْلِهِ، إِذْ طُبِعَ الْغُلَامُ كافِراً، ولَمْ يَشَأ الله أَنْ يَدْخُلَ الامْتِحَانَ وَهُوَ مَفْطُورٌ عَلَىٰ الكُفْرِ، والشَّرْطُ في الَّذِينَ يُوضَعُونَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَنْ يَكُونُوا ذَوِي إِرَادَةٍ حُرَّةٍ غَيْرِ مَجْبُورَة.

فَقَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَام: أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً طَاهِرَةً مِنَ الذُّنُوبِ إِذْ لَمْ تَبْلُغْ مَبْلَغَ التَّكْلِيفِ، بِغَيْرِ نَفْسٍ، لَقَدْ فَعَلْتَ فِعْلاً مُنْكراً لَا أَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ عَلَيْهِ؟!!

لَقَدْ قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ هٰذَا الْقَوْلَ مُسْتَنْكِراً ذَاكِراً لِوَعْدِهِ لِلْخَضِرِ بالصَّبْرِ.

بَيْدَ أَنَّ كَوْنَ الْغُلَامِ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ قَدْ طُبِعَ كافِراً مِنَ الْعِلْمِ الّذِي آتَاهُ اللهُ الْخَضِرَ وَلَمْ يُؤْتِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام.

رَوَىٰ مُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِراً، وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَاناً وَكُفْراً».

• ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾:

فَزَادَ عَلَىٰ مَقَالَتِهِ السَّابِقَةِ لَهُ عِبَارَة ﴿لَّكَ﴾ وَفِي هٰذِهِ الزِّيَادَةِ مَعْنَىٰ تَلْوِيم الْخَضِرِ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، إِذْ لَمْ يَلْتَزِمْ بِمَا وَعَدَهُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَىٰ تَصَرُّفَاتِهِ، وَعَدَمِ سُؤَالِهِ أَوِ الاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ، وهو ذاكِرٌ غير ناسٍ.

• ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾:

اعْتَرَفَ مُوسَىٰ لِلْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِأَنَّهُ أَخَلَّ بِوَعْدِهِ، وسَأَلَهُ سُؤَالَ مُعْتَرِضٍ ذَاكِرٍ غَيْرِ نَاسٍ، لِأَنَّهُ وَجَدَ أَنَّ قَتْلَ غُلامٍ لَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ التَّكْلِيفِ كَبِيرَةٌ، لَا يَحْتَمِلُ رَسُولٌ مُبَلِّغٌ شَرْعَ اللهِ لِعِبَادِهِ أن يَسْكُتَ عَلَيْهَا صَابِراً.

ثُمَّ تَنَبَّهَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي أَجابَ طَلَبَهُ، بأَنْ يَلْتَقِي مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ فِي قَضَايَا لَمْ يُعْطِهِ اللهُ عِلْماً مِنْهَا، فرأىٰ أَنَّهُ تَجَاوَزَ حَدَّه، فَقَالَ لِلْخَضِرِ:

سَامِحْنِي بِهٰذِهِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ نِسْيَاناً، وَإِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ أَقْرَبِ الْقُرْبِ مِنِّي بِمُخَالَفَتِي مَا وَعَدْتُكَ بِهِ، مَا يَجْعَلُ لَكَ عُذْراً بِتَرْكِ مُصَاحَبَتِي.

لَدُن: ظَرْفٌ زَمَانِيٌّ وَمَكَانِيٌّ بِمَنْزِلَة «عِنْد» إِلَّا أَنَّهُ أَقْرَبُ من «عِنْد» وَأَخصُّ مِنْهُ.

• ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾:

جَاءَ في بيانِ الرَّسُولِ ﷺ عن الجدَارِ أَنَّهُ مَائِل. وجاء فيه بشَأْنِ إِقَامَةِ الْخَضِرِ لَهُ:

«فَقَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَقَامَهُ» أي: لَمْ يَحْتَجْ مِنَ الْخَضِرِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَدْفَعَهُ بِكَفِّهِ، فأَقَامَهُ مِنْ مَيَلَانِهِ، وَجَعَلَهُ مُسْتَقِيماً.

• ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾: أي: طَلَبَا مِنْ أَهْلِهَا أَنْ يُطْعِمُوهُمَا عَلَىٰ سَبِيلِ الضِّيَافَةِ المتَعَارَفِ عَلَيْهَا بَيْنَ النَّاسِ، فَأَبَوْا جَمِيعاً أَنْ يَضَيِّفُوهُمَا كَانُوا أَهْلَ قَرْيَةٍ بُخَلَاءَ لَا يُطْعِمُونَ ضَيْفاً يَأْتِيهِمْ.

وجاءَ في بيانِ الرَّسُول ﷺ:

«فَقَالَ مُوسَىٰ: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا، وَلَمْ يُضَيِّفُونَا: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لِنَسُدَّ بالأَجْرِ جُوعَنَا.

وَيَظْهَرُ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام قَدْ بَلَغَ مِنْهُ الْجُوعُ مَبْلَغاً كبيراً أَفْقَدَهُ الالْتِزَام بِوَعْدِهِ في هٰذِهِ الْمَرَّة.

• ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾: أي: يُرِيدُ أَنْ يَسْقُطَ، يُقَالُ لغة: «انْقَضَّ الْجِدَارُ» أي: سَقَط.

شُبِّهَ مَيْلُ الْجِدَارِ عَنِ اسْتِقَامَتِهِ، بِفِعْلِ مَنْ يَمِيلُ وَهُو يُرِيدُ أَنْ يَسْقُطَ عَلَىٰ الْأَرْض، واسْتُعِيرَ فِعْلُ «يُرِيدُ» للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ الْمَيْلِ الآيلِ إلى السُّقُوط، وهَـٰذِهِ مِنَ الاسْتِعَارَاتِ الْبَدِيعَةِ فِي البيان، وفيها إشَارَةٌ إلَىٰ أَنَّ مَيْلَ الْجِدَارِ قَدْ كَانَ مَيْلاً مُنْذِراً بالسُّقُوط.

• ﴿... قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾: أي: قَال موسَىٰ لِلْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلامُ: لَوْ شِئْتَ لَأَبْلَغْتَ أصْحَابَ الْجِدَارِ أَنْ تُقِيمَهُ لَهُمْ مُقَابِلَ أَجْرٍ نَأْكُلُ بِهِ طَعاماً، فَقَدْ بَلَغَ الْجُوعُ مِنَّا مَبْلَغاً مُضْنِياً.

عندئذٍ تَحَلَّلَ الخضرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن الْتِزَامِهِ بِمُصَاحَبَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام.

• ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾:

أي: وَتَمَّ الْفِرَاقُ بَيْنَ الْخَضِرِ ومُوسَىٰ عليهما السلام، وقالَ سَيِّدُنَا رَسُول اللهِ ﷺ في الحديث الصّحيح:

«وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ صَبَرَ حَتَّىٰ يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا».

• ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾: الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِمعْنَىٰ الْبَيْنِ هُنَا الاتِّصَال، أي: هـٰذَا سَبَبُ مَا عَزَمْتُ عَلَيْهِ مِنْ تَنْفِيذِ فِرَاقِ وَصْلِي مَعَ وَصْلِكَ.

• ﴿... سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾:

التأويل: الإرْجاع، يُقالُ لُغَةً: «أَوَّلَهُ تَأْوِيلاً» أي: رَدَّهُ وَأَرْجَعَهُ إِلَىٰ المكانِ الّذِي كانَ فِيهِ.

وَتأْوِيلُ الْأَفْعَالِ الَّتِي يَبْدُو في الظاهر أَنَّهَا أَعْمَالٌ مُسْتَنْكَرَة، يَكُونُ بإرْجَاعِ الذِّهْنِ عَنْ تَصَوُّرَاتِهِ، وَبَيَانِ أَسْبَابِهَا الْخَفِيَّةِ والغايَةِ مِنْ فِعْلها.

أي: سَأُخْبِرُكَ بِأَسْبَاب أفْعَالِي الَّتِي اسْتَنْكَرْتَها، وَلَمْ تَسْتَطِعْ صَبْراً عَلَىٰ السُّكُوتِ عَنْ سؤالِي عَنْهَا، مُخَالِفاً مَا وَعَدْتَنِي بِهِ مِن الصَّبْرِ، وَسَأُخْبِرُكَ بالْغَايَةِ مِنْهَا، قَبْلَ افْتِرَاقِنا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً الْفَصْلَ الْأَخِيرَ مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ والْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلَام، وَهٰذَا الْفَصْلُ يَتَضَمَّنُ بَيَانَ الْخَضِرِ لِمُوسَىٰ تَأْوِيلَ أَفْعَالِهِ الَّتِي أَجْرَاهَا، وَاسْتَنْكَرَهَا مُوسَىٰ بِحَسَبِ مَا يَعْلَمُ مِنْ أَحْكَامِ دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ:

• ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾:

هٰذِهِ التَّأْوِيلاتُ الَّتِي ذَكَرَهَا الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَكْشِفُ أَنَّ عِلْمَهُ الَّذِي آتَاهُ اللهُ إيَّاهُ، ولَمْ يُؤْتِ مِنْهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، عِلْمٌ يَتَعَلَّقُ بِبَعْضِ الْغَيْبِيَّاتِ، وَبَعْضِ الْأَوَامِرِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تَتعَلَّقُ بِتَصارِيفِ اللهِ بِعِبَادِهِ، مِمَّا هُوَ خَفِيٌّ وَهُوَ يَدْخلُ في عُمُومِ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه، وَهُوَ مِمَّا يُكَلِّفُ اللهُ مَلَائِكَتَهُ بِتَنْفِيذِه.

• ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾:

﴿أَمَّا﴾ حَرْفٌ فيه معْنَىٰ الشَّرْط والتَّوْكِيدِ دَائماً، وَفِيهِ معْنَىٰ التَّفْصِيلِ

غالِباً. وهـٰذَا الحرْفُ نَائِبٌ عَنْ أَداة الشَّرْطِ وَجُمْلَتِهِ، وَيُؤَوِّلُهُ النُّحَاةُ بِقَوْلِهِمْ: «مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شيْءٍ».

• ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾: «ال» في السَّفِينة هُنَا عَهْدِيَّة، أي: الَّتِي رَكِبْنَاهَا وَخَرَقْتُهَا بِقَلْعِ لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِهَا.

• ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾: أي: فَهِيَ لِمَسَاكِينَ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي، وَيَعْرِفُونَ بَعْضَ تَصَرُّفَاتِي المستَنْكَرَةِ فِي أَوَائِلِهَا والْمَحْمُودَةِ فِي غَايَاتِها.

فعل «كَانَ» يَأْتِي بِمَعْنَىٰ الوجُودِ الْحَالِيِّ، وَيُفَسَّرُ بنَحْو مَا ذَكَرْتُ، أي: فَهِي لِمَساكين.

• ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾: أي: لِفُقَرَاءَ يَظْهَرُ من حَالِ مَسْكَنَتِهِمْ أَنَّهُمْ فُقَراء.

ظهر لي من استقراء النُّصُوصِ وسَبْرِ دَلَالَاتِها، أَنَّ الْفَقِيرَ مَنْ كانَ ذَا حَاجَةٍ حقيقيّةٍ لِنَفقاتِهِ، ونفقات مَنْ يَعُولُهُمْ، سواءٌ أكانَ مُعْدَماً أو دُونَ ذلِكَ إِلَىٰ ما دُونَ الكِفايَة، ولَكِنْ قَدْ لَا تَكُونُ هَـٰذِهِ الحاجَةُ ظَاهِرَةً عَلَيْهِ، فَيَحْسَبُهُ الجاهِلُ بحَالِهِ غَنِيًّا من تعفُّفِهِ، وأَصْلُ الافْتِقَارِ إلى الشَّيْءِ الحاجَةُ إِلَيْه.

وأَنَّ المسْكِينَ هُوَ مَنْ كانَ ظاهِرُ حَالِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ ذُو حَاجَةٍ، أو بادّعَائِهِ أَنَّهُ ذُو حاجَة لنَفقَاتِه، ورُبَّما يَكُونُ في واقِعِ حَالِهِ عَلَىٰ خِلافِ مَا يُظْهِرُ بأقواله أو بأعْمَاله.

فالْمَسْكَنَةُ صِفَةٌ تَظْهَرُ عَلَىٰ الإنْسَان، تُشْعِرُ بأَنَّهُ فَقِيرٌ ذُو حَاجَةٍ، سواءٌ أَكان صَادِقاً بِمَسْكَنَتِهِ أَمْ كاذِباً فيها.

وهـٰذَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْفَقِيرِ والمسْكِينِ هُو مَا يُفْهَمُ مما رُوِي عن ابْنِ عباسٍ، فقد روى ابْنُ المنْذِرِ والنَّحَّاسُ عَنْهُ أَنَّهُ قال: «الْفُقَرَاءُ فُقَرَاءُ المسْلِمِينَ، والْمَسَاكِينُ الطَّوَّافُونَ».

• ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾: أي: فَأَرَدْتُ أَنْ أجْعَلَ فِيهَا عَيْباً، لِأَحْمِيَهَا وَأَحْمِيَ أصْحَابِهَا مِنْ مَلِكٍ غَاصِبٍ جَبَارٍ، يَأْخُذُ بالْقَهْرِ كُلَّ سَفِينَةٍ غَيْرِ مَعِيبَةٍ غَصْباً، وَأَصْحَابُهَا يَعْرِفُونَنِي وَلَا يَعْتَرِضُونَ عَلَىٰ أفْعَالي.

وَسَأَلْتُ رَبِّي، فَأَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ أَفْعَلَ مَا أَرَدْتُ فِعْلَهُ في السَّفِينَةِ.

• ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾:

• ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾: أَي: وَرَاءَ نِهَايَةِ مَدِّ بَصَرِهِمْ، كَمَا تَقُول: وَرَاء هٰذَا الْجِدَارِ الّذِي هُوَ أَمَامِي يُوجَدُ كَذا.

الْغَصْبُ: أَخْذُ مَالِ الآخَرِينَ ظُلْماً بالْقَهْرِ والْغَلَبَةِ.

أي: وَيُوجَدُ وَرَاءَ مَا تُدرِكُ أبْصَارُهم مَلِكٌ جَبَّارٌ ظَالِمٌ، يأخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ تَمرُّ في مَدَىٰ سُلْطَانِهِ الْبَحْرِيِّ، بالْقَهْرِ والْغَلَبَةِ، إِذَا كانَتْ غَيْرَ مَعِيبَةٍ، فَقُمْتُ بإِحْدَاثِ عَيْبٍ في سَفِينَتِهِمْ، لَا يُسَبِّبُ إغْرَاقاً لَهَا وَلِأَهْلِهَا، لِأَحْمِيَهَا مِنْ غَصْبِهِ، وَأَعْلَمُ أَنَّ أصْحَابَهَا مَسَاكِين، لا يَكْفِي دَخْلُ سَفِينَتِهِمْ مَا يَحْتَاجُونَ مِنْ نَفَقَةٍ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِأُسرهم.

• ﴿وَأَمَّا الْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾:

جاء في بيان الرسُول ﷺ الَّذي سبَقَ ذِكْرُهُ أَنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبعَ كَافِراً.

وقَدْ دَلَّتْنَا النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ الكَثِيرَة جِدّاً، عَلَىٰ أَنَّ الَّذِينَ يُوضَعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ اعْتِبَاراً مِنْ سِنِّ التَّكْلِيفِ، ذَوُو إرَادَاتٍ حُرَّةٍ وهُمْ غَيْرُ مَجْبُورِينَ بالطَّبْعِ عَلَىٰ إيمَانٍ أَوْ كُفْرٍ.

ونَفْهَمُ مِن هٰذَا أَنَّ مَنْ طُبعَ عَلَىٰ الكُفْرِ فِي نَشْأَتِهِ لِحِكْمَةٍ يُرِيدُها اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لَا يُبْقِيهِ اللهُ حَيّاً حَتَّىٰ يَدْخُلَ سِنَّ التَّكْلِيفِ،

وَهُوَ كَافِرٌ مَجْبُورٌ مفطُورٌ عَلَىٰ الْكُفر، لِأَنَّهُ لَيسَ مِنْ حِكْمَتِهِ وَلَا مِن عَدْلِهِ أَنْ يُعَاقِبَ وَيُجَازِيَ عَلَىٰ الكُفرِ مَنْ فطرَهُ هُوَ عَلَيْهِ.

وَإِذْ عَلِمَ الْخَضِرُ مِمَّا آتاهُ اللهُ مِنْ بَعْضِ عِلْمِ الْغَيْبِ أَنَّ الْغُلَامَ فُطِرَ كَافِراً، وَهُوَ مَا زَالَ دُونَ سِنِّ التَّكْلِيفِ، اسْتَشَارَ مَنْ يُوحِي إِلَيْهِ مِنْ مَلَكٍ أَوْ أَكْثَرَ بِأَنْ يَأْذَنَ اللهُ لَهُ بِقَتْلِهِ لِئَلَّا يَحْمِلَ أَبَوَاهُ الْمُؤْمِنَانِ مَتَاعِبَ طُغْيانِ وَلَدِهِمَا وَمَتَاعِبَ كُفْرِهِ، وَهُوَ فِي حَضَانَتِهِمَا وَتَحْتَ رِعَايَتِهِمَا، وَبِأَنْ يَقْبَلَ دُعَاءَهُمْ بِأَنْ يُبْدِلَهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً.

- ﴿زَكَوٰةً﴾: أي: طَهَارَةً وَبَرَاءَةً مِنَ الكُفْرِ والإثْمِ والْعِصْيان.
- ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾: أي: وأَقْرَبَ لِوَالِدَيْهِ عَطْفاً وَشَفَقَةً وَرَحْمَةً. وفي القراءة الأخرى [رُحُماً] ومعْنَىٰ القراءتَيْنِ واحد.

فَأَذِنَ اللهُ بِقَتْلِ الْغُلَام، وَسَأَلَ هُوَ وَمَنْ يُوحِي لَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ اللهَ أَنْ يُبْدِلَ وَالِدَيْهِ وَلَداً آخر خَيْراً مِنْ قَتِيلِ الْخَضِرِ زَكَاةً وَأَقْرَبُ لِوَالِدَيْهِ عَطْفاً وَشَفَقَةً وَرَحْمَةً.

وَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ بِقَتْلِ الْغُلَام، وَيَظْهَرُ أَنَّهُ أَوْحَى لَهُ أَيْضاً بأَنَّهُ اسْتَجَابَ دُعَاءَهُمْ بِأَنْ يُبْدِل وَالِدَيْهِ خَيْراً مِنْهُ.

فَالْقَضِيَّةُ كُلُّهَا مِنْ تَصَارِيفِ اللهِ، وَكَانَ الْخَضِرُ فِيهَا مُعَلَّماً عَنْ طَرِيق الوَحْي، وَمَأْمُوراً مِنَ اللهِ بالتَّنْفِيذِ، فَلَا إِشْكَالَ في مُخَالَفَةِ مَا فَعَلَهُ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَام، لِمَا في الشَّرِيعَةِ الَّتِي آتاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ أَحْكَام، وتَلْعَبُ هُنَا أَهْوَاءُ مُدَّعِي عُلُومٍ غَيْبِيَّةٍ، ومُنَفِّذِي أَفْعَالٍ يُرْضُونَ بِهَا أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَمَطَالِبَ نُفُوسِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنْيا، بِمَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مُتَسَتِّرِينَ بادِّعَاءَاتٍ كَاذِبَاتٍ يَزْعُمُونَ فِيهَا أَنَّ اللهَ آتاهُمْ مِنْ عِلْم الْغَيْبِ مَا لَمْ يُؤْتِ غَيْرَهُمْ، كَمَا آتَىٰ الْخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ اللهَ أَذِنَ لَهُمْ بارْتِكَاب مُخَالَفَاتٍ شَرْعِيَّةٍ، كَمَا أَذِنَ لِلْخَضِرِ بِقَتْلِ الْغُلَام.

• ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾:

جَاءَتْ هُنَا تَسْمِيَةُ الْقَرْيَةِ الَّتِي اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يَضَيِّفُوهُمَا باسْم المدينَةِ، لِأَنَّ لفظ القرية يُطْلَقُ لُغَةً عَلَىٰ كُلِّ أَرْضٍ فيها بُيُوتٌ وَمَسَاكِنُ مُجْتَمِعَة، قَلَّتْ أَمْ كَثُرَتْ، وَلَوْ بَلَغَتْ مَدِينَةً عظيمَةً جدًّا.

في حَادِثَةِ السَّفِينَةِ وخَرْقِهَا أَبَانَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَرَادَ هُوَ أَنْ يَعِيبَهَا، لِيَحْمِيهَا مِنْ غَضَبِ الْمَلِكَ الجبّارِ، رَحْمَةً بأَصْحَابِهَا الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ يَعْرِفُ أَحْوَالَهُمْ وَهُمْ يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ. أي: فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يَخْرِقَهَا بِقَلْعِ لَوْحٍ مِنْهَا، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ بِأَنْ يَفْعَلَ مَا أَرَادَ، فَكَانَ مَا فَعَلَهُ فِيهَا تَنْفِيذاً لِأَمْرِ اللهِ، وَلَمْ يَكُنْ صَادِراً عَنْ أَمْرِهِ، دُونَ أَمْرٍ مِنَ اللهِ لَهُ بِذَلِكَ.

وَفِي حَادِثَةِ الْغِلَامِ وَقَتْلِهِ عَلِمَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ طَرِيقِ الوَحْيِ أَنَّهُ طُبِعَ كَافِراً، وَأَنَّ أَبَوَيْهِ مُؤْمِنَانِ، فَخَشِيَ أَنْ يُحَمِّلَ أَبَوَيْهِ مَتَاعِبَ طُغْيَانِهِ وَكُفْرِهِ، فَرَغِبَ أَنْ يَقْتُلَهُ وَأَنْ يُبْدِلَهُمَا اللهُ خَيْراً مِنْه، وَلَمَّا كَانَ الْقَتْلُ لِغُلَامٍ لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ التَّكْلِيفِ أَمْراً مُسْتَنْكَراً جدًّا في مَفَاهِيم كُلِّ النَّاس، اسْتَشَارَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَام مَنْ يُوحِي إِلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، بِشَأْنِ قَتْلِهِ وَأَنْ يُبْدِلَ اللهُ وَالِدَيْهِ خَيْراً مِنْهُ، فَتَطَابَقَتْ آرَاءُ الْفَرِيقَيْنِ عَلَىٰ الرَّغْبَتَيْنِ. أي: فَسَأَلَ الْخَضِرُ رَبَّهُ أَنْ يَقْتُلَ الْغُلَامَ وَأَنْ يُبْدِلَ وَالِدَيْهِ خَيْراً مِنْهُ، فَأَوْحَىٰ الله إِلَيْهِ بِأَنْ يَقْتُلَهُ، فَكَانَ مَا فَعَلَهُ الْخَضِرُ مِنْ قَتْلِ الْغُلَام تَنْفِيذاً لِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، وَلَمْ يَكُنْ صَادِراً عَنْ أَمْرِه، دُونَ أَمْرٍ مِنَ اللهِ لَهُ بِذَلِكَ.

وَفِي حَادِثَةِ الجِدَارِ المائِلِ وَإِقَامَةِ الخضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ بِيَدِهِ، فَقَدْ عَلِمَ الْخَضِرُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، أَنَّهُ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ في المدِينَةِ، وَأَنَّهُ يُوجَدُ تَحْتَهُ كَنْزٌ قَضَىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا إِذَا كَبِرَا وَبَلَغَا أَشُدَّهُمَا، وَأَنْ

يَسْتَخْرِجَاه رَحْمَةً وَعَطَاءً مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْخَضِرِ فِي هٰذِهِ الحادِثَةِ إرَادَةٌ بِأَنْ يُقِيمَ هٰذَا الجدار المائل، إِلَّا أَنَّهُ تَلَقَّىٰ أَمْراً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يُقِيمَهُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ امْتِثَالاً لِأَمْرِ اللهِ.

لَكِنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ شِدَّةِ جُوعِهِ، ورفْضِ أَهْلِ الْقَرْيَةِ أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ويُطْعِمُوهُمَا، لَمْ يَخْطُرْ فِي بَالِهِ أَنَّ إقَامَةَ الْخَضِرِ لِلْجِدَارِ قَدْ كَانَ بِأَمْرٍ مِن اللهِ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، فَقَالَ لِلْخَضِرِ مُعْتَرِضاً: ﴿... لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾: أَيْ: وَأَقَلُّهُ أَنْ يُطْعِمُونَا.

• ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: أي: وأَمَّا حَادِثَةُ الْجِدَارِ فَهُوَ مِلْكُ غُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَة، وَيَظْهَرُ أَنَّ هٰذِهِ الْقَرْيَةَ كَانَتْ كَبِيرَةً يَصِحُّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهَا لفظ «مَدِينَة» فِي عُرْفِ أَهْلِ ذَلِكَ العصر.

والْغُلَامَان كَانَا دُونَ سِنّ الْبُلُوغ.

الْيَتِيمُ: الصغير الذي مَاتَ أبوهُ مِنَ النَّاس، ويَبْقَىٰ يَتِيماً حتَّىٰ يَبْلُغَ الْحُلُم.

• ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾: أي: وَكَانَ تَحْتَ الْجِدَارِ مَالٌ مَدْفُونٌ مُخَبَّأٌ لَهُمَا مِنْ أَبِيهِمَا أَوْ مِن أَحَدِ مُوَرِّثِهِمَا، أَوْ مَقْضِيٌّ من اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِأَنْ يَكُونَ لَهُمَا.

• ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾: أي: وَكَانَ أَبُوهُمَا رَجُلاً صَالِحاً، وَرُبَّما كَانَ قَدْ دَفَنَ الكَنْزَ لَهُمَا، وَسَأَلَ الله أَنْ يَسْتَخْرِجَاهُ، وَيُنْفِقَا مِنْهُ لِحَيَاتِهِما، وَاسْتَجَابَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ دُعَاءَ أَبِيهِمَا الرَّجُلِ الصَّالح.

• ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾:

• ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾: أَيْ: أَنْ يَكْتَمِلَ نُضْجُهُمَا الإنْسَانِي. **أَشُدُّ** كُلِّ شَيْءٍ اكْتِمَالُ تَنَامِيهِ، بِحَسَبِ صِفَاتِهِ القابِلَةِ للاكْتِمَالِ.

• ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: أي: عَطَاءً مِنْ رَبِّكَ رَحِمَهُمَا اللهُ بِهِ إكْرَاماً لِأَبِيهِمَا. أي: فَأَوْحَىٰ إلَيَّ بِأَنْ أُقِيمَ الجدَارَ فَأَقَمْتُهُ طَاعَةً لِأَمْرِه.

• ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾: أيْ: وَمَا فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ مِنْ أَحْدَاثِ السَّفِينَةِ والْغُلَامِ والْجِدَار عَنْ إرَادَتِي وَرَغْبَتِي، وَإِنَّمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِ اللهِ رَبِّي.

فمِنْهُ مَا رَغِبْتُ فِيهِ فَسَأَلْتُ اللهَ رَبِّي، فَأَذِنَ لِيَ أَنْ أَفْعَلَهُ عَن طَرِيق الْوَحْي.

وَمِنْهُ مَا جَاءَ أَمْراً مِنْ رَبِّي دُونَ طَلَبٍ سَابِقٍ مِنِّي، فَفَعَلْتُهُ طَاعَةً وامْتِثَالاً.

• ﴿... ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: الْمُشَارُ إلَيْهِ مَا جَاءَ بَيَانُهُ في الآيَات (٧٩) و(٨٠) و(٨١) وبَعْضِ الآيَة (٨٢).

أي: ذَلِكَ تَأْوِيلُ الْأَفْعَالِ الَّتِي بَدَا لَكَ يَا مُوسَىٰ مِنْ ظَاهِرِهَا أَنَّهَا أَفْعَالٌ مُسْتَنْكَرَةٌ، أَوْ كَانَ غَيْرُهَا أَوْلَىٰ مِنْهَا كإِقَامَةِ الْجِدَارِ، أَبَنْتُ لَكَ أَسْبَابَهَا الَّتِي كَانَتْ خَفِيَّةً عَلَيْكَ، وأَبَنْتُ لَكَ الْغَايَةَ مِنْ فِعْلِهَا، وَأَبَنْتُ لَكَ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ شَيْئاً مِنْهَا عَنْ أَمْرِي، وَإِنَّمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِ اللهِ رَبِّي بِمَا أَوْحَىٰ إِلَيَّ.

وَهَـٰذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ الأَفْعَالِ الَّتِي لَمْ تَتَحَمَّلْهَا، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَصْبِرَ عَلَيْهَا، فَتَضْبَطَ نَفْسَكَ وتَمْنَعَ لِسَانَكَ مِنَ السُّؤَالِ عَنْهَا، عَلَىٰ خِلَافِ وَعْدِكَ الَّذِي وَعَدْتَنِيهِ في بَدْءِ رِحْلَتِنَا.

وَلَمَّا كَانَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ عَزْمِ الْفِرَاقِ حَالاً أَشَارَ إلَىٰ اسْتِعْجَالِهِ الْفِرَاقَ بِعِبَارَة «تَسطِعْ» بَدَلَ «تَسْتَطِعْ» وَهَـٰذَا مِنَ الْإِيجاز بالْحَذْفِ عَلَىٰ غَيْرِ قِيَاس.

وانْطَلَقَ الْخَضِرُ مُفَارِقاً مُوسَىٰ عَلَيْهِمَا السّلام.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثامِن من دُرُوس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(١٣)

التدبُّر التحليلي للدَّرس التاسع من دُروس سورة (الكهف)

الآيات من (٨٣ ـ ٩٩)

قال اللهُ عزَّ وَجلَّ:

﴿ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا (٨٣) إنا مكنا
له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا (٨٤) فأتبع سببا (٨٥) حتى إذا بلغ مغرب
الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب
وإما أن تتخذ فيهم حسنا (٨٦) قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه
فيعذبه عذابا نكرا (٨٧) وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من
أمرنا يسرا (٨٨) ثم أتبع سببا (٨٩) حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم
لم نجعل لهم من دونها سترا (٩٠) كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا (٩١) ثم أتبع
سببا (٩٢) حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا
(٩٣) قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على
أن تجعل بيننا وبينهم سدا (٩٤) قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم
وبينهم ردما (٩٥) آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا
جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا (٩٦) فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا
له نقبا (٩٧) قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا
(٩٨) وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾:

القراءات:

(٨٥) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [فاتَّبَعَ سَبَباً].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَأَتْبَعَ سَبَباً].

اتَّبعَ، وأَتْبَعَ: كِلَاهما بمعنى: تَبعَ.

(٨٦) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وحفص، ويعقوب: [حَمِئَةٍ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [حَامِيَةٍ].

«حَمِئَة»: أي: ذَاتُ حَمَأٍ وهو الطّينُ الأسود المُنْتِنُ. «حَامِيَة» أي: شديدة الحرارة، فَبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ فِكْرِيٌّ.

(٨٧) • قرأ نافع، وابن ذكوان، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب: [نُكُراً] بضم الكاف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نُكْراً] بإسكان الكاف.

«نُكُراً» و«نُكْراً» لُغَتَانِ بمَعْنَىٰ الأَمْرِ الشّدِيد الصَّعْب.

(٨٨) • قرأ نافع، وٱبْن كثير، وأبو عمْرو، وابْن عامر، وشعبة، وأبو جعْفر: [جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ] على الإضافة، أي: الجنة الحسنىٰ، أو المثوبَةِ الحسنَىٰ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [جَزَاءً الْحُسْنَىٰ]: أي: فلَهُ الحسْنَىٰ جزاءً.

(٨٩ و٩٢) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: [ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَباً] في الموضِعَيْن.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً] في الموضعين.

«اتَّبَعَ» و«أَتْبَعَ»: كِلاهما بمعنى: «تَبعَ».

(٩٣) • قَرَأَ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وحفص: [السَّدَّيْنِ] بفتح السّين المشَدَّدة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [السُّدَّيْنِ] بضمّ السّين المشَدَّدة.

وهما لُغَتَان، يقال: «سُدّ» و«سَدّ».

(٩٣) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: [**يُفْقِهُونَ**] بضم الياء وكَسْر القاف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَفْقَهُونَ**].

وبين القراءتَيْنِ تكامل، إذْ هُمْ قَومٌ لَا يَعْرِفُونَ لُغَاتِ النَّاس. فَلَا يَفْقَهُونَ كَلَامَ الأقوام غيرهم، وَلَهُمْ لُغَةٌ خَاصَّةٌ بِهِمْ لَا يَعْرِفها غَيْرُهم.

(٩٤) • قرأ عاصم: [**يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَاجُوجَ ومَاجوجَ**] بإبْدالِ الهمزة ألفاً في اللَّفْظَتَيْن.

وهما نُطْقَان لاسم هؤلاء الْقَوْم.

(٩٤) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: [**خَرَاجاً**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**خَرْجاً**].

«**الْخَرْجُ**» و«**الْخَرَاجُ**» مَا يُبْذَلُ مِنْ مَالٍ أجْراً علىٰ عَمَلٍ مَا، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الجزْيَةِ، ونَحْوِ ذَلِك.

(٩٤) • قرأ نافع، وابْنُ عَامر، وشُعبَة، وأَبُو جَعْفر، ويعقوب: [**سُدّاً**] بِضَمِّ السّين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**سَدّاً**] بِفَتْحِ السين.

وهُمَا لغتان لمعْنًى واحد.

(٩٦) • قرأ ابْنُ كثير، وأبُو عمرو، وابْنُ عَامر، ويعقوب: [**الصُّدُفَيْنِ**] وقرأها شُعْبة: [**الصُّدْفَيْنِ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الصَّدَفَيْن**].

«الصَّدَفُ» و«الصُّدْفُ» و«الصُّدُف»: لُغَاتٌ بمعنى «الجبل» وكُلِّ بِنَاءٍ عَظِيمٍ مُرْتَفِعٍ.

(٩٨) • قرأ عَاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [دَكَّاءَ] أي: مُسْتَوِياً بالْأَرْض.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [دَكًّا] مَصْدَرُ «دَكَكْتُه» وهو بمعنى اسم المفعول، أي: مُدْكُوكاً.

الدَّكُّ: الدَّقُّ والتكْسِيرُ والْهَدْم.

فَمُؤَدَّى القراءَتَيْنِ وَاحد.

تَمْهِيد: في آيات هٰذَا الدَّرْس بَيَانُ المقْصُودِ الإعْلام بِهِ مِنْ قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْن.

مَنْ هُوَ ذُو القرنَيْنِ؟

لَيْسَ لَدَيْنا فِي التَّارِيخ مَا يُحَدِّدُ اسْمَهُ، ولا نَشْأَتَهُ، وَلَا مِنْ أَيِّ قَوْمٍ هُو، وَلَا الزَّمَنَ الَّذِي كانَتْ حَيَاتُهُ فيه، وَقَدْ خَلَّطَ النَّاسُ بِشَأْنِهِ تَخْلِيطَاتٍ لَا تَعْتَمِدُ عَلَىٰ أَسَانِيدَ صَحِيحَة، فينْبَغِي الإعْرَاضُ عَنْهَا، وَعَدَمُ تَسْوِيدِ صَفَحَاتٍ وَلَا أَسْطُرٍ بِذِكْرِهَا.

إِنَّهُ كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ كَمَا يلي:

(١) مَلِكٌ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ فَاتِح عظيم.

(٢) قَدْ مَكَّنَ اللهُ لَهُ فِي الْأَرْض.

(٣) آتَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كُلِّ شيءٍ يَحْتَاجُهُ لِمِلْكِهُ وفُتُوحَاتِهِ بِحَسَبِ تَطَوُّرَاتِ الْعَصْرِ الَّذِي وُجِدَ فِيهِ سَبَباً، يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَىٰ تَثْبِيتِ مُلْكِهِ، وَتَحْقِيقِ طُمُوحَاتِهِ فِي التَّوَسُّعِ والإِصْلَاحِ، وإِقَامَةِ الْعَدْلِ.

(٤) أَنَّهُ كَانَ يَتَلَقَّىٰ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصَايَا، إِمَّا بِالْوَحْيِ المبَاشِرِ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ نَبِيٍّ كَانَ مَعَهُ فِي مَسِيراته، وَعَلى فَرْض أَنَّهُ كَانَ يُوحَىٰ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً فَهُوَ نَبِيّ، واللهُ أَعْلَمُ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

• ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾:

الْفِعْلُ في: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ دَلَّ عَلَىٰ تَكْرَارِ سُؤَالِهِمْ، لِأَنَّهُ فِعْلٌ مضارع يفيد التكرار كما يقول عُلماءُ البلاغة.

• ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾: أي: عَنْ قِصَّةِ الملِكِ الفاتِحِ الْمَعْرُوفِ بأَنَّهُ ذُو الْقَرْنِين.

وذكَرُوا في سَبَبِ تَسْمِيَتِهِ بذي الْقَرْنَيْنِ عِدَّة آراء، أَقْرَبُها:

(١) أَنَّهُ كَانَ ذَا ضَفِيرَتَيْنِ مِنَ الشَّعرِ، يُلازِمُ الاعْتِنَاءَ بِهِمَا والمحافَظَةَ عَلَيْهِمَا، وإِطْلَاقُ لَفْظِ الْقَرْنِ على الضَّفِيرة من شَعَر الرأْسِ إِطْلَاقٌ شَائِعٌ، وَتُسَمَّىٰ أَيْضاً ذُؤَابَة.

(٢) أَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ عَلَىٰ رَأسِهِ خُوذَةً مِنْ نُحَاسٍ لَهَا قَرْنَانِ كَقَرْنَيْ كَبْشٍ.

إلى غَيْرِهما مِنْ أَقْوَالٍ لَا دَلِيلَ عَلَىٰ شيءٍ مِنها، واللهُ أعلم.

وَيَظْهَرُ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَانَ قُصَّاصَهُمْ يَحكون حِكَايَاتٍ عَنْ مَلِكٍ عظيم مَشْهُورٍ بأَنَّهُ «ذُو الْقَرْنَيْنِ» فَكَرَّرُوا سُؤَالَهُمْ للرَّسُولِ ﷺ عَنْه، وَلَمْ يثْبُتْ أَنَّ الْيَهُودَ هُمُ الَّذِينَ سَأَلُوا هـٰذَا السُّؤَال، أَوْ قَالُوا لِبَعْضِ كُبَراءِ مَكَّةَ مِنْ معارِفِهِمْ أن يَسْأَلُوا محمَّداً هـٰذَا السُّؤَال.

• ﴿... قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾: أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ للسَّائِلِينَ عَنْ ذي الْقَرْنَيْنِ: سَأَتْلُو مِمَّا سيُنْزِلُ عَلَيَّ رَبِّي فِي كِتَابِهِ الْقُرْآنِ مِنْ أَخْبَارِهِ ذِكْراً مَا، بَعْضَ ذِكْرٍ، فلفظ «مِنْ» مِنْ عِبارة: ﴿مِنْهُ﴾ للتَّبْعِيضِ.

أي: سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْ أخْبارِهِ بَيَاناً نَافِعاً، يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ ذِكْراً تَتَذَكَّرُونَهُ عِنْدَ المُنَاسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ لتَذَكُّره، لِيَكُونَ هَادِياً لَكُمْ وَنَافِعاً وَمُرْشِداً للاسْتِقَامَةِ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ، وَلِتَعْرِفُوا مِيزَةَ الْمَلِكِ الصَّالِحِ الْمُصْلِحِ العادِلِ الرَّشِيدِ، الْمَهْدِيّ بِهِدَايَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَالمؤيَّدِ بِتَأْيِيدٍ مِنْ لَدُنْهُ، وَالْمُمَكَّنِ لَهُ فِي الْأَرْضِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بَادِئاً بِالْحَدِيثِ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْن:

• ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾:

التَّمْكِينُ فِي الْأَرْض: الإقْدَارُ عَلَىٰ التَّصَرُّفِ الموصِلِ إِلَىٰ تَحْقِيقِ المطلوب، مَعَ التَّثبيتِ في مكانِ الْقُدْرَةِ، والإقْدَارُ عَلَىٰ التَّحَرُّكِ فِيهِ بِحُرِّيَّة، وأَصْلُهُ مَأْخُوذٌ مِنَ المكان والثبات فيه، فالتَّمْكِينُ فِي المكانِ إِقْدَارٌ عَلَىٰ امْتِلَاكِهِ، وَعَلَىٰ الثَّبَاتِ فِيهِ، مَعَ حُرِّيَّةِ التَّصرُّفِ دُونَ وُجودِ قُوَّةٍ أُخْرَى مُعَوِّقَةٍ أَوْ غالِبَةٍ.

والتَّمْكِينُ لِمَلِكٍ مَا فِي الْأَرْضِ جَعْلُ مُلْكِهِ قَوِيًّا ثَابِتاً، لَا يَطْمَعُ بإزَاحَتِهِ عَنْهُ الطَّامِعُونَ وَلَا المنافِسُونَ، إِذْ لَا يَمْلِكُونَ الْقُدْرَةَ الكافِيَة الْقَادِرَة عَلَىٰ إزاحَتِهِ، أو التَّغَلُّبِ عَلَيْه.

وَقَدْ دَلَّ هٰذَا الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدْ مَكَّنَ لِذِي الْقَرْنَيْنِ مُلْكَهُ فِي الْأَرْضِ فَكَانَ مَلِكاً فَاتِحاً امْتَدَّ مُلْكُهُ حَتَّىٰ آخِرِ الْمَعْمُورِ مِنَ الْأَرْضِ فِي اتِّجاهِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ، ثُمَّ حَتَّىٰ آخِرِ المَعْمُورِ أَوِ الْمُسْكُونِ مِنَ الْأَرْضِ فِي اتِّجاه مَشْرِقِ الشَّمْس.

• ﴿... وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾:

السَّبَبُ: يُطْلَقُ أَصْلاً عَلَىٰ الحبْلِ، ثُمَّ جَرَىٰ التَّعْمِيمُ في الإِطْلَاقِ، فَصَارَ يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ.

أي: وآتَيْنَاهُ بِتَقْدِيرنا وقضائِنَا وَخَلْقِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُهُ لِتَثْبِيتِ مُلْكِهِ، وَتَحْقِيقِ طُمُوحَاتِهِ فِي الفُتُوحِ والعِمْرَان، وإِقَامَةِ الْحَقِّ والْعَدْلِ، سَبباً يُوصِلُهُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ مَا يَعْزِمُ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ مَا تَطَوَّرَ إِلَيْهِ النَّاسُ فِي عَصْرِهِ مِنْ وَسَائِلَ وَأَسْبَابٍ، لَا مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وَسَائِلَ وَأَسْبَابٍ وقُوى.

فعُمُومُ عِبَارَةِ: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مَخْصُوصَةٌ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ زَمَنِهِ بالأَسْبَابِ الَّتِي كَانَ النَّاسُ قَدْ تَوَصَّلُوا إِلَيْهَا فِي تَطَوُّرِهِمُ الْحَضَارِي، وَمِثْلُ هٰذَا مِمَّا تُخَصَّصُ بِهِ عُمُومَاتُ النُّصُوص.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيث عَنْ ذِي الْقَرْنَيْن:

• ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾:

• ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)﴾: فعل: «**أَتْبَعَ**» يأتي بمَعْنَيَيْنِ:

المعنى الأوَّل: يُقَالُ فيه: «أَتْبَعَ الشَّيْءَ» أي: تَبِعَهُ، سَارَ في أَثَرِه، تَلاهُ.

المَعْنَىٰ الثَّاني: يُقَالُ فِيهِ «أَتْبَعَ فُلَانٌ الشَّيْءَ شَيْئاً آخَرَ» أي: جَعَلَهُ يَتْبَعُهُ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ.

فعَلَىٰ المعْنَىٰ الأَوَّلِ، نَفْهَمُ مِنَ الْعِبَارَةِ أَنَّهُ تَبِعَ سَبباً مِنَ الأَسْبَابِ الَّتِي آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، لِتَحْقِيقِ طُمُوحٍ مِنْ طُمُوحَاتِهِ فِي الْفَتْحِ لِنَشْرِ دِينِ اللهِ فِي الأَرْضِ.

وَعَلَىٰ المَعْنَىٰ الثَّانِي، نَفْهَمُ مِنَ الْعِبَارَةِ أَنَّهُ وَضَعَ هَدَفاً مِنْ أَهْدَافِهِ فِي الْفَتْحِ، واتَّخَذَ لَهُ سَبباً مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، وأَتْبَعَ السَّبَبَ هَدَفَهُ لِتَحْقِيقِهِ.

والْمُرَادُ بالسَّبَبِ جِنْسُ السَّبَب الْمُحَقِّقِ لِلْهَدَفِ، إِذْ قَدْ يَكُونُ مُؤَلَّفاً مِنْ عِدَّةِ أَسْبَابٍ قَدْ تَكُونُ كَثِيرَةً جدًّا.

فَالسَّببُ الَّذِي يَجِبُ اتّخَاذُهُ لِفَتْحِ الْبِلَادِ وَنَشْرِ الْحَقِّ والْعَدْلِ والْعِمْرَانِ فيها، يَتَأَلَّفُ مِنْ أَسْبَابٍ يَصْعُبُ إِحْصَاؤها، مِنْهَا إِعْدَادُ الْجُنْدِ وَقَادَتِهم، وَإِعْدَادُ مَرَاكِب الْجُنْدِ مِنْ خُيُولٍ وعَرَبَاتٍ ونحوها. وإِعْدَادُ الْأَسْلِحَةِ عَلَىٰ اخْتِلَافِها، وإِعْدَادُ مَا يَحْتَاجُهُ الْجُنْدُ مِنْ طَعَامٍ وشِرَابٍ وَذَخَائِر، وَتَهْيِئَةُ الطُّرُقَاتِ والْمَسَالِكِ وَالْمَدَاخِلِ وَالْمَخَارِجِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ كَثِيرةٍ يَعْرِفُهَا المتخرِّجُونَ مِنَ الْكلِّيَّاتِ الْحَرْبِيَّة، وهَـٰذِهِ تَتَطَوَّرُ بِحَسَبِ الارْتِقَاءِ الْحَضَارِيِّ للشُّعُوبِ.

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾: أي: واسْتَمَرَّ يَتَّخِذُ أَسْبَابَهُ وَيَتَّبِعُهَا بِجَيْشِهِ الْعَظِيم، حَتَّىٰ بَلَغَ آخِرَ الْمَأْهُولِ بالسُّكَّانِ مِنْ جِهَةِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا كَانَ مَعْلُوماً لِأَهْلِ زَمَانِهِ.

• ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾: وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَىٰ: **[في عين حامية]**: أي: في عَيْنٍ حَارَّةٍ شَدِيدَةِ الحرارة، وهِي ذَاتُ «حَمأٍ» وهُو الطِّينُ الْأَسْوَدُ المُنْتِنُ.

المَرادُ بالْعَيْنِ مَا يَنْبَعُ مِنَ الْأَرْض.

أي: وَتَوَقَّفَ عِنْدَ هَـٰذِهِ الْعَيْنِ، إِذْ وَجدَهَا آخِرَ مَا يَسْتَطِيعُ جَيْشُهُ أَنْ يَعْبُرَهُ مِنَ الأَرْضِ، بالنِّسْبَةِ إلى الطُّرُقِ والْمَسَالِكِ الْمَعْرُوفَةِ فِي زَمَانِهِ.

وَهَـٰذِهِ الْعَيْنُ الكَبِيرَةُ يَأْتِي بَعْدَهَا بَحْرٌ عَظِيمٌ، فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمسُ ظَهرَ لِلنَّاظِرِينَ أَنْهَا تَنْغَمِسُ فِي هَـٰذَا الْبَحْرِ، وَلَمَّا كَانَتِ الْعَيْنُ الْحَمِئَةُ تَقَعُ فِي

أَوَائِلِ هـٰذَا الْبَحْرِ الْعظِيم، فَلَا بُدَّ أَنْ يَجِدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ، إذْ يَقَعُ فِي تَصَوُّرِهِ أَنَّ مَدَىٰ الْبَحْرِ امْتِدَادٌ لِلْعَيْنِ الْحَمِئَة.

وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ الْعَيْنُ الْحَمِئَةُ تَدَفُّقَاتٍ نِفْطِيَّةً، تَنْبَعُ مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ، عِنْدَ سَاحِلِ بَحْرٍ مُحِيط، وَيَأْتِي هـٰذَا الْبَحْرُ وَرَاءَهَا، واللهُ أَعْلَم.

• ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾: أي: وَوَجَدَ ذُو الْقَرْنَيْنِ عِنْدَ هَـٰذِهِ الْعَيْنِ الْحَمِئَةِ قَوْماً كَفَرَةً مُشْرِكين، أَوْ لَا دِينَ لَهُمْ يَعِيشُونَ كالْبَهَائم.

• ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾:

يَتَحَدَّثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِضَمِير المتكلّم الْعَظِيم أَنَّهُ قَال لِذِي الْقَرْنَيْنِ بِوَحْيٍ مُبَاشِرٍ إِذَا كَانَ نَبِيّاً، أَوْ عَنْ طَرِيقِ نَبِيٍّ مُصَاحِبٍ لَهُ:

يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ أَنْتَ مَأْذُونٌ لَكَ، بِأَنْ تُعَذِّبَ الْكَافِرَ الْمُعَانِدَ مِنْهُم، بَعْدَ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، وَإِقْنَاعِهِ بِهِ، وَمَأْذُونٌ لَكَ بِأَنْ تَتَّخِذَ فِيهم أَمْراً ذَا حُسْنٍ، بِأَنْ تُمْهِلَ مَنْ تَرَىٰ إِمْهَالَهُ مِنْهم، وَتَتَلَطَّف بِهِ، وتَصْبِرَ عَلَىٰ مُعَالَجَتِهِ، بِحَسَبِ مَا تَرَىٰ مِنْ أَحْوَالِهِ واسْتِعْدَادِه لِأَنْ يُؤْمِنَ مُسْتَقْبَلاً وَيَعْمَلَ صَالِحاً.

• ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾:

لَمَّا أَخَذَ ذُو الْقَرْنَيْنِ الْإِذْنَ مِنْ رَبِّهِ بِأَنْ يَخْتَارَ بِحِكْمَتِهِ تَعْذِيبَ الْكَافِرِ الْمُجْرِمِ، إِذَا أَصَرَّ عَلَىٰ كُفْرِهِ وإجْرَامِهِ بَعْدَ دَعْوَتِهِ إِلىٰ دِينِ اللهِ الحق، أو يخْتَارَ بِحِكْمَتِهِ إِمْهَالَ مَنْ يَتَوَسَّمُ أَنَّ الإمْهَالَ قَدْ يَجْعَلُهُ يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، أَبَانَ مَنْهَجَهُ فِي مُعَالَجَةِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ، وهـٰذَا المنهجُ يَتَلَخَّصُ بمَا يلي:

الْبَنْد الْأَوَّل: أَمَّا مَنْ ظَلَم بِالكُفْرِ وارْتِكَابِ الْجَرائِم الكُبْرَىٰ، بَعْدَ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، فإِنَّنَا أَنَا وَأَرْكَانُ سُلْطَانِي وَمُلْكِي سَنُمْهِلُهُ، ونَمُدُّ

لَهُ أَمَدَ الْمُعَالَجَةِ، عَسَىٰ أَنْ يَسْتَجِيبَ إِلَىٰ دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، حَتَّىٰ إذا اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ إِنْهَاءَ إِمْهَالِهِ فإِنَّنَا سَنُعَاقِبُهُ تَعْذِيباً وقَتْلاً.

دَلَّ عَلَىٰ الإمْهَالِ الحكيم عِبَارَةُ ﴿فَسَوْفَ﴾ لأنَّ كَلِمَةَ «سَوْف» تَدُلُّ علَىٰ الأَجَلِ الْبَعِيدِ فيما ظَهَر لِي بالاستقراء.

ودَلَّتْ عِبَارَة: ﴿... ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ عَلَىٰ أَنَّهُ خَتَمَ حَيَاتَهُ بالإصْرَارِ عَلَىٰ الكُفْرِ وارْتِكَابِ الْجَرَائِم.

- ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾: أي: عَذاباً شَدِيداً، وهو عَذَابُ الْخُلُودِ في جَهَنَّم.

الْبَنْدُ الثَّاني: وَأَمَّا مَنْ آمَنَ، وَبَرْهَنَ عَلَىٰ صِحَّةِ إِيمَانِهِ بِعَمَلٍ صَالِح، فَلَهُ عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّينِ الْخُلُودُ فِي الْجَنَّةِ الْحُسْنَىٰ، جَزَاءً مِنْ رَبِّهِ عَلَىٰ أَنَّهُ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا. وَسَنَقُولُ لَهُ أَنَا وَأَرْكَانُ مُلْكِي وسُلْطَانِي مُبَاشَرَةً دُونَ إِبْطَاءٍ مِنْ أَمْرِنَا الْمَوْصُولِ بالتَّنْفِيذِ، مَا فِيهِ يُسْرٌ وَتَيْسِيرٌ، إِذْ تَكُونُ مَطَالِبُهُ مُجَابَةً بِيُسْرٍ، وَرَغَبَاتُهُ لِحَيَاتِهِ أَوْ لِحَيَاةِ مَنْ يُهِمُّهُ أَمْرُهُمْ مُذَلَّلَةً مُيَسَّرَة. وَتَكُونُ أَوَامِرُنَا التَّكْلِيفِيَّةُ لَهُ ذَاتَ يُسْرٍ، لَا مَشَقَّةَ فِيهَا وَلَا عُسْر.

الْيُسْرَ: في اللُّغَةِ ضِدُّ الْعُسْر، والمادَّةُ تَدُورُ حَوْلَ مَعْنَىٰ اللِّين والانقياد والسُّهُولَة.

وَدَلَّ حَرْف «السِّين» في عبارة: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ عَلَىٰ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْن وكذلِكَ أَرْكَانُ مَمْلَكَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، سَيُعَامِلُونَ مُبَاشَرَةً دُون إِبْطَاءٍ مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً بِكُلِّ أَمْرٍ فِيهِ تَيْسِيرٌ، تَرْغِيباً لَهُ في الثبات عَلَىٰ الإيمانِ والْعَمَلِ الصالح، فَحَرْف السِّين يُسْتَعْمَلُ غَالباً في المستَقْبَلِ غَيْرِ الْبَعِيد، بخلاف حرْف «سَوْف».

الْحُسْنَى: كَثُرَ اسْتِعْمَالُ هٰذَا اللَّفْظِ في القرآنِ بمعنَىٰ الجنَةِ، إِذْ هي أَعْظَمُ مَثُوبَةٍ حُسْنَىٰ.

والأَرْجَحُ أَنَّهَا هي المرادة هُنَا بِعِبَارَة: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أي: فَلَهُ الْجَنَّةُ الحسْنَىٰ حَالَةَ كَوْنِهَا جَزَاءً عَظِيماً لَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيث عَنْ ذِي الْقَرْنَيْن:

• ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾:

• ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾: تَحْلِيلُ هَـٰذِهِ العبارة مِثْلُ نظيرَتِهَا السَّابقة: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾.

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾: أي: واسْتَمَرَّ يَتَّخِذُ أَسْبَابَهُ وَيَتَّبِعُهَا بِجَيْشِهِ الْعَظِيم، حَتَّىٰ بَلَغَ آخِرَ الْمَأْهُولِ بالسُّكَّانِ مِنْ جِهَةِ مَطْلِعِ الشَّمْسِ، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا كَانَ مَعْلُوماً لَهُ وَلِأَهْلِ زَمَانِهِ.

• ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمَ كَانُوا يَعِيشُونَ في أَرْضٍ مَكْشُوفَةٍ للشَّمْسِ، وَلَمْ يَكُونُوا قَدْ تَطَوَّرُوا حَضَارِيًّا حَتَّىٰ يَبْنُوا الْبُيُوتَ، أَوْ يَسْتُرُوا أَجْسَادَهُمْ بالْجُلُودِ أَوْ بالمنْسُوجاتِ مِنَ الثياب، فَهُمْ أَشْبَهُ بِالْعُرَاةِ عُرْياً كامِلاً.

وَكَانَ هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَىٰ مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْقَوْمُ الَّذِينَ وَجَدَهُمْ ذُو الْقَرْنَيْنِ حِينَ بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ كُفْراً وارْتِكَاب جَرائِم، دَلَّ عَلَىٰ هـٰذَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾:

أي: حَالُ هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ مِثْلَ حَالِ الْقَوْمِ الَّذِينَ وَجَدَهُمْ حِينَ بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ، وَكَانَ حَالُهُ مَعَ هَـٰؤُلَاءِ مِثْلَ حَالِهِ مَعَ أُولَئِكَ، وَأَجْرىٰ فِيهِمْ مَا أَجْرَاهُ فِي أُولَئِكَ.

وَقَدْ أَحَاطَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا كَانَ لَدَيْهِ مِنْ عَمَلٍ وَتَصرُّفَاتٍ وَدَعْوَةٍ إلى

دِينِ رَبِّهِ خُبْراً، كَمَا أَحَاطَ خُبْراً بِمَا كَانَ لَدَيْهِ بالنسبة إِلَىٰ قَوْمِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ.

«الْخُبْرُ» و«الْخَبَرُ» و«الْخِبْرُ»: مَعْرِفَةِ الشَّيْءِ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ ظَاهِرِهِ وبَاطِنِهِ.

والْغَرَضُ مِنْ بَيَانِ هَـٰذِهِ الإِحَاطَةِ الرَّبَّانِيَّة بَيَانُ ارْتِبَاطِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ بِجَذْرِ شُمُولِ عِلْم اللهِ كُلَّ شَيْءٍ في الكوْن، فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ، مَعَ الإِشَارَةِ إِلَىٰ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ سَوْفَ يُكافَأُ على جِهادِهِ في سَبِيلِ اللهِ، عَلَىٰ وَفْقِ مَا يَعْلَمُ مِنْ ظَوَاهِرِ أَمْرِهِ وَبَوَاطِنِها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيثَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ:

• ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ ﴿٩٩﴾﴾:

• ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾: تَحْلِيلُ هَـٰذِهِ العبارَةِ مِثْلُ نَظِيرَتَيْها السَّابِقَتَيْن.

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وفي القراءة الأخرى: [**السُّدَّيْنِ**] بضَمّ السِّينِ، وَهُمَا جَبَلَانِ يَدْخُلُ الْغُزَاةُ، وكذلك الأشْرَارُ الْمُفْسِدُونَ مِنَ الطَّرِيقِ الواقِع بَيْنَهُمَا إِلَىٰ السَّاكِنِينَ بَعْدَهُمَا مِن الأقوام.

وَيَظْهَرُ أَنَّهُ اتَّجه حِينَ اتَّبعَ هـٰذَا السَّبَبَ جِهَةَ الْجَنُوبِ، أَوْ جِهَةَ الشَّمَالِ، في شَرْقِ الأَرْضِ.

وأَتْرُكُ للجغرافيين الآثَارِيّينَ تَحْدِيدَ مَكَانَ هَـٰذَيْنِ الجبَلَيْنِ مِنَ الأَرْض، تَتَبُّعاً لِلآثار، وَمَوَاقِعِ الْحَاجِزِ الَّذِي أقامَهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بَيْنَهُمَا، وَصِفَاتِ هـٰذا الحاجز، فالْبَحْثُ فِي الآثَارِ يُعْطِي أحْسَنَ الْمَعْلُومَاتِ إِذَا انْعَدَمَ الْخَبَرُ الصّحيح.

• ﴿... وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾: وفي القراءة الأُخْرى: [**لَا يَكَادُونَ يُفْقِهُونَ قَوْلاً**]:

أي: لَهُمْ لُغَةٌ خَاصَّةٌ بِهِمْ قَلَّ مَنْ يَعْلَمُهَا مِنْ غَيْرِهِمْ من الأَقْوَام، فهم لَا يَكَادُونَ يُفْقِهُونَ، أَيْ: يُفْهِمُونَ غَيْرَهُمْ مِنَ الأَقْوَام، إِذْ قَلَّ فِيهِمْ مَنْ يَعْلَمُ لُغَةً مِنْ لُغَاتِ الآخَرِين، وَلَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ، أَيْ: يَفْهَمُونَ أقْوالَ غَيْرِهِمْ مِنَ الأَقْوَام، لِقِلَّةِ مَنْ يَعْرِفُ فِيهِمْ لُغَةً مِنْ لُغَاتِ غَيْرِهِمِ مِنَ الأَقْوام، حَتَّىٰ يَكُونَ وَسِيطَ تَرْجَمة.

وأشْعَرَ النَّصُّ هـٰذَا، أَنَّ مِنْ عُيُوبِ الشُّعُوبِ وتخلُّفِهَا الحضاريّ أَنْ لَا يَكُونَ فيها مُتَرْجِمُونَ لِلُغَاتِ غَيْرِهِمْ مِنَ الشُّعوب.

أي: وَوَجَدَ ذُو الْقَرْنَيْنِ، أَنَّ مِنْ دُونِ الْجَبَلَيْن اللَّذَيْنَ وَضَعَ فِي خُطَّةِ فَتْحِهِ اجْتِيَازَ الطَّرِيقِ بَيْنَهُمَا، إِلَىٰ مَا وَرَاءَهُمَا مِنَ الأَقْوَام، قَوْماً قَلَّ جِدًّا مَنْ يَعْرِفُ مِنْهُمْ لُغَةً غَيْرَ لُغَةِ قَوْمِهِ حَتَّىٰ يَفْهَمَ مَا يُقَالُ لَهُ، وَيُفْهِم مَا يُرِيدُ بِقَوْلٍ يَفْهَمُهُ تَرَاجِمَةُ المَلِكِ ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ، لٰكِنْ لَمْ يَنْعَدِمْ مُطْلَقاً وُجُودُ بَعْضِ ٱلتَّرَاجِمَةِ الَّذِينَ أَوْصَلُوا إِلَىٰ الْمَلِكِ مَطَالِبَ الْقَوْم، وَأَوْصَلُوا إِلَىٰ الْقَوْمِ أَقْوَالَ الملِكِ لَهُمْ.

• ﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾:

• ﴿يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾: نَادَوْه مُسْتَغِيثِينَ، لِعِلْمِهِمْ بأَنَّهُ مَلِكٌ صالِحٌ يَدْعُو إلى الحقّ والخير، ويُغِيثُ مَنِ اسْتَغَاثَ به.

• ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: وفي القراءة الأُخرى: [**إِنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ**] بألِفٍ مَدّيّةٍ بَدَلَ الهمزة الساكِنَة.

ولفْظُ «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ» اسْمٌ لِقَبيلَتَيْنِ مِنَ الْقَبَائِلِ الَّتِي كَانَتْ تَعِيشُ في جِهَةِ الشَّرْقِ مِنَ الْأَرْض.

ويخْطُر لي أنَّ «ياجُوجَ» اسْمٌ لِجَدِّ إحْدَىٰ القبيلَتَيْن، وأنَّ «مَاجُوجَ» اسم لِأَخِيهِ جَدِّ الْقَبِيلَةِ الثَّانِيَة.

وَكَانَ هَٰؤُلَاءِ النَّاسُ أشْرَاراً مُفْسِدِينَ، يُغِيرُونَ عَلَىٰ الْأُمَمِ مِنْ حَوْلِهِمْ بخُيُولِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ، فَيَنْهَبُونَ وَيَسْلُبُونَ وَيَقْتُلُونَ وَيُخَرِّبُونَ وَيُتْلِفُونَ المزَارِعَ.

• ﴿... فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾:

وجاء في القراءة الْأُخْرَىٰ [**خَرَاجاً**]: **الْخَرْجُ والْخَرَاجُ**: الأجْرُ عَلَىٰ العَمَل.

سَدّاً وسُدًّا: كَمَا جَاء في قراءَةٍ أُخرى، بِمَعْنَىٰ الحاجِزِ الَّذِي يَفْصِلُ بِصُمُودِ الْمَحْجُوزَ وَرَاءَهُ، مَاءً أَوْ بَشَراً، أو غَيْرَ ذَلِك.

عَرْضٌ بِتَلَطُّفٍ وَمَسْكَنَةٍ بأسْلُوب الاسْتِفْهَام، إِذْ رَأَوْه مَلِكاً عَادِلاً مُصْلِحاً يُحِبُّ فِعْلَ الْخَيْرِ، ومَنْعَ الشَّرِّ.

أي: فَهَلْ تُسَاعِدُنَا أَيُّهَا الْمِلِكُ الْمُصْلِحَ الْعَادِلُ عَلَىٰ إِقَامَةِ سَدٍّ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، يَمْنَعُ غَارَاتِ «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ» عَلَيْنَا، وَشُرورَهُمْ وإفْسَادَاتِهِمْ عَنَّا، عَلَىٰ أن نُقَدِّمَ لَكَ مَا نَسْتَطِيعُ مِنْ أجْرٍ عَلَىٰ هَٰذَا الْعَمَلِ الْعَظِيم.

• ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾:

الرَّدْم: السَّدُّ العظيم.

أي: قَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ لهم: مَا آتَانِي اللهُ رَبِّي مِنْ تَمْكِينٍ فِي الْأَرْض، وَمَا آتَانِي مِنْ أَسْبَابٍ، خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ لِي مِن أَجْرٍ عَلَىٰ إِقَامَةِ هَٰذَا السَّدِّ

لَكُمْ، فَلَا تُكَلِّفُوا أنفُسَكُمْ بَذْلَ أجْرٍ لِي، إنِّي سَأَقُومُ بِهٰذَا الْعَمَلِ الإصْلَاحِيِّ الَّذِي أَحْجُزُ بِهِ شُرُورَ «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ» عَنْكُمْ، ابْتغاءَ مَرْضَاةِ رَبِّي، وَشُكْراً لَهُ عَلَىٰ مَا آتانِي مِنْ تَمْكِين.

فَأَعِينُونِي لَدَىٰ إقَامَتِي لِهٰذَا السَّدِّ بِالْقُوَىٰ الَّتِي يَمْلِكُهَا جَيْشِي، بِقُوَّةٍ مِنْ عِنْدِكُمْ، بِعُمَّالٍ وَأَدَاوَاتٍ وَبَهَائِمَ وَحَدِيدٍ، وَبِمَا لَدَيْكُمْ مِنْ قُوَىٰ تَحْتَاجُ إِلَيْهَا إِقَامَةُ هٰذَا السَّدّ، رَدْماً عَظِيماً مَانِعاً لِمَنْ يُغِيرُ عَلَيْكُمْ مِن «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ».

- ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِۖ﴾ أي: آتُونِي مَا عِنْدَكُمْ مِنْ قِطَعٍ حَدِيدِيَّة كبيرَة.

الزُّبْرَة: الْقِطْعَةُ الْحَدِيدِيَّةُ الضَّخْمَةُ، وَتُجْمَعُ عَلَىٰ «زُبَر».

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾:

يُطْلَقُ لفظ «الصَّدَف» عَلَىٰ الْجبَلِ، فَالصَّدَفَانِ هُمَا الْجَبَلَانِ المتَقَابِلَانِ اللَّذَانِ يُرَادُ إقَامَةُ السَّدِّ بَيْنَهُمَا حَاجِزاً.

وَيُطْلَقُ «الصَّدَفُ» عَلَىٰ الجانب، وَصَدَفَا الْجَبَلِ جانِبَاه الْمُتَحاذِيَان.

ومعنىٰ «سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْن» عَلَىٰ مَا يَبْدُو لي، شَرَعَ ببناء جِدَارَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ بَيْنَ الْجبَلَيْنِ، وَجعَلَ بَيْنَهُمَا فَرَاغاً، لِيَمْلَأَهُ رَدْماً، بِحِجَارَةٍ وَتُرَابٍ وَحَصَىٰ.

الْمُسَاوَاة: الْمُمَاثَلَةُ، وَيُقَالُ «سَاوَى بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ» أَيْ: جَعَلَهُمَا مُتَمَاثِلَيْن.

- ﴿قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾:

الْقِطْرُ: النُّحَاسُ الذَّائِب، وَيُطْلَقُ أيضاً على الرَّصَاصِ الْمُذَاب.

باسْتِطَاعَتِنَا أَنْ نَسْتَخْرِجَ مِنَ الْمَطْوِيَاتِ في هٰذَا النَّصّ، أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ أَمَرَ صُنَّاعَهُ وَعُمَّالَهُ أَنْ يَجْعَلُوا فِي الْجِدَارِ الْمُوَاجِهِ لِلْمُفْسِدِين «يَاجُوجَ

ومَاجُوجَ» في كُلِّ مِدْمَاكٍ حِجَارَةً وَحَدِيداً، وَأَنْ يَحْمِيَهُ بالنَّارِ حَتَّىٰ يَكُونَ نَاراً، أيْ: كالْجَمْر، وعِنْدَئِذٍ يأمُرُ بأَنْ يُؤْتَىٰ بذَائِب النُّحَاسِ أَوْ بِذَائِبِ الرَّصَاص، فَتُفْرَغَ أَوَانِيهِ عَلَيْهِ، لِيَشْتَبِكَ في الْمِدْمَاكِ دَاخِلاً في فَرَاغَاتِه، حَتَّىٰ يَكُونَ بِمَثَابَةِ كُتْلَةٍ وَاحِدَةٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنَ الْحِجَارَةِ الصُّلْبَة، وَقَطعِ الْحَدِيدِ، والنُّحَاسِ، لِئَلَّا يَسْتَطِيعَ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ نَقْبَه.

• ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾: أي: قَالَ انْفُخُوا بالمنافيخ لإيقادِ النَّار، عَلَىٰ مِثْلِ كِيرِ الحدّادين، وهٰذَا مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي آتَاهَا اللهُ لِذِي الْقَرْنَيْنِ.

• ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا ﴿٩٦﴾﴾:

أي: حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَ زُبَرَ الْحَدِيدِ المتَدَاخِلَةَ بالْحِجَارَةِ حَمْرَاءَ كالْجَمْرِ، قَالَ آتُونِي بِأَوَانِي النُّحَاسِ أَوِ الرَّصَاصِ الْمُذَاب، أُفْرِغْهَا عَلَىٰ الطَّبَقَةِ الَّتِي بُنِيَتْ مِنَ الْجِدَار، لِيَتَخَلَّلَ الْفَرَاغَاتِ، فإذَا بَرَدَ كَانَ الْجَمِيعُ بِمَثَابَةِ كُتْلَةٍ وَاحِدَة، مِنْ حِجَارَةٍ وَحَدِيدٍ وَنُحَاسٍ أَوْ رَصَاصٍ مُحِيطٍ بِجَوَانِبِهَا، وَأَتَمَّ ذُو الْقَرْنَيْنِ السَّدَّ بِجِدَارَيْهِ وَرَدْمِ مَا بَيْنَهُمَا.

وَلَمَّا اكْتَمَلَ بِنَاءُ السَّدِّ وارْتَفَعَ ارْتِفَاعاً كَافِياً لِتَكُونَ حَاجِزاً مَانِعاً لِغَارَاتِ «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ» الْمُدَاهِمَة، أقْبَلَ الْغُزَاةُ الْأَشْرَارُ لِيَدْخُلُوا كَعَادَتِهِمْ مِنَ الْفَرَاغِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، فَحَاوَلُوا تَسَلُّقَهُ فَمَا اسْتَطَاعُوا، وَحَاوَلُوا نَقْبَهُ فَمَا اسْتَطَاعُوا أيْضاً، لِأَنَّهُ مُتَمَاسِكُ الْبُنْيَانِ بالْحَدِيدِ والحجارة، وبالنُّحَاسِ أو الرَّصَاص، الجامِعِ لِكُتْلَتِهِ.

قال اللهُ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا ﴿٩٧﴾﴾:

• ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾: أي: فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَعْلُوا السَّدَّ بخُيُولِهِمْ وَدَوَابِهِمْ وَأَسْلَحَتِهِمْ، لِيغْزُوا مَنْ وَرَاءَه. يُقَالُ لُغَةً: «ظَهَرَ الْبَيْتَ، أو الجِدَارَ، أَوْ نَحْوَهُما» أي: عَلَاه.

﴿... وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾: أي: وَمَا اسْتَطَاعُوا خَرْقَهُ بالْفُؤُوسِ والأزَامِيلِ والْمِرْزَبَّاتِ.

نَقْبُ الجِدَار وَنَحْوِهِ: خَرْقُهُ.

وَيَظْهَرُ أَنَّ الْجَبَلَيْنِ كَانَا حَاجِزَيْنِ طَبِيعِيَّيْنِ، وَيُمْكِنَ حِمَايَتُهُمَا مِن مُفَاجآتِ الْغُزَاة، وَكَانَ مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ هُوَ السَّبِيلَ الْوَحِيدُ لِمُدَاهَمَةِ الْغُزَاةِ بِخُيُولِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ وَدَوَابِهِمْ بِصُورَةٍ مُفاجِئَةٍ، والنِّكَايَةِ بالْقَوْمِ الآمِنِينَ الْمُسَالِمِينَ الَّذِينَ اسْتَغَاثُوا بِذِي الْقَرْنَيْنِ.

ولَمَّا وَثِقَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِمَّا فَعَلَ لِحِمَايَةِ الَّذِينَ اسْتَغَاثُوا بِهِ بَعْدَ أَنْ رَاقَبَ جُنُودُهُ تَحَرُّكَاتِ «يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ» وَرَاءَ السَّدّ:

- ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾: أَي: رَحِمَ بِهِ إِذْ سَخَّرَنِي لِبِنَائِهِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْم المسْتَضْعَفِين. وَقَالَ أَيْضاً:
- ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾:

يَظْهَرُ أَنَّهُ تَلَقَّىٰ وَحْياً مُبَاشِراً أو عَنْ طَرِيقِ نَبِيٍّ مُصَاحِبٍ لَهُ، بِأَنَّ هَٰذَا السَّدَّ سَيَكُونَ مُتَهَدِّماً مُسْتَوِياً بِالْأَرْضِ في وَقْتٍ قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ، فَقَالَ مَقَالَتَهُ الإيمَانِيَّةَ هَٰذِهِ.

دَكَّاءَ: أي: مُسْتَوِياً بِالْأَرْض. وفي القراءة الأخرى [**دكًّا**]: أي: مَدْكُوكاً مُتَهَدِّماً.

■ وَأَنْهَىٰ اللهُ أَنْبَاءَ ذي القرنيْنِ وياجوج وماجُوجَ بِقَوْله:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ... ﴿٩٩﴾﴾: مَاجَ الْبَحْرُ اضطرب، وماج الْقَوْمُ اخْتَلَفَتْ أُمُورُهُمْ واضطربت، أيْ: وأخَذَتْ قَبيلتا ياجوج وماجوج تختَلِفَانِ ويضطرب بعضهم ببعضٍ كالموج.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس التاسع من دُرُوس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(١٤)

التدبُّر التحليلي للدّرس العاشر من دُروس سورة (الكهف) الآيات من (بعض ٩٩ - ١٠٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

القراءات:

(١٠٢) • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وأبُو جعفر: **[مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِ ياء المتكلم.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ انْتِقَالٌ مِنْ بَيَانِ اللَّقَطاتِ المخْتَارَاتِ مِنْ قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ، وَتَرْكِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ بَعْدَ بِنَاءِ السَّدِّ، إِلَىٰ عَرْضِ لَقْطَةٍ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ القيامَةِ بَعْدَ بَعْثِهِمْ إِلَىٰ حَيَاةِ الجزاءِ بِنَفْخِ الصُّور، وَهٰذِهِ اللَّقْطَةُ مَقْرُونَةٌ بِتَلْوِيمٍ وَإِنْذَارٍ لِلْكَافِرِين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿... وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾:

الصُّورُ: مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، كهيئَةِ الْقَرن، إحْدَىٰ جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دَائِرِيَّة ضَيِّقَة، والأُخرى واسِعَةٌ جدًا، وباطِنُهُ فَارِغٌ يُمْكِنُ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ، وَالَّذِي يُؤْمَرُ بالنَّفْخِ فِيه مِنَ المَلَائِكَةِ إسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام.

النَفخَةُ هَـٰذِهِ فِي الصُّورِ هِي النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ، نَفخَةُ الْبَعْثِ الّتِي تَنْطَلِقُ بِهَا الْأَرْوَاحُ إِلَىٰ أَجْسَادِهَا الَّتِي أَنْبَتَهَا اللهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ وَعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ، فَتَدْخُلُ فِيهَا فَتَكُونُ حَيَّةً كامِلَة الْحَيَاةِ، لِتُلَاقِي الْحِسَابَ، وَفَصْلَ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذَ الْجزَاءِ، إِذَا كَانَتْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضُوعَةً مَوْضِعَ الابْتِلَاء.

• ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾: أي: فَجَمَعْنَا الْخَلَائِقَ بَعْدَ إِحْيَائِهِمْ جَمْعاً حَقِيقِيًّا شَاملاً، لَمْ نَتْرُكْ مِنْهُمْ في الموتِ دُونَ إِحْيَاءٍ أحداً، اسْتُفِيدَ هـٰذَا مِنَ التَّوْكِيد بالْمَصْدر.

وَجاء التَّعْبِيرُ عَنْ هـٰذَا الْحَدَثِ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الماضِي، للدَّلَالَةِ عَلىٰ أَنَّهُ سَوْفَ يَتَحَقَّقُ حَتْماً، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ وَحَدَثَ فِعلاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ بِضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم:

• ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾:

يُقَالُ لغة: «عَرَضَ فُلَانَ الشَّيْءَ لِمَعْرُوضٍ عَلَيْهِ» أي: أَبْرَزَهُ وَأَظْهَرَهُ لَهُ، إِمَّا للتّرْغِيبِ فِيهِ، أَوْ لِلتَّرْهِيبِ مِنْهُ وَتَعْذِيب النَّفْسِ بالذُّعْرِ والْخَوْفِ مِنَ المصِيرِ إِلَيْهِ.

هـٰذَا الْعَرْضُ نَوْعٌ مِنَ التَّعْذِيبِ الابْتِدَائِيّ التَّمهِيدِيِّ لِلتَّعْذِيبِ بِنَارِهَا عِنْدَ دُخُولِهَا، أَوْ عَرْضِهِمْ عَلَيْهَا كَمَا يُعْرَضُ اللَّحْمُ على النَّارِ لِيُشْوَىٰ.

وأَشَدُّ مِنْ هـٰذَا الْعَرْضِ التَّمْهِيدِيِّ لِلْكَافِرِينَ، مَا يَكُونُ بَعْدَهُ مِنْ عَرْضٍ عَلَيْهَا، إِذْ يَذُوقُونَ بِهِ شَيْئاً مِن لَذعِ حَرَارَتِهَا، وَقَدْ جَاءَتْ عِدَّةُ نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ تُبَيِّنُ عَرْضَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ النَّار.

والتوكيد بالمصْدَرِ ﴿عَرْضًا﴾ يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ عَرضٌ حَقِيقِيٌّ مُخِيف.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَصِفُ مَا كَانَ عَلَيْهِ في الدُّنْيَا الْكَافِرُونَ الَّذِينَ تُعْرَضُ لَهُم جَهَنَّمُ عَرْضاً يَوْمَ الدِّين:

• ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾:

أي: الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي الدُّنْيَا دَاخِلَةً فِي غِطَاءٍ عَنْ مُشَاهَدَةِ آيَاتِي فِي كَوْنِي، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ عَظِيم قُدْرَتِي، وإتْقَانِي لِخَلْقِي، وَجَلِيلِ حِكْمَتِي، وَعِلْمِي الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيءٍ، وَكَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِي وأَسْمَائِي الْحُسْنَىٰ، فَهُمْ لَا يَرَوْنَهَا فَلَا يَذْكُرُونَنِي وَلَا يُؤْمِنُونَ بِي.

وَالَّذِينَ كَانَتْ آذَانُهُمْ مُصَابَةً بالصَّمَم، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعَ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِي وَبَيَانَاتِي المنزَّلَات، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعَ بَيَانَاتِ الدُّعَاةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَىٰ الإيمانِ بِي.

إِنَّهُمْ لَمْ يُفطَرُوا كَذَلِكَ، فَلَيْسَ مَا كَانُوا فِيهِ أَمراً جَبْرِيّاً، إِنَّمَا جَلَبُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ بِتَوَلِّيهِمْ عَنِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ وَبَيَانَاتِهِ، وَتَعَلُّقِهِمْ بالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَمَتَاعَاتِهِمْ مِنْهَا، وقَبُولِهِمْ لِوَسَاوِسِ وَتَسْوِيلَاتِ شَيَاطِينِ الْإِنسِ والْجِنِّ، الَّذِينَ زَيَّنُوا لَهُمُ الشِّرْكَ، أَوْ أَنَّهُ لَا حَيَاةَ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وأَنَّهُ لَا حِسَابَ، وَلَا فَصْلَ قضاءٍ، وَلَا جَزَاءَ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ ضَلَالَاتٍ، وَهٰذِهِ مِنْ آثَارِهَا بِحَسَبِ أَنْظِمَةِ اللهِ في كَوْنِهِ، أَنْ تَجْعَلَ الْأَعْيُنَ في أَغْطِيَةٍ تَحْجُبُهَا عَمَّا يُذَكِّرُ باللهِ وَصِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ، وَتَجْعَلُ الآذَانَ صَمَّاءَ لَا تَسْمَعُ الْبَيَانَاتِ الْكَلَامِيَّةَ الَّتِي تُذَكِّرُ باللهِ وَصِفَاتِه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُحَذِّرُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّم:

• ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢﴾:

إقْنَاعٌ رَبَّانِيٌّ لِلْمُشرِكِينَ بأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَام الدَّالِّ عَلَىٰ سَفَاهَتِهِمْ، وَعَدَمِ اسْتِبْصَارِهِمْ حَقَائِقَ الْأُمُورِ المتَعَلِّقَةِ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ وإِلٰهِيَّتِهِ.

المعْنَىٰ: إِنَّ الشُّرَكَاءَ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِي، يَعْبُدُونَهُمْ وَهُمْ لَا رُبُوبِيَّةَ لَهُمْ، وَلَا إِلٰهِيَّةَ لَهُمْ، فَلَا يَسْتَحِقُّونَ شيئاً مِنَ العبادَة، وَعِبَادَتُهُمْ ظُلْمٌ لِحَقِّي عَلَيْهِمْ، وَكُفْرٌ بِي.

وَشُرَكَاؤُهم لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَإِنْقَاذَهُمْ مِنْ عَذَابِي.

انْطَمَسَتْ بَصَائِرُهُمْ فَحَسِبُوا أَنَّ شُرَكَاءَهُمْ سَوْفَ يَنْصُرُونَهُمْ فيَحْمُونَهُمْ مِنْ عَذَابي، وَشركاؤُهُمْ عِبَادٌ مِنْ عِبَادِي، لَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بي.

وَهُنَا يَتَحدثُ جَلَّ جَلَالُهُ بِضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم، فَيَقُول:

• ﴿... إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾:

أَعْتَدْنَا: أي: هَيَّأْنَا بعِنَاية.

جَهَنَّم: اسْمُ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيُعَذِّبَ بها الْكَافِرِينَ والمجْرِمِينَ والْعُصَاة يوم الدِّين. وهو ممنوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنيث.

لِلْكَافِرين: أي: لِلَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ لَمْ يَتَدَارَكُوا أَنْفُسَهُمْ بإيمانٍ وَعَمَلٍ صالح.

النُّزُل: مَا يُعِدُّهُ الإنْسَانُ لِضَيْفِهِ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ، ويُطْلَقُ النُّزُلُ على المنْزِل.

وفي اسْتِعْمَالِ لفظ «النُّزُلِ» الَّذِي يُعَدُّ لضيَافَةِ الضَّيْفِ هُنَا، تَهَكُّمٌ بالَّذِينَ يَزْعُمُونَ مِنَ الكَفَرَةِ ذَوِي الثَّراءِ أَنَّهُمْ إِنْ رَجعُوا إلى رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّين فإِنَّ لَهُمْ خَيْراً مِمَّا آتاهُمْ في الحياة الدُّنيا.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس العاشِرِ من دُرُوس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٥)
التدبُّر التحليلي للدّرس الحادي عشر مِن دُروس سورة (الكهف) الآيات من (١٠٣ - ١١٠) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾:

القراءات:

(١٠٤) • قرأ ابْن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: **[يَحْسَبُونَ]** بفتح السين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَحْسِبُونَ]** بِكَسْرِ السين.

وهُمَا لغتان بِمَعْنَىٰ: يَظُنُّونَ ظَنًّا ضَعِيفاً لَا يُعْتَدُّ بِهِ، ولا يصحُّ عقْلاً الاعتمادُ عَلَيْه.

(١٠٦) • قرأ حفص: **[هُزُواً]**.

وقرأها حمزة: **[هُزْءاً]** في الْوَصْل. وكذلك خلَفٌ في الوصل والوقف.

وقرأها حمزة في الوقف: **[هُزاً]** و**[هُزْواً]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [هُزُؤاً].

وهي وُجوه في النُّطق.

(١٠٩) • قرأ حمزة، والكِسَائِي، وخَلَف: [أَنْ يَنْفَدَ] وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنْ تَنْفَدَ].

وهما وجهان جائِزَان عَربيًّا، لأنَّ لفظ «كلمات» مجازيُّ التَّأْنيث.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ دَعَوِيٌّ مُوجَّهٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً تَعْليميًّا لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾:

أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ وَيَا كُلَّ مَنْ يَحْمِلُ رِسَالَةَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، لِمَنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ: هَلْ نُخْبِرُكُمْ بِهـٰذَا النَّبَأِ الْخَطِيرِ؟ بالأَخْسَرِينَ أعْمَالاً، الَّذِينَ لَا يُوجَدُ أَكْثَرُ خَسَارَةً مِنْهُمْ لِأَعْمَالِهِمْ مَهْمَا كَانَ شَأْنُها.

الأخْسَرُون: جمع «الأَخْسَر» اسْم تَفْضِيلٍ مِنْ فِعْل «خَسِر».

وَجَاءَ الجوابُ عَلَىٰ تَقْدِيرِ أَنَّ الْمُخَاطَبِينَ وافَقُوا عَلَىٰ إِنْبَائِهِمْ بِالْأَخْسَرِينَ أعْمَالاً، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

• ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾:

• ﴿ضَلَّ﴾: أي: ضَاعَ فَلَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَثَرٌ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ بِشَيْءٍ ما.

• ﴿سَعْيُهُمْ﴾: السَّعْيُ: عَمَلٌ فَوْقَ المشْيِ، وهُوَ عَدْوٌ دُونَ الشّدّ، ويأتي السَّعْي بِمَعْنَىٰ الْعَمَلِ بِهِمَّةٍ وَنَشَاطٍ.

أي: الْأَخْسَرُونَ أعمالاً يَوْمَ القيامَةِ، هُمُ الَّذِينَ وجَدُوا أَنَّ سَعْيَهُمُ الَّذِي كَانُوا قَدْ سَعَوْهُ في الحياة الدُّنْيا، لتَحْقِيقِ مَا كَانُوا يَطْمَحُونَ لَهُ مِنْ سَعَادَاتٍ، قَدْ ضَاعَ ضَيَاعاً تَامًّا، فَلَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَثَرٌ نَافِعٌ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، وَكَانَ حَالُهُمْ حِينَ كانُوا يَسْعَوْنَ في الحياة الدُّنيا، حَالَ طَامِعِينَ بأوْفَرِ سَعَادَاتٍ يُحَقِّقُونَها مِنْ سَعْيِهِمْ، إِذْ كَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً.

فَلَا خَزَائِنُ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ الَّتِي كَانُوا قَدْ جَمَعُوها وَكَنَزُوهَا وَجَدُوا لَهَا أثراً يَنْفَعُهُمْ.

ولَا الْقُصُورُ الْعَظِيمَةُ الْفَخْمَةُ الَّتِي كَانُوا قَدْ عَمَرُوها وَجَدُوا لَهَا أَثراً يَنْفَعُهُمْ، وَلَا بَقَايَا مِنْهَا تُؤْوِيهِمْ.

ولَا الْجُيُوشُ الَّتِي كَانُوا قَدْ جَنَّدُوها لِحِمَايَتِهِم وَنُصْرَتِهِمْ وَجَدُوا لَهَا أَثَراً يَنْفَعُهُمْ، فَيَصْرِفُ عَنْهُمْ شَيْئاً مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ.

ولَا المناصِبُ الرَّفِيعَةُ الَّتِي كَانُوا قَدْ تَعَاظَمُوا بِهَا على عباد اللهِ، وَجدُوا لها أثراً يَنْفَعُهُمْ.

وَلَا الْجَنَّاتُ الَّتِي بَذَلُوا لِزِرَاعَتِها، وَأَنْفَقُوا في إِنْشَائِهَا أَمْوَالاً وَفِيرَةً، وَأَعْمَالاً مُضْنِياتٍ، وَجدُوا لَهَا أثراً يَنْفَعُهُمْ.

لَقَدْ ذَهَبَتْ كُلُّهَا كَمَا ذَهَبَ الماضِي الْغَابر، ولَمْ تَبْقَ مِنْهَا إِلَّا ذِكْرياتٌ، مُورِثَاتٌ لِلْحَسَرَاتِ، إِذْ ضَاعَ السَّعْيُ فِيهَا دُونَ أَنْ تَبْقَىٰ لَهُ آثَارٌ حَسَنَاتٌ.

فأتْعِسْ بالمغْرُورِينَ الَّذِينَ يَحْسَبُونَ بِغُرُورِهِمْ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً، وَهُمْ كَمَنْ يَحْرُثُ فِي الْبَحْرِ، أَوْ يَكْتُبُ بأصْبَعِهِ في الْهَوَاءِ.

ومِنْ سَعْيِهِم الضَّائِعِ أَعْمالٌ صَالِحَةٌ لَا يَبْتَغُونَ بِهَا رِضْوَانَ اللهِ وَثَوَابَ الآخِرَة، إِنَّما يَفْعَلُونَهَا لِلْمَدْحِ والثَّنَاءِ والشُّهْرَةِ، أَوْ بِعَاطِفَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ خاصَّةٍ لَا صِلَةَ لَهَا بالقاعِدَةِ الإيمانيَّة لِدِين اللهِ، أو يتوهَّمُونَ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُمْ إِلَىٰ اللهِ إِلَّا أَنَّهم مشركون، أو مُبْتَدِعُونَ لَا يَعْمَلُونَ وِفْقَ شريعة الله، كالأحبارِ والرُّهبان، ومَنْ على شاكلتهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ سَبَبَ ضَلَالِ سَعْيِهِمْ.

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾﴾:

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: المشَارُ إِلَيْهِمْ باسْمِ الإشارَة هٰذَا الموضُوعِ للْمُشَارِ إِلَيْهِم الْبَعِيدين، هُم الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحياة الدُّنيا، أي: أُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ في اتّجاه الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النار، لَهُمْ وَصْفَانِ من أَوْصَافِ الكفر:

الوصْفُ الأوّل: دَلَّ عَلَيْه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾: إذْ رَفَضُوا الإيمن بِهَا بَعْدَ إِدْرَاكِها، ومَعْرِفَةِ دَلَالَاتِها، وآياتُ رَبِّهِمْ هِي:

(١) الآياتُ الكونيَّة الدَّالَّاتُ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَات الله العظمىٰ، وأسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ.

(٢) الآيَاتُ البيانيَّةُ المنزَّلَةُ عَلَىٰ رُسُلِهِ في كُتبهِ.

(٣) الآيَاتُ الإعجازِيَّةُ الدَّالَّاتُ على صِدْقِ رُسُلِهِ المبلِّغين عنه.

(٤) الآيَات الجزائيَّةُ الدَّالَّاتُ عَلَىٰ رُكْنِ الجزاء الرَّبَّانِيِّ مِنْ أَرْكان الْإِيمَانِ فِي الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبادِه.

الوصف الثاني: دَلَّ عَلَيْهِ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾: وَكَفَرُوا بِلِقَائِهِ

يَوْمَ الدِّينِ، أي: وَكَفَرُوا بالْبَعْثِ والْيَوْمِ الآخر، والْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء، والجزاء، وكَفَرُوا بالجنَّةِ وَمَا فِيها مِنْ نَعِيم، وَكَفَرُوا بالنَّارِ وَمَا فِيهَا مِنْ عَذَاب.

أي: وَبِسبَبِ كُفْرِهِمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ انْطَلَقُوا في الحياة الدنيا وراء أهوائِهم، وشهواتِهم، وَلَذَّاتِهِمْ، ومطالِبِهِمْ نفوسِهِمْ من مَتَاعَاتِ الدُّنيا، لَا يَعْبَؤُونَ بطاعَةِ رَبِّهِم، وابتغاءِ مَرْضَاتِهِ، واجتياز رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنْيَا بنجاحِ وفلَاحِ وفَوْزِ بالنَّعِيمِ المقيم.

وَبِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، لَمْ يَبْقَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ عَمَلٌ صَالِحٌ يُثَابُونَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ أَعْمالٌ صَالِحَةٌ يُثِيبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ مِثْلِهَا بِشَرْطِ الإيمانِ، فإِنَّ اللهَ يُبْطِلُهَا لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوهَا طَاعَةً لَهُ، وَلَا تَقَرُّباً إِلَيْهِ، ولا ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي الآيَة:

• ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾: أي: فَبطَلَتْ أَعْمَالُهُمُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ يُثَابَ عَلَيْهَا المؤمِنُ. وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يُحَقِّقُ الغَايَةَ السَّارَّةَ مِنْهُ فَقَدْ حَبِطَ، أي: بَطَلَ.

وَإِذَا حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ الَّتِي هِيَ مِنْ جِنْسِ الأعْمَالِ الصَّالِحَةِ، لَمْ يَبْقَ في صَحَائِفِهِمْ إِلَّا السَّيِّئَاتُ، وَهِيَ لَا مُقَابِلَ لَهَا مِنَ الحَسَنَاتِ حَتَّىٰ تُوزَنَ مَعهَا، في مِيزَانِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، فَلَا يُقِيمُ اللهُ الْجَلِيلُ الْعَظِيم لَهُمْ وَزْناً يَزِنُ بِهِ حَسَنَاتِهِمْ وَسَيِّئَاتِهم، دَلَّ عَلَىٰ هذا قول اللهِ تَعَالَىٰ في الآيَةِ:

• ﴿. . . فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾:

الوَزْن: مَصْدَرُ: «وَزَنَ الشَّيْءَ» أي: قَدَّرَهُ بِوَسَاطَةِ الميزان.

أي: فَلَا نُنْشِئُ لَهُ عَمَلِيَّةَ وَزْنٍ نَزِنُ بها حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ، إِذْ يَأْتي يَوْمَ القيامَةِ لَيس لَهُ حَسَنَات تُوزَنُ في كِفَّةِ الحسنات.

• ﴿نُقِيمُ﴾: أي: نُنْشئُ ونُحْدِث، يُقالُ لغة: «أَقَامَ الشَّيْءَ» أي: أَنْشَأَهُ مُوَفِّياً حَقَّهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُشِيراً إِلَىٰ جَزَائِهِمْ يَوْم القيامَة:

• ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا (١٠٦)﴾:

• ﴿ذَٰلِكَ﴾: المشارُ إِلَيْهِ فِيمَا أَرَىٰ مَنْزِلُهُمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ القِيامَة، وَفِيهِ صُوَرٌ مِنْ مَشَاهِدِ الْعَذَابِ الّذِي سَوْفَ يُعَذَّبُونَهُ بَعْدَ دُخُولِهِم دارَ عَذَابهم وَوُصُولِهِمْ إِلَىٰ مَوْقِعِهِمْ، واللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد.

• ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾: خَبَرُ ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: مَنْزِلُهُمْ يَوْمَ القيامَةِ فِي دَارِ عَذَابِهِمْ، الَّذِي فِيهِ صُورٌ مِنْ مَشَاهِدِ الْعَذَابِ الَّذِي سَوْفَ يُعَذَّبُونَهُ يَوْمَ الدِّين هُوَ جَزَاؤُهُمْ.

• ﴿جَهَنَّمُ﴾: بَدَلٌ أَوْ عَطْفُ بيان، والْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ باعْتِبَارِ أَنَّهُ يَكُونُ فيها، أي: جَزَاؤُهُمْ عَذَابٌ فِي جَهَنَّم.

وقد سبَقَ قَرِيباً بَيَانُ جهَنَّم.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سَبَبَ اسْتِحْقَاقِهِمْ هٰذَا الجَزَاءَ الأَلِيمَ، بقوله فِي الآيَة:

• ﴿... بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا (١٠٦)﴾:

أي: بِسَبَبِ كُفْرِهِم واتِّخَاذِهِمْ آيَاتِي وَرُسُلِي شَيْئاً مَهْزُوءاً بِهِ.

«الباء» معناها السبب. «مَا» مَصْدَرِيَّة، تُؤَوَّلُ مَعَ مَا بَعْدَهَا بِمَصْدَر. أي بِسَبَبِ كُفْرِهِم.

﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟﴾ مَعْطُوف عَلَىٰ ﴿كَفَرُوا۟﴾ فَلَهُ حُكْمُ التَّأْوِيلِ بِمَصْدَر.

أي: وَبِسَبَبِ اتِّخَاذِهِمْ بِمَعْنَىٰ: «جَعْلِهِمْ». ﴿ءَايَٰتِى﴾: أي: آيَاتِي

الْبَيَانِيَّةَ المنزَّلَاتِ عَلَىٰ رُسُلِي ﴿هُزُوًا﴾: مَصْدَرٌ اسْتُعْمِل بِمَعْنَىٰ اسْمِ المفْعُولِ، أي: مَهْزُوءاً بِها وَمَسْخُوراً مِنْها، وإطلاقُ المصْدَرِ بِمَعْنَىٰ اسْمِ المفْعُولِ أَبْلَغُ مِنْ اسْتِعْمَالِ اسْم المفْعُول.

وَلَا بُدَّ أَنْ نُلاحِظَ أَنَّ النَّصَّ هُنَا يَتَحَدَّثُ عَنْ كُلِّ الْكَافِرِينَ مِنْ كُلِّ الْأُمَمِ الَّذِينَ أَرْسَلَ اللهُ لَهُمْ رُسُلاً، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في التَّعْلِيم مُبَيِّناً ثَوابَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات، في مُقَابِلِ بَيَانِهِ جزاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا واتَّخذُوا آيَاتِهِ ورُسُلَهُ هُزُواً:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾:

• ﴿ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ وَسَطُ الجنَّةِ وأَعْلَاهَا، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ، ومِنْهُ تُفَجَّرُ أنْهَارُ الجنَّة. وأَصْلُ كَلِمَة «الْفِرْدوس» البستانُ الجامعِ لِكُلِّ مَحَاسِنِ الْبَساتين.

روى البخاريّ ومُسْلِمٌ وغيرهُما مِنْ حديث أبي هريرة، قال: قال رسُولُ اللهِ ﷺ:

«إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ وسَطُ الْجَنَّةِ، وأَعْلَىٰ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمٰن، ومِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّة».

وروى أحمد، والترمذي، والحاكم والبيهقيُّ، عَنْ عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ، أَنَّ النبيّ ﷺ قَالَ:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَة، كُلُّ دَرَجَةٍ مِنْهَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، والْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً، ومِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ العَرْشُ، ومِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الأَرْبَعَةُ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللهَ فاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوسَ».

• ﴿نُزُلًا﴾: النُّزُلُ مَا يُعِدُّهُ الإنْسَانُ لِضَيْفِهِ.

• ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾: أي: لَا يَبْغُونَ انْتِقَالاً عَنْهَا. **الْحِوَلُ**: الانْتِقَالُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَىٰ مَوْضِعٍ.

المعنى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً كامِلاً صَادِقِينَ فِيهِ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الَّتِي طَلَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَعْمَلُوهَا، وأَدَّوْهَا وَافِيَةً، ثَبَتَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلَ ضِيَافَةٍ لَهُمْ مِنَ اللهِ رَبِّهِمْ، جزاءَ إيمانِهِمْ وصَالِحَاتِ أَعْمَالِهِمْ، حَالَةَ كَوْنِهِمْ خالِدِينَ فيها لا يَبْغُونَ تَحوُّلاً عَنْها، لِأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهَا أَقَلُّ مِنْها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في التعليم الدَّعَوِيّ لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾:

الْمِدَاد: كُلُّ سَائِلٍ يُكْتَبُ بِهِ.

الْمَدَدُ: مَا يُمَدُّ بِهِ الشَّيْءُ مِنْ إِضَافَةٍ وَزِيَادة، سَبَقَ في سورة (لقمان/٥٧ نزول) حَوْل مَوْضوع هَـٰذِهِ الآيَة قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾:

عِلْمُ الله جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَحَاط بكلِّ شيء واجِب الْوُجُودِ، وَمُسْتَحِيلِ الْوُجُود، وَجَائِزِ الْوُجود مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا هُو كائِنٌ وَمَا سَيَكُونُ وَمَا سَوْف يَكُونُ.

وَلِكُلِّ مَعْلُومَةٍ مَشْمُولَةٍ بِعِلْمِ اللهِ كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِ اللهِ تَدُلُّ عَلَيْهَا، وَتَقْرِيباً لِأَذْهَانِ النَّاسِ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ هَـٰذِهِ الكَلِمَاتِ لَوْ كُتِبَتْ بِمِدَادٍ مَا، يُعَادِلُ بُحُورَ الدُّنْيَا لَنَفِدَتْ هَـٰذِهِ الْبُحُورُ دُونَ أَنْ تَسْتَوْعِبَ الكِتَابَةُ كَلِمَاتِ اللهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ مُتَفَاصِلَاتٍ مِنَ المعَانِي.

وَلَكِنْ مَا هِيَ الْحِكْمَةُ مِنْ ذِكْرِ الإمْدَادِ بِسَبْعَةِ أَبْحُرٍ في آية سُورَة (لُقْمَان/ ٥٧ نزول) والاكْتِفَاءِ بالإمْدَادِ بِبَحْرٍ مِثْلِ بَحْرِ الدُّنيا، وَفِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ لَا تَنْفَدُ كَلِمَاتُ اللهِ؟

ويَخْطُرُ لي في الإجابَةِ عَلَىٰ هذا السؤال مَا يلي:

إِنَّ آيَةَ سورة (لُقْمان) أَبَانَتْ أَنَّ بَحْرَ الدُّنْيَا يُمِدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ، لَوْ كَانَتْ مِداداً لِأَقْلَام يَكْتُبُ بِهَا النَّاسُ فيما يَسْتَعْمِلُونَ مِنْ أَقْلَامٍ، لَنَفِدَتِ الْأَبْحُرُ السَّبْعَةُ، دُونَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ الله.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَقْلَامَ النَّاسِ المصْنُوعَةَ مِنَ الْأَشْجَارِ، تَحْمِل رُؤُوسُهَا مِنَ الْمِدَادِ مِقْدَاراً يَزِيدُ كثيراً عَنِ الكِتَابَةِ بِمِثْلِ رُؤُوسِ إِبَرِ النّحْلِ، أو الكِتَابَةِ بِوَسائِلَ أُخْرَىٰ أَكْثَرَ صِغَراً وَدِقَّةً.

فجاءَتْ آيَةُ سُورَة (الكهف/ ٦٩ نزول) بَعْدَهَا خَالِيَةً مِنْ ذِكْرِ الْأَقْلَامِ الَّتِي تُصْنَعُ مِنَ الشَّجَرِ، مَعَ الاكْتِفَاءِ بالإمْدَاد بِبَحْرٍ مِثْلِ بَحْرِ الدُّنيا، لِلْإِشَارَةِ إِلَىٰ إِمْكَانِ اتِّخَاذِ وَسِيلَةِ كِتَابَةٍ لَا تَسْتَهْلِكُ مِنَ الْمِدَادِ إِلَّا نَحو رُبْعِ مَا تَسْتَهْلِكُ الْأَقْلَامُ الْمَعْرُوفَةُ للنَّاسِ أَوْ أَقلَّ.

فَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ، والْبَيَانُ فِيهما بَيَانٌ تَقْرِيبيٌّ لِأَذْهَانِ النَّاسِ، واللهُ أعلم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي التَّعْلِيم الدَّعوِيّ لِرَسُولِهِ ﷺ:

● ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾:

يَأْمُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بِأَنْ يُبَيِّنَ للنَّاسِ ثَلَاثَ قَضَايا:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: أَنَّهُ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ تَكْوِينِ خَلْقِهِ لَيْسَ إِلَّا إِنْسَاناً بَشراً، لَا مَلَكاً كَمَا يَطْلُبُ الْمُشْرِكُونَ، وَلَا فَوْقَ ذَلِكَ، دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: مَا أَنَا بالنِّسْبَةِ إلى تَكْوِيني إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، آكُلُ كما يَأْكُلُ النَّاسُ، وأَشْرَبُ كَمَا يَشْرَبُ النَّاسُ، وأمْشِي في الْأَسْوَاقِ لِتَحْقِيقِ مَطَالِبِ حَيَاتي، وأتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَحَاجَاتِي في الْحَيَاةِ كَسَائِرِ حَاجَاتِ النَّاسِ، وَلَا أَدَّعِي أَنِّي مَلَكٌ، أَوْ لِي طَبِيعَةٌ تُخَالِفُ طَبِيعَةَ سَائِرِ الْبَشَرِ بالنِّسْبَةِ إلى أَصْلِ تَكْوِيني.

القَضِيَّةُ الثَّانِيَة: أَنَّهُ نبيٌّ وَرَسُولٌ يُوْحَىٰ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ لِلْعِبَادِ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ، هُوَ اللهُ رَبُّهُمُ الَّذِي لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ سواه، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ قول اللهِ تَعَالَىٰ لرسوله فِي الآيَة: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: أي: لَا مَعْبُودَ لَكُمْ بِحَقٍّ إِلَّا مَعْبُودٌ وَاحِدٌ هُوَ المسْتَحِقُّ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وهُوَ اللهُ خَالِقُكُمْ وَالْمُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَوَاماً.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ النَّاسَ في الحياة الدُّنْيا مَوْضُوعُونَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، وَأَنَّهُم مَجزِيُّون عَلَىٰ مَا يَخْتَارُون بإرداتِهِمْ الْحُرَّةِ مِنِ اعْتِقَادٍ أَوْ عَمَلٍ ظاهِرٍ أَوْ باطِنٍ، وَأَنَّ الجزاءَ الأَوْفَىٰ يَكُونُ يَوْمَ الدِّين بَعْدَ الْبَعْثِ، فَمَنْ كَانَ يَتَوَقَّعُ أَنَّهُ سَوفَ يَلْقَىٰ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيُحَاسِبَهُ، وَيَفْصِلَ الْقَضَاءَ بِشَأْنِهِ، وَيُنَفِّذَ فِيهِ جَزَاءَهُ بالْفَضْلِ أو بالْعَدْلِ، وَأَنَّهُ أَعَدَّ لِلْجَزَاءِ دَارَيْنِ: دَاراً لِلنَّعِيم هِي الْجَنَّة، وَدَاراً لِلْعَذَابِ هِيَ النَّار، فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً يُرْضِي بِهِ اللهَ رَبَّهُ، وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَتِهِ أَحداً لِيَقِي نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ النَّار، وَلِيَظْفَرَ بِالْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

دَلّ على هَـٰذِهِ الْقَضِيَّة بمَنْطُوقِ اللَّفْظِ وَلَوازِمِهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في الآيَة:

• ﴿... فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾:

﴿يَرْجُواْ﴾: أي: يَتَوَقَّعُ، الرَّجَاءُ في اللُّغَةِ التَّوَقُّعُ لِمَرْغُوبٍ فِيهِ، أَوْ مَكْرُوهٍ مَخُوفٍ مِنْهُ.

• ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: أَيْ: ممَّا دَعَا اللهُ إِلَىٰ عَمَلِهِ فِعلاً أَوْ تَرْكاً، إِلْزَاماً أَوْ تَرْغِيباً.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر سُورَة (الكهف)

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٦)
ملحق: مستَخرَجَات بلاغية من سورة (الكهف)

توجد في سورة الكهف اختياراتٌ بلاغيَّة نَفِيسَةٌ وكثيرةٌ، اسْتَخْرَجتُ مِنْها ما يلي:

أولاً: فنيَّةُ عرضِ لَمَحَاتٍ مِن الْقِصَةِ بارِزَاتٍ مُوجَزَاتٍ ثُمَّ تَفْصِيلُ مَا يُرَادُ تَفْصِيلُهُ منها

من الفنون البديعة في عَرْضِ القصص إيرادُ مُوجَزٍ عَامٍّ يَدُلُّ عَلَىٰ أبْرَزِ عَنَاصِرِهَا الكُبْرَىٰ، ثُمَّ إتْبَاعُ هـٰذَا الموجزِ بالتَّفْصِيلِ المرادِ ذِكْرُهُ، ومِنْ هـٰذَا مَا جَاءَ في قِصَّةِ أَهْلِ الكهف.

• فالإيجاز العامُّ جَاءَ في الآيات مِن (٩ ـ ١٢).

• وتفصِيلُ المرادِ تَفْصِيلُهُ مِنَ القِصَّة، جاء في الآيَات من (١٣ ـ ٢٦).

ثانياً: من فُنُونِ البلاغَةِ: «الإيجازُ بالحذْف»

ومِنْ أمثلتِهِ في سورة (الكهف) ما يلي:

المثال الأول: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾:

جملة: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ دلَّتْ على جُمْلَةٍ مَطْوِيَّةٍ مَحْذُوفَةٍ، وَهَـٰذِهِ المذكُورَةُ واقِعَةٌ مِنَ المحذوفَةِ موقع التعليل، ويُمْكِنُ تقدير المحذوفَةِ بنحو: «لَهُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ عندنا» أي: لِأَنَّنَا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أحْسَنَ عملاً.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ... (٣٩)﴾:

عبارة: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مُخْتَزَلَةٌ بِأُسْلُوب الحذف مِنْ عبارة: «هـٰذَا مَا شَاءَهُ الله» أَوْ نَحْوِهَا.

المثال الثالث: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا (٤٢)﴾:

أي: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ إحـاطَـةَ إِهْـلَاكٍ وَإِتْـلَاف ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ يَضْرِبُ عُلْيَاهُمَا عَلَىٰ سُفْلَاهُمَا حَسْرَةً وَنَدَماً ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ مِنْ ثِمَارِهَا وَمُتَسَاقِطَةُ الْأَغْصَانِ ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

ثالثاً: من الفنون البلاغية «الاستعارة»

وَمِنْ أَمْثِلَةِ الاسْتِعَارَةِ فِي هـٰذِهِ السورة ما يلي:

المثال الأول: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿.... وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ... (٥٦)﴾:

اسْتُعِير الفِعْل في ﴿لِيُدْحِضُوا۟﴾ وهُو في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ: «لِيُزْلِقُوا» للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ إِخْرَاجِ المحاوِرِ الْخَصْم مِنَ الحقِّ الَّذِي هو عَلَيْهِ، إلى اعْتِقَادِ الباطل، بوسِيلَةٍ تُشْبِهُ الإزْلَاقَ في المزالق.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ مُوسَىٰ والخضرِ عَلَيْهِمَا السلام:

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ... ٧٧﴾:

استعير فعل «يُرِيدُ» للدّلَالَة به على الميْلِ الآيلِ إلى السُّقُوط، ومعلوم أنَّ الجدار لَيْسَ لَهُ إرادة. وهٰذِهِ من الاستعارات الْبَدِيعة القائِمَةِ عَلَىٰ تَشْبِيهِ غَيْرِ الحيّ بذِي حياةٍ وإرادَة.

رابعاً: اعتنىٰ البلاغيّون بالْقَصْر الحقيقي والإضافي

ومن أمثلة الْقَصْر في هَـٰذِهِ السورة ما يلي:

المثال الأوّل: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذِين قالوا: اتَّخَذَ اللهُ ولَداً:

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥﴾:

عبارة: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ فيها قَصْرٌ بالنَّفْي والاستِثْنَاءِ، وَهُوَ قَصْرٌ إضَافِي، أي: بالإضَافَةِ إلَىٰ قَوْلِهِمُ الَّذِينَ يَنْسُبُونَ فِيهِ الْوَلَدَ إلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ ... ٥٦﴾:

فِي هـٰذَا البيان قَصْرٌ بالنَّفْي والاسْتِثْنَاءِ، وهُو قَصْرٌ إضَافِي، أي: بالإضَافَةِ إلَىٰ تَصَوُّرِ أَنَّهُمْ مُجْبِرُونَ مُكْرِهُونَ.

خامساً: من الفنونِ البلاغيَّةِ اسْتِعْمَالُ الاسْتِفْهَامِ فِي غَيْرِ طَلَبِ الإفْهام

ومن أمثلته في هَـٰذِهِ السورة ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾؟:

استفهامٌ يُرَادُ به النفي، أي: لَا تَحْسَبْ أنَّ هَـٰذِهِ الآيَةَ هِيَ المثيرة وَحْدَهَا للعجب من جُمْلَةِ آياتنا، إذْ كُلُّ آياتِنَا في كَوْنِنَا مُثِيراتٌ لِعَجب العقلاء.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾؟:

ونظيرُه قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ... ﴿٥٧﴾﴾:

أي: لَا أَحَدَ أَظْلَم مِنْ هذا، وَلَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْ هـٰذَا، بَلْ هـٰذَانِ الفريقان هُمَا مِنْ أَظْلَمِ الظَّالِمِينَ.

فالاستفهام يُرادُ بِهِ النفي.

المثال الثاني: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ المحاوِرِ المؤْمِنِ:

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾؟:

الاستِفْهام مُسْتَعمَلٌ في الْإِنْكَار عَلَىٰ صاحِبهِ، فهو استفهامٌ إنكاريٌّ.

المثال الثالث: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ إبْلِيس خطاباً للنَّاس:

﴿... أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾؟:

الاستفهام في هـٰذَا البيانِ إنْكَارِيٌّ تَوْبيخِيٌّ تَلْويمي.

سادساً: مِمَّا اعْتَنَىٰ بِهِ الْبَلَاغِيُّونَ اشْتِمَالُ الجملة على التوكيد لِدَاعٍ بلاغي

ومن أمثلته في السورة ما يلي:

المثال الأول: قَوْل اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذِينَ قَالُوا: اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً:

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ... ﴿٥﴾﴾:

جاء التوكِيدُ في هٰذَا البيانِ بزيادة حرف «مِنْ» والغرض توكيدُ عُمُوم النفي والتنصيصُ عَلَيه.

ونظيره: ﴿... مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ ... ﴿٢٦﴾﴾.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾:

في الآية (٧) جَاءَ التوكيد بـ «إِنَّ ـ والْجُمْلَةِ الاسْمِيَّة» وفي اسْتِعْمَالِ ضَمِيرِ المتكلّم العظيم معنى التوكيد أيضاً.

وكذلِكَ في الآية (٨) مع إضافة التوكيد «باللَّام المزحْلَقَة» لِأَنَّ مضْمُونَهَا يَحْتَاجُ زِيَادَةَ تَوْكيد.

المثالث الثالث: قول الله تَعَالَىٰ، حكايَةً لِقَوْلِ المحاور المؤمن:

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾:

جاء التوكيد في عبارته بالمؤكدات: «الجملة الاسمية ـ ضمير الشَّأن ـ الخبر المؤلف مِنْ جُمْلَةٍ مُعَرَّفَةِ الطَّرفَيْن تُفِيدُ الْقَصْر».

وأكتفي بهذه المستخرجات، والحمد لله على معنوته، ومَدَدِه، وتوفيقه، ومنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

❋ ❋ ❋

سُورَة النحل

١٦ مصحف ٧٠ نزول

وهي مكّيَّةٌ كلُّها في قول الجمهور
وقيل: إلّا الآيَات الثلاث الأخيرة
منها فهي مدنية

(١)

نص السورة وَمَا فيها من فرشِ القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾
يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ
أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ
مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ
لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ
فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ
أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ
رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا

---

١ و٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [عَمَّا تُشْرِكُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عَمَّا يُشْرِكُونَ]. وبين القراءتين تكامل بياني.

٢ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ورويس: [يُنْزِلُ الْمَلاَئِكَةَ] من فعل «أَنْزَلَ» المهموز وقرأها روح: [تَنَزَّلُ الْملاَئِكَةُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ] من فعل «نَزَّلَ» المضعف. والمؤدَّىٰ واحد.

٢ ـ • قرأ يعقوب: [فَاتَّقُونِي] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فاتَّقُونِ] بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

٧ ـ • قرأ أبو جعفر: [بِشَقِّ الأَنْفسِ].
وقرأَها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِشِقِّ الأَنْفسِ] شِقٌّ وشَقٌّ: الْجَهْدُ والمشقة.

٧ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وحفص وأبو جعفر: [لَرَؤُوفٌ]. =

وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ
وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ
وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ
حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟
مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ
رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾
وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ

= وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَرَؤُوفٌ].

١١ ـ • قرأ شعبة: [نُنبِتُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُنبِتُ].

١٢ ـ • قرأ ابن عامر: [والشَّمْسُ والْقَمَرُ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ].
وقرأَها حفص: [والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ].

١٤ ـ • قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكِسائي، وأبو جعفر. [وَهْوَ] بإسكان الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَهُوَ] بضم الهاء.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ
﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ
يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ
﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم
مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا
يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا
أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم
بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ
ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ

---

١٧ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [تَذَكَّرُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَذَّكَّرُونَ].
٢٠ ـ • قرأ عاصم، ويعقوب: [يَدْعُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَدْعُونَ].
٢٦ ـ • قرأ أبو عمرو: [فَخَرَّ عَلَيْهِمِ السَّقْفُ].
وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [فَخَرَّ عَلَيْهُمُ السَّقْفُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ].
وكلٌّ مِنْهُمْ على أَصْلِهِ في الوقف، فحَمْزَةُ وَيَعْقُوبُ بِضَمِّ الهاء، والباقُون بِكَسْرِها.
٢٧ ـ • قرأ يَعْقُوب: [يُخْزِيهُمْ] و[فِيهُمْ] بضم هاء الضمير فيهما. وقرأها باقي=

كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ
وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ
أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ
أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ
وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ
يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ
يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾
هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ
فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا

= القراء العشرة [يُخْزِيهِمْ] و [فِيهِمْ] بِكَسْرِ هاء الضمير فيهما.

٢٧ ـ • قرأ نافع: [تُشَاقُّونِ] بِكَسْرِ النون. أي: تُشَاقُّونَني وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تُشَاقُّونَ] بفتح النُّون.

٢٨ و٣٢ ـ • قرأ حمزة، وخلف: [يَتَوَفَّاهُمْ] في الموضعين.
وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَتَوَفَّاهُمُ].
وهما وجهان عَربيان جائزان.

٣٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [أَنْ يَأْتِيَهُمُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنْ تَأْتِيَهُمُ].
وهما وجهان عَرَبيَّان جائزان.

كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا
عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن
دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ
إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا
أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ
وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُواْ
بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي
يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾
إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

٣٤ ـ • قرأ أبو جعفر: [يَسْتَهْزُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَسْتَهْزِئُونَ].

٣٦ ـ • قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: [أَنِ اعْبُدُوا] بكَسْرِ النون.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنُ اعْبُدُوا] بضمِّ النون، مُراعاةً لضَمّ باء «اعْبُدُوا».

٣٧ ـ • قَرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [لَا يَهْدِي] أي: لَا يَحْكُمُ بالْهِدَاية مَنْ يُضِل.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا يُهْدَىٰ] أي: لَا يُهْدَىٰ عَلَيْهِ.

٤٠ ـ • قرأ ابْنُ عامر، والكسائي: [كُنْ فَيَكُونَ] بِنَصْبِ «يَكُونَ».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [كُنْ فَيَكُونُ] بالرَّفع، أي: فهو يكون.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا
حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ
صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا
رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ
﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا
نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا
يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾
أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ

٤١ ـ • قرأ أبو جعفر: [لَنُبَوِّيَنَّهُمْ] وكذلكَ حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَنُبَوِّئَنَّهُمْ].
وهما وجهان عَربيانِ في النطق.
٤٣ ـ • قرأ حفص: [نُوحِي].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُوحَىٰ].
٤٣ ـ • قرأ ابْنُ كثير، والكسائي، وخلف: [فَسَلُوا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَاسْأَلُوا] وهما وجهان عَرَبيان.
٤٤ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضم الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَيْهِمْ] بِكَسْرِ الهاء.
٤٥ ـ • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [بِهِمْ الْأَرْضَ] بكسر الهاء والميم.
وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف: [بِهُمُ الْأَرْضَ] بضم الهاء والميم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِهِمُ الْأَرْضَ] بِكَسْرِ الهاء وضم الميم.
٤٧ ـ • قرأ نافع، وابْن كثير، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر: [لَرَؤُوفٌ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَرَؤُفٌ].
وهما وجهان عربيان في النطق.
٤٨ ـ • قرأ حَمْزَة، والكِسَائِي، وخلف: [أَوَ لَم تَرَوْا].
=

إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَنفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ
سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾
يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ
لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾
وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ
﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ
تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ
يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾
وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا
كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا
يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ
كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ
هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

= وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَوَ لَمْ يَرَوْا].
وبين القراءتَيْن تكاملٌ في الأداء البياني.

٤٨ ـ • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [تَتَفَيَّؤُا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَتَفَيَّؤُا].

٥١ ـ • قرأ يعقوب: [فَارْهَبُونِي] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَارْهَبُونِ] بحذف ياء المتكل وصلاً ووقفاً.

ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن
دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا
يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا
يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ
أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ
مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ
أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى
بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن
ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى

٦١ ـ • قرأ ورش، وأبو جعفر: [يُوَاخِذُ] و[يُوَخِّرُهُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُؤَاخِذُ] و[يُؤَخِّرُهُمْ].

٦٢ ـ • قرأ نافع: [مُفْرِطُونَ].
وقرأها أبو جعفر: [مُفَرِّطُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مُفْرَطُونَ].

٦٣ ـ • قرأ قَالُون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: [فَهْوَ] بإسكانِ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَهُوَ] بِضَمّ الهاء.

٦٦ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وشعبة، ويعقوب [نَسْقِيكُمْ].
وقرأها أبو جعفر: [تَسْقِيكُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نُسْقِيكُمْ] من فعل: «أَسْقَىٰ».

ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى
مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ
أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا
يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ
بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ
عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ
﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ
أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ
وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ
﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

---

٦٨ ـ ● قرأ ورْشٌ، وأبو عمْرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [بُيُوتاً] بضم الياء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِيُوتاً] بِكَسْرِ الياء. وهما لغتان.

٦٨ ـ ● قرأ ابن عامر، وشُعْبَة: [يَعْرُشُونَ] بضمّ الراء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَعْرِشُونَ] بِكَسْرِ الراء.

وهما لغتان عربيتان لمعنى واحد.

٧١ ـ ● قرأ شعبة، ورُويس: [تَجْحَدُونَ] بتاء الخطاب.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَجْحَدُونَ] بياء الغيبة.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأَدَاء البياني.

۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن
رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ
يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ
ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ
كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى
هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ
غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ
أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ
ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟
إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ

٧٦ ـ • قرأ قالون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: **[وهْوَ]** بإسْكان الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَهُوَ]** بضمّ الهاء.

٧٨ ـ • قرأ حمزة: **[مِنْ بُطُونِ إِمِّهَاتِكُمْ]** بِكَسْرِ الهمزة والميم المشدّدة فِي حَالة الوصل ببطون.
وقرأها الكِسائي: **[إِمَّهَاتِكُمْ]** بكَسْر الهمزة وفتح الميم المشدّدة في حالَةِ الوصل أيضاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[أُمَّهَاتِكُمْ]** بضم الهمزة وفتح الميم المشددة في حالَتَي الوصْلِ وعَدَمِهِ.

٧٩ ـ • قرأ ابْنُ عَامر، وحمزة، ويعقوب، وخلف: **[أَلَمْ تَرَوْا]** بتاء الخطاب.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[أَلَمْ يَرَوْا]** بياء الغيبة.
وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ
ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا
وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ
تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ
نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ
لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾
وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا
ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ

٨٠ ـ • قرأ ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [بُيُوتِكُمْ] بضمّ الباء. وكذا: [بُيُوتاً].
وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِيُوتِكُمْ] و[بِيُوتاً] بكسر الباء.

٨٠ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [ظَعَنِكُمْ] بفتح العين.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [ظَعْنِكُمْ] بإسكان العين.

٨٦ ـ • قرأ أبو عمرو: [إِلَيْهِمِ الْقَوْلَ] بكسر الهاء والميم.
وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [إِلَيْهُمُ الْقَوْلَ] بضم الهاء والميم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ] بكَسْر الهاء وضمّ الميم.
وهم على أُصولِهِمْ في الوقف، فحمْزَة، ويعقوب بضمّ الهاء، والباقون بِكَسْرِها.

لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا
كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ
نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ
شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ
بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُواْ
بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا
وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ
﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا
تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ
أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ
فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن
يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ

٨٩ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عَلَيْهِمْ] بكسر الهاء.
٩٠ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [تَذَكَّرُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَذَّكَّرونَ] أصْلُها «تَتَذَكَّرُون» أُدْغِمَتِ التّاء الثانية بالدّال.

تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ
ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ
هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا
عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ
مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ
ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ
مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ

٩٦ ـ • قرأ ابن كثير: [بَاقِي] في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بَاقٍ] في الوصل والوقف، ووافقهم ابن كثير في حالة الوصل.

٩٦ ـ • قرأ ابنُ كثير، وعاصم، وأبو جعفر: [وَلَنَجْزِيَنَّ] بالنون. وأحَدُ وَجْهَيْنِ لابن ذَكوان.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَيَجْزِيَنَّ] بالياء، وهو الوجهُ الثاني لابن ذَكْوان.

٩٨ ـ • قرأ السوسي، وأبو جعفر: [قَرَاتَ] وكذلِكَ حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [قَرَأْتَ].

٩٨ ـ • قرأ ابن كثير: [الْقُرَانَ]. وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الْقُرْآنَ].

١٠١ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عَمرو: [بِمَا يُنْزِلُ] من فعل «أَنزَل». =

مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن
رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ
لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ
لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن
كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ
بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ

= وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِمَا يُنَزِّلُ] من فعل «نَزَّلَ».
أنزَلَ ونَزَّلَ مُتكافِئَان.

١٠٢ ـ • قرأ ابن كثير: [الْقُدْسِ] بإسْكان الدَّال.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الْقُدُس] بضم الدّال. وهما لغتان.

١٠٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [يَلْحَدُونَ] بفتح الياء والحاء من فعل «لَحَدَ».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُلْحِدُونَ] بضم الياء وكَسْرِ الحاء، من فعل «أَلْحَدَ».
وهُما لغتان، أي يميلون عن الحق.

١٠٤ ـ • قرأ أبو عمْرو: [لَا يَهْدِيهِمِ اللهُ] بكسر الهاء والميم.
وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوبُ: وخلف: [لَا يَهْدِيهُمُ اللهُ] بضمّ الهاء والميم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ] بكَسْرِ الهاء وضمّ الميم.
وضَمَّ هَاءَ الضمير في الوقف يعقوب.

١٠٦ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [فَعَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَعَلَيْهِمْ] بكَسْرِ الهاء.

ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟
إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى
كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ
ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ
بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟
يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ
ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ
حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ
﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ

---

١١٠ ـ • قرأ ابن عامر: [فَتَنُوا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فُتِنُوا].
١١٥ ـ • قرأ أبو جعفر: [المَيِّتَةَ] بتَشْدِيدِ اليَاءِ مَكْسُورَة.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الْمَيْتَةَ] بإسكان الياء.

أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ
ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُۖ
وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ
رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ
كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾
وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ
أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ

---

١١٥ ـ • قرأ أبو عَمْرو، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: [فَمَنِ ٱضْطُرَّ].
وقرأها أبو جعفر: [فَمَنُ ٱضْطِرَّ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَمَنُ ٱضْطُرَّ].
وهي وجوه عَرَبيةٌ من الأداء.
١٢٠ و١٢٣ ـ • قرأ هشام: [إِبْرَاهَام] في الموضعين.
وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِبْرَاهِيمَ].
١٢١ ـ • قرأ قنبل، ورُويس [سِرَاطٍ] وبإشمام الصاد زاياً خلفٌ عن حمزة.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [صِرَاطٍ].

يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ
وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ
مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ
وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ
مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم
مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

١٢٧ ـ ● قرأ ابن كثير: [فِي ضِيقٍ] بكسر الضاد.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فِي ضَيْقٍ] بفتح الضاد.
وهما لغتان والمعنى واحد.
١٢٧ ـ ● قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عَلَيْهِمْ] بكَسْرِ الهاء.

(٢)
موضوع سورة (النحل)

ظَهَرَ لِي أنَّ موضوعَ سورة (النحل/ ٧٠ نزول) قائم على عرض موجزاتٍ مُكَثَّفَاتٍ، لِكَثِيرٍ مِن كلّيَّاتِ القضايا الّتي سَبَقَ إنْزالُها في السُّوَرِ قَبْلَ هَـٰذِهِ السُّورَةِ بدءاً مِنْ بدايات التَّنْزِيل. وهَـٰذِهِ القضايا تَتَعَلَّقُ بوحدانيَّة اللهِ فِي رُبُوبيته وإلهيَّتِهِ والأدِلَّةِ عليهما، وتتعلّقُ بعَرْضِ نِعَمِ اللهِ على عبادِهِ، وبقانون الجزاء الرَّبَّاني المؤجَّلِ إلى يَوْمِ الدِّين، والمعَجَّلِ منه في الحياة الدُّنيا، وبِعَرْضِ مواقف الكافِرِين من هذه القضايا، ومعالجتهم بما يلائم حالَهُمْ في المرحلَة الَّتِي أُنْزِلَتْ فيها السّورة.

ومن هذه القضايا التحذيرُ من التدخُّلِ البَشَرِي في أحكام التحليل والتحريمِ الدّينيَّة، إذْ هي مِنْ خَصَائِصِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في رُبُوبيّتِهِ وإلَٰهِيَّتِهِ لعباده، ومنها وَصَايَا أوصَىٰ اللهُ بها رسُولَهُ ﷺ، ووصَايا أوصَىٰ اللهُ بها المؤمنين.

وجاء عَرْضُ هَـٰذِهِ الموجزات المكثَّفَاتِ حَوْلَ هَـٰذِهِ القضايا بأسْلُوب المراوحَةِ تَرْكاً وَرُجُوعاً، مع الاسْتِفَادَةِ من مُنَاسَبَاتٍ مُلَائِمَاتٍ لِبَيَانِ حَقائِقَ خارِجَةٍ عَنِ الْخُطُوطِ الكُبْرَىٰ الَّتِي سَارَتْ عَلَيْها آياتُ السُّورَةِ وَفِقراتُها.

(٣)
دروس سورة (النحل)

من الصَّعْب عَلَىٰ المتَدَبِّر أَنْ يُقَسِّمَ هَـٰذِهِ السُّورَة إلى دُرُوسٍ مُتَفَاصِلَةٍ تَفَاصُلاً واضِحاً لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْه، إلَّا أَنَّني اجْتَهَدْت في تَقْسِيمها إلىٰ دُورسٍ وصلت إلى (٢٨) دَرْساً، وهي الدروس التالية:

الدرس الأول: الآيتان (١ و٢).

وفي آيَاتِيْ هـٰذَا الدَّرْسِ مَلَامِحُ الْخُطُوط العامَّةِ الكُبْرَىٰ لموضوع السُّورَةِ.

الدرس الثاني: الآيات من (٣ ـ ٢٣).

وَفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ طائِفَةٍ مِنْ آيَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِكَوْنِهِ، وإلَٰهِيَّتِهِ لعباده، وإنْعَامَاتِهِ عَلَيْهِمْ بِنِعَمٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ إحْصَاءَهَا، وقد جاء فيها ذِكْرٌ مُوجَزٌ لِلْعَدِيدِ مِنْ نِعَمِهِ على عباده.

وفيها استفادةٌ مِن بعض المناسبات لبيانِ قضايَا إقناعِيَّة، وقضَايَا هِيَ مِنْ حَقائق الدِّينِ الكُبْرَىٰ، مَعَ الْمَاحَاتٍ لمطويَّاتٍ تتَّصِلُ بها.

الدرس الثالث: الآيات من (٢٤ ـ ٢٩).

وفي هٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لِقْطَةٍ مِنْ كُفْرِ المشركين المنكرين لمَا أَنْزَلَ الله على رسوله ﷺ، والعامِلين عَلَىٰ إضْلَالِ مَنْ يَتَأَثَّر بهم، مَعَ تَحْذِيرِهِمْ مِنْ عقابَيْنِ مُعَجلٍ في الدنيا وَمُؤَجَّلٍ إلىٰ يَوْم القيامة.

الدرس الرابع: الآيَات من (٣٠ ـ ٣٢).

وفيه عرض لَقْطَةٍ تتعلَّقُ بالمؤمنين المتقين بِشَأْنِ مَا أَنْزَلَ اللهُ على رَسُوله، مع بَيَانِ بَعْضِ مَا يَكُونُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ في جَنَّاتِ عَدْن، وَمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِنْ تَحِيَّةٍ وتكْرِيم.

الدرس الخامس: الآيتان (٣٣) و(٣٤).

وفِيهِ معالجة الكَفَرَة المعانِدِين بالإِنْذَارِ بعذاب عند الموت، أَوْ باسْتئصَالِ بمُعَذِّبَاتٍ مُهْلِكَاتٍ، كَمَا أَنْزَلَ اللهُ بالْأُمَمِ الْمُهْلَكَةِ من كُفَّارِ القرونِ السَّابقة.

الدرس السادس: الآية (٣٥).

وَفِي هٰذِهِ الآية عَرضُ جَدَلِيَّةٍ مِنْ جَدَليَّاتِ المشْرِكِينَ، تَعْتَمِدُ عَلَىٰ مَقُولَةِ أَنَّ النَّاسَ مَجْبُورُونَ في الحياة الدُّنيا غَيْرُ مُخَيَّرِينَ.

مع الرَّد عَلَيْهِمْ بأَنَّهُم يَفْتَرُونَ على اللهِ الكذِب.

الدرس السابع: الآية (٣٦).

وفيها بَيَانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً، فأجْرَىٰ فِيهم سُنَّتَهُ في عباده الموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامْتحان.

الدرس الثامن: الآية (٣٧).

وفيها تَرْبِيَةٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ مَنْ يَحْرِصُ عَلَىٰ هُدَاهُمْ.

الدرس التاسع: الآيات من (٣٨ ـ ٤٠).

وفيه بيان عقيدة المشركين الكَفَرَةِ بِشَأْنِ إنْكارِهِم للْبَعْثِ، مع الرَّدّ عليهم.

الدرس العاشر: الآيتان (٤١) و(٤٢).

وَفِيهِ بيانٌ بشأنِ الَّذِينَ هَاجَرُوا في سبيل اللهِ.

الدرس الحادس عشر: الآيتان (٤٣) و(٤٤).

وَفِيهِ بيان أنَّ كُلَّ الرَّسُلِ السَّابقين كانُوا رِجالاً من الناس، وخَصَّهُمُ اللهُ بأَنْ أَوْحَىٰ إلَيْهِم.

الدرس الثاني عشر: الآيات من (٤٥ ـ ٤٧).

وفيه تهديد الكافِرين باحْتِمَالَاتِ الْعِقَابِ بالْخَسْفِ، أو غيره من أنواع العقاب الرَّبَّانِي.

الدَّرْس الثالث عشر: الآيات من (٤٨ ـ ٥٠).

وَفِيهِ إقْنَاعُ الكافِرِينَ بالسُّجودِ للهِ كَمَا تَسْجُدُ لَهُ الأشْيَاءُ والدَّوابُّ والملائكة.

الدّرْس الرابع عشر: الآيات من (٥١ ـ ٥٥).

وَفِيهِ قول الله عَزَّ وَجَلَّ لعباده يأمُرُهُمْ بتوحيدِهِ بالعبادة، ويُحَذِّرُوهُمْ مِن عِقابه ويُبيّنُ لَهُمْ أنَّ لَهُ كلَّ مَا في السّماوات والأَرْض، وأنّ كُلَّ النِّعَمِ التي يتمتَّعُونَ بِهَا هي من الله، مَعَ بَيَانِ بَعْضِ صفاتِ الإنسان الجحود.

الدرس الخامس عشر: الآيات من (٥٦ ـ ٦٢).

وَفِيهِ بيانُ افتراءِ المشركين الأحكام على الله، وادّعاؤُهُمْ أنَّ الملائكة بنات الله. وفيه معالجتهم بالإنْذَارِ بعقاب الله.

الدرس السادس عشر: الآيتان (٦٣) و(٦٤).

وَفِيهِ بيانُ أَنَّ أُمَماً كثيرة من قَبْلِ أُمَّةِ محمّد ﷺ، قَدْ أَرْسَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ رُسُلاً فزيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعْمالَهُمْ، وأنَّ اللهَ أَعَدَّ لهم عذاباً أليماً يُعَذِّبُهُمْ بِهِ يَوْم الدّين.

وَفِيهِ بَيَانُ وَظيفَةٍ مِنْ وَظَائِفِ رَسُولِهِ محمّد ﷺ في هذه الرِّسَالَةِ الخاتِمَة، وهي أنْ يُبيّن للناس الَّذِين اخْتَلَفُوا فِيهِ، ويُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ القرآن هُدىً ورحمة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

الدرس السابع عشر: الآيات من (٦٥ ـ ٧٢).

وَفِيهِ عَوْدٌ إِلَىٰ عَرْضِ بَعْضِ نِعَم اللهِ عَلَىٰ عباده، وهم لا يؤدُّونَ واجب الشكر عليها، بل يَجْحَدُونَ، وَيَكْفُرونَ بها، ويُؤْمِنُونَ بالباطل.

الدرس الثامن عشر: الآيات من (٧٣ ـ ٧٦).

وَفِيهِ معالجة للمشركين بِحُجَجٍ إقناعِيَّة تُلامِسُ نُفُوسَهُمْ وَمَشَاعِرَهُمْ.

الدرس التاسع عشر: الآيتان (٧٧) و(٧٨).

وَفِيهِ بيانُ شُمُولِ عِلْم اللهِ كُلَّ شيء، ومِنْهُ أَمْرُ السَّاعَةِ، أَمَّا النَّاس فقد أَخْرَجَهُمُ اللهُ مِنْ بُطُونِ أَمَّهَاتِهِمْ لا يَعْلَمُونَ شيئاً، وَمَنَحَهُمْ وسَائِلَ اكْتِسَاب الْعِلْمِ والمعرفَةِ بقَدَر، رغْبَةً في أنْ يَشْكُرُوا.

الدرس العشرون: الآيات من (٧٩ ـ ٨٣).

وَفِيهِ عَوْدٌ إِلَىٰ عَرْضِ بعْضِ آيَاتِ اللهِ في كونه، وبَعْضِ نِعَمِهِ على الناس، وتوصِيَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ بِأَنَّهُ لَيْسَ مَسْؤُولاً عند رَبِّهِ إِلَّا عَنِ الْبَلَاغِ المبينِ.

الدرس الحادي والعشرون: الآيات من (٨٤ ـ ٨٩).

وَفِيهِ عَرْضُ لَقَطَاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ يوم القيامَةِ، وهي تَتَعَلَّقُ بِبَعْضِ أَحْوَالِ الكافِرِينَ يومئذٍ.

الدرس الثاني والعشرون: الآيَات من (٩٠ ـ ٩٧).

وَفِيهِ بيان وَصَايَا من اللهِ لِعِبَادِه، وهي من قضايا الدين الذي اصطفاهُ لهم في رحلة امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

الدرس الثالث والعشرون: الآيات من (٩٨ ـ ١٠٥).

وَفِيهِ بيان بشأن القرآن، ووساوس الشيطان وأعماله الإغوائيّة.

الدرس الرابع والعشرون: الآيات من (١٠٦ ـ ١١١).

وَفِيهِ بيان بشَأْنِ الكُفْرِ بَعْدَ الإيمان، وبيانٌ بِشَأْنِ المهاجرين الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وصَبَرُوا.

الدَّرْس الخامس والعشرون: الآيتان: (١١٢ و١١٣).

وَفِيهِ بيان بشَأْنِ كُفَّارِ مكَّة، ومَعالَجَتِهِمْ بِبَعْضِ المصائب الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ بهم.

الدَّرْسُ السادس والعشرون: الآيات من (١١٤ ـ ١١٩).

وفِيهِ توجيه للنَّاس بأنْ يَأْكُلوا ممَّا رزَقَهُمُ اللهُ حَلَالاً طيّباً، ويَشْكِرُوا نِعْمَتَهُ عليهم، مع بيان المحرّمَاتِ من المطاعم، والتحذير من التحليل والتحريمِ افتراءً علىٰ الله.

الدَّرس السابع والعشرون: الآيات من (١٢٠ ـ ١٢٤).

وفِيهِ ضَرْبُ مثل للشاكِرِينَ بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلام، وفِيهِ أمْرٌ للرَّسُول محمّد ﷺ باتِّبَاع مِلَّتِهِ.

الدرس الثامن والعشرون: الآيَات من (١٢٥ ـ ١٢٨) آخر السورة.

وفِيهِ عرض بعض وَصايا من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، في الدعوة، والعقاب، والصَّبر، وغيرها، ويُلْحَقُ بالرسول حَمَلَةُ رِسالَتِهِ من أمَّتِهِ وسائرُ المسلمين.

(٤)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الأول من دُروس سورة (النحل) الآيتان (١) و(٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)﴾.

القراءات:

(١) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[عَمَّا تُشْرِكُونَ]** بتاء الخطاب.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عَمَّا يُشْرِكُونَ]** بياء الغيبة.

وبين القراءتين تَكاملٌ في الْأَدَاء البياني، فبتاء الخطاب يُخاطب اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المشركين. وبياء الْغَيْبَةِ يَتَحَدَّثُ الله عَزَّ وَجلَّ عن المشركين لِغَيْرِهِم.

(٢) • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ورُوَيْس: **[يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ]** من فعل «أَنْزَلَ» وبنصب «الملائكة» أي: يُنْزِلُ اللهُ المَلَائِكَةَ وقرأها رَوْح: **[تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ]**: أي: تتنزَّلُ الملائِكَةُ بأمرِ الله.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ]** من فعل «نَزَّلَ» المضعف، وبنصب «الملائكة» أي: يُنَزِّلُ اللهُ الملائكة.

أي: إِنَّ اللهَ يُنَزِّلُهَا فَهِي تَتَنَزَّلُ طَاعَةً لِأَمْرِه. فمؤدَّىٰ القراءات واحد.

(٢) • قرأ يعقوب: **[فَاتَّقُونِي]** بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فاتَّقُونِ]** بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

تَمْهيد:

مع ما في آيَتَي هـٰذَا الدَّرْسِ من قَضَايَا ففيهما مَلامِحُ تَدُلُّ ضِمْناً على الْخُطُوطِ العامَّةِ الكُبْرَى لموضوع سورة (النحل).

ففي هـٰذَا الدَّرْسِ إلماحٌ إلَىٰ خطّ الحديثِ عن اللهِ جلَّ جلاله، وعن آياتِهِ في كوْنه، ونِعَمِهِ الكثيرة عَلَىٰ عباده.

وإلماحٌ إلى خط الإنْذَار بِمُعَجَّلِ الْعِقَاب لمسْتَحِقِّيه، ومؤجَّلِهِ إلى يوم القيامة.

وإلْمَاحٌ إلَىٰ خَطِّ الحديث عَنِ المشْرِكِينَ وَمَا يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ مِنْ بَاطل، وَجَدَلِيَّاتِهِم بالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ.

وإلْمَاحٌ إلَىٰ خَطِّ الدِّينِ وإنْزَالِ بَيَانَاتِهِ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ بوساطَةِ الملائِكَةِ المخْتَارِينَ لِحَمْلِ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وإِبْلَاغِهَا لِمَنْ يَصْطَفِي مِنْ عِبَادِهِ. مَعَ ذِكْرِ الكُلِّيَةِ الْعُظْمَىٰ لِهـٰذَا الدِّين، والتَّنْبِيهِ عَلَىٰ التكليف المستتْبَعِ بالْجَزاء، إِذِ النَّاسُ في رِحْلَةِ الحياة الدُّنْيَا مُمْتَحَنُونَ، مُكَلَّفُونَ، ثُمَّ هُمْ مَجْزِيُّونَ عَلَىٰ مَا يَكْتَسِبُونَ بإرَادَاتِهِم الحرَّة يَوْم الدِّين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً مُبَاشراً للمشْرِكين، الَّذِينَ كَانُوا إِبَّانَ التَّنْزِيلِ يَسْتَهْزِئُونَ بإنْذَارَاتِ الرَّسُولِ لَهُمْ بعقَابٍ مُعَجَّلٍ، مُكَذِّبِينَ بِهِ، فَيُطَالِبُونَ بإنْزَالِهِ تَعْبِيراً عَنْ تَكْذِيبِهِمْ بِهِ، لَا رَغْبَةً مِنْهُمْ فيه:

● ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ . . .﴾:

أي: قَدَّرَ اللهُ وَقَضَىٰ وَحَدَّدَ وَقْتاً قَرِيباً لِعِقَابِكُمْ، عَلَىٰ كُفْرِكُم وشِرْكِيَّاتِكُم وَمُعَانَدَتِكُمْ، وَمُعَادَاتِكُمْ لِرَسُولِ رَبِّكُمْ وَلِلدِّينِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ، وأمَرَهُ بإبْلَاغِكُمْ إِيَّاه.

يُسْتَعْمَلُ الْفِعْلُ الماضِي لِلشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَحْدُثْ بَعْدُ، للدَّلَالَةِ على قُرْبِ حُدُوثِه، كَقَوْلِ المؤذِّنِ في الْإِقَامَةِ: قَدْ قَامَتِ الصَّلاة.

عَلَىٰ أَنَّ المقدَّرَ المقْضِيَّ حُدُوثُهُ بتقدِيرِ اللهِ وقَضَائِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَحْدُث حَتْماً، في الوقْتِ الْمُحَدَّدِ له، فَهُوَ بِمَثَابَةِ الْأَمْرِ الذي وقَعَ.

والمرادُ بأَمْرِ اللهِ هُنَا أَمْرُ اللهِ الْقَدَرِيُّ، بِمُعَاقَبَةِ المشْرِكِينَ المعانِدِين الْمُكَذِّبِينَ بِمَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ عِقَابٍ بَلَاغاً عَنْ رَبِّهِ، أَخْذاً من القرائن.

وَعَلَىٰ هـٰذَا يُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ مِنْ [**أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ**] مَعْنَىٰ صَدَرَ أَمْرُ اللهِ، مَع الدَّلَالَةِ علَىٰ اقْتِرَابِ وَقْتِ التَّنْفِيذِ.

• ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: أي: فَلَا تُكَذِّبُوا بِهِ، وَلَا تَسْتَهْزِئُوا بِهِ، بأَسْلُوبِ تَحَدِّي الرَّسُولِ بِأَنْ يَطْلُبَ مِنْ رَبِّهِ تَعْجِيلَهُ.

وَفِي هـٰذَا تَعْرِيضٌ ضِمْنِيٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَا يَطْلُبُوا مِنْ رَبِّهِمْ تَعْجِيلَهُ، رَغْبَةً مِنْهُمْ في الانْتِصَارِ عَلَىٰ مضطهِديهِمْ من المشْرِكين، فَتَصَارِيفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بعِبادِه لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً.

الاستعجال: طَلَبُ تَعْجِيلِ الْأَمْرِ الموعُودِ بِهِ قَبْلَ أوانِهِ، أَوْ طَلَبُ تحقيق الشيء قَبْلَ الْوَقْتِ الَّذِي قَضَتْ سُنَّةُ اللهِ الحكيمةُ بتَحْقِيقِهِ فِيهِ.

• ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: وفي القراءة الأخرى: [**عَمَّا تُشْرِكُونَ**] خطاباً للكافِرينَ إِبَّانَ التَّنْزِيل.

أي: تَنَزَّهَ وَتَقَدَّس اللهُ وَعَلَا عُلُوّاً لَا حُدُودَ لَهُ عَنِ الشِّرْكِ وَعَمَّا يَجْعَلُ المشْرِكُونَ بِهِ مِنْ شُرَكَاءَ لَه، وعَمَّا تَجْعَلُونَ أَنْتُمْ أَيُّهَا المشركُونَ المخاطَبُون إِبَّانَ التَّنْزِيل مِنْ شُرَكَاءَ لَهُ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وتنزّه عن أن يكون له شريكٌ أو شُركاء، فكُلُّ مَا سواه خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾:

الملائكة: أي: الَّذِينَ هم سُفَراء الْوَحْي الرَّبَّانِيّ للأنبياء والْمُرسَلِين، فيما يتعلَّقُ بأمُور الدين وقضاياه. والمَعْرُوف في نُصُوصٍ مُتَعَدِّدَة أَنَّ أَمِينَ الْوَحْي لِلْأَنْبياءِ والْمُرْسَلِينَ هُو جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام، ولَكِنَّ الآيَةَ هَـٰذِهِ تُبَيِّنُ أَنَّ الَّذِي يَنْزِلُ بالْوَحْي من أمْرِ اللهِ على الأنبياءِ والمرْسَلِين مَلَائِكَةٌ، والأَصْلُ حَمْلُ اللَّفْظِ على ظَاهِرِهِ، وقد يكُونُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو رَئِيسَ هـٰذَا الصِّنْفِ مِنَ الْمَلَائِكَة، إِذْ لمَّا قَصَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ جِبْريلَ عَلَيْهِ السَّلَام، أَفْرَدَهُ بقولِهِ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) خطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾.

وكذلِكَ في الآيات من (١٩ ـ ٢١) من سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).

فَلَا يمْنَعُ أَنْ يَكُونَ رُسُلُ الْوَحْي الرَّبَّانِيّ فِي تَارِيخ الرِّسَالَات عَدَداً من الملائِكَة، وأَنْ يَكُونَ جبريلُ رَئِيسَهُمْ.

• ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾: الْمُرَادُ بالرُّوح هُنَا مَا تَكونُ بِهِ الحَيَاةُ الأبَدِيَّةِ السعيدة، من إيمان، وإسْلام، والْتِزَام بشَرَائِعِ اللهِ وَوَصَايَاهُ لعباده، وهُوَ الدِّينَ الَّذِي اصْطَفَاه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الحياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابتلاء. أُطْلِقَ عَلَيْهِ لفْظُ «الرُّوحِ» لأنَّهُ نَظِيرُ الرُّوحِ الَّتِي إِذَا الْتَقَتْ بالنَّفْسِ الميِّتَةِ صَارَتْ حَيَّةً.

والمؤمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ المتَّقُونَ هُمُ الَّذِينَ يَكُونُونَ يَوْم القيامَةِ في جَنَّاتِ النَّعِيم أَحْيَاءً حَيَاةً حَقِيقِيَّةً سَعِيدَة.

أَمَّا الكافرون فَهُمْ مُعَذَّبُونَ دَواماً، لَا يَمُوتُونَ مَوْتاً مُرِيحاً، وَلَا يَحْيَوْنَ حَياةً فيها أدْنَىٰ دَرَجَاتِ الرَّاحَة، فَهُمْ مَحْرُومُونَ من الحياةِ الَّتِي يُرْغَبُ فيها، ومَحْرُومُونَ مِنَ المَوْتِ المريحِ لَهُمْ مِنْ عذابِهِم.

وسبق في الآية (١٥) من سُورَة (غافر/ ٦٠ نُزول) إطلاق لفظ «الروح» على ما أُطْلِقَ عليه هُنا، وكذَلِكَ فِي الآية (٥٢) من سورة (الشورى/ ٦٢ نزول).

• ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾: أَيْ: بالرُّوحِ عَلَىٰ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ، الصَّادِرِ مِنْ أَمْرِه مُبَاشَرَةً، كَمَا يَصْدُرُ مِنْ أَمْرِ مُبَاشَرَةً الرُّوحُ الَّتِي تكُونُ بِهَا حَيَاةُ الْأَنْفُسِ بَعْدَ تَكْوِينِ طَبْعَاتِهَا في الأَرْحَام.

وأَمْرُ اللهِ التَّكْوينيُّ يَكُونُ بِكَلِمَةِ: «كُنْ». وأَمْرُ اللهِ التَّشْرِيعيُّ يكُونُ بإِنْزَالِ الشَّرَائِع والبيانَاتِ والْأَحْكَام. وأَمْرُ اللهِ القضائِيُّ يَكُونُ بإِصْدَارِ أَحْكَامِ القضاء وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ جَزَاءٍ. وأَمْرُ اللهِ التَّكْلِيفِيُّ يكُونُ بِتَوجِيهِ التَّكْلِيفِ لِلْمَأْمُورِ به.

أي: يُنَزِّلُ المَلَائِكَةَ بِتَعَالِيمِ الدِّينِ مِنْ أَمْرِهِ.

• ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾: أَبَانَ الْوَاقِعُ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ يُنَزِّلُ الملائِكَةَ بِالْوَحْيِ الدِّيني عَلَىٰ الأنْبِيَاءِ والمرسلين، لِأَنَّ اللهَ اصْطَفَاهُمْ مِنْ عِبَادِهِ لِلْوَحْيِ إليهم، فهو ينَزِّلُ الملائكةَ عليهم ليُوحُوا إليهم.

وَمَعْلُومٌ عقلاً وشَرْعاً أَنَّ مَشيئَةَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، إِذْ هُوَ يخْتَارُ بِحِكْمَتِهِ أَحْسَنَ البدائِلِ الْمُمْكِنَةِ عَقْلاً، فَحِينَ يَعْلَمُ أَنَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِهِ أَهْلٌ لِأَنْ يَصْطَفِيَهُ لِلنُّبُوَّةِ أَوْ الرِّسَالَةِ، وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَصْطَفِيَ نَبيًّا أَوْ رَسُولاً، وَكَانَ هَـٰذَا الْعَبْدُ هُوَ الأفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِ للاصطفاء اصْطَفَاهُ، فَتَكُونُ مَشيئَتُهُ تبَارَكَ وَتعَالَىٰ مُطَابِقَةً لِحِكْمَتِهِ.

• ﴿... أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾:

أيْ: وَمَضْمُونُ الْوَحْيِ: أَنْ أَبْلِغُوا أَقْوَامَكُمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّكُمْ، فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شَيْئاً، وأَنْذِرُوهُمْ بِعَذَابٍ خَالِدٍ يَوْمَ القِيامَةِ فِي جهَنَّمَ، إِذَا اتَّخذُوا مِنْ دُونِهِ شَرِيكاً أَوْ أَكْثَرَ، وَمُرُوهُمْ نَاصِحِينَ لَهُمْ بأَنْ يَتَّقُوا عَذَابَ الله رَبِّهِمْ بطاعَتِهِ.

وقد جاء اخْتِصَارُ هَٰذِهِ المعانِي بقولِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْياً لِرُسُلِه:

• ﴿... أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدَّرس الأوّل من دُروس سورة (النحل)

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنِّهِ، وَفَتحِهِ.



(٥)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٣ ـ ٢٣)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا
دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ
﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ
ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾
يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ
فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي
سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾
وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾
وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾
وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ
يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ
وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ »:

القراءات:

(٣) • قرأ حمزة والكسائي، وخلف: **[عَمَّا تُشْرِكُونَ]** بتاء المخاطبين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عَمَّا يُشرِكُون]** بياء الغائبين.

(٧) • قرأ أبو جعفر: **[بِشَقِّ الْأَنْفُسِ]** بفتح الشّين.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[بِشِقِّ الْأَنْفُسِ]** بِكَسْرِ الشين.

شِقّ ـ وشَقّ: بكسر الشين وفَتْحِها، الْجَهْدُ والمشقة.

(٧) • قرأ نافع، وابْن كثير، وابْنُ عامر، وحفص وأبو جعفر: **[لَرَؤُوفٌ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَرَؤُفٌ]**.

وهما نطقان عَرَبيان للكلمة.

(١١) • قرأ شُعْبَة: [**نُنْبِتُ**] بنُونِ المتكلِّم العظيم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُنْبِتُ**] أي: يُنْبِتُ الله.

(١٢) • قرأ ابْنُ عَامر: [**والشَّمْسُ والْقَمَرُ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِه**].

وقرأَهَا حفص: [**والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بأَمْرِه**] أيْ: وسَخَّرَ اللهُ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لَكُمْ، والنُّجومُ مُسَخَّرَاتٌ بأمْرِهِ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بأَمْرِهِ**] وهي وُجُوهٌ إعرابيَّة جَائزة.

(١٤) • قرأ قَالُون، وأبو عَمْرو، والكِسائي، وأبو جعفر. [**وَهْوَ**] بإسكان الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَهُوَ**] بضم الهاء.

(١٧) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**تذَكَّرُونَ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تَذَّكَّرُونَ**] أصلها «تتَذَكَّرُونَ» أدْغِمَتِ التاء بالذال.

(٢٠) • قرأ عاصم، ويعقوب: [**يَدْعُونَ**] بياء الغائبين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تَدْعُونَ**] بتاء المخاطِبينَ.

تَمْهيد:

فِي هٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ طَائِفَةٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنه، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ فِي إلَهِيَّتِهِ لِعِبَادِه، وعَلَىٰ إنْعَامَاتِهِ عَلَيْهِمْ بِنِعْمٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ إحْصَاءَها.

وقد جاء فِيهِ مُوجَزَاتٍ لِلْعَدِيدِ مِنْ نِعَمِهِ على عباده.

وجاء فيه استفادةٌ مِنْ بَعْضِ المناسَبَاتِ لِبيانِ قضايَا إقْنَاعِيَّة، وَقَضَايَا هِيَ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ الكُبْرَىٰ، مَعَ إلْمَاحَاتٍ لمطْوِيَّاتٍ تَتَّصِلُ بها.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾.

الْحَقّ: هو الشَّيْءُ الثَّابِتُ الَّذِي لَيْسَ وَهْماً وَلَا خِدَاعاً، وَلَا أَخْيلَةً مُوهِمَةً لِلْحَوَاسِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهَا وُجُودٌ في الواقِعِ، ويقابِلُهُ الْبَاطِلُ الَّذِي يَكُونُ مِنْ قَبِيلِ الْأَوْهَام وخداع الْحَوَاسّ، كالسِّحْرِ الَّذِي يَسْحَرُ أَعْيُنَ النّاسِ، فَيُرِيهَا صُوَراً لِأَشْيَاءَ لَا وُجُودَ لَهَا فِي الواقع.

والحقُّ: مَا كَانَ إيجادُهُ لغَايَةٍ حَكِيمَةٍ يُدْرِكُها الْعُقَلَاءُ، ويَدْرِكُونَ أَنَّهَا مِنْ كَمَالِ الْمُوجِدِ، أَمَّا إِيجادُ شيءٍ مَا أَوْ فِعْلُ شيءٍ مَا دُونَ غَايَةٍ حَكِيمَةٍ تُقْصَدُ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الكَمَالِ، فَهُوَ عَبَثٌ يَتَنَزَّهُ عَنْهُ أَهْلُ الْعِلْمِ والرُّشْدِ والتَّصَرُّفِ الحكيم.

فالحقُّ في حدود هٰذَا الْمَفْهُومِ يُقَابِلُهُ العَبَثُ.

وضِمْنَ هَـٰذَيْنِ الْمَفْهُومَيْنِ لِلْحِقِّ نُدْرِكُ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالَهُ ـ خَلَقَ السَّمَاوات والأرضَ وَمَا فِيهما وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أشياءَ وأَحياءَ مُتَّصِفاً وَاقِعُهَا بِأَنَّهُ حَقٌّ ثَابِتٌ، وليْسَ وَهْماً، وَلَا خِدَاعاً لِلْحَوَاسِ.

ونُدْرِكُ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ خَلَقَهَا خلْقاً مُتَّصِفاً بِغَايَةٍ حَكِيمَةٍ، وَلَمْ يَخْلُقْ خَلْقَهُ عَبَثاً، وَهَـٰذِهِ الْغَايَةُ الحكِميَةُ حَقٌّ يمَجِّدُهُ أَهْلُ الْعَقْلِ السَّدِيد، والتَّصَرُّفِ الحكِيم الرَّشِيد.

وَنُدْرِكُ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ خَلَقَ مَخْلُوقَاتِ كَوْنِهِ مُتَّصِفَةً بِصِفَاتٍ دالَّاتٍ عَلَىٰ صِفَاتِ خالِقِهَا الْجَلِيلَةِ، وَعَلَىٰ كثِيرٍ مِنْ أَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، ومِنْهَا

عِلْمُهُ، واخْتِيارُه الحكيمُ في مَشِيئَتِهِ، وَقُدْرَتُهُ الَّتِي يَخْلُقُ بها مَا يَشَاءُ مخْتاراً، واتْقَانُهُ الباهِرُ لِمَا يَخْلُق، وإبْدَاعُهُ لمَا يَخْلُقُ علَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، إلى سائِرِ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ فيها، الّتِي يَلْزَمُ عَنْهَا وَحْدَانِيَّتُهُ في إلَهِيَّتِهِ.

فَهِيَ آيَاتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ الحقائِقِ الإيمانِيَّةِ، الَّتِي كَلَّفَ اللهُ عَبَادَهُ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ وَوَضَعَهُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ أَنْ يُؤمِنُوابها، وهَـٰذِهِ الآيَاتُ في الكَوْنِ هِي من الحقِّ الَّذِي لَا بَاطِلَ فِيهِ وَلَا عَبَث.

ونُدرِكُ أَنَّ الله ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ ما خَلَقَ الإنْسَ والجِنَّ بصِفَاتِهِم الَّتِي هُمْ عَلَيْها، إلَّا لِيَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في ظُرُوفِ الحَياةِ الدُّنيا، ثُمَّ لِيَجْزِيَهُمْ عَلَىٰ وَفْقِ أَعْمَالِهِم، وَهـٰذَا الجزاءُ يَكُونُ يَوْمَ القيامَةِ بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْخَلْقَ لِتَحْقِيقِ هَـٰذِهِ الْغَايَةِ العظيمةِ السَّامِيَةِ خَلْقٌ مُتَّصِفٌ بالْحَقِّ عَلَىٰ مَعْنَيَيْهِ، وَلَوْلَا تَحْقِيقِ هَـٰذِهِ الْغَايَةِ لَكَانَ خَلْقُ الإنْسِ والْجِنِّ عَمَلاً باطلاً، وعَبَثاً يَتَنَزَّهُ الْخَالِقُ عَنْهُ.

هل تَقْبَلُ العقولُ السَّلِيمَةُ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم، ويُسَخِّرَ لَهُ مَا فِي الْأَرْضِ والسَّمَاءِ، فَهُوَ يَتَصَرَّفُ بالْأَشْيَاءِ ضِمْنَ قوانِينها وأنْظِمَتِهَا باخْتِيارِهِ الْحُرّ، وَهـٰذَا التَّصَرُّفُ يَنْجُمُ عَنْهُ ظَالِمٌ وَمَظْلُومٌ، وَذُو غِنًى وَمَحْرُومٌ، ومُسِيءٌ ومُحْسِنٌ، وَكَافِرٌ ومُؤْمِنٌ، وتَقِيٌّ وَمُجْرِمٌ، ومُفْسِدٌ ومُصْلِح، ثُمَّ لَا يكونُ بَعْدَ ذَلِكَ حِسَابٌ، وَلَا فَصْلُ قَضَاءٍ وَلَا جزاء؟؟!.

إِنَّهُ تَمكِينٌ لَذِوي القوة من أنْ يَكُونَ الباطل هو العزيز الفائق، وأنْ يَكُونَ الحقُّ هُو الزاهِق.

• ﴿... تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾:

أي: وبما أنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بالْحَقِّ، ومن الحقِّ دَلَالَةُ خَلْقِهِ لَهُمَا علىٰ أَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ

غَيْرُه، فَلَا إلَه بِحَقٍّ إلَّا هُو، ومِنَ الحقّ دَلَالَةُ خَلْقِهِ للنَّاسِ عَلَىٰ أَنَّهُ خلقَهُمْ لِيَبْلُوهُمْ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا بِالْإيمانِ بِهِ رَبًّا وَاحداً لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإلَهاً وَاحِداً لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ، فَقَد تَعَالَى اللهُ عُلُوّاً كَبِيراً، وَتَسَامَىٰ تَسامِيًّا عَظِيماً، عَمَّا يُشْرِكُ المشْرِكُونَ بِرُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ بِإلَهِيَّتِهِ فَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً اتَّخَذُوهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً بَيَانَ بَعْضِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ:

• ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾:

النُّطْفَةُ: هِيَ إحْدَىٰ أَطْوَارِ خَلْقِ الإنْسَانْ، وهي نُقْطَةُ الْمَاءِ الصُّغْرَىٰ الَّتِي تَكُونُ عِنْدَ تَلْقِيحِ الْحُوَيْنِ مِنْ مَنِيِّ الذَّكَرِ لِلبُيَيْضَةِ المسْتَقْبِلَةِ لَهُ، والمنْفَصِلَةِ عَنْ مَكَانِ نَشْأَتِهَا فِي الْمَرْأَةِ عِنْدَ بَدْءِ الطَّرِيقِ إلَىٰ الْحَمْلِ، وَتَحَوُّلِهَا إلَىٰ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ.

والنُّطْفَةُ تُطْلَقُ لُغَةً على الْقَلِيلِ مِنَ الماء الصَّافِي، وعَلَىٰ الْقَطْرَةِ من الماء أو الْعَرَق، وعَلَىٰ الدَّفْقَةِ مِنَ المنِيِّ.

• ﴿... فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾:

أي: وَمَرَّ في أَطْوَارِ خَلْقِهِ طَوْراً بَعْدَ طَوْرٍ، فَلَمَّا اكْتَمَلَ فَاجَأَ بِأَنَّهُ مُخَاصِمٌ شَدِيدٌ المخاصَمَةِ، وَمُبِينٌ في التعبير عَنْ حُجَجِهِ الْخِصَامِيَّة.

والمعنى: أَنَّ الإنْسَانَ مع عِلْمِهِ بِأَنَّهُ كَانَ نُطْفَةً مَهِينَةً حقيرةً، ومُشَاهَدَتِهِ نَفْسَهُ فِي كثيرٍ مِنْ أَطْوَارِ خَلْقِهِ حَتَّىٰ اكْتِمَالِهِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُ إرَادَةٌ فَاعِلَةٌ فِي إنْشَائِهِ، وَكَانَ هـٰذَا دَلِيلاً عَلَىٰ الخالِقِ الربّ، الْمُمِدِّلَهُ دَوَاماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَلَمَّا اكْتَمَلَ وَصَارَ قَادِراً عَلَىٰ أَنْ يُجَادِلَ وَيُخَاصِمَ، وَيُقَدِّمَ الْحُجَجَ بأَقْوَالٍ مُبِينَةٍ مُزَخْرَفَة، صَارَ خَصِيماً مُجَادِلاً يُجَادِلُ فِي اللهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ بالْبَاطِلِ، لِيُدْحِضَ بِهِ الْحَقِّ، وَقَدْ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ نَصِيراً لِحَقِّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِه، بالحجج الْبُرْهَانِيَّةِ الَّتِي دَلَّتْهُ

عَلَيْهَا آيَاتُ اللهِ في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وَفِي نَفْسِهِ وَأَنْفُسِ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ.

الْخَصِيم: المخاصِمُ المجادِلُ المنَازِعُ لِنَفْسِهِ أو لِغَيْرِهِ في خُصُومَةٍ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، بِحَقٍّ أَوْ بِبَاطِلٍ.

والمرادُ هُنَا في الآيَةِ أَخْذاً مِنَ القرائِنِ، أَنَّهُ خَصِيمٌ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضَ الحقَّ الرَّبَّانِي، ويَنْصُرَ الْبَاطِلَ والمبْطِلِين، والكُفْرَ والْكَافِرِينَ، والشِّرْكَ والْمُشْرِكينَ.

الْمُبِين: أي: الْمُعَبِّرُ عَمَّا فِي نَفْسِهِ بِوُضُوحٍ، مِنْ فِعْلِ: «أَبَانَ فُلَانٌ الشَّيْءَ إِبَانَةً فَهُوَ مُبِينٌ» أَيْ: أَظْهَرَهُ وَأَوْضَحَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بيان بَعْضِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ وهِي مِنْ نِعَمِهِ على النَّاس:

• ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾:

الأنعام: هي الأموال الراعية، وهي الإبلُ، والْبَقَرُ، والْغَنَمُ، ضَأْنُها ومعزُها. ولفظ الأنعام يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ.

يَمْتَنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهٰذَا البيان عَلَىٰ النَّاسِ بأَنَّهُ خَلَقَ الْأَنْعَامَ لَهُمْ، أَيْ: لمصَالِحِمْ وَلِحَاجَاتِهِمْ ومَنَافِعِهِمْ في حياتهم.

الإبل: اسْمٌ للجِمَالِ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لفظه، ويطلق على الأُنْثَىٰ «ناقَة» وجَمْعُها: «نَاق، ونُوق، وأَيْنُق، وأنْواق».

وقد وصَفَ عُلَماءَ الأحياء الجملَ بما يلي:

(١) حيوانٌ ضَخْمُ الجثَّة، قويُّ الجسم، يَعِيشُ في الصَّحراء، يُمْكِنُهُ

السَّفَرُ إلى مَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ عَبْرَ الصَّحَاري الحارَّة الجافَّةِ الْمُحْرِقَةِ، مُكْتَفِياً بالْقَلِيلِ مِنَ الْمَاءِ والطَّعَام.

(٢) تَسِيرُ الجمالُ فوق الرِّمَالِ الناعِمَةِ بِيُسْرٍ وخِفَّةٍ.

(٣) تَسْتَطِيعُ الجمالُ نَقْلَ الْأَثْقَالِ والأَمْتِعَةِ مِنْ مكانٍ إلى آخَرَ في الطُّرُقِ الصَّعْبَة، فَهِي تُسَاعِدُ الإنْسَانَ الَّذِي يَعِيشُ في الصَّحْراء في كَثِيرٍ مِنْ أَوْجُهِ الْحياة.

(٤) من مِيَزِ الْجَمَلِ أَنَّهُ يَحْمِلُ طَعَامَهُ في ظَهْرِهِ، إذْ يَخْزِنُ فِيهِ كَمِّيَّاتٍ من الغِذَاءِ في شَكْلِ الدُّهْنِ الَّذِي يَتَكَوَّنُ مِنْهُ السَّنَام، ومِنْ هٰذَا السَّنَامِ يَجِدُ الطَّاقَةَ اللَّازِمَة لَهُ مَتَىٰ تَعَذَّرَ وُجُودُ الطَّعَام.

(٥) يُسْتَخْدَمُ الْجَمَلُ في جَرِّ المحارِيثِ، وفي السَّواقي لِرَفْعِ المِيَاهِ من الآبَارِ ونحوها.

(٦) والجمالُ مَصْدَرٌ لغذاء سُكّانِ الصحاري، فَهُمْ يَأْكُلُونَ من لحومها، ويشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِها، ويُذِيبُونَ بَعْضَ شُحُوم أَسْنِمَتِها ويَسْتَعْمِلُونَها في طَهْيِ أَطْعِمَتِهِم، ويَسْتَخْدِمُونَ مِنْ مُشْتَقَّاتِ أَلْبَانِها أطْعِمَةً مخْتَلِفَة، كالأجبان، والأَلْبَانِ الرّائبة، واسْتِخْرَاج السَّمْنِ والزُّبْدِ كَسَائِرِ ألبان الأنعام.

(٧) وتُسْتَخْدَمُ أوبارُ الجمال في صُنْعِ الحشَايا، وأصناف من الألْبِسَةِ، وأنواع النّسيج الْغَلِيظ لِلْبُسْطِ والخِيَام.

(٨) وتُصْنَعُ مِنْ جُلُودِ الجمالِ الأَحْذِيَةُ والحقَائبُ والسُّرُوج والأَحْزِمَةُ الْقَوِيَةُ ونَحْوُها.

(٩) وَتُصْنَعُ مِنْ عِظَامِ الجِمَالِ بعضَ أنواعِ الْحُلِيِّ والْأَوَاني.

(١٠) وَيُسْتَفادُ مِنْ رَوْثِ الإبلِ سَمَادٌ وَوَقُود.

(١١) وَلِلْجَمَالِ صِفَاتٌ جَسَدِيَّةٌ تُلَائِمُ عَيْشها في الصَّحَارِي، وتَحْمِيها

مِنْ كَثِيرٍ من عَوَارِضِ الرِّيَاحِ والرِّمَالِ والشَّمْسِ الحارَّة، وهٰذَا من إتقان الصُّنْعِ الرَّبَّانِيِّ، ومِنْ آيَاتِهِ في كَوْنه، ومِنْ نِعَمِهِ على عباده.

البقر: نَوْعُ حيوانٍ يَشْمَلُ عَدَداً مِنَ الأَصْنَاف الَّتِي تَدْعَىٰ الْبَقَرِيَات، وذكَرُ البقر يُسَمَّى «ثَوْراً» ومِنَ البَقَرِ صِنْفٌ يُسَمَّىٰ «الْجَامُوس». وللأبقار سُلَالَاتٌ وَأصْنَافٌ مُتعَدِّدَة، وتُسَمَّىٰ صِغار البَقَرِ عُجولاً.

وتوصَفُ الأبقار بما يلي:

(١) أكْثَرَ حَيَوَانَاتِ المزَارِعِ أهَمِّيَّةً عِنْدَ النَّاس، وهي من الحيوانات المجتَرَّة.

(٢) والأبقارُ ذَوَاتُ أَجْسَامٍ قَوِيَّة، تُسْتَخْدَمُ في جرّ المحاريث، وفي السَّوَاقي لِرَفْعِ المياه من الآبَار ونحوها، وفي إدارة حِجَارَةِ الطَّواحِين، وفي كَثِير من الأعمال الشَّاقَّةِ القائِمَةِ على الجرِّ والسَّحْبِ.

(٣) والأبْقَارِ مَصْدَرٌ عَظِيمٌ لِلْغَذَاءِ، فالنَّاسُ يأكُلُونَ مِنْ لُحُومِهَا، وَيَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِها، وَيَأْكُلُونَ مِنْ مُشْتَقَّاتِ ألْبَانِها الْجُبْنَ، والزُّبْدَ، والسَّمْنَ، ونحَوْها.

(٤) وتُصْنَعُ مِن جُلُودِ الأَبْقارِ أَحْسَنُ الْجُلُودِ الْقَوِيَّة، لِصُنْعِ الحقائب، والأحْذِيَة، والسُّرُوج، والأحْزِمَةِ القوية، ونحوها.

(٥) ولَا يكادُ يُوجَدُ شَيْءٌ في الأَبْقار لَا يُنْتَفَعُ بِه، من قُرونها، إلى أَذْنَابها، إلى أظْلَافها.

(٦) تَعْتَبَرُ الأبقار في العالم أعظم مصادر اللّحوم والألْبَانِ ومشتقاتهما، بَعْدَ أنْ اسْتَخْدَمَ النَّاسُ في تَرْبِيَتِها في حَظَائِرَ أَحْسَنَ الوسائِل تغْذِيَةً وحمايَةً صِحِّيَّةً وانْتِقَاءً لأفْضَلِ السُّلَالَاتِ وتَهْجِيناً.

الضَّأْن: صنف من «الغنم»:

من أكثر الحيوانَاتِ الّتي اسْتَأْنَسَها الإنْسانُ، لِأَنَّهَا الْأَلْيَنُ والأقْرَبُ إلى إِمْدَاده بالْغِذَاءِ، والكِسَاء، والْجُلُودِ الَّتِي تُتَّخَذُ مِنْها أَدَوَاتُ حِفْظِ الْماءِ والدُّهُونِ وغَيْرِهَا، والَّتِي يُتَّخَذُ مِنْهَا فُرُشٌ مُحْتَفِظَةٌ بصُوفِهَا.

وذكَرَ عُلَماءُ الْأَحْيَاءِ مِنْ خَصَائِصِها ما يلي:

(١) تُنْتِجُ الْأَغْنَامُ الضَّأْنِيَّةُ اللَّحْمَ، والصُّوفَ، والْجُلُودَ.

(٢) يُسْتفاد مِنْهَا خَامَاتٌ أَولِيَّةٌ لِلْعَدِيدِ مِنَ المنْتَجَاتِ الثَّانَوِيَّة، مِثْلِ الْغِرَاء، والدُّهنِ، والشَّحْمِ، والصَّابُون، ومَوَادّ التَّجْمِيل، والْخُيُوطِ المسْتَخْدَمَةِ في مضَارِبَ كُرَةِ المضرب.

(٣) كانَ عِمَادَ التَّرْبِيَةِ الحيَوانِيَّةِ في كثير من الأرْضِ الْعَرَبِيَّة ومنْطِقَةِ الشَّرْق الْأَوْسَط، وآسْيَا، لِمَا تُمِدُّ بِهِ مِنْ مَنَافِعَ كثيرَة للنَّاس.

الماعِز: صِنْفٌ مِنَ «الْغنم» والماعز الواحد من «المعْزِ» للذكر والأنثى ويطلَقُ عليه لفظ «المِعْزَىٰ» وهو أيضاً من أكْثَر الحَيَوَانَاتِ الَّتِي اسْتَأْنَسَها الإنسان، وقسْمٌ من الماعِز لَا يَزَالُ غَيْرَ مُسْتَأْنَسٍ، وهو يعيشُ في البراري والجبالِ والأماكِنِ الوعْرة.

وجاء في وصْفِ «الماعز» ما يلي:

(١) حَيَوَان مُجْتَرّ، يُمِدُّ النَّاسَ بالحليب، واللّحْم، والشعر، والجلود.

(٢) يَبْلُغ عَدَدُ سُلَالَاتِ الْمَاعِزِ الْمسْتَأْنَسَةِ نحو (٣٠٠) سلالَة، وكثير مِنْهَا ذُو أَهَمِّيَّةٍ تِجَارِيَّةٍ.

(٣) تَحْتَلُّ «المعْزُ» المرتَبَةَ الثالِثَةَ عَلَىٰ مسْتَوَىٰ العالم في إِنْتَاجِ الحليب، بَعْدَ الأبْقار والْجَامُوس.

(٤) حَلِيب «الْمَعزِ» أَسْهَلُ هَضْماً مِنْ حَلِيب الأبقار، وَلِهـٰذَا صار

مَصْدراً مُفَضَّلاً لغذاء الأطفال ولِكِبَارِ السِّنِّ، وللمصاحبين بأمراض الْمَعِدة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً للنَّاسِ.

• ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾:

يَرَىٰ النُّحاةُ أَنَّ لفظ «الْأَنْعَام» هُنَا مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ يُفَسِّرُهُ الفعل في ﴿خَلَقَهَا﴾ لِأَنَّ هٰذَا الفِعْلَ اشْتَغَلَ عَنْ نَصْبِهِ بِنَصْبِ ضَمِيرِهِ، ويَرَوْنَ في مِثْلِ هٰذَا التعبير توكِيداً، إذ جَاءَتِ الْجُمْلَةُ بِقُوَّةِ جُمْلَتَين، إذ التقدير: خَلَقَ الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ.

وَكَوْنُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْأَنْعَامَ للنَّاسِ هُوَ مِنْ عِنَايَتِهِ بِهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، ومِنْ رَحْمَتِهِ بِهِمْ.

وَجَاءَ في هَـٰذِهِ الآيَةِ تَفْصِيلُ بَعْضِ مَا في الْأَنْعَام من نِعَمٍ عَلَىٰ النَّاس.

• ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾: الدِّفْءُ ضِدُّ الْبَرْدِ، أَيْ: لَكم في الأنْعَامِ مَا يُدْفِئُ أجْسَادكُمْ ويَقِيها مِنَ الْبَرْدِ، فَصُوفُ الْغَنَمِ، وأشْعَارُ الْمِعْزَىٰ، وَوَبَرُ الإبِلِ مَوَادُّ عَظِيمَةٌ يأْخُذُ مِنْهَا النَّاسُ مَا يُدْفِئُهُمْ، وكَذَلِكَ جُلُودُ جَمِيعِ الْأَنْعَامِ.

• ﴿وَمَنَـٰفِعُ﴾: أي: وَلَكُمْ في الْأَنْعَام مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا مَا تَوصَّلْتُمْ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ، وَمِنْهَا مَا سَتَكْتَشِفُونَهُ بالْبَحْثِ الْعِلمِيّ وَالتّجْرِبَة.

• ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: أيْ: وَمِنْ لُحُومِهَا، وَشُحُومِهَا، وَدُهْنِهَا، وَبَعْضِ عِظَامِها، وَمُشْتَقَّاتِ أَلْبَانِهَا تَأْكُلونَ، فيكُونُ مَا تَأْكُلونَ مِنْهَا غِذاءً وَقُوَّةً لَكُمْ، وَلَذَّةً تَسْتَمْتِعُونَ بِها في حَيَاتِكُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ تَفْصِيلَ بَعْضِ مَا فِي الْأَنْعَامِ مِنْ نِعَمِهِ على النَّاس.

• ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ۝٧﴾:

لمَّا كَانَ الْجَمالُ أَحَدَ مَطَالِبَ أَنْفُسِ النَّاس في الحياة، إذْ فَطَرَهَا اللهُ عَلَىٰ حُبِّ الْجَمالِ وَالتَّعلُّقِ بِهِ، والاسْتِمْتَاعِ بما يَلَذُّ الحواسَّ مِنْ مَنْظُورَاتٍ وَمَسْمُوعَاتٍ وَغيْرِهَا، خَلَقَ اللهُ الْأَنْعَامَ لِلنَّاسِ مُتَّصِفَةً بِصِفَاتٍ جَمالِيَّةٍ كَثِيرَةٍ، يَسْتَمْتِعُ النَّاسُ بِهَا حِينَ يُخْرِجُونَهَا سَارِحَةً إِلَىٰ المراعي فِي النَّهار، وحِينَ يُعِيدُونَها إِلَىٰ أَمْكِنَةِ مُرَاحِهَا مَسَاءً.

• ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾: أي: حِينَ تَرُدُّونَ أَنْعَامَكُمْ في الْعَشِيِّ إِلَىٰ مُرَاحِها، وَهُوَ المأْوىٰ الَّذِي تَأْوِي إِلَيْهِ الماشِيَةُ فِي الْعَشِيِّ للرَّاحَةِ، هٰذَا هُوَ إراحَتُها، وقُدِّمَتْ على سَرْحِهَا لِأَنَّهَا في الْعَشِيَّ تَكُونُ أَنْضَرَ، مَلِيئَة الْبُطُون.

• ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾: أي: وحينَ تَسْرَحُونَ الأنْعَامَ بالْغَدَاةِ لِتَرْعَىٰ فِي المراعِي. يقالُ لُغَةً: «سَرَحَ الرَّاعِي مَاشِيَتَهُ، يَسْرَحُهَا، سَرْحاً، وسُرُوحاً» أي: أَسامَهَا فجعَلَهَا تَرْعَىٰ مِنَ الْكَلأ كيْفَ شَاءَت.

• ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ...﴾:

الْأَثْقَال: يَأْتِي جَمْعاً لِلَفظِ «الثِّقْل» وهُوَ الحِمْلُ الثَّقِيل، وَجَمْعاً لِلَفْظِ «الثَّقَلِ» وهُوَ الْمَتَاع.

وَيُحمَلُ لَفْظُ «أثقال» هُنَا عَلَىٰ المعْنَيْين، فَهِيَ تَحْمِلُ الْأَحْمالَ الثَّقِيلَة، وَتَحْمِلُ أَمْتِعَةَ النَّاس، وَيَنْطَبِقُ كُلٌّ مِنهُمَا انطِبَاقاً ظاهِراً عَلَىٰ الإبلِ، وقد تُسْتَخْدَمُ الْأَبْقَارُ لِلْجَرِّ، وهُو نَوْعٌ مِع الْحَمْلِ عَلَىٰ مَا تَجُرُّهُ الْأَبْقار.

• ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ وفي القراءة الأخرىٰ [**بِشَقِّ الْأَنْفُس**]: أي: بِمَشَقَّةِ الأنفُسِ وَتَعَبِهَا الشَّدِيد.

المعنى: وَمِنْ نِعَم اللهِ عَلَيْكُمْ أَيُّها النَّاسُ، أَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْأَنْعامِ مُسَخَّرَةً لِحَمْلِ أَثْقَالِكُمْ إِلَىٰ مَا تَقْصِدُونَ مِنْ بَلَدٍ لَمْ تكُونوا بَالِغِيهِ لولا مَا سَخَّرَ لَكُمْ بأحْمَالِكُمْ وأَثْقَالِكُمْ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ عَظِيمَةٍ، وَمَتَاعِبَ جَسِيمَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ بَيَانِ امْتِنَانِهِ عَلَىٰ النَّاسِ بالْأَنْعَام:

• ﴿... إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾:

أي: هـٰذَا الامْتِنَانُ والتَّفَضُّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ آثَارِ صِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ هُمَا الرَّأْفَةُ والرَّحْمَةُ، فَمِنْ أَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ أَنَّهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ رَؤوف، ورَحِيم.

الرَّؤوف: والرَّؤُف: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، مَأْخُوذٌ مِن الرَّأْفَةِ، وهِيَ شِدَّةُ الرَّحْمةِ، ومِنْ آثَارِ رَأفَتِهِ بِعبَادِه الْإِنْعَامُ عَلَيهِمْ بِجَلَائِلِ النِّعَمِ وَدَقَائِقِهَا، وَتَعَهُّدُهُمْ بعِنَايَتِهِ وجُودِهِ وإِحْسَانِهِ، وعَفْوِهِ وغفْرَانِهِ.

الرَّحيم: اسْمُ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ، مَأْخُوذُ مِنْ صِفَةِ رَحْمَتِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وهِيَ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ نُثْبِتُهَا للهِ عَزَّ وَجَلَّ على مَا يَلِيقُ بجلَاله، وَمن آثارها الْعطاءُ والمعُونَةُ والتوفيقُ وإزالَةُ الْبُؤْسِ، والْإِمْدادُ بِمَا يَسُرُّ مِنْ خَيْر.

وَيُقَاسُ عَلَىٰ تَسْخِيرِ اللهِ الْأَنْعَامَ لِلنَّاسِ لِتَحْقِيقِ مَنَافِعَ كَثِيرَةٍ لَهُمْ، وَمِنْهَا حَمْلُها لِأَثْقَالِهِمْ، مَا سَخَّرَ لَهُمْ فِي طَبَائِعِ الْأَشْيَاءِ مِنْ مُسَخَّرَاتٍ يَصِلُونَ إِلَىٰ الاسْتِفَادَةِ مِنْهَا، أَوْ يَصِلُونَ إِلَىٰ صُنْعِهَا بِمَا وَهَبَهُمُ اللهِ مِنْ قُدْرَاتِ بَحْثٍ عِلْمِيٍّ وتَجارِبَ، وَيَدْخُلُ في عُمُوم هـٰذِهِ المسَخَّرَاتِ مُكْتَشَفَاتٌ وَقُدْرَاتٌ عَظِيمَاتٌ مَا كَانَ النَّاسُ يَعْرِفُونَ شَيْئاً مِنها، وَمِنْهَا الْمُرْكَبَاتُ العظيمَاتُ الْأَرْضِيَّة، والْجَوِيَّة، والْبَحْرِيَّةِ الَّتِي تَوَصَّل إِلَيْهَا النَّاسُ، ونُشَاهِدُ الكَثِيرَ مِنْهَا في عَصْرِنَا.

ويَدْخُلُ في عُمُوم هَـٰذِهِ المسَخَّرَتِ مُكْتَشَفَاتٌ كثيراتٌ تُمِدُّ الْعُمران، والْأَلْبِسَةَ ووسَائِلَ رَفاهِيَةٍ للنَّاس، وغير ذلك.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً ذِكْرَ بَعْضِ نِعَمِهِ عَلَىٰ النَّاس خطاباً لَهُمْ:

• ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾:

يَمْتَنُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ الناسِ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ بما أنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ إِذْ خَلَقَ لَهُمُ الْخَيْلَ والْبِغَالَ والْحَمِيرَ لِيَرْكَبُوها، وَلِتَكُونَ زِينَةً لَهُمْ، وبأَنَّهُ سَيَخْلُقُ لَهُمْ بَعْدَ عَصْرِ تَنْزِيلِ الْقُرآن مَرَاكِبَ وَزِينَاتٍ لَا يَعْلَمُونَها إِبَّانَ التَّنْزِيل، وَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّ هـٰذَا قَدْ حَصَلَ بِمَا أَلْهَمَ الله النَّاسَ عَنْ طَرِيقِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ والتجارب، وَبِمَا سَخَّرَ لَهُمْ فِي كَوْنِهِ مِنْ قُوىً وَخَصَائِصَ، وَصَارَ كَثِيرٌ مِنْهَا أَشْيَاءَ مَشْهُودَةً وَمُسْتَخْدَمَة بِصُورَةٍ مُذْهِلَةٍ.

الخيل: نوْعٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُسْتَأْنَسَةِ، وَاحِدُهَا «الْفَرَس» فالْخَيْلُ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ. والْفَرَسُ يُطْلَقُ على الذَّكَرِ والْأُنْثَىٰ مِنْ هـٰذَا النَّوْعِ وَجَمْعُهُ «الْأَفْرَاس» ويُجْمَعُ لَفْظُ «خَيْل» عَلَىٰ «أَخْيَالٍ» و«خُيُول».

وَهـٰذَا النَّوْعُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ جَاءَ في وَصْفِهِ مَا يلي:

(١) كانَتِ الْخُيُولُ في الماضِي أَكْثَرَ الْحَيَوَانَاتِ فَائِدَةً للنَّاسِ في أَسْفَارِهِمْ، مِنْ ناحِيَةِ كَوْنِهَا أَسْرَعَ وَآمَنَ طَرِيقَةٍ للسَّفَرِ بِرّاً.

(٢) وَكَانَت الْوَسِيلَةَ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الصَّيَّادُون لِمُطَارَدَةِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يُرَادُ صَيْدُهَا وهم عَلَىٰ ظُهُورِها.

(٣) والْخُيُولُ هِيَ أَفْضَلُ وَسَائِلِ مُمَارَسَةِ رِيَاضَةِ الْفُرُوسِيَّةِ والتَّدَرُّبِ عَلَيْها، وَهـٰذِهِ الْمِيزَةُ مَا زَالَتْ مُسْتَمِرَّةً في الْعَالم.

(٤) والْخُيُولُ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَسُلَالَاتِها ذَاتُ قُوَّةٍ مُتفوِّقَة، لِلْجَرِي بِسُرْعَةٍ، وجُرْأَةٍ، ومُطَاوَعَةٍ لفَارِسها، بِلَمَسَاتٍ تُعَلِّمُها، وتُدَرَّبُ عليها.

(٥) وللخيول سَمْعٌ حَادٌّ، وهي تَلْتَقِطُ الأَصْوَاتَ مِن أيِّ اتِّجاه.

الْبَغْل، وجمْعُه «الْبِغَال».

حيوان أَلِيفٌ هجين، يَنْتَجُ مِنْ تَزَاوُجِ أُنْثَىٰ الْخَيْلِ مَعَ ذَكَرِ الحِمار.

وقد كانت الْبِغَال في الماضي، من حيوانَاتِ الْعَمَلِ المفضَّلَةِ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ العالم، وقَامَ بَعْضُ المهتَمِّينَ بِتَرْبِيَةِ أنواعٍ مِنَ الْحَمِيرِ الضَخْمَة، لاسْتِيلَادِ بِغَالٍ كَبِيرَةِ الحجم، وَذَاتِ قُوَّةٍ مُتفوِّقَة.

وَالْبِغَالُ لَهَا شَبَهٌ بالْخُيُولِ وَشَبَهٌ بالْحَمِير، لأَنَّها مُهَجَّنَةٌ مِنْهما.

ويَمْتَازُ الْبَغْل بالْجُرْأَة والإقدام وَمُقَاوَمَةِ الْأَمْرَاضِ بصُورَةٍ جَيِّدَة، وَإِنَاثُ الْبِغَالِ لَا تَلِدُ إِلَّا في حَالَاتٍ نَادِرَاتٍ جدّاً.

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْبَغْلَ أَكْثَرُ دَأباً عَلَىٰ الْعَمَلِ الزَّائِدِ مِنَ الْحِصَان.

الْحِمَارُ: وَجَمْعُهُ «الْحَمِير».

حَيَوانٌ ثَدْيِيٌّ مُسْتَأْنِسٌ شَبِيهٌ بالْحِصَان، وشبيهٌ بالْحِمَارِ الْوَحْشِيّ.

وَكَانَ الْحِمَارُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ الرُّكُوبِ، والْحَمْلِ، والْجَرِّ، وخادِماً مُطِيعاً في الْمَزَارِعِ والْبَسَاتِينِ والْبُيُوتِ الْقَدِيمة.

فقد كَانَ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ، قَبْلَ أَنْ يُلْهِمَ اللهُ النَّاسَ صُنْعَ آلَاتِ الرُّكُوبِ، والْحَمْلِ، والْجَرِّ: ومَا زَالَ الْحِمَارُ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ سُكَّانِ الْبَوَادِي، وبعض سُكَّانِ الْقُرَىٰ والْمُدُن.

• ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾: أي: وَخَلَقَ اللهُ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ الْخَيْلَ، والْبِغَالَ، والْحَمِيرَ، لِتَرْكَبُوها في تَحْقِيقِ مَصَالِحَ وَمَنَافِعَ كَثِيرةٍ لكم، وَلِتَكُونَ زِينَةً لَكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بامْتِلَاكِها، وإذا رَكِبْتُموها.

والاقتصار عَلَىٰ ذِكْرِ هَاتَيْنِ المنْفَعَتَيْنِ لِلْخَيْلِ والبغَالِ والْحَمِير، لَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يُنْتَفَعُ بها إلَّا بهما، بَلْ يدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ المخَاطِبِينَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ قَدْ كَانَتْ هَاتَانِ المنْفَعَتَانِ هُمَا الْمَقْصُودَ الأعظم لَدَيهم مِنْهَا.

• ﴿... وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾: أي: ويَخْلُقُ حَاضِراً ومُسْتَقْبَلاً

مَخْلُوقَاتٍ لَا تَعْلَمُونَها، ومِنْهَا مَا يُلْهِمُ اللهُ النَّاسَ اكْتِشَاف خَصَائِص وَطَاقَاتٍ في كَوْنِهِ، يُصْنَعُ بِهَا مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ النَّاس، وظهر هذا في مَرَاكِب الْبَرِّ والْبَحْرِ والْجَوِّ الَّتِي لَمْ تَكُنْ معلومَةً لِلنَّاس.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾:

● ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ **الْقَصْدُ**: الاعْتِدَالُ في الأمْرِ دُون إفْرَاطٍ ولَا تَفْرِيطٍ. **السَّبِيل**: كُلُّ مَا جَاءَ في القرآن من لفظ «سبيل» مفرداً، فالمراد به صراط اللهِ المستقيم، المشتمل على الْعَقَائِدِ والشرائِعِ والأحكام الدِّينيَّة[1].

وعبارَةُ ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ من إضَافَةِ الصِّفَةِ إلى الموصوف، أي: السَّبِيلُ الَّذِي هو قَصْدٌ لَا خرُوجَ فِيهِ عن الاعْتِدَالِ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ، وَلَا مِنْ ذَاتِ الشِّمَال.

وصِرَاطُ اللهِ لِعِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ هُو كَذَلِكَ، وَكُلُّ مَا هُوَ مُنْحَرِفُ عَنْه، أَوْ خَارِجٌ عَنْ خَطِّ اسْتِقَامَتِهِ فهو جَائِرٌ.

الجائِرُ: في اللُّغَةِ هو المائل، الظالم، الْخَارِجُ عَنْ سَوَاء السبيل. بِمُنَاسَبَةِ مَا جَاءَ في الدَّرْسِ الأوَّل، بشَأْنِ الدِّينِ الذي اصْطَفَاهُ اللهِ لعباده الَّذِينَ وضَعَهُمْ في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان، وسَمَّاهُ اللهُ جَلَّ جلالُهُ رُوحاً، لِأَنَّهُ سَبَبَ الحياة السَّعِيدَة لَهُمْ، مع مَا جَاء في هـٰذَا الدَّرْسِ الثاني من امْتِنَان اللهِ عليهم بطَائفَةٍ مِنْ نِعَمِهِ، جَاءَتْ هَـٰذِهِ الآية (٩) مشْتَمِلَةً عَلَىٰ بَيَانِ ثَلَاثِ قضايا موصولَاتٍ بالدّينِ وبالموضوعين مَوْضِعَ الامتحان في الحياة الدُّنيا.

القضية الأولى: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾:

---

(١) انظر المُلْحَقَ الرابع من ملاحق تدبُّرِ سُورَةِ (الفاتحة/ ٥ نزول).

أي: بما أنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ هو الخالِقُ الرَّبُّ الَّذِي يَمُدّ كُلَّ شيءٍ في الكوْنِ بتَصاريفِ رُبُوبِيَّتِهِ، وهو الْحَكِيمُ الّذِي وَهَبَ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابتلاءِ، الصِّفَاتِ الَّتِي تُؤهِّلُهُمْ لِأَنْ يَكُونُوا مُمْتَحَنِين، فالحِكْمَةُ السَّامِيَةُ تَقْضِي بأنْ يَكُونَ هُوَ تَبارَكَ وَتعَالَىٰ المتَكَفِّلَ وَحْدَهُ بِبَيَانِ الْعَقائِدِ والشَّرَائِعِ والْأَحْكَام وَالْأَوَامِرِ والنَّواهِي، الَّتِي جَعلَهُمْ مُمْتَحنِين تُجاهَها، والَّتِي هِيَ تَعَالِيمُ الدِّين وأحْكامُهُ، وسَمَّاهَا اللهُ الصِّرَاطَ المستقيم، في كثِيرٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وجاء بيانُها هُنَا تَحْتَ عُنْوان: ﴿قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ومِنْ لَطَائِفِ بَيانَاتِ الرَّبِّ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ أَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ مُلْزَماً بِأَنْ يُبَيِّنَ لِعِبَادِهِ قَصْدَ السَّبِيلِ (أي: الصِّرَاطَ المستقيم) وهُوَ الدِّينُ الَّذِي اصْطَفَاهُ لَهُمْ. ونَظِيرُهُ بَيَانُ أَنَّهُ حرَّمَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الظُّلْمَ، إلى غَيْرِهِمَا مِنْ نظائر.

ومِنْ لَوَازِمِ بَيَانِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الصِّرَاطَ المسْتَقِيمَ لِنُفُوسِ الموضوعين فِي الحياة الدُّنْيَا مَوْضع الامْتِحَانِ، وهُمْ مَوْهُوبُونَ إرَادَاتٍ حُرَّة هِيَ مَنَاطُ الابْتِلَاء، أَنْ يَكُونَ قِسْمٌ مِنْ هَـٰذِهِ النُّفُوسِ مُلْتَزِماً بِمَطْلُوبِ اللهِ مِنْ عبادِهِ في صِرَاط اللهِ المستقيم، وأَنْ يكُونَ قِسْمٌ مِنْها جائراً خارِجاً عَنْ سَوَاء الصراط.

القَضِيَّةُ الثَّانِية: دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾:

أي: ومِنَ النفوسِ الموضُوعَةِ في الحَياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ نُفُوسٌ جَائِرَةٌ ظَالِمَةٌ، لَا تَلْتَزِمُ بِمَطْلُوب اللهِ مِنها، في صِرَاطِهِ المستقيم، فَهِيَ تَسْتَحِقُّ عِقَابَ اللهِ يَوْمَ الدِّين عَلَىٰ عِصْيَانِهَا.

ويَلْزَمُ عَقْلاً مِنْ كَوْنِ بَعْضِ هَـٰذِهِ النفوس جَائِرَةً أَنْ يَكُونَ بَعْضُهَا الآخَرُ غَيْرَ جَائر، فَهِيَ باسْتِقَامَتِهَا عَلَىٰ صِرَاط اللهِ المستقيم تَسْتَحِقُّ ثَوابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الدِّين عَلَىٰ طَاعَتها لِرَبِّهَا.

القضيَّة الثَّالثة: دَلّ عليها قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

أي: ولَوْ شَاءَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ، أَيُّهَا الموضوعُونَ في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، لَسَلَبَكُمْ إِرَادَاتِكُمُ الْحُرَّة، ولَجَعَلَكُمْ مَجْبُورِينَ لَا اخْتِيَارَ لَكُمْ، وحِينَئِذٍ فإنَّ حِكْمَتَهُ تَقْضِي بأَنْ يَجْعَلَكُمْ جَمِيعاً مَهْدِيين، كَالملائكة، إِذْ لَا يَجْعَلُ الرَّبُّ الْجَلِيلُ بِحِكْمَتِهِ حَيًّا مَجْبُوراً عَلَىٰ الكُفْرِ والضَّلالة، إِنَّهُ لَا يَرْضَىٰ لِعِباده الكفر.

وسَلْبُكُمْ إِرَادَاتِكُمْ الحرَّةَ يُلْغِي حِكْمَةَ ابْتِلَائِكُمْ في ظُرُوفِ الحياة الدنيا، فلا تَزْعُمُوا أَنَّكُمْ مَجْبُورُون، ولَا تَطْلُبُوا مِن اللهِ رَبِّكُمْ أَنْ يَهْدِيَ بالْجَبْرِ هِدَايَةَ خَلْقٍ وَتَكْوِينِ الضَّالِينَ الْكَافِرِينَ، والمجْرِمِينَ الظَّالِمِين. أَمَّا الْهِدَايَةُ بِمَعْنَىٰ الإِعْلَامِ والدَّلَالَةِ عَلَىٰ الحقِّ والبَاطل، والخيْرِ والشَّر، وبَيَانِ الصِّرَاطِ المستقيم الموصل إلىٰ جَنَّاتِ النَّعِيم، فَقَدْ بعثَ بِهَا رُسُلَهُ، وأَنْزَلَ بها كُتُبَهُ، وهُوَ ما دَلَّتْ عَلَيْهِ القَضِيَّةُ الأولَىٰ من هَـٰذِهِ الآية (٩).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ عَوْداً إلى بَيَانِ بَعْضِ نِعَمِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، التي تَسْتَوْجِبُ الإيمانَ به، والإِسْلَامَ لَهُ، وَشُكْرَهُ بِطَاعَتِهِ، في فِعْلِ مَا أَمَرَهُمْ بِفِعْلِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَاهُمْ عَنْ فِعْلِيه.

• ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾:

• ﴿هُوَ﴾: هـٰذَا الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَىٰ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ الَّذِي بَدَأَتِ السُّورَةُ بالْحَدِيث عَنْهُ.

• ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: يَمْتَنُّ اللهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ بالماء، مع الإِشَارَةِ إِلَىٰ نِظَامِ تَدْبِيرِهِ الْعَجِيبِ بِإِنْزَالِهِ مِنَ السَّحَابِ مَاءً حُلْواً طَهُوراً

نَافِعاً، بَعْدَ تَصْعِيدِهِ بُخَاراً مِنَ البحار والأنْهار وَكُلِّ مَكَانٍ يُوجَدُ فِيهِ عَلَىٰ سَطْحِ الْأَرْض، مُنَقًّى مِن الأمْلَاحِ غَيْرِ النَّافِعَةِ في الشَّرَابِ، ومِنَ الشَّوَائِبِ المفْسِدَةِ لَهُ، فَيَكُونُ في الْجَوِّ سَحَاباً يُسَيِّرُهُ اللهُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَيُنْزِلُ مِنْهُ الْمَاءَ حَيْثُ يَشَاءُ.

• ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾: أيْ: لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ (أي: مِنَ السَّحَابِ الَّذِي بَسَطَهُ بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْض) شَرَابٌ عظيم النَّفْع طَاهِرٌ طَهُورٌ، هُوَ أَحَدُ مَوَادِّ الحياةِ الكُبْرَىٰ. **الشَّرَابُ**: اسْمٌ لِمَا يُشْرَبُ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وصنف.

• ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾: أي: وَلَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ من الْمَاءِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاء شَجَرٌ، يَكُونُ الماءُ سَبَباً فِي نَبَاتِهِ وَنَمَائِه، فأنْتُمْ فِيهِ تَجْعَلُونَ أنْعَامَكُمْ وَدَوَابَّكُمْ آكِلاتِ النَّبَاتَاتِ تَرْعَىٰ مَا تَشَاءَ مِنْهُ مِمَّا هُوَ سَبَبُ مَنافِعِكُمْ مِنها.

وطَوىٰ النَّصُّ مَنَافِعَ النَّاسِ مِنَ الشَّجَر، لِبَدَاهَةِ الْعِلْمِ بِهِ، وللتَّنْبِيهِ عَلَىٰ تَخْصِيصِهِ بالذِّكْرِ في مَوَاضِعَ أخْرَىٰ من القرآن المجيد.

الشَّجَرُ: كُلُّ نَبَاتٍ يَقُوم عَلَىٰ سَاقٍ صُلْبَة. وقَدْ يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ نَبَاتٍ، ولو لَمْ يَكُنْ قَائماً عَلَىٰ سَاقٍ صُلْبَة.

يقال لغة: «سَامَتِ الْأنْعَامُ» أي: مَشَتْ تَرْعَىٰ عَلَىٰ مَا تَشَاءُ مِنْ نَبَاتَاتِ الأرض. ويقال: «أسَام الرَّاعِي أنْعامَهُ» أي: جَعَلَهَا تَرْعَىٰ عَلَىٰ مَا تَشَاءُ مِنْ نَبَاتَاتِ الْأَرْض، فَدَفَعَ بِهَا لِتَسُومَ.

• ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ . . .﴾:

جاء في هٰذَا الْبَيَانِ تَعْمِيمُ الزَّرْعِ الشَّامِلِ لِكُلِّ مَا يَنْبُتُ في الْأَرْضِ، مِنْ بُزُورٍ أَوْ جُذُورٍ أَوْ فُطُورٍ، وَيَكُونُ الْمَاءُ سَبَباً مِنْ أَسْبَابِ نَبَاتِهِ وَنُمُوِّهِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ مُسْتَوىٰ كَمالِهِ، وبَعْدَهُ جَاءَ تَخْصِيصُ الزَّيْتُونِ والنَّخِيلِ والأعْنَاب

بالذِّكْرِ لِمَا فِي هَـٰذِهِ الأشْجَارِ مِنْ مَنَافِعَ عَظِيمَةٍ غِذَائِيَّةٍ وَدَوَائِيَّةٍ وغَيْرِهَا، وَبَعْدَهُ جَاءَ تَعْمِيمُ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، بما فيها الْأَزْهَارُ الَّتِي يَمْتَصُّ النَّحْلُ رَحِيقَها، فَقَدْ سَمَّاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ثَمَرَاتٍ مَهْمَا كانت صَغِيرَةً وَدَقِيقَةً.

• ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾:

أي: إنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَا بَعْضَ معالِمِهِ البارزة، وهِيَ تُمَثِّلُ مَرَاحِلَ قَلِيلَةً جداً مِنْ مَراحِلِ الْخَلْقِ في دَوْرَةِ سُقْيا الْمَاءِ وإنْبَاتِ النَّبَاتِ، ذَكَرْنَا مِنها إنْزَالَ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ وأتْبَعْنَاهُ بِذِكْرِ بعض منافِعِهِ، وبِذِكْرِ كَوْنِهِ وَسِيلَةً من الْوَسَائِلِ لِإِنْبَاتِ النَّبَاتَاتِ المخْتَلِفَاتِ، لَآيَةً عَظِيمَةً عَلَىٰ شُمُولِ عِلْمِ اللهِ وعظيم حِكْمَتِهِ، واتْقَانِهِ لما يخْلُقُ، وقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاء، وَهَـٰذِهِ الآيَةُ يُدْرِكُ عَنَاصِرَهَا المتفَكِّرُونَ.

وقَدْ تَحدَّثَ عُلَمَاءُ النَّبَاتَاتِ عَنْ خَصَائِصِ وفوائِدِ الزَّيتُونِ والنَّخِيلِ والْعِنَب، فَعَلَىٰ الْبَاحِثِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ مَا كَتَبَهُ المختَصُّونَ بالدِّرَاسَات النَّبَاتِيَّة، لِيَكُونَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ بِمَا فِي هَـٰذِهِ المخلوقَاتِ الْجَلِيلَةِ النَّفْعِ للنَّاسِ مِنْ آيَاتٍ دَالَّات عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، فقد تَكُونُ هَـٰذِهِ الْبَصِيرَةُ دَافِعَةً لَهُ إِلَىٰ الإيمان، والإسلام، والْعَمَلِ بمراضِي الله.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَان بَعْضِ مِنَنِهِ عَلَىٰ عِبَاده:

• ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾:

وقرأ ابْنُ عَامر: **[وَالشَّمْسُ والْقَمَرُ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ]** وهي على الاسْتِئْنَافِ بِدْءاً من: **[والشَّمْسُ]**.

وفي قراءة جُمْهُورِ القراء: **[والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بأَمْرِهِ]** وهي علىٰ العطف على اللَّيْلِ والنهار.

أما قراءة حفص الأولىٰ، فَهِيَ عَلَىٰ الاسْتِئْنَاف بدءاً من [**والنُّجُوم**].

ولم أَرَ فِي هَـٰذِهِ القراءات إِلَّا اسْتِخْدَامَ وُجُوهٍ عَرَبية جَائِزَة.

التَّسْخِيرُ: التَّذْلِيلُ لعَمَلٍ مَا، أَوْ أَمْرٍ ما، وجَعْلُ الشيءِ مُطاوعاً لِمَا يُرَادُ بِهِ ضِمْنَ قَانُونِ تَسْخِيره، وَتَسْخِيرُ هَـٰذِهِ المسَخَّرَاتِ المذكُوراتِ فِي الآية تَسْخِيرٌ جَبْرِيٌّ بسُلْطَانِ القضاءِ والْقَدَر.

وقد سبق في نجوم التَّنْزِيل امتنان اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ باللَّيْل والنهار، وبيانُ أَنَّهُمَا آيتان من آياته، وجاء هُنَا بَيَانُ تَسْخِيرِهِما لعبادِه في الأرض.

وسَبَقَ أيضاً في الآية (١٣) من سورة (فاطِر/٤٣ نزول) بيان تسخير اللهِ للشَّمْسِ والْقَمَرِ. وكذلِكَ في الآية (٥) من سورة (الزمر/٥٩ نزول).

وسبق أنْ جاء فِي الآية (٥٤) من سورة (الأعراف/٣٩) بيانُ تَسْخِير اللهِ النُّجُومَ، مَعَ تَسْخِيرِهِ الشَّمْسَ والْقَمَر لعباده.

فَلْيُرْجَعْ إلى تَدَبُّرِ هَـٰذِهِ النُّصُوص.

وهـٰذَا التَّسْخِيرُ لِهـٰذِهِ الآيَاتِ الكونيَّةِ الكُبْرَىٰ ذَوَاتِ النَّفْعِ العظيم، كائِنٌ بأمْرِ اللهِ التكْوينيّ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وفِي هَـٰذِهِ المسَخَّرَاتِ العظْمَىٰ لِآيَاتٌ جَلِيلَاتٌ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِن صِفَاتِ اللهِ وأسْمَائِهِ، وَعَلَىٰ عِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ، ورحْمَتِهِ لَهُمْ في حياة الابتلاء.

• ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾:

أي: إِنَّ في ذَلِكَ التَّسْخِيرِ لِهـٰذِهِ المخْلُوقَاتِ الكُبْرَىٰ لعَدَداً مِنَ الآيَات الدَّالَّاتِ عَلَىٰ صِفَاتٍ جَلِيلاتٍ من صِفَاتِ اللهِ وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، يتوصَّلُ لَهَا الَّذِينَ يعْقِلُونَ عَقْلاً عِلْمِيًّا وَعَقْلاً إرادِيًّا، فبالْعَقْلِ الْعِلْمِي يُدْرِكُونَ دَلَالَاتِ هَـٰذِهِ الآيَاتِ، ويَحْتَفِظُونَ بما أَدْرَكُوهُ فِي ذَاكِرَاتِهم، وَبِالْعَقْلِ

الإرَادِي يُوَجِّهُونَ إراداتِهِمْ لِلْعَمَلِ بِمَا تَقْتَضِيهِ المعارِفُ الَّتِي تَوَصَّلُوا إِلَيْهَا، واحْتَفَظُوا بِها.

جاء توكيد هٰذِهِ الجملة بالمؤكداتِ: «إِنَّ، والجملة الاسمية، واللّام».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابِعاً بَيَان بَعْضِ مِنَنِهِ عَلَىٰ عباده ومخاطِباً لَهُم:

● ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

ذَرَأَ: يأتي بِمَعْنَىٰ «خَلَقَ» وبِمَعَنَىٰ «بَثَّ» وكلا المعنيَيْنِ مرادان، فاللهُ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ خَلَق لِعِبَادِهِ فِي الأَرْض ونَشَرَ فِيها عَنْ طَرِيقِ الذُّرِّيَّةِ مَخْلُوقَاتٍ كَثِيرَاتٍ مخْتَلِفَاتِ الأَلْوَان.

اللَّوْنُ: هو في الأَصْلِ صِفَةُ جِسْمِ الشيء مِن كونِهِ أبيضَ أو أحمر أو أخْضَرَ أو أسْوَدَ أو غير ذلك. وقَدْ سَبَقَ لَدَىٰ تَدَبُّر الآيَتَيْنِ (٢٧ و٢٨) مِنْ سُورَة (فَاطِر/٤٣ نزول) بَيَان مَا يَكْفِي عَنِ الأَلْوَان.

ويُطْلَقُ اللَّوْن تَوَسُّعاً عَلَىٰ النَّوْعِ أو الجِنْسِ أوِ الصِّنْفِ، فَيُقَالُ مثلاً أَلْوانُ الأَطْعِمَةِ، أي: أنواعُها وأَصْنَافُها وأجْنَاسُها.

وكِلَا المعْنَيَيْنِ يَصِحُّ أَنْ يُرَادَا، والواقِعُ يَدُلُّ عَلَىٰ هٰذَا.

● ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

أي: إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي ذَرَأَهُ اللهُ لَكُمْ فِي الأَرْضِ، أَيُّهَا الموضُوعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، لآيَةً جَلِيلَةً عَظِيمَةً دَافِعَةً لِقَوْمٍ يَتَذَكَّرُونَ مِنْكُمْ، أَنْ يَعْمَلُوا مَعَ كُلِّ تَذَكُّرٍ لِلَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، مَا يَقْتَضِيهِ وَاجِبُ شُكْرِ اللهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ، وَوَاجِبُ طَاعَتِهِ فِي أَوَامِرِهِ ونَوَاهِيهِ.

ففِعْلُ «يَتَذَكَّرُ» فِي الدَّلالاتِ القرآنِيَّةِ بِمَثَابَةِ مُصْطَلَحٍ يُرَادُ بِهِ الأَثَرُ النَّفْسِيُّ والقَلْبِيُّ فِي السُّلُوكِ الدِّيني مِنْ حُضُورِ الْمَعْلُومَةِ فِي الذَّاكِرَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ متابِعاً بَيانَ بَعْضِ نِعَمِهِ عَلَىٰ عِباده:

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

أي: واللهُ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ، وقَدْ سَبَقَ قَرِيباً بَيَانُ معْنَىٰ التَّسْخِير.

وقد أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ أرْبَعِ مِنَنٍ امْتَنَّ اللهُ بِهَا عَلَىٰ عِبَادِهِ في الحياة الدُّنيا مِنْ تَسْخِيرِ الْبَحْرِ لَهُمْ، وَهَـٰذِهِ المنَنُ تُنَبِّهُ عَلَىٰ وَاجب شُكْرِهِ عَلَيْهَا:

المنَّةُ الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾: أي: لتَسْتَخْرِجُوا مِنَ الأَحْيَاءِ الْبَحْرِيَّةِ أحْياءً ذَوَاتَ لَحْمٍ طَرِيٍّ تَأْكُلُونَ مِنْهُ، وَفِي هـٰذَا اللَّحمِ مَنَافِعُ لَكُمْ وَطَيِّبَاتٌ تَسْتَمْتِعُونَ بِالْأَكْلِ مِنها.

الطَّرِيُّ: الْغضُّ اللَّيِّنُ. يُقَالُ لُغة: «طَرِيَ، يَطْرَىٰ، طَرَاوَةً، وطَرَاءَةً» و«طَرُوَ، يَطْرُو، طَرَاوَةً، وطَرَاءَةً، وَطَراءً» فَهُوَ طَرِيٌّ» أي: غَضٌّ لَيِّنٌ.

ومَعْلُومٌ أَنَّهُ يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْبِحَارِ أَلْيَن اللُّحُوم لِلآكلين.

المنَّةُ الثَّانِية: دلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾:

الْحِلْيَةُ: والْحَلْيُ: مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ مِنْ حِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ، أو مَصُوغٍ من المعَادِنِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

تَلْبَسُونَهَا: أَصْلُ «اللُّبْسِ» سَتْرُ الْجِسْمِ أَو بَعْضِهِ بِثَوْبٍ ما أو بنَحْوِهِ، ثُمَّ جَرَىٰ التَّعْمِيمُ حَتَّىٰ شَمَلَ لُبْسَ خَاتَم في إصْبَعٍ، ولُبْسَ عِقْدٍ مِنْ سِلْسِلَةٍ دَقِيقَةِ الصُّنع جدًّا فِي الْجِيدِ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَمَعْلُومٌ أَنْ الْبِحَارَ يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا اللُّؤْلُؤُ، والْمَرْجَان، وغيرها مِمَّا يَتَزَيَّنُ بِهِ الناس.

وخُوطِبَ الذُّكُورُ بِقَوْلِهِ تعالَىٰ: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ مِنْ بابِ التَّغْلِيب، أي: ويَلْبَسُهَا إِنَاثُكُمْ.

المنَّةُ الثالثَةُ: دلَّ عَلَيْهَا قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾:

الْفُلْك: مَرْكَبُ البحر، ويُطْلَقُ على الواحد، والاثنين، والجمع، ويُذَكَّرُ ويُؤَنَثُ، فيقال: هو الفلك، وهي الْفُلْك.

مَوَاخِرَ جَمْع «مَاخِرَة» أي: تَجْرِي شَاقَّةً الْمَاءَ شَقًّا، يقالُ لغة: «مَخَرَتِ السَّفِينَةُ، تَمْخُرُ، مَخْراً، ومُخُوراً» أي: جَرَت تَشُقُّ الماء.

أي: وتَرَىٰ أَيُّهَا الرّائِي أيًّا كُنْتَ، أَنَّ اللهَ امْتَنَّ عَلَىٰ عبادِهِ فِي حَيَاةِ الابْتِلاءِ بالْمَرَاكِبِ الْبَحْرِيَّةِ، التي تَجْرِي في الماء فَتَشُقُّهُ شَقًّا، لِقَضَاءِ كَثِيرٍ مِنْ حَاجَاتِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ عَلَىٰ ظُهُورِها.

جاء بَيَانُ هَـٰذِهِ المنَّةِ الثَّالِثَةِ مُغَايِراً فِي أُسْلُوبِهِ لِلأُسْلُوب الّذِي جاء فيه ذِكْرُ المنَّتَيْنِ السَّابِقَتَيْن، إيثَاراً للتَّنْوِيعِ، ولِمَا فِي عِبَارَةِ ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ مِنْ إِبْدَاعٍ في اخْتِيارِ الصُّورَةِ المقَدَّمَةِ في عَرْضِ المنَّةِ الرَّبَّانِيَّة.

المنَّةُ الرابِعَة: دلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أي: وَلِتَبْتَغُوا مَكَاسِبَ ومَنَافِعَ وَمَصَالِحَ وَحَاجَاتٍ في صُدُورِكُمْ، مِنْ فَضْلِ اللهِ، بِرُكُوبِهَا والسَّفَرِ أَو التَّجْوَالِ وأَنْتُمْ آمِنُونَ عَلَىٰ ظُهُورِهَا تُوَجّهونَها حَيْثُ تُرِيدُونَ، طَامِعِينَ في أَنْ يَتَفَضَّلَ اللهُ عَلَيْكُمْ بِتَحْقِيقِ مَا تَقْصِدُونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، ومِنْهَا المكاسِبُ التِّجاريّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ الآية:

• ﴿... وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾: أي: وَرَغْبَةً مِنَّا فِي أَنْ تَشْكُرُوا لِتَنْجُوا مِنْ عَذَابِ الْكَافِرِينَ الْجَاحِدِينَ الْمُجْرِمِينَ، وَلِتَنَالُوا ثوابَ الشَّاكِرِين في جنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

كلمة «لَعَلَّ» أصْلُ معناها التَّرَجِّي والتَّوَقُّعُ، وهٰذَا المعْنَىٰ لا يَلِيقُ بِمَنْ أَحَاطَ بكُلِّ شيءٍ عِلْماً، ولمَّا كَانَ بَعْضُ مَا يُرْجَىٰ مَرْغُوباً فِيهِ كَانَ حَمْلُ «لَعَلَّ» على معْنَىٰ الرَّغْبَةِ هُوَ المناسِبَ بِمِثْلِ هٰذَا التَّعْبِير.

الشُّكْرُ: مقابَلَةُ إِنْعَامِ المنْعِمِ بما يُرْضِيهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْك.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بَيَانَ بَعْضِ نِعَمِهِ على عبادِهِ في كَوْنِهِ:

• ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾:

رَوَاسِيَ: أي: جِبالاً رَاسِيَاتٍ ثَابِتَاتٍ في أَعْمَاقٍ مِنْ تَحْتِ سَطْحِ الْأَرْضِ. **الرَّاسِي**: الثَّابِتُ الرَّاسِخ.

• ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: أيْ: مَنْعَ أَنْ تَتَحَرَّكَ الأَرْضُ مِنْ تَحْتِكُمْ، وتَضْطَّرِبَ بِكُمْ، يقال لغة: «مَادَ الشَّيْءُ، يَمِيدُ، مَيْداً، ومَيَدَاناً» أي: تَحرَّكَ واضْطرب.

عِبَارَةُ ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ حِينَ أَرْسَى الجِبَالَ فِي مَوَاضِعِهَا مِنَ الْأَرْضِ، أَلْقَاهَا إِلْقَاءً بِنَقْلِهَا مِنْ مَوَاضِعَ في الْأَرْضِ، وَطَرْحِهَا في الْأَمْكِنَةِ الْمُخْتَارَةِ لِغَوْصِهَا ضِمْنَ قِشْرَةِ الْأَرْضِ، والضَّغْطِ عَلَيْهَا كَمَا تُضْرَبُ الْأَوْتَادُ لِتَدْخُلَ فِي بَاطِنِ الْأَرْض، وبِتَوَالِي الضُّغُوطِ غاصَتِ الجبالُ الَّتي أُلْقِيت، حتَّىٰ صارَ الْغَائِصُ مِنْهَا والمثَبِّتُ لِقِشْرَةِ الأرضِ من الْمَيْدَان أكْثَرَ مِنَ الظَّاهِرِ فَوْقَ سَطْحِ الْأَرْضِ مِنها.

• ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾: أي: وشَقَّ في الأرْضِ أنْهاراً، وأَجْرَىٰ فِيها الْمَاءَ الْحُلْوَ لمَنافِعِكُمُ الكَثِيرَةِ مِنْهُ.

• ﴿... وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾: وَجَعَلَ لَكُمْ فِي سَطْحِ الْأَرْضِ طُرُقاً قَابِلَةً لِأَنْ تَسْلُكُوها، رَغْبَةً فِي أَنْ تَصِلُوا بِسُلُوكِهَا إِلَىٰ مَا تُرِيدُونَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ مِن الْبُلْدَانِ، أَوْ مَواضِعَ مِنَ الْأَرْضِ لَكُمْ رَغَبَاتٌ في أَنْ تَصِلُوا إِلَيْهَا.

• ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾: أيْ: وَجَعَلَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ عَلامَاتٍ تُمَيِّزُ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ، حَتَّىٰ لَا تَلْتَبِسَ عَلَيْكُمْ مَوَاضِعُهَا، وهَٰذَا مُشَاهِدٌ في اخْتِلَافِ صِفَاتِ كُلِّ قَسْمٍ مِنَ الْأَرْضِ عَنْ غَيْرِهِ من الأقْسَام.

• ﴿... وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾: أي: وَجَعَلْنا في نُجُومِ السَّمَاءِ عَلامَاتٍ تَوَصَّلَ إِلَىٰ مَعْرِفَهَا أولُوا النَّظَرِ الْعِلْمِيِّ، فَهُمْ يَهْتَدُونَ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ، لِتَحْدِيدِ اتِّجَاهَاتِهِمْ والطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُونها.

وقَدْ سَبَقَ في سورة (الأنْعام/ ٥٥ نزول) ذِكْرُ هَٰذِهِ المنَّةِ مِنْ مِنَنِ اللهِ عَلَىٰ عِبادِهِ في الْأَرْض، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها خطاباً لعباده:

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي مُحَاكَمَةٍ إِقْنَاعِيَّةٍ للمشْرِكِين بَعْدَ الْعَرْضِ الموسَّعِ لبَعْضِ ظَوَاهِرِ خَلْقِهِ فِي كَوْنِهِ، وَبِأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الْحِوَارِيِّ:

• ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾؟:

أي: هَٰذَا الَّذِي نَبَّهْنَاكُمْ عَلَيْهِ مِنْ ظَوَاهِرِ خَلْقِ اللهِ في كَوْنِهِ يُثْبِتُ عظَمَةَ الرَّبِّ الْخَالِقِ، وَعَظَمَةَ صِفَاتِهِ، وَسُمُوَّ حِكْمَتِهِ، وَواسِعَ فَضْلِهِ عَلَىٰ عِبادِهِ.

وأَنْتُمْ تَجْعَلُونَ شَرِيكاً أَوْ شُرَكَاءَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وفي إِلَهِيَّتِهِ، وَكُلُّ مَا تَدَّعُونَ مِنْ شُرَكَاءَ لَهُ لَا يَخْلُقُ واحِدٌ مِنْهُمْ شَيْئاً، فَحَاكَمُوا أَنْفُسَكُمْ.

اللهُ الرَّبُّ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فِي الكَوْنِ، أَفَيَصِحُّ في عُقُولِكُمْ، أَنْ تَدَّعُوا أَنَّ مَنْ لَا يَخْلُقُ شَيْئاً مُسَاوٍ لِخَالِقِ كُلِّ شَيءٍ في الكَوْن، في الرُّبُوبِيَّةِ أَوِ الإِلَهِيَّة.

• ﴿... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾: أي: أَفَلَا تَضَعُونَ هَـٰذِهِ الحقيقَةَ في مواضِعِ تَذَكُّرِكُمُ الواعِي الْعَامِلِ، حَتَّىٰ تَكُونَ بَاعِثَةً لَكُمْ لِأَنْ تُدْرِكُوا أَنَّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ شِرْكٍ بَاطِلٍ وَاضِحُ الْبُطْلَانِ، فَتَنْبِذُوه، وَتُؤْمِنُوا بِالْحَقِّ، وتُعْلِنُوا إِسْلَامَكُمْ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين، وَتَعْمَلُوا بِمَا أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ لِهِدَايَتِكُمْ وهِدَايَةِ كُلِّ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ تَعْلِيقاً عَلَىٰ ما سَبَقَ أَنْ ذَكَرَ مِنْ نِعَمِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وإِطْمَاعاً لِلْعُصَاةِ مِنْهُمْ بالغُفْرَانِ إِذَا استَغْفَرُوا وتابوا، ومُخَاطِباً لَهُمْ:

• ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: ذَكَرَ اللهُ لَكُمْ فِي آيَاتٍ سَابِقَاتٍ بَدْءاً مِنَ الآيَةِ (٣) بَعْضَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الموضُوعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، ولَوْ اجْتَهَدْتُمْ فِي عَدِّ مُفْرَدَاتِ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ إِحْصَاءَهَا، لِخَفَاءِ مُعْظَمِهَا عَلَيْكُمْ، ولِكَثْرَتِهَا كَثْرَةً تَفُوقَ اسْتِطَاعَتَكُمْ عَلَىٰ الإِحْصَاء.

إِحْصَاءُ الشَّيْءِ: عِلْمُ مِقْدَارِهِ الْعَدَدِيّ.

• ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾: أي: نِعَمَهُ الَّتِي تَفَضَّلَ وَيَتَفَضَّلُ بِهَا دَواماً عَلَيْكُمْ، المفْرَدُ النَكِرَةُ إِذَا أُضِيفَ إِلَىٰ مَعْرِفَةٍ صَارَ بِقُوَّةِ الْجَمْعِ، فعِبَارَة: «نِعْمَةَ اللهِ» تَدُلُّ عَلَىٰ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ «نِعَمَ اللهِ».

وَيَا أَيُّها المشرِكُونَ الَّذِينَ قَامَتْ حُجَّةُ اللهِ عَلَيْكُمْ بِبُطْلَانِ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ، وَيَا أَيُّهَا الْعُصَاةُ مِنْ كُلِّ دَرَكَاتِ المعاصِي الخفيفَةِ والثّقِيلَةِ، الصَّغائِرِ والكَبَائِرِ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِذَا آمَنْتُمْ واسْتَغْفَرْتُمْ وتُبْتُمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقَدْ سَبَقَ كثيراً تَحْلِيلُ نَظِيرِ هَـٰذِهِ الْعِبَارَة.

أي: فَتَدَارَكُوا أنفُسَكُمْ قَبْلَ مَوْتِكُمْ.

• ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾:

اقْتَضَىٰ الْإِطْمَاعُ بِرَحْمَةِ اللهِ إِشْعَارَهُمْ بانْتِقَامِهِ الْعَادِلِ، بأُسْلُوبِ ذِكْرِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، وَقَدْ خَاطَبَهُمْ بِهَـٰذَا كَمَا خَاطَبَهُمْ بالَّذِي جاء في الآيَةِ السابقة.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ شُرَكَاءِ المشْرِكِينَ مُؤَكِّداً مَا جَاءَ فِي الآيَةِ (١٧) ضِمْناً، مَعَ الالْتِفَاتِ عَنْ خِطَابِ المشْرِكِين:

• ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾: وفي القراءة الأخرى: [تدْعُونَ] خطاباً للمشركين.

أي: والَّذِينَ يَعْبُدُون مَعْبُودِين أَوْ مَعْبُودَاتٍ مِنْ دُونِ اللهِ كَانُوا أَحْيَاءً فَمَاتُوا، مَا كَانُوا يَخْلُقُونَ شَيْئاً، بَلْ كَانُوا هُمْ يَخْلَقُون خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ مَعَ تَوَالِي أَزْمَانِ بَقَائِهِمْ فِي الْحَيَاةِ.

وَهُمُ الْآنَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ، وَمَا يَشْعُرُونَ مَتَىٰ يُبْعَثُونَ لِيَوْم الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الْجَزَاء، فَأَمْرُهُمْ كَأَمْرِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ مَاتُوا مَهْمَا كَانُوا فِي حَيَوَاتِهِمْ صُلَحَاء.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُ عِبَادَهُ بِشَأْنِ أَنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ إِلَهٌ واحِد، وأَنَّ الْإِيمانَ بالْآخِرَةِ عُنْصُرٌ أَسَاسٌ من عَنَاصِرِ سَلَامَةِ الْإِنْسَانِ ونجاتِهِ، بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّةِ عَلَىٰ أَنَّ الإلَهَ واحِدٌ.

• ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

• ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾: أي: بَعْدَ الْبَيَانَاتِ السَّابِقَاتِ بِشَأْنِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ والإِلَٰهِيَّةِ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، والحجج الْبُرْهَانِيَّةِ عَلَىٰ ذَلِكَ، صَارَ مِنَ الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ تَوْكِيداتٍ فِي الْجُمْلَةِ: «إِلَٰهُكُمُ الْحَقُّ أَيُّهَا الْعِبَادُ الْمَوْضُوعُونَ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ إِلَٰهٌ واحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ هُوَ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ».

• ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيَانَ أَنَّ مَنْ كَانُوا مُسْتَكْبِرِينَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ، واتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْهُ، وعَنِ الْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ وعَنِ اتِّبَاعِهِ، تَتَحَجَّرُ قُلُوبُهُمْ فَلَا تُدْرِكُ الْحَقَّ بَلْ تَكُونَ مُنْكِرَةً لَهُ، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ كُلِّ الْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّةِ الَّتِي تُقَامُ لِأَجْهِزَةِ الإِدْرَاكِ لَدَيْهِمْ، وَهَـٰذَا يَجْعَلُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بالْآخِرَةِ، فَلَا يَخَافُونَ عِقَابَ اللهِ فيها، وَحِينَ يَنْعَدِمُ الْخَوْفُ مِنْ عِقَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ تَنْمُو فِي النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ غَالِباً عَوَامِلَ فِعْلِ الشّرّ، باتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ والشَّهوَاتِ والْغَرَائِزِ، والنَّهَمِ لِتَحْقِيقِ مَطَالِبِهَا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، والْبَصِيرَةُ عَمْيَاء.

• ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ إِشْعَارٌ بِأُسْلُوبِ الكِنَايَةِ فِيهِ تَرْهِيبٌ مِنْ عِقَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّين.

﴿لَا جَرَمَ﴾: عبارَةٌ تُسْتَعْمَلُ لِتَوْكِيدِ الْكَلَام وَتَوْثِيقِهِ، فَهِيَ بِمَنْزِلَة: «حَقًّا ـ لَا بُدَّ ـ لَا مَحَالَةَ ـ لَا شَكَّ» وَأَصْلُ معْنَىٰ «الْجَرْم» الْقَطْع.

وبِمَا أَنَّ اللهَ لَا يحِبُّ المسْتَكْبِرِينَ وهُوَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يَعْلِنُونَ، فَهُمْ مُرَشَّحُونَ لِعِقَابِ اللهِ الشَّدِيدِ يَوْمَ الدِّين.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثّاني من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنِّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٦)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (النحل)
الآيات من (٢٤ ـ ٢٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ
أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا
يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ
فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ
يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ
ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

القراءات:

(٢٦) • قرأ أبو عمْرو: [**فَخَرَّ عَلَيْهِمِ**] بِكَسْرِ هَاء الضمير والميم بَعْدَها.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويَعْقُوب، وخلف: [**فَخَرَّ عَلَيْهُمُ**] بضَمّ هاء الضَّميرِ والميم بَعْدَها.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فَخَرَّ عَلَيْهِمُ**] بِكَسْرِ الهاء وضمّ الميم.

(٢٧) • قرأ يَعْقُوب: [**يُخْزِيهُمْ**] و[**فِيهُمْ**] بضم هَاء الضمير فيهما.

وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بِكَسْرِ هَاءِ الضَّمِيرِ فيهما.

(٢٧) • قرأ نَافع: [**تُشَاقُّونِ**] بِكَسْرِ النون. أي: تُشَاقُّونَنِي.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تُشَاقُّونَ**] بفَتْح النُّون.

(٢٨) • قرأ حَمْزَة، وَخلف: [يَتَوَفَّاهُمُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَتَوَفَّاهُمُ].
وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَتَوَفَّاهُمُ].
وهما وجهان عَرَبيان جائزان.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ عَرْضٌ لَقْطَةٍ مِنْ كُفْرِ المشْرِكينَ المنْكِرِينَ لِمَا أنزل الله عَلَىٰ رَسُولِهِ محمّد ﷺ، والْعَامِلِينَ عَلَىٰ إضْلَالِ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ، مَعَ تَحْذِيرِهِمْ مِنْ عِقَابَيْنِ مُعَجَّلٍ فِي الدُّنْيا، وَمُؤَجَّلٍ إِلَىٰ يَوْمِ القيامَة.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَئِمَةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ الَّذِينَ يُضِلُّونَ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ مِنْ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِمْ:

• ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: وإِذَا قِيلَ لِأَئِمَّةِ الشِّرْكِ الْمُضِلِّينَ: مَا الَّذِي أَنْزَلَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ رَسُولِهِ محمَّد ﷺ، أَهُوَ كِتَابٌ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟.

قَالُوا: أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ، أي: لَمْ يُنزِلْ رَبُّنَا كِتاباً عَلَىٰ محمد، والّذِي يتْلُوهُ محمَّدٌ، وَيزْعُمُ أَنَّهُ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّنَا، هُوَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِين. واسْتِعْمَالُ [إِذَا] يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يُكَرِّرُونَ إجَابَتَهُمْ حِينَ سُؤالهم.

عبارَة: «أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ» لَهَا مَعْنيان:

المعنى الأول: أبَاطِيل وأحَادِيثُ لَا نِظَامَ لَهَا، ولفظ «أَسَاطِير» جَمْعُ: «إِسْطَار» و«إِسْطَارَة» و«أُسْطُور» و«اسْطُورَة».

المعنى الثاني: مَكْتُوبَاتُ الأوَّلِينَ وَمَسْطُوراتُهُم، قَالَ أبو عُبَيْدَة: جُمِعَ «سَطْر» عَلَىٰ «أسْطُر» ثُمَّ جُمِعَ «أسْطُر» عَلَىٰ «أسَاطير».

وَكُلٌّ مِنْ هَـٰذَيْن المعنَيَيْنِ مُرَادٌ لَهُمْ، فَالْعَامَّة الْجَهَلَةُ مِنْ جَمَاهِيرِهِم يُفْهِمُونَهُمْ أَنَّ القرآنَ أَبَاطِيلُ وَأَحَادِيثُ لَا نِظَامَ لَهَا. وأَهْلُ الْفَهْمِ والرَّأي مِنْ جَمَاهِيرهِمْ يَزْعُمُونَ لَهُمْ أَنَّ مُحَمَّداً يَنْقُلُ مَا يَأتِي بِهِ مِنْ مَكْتُوبَاتِ الكُتُبِ السَّابِقَةِ، كالتَّوْرَاةِ والإنْجِيلِ.

• ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ... ﴿٢٥﴾﴾

أيْ: يَفْعَلُونَ هـٰذَا مُعَانِدِينَ وَرَافِضِينَ الاعْتِراف بالْحَقِّ، لِتَكُونَ عَاقِبَتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كامِلَةً، وَأَنْ يَحْمِلُوا مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ مَا كَانُوا هُمُ السَّبَبَ فِي إضْلَالِهِمْ بِهِ، وهؤلَاءِ الأَتْبَاعُ لَا يَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ تَبِعُوا أئِمَّتَهُمْ تَقْلِيداً وهُمْ جاهِلُونَ، غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَىٰ إدْرَاكِ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُ اللهِ في كِتَابِهِ، عَلَىٰ أَنَّهُمْ مُذْنِبُون كَفَرَةٌ لِأَنَّهُمْ رَفَضُوا الْإِيمانَ بِمَا أَدْرَكُوا أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ أَرْكَانِ الإيمان.

الأَوْزَار: جمع «الْوِزْر» وهُوَ في اللُّغَةِ الْحِملُ الثَّقِيل، ولمَّا كَانَ ارْتِكَابُ الذَّنْبِ وفِعْلُ الإثْم مِمَّا يَتَحَمَّلُ بِهِ الإنْسَانُ حِمْلاً ثَقِيلاً، أُطْلِقَ عَلَىٰ الذَّنْبِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ المكلَّفُ المخْتَارُ المسْؤُولُ عَنْ أَعْمَالِهِ الإدَارِيَّة.

يقال لغة: «وَزَرَ، يَزِرُ، وِزْراً، ووَزْراً، وزِرَةً» أي: حَمَلَ حِمْلاً ثَقِيلاً، أَوِ ارْتَكَبَ ذَنْباً كبيراً ثقيلاً، فَهُوَ «وَازِرٌ» وَهِيَ «وَازِرَة».

• ﴿... أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾: «أَلَا» هُنَا أداة اسْتِفْتَاح، وتَنْبِيهٍ، وتحْقيق. «سَاءَ» فِعْلٌ لإنْشَاءِ الذَّمّ على سَبِيلِ المبالغة، مع الدَّلَالة عَلَىٰ معنى التعْجيب، أي: مَا أَسْوأ مَا يَحْمِلُونَ من آثَام كُبْرَىٰ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً الحديث عَنْ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ والتَّضْلِيل:

• ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

الْمَكْرُ: تَدْبير أمْرٍ مَا فِي خَفَاء، يَكُونُ في الْخيْرِ، ويكُونُ في الشَّرّ، والمَكْرُ هُنا مُسْتَعْمَلٌ في الْمَكْرِ الَّذِي يَكُونُ في الشَّرّ، لِأَنَّه تَدْبِيرٌ لِلصَّدِّ عَنْ دِينِ اللهِ الْحَقِّ مِنْ قِبَلِ أئِمَّة الْكُفْرِ الْمُضِلِّلَ.

الْقَوَاعِدُ: جمع «القاعِدَة» وهي الأسَاسُ. ﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾: أي: مِنَ الأُسس.

حَيْثُ: اسْمُ مَكَانٍ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ الضَّمِّ، في مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَىٰ أَنَّهُ ظَرْف مَكَان.

الْخِزْيُ: الذُّلُّ والْهوان، والافْتِضَاحُ بالقَبَائِحِ والسَّيِّئَاتِ والآثَامِ الْمورِثَة لِلْخجل الشَّدِيد مِنها. والْوُقُوعُ في الْعَذَاب.

تُشَاقُّون: أي: تُخَالِفُونَ وتُعَادُونَ رُسُلَ رَبِّكُمْ والمؤمنينَ المسْلِمِينَ. قَال الزَّجّاج: الشّقَاقُ العداوة بَيْنَ فَرِيقَيْنِ والخلاف بيْنَ اثْنيْن، سُمِّى شِقَاقاً لِأَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ مِنْ فِرْقَتِي العداوة قَصَدَ شِقًّا، أيْ: نَاحِيَةً غَيْرَ شِقِّ صَاحِبِهِ.

• ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي: قَدْ مَكَرَ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والتَّضْلِيلِ الَّذِينَ سَلَفُوا في الْقُرُون الأُولَىٰ، مِنْ قَبْلِ أئِمَّة الشِّرْكِ والكُفْرِ والتَّضْلِيلِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ فِي مَكَّة، باتِّخَاذِ التَّدْبِيرَاتِ الصَّادَاتِ عن دِينِ اللهِ الحقّ.

• ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾:

أي: فَأَتَىٰ أَثَرُ أَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِتَدْمِيرِ أَبْنِيَتِهِمْ عَلَيْهِمْ وإِهْلاكِهِمْ،

فَزَلْزَلَ هَـٰذِهِ الْأَبْنِيَةَ بَدْءاً مِنْ قَوَاعِدِهَا، فَخَرَّ مُتَفَكِّكاً مِنْ أَثَرِ الزِّلْزَالِ سَقْفُ كُلِّ بِنَاءٍ عَلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ مِنْهُمْ، وَكَانَ بِذَلِكَ تَدْمِيرُ أَبْنِيَتِهِمْ كُلِّهَا وَإِهْلَاكُهُمْ جَمِيعاً، بَعْدَ أَنْ نَالُوا مِنَ الْعَذَابِ مَا يَسْتَحِقُّونَ بِعَدْلِ اللهِ.

• ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

أي: وأتَىٰ كُفَّارَ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ الْمُشَابِهِينَ لِأَئِمَّةِ كُفَّارِ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، الْعَذَابُ الَّذِي وَصَلَتْ إِلَىٰ أَجْسَادِهِمْ وَسَائِلُهُ مِنْ أَمْكِنَةٍ لَمْ يَكُونُوا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهَا سَتَأْتِيهِمْ مِنْهَا.

ومِنَ الاحْتِمَالَاتِ الَّتِي لَمْ يَكُونُوا يُدْخِلُونَهَا فِي حُسْبَانِهِمْ أَنْ تَتَفَجَّرَ بَرَاكِينُ مُدَمِّرَةٌ ومُعَذِّبَةٌ لَهُمْ مِنْ تَحْتِ أَبْنِيَتِهِمْ.

• ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ ... ﴿٢٧﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ، وَبَعْثِهِمْ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَعْرِضُهُمُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ، خَزَايَا أَذِلَّاءَ مُهَانِينَ في مَوْقِفِ حِسَابِهِمْ.

• ﴿... وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ... ﴿٢٧﴾﴾:

أي: وَيَقُولُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لَهُمْ: أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمْتُمُوهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا شُرَكَائِي فِي رُبُوبِيَّتِي وَإِلَهِيَّتِي، والَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ رَسُولِي والمؤمِنِينَ فِيهِمْ، فَتَجْعَلُونَ أَنْفُسَكُمْ فِي شِقِّ عُبَّادِ آلِهَتِكُمْ المشْرِكِينَ بِرَبّكم، في مُقَابِلِ شِقّ الرَّسُولِ والمؤمنين الَّذِينَ كَانُوا يُبَيِّنُونَ لَكُم أَنَّ أَرْبَابَكُمْ وآلِهَتَكُمْ باطِلَة، وأَنَّ إِيمَانَكُمْ بِهَا كُفْرٌ باللهِ رَبِّكُمُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هو.

• ﴿... قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

عبارة مُقْتَطَعَةٌ مِمَّا سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ أَنْ يَشْهَدَ أَهْلُ الْمَحْشَرِ مَا يَجْرِي لِلْكَافِرين مِنْ خِزْيٍ وَسُوءٍ.

أي: وَيَوْمَئِذٍ يَقُول الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ إِنْسٍ وجِنٍّ مُؤْمِنِينَ، وَمَلاَئِكَةٍ: إِنَّ الْخِزْيَ والذُّلَّ والْهَوَانَ الْيَوْمَ، والسُّوءَ، على الَّذِينَ كَانُوا فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ كَافِرِينَ بِمَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

السُّوءُ: كُلُّ أمْرٍ قَبِيحٍ مَكْرُوه.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ عُمُومِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ كُفَّاراً فِي بَيَانٍ مُسْتَأْنَفٍ:

• ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: الّذِينَ تَتوفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ فِي آجَالِهِمْ بَعْدَ رِحْلَةِ الابْتِلَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَالَةَ كَوْنِهِمْ ظَالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ بالكُفْرِ، وعِنْدَهُمْ خَوْفٌ مِمَّا هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ يُعْلِنُونَ اسْتِسْلَامَهُمْ وَخُضُوعَهُمْ، ويُحَاوِلُونَ التَّنَصُّلَ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ أَعْمَالٍ سَيِّئَةٍ لَمْ يَكُونُونَ يُجَاهِرُونَ بِها، فَيَقُولُونَ: مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ.

فَيأْتِيهِمُ الْجَوَابُ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، أَوْ مِنْ رَبِّهِمْ عَنْدَ مُحَاكَمَتِهِمْ فِي مَوْقِفِ حِسَابِهِمْ: بَلَىٰ كُنْتُمْ كَفَرَةً، وَكَانَتْ أَعْمَالُكُمْ سَيِّئَةً مُلاَئِمةً لِكُفْرِكم، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ خَافِيَةٌ مَهْمَا كَانَتْ سِرّاً فِي نُفُوسِكُمْ.

فَحُكْمُ اللهِ الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ بِأَنَّكُمْ كَافِرُونَ، وَتَسْتَحِقُّونَ الْخُلُودَ في جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِين.

• ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

عبارَةٌ مُقْتَطَعَةٌ مِمَّا سَوْفَ يُقَالُ لَهُم، على وفْقِ أَسْلُوبِ الاقْتِطاع فِي القرآنِ المجيد، الَّذِي هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِ الْبَدِيعَةِ.

أي: فادْخُلوا بِحَسَبِ دركَاتِكُمْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها.

• ﴿... فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

بِئْسَ: فِعْلٌ جَامِدٌ لإِنْشَاءِ الذَّمِّ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَة.

مَثوىٰ: أي: مَكَانُ إِقَامَة.

المتَكَبِّرِينَ: أي: الَّذِينَ كَانَ كِبْرُهُمْ هُوَ الدَّافِعَ لَهُمْ لِعَدَمِ الإيمَانِ باللهِ وكتابِهِ ورسُولِهِ، ولِعَدَمِ الْإِسْلَامِ للهِ واتِّبَاعِ الرَّسُول ﷺ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (النَّحْل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنِّهِ، وَفَتْحِهِ.



(٧)
التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٣٠ ـ ٣٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

القراءات:

(٣٣) • قرأ حمزة، وخلف: [يَتَوَفَّاهُمْ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَتَوَفَّاهُمْ].

وهُمَا وَجْهَانِ عَرَبِيّان جائزان.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ لَقْطَةٌ تَتعلَّقُ بالمؤمنِينَ المتَّقِينَ بِشَأْنِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ، مع بَيَانِ بَعْضِ مَا يَكُونُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ فِي جنَّاتِ عَدْنٍ، وَمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِنْ تَحِيَّةٍ وَتَكْرِيم.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المؤمِنِينَ المتَّقِين:

• ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا . . . ﴿٣٠﴾﴾:

جَاءَ هٰذَا البَيَان بِشَأْنِ المتَّقِين فِي مُقَابِلِ مَا جَاءَ بِشَأْنِ أئِمَّة الشِّرْكِ والتَّضْلِيل، في الآيـة (٢٤): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

فالكَفَرَةُ المشْرِكُونَ المعانِدُونَ قَالُوا بِشَأْنِ القرآن: هو أَسَاطِير الأَوَّلين.

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا واتَّقَوْا فَقَالُوا بِشَأْنِ الْقُرْآنِ حِينَ قِيلَ لَهُمْ: ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾: أي: مَا الَّذِي أَنْزَلَهُ رَبُّكُمْ فِي كِتَابِهِ: ﴿قَالُوا خَيْرًا﴾: أي: قَالُوا أَنْزَلَ رَبُّنَا فِي كِتَابِهِ خَيْراً عَظِيماً.

فالْفَرِيقَانِ عَلَىٰ طَرَفَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ فِي مَوَاقِفِهِمَا مِنَ الْقُرْآنِ المجيد.

إِنَّ عبارة ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهِ.

أَمَّا عِبَارَةُ المتقين: ﴿خَيْرًا﴾ فَتَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ فِيهِ خَيْرٌ عظيم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ تَعْقِيباً عَلَىٰ مَقالَة المؤمنِينَ المتَّقِينَ:

• ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ

يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

فِي هٰذَا الْبيان وَعْدٌ مِنَ اللهِ الكَرِيمِ الْجَوادِ ذِي الْفَضْلِ لِلْمُحْسِنِينَ أَصْحابِ مَرْتَبَةِ الإحِسْانِ، ولِعُمُومِ المتَّقين.

أَيْ: الَّذِينَ أَحْسَنُوا فَبَلَغُوا بأَعْمَالِهم الصالِحَة مَرْتَبَة الإحْسَانِ، لَهُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيا مِنْ رَبِّهِم مَقَادِيرُ حَسَنَةٌ تَسُرُّهُمْ. ولَكِنْ لَهُمْ في الآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعيمِ خَيْرٌ عَظِيمٌ يَفُوقُ كُلَّ تَصَوُّرَاتِهِمْ.

- ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾: أَيْ: ولَدارُ الْحَياةِ الْآخِرَةِ وهي الْجَنَّةُ، ذَاتُ الْأَقْسَامِ الكَثِيرَةِ الَّتِي يُعْتَبَرُ كُلُّ قِسْمٍ مِنْهَا جَنَّةً مُكْتَمِلَةَ الْعَنَاصِرِ المطْلُوبَةِ فِيها:
- ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: هٰذِهِ عِبارَةُ ثَناءٍ عَلَىٰ دَارِالمتَّقِين، جاءَتْ فِي مُقَابِلِ ذَمِّ مَكَانِ إِقَامَةِ الْمُتَكَبِّرِينَ، في الآيَة السَّابقة: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مَا يَمْنَحُ الْمُحْسِنِينَ مِنْ عُمُومِ دَارِ المتَّقِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾:

جَنَّاتُ عَدْنٍ هِيَ أَقْسَامٌ ذَاتُ مُسْتَوىً رَفِيعٍ مِنْ عُمُومِ دَارِ المتقين، وَهِي فَوْقَ أَقْسَامِ جَنَّاتِ المتَّقِينَ الْعَادِيِّين، ودُونَ مَنازِلِ الْفِرْدَوس الأَعْلَىٰ الَّتِي هي لِذَوِي الدَّرَجاتِ الْعُلْيَا مِنَ الْمُحْسِنِينَ والْأَبْرار.

ومعْنَىٰ: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: جَنَّاتُ ثَبَاتٍ واسْتِقْرَارٍ دَائم، وهُو عُنْوَانٌ مُخْتَارٌ لِوَسَطِ الجنَّاتِ.

وَمِنْ صِفَاتِ جنَّاتِ عَدْن أَنَّها تَجْرِي مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا أَوْ مِنْ تَحْتِ

شُرُفَاتِ قُصُورِهَا الأنْهَارِ، وهِي أَنْهَار الماء، واللَّبَنِ، والْخَمْرِ الَّتِي لَا غَوْلَ فيها، والْعَسَلِ المصَفَّىٰ، وَمِنْ صِفَاتِ جَنَّاتِ عَدْنٍ أَنَّ لِأَهْلِهَا مَا يَشَاءُونَ فِيها مِنْ كُلِّ يَشْتَهُونَهُ وَيَتَمَنَّوْنه.

• ﴿... كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ عُمُومَ المتَّقِينَ بجنَّاتٍ فِيهَا شَبِيهُ جَنَّاتِ عَدْنٍ في الصِّفَاتِ العامَّةِ مع تَفَاضُلٍ في الدَّرَجَاتِ والصِّفَاتِ، وهيَ دُونَ جَنَّاتِ عَدْنٍ.

وتَابَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الحديثَ عَنْ عُمُوم المتَّقِينَ بقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾: وفي القراءة الأُخرى: [يَتَوَفَّاهُمُ]:

أي: كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ المتَّقِينَ الَّذِينَ تَتوفَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ المكلَّفُونَ أَنْ يَقْبِضُوا أَرْوَاحَهُمْ حَالَةَ كَوْنِهِمْ طَيِّبِينَ مِنْ رِجْسِ الكُفْرِ بِرَبِّهِمْ.

الطَّيِّبُ: فِي اللُّغَةِ ضِدُّ الْخَبِيثِ، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الطَّاهِر، والظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ طَاهِرُونَ مِنْ رِجْسِ الكُفْر عَلَىٰ اخْتِلَاف دَرَجَاتِهِمْ فِي سُلَّم التَّقْوى.

وَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ حِينَ يَقْبِضُونَ أَرْوَاحُهُمْ تَكْرِيماً وإِينَاساً وتَبْشِيراً بِالْأَمْنِ: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» وَيُبَشِّرُونَهُمْ بأَنَّهُمْ سَوْفَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيقولُونَ لَهُمْ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ في الحياة الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالٍ أَرْضَتْ عَنْكُمْ رَبَّكُمْ، فَهُوَ يُحَقِّقُ لَكُمْ بِفَضْلِهِ وَعْدَهُ الكَرِيمَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بِعَمَلِكُمْ حَقٌّ عَلَىٰ رَبِّكُمْ ذِي الفضْلِ أَنْ يُدْخِلَكُمْ بِهِ الْجَنَّةَ، ولكِنَّ رَبَّكُمْ تَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِوَعْدِهِ الْكَرِيم، فَأَنْتُم تَدْخُلونَ الْجَنَّةِ بِفَضْل الله» دَلَّ عَلَىٰ هـٰذَا المعنىٰ قَوْلُ الرَّسُول ﷺ في الحديثِ الصَّحِيحِ:

«سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، واعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ أَحدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» قِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال:

«وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ».

أَقُولُ: إِنَّ أَعْمَالَ الْعَبْدِ مَهْمَا صَلَحَتْ، وكانَتْ مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، فإِنَّها لَا تُكافِئ جُزْءاً يَسِيراً مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الرابع مِنْ دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنَّتِهِ، وَفَتحِهِ.



(٨)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الخامس من دُروس سورة (النحل) الآيتان (٣٣) و(٣٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

القراءات:

(٣٣) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**أَنْ يَأْتِيَهُمْ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَنْ تَأْتِيَهُمْ**].

وهُمَا وجهان عَربيَّان جائزان.

(٣٤) • قرأ أبو جعفر: [**يَسْتَهْزُونَ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَسْتَهْزِئُونَ**].

تَمْهيد:

فِي آيَتَي هـٰذَا الدَّرْسِ مُعَالَجَةُ الكَفرَةِ الْمُعَانِدِينَ بالإنْذَارِ بِعَذَابٍ عِنْدَ الْمَوْتِ، أو باسْتِئْصَالٍ بِمُعَذِّبَاتٍ مُهْلِكَاتٍ، كَمَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالأُمَمِ الْمُهْلَكَةِ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَة.

التدبّر التحليلي:

• ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾؟: أي: هَلْ يَنْتَظِرُ أَئِمَّةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ والتَّضْلِيلِ في مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيل.

• ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: أيْ: إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ المكَلَّفُونَ أَنْ يَقْبِضُوا أَرْوَاحَهُمْ، فَيُعَذِّبُوهُمْ بِضَرْبِ وُجُوهِهِمْ وأَدْبَارِهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ.

دلَّ عَلَىٰ هـٰذَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في سورة (الْأَنْفَال/٨ مصحف/٨٨ نزول) في وَصْفِ أَحْدَاثِ غَزْوَةِ بَدْر:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾:

أي: ويقُولُونَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ الَّذِي تَخْلُدُونَ بِهِ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيامَةِ.

• ﴿... أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ...﴾: أي: أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ باسْتِئْصَالِهِمْ بِإِهْلَاكٍ جَماعِيٍّ مَقْرُونٍ بِعَذَابٍ أَلِيم.

• ﴿... كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾: أي: كَذَلِكَ الْفِعْلِ الَّذِي يَفْعَلُهُ هَؤُلَاءِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، فَعَلَ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ المضِلُّونَ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّالِفَة، فَأَهْلَكَهُمُ الله إِهْلَاكاً شَامِلاً مَقْرُوناً بِعَذَابٍ أَلِيم.

• ﴿... وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾: أي: ومَا ظَلَمَهُمُ اللهُ حِينَ أَنْزَلَ بِهِمُ الْعَذَابَ الْمُهْلِكَ الْمُدَمِّرَ الْمُسْتَأْصِل، فَقَدْ

أَبَانَ اللهُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِم تَرْكُهُ، وحَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ بِالْعَذَابِ الْمُسْتَأْصِلِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِمْ، فاسْتَهْزَؤُوا بما أَنْذَرَهُمْ بِهِ الرُّسُل، وَعَانَدُوا وأَصَرُّوا عَلَىٰ مَعْصِيَةِ اللهِ وَرُسُلِه، فَكَانُوا هُمُ الظَّالِمينَ لِأَنْفُسِهِمْ كَمَنْ قيل له: هذه نَارٌ مُحْرِقَةٌ قَاتِلَةٌ، فَدَخَلَ فيها.

• ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: فَأَصَابَ أَعْمَاقَهُمْ عِقَابُ سَيِّئَاتِ مَا عَمِلُوا. وَأَحَاطَ بِهِمْ وَلَزِمَهُمْ الْإِنْذَارُ الَّذِي كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، قَبْلَ أَنْ يُدَمِّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَيَسْتَأْصِلَهُمْ اسْتِئْصَالاً مُقْتَرِناً بِتَعْذِيب.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الخامس من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٩)
التدبُّر التحليلي للدّرس السادس من دُرُوس سورة (النحل) الآية (٣٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

تَمْهيد:

فِي هٰـذِهِ الآيَة عَرْضُ جَدَلِيَّةٍ مِنْ جَدَلِيَّاتِ المشْرِكِينَ، تَعْتَمِدُ عَلَىٰ مَقُولَةِ أَنَّ النَّاسَ مَجْبُورُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا غَيْرُ مُخَيَّرِين، وهُمْ فِي هٰـذَا كَاذِبُونَ.

التدبّر التحليلي:

سَبَقَ أنْ جاءَ في نُجُومِ التَّنْزِلِ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾:

وقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في سُورَة (الزُّخْرُف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) بِشَأْنِ مَقُولَةٍ قَالَهَا المشْرِكُونَ:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾.

(١) أنْزَلَ اللهُ آيَةَ (الأنْعام) وفِيهَا بَيَانُ أَنَّ أئِمَةَ الشِّرْكِ والكُفْرِ المعالَجِينَ فِي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، سَيَتَعَلَّلُونَ بالْجَبْرِ وسَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مَفْطُورُونَ بِخَلْقِ اللهِ الْجَبْرِيّ عَلَىٰ أَنْ يَكُونُوا مُشْرِكِينَ، وكذَلِكَ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ، وفَطَرَهُمْ عَلَىٰ أَنْ يُحَرِّمُوا أشْيَاءَ مِنَ الْأَنْعَامِ وغَيْرِهَا، لِذَلِكَ فَهُمْ غَيْرُ مَسْؤُولِينَ عِنْدَ اللهِ عَمَّا هُمْ مَجْبُورِينَ عَلَيْهِ مِنْهُ.

وأَنَّهُمْ سَيُعَبِّرُونَ عَنْ هٰذَا الْجَبْرِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ﴾ أي: بَلْ شَاءَ أَنْ نَكُونَ مُشْرِكِينَ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا، وَشَاءَ أَنْ نُحَرِّمَ مَا حَرَّمْنا، وَفَطَرَنَا عَلَىٰ هٰذَا بالْخَلْقِ الْجَبْرِي، فَلا مَسْؤولِيَّةَ عَلَيْنَا فِيما نَحْنُ عَلَيْهِ عِنْدَ رَبِّنَا.

فَكَذَّبَهُمُ اللهُ فيما سَيَدَّعُونَهُ، وَقَالَ تَبارَكَ وتَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ﴾ إِذْ عَاقَبْنَاهُمْ مُعَذَّبِينَ ومُهْلِكِينَ وعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لهم: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

(٢) ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ آيَةَ سُورَةِ (الزُّخْرُف) فَأَبَانَ فِيهَا أَنَّهُمْ صَرَّحُوا بِتَعَلُّلِهِمْ بِالْجَبْرِ، وأَنَّهُمْ قَالُوا فِعْلاً بِشَأْنِ شُرَكَائِهِم الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ يُثْبِتُ ادِّعَاءَهُمْ، وَأَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ، فَقَال تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾.

فَجَاءَ الرَّدُّ في آيَةِ سُورَةِ (الزُّخْرُفِ) مُشَابِهاً للرَّدِّ الّذِي جاء في آيَةِ سُورَةِ (الأَنْعَام).

(٣) ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ آيَةَ سُورَة (النَّحْلِ) الَّتِي يَجْرِي تَدَبُّرُها، فَأَبَانَ فِيهَا أَنَّهُمْ كَرَّرُوا تَعَلُّلَهُمُ الْكَاذِبَ بِالْجَبْرِ فجاء فيها قولُ اللهِ تبارك وَتَعَالَىٰ:

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾.

أي: ما عَبَدْنَا من دون جَبْرِهِ لَنَا من شيء، ولا حَرَّمْنَا من دُونِ جَبْرِه لنا من شيءٍ.

وهِي مُحَرَّماتُهُمُ الْبَاطِلاتُ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا فِي سُورَةِ (الأَنْعَام).

يَظْهَرُ أَنَّ مَقُولَتَهُمُ الْجَبْرِيَّةَ هَـٰذِهِ انْخَدَعَ بِهَا أَتْبَاعُهُمْ وقَبِلُوهَا، فَكَرَّرُوهَا لِتَزْيِينِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ بَاطِلٍ، وَمَا يَفْتَرُونَهُ مِنْ تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ.

فَجَاءَ الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ التَّعْقِيبيُّ في آيَةِ سُورَة (النَّحْلِ) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: فِي هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ إِشْعَارٌ بِمَا جَاءَ في آيَةِ (الأنْعام) أي: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ... ﴿١٤٨﴾﴾.

وقال الله لَهُمْ فِي آيَةِ سورة (النَّحْل):

• ﴿... فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: لَيْسَ الرُّسُلُ وَفِي خاتِمَتِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ مُطالِبِينَ بإجْبارِكم وَتَحْوِيلكُمْ مِع الكُفْرِ إلى الإيمان، ومِنَ الضَّلالِ إلَىٰ الْهُدَىٰ، بَلْ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فِي رِسَالَاتِهِمْ إلَّا أَنْ يُبَلِّغُوا مَا أَمَرَهُمْ رَبُّهُمْ بِتَبليغِهِ لِعِبَادِهِ.

أَمَّا الْجَزَاءُ عَلَىٰ الْقُبُولِ أَو الرَّفْضِ لِبَلَاغَاتِ الرُّسُلِ، فاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ هُو الَّذِي يَتَوَلَّاه.

وَفِي هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ تَلْوِيحٌ ضِمْنِيٌّ، بِأَنَّ اللهَ سَيُعَاقِبُهُمْ عَلَىٰ عِنَادِهِمْ، وإِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ الكُفرِ الَّذِي لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ، بَلْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ فِيهِ حُجَّةُ اللهِ الْبَالِغَةِ.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السادس من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنِّهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٠)

التدبُّر التحليلي للدَّرس السابع من دُروس سورة (النحل) الآية (٣٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

القراءات:

(٣٦) • قرأ أبو عمْرو، وعَاصِمٌ، وحَمْزَةُ، ويَعْقُوبُ: **[أَنِ اعْبُدُوا]** بكَسْرِ النون.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[أَنُ اعْبُدُوا]** بضمِّ النون، مُراعاةً لضَمّ باء «اعْبُدُوا».

التدبّر التحليلي:

يُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُعَالَجِينَ في السُّورَةِ مِنْ مُشْركي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيلِ بَهَبَارَةِ «لَقَدْ» المبْنِيَّةِ عَلَىٰ قَسَمٍ مَنْوِيٍّ مع حَرْفِ «قَدْ» الدَّالِّ عَلَىٰ التحقيق، بقولِهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ...﴾:

الْأُمَّةَ: تُطْلَقُ في الاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ عَلَىٰ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ تَجْمَعُهَا صِفَاتٌ، أَو خَصَائِصُ، أَوْ رَوَابِطُ مُتَمَيِّزَة.

فكُلُّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ بَعَثَ اللهُ فِيهَا رَسُولاً لِيُبَلِّغَهَا رِسَالَةَ رَبِّهِ، فَهِيَ أُمَّةُ بَلَاغِ رَسُولِهَا الْمَبْعُوثِ فيها.

الرَّسُول: هُوَ نَبِيٌّ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، ومَأْمُورٌ بِأَنْ يُبَلِّغَ أُمَّتَهُ رِسَالَةَ رَبِّهِ إليهم.

وعبارَةُ: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ تَشْمَلُ أُمَمَ الأَرْضِ جَمِيعاً، حَتَّىٰ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، الّذي جَعَلَهُ اللهِ رَسُولاً لِلنَّاسِ جَمِيعاً مُنْذُ بِعْثَتِهِ إِلَىٰ آخِرِ إِنْسَانٍ مُمْتَحَنٍ مُكَلَّفٍ قَبْلَ قِيامِ السَّاعَة.

ودَلَّتْ هَـٰذِهِ الْعِبارَةُ أَنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي عَاشَتْ فِي عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام قَدْ كَانَ آدَمُ رَسُولَهَا، وَأَنَّ الْأُمَمَ الَّتِي تَفَاصَلَتْ بَيْنَ آدمَ وَنُوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَدْ أَرْسَلَ لَهَا رُسُلاً.

أَمَّا نُوحٌ عَلَيْهِ فَقَدْ كانَ أَوَّلَ الرُّسُلِ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ الكِبَارِ، سَبَقَهُ رُسُلٌ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أُولِي الْعَزْمِ، ومِنْهُمْ «شيث» و«إدْريس» عَلَيْهِمَا السَّلَام.

• ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾

الطَّاغُوت: كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ الله (يسْتَوِي فِيهِ الواحِدُ وغَيْرُه والمذَكَّرُ والمؤنَّثُ) ويُجْمَعُ عَلَىٰ «طَوَاغِيت» وعلىٰ «طَواغ».

ومعناهُ لغةً: «كثيرُ الطُّغيان» فَيُطْلَقُ عَلَىٰ الشيطانِ، والكاهِنِ، والساحِرِ، وبَيْتِ الصَّنَم.

أي: وَكَانَ عُنْوَانُ رِسَالَةِ كُلِّ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَىٰ أُمَّتِهِ:

«اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، واجْتَنِبُوا كُلَّ طَاغُوتٍ يَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الْخُرُوجِ عَنْ صِرَاطِ رَبِكُمْ المشْتَمِلِ عَلَىٰ مَطْلُوبِ اللهِ مِنْكُمْ فِي عِبَادَتِهِ».

• ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾: أي: فَمِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مَنْ اسْتَجَابَ لدَعْوَةِ رَسُولِ رَبِّهِ واتَّبَعَ الْحَقَّ، فَحَكَمَ اللهُ لَهُ بِالْهِدَايَة، فَجعَلَهُ مَهْدِيًّا، وَقَضَىٰ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيم.

• ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾: أي: ومِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ رَسُول رَبِّهِ، ولَمْ يَتَّبع الْحَقَّ، فَثَبَتَتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ الَّتِي سَلَكَ سُبُلَهَا باخْتِيَارِهِ الحرّ، اتِّبَاعاً لِأَهْوَاءِ نَفْسِهِ، وشَهَواتِهَا، ونزَعَاتِهَا، وَنَزَغَاتِها، وَتَأَثُّراً بتَضْلِيلَاتِ المضِلِّينَ مِنْ شَيَاطِينِ الإنْسِ والْجِنِّ.

وإذْ ثَبَتَتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ باخْتِيارِهِ الْحُرِّ، حَكَمَ اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلَالَة، فَجَعَلَهُ ضَالاً ضِمْنَ فِئَة الضَّالِين، وَقَضَىٰ عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ مِنَ المعَذَّبِينَ في الْجَحِيمِ يَوْمَ الدِّينِ.

ومِنَ الْأُمَم مَنْ قَضَىٰ اللهُ عَلَيهِمْ بأَنْ يُهْلِكَهُمْ إهْلاكاً مُسْتَأْصِلاً، مُقْتَرِناً بِعَذَابٍ.

وَخَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُعَالَجِينَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ مُلَوِّحاً لَهُمْ باحْتِمَالِ إِهْلَاكِهِمْ، وَمُعَامَلَتِهِمْ مُعَامَلَةَ مَنْ أَهْلَكَهُمْ مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ إِهْلَاكاً مُقْتَرِناً بِالْعَذَابِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونه، فَقالَ لَهُمْ:

• ﴿... فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَوْلِكُمْ، فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَرْضَ ثَمُود، وأَرْضَ عَاد، وأَرْضَ قَوْمِ لُوط، وَغَيْرَهَا، فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكَذِّبِي رُسُلِ رَبِّهِمْ، والْمُكَذِّبِينَ بِمَا بَلَّغُوهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ، وَهٰذِهِ الْعَاقِبَةُ قَدْ كَانَتْ تَدْمِيراً لِبُلْدانِهِم، وَإِهْلَاكاً شامِلاً لَهُمْ، مَقْرُوناً بِتَعْذِيبِ مَنْ يَسْتَحِقُّ التَّعْذِيبِ مِنهم.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس السابع من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١١)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثامن من دُروس سورة (النحل) الآية (٣٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

القراءات:

قرأ عَاصِمٌ، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [لَا يَهْدِي].

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا يُهْدَىٰ].

تَمْهيد:

في آيَةِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَرْبِيَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ بِشَأْنِ مَنْ يَحْرِصُ عَلَىٰ هِدَايَتِهِمْ.

التدبّر التحليلي:

كَانَ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَىٰ هِدَايَةِ قَوْمِهِ، وَلَا سِيمَا أَهْلُ مَكَّةِ، فَأَبَانَ اللهُ لَهُ في نُصُوصٍ متعَدِّدَة أَنَّ وَظِيفَتَهُ تَبْلِيغُ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ، لَا تَحْوِيلُ مَنْ يَدْعُوهم إلى دينِ اللهِ الحقِّ مِنَ الكُفْرِ والشِّرْكِ، إِلَىٰ الْإيمَانِ الصحيح، وَتَوحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيّتِهِ وإلَهيَّتِهِ.

وَلَكِنِ اسْتَمَرَّ رَسُولُ الله ﷺ شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَىٰ هِدَايةِ قَوْمِهِ، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُيْئِسَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ مِنْ تَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ هَـٰذِهِ، إِذْ خَلَقَ اللهُ النَّاسَ في الْحَياةِ الدُّنْيَا ذَوِي إرَادَاتٍ حُرَّةٍ ليَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتاهُمْ، ولَمْ يَجْعَلْهُمْ مَجْبُورِين.

ومَعْلُومٌ أَنَّ مِنْ نَتَائِجِ حُرِّيَّةِ الْإِرَادة أَنْ يَخْتَارَ كُلُّ ذِي إرَادَةٍ حُرَّةٍ مَا يَشَاءُ لِنَفْسِهِ، مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ، مِنْ هِدَايَةٍ أَوْ ضَلَالَةٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ:

• ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٣٧﴾: وفي القراءة الأخرى: [لَا يُهْدَىٰ].

أيْ: إنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ قَوْمُكَ كُلُّهُم يا مُحَمَّدُ مَهْدِيّينَ فَلَا تَطْمَعْ بِأَنْ يَتَحَقَّقَ لَكَ مَا تَحْرِصُ عَلَيْهِ.

• أَمَّا مِنْ جِهَتِهِمْ فَإِنَّ رَبَّكَ خَلَقَهُمْ ذَوِي إرَادَاتٍ حُرَّةٍ لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتاهُمْ، وَلَا تَسْتَطِيع أَنْ تَكُونَ مُجْبِراً لَهُمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضُهُمْ لِنَفْسِهِ أَنْ يَسْلُكَ سَبِيلَ الْهِدَايَة، وَأَنْ يَخْتَارَ آخَرُونَ مِنْهُمْ لِنفْسِهِ سُبُلَ الضَّلَالَةَ.

• وأَمَّا مِنْ جِهَةِ رَبِّكَ، فَإِنَّ رَبَّكَ لَا يَجْعَلُهُمْ مَجْبُورِينَ بَعْدَ اخْتَارَ أَنْ

يَجْعَلْهُمْ مُخَيَّرِينَ لِيَمْتَحِنَهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدنيا، إِذْ لَوْ جَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ لَجَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ الْهِدَايَة، وتُلْغَىٰ حِينَئِذٍ حِكْمَةُ الامْتِحَان.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَا يَحْكُمُ لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ وَهُمْ ضَالُّونَ، وَإِنَّ اللهَ لَا يَكُونُ مُتَنَاقِضاً فَيَحْكُم بِهِدَايَةِ مَنْ حَكَمَ عَلَيْهِ بالضَّلَالَة لِأَنَّهُ فِي واقِعِ حَالِهِ ضَالٌّ.

وَحِينَ يَقْضِي رَبُّكَ بِتَنْفِيذِ عِقَابِهِ لَهُمْ فَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِين يَنْصُرُونَهُمْ فَيَحْمِيهِمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ بالْعَدْلِ.

وأَمَّا بالنِّسْبَةِ إلى قِرَاءَةِ: [لَا يُهْدَىٰ] فَهِي عَلَىٰ مَعْنَىٰ: أَنَّهُ لَا يُوْجَدُ أَحَدٌ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْكُم بِهِدَايَةِ مَنْ يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلالَة، إِذْ لَا حُكْمَ إِلَّا للهِ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثامِن من دُرُوس سورة (النَّحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنِّهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٢)
التدبُّر التحليلي للدّرس التاسع من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٣٨ ـ ٤٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

القراءات:

(٤٠) • قرأهَا ابْنُ عَامر، والكسائي: [كُنْ فَيَكُونَ] بنصْبِ «يكونَ».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [كُنْ فَيَكُونُ] بالرفعِ، أي: فَهُو يكونُ.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰـذَا الدَّرْسِ بَيَانُ عَقِيدَة المشْرِكِينَ الكَفَرَةِ، بِشَأْنِ إنْكَارِهِمُ الْبَعْثِ، مَعَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ.

التَّدبُّر التَّحْلِيلي:

إنَّ أئِمَّةَ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيلِ، بَعْدَ أنْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ الْبَرَاهِينُ الْعَقْلِيَّةُ بِشَأْنِ ضرورةِ الْبَعْثِ يَوْمَ القيامَةِ لِتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِي، فِي سَوَابِقِ نُجُومِ التَّنْزِيلِ، وَبَعْدَ أنْ أُسْقِطَتْ تَشْكِيكَاتُهُمُ الَّتِي لَا حُجَّةَ فِيها إلَّا مُجَرَّدُ الاسْتِبْعَادِ والاسْتِغْرَابِ والتَّعَجُّبِ، لَمْ يَجِدُوا شَيْئاً يُقَوُّونَ بِهِ ادِّعَاءَهُمُ الْبَاطِلَ، إلَّا أنْ يَحْلِفُوا الأَيْمَانَ المشَدَّدَةَ المغلَّظَةَ بِأَنَّ اللهَ لَا يَبْعثُ مَنْ يَمُوت، لِتَثْبِيتِ أتْبَاعِهِمْ فِي تَبعِيَّتِهِمْ لَهُمْ فِي كُفْرِيَّاتِهِمْ.

فاقتضَتِ الْحِكْمَةُ الْجَدَلِيَّةُ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ بِنَفْيِ مَقُولَتِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ، وَبَيَانِ أَنَّ أَيْمَانَهُمْ المغلَّظَة المشَدَّدَةَ ذَرَائِعُ بَاطِلَةٌ، أَقْسَمُوا بِهَا مُؤَكِّدِينَ مَقُولَتَهُمُ الْكَاذِبَة، لإِيهَامِ أتْبَاعِهِمْ بِأَنَّهُمْ صَادِقُونَ فِيمَا زَعَمُوا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: وأَقْسَمَ أَهْلُ الكُفْرِ والشِّر التَّضْلِيل، في مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيل، غَايَةَ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ أَيْمَانٍ، مُؤَكَّدَةٍ مُشَدَّدَةٍ يَقْبَلُهَا ويثِقُ بِهَا أتْبَاعُهُمْ وَمُقَلِّدُوهم، عَلَىٰ أَنَّ اللهَ لَا يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ، لِيُحَاسِبَهُ، ويَقْضِيَ بِشَأْنِهِ، ويَجْزِيَهُ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

جَهْدُ الشَّيْءِ: يَأْتِي فِي اللُّغة: بمعْنَى نِهَايَتِهِ وَغَايَتِهِ، وبمعَنَىٰ وُسْعِهِ وَطَاقَتِهِ، ويَأْتِي الْجَهْدُ بِمَعَنَىٰ المشَقَّةِ.

فَكَانَ من الْحِكْمَةِ في الرَّدِّ الرَّبَّانِيّ عَلَىٰ نَفْي صِدْقِهِمْ، وَبيَانِ افْتِرَائِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِم، وَتَمَادِيهِمْ بِأَنْ أَقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ، أَنْ يَقُول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿... بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا... ﴿٣٧﴾﴾:

أي: بَلَىٰ، سيبعثُ اللهُ الْمَوْتَىٰ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَحْقِيقِ الجزاء، وَهٰذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَلْزَمَ بِهِ نَفْسَهُ لِتَحْقِيقِ حِكْمَتِهِ.

• ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يُعْرِضُونَ ويَصُدُّون عَنْ مَعْرِفَةِ هٰذِهِ الْحَقِيقَةِ المؤيَّدَةِ بِالْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّةِ، وَتَوَاطُؤُ البياناتِ الرَّبَّانِيَّةِ عَلَيْهَا، في رِسَالَاتِهِ لِعِبَادِهِ، فَهُمْ لَا يَرْغَبُونَ في أَنْ يَعْلَمُوها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: بَلَىٰ لَيَبْعَثَنَّ اللهُ الْمَوْتَىٰ، لِيُبَيِّنَ لِلّذِينَ كَانُوا مَوْضوعِينَ فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، كُلَّ الَّذِي كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، مِنْ عَقَائِدَ حَوْلَ أُصُولِ الدِّين، وَحَوْلَ شَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَمَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفْعَلُوه، وَمَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتْرُكُوه، وَمَا كَانَ يَفْعَلُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ، وَمَا كَانَ يَتْرُكُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ، وبَعْدَ الْبَيَانِ يُحَاسِبُهُمْ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا باخْتِيَارِهِمُ الْحُرّ مِنْ خَيْرٍ كَانُوا مُكَلَّفِينَ أَنْ يَعْمَلُوه، وعَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ الّتِي عَمِلُوها مِن شَرٍّ باخْتِيَارِهِم الْحُرِّ كَانُوا مُكلَّفِينَ أَنْ يَتْرُكُوه، ويَقْضِي بَيْنَهُمْ

بالْحَقِّ، ثُمَّ يُجَازِي كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا قَضَىٰ بِهِ لَهُ أو قَضَىٰ بِهِ عَلَيْهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وحِينَئِذٍ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا باللهِ وكتابِهِ وَرَسُولِهِ والْيَوْمِ الآخِرِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَاذِبِينَ، ومِنْهُ كَذِبُهُمْ فِي قَوْلِهِم: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً صِفَةً مِنْ صِفَاتِ اللهِ في الْخَلْقِ تَعْقِيباً عَلَىٰ قَضِيَّةِ الْبَعْثِ إلى يَوْمِ الدِّينِ، بِضَمِيرِ المتكلّمِ العظيم:

• ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: مَا نَحْتَاجُ إِذَا أَرَدْنَا إِيّجادَ مَعْدُوم أَوْ إِعْدَامَ مَوْجُودٍ، أَوْ تَغْييراً لِأَيِّ شيءٍ فِي الكَوْنِ كُلّهِ، إِلَّا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ، فَيَكُونُ مُرَاد اللهِ عَلَىٰ مَا تَمَّتْ بِهِ إرادَةُ الله.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس التاسع من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٣)
التدبُّر التحليلي للدَّرس العاشر من دُروس سورة (النحل) الآيتان (٤١) و(٤٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

القراءات:

(٤١) • قرأ أَبُو جَعْفَر: [لَنُبَوِّيَنَّهُمْ] وكذلِكَ حمْزَة فِي الوقْف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَنُبَوِّئَنَّهُمْ].

وهما وجهان عَرَبِيَّانِ في النُّطْق.

تَمْهيد:

في آيَتِي هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ الله، وَمَا لَهُمْ مِنْ ثَوَابِ حَسَنٍ فِي الدُّنْيَا، وأَجْرِ عَظِيمٍ فِي الآخِرَة، بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ وتَوَكُّلِهِم عَلَىٰ رَبِّهِمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٤١﴾:

الهِجْرَةُ، والْهُجْرَة: الخروجُ من أرضٍ إلَىٰ أرضٍ أُخْرَىٰ للإقَامَةِ فيها.
والْمُهَاجَرَةُ: هِي عِنْدَ الْعَرب خُروجُ الْبَدَوِيّ مِنْ بَادِيَتِهِ إلَىٰ الْمُدْنِ.

وكُلُّ مُنْتَقِلٍ مِنْ مَكَانِ إِقَامَتِهِ في قَوْمٍ، إلَىٰ الإقَامَةِ في قَوْمٍ آخَرِينَ فَقَدْ هَاجَرَ قَوْمَه، أي: تباعَدَ عَنْهُمْ يُقَاطِعُهُمْ وَيُقَاطِعُونه.

والْهِجْرَةُ، والْمُهَاجَرَةُ: فِي الْإِسْلَامِ تَرْكُ دَارِ الكُفْرِ الَّتِي يُضطَّهَدُ فيها الْمُسْلِمُون، إلَىٰ أَرْضٍ يَكُونُونَ فِيهَا آمِنِينَ.

وَجَاءَ فِي كُتبِ السِّيرَةِ النَّبوِيَّةِ أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ هَاجَرُوا إلَىٰ الْحَبَشَةِ بإذْنٍ من الرَّسُولِ لِأَنَّهُم كَانُوا يُضْهَدُونَ فِي مَكَّة، ثُمَّ إِنَّ بَعْضَهُمْ هَاجَرُوا مُتَتابِعِينَ إلَىٰ الْمَدِينَةِ بِتَوْجِيهِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، فَقَامُوا بِنَشْرِ

الإِسْلَام، ثُمَّ هَاجَرَ الرسُول ﷺ إِلَيْهَا بأَمْرٍ مِنَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وَفِي هَـٰذِهِ الآيَةِ وَعْدٌ كَرِيمٌ، مِنَ الرَّبِّ الْعَظِيم، لِلّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ بَعْدِمَا ظُلِمُوا، وهُمُ الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ قَبْلَ نُزُولِ هَـٰذِهِ السورة، بِثَوَابَيْنِ: ثَوَابٍ دُنْيوِيٍّ مُعَجَّل، وثَوَابٍ أُخْروِيٍّ عَظِيم.

• ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ ...﴾ : أي: والَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ فِي سَبِيلِ اللهِ وابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، تَارِكِينَ بَلَدَهُمْ وَمَسَاكِنَهُمْ فيها، وأَهْلَهُمْ، لِيَتَخَلَّصُوا مِنَ الظُّلْمِ والاضطِّهادِ الَّذِي كَانَ جَبَابِرَةُ مُشْرِكي مَكَّةَ يُعَامِلُونَهُمْ بهما، وليكُونُوا آمِنِينَ عَلَىٰ دِينِهِمْ وعِبَادَاتِهِم، ولِيَكُونُوا دُعَاةً إِلَىٰ الإِسْلَامِ فِي مُهَاجَرِهِمْ إِذَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَكُونُوا فِيهِ دُعَاةً إليه.

ويُقَاسُ عَلَيْهِمْ أَمْثَالُهُمْ فِي كُلِّ عَصْرٍ فَسُنَّةُ اللهِ في عباده وَاحِدَة.

• ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾: أي: هاجَرُوا في سَبِيلِ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا فِعْلاً، وَلَمْ يَجِدُوا وَسِيلَةً يَكُفُّونَ بِهَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ظُلْمَ الطُّغَاةِ الْبُغَاةِ الْمُتَجَبِّرِينَ مِن أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: أي: لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدُّنيا مَبَاءَةً حَسَنَةً تَرْضِيهِمْ.

يُقَالُ لُغَةً: «بَوَّأَ فُلَانٌ فُلَاناً مَنْزِلاً» أي: هَيَّأَهُ وأَعَدَّهُ لَهُ، وأَنْزَلَهُ فيه. والْمَبَاءَةُ الْمَنْزِلُ الَّذِي يُنْزَلُ بِهِ، وَيَكُونُ مَكَانَ إِقَامَة نَزِيلِهِ. ويُلْحَقُ بالمنْزِلِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُهُ النَّزِيلُ فِيهِ، من أَمْنٍ وَرِزْقٍ وَرَاحَةٍ، وحُرِّيَّةِ حَرَكَةٍ، إِذْ وُصِفَتِ الْمَبَاءَة المحذُوفَةُ لفظاً والمقَدَّرَةُ ذِهْناً بأَنَّهَا حَسَنَةً.

• ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾: أي: المباءَة الحسْنَةُ أَجْرٌ مُعَجَّلٌ يُقَدِّرُهُ اللهُ لَهُمْ وَيَقْضِيهِ، وَهـٰذَا قَدْ حَصَل فِعْلاً لِلَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَىٰ الْحَبَشَةِ، ثُمَّ للَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَىٰ الْمَدِينَة، ويَحْصُلُ دَواماً للمهاجِرِينَ الصَّادِقين المخلصين.

وَلَأَجْرُ اللهِ الَّذِي يُفِيضُهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الدِّينِ في الحياة الآخِرَةِ بَعْدَ الْبَعْثِ، أَكْبَرُ كِبراً لَا يَسْتَطِيعُونَ تَصَوُّرَهُ فِي مُخَيِّلَاتهم.

• ﴿... لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾: أي: لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ كِبَرَ هٰذَا الْأَجْرِ لَكَانُوا فَرِحِينَ سُعَدَاءَ مَهْمَا نَالُوا فِي هِجْرَتِهِمْ مِنْ مَتَاعِبَ، وَلَا يَكُونُ فِي نُفُوسِهِمْ حُزْنٌ عَلَىٰ وَطَنٍ وَمَسَاكِنَ وأَمْوَالٍ وأَهْلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَحَابَّ تَرَكُوهَا بِسَبَبِ هِجْرَتِهِمْ.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَاجَرُوا بالصَّبْرِ وبالتَوَكُّلِ على رَبِّهِمْ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

• ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَىٰ مَا نَالَهُمْ مِنْ أذىً وَظُلْمٍ، وَصَبَرُوا عَلَىٰ تَرْكِ مَا يُحِبُّونَ في وَطَنِهِمْ، وهُمْ في كُلِّ أَحْوَالِهِم وَمَطَالِبِهِمْ في حَيَاتِهِمْ على اللهِ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ مُسْلِّمِينَ أُمُورَهُمْ إليه.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس العاشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنِّهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٤)
التدبُّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دُروس سورة (النحل) الآيتان (٤٣) و(٤٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لرسوله ﷺ والمقصُود إفْهَامُ المشْرِكِينَ والرَّدُّ عَلَيْهِمْ في اعْتِرَاضِهِمْ عَلَىٰ كَوْنِهِ بَشَراً من النَّاس.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

القراءات:

(٤٣) • قرأ حفْصٌ: [**نُوحِي**] بِضَمِير المتكلّم العظيم.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُوحَىٰ**] ببناء الفِعْلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وهي على معنَىٰ أنَّ الله العظيم الجليل هو الَّذِي يُوحِي.

(٤٣) • قرأ ابْنُ كثير، والكِسَائي، وخَلَف: [**فَسَلُوا**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فَاسْأَلُوا**].

وهُمَا وَجْهَان عَرَبيان.

(٤٤) • قرأ حمزة، ويعقوب: [**إِلَيْهُمْ**] بضمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**إِلَيْهِمْ**] بِكَسْرِ الهاء.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْسِ رَدٌّ ضِمْنِيٌّ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اعْتَرَضُوا عَلَىٰ كَوْنِ الرَّسُولِ بَشَراً رَجُلاً، يَأْكُلُ الطعام ويَمْشِي في الْأَسْوَاقِ وَيَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، زَاعِمِينَ وَمُوهِمِينَ أَتْبَاعَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ للنَّاسِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَلَكاً، أَوْ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ مَلَكٌ يَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وصِدْقاً.

وقد دَلَّ هـٰذَا الدَّرْسِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مَا زَالُوا يَقُولُونَ هَـٰذِهِ المقولَة، ويُرَدِّدُونَها، مع سَبْقِ الرَّدِّ عَلَيْهَا في نجوم التَّنْزِيل، ومِنْهُ مَا جَاء في الآية (٧) من سورة (الفرقان/ ٤٠ نزول)[١].

---

(١) انظر الملحق الثالث مِنْ مَلاحِق تدبر سورة (يس/ ٤١ نزول): «بيانُ اعْتِرَاضِ الأُمَمِ عَلَىٰ بَشَرِيَّةِ الرُّسُل».

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

• ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: إنَّ أئِمَّةَ الشِّرْكِ والكُفرِ فِي مَكَّةَ يَعْتَرِضُونَ عَلَىٰ كَوْنِكَ بَشراً مِنَ الْبَشَرِ، وَرَجُلاً مِنَ النَّاسِ، تَعِلَّةً لِرَفْضِ كَوْنِكَ رَسُولاً مُرْسلاً من اللهِ رَبِّ الْعَالَمِين مَعَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ أَرْسَلَ رُسُلاً بَشراً مِنْ قَبْلِكَ، وَكَانُوا رِجالاً مِنَ النَّاس، ومِنْهُمْ إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ـ عَلَيْهِمَا السلام ـ فَكَيْفَ يُؤْمِنُونَ بِهَؤُلَاءِ رُسُلاً مَعَ أَنَّهُمْ لم يَكُونُوا إِلَّا رِجَالاً مِنَ النَّاسِ يُوحَىٰ إِليهم، ثُمَّ يَجْحَدُونَ رِسَالَتَك، وَآياتُ صِدْقِهَا دَامِغَةٌ لهم بالمعجزات الباهرات، وَبآيَاتِ القرآنِ الْمَجِيدِ الَّذِي أعْجَزَ اللهُ بِهِ الإنْسَ والْجِنَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

وَبَعْدَ خطابِ اللهِ رَسُولَهُ ﷺ الْتَفَتَ الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ إِلَىٰ المعْنِيِّينَ بإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِم، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لهم:

• ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾:

هَـٰذِهِ الْجُمْلَةِ مُعْتَرِضَةٌ اعْتِنَاءً بِتَوْجِيهِ الْخِطَابِ للمشْرِكِينَ المتَذَرِّعِينَ لِكُفْرِهِمْ بِتَعِلَّةِ بَشَرِيَّةِ الرَّسُول، بِغْيَةَ إقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ مِنْ خِلَالِ مُعْتَقَدَاتِهِم . . .

أَهْلُ الذِّكْرِ: هُمْ أَهْلُ الكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ السَّابقَة، اليهودُ، والصَّابِئَةُ، والنَّصَارَىٰ.

أي: فإنَّكُمْ إذَا سَأَلْتُمُوهُمْ قَالُوا لَكُمْ: إِنَّ رُسُلَنَا كَانُوا رِجالاً بَشَراً مِثْلَنَا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِمْ فَجَعَلَهُمْ أنبِيَاءَ، وأَرْسَلَهُمْ إِلَىٰ أُمَمِهِمْ رُسُلاً، وَلَمْ يَكُونُوا مَلَائِكَةً.

• ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: أي: على افتِرَاضِ أَنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ هَـٰذِهِ الْحَقِيقَةَ، مَعَ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَها، وَتَتَجاهَلُونَها للتَّمَسُّكِ بِتَعِلَّتِكُمُ الباطلة. «إِنْ» الشَّرْطِيَّة تُسْتَعْمَلُ في المشْكُوكِ فِيه، وفِي الْمَعْلُومِ خِلافُهُ.

• ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ...﴾: أي: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ، أَرْسَلْنَاهُمْ مَصْحُوبِينَ بالْبَيِّنَاتِ والزُّبُرِ.

بالْبَيِّنَات: أي: بالآيات الْبَيِّنَات الْبَاهِرَات، وهِيَ المعْجِزَاتُ الخوارق الَّتِي يُؤَيِّدُ اللهُ بِهَا صِدْقَ رُسُلِهِ.

والزُّبُر: أي: والكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ المنَزَّلَةِ على الرُّسُلِ. **الزُّبُر**: جَمْعُ «الزَّبُورِ» وهو الكتابُ المَزْبُورِ، أي: المكتوب. سَمَّاهَا اللهُ «زُبُراً» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ المطْلُوبَ كِتَابَتُها بإتْقَانٍ، لِحِفْظِها مِنَ التَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ والتَّحْرِيف.

وبَعْدَ هـٰذَا خاطَبَ اللهُ رَسُولَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

أي: وأنْزَلْنا إِلَيْكَ الْقُرْآنَ الَّذِي هُو ذِكْرُ الْأُمَّةِ الْخَاتِمَةِ لِلأُمَمِ، لِتبَيِّنَ مِنْهُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، مِنْ عَقَائِدِ، وأخْلَاقٍ، وشرائِعَ وأَحْكَامٍ، وَقَضَايَا هِيَ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِهِ.

أَمَّا مَا فِي هـٰذَا الذِّكرِ مِنْ قَضَايَا حَقَائِقِ الْوُجُودِ الَّتِي لَيَسَتْ هِيَ مِنْ قَضَايَا الدِّين، فَلَسْتَ يا مُحَمَّدُ مُكَلَّفاً أَنْ تُبَيِّنَها للنَّاسِ، وَقَدْ جَعَلْنَاهَا ضِمْنَ هـٰذَا الذِّكْرِ الْعَظِيم رغْبَةً مِنَّا فِي أَنْ يَتَفَكَّرُوا فِيهَا، وَيَنْتَفِعُوا بِهَا، وتَكُونَ شواهِدَ عَلَىٰ أَنَّ القرآن مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنَّا.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الحادي عشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنِّهِ، وَفَتحِهِ.

❋ ❋ ❋

(١٥)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثاني عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٤٥ ـ ٤٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

القراءات:

(٤٥) • قرأ أبُو عَمْرو، ويَعْقُوب: [**بِهِمِ الأَرْضَ**] بكَسْرِ الهاء والميم.

وقرأها حمزة، والكِسَائي، وخلف: [**بِهُمُ الأَرْضَ**] بضمّ الهاءِ والميم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بِهِمُ الأَرْضَ**] بكَسْرِ الهاء وضم الميم.

(٤٧) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر: [**لَرَؤُوفٌ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَرَؤُفٌ**].

وهُما وَجْهَانِ عَرَبيّانِ في النُّطْق.

تَمْهيد:

فِي آياتِ هٰذَا الدَّرْسِ تَهْدِيدٌ لِلْكَافِرِينَ باحْتِمَالَاتِ عِقَابِهِمْ بالْخَسْفِ أَوْ بِغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ عِقَابٍ وَوَسَائِلِهِ في الكَوْنِ، واللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ . . .﴾: «الفاء» تَعْطِفُ عَلَىٰ مَطْوِيٍّ يُمْكِنُ مُلَاحَظَتُهُ ذِهْناً وتَقْدِيرُه: أَمَلَكَ الَّذِينَ مَكَرُوا السّيِّئَاتِ تَصارِيفَ الكَوْنِ، أَوْ كَانَ لَدَيْهِمْ عِلْمُ مِمَّنْ بِيَدِهِ مِلْكُ كُلِّ شَيْءٍ وَتَصْرِيفُ الكَوْنِ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ، بِأَنَّهُمْ سَالِمُونَ مِنْ أَحْدَاثِ الكَوْنِ الْمُهْلِكَةِ، المقْتَرِنَةِ بالتَّعْذِيبِ فَأَمِنُوا؟؟.

إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ تَصَارِيفَ الكَوْنِ، وَلَيْسَ لَدَيْهِم عِلْمٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ بِأَنَّهُمْ سَالِمُونَ مِنْ عَذَابِهِ، فليَتَرَقَّبُوا نُزُول عَذَاب اللهِ عَلَيْهِمْ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ.

• ﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: **المَكْرُ**: تَدْبِيرُ أَمْرٍ في خَفَاء، يَكُونُ فِي الخَيْر، ويَكُونُ في الشّرّ. ومَكْرُهُمْ السّيِئَاتِ هُوَ تَدْبِيرُ أُمُورِهِمْ فِي خَفَاءٍ، قَاصِدِينَ بِمَكْرِهم السَّيِّئَاتِ ضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، إِذْلَالَهُمْ، والتّخلُّص مِنْهُمْ وَمِنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحق، وقَاصِدِينَ إِيقَافَ دَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة.

ولفظ «السَّيِّئَاتِ» يَشْمَلُ كُلَّ مَا هُوَ قَبِيحٌ وَشَرٌّ يَسُوءُ مَنْ قُصِدَ بِهِ، وَيَسُوءُ أَهْلَ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والْخَيْرِ.

وأرى أَنَّ الْفِعْلَ في «مَكَرُوا» قَدْ ضُمِّنَ معْنَىٰ الفِعل في: «قَصَدُوا» أو في: «فَعَلُوا» فعُدِّيَ تَعْدِيتَهُ، فَأَغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ، وهٰذَا التَّضْمِينُ مِنْ بَدَائِع القرآن الْمَجِيد. وقَدْ يَكُونُ عَلَىٰ معْنَى: مَكَرُوا الْمَكَرَاتِ السَّيِّئَات.

• ﴿. . . أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ . . .﴾:

ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هٰذَا الْبَيَانِ أَرْبَعَةَ احْتِمَالَاتٍ كُلِّيَّةٍ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِهْلَاكُهُمْ وَتَعْذِيبُهُمْ بواحِدٍ منها، وهي:

الاحْتِمَالُ الأَوَّلُ: دَلَّ عَلَيْهِ قول الله تَعَالَىٰ: ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾:

أي: وإِذَا خَسَفَ بِهِمُ الْأَرْضَ عَذَّبَهُمْ بهٰذَا الْخَسْفِ، وَأَهْلَكَهُمْ وَطَمَرَهُمْ فِي بَاطِنِهَا، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ وُجُودٌ فِي الحياة الدنيا.

الاحْتِمَالُ الثاني: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: أَوْ يَأْتِيَهُمْ مَا يَكُونُ بِهِ عَذَابُهُمْ مِنْ مَكَانٍ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُ سَيَأْتِيهِمْ مِنْه، كأنْ يَأْتِيَهُمْ مِنْ دَاخِلِ أَجْسَادِهِمْ، كَكَثِيرٍ مِنَ الأَمْرَاضِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي تَنْتَشِرُ دَاخِلَ أَجْسَادِهِمْ وَيَكُونُ بِهَا عَذَابُهُمْ الشَّدِيدُ، وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ مِنْ أَيْنَ جاءَتْهُمْ، وَكَأَنْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ وأَحَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ، كَأَوْلَادِهِم وأَزْوَاجِهِمْ.

الاحْتِمَالُ الثَّالث: دَلَّ عَلَيْهِ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

التَّقَلُّبُ في الْأُمُور: تَصَرُّفُ المتَقَلِّبِ فيها كَيْفَ يَشاء. **والتَّقَلُّبُ في الْبِلَادِ**: تَنَقُّلُ المتَقَلِّبِ فِيهَا حُرّاً آمِناً.

﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾: أي: فَمَا هُمْ بِمُفْلِتِينَ هَارِبِينَ سَابِقِينَ لَا يُدْرَكُونَ، بَلْ نَقْبِضُ عَلَيْهِمْ قَبْضَ إِهْلَاكٍ مَعَ تَعْذِيب.

فالْمَعْنَىٰ: أَوْ يَأْخُذَهُمْ وَيَقْبِضَ عَلَيْهِمْ قَبْضَ إِهْلَاكٍ مَعَ تَعْذِيبٍ، في حَالِ تَقَلُّبِهِمْ فِي حَرَكَةِ حَيَاتِهِمْ لِقَضَاءِ مَصَالِحِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ فِي أَوْطَانِهِمْ أو في أَسْفَارِهِمْ آمِنِينَ، فَإِذَا جَاءَتْهُمْ وَسَائِلُ تَعْذِيبِ اللهِ لَهُمُ المتْبُوعِ بإِهْلَاكِهِمْ

فإنَّهُمْ لَا يَسْتطِيعُونَ هَرباً، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ إفْلَاتاً مِنْ قَبْضَةِ تَعْذِيبِ اللهِ وإهْلَاكِهِ إيَّاهُمْ.

الاحْتِمَال الرابع: دلَّ عَلَيْهِ قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾:

أي: أَوْ يَقْبِضَ عَلَيْهِمْ قَبْضَ تَعْذِيبٍ وإهْلَاكٍ حَالَةَ كَوْنِهِم يَتخَوَّفُونَ وَيتَوَقَّعُونَ الْمَصَائِبَ والْبَلَايَا، كَأَحْوَالِ الْحُرُوب، وأَحْوَالِ النَّقْصِ في الْأَمْوَالِ والْأَنْفُسِ والثَّمَرَاتِ، وأَحوَالِ الْعَوَاصِفِ الْعَاتِيَةِ، والرِّيَاحِ الطَّاغِيَةِ فِي الْبَرِّ أَوْ فِي الْبَحْرِ، وأحْوَالِ السُّيُولِ الْجَارِفَة، والْبَرَاكِينِ الثَّائِرَة، والزَّلَازِلِ المدَمِّرَة.

يُقَالُ لُغةً: «خَوَّفَهُ بِمَعْنَىٰ فَزَّعَهُ فَتَخَوَّفَ» فَفِعْلُ: «تَخَوَّفَ» مُطَاوِعُ فِعْل «خَوَّفَهُ» ويُقَالُ لُغَةً: «تَخوَّفَ الشَّيْءَ» أي: تَنَقَّصَهُ.

وَمَعْنَىٰ الْخَوْفِ هُوَ الْمُلَائِمُ لِذِكْرِ الاحْتِمالَاتِ الثَّلَاثِ السَّابِقَاتِ فِيما أَرَىٰ.

وُخَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هٰذَا الدَّرْسِ بِقَوْله خِطَاباً للنَّاس:

• ﴿... فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾:

الرَّؤُوف: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، مأخُوذٌ مِنَ الرأْفَةِ، وَهِيَ شِدَّةُ الرَّحْمَة.

الرَّحِيم: اسْمٌ من أسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وهي صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ مِنْ آثارِهَا الإنْعَامُ والإحْسَانُ وَدَفْعُ السُّوءِ.

أي: لَمْ يُعَجِّلْ رَبُّكُمْ بِمُعَاقَبَةِ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ، بِسَبَبِ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رَؤُوفٌ ورَحِيمٌ بِعِبَادِه.

وَجَاءَتْ هَـٰذِهِ العبارَةُ مُؤَكَّدَةً بـ «إنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللَّامُ المزحْلَقَة». للإشْعَارِ بِأَنَّهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ لَمْ يُؤخِّرْ عِقَابَهُمْ إهْمَالاً، بَلْ رَأْفَةً

بِهِمْ وَرَحْمَةً لَهُمْ، وَلِيُعْطِيَهُمْ أَوْسَعَ مُدَّةِ إِمْهَالٍ رَغْبَةً فِي أَنْ يَتُوبُوا وَيُؤْمِنُوا وَيُقْلِعُوا عَنْ مَكْرِهِم السَّيِّئَاتِ.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الثاني عشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٦)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٤٨ ـ ٥٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾:

القراءات:

(٤٨) • قرأ حَمْزَة، والكِسَائِي، وخلف: [أَوَ لَم تَرَوْا].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَوَ لَمْ يرَوْا].

وبَيْنَ القراءَتَين تَكَامُلٌ فِي الأَدَاءِ الْبَيَانِي.

(٤٨) • قرأ أَبُو عمرو، ويعقوب: [تَتفَيَّؤُا] بالتاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَتفَيَّؤُا] بالياء.

وهُمَا وَجْهان عَرَبيان جَائِزَان.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ إِقْنَاعُ الْكَافِرِينَ بالسُّجُودِ للهِ كَمَا تَسْجُدُ لَهُ الْأَشْيَاءُ والدَّوَابُّ والْمَلائِكَةُ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ السُّجُودِ لِرَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

• ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [أَوَ لَمْ تَرَوْا]: و[تَتَفَيَّؤُا].

• ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: «الواو» عاطِفَةٌ مِنْ قبيلِ عَطْفِ مَوْضُوعٍ على مَوْضوع، وأُخِّرَتْ عَنِ الهمزة لِأَنَّ الاسْتِفْهَامَ لَهُ الصَّدَارَةُ فِي الْعَرَبِيَّة.

والمرادُ بالرُّؤْيَةِ الرُّؤْيَةُ الْبَصَرِيَّةُ، الَّتِي يَجِبُ عَلَىٰ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ أَنْ يُتْبِعُوهَا بالرُّؤْيَةِ الفِكْرِيَّةِ الْهَادِيَةِ إِلَىٰ حَقَائِقَ عِلْمِيَّةٍ في كَوْنِ اللهِ الْعَجِيب.

• ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾: أي: إِلَىٰ كُلِّ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ذِي جِسْمٍ حَاجِبٍ للضَّوْءِ، وهٰذَا يَشْمَلُ الْأَشْيَاءَ وَالْأَحْيَاءَ، ومِنَ الْأَحْيَاءِ النَّاسُ، ومِنَ النَّاسِ الكَفَرَةُ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ السُّجُودِ لِرَبِّهِمْ.

لَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوَانِينِ كَوْنِهِ أَنَّ الْأَجْسَامَ ذَاتَ الكَثَافَةِ، تَحْجُبُ الضَّوْءَ عَنِ اخْتِرَاقِهَا والنَّفَاذِ فِيهَا إِلَىٰ الجهَةِ المقابِلَةِ لِجِهَةِ الضَّوْءِ، لِيَكُونَ لَهَا ظِلٌّ سَاقِطٌ عَلَىٰ الْأَرْضِ سَاجِدٌ كُلُّهُ لِرَبِّهِ تَطؤُهُ الْأَقْدَام، فَفِي الصَّبَاحِ يَكُونُ ظِلُّهُ مُمْتَدّاً عَلَىٰ الْأَرْضِ إِلَىٰ جِهَةِ الْغَرْبِ، وَبَعْدَ الزَّوَالِ يَفِيءُ ظِلُّهُ فَيَمْتَدُّ عَلَىٰ الْأَرْضِ شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَىٰ جِهَةِ الشَّرْقِ، تَبَعاً لِحَرَكَةِ ضِيَاءِ الشَّمْسِ مُنْذُ إِشْرَاقِهَا حَتَّىٰ غُرُوبِهَا.

• ﴿... ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾:

الْفَيْء: الظِّلُّ بَعْدَ الزَّوَال يَنْبَسِطُ إِلَىٰ جِهَةِ الشَّرْق. يُقَالُ لُغَةً: «فَاءَ الظِّلُّ» أي: رَجَعَ مِنْ جَانِبِ المغْرِبِ إِلَىٰ جَانِبِ المشْرِقِ.

وَصِيغَةُ: «يَتَفَيَّأُ» فيها مَعْنَىٰ الْحَرَكَةِ المتدَرِجَةِ شَيْئاً فَشَيْئاً.

سُجْداً: جَمْعُ «سَاجِدٍ».

فَدَلَّ هـٰذَا عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَذَلَّ المسْتَكْبِرِينَ عَنِ السُّجُودِ لَهُ، بِجَعْلِ ظِلَالِهِمْ قَبْلَ زَوَالِ الشَّمْسِ، وَبَعْدَ زَوَالِهَا إِذْ يَفِيء إِلَىٰ جِهَةِ الشَّرْقِ، سَاجِدَةً مُنْبَطِحَةً عَلَىٰ الْأَرْضِ تَدُوسُهَا الأَقْدَامُ، وهـم داخِرُونَ، أَذِلَّاءُ صَاغِرُون، وهَـٰذِهِ إِحْدَىٰ ظَواهِرِ خُضُوعِ الْأَجْسَادِ لِبَارِئِهَا.

ولو شَاء اللهُ لجعَلَ أجْسَادَ النَّاسِ غَيْرَ حَاجِبَةٍ للضِّيَاء، وحينئذٍ لَا يَكُونُ لَهَا ظِلَالٍ، لَكِنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ جَعَلَها ذَاتَ ظِلَالٍ لِيُشْعِرَهَمْ بإيمَاءٍ خَفِيٍّ أَنَّ ظِلَالَهُمْ سَاجِدَةٌ عَلَىٰ الْأَرْضِ لَهُ، بالْقَهْرِ والْجَبْرِ، كَمَا أَنَّ أَجْسَادَهُمْ خَاضِعَةٌ لِسُلْطَانِهِ إيجاداً وإعْدَاماً وتَصَارِيف بالْقَهْرِ والْجَبْر، والْعَاقِلُ الرَّشِيدُ يَجْعَلُ مَا يَمْلِكُ بإرَادَاتِهِ مُنْسَجِماً مَعَ مَا هُوَ فِيهِ مَجْبُورٌ، تَجْرِي مَقَادِيرُ اللهِ عَلَىٰ وَفْقِ قَضَائِهِ وَقَدَرِه، تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَلَا يَشِذُّ عَنْهَا مُسْتَكْبِراً.

وجَاءَت عبارة ﴿ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ للدَّلَالَة عَلَىٰ أَنَّ الْإِنْسَانَ حَيْثُ اتَّجَهَ، وَجَدَ في النَّهَارِ ظِلَّهُ وظِلَّ الْأَشْيَاءِ مِنْ حَوْلَهُ يَتَفَيَّأُ مُتَدَرِّجاً، فإذا الْتَفَتَ إِلَىٰ جِهَةِ يَمِينِهِ وأَيْمَانِهِ وَجَدَ هـٰذَا السُّجودِ لِظِلِّهِ وَلِظِلِّ الْأَشْيَاءِ في النَّهَارِ ذِي الشَّمْسِ المشْرِقَة، وَإِذَا الْتَفَتَ إِلَىٰ جِهَةِ شِمَالِهِ وَشَمَائِلِهِ وَجَدَ هـٰذَا السُّجُودَ، فَمِنَ الْخَيْرِ لَهُ أَنْ يَكُونَ فِي حَرَكَتِهِ الإرادِيَّةِ سَاجداً مَعَ السَّاجِدِين، وأَنْ يَجْعَلَ مَا هُوَ فِيهِ مُخْتَارٌ مِثْلَ مَا هُوَ فِيهِ مَجْبُور.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾:

بَعْدَ أَنْ أَبَانَ اللهُ أَنَّ ظِلَالَ الْأَجْسَادِ ذَاتِ الكَثَافَةِ وَمِنْهَا أَجْسَادُ النَّاسِ جَمِيعاً، تَكُونُ عَلَىٰ سُطُوحِ الْأَرْضِ سَاجِدَةً لِرَبِّهَا، وَهِي تَدُلُّ بِأُسْلُوبِ الإِيمَاءِ لِلْمُسْتَكْبِرِينَ الَّذِينَ لَا يَسْجُدُونَ لِرَبِّهِمْ، أَنَّ ظِلَالَ أَجْسَادِهِمْ سَاجِدَةٌ للهِ رَبِّهَا بِالْجَبْرِ، وَإِنِ اسْتَكْبَرَتْ إِرَادَاتُهُمْ عَنْ جَعْلِ أَجْسَادِهِمْ تَسْجُدُ للهِ طَائِعِينَ خَاضِعِينَ.

أَبَانَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ يَسْجُدُ للهِ سُجُوداً لَا نُدْرِكُ نَحْنُ كَيْفِيَّتَهُ.

وأَبَان ـ تبارَكَ وَتعالَىٰ ـ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَسْجُدُونَ لَهُ جَمِيعاً خَاضِعِينَ لِعَظَمَتِهِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ السُّجُودِ لَهُ، فَلَا يُوجَدُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يَسْتَكْبِرُ عَنِ السُّجُودِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَبَانَ ـ تبارَك وَتَعَالَىٰ ـ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَخَافُونَ عِقَابَ رَبِّهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَهُمْ بِخَوْفِهِمْ يَخْضَعُونَ وَيَذِلُّونَ لَهُ.

وأَبَانَ ـ تبارَكَ وَتَعالَىٰ ـ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَفْعَلُونَ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ، فَلَا يَعْصُونَهُ فِي شيْءٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، قَلِيلٍ أو كَثِيرٍ.

أي: فَمِنَ الْعَقْلِ والْحِكْمَةِ والرُّشْدِ والانسِجَامِ مَعَ الْكَوْنِ كُلِّهِ، أَنْ لَا يَشِذَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، إِذْ أَعْطَاهُمْ رَبُّهُمْ إِرَادَاتٍ حُرَّةً لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتَاهُمْ، فَيَسْتَكْبِرُوا عَنِ السُّجُودِ للهِ رَبِّهِمْ، خُضُوعاً لَهُ وَذُلًّا، بَعْدَ الإِيمانِ الصَّحِيحِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَٰهِيَّتِهِ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثالث عشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

(١٧)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الرابع عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٥١ ـ ٥٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥﴾:

القراءات:

(٥١) • قرأ يعْقوب: [فَارْهَبُونِي] بإثبات ياء المتكلّم وَصْلاً ووقْفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَارْهَبُونِ] بِحَذْفِ يَاءِ المتكلّمِ وَصْلاً وَوَقْفاً.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ قَوْلٍ قَالَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ، وَوَجَّهَهُ لِكُلِّ عِبَادِهِ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الْحَياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، بِشَأْنِ بَعْضِ كُلِّيَّاتٍ كُبْرَىٰ مِنْ كُلِّيَّاتِ الدِّين، وَبِشَأْنِ بَعْضِ صِفَاتِ النَّاسِ في حَالَةِ مَسِّهِمُ الضُّرَّ وَلُجُوئِهِمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لِيَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ، فإذَا كَشَفَهُ عَنْهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ، لِيَتَهَرَّبُوا مِنْ وَاجِبَاتِ إيمَانِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَوَاجِبَاتِ شُكْرِهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ إِلَٰهَيْنِ اثْنَين.

• ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾:

دَلَّ البيانُ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ عَلَىٰ أَنَّ المقْصُودِينَ بالْمُعَالَجَةِ فيها هُمُ الْمَجُوسُ من الْفُرْس، وَمَنِ اتَّبَعَ دِينَهُمْ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَب، ومِنْهُمْ بَعْضُ بَنِي بَكْر بْنِ وائل، وَبَعْضُ بَنِي تَمِيم، وكَذَلِكَ مَنِ اتَّبَعَ دِينَهُمْ مِنَ الْأُمَم الْأُخْرَى.

فالْمَجُوسِيَّةُ قَائِمَةٌ عَلَىٰ إِثْبَاتِ إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ: إِلَهٍ لِلْخَيْرِ، وَهُوَ النُّور، وإِلَهٍ للشَّرِّ، وَهُو الظُّلْمَة.

فإِلَهُ الْخَيْرِ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا الْخَيْرُ والإِنْعَامُ والإِحْسَان. وإِلَهُ الشَّرِّ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا الشَّرُّ والضُرُّ والإِيذَاءُ والإِيلَام.

واسْمُ إِلَهِ الْخَيْرِ عِنْدَهُمْ: «يَزْدَانْ».

واسْمُ إِلَهِ الشَّرِّ عِنْدَهُمْ: «أَهْرُمُنْ».

ويَظْهَرُ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ فِيمَا قَبْلَ الإِسْلَامِ بَيَاناً مُوَجَّهاً لِلْمَجُوسِ فِيهِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لَهُمْ: لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ، فاعْتِقَادُكُمْ بإِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ اعْتِقَادٌ بَاطِلٌ فَاسِدٌ، إِنَّما الإِلَهُ الْحَقُّ إِلَهٌ واحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، هُوَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِين، وَهُوَ أَنَا، فَإِيَّايَ وَحْدِي فَارْهَبُونِي، وَلَا تُشْرِكُوا بِي شَيْئاً، وَلَا تُشْرِكُوا بِي أحداً، وَلَا تَرْهَبُوا إِلَه الشَّرِّ الَّذِي زَعَمْتُمُوه، فهو بَاطِلٌ لَا وُجُودَ له.

وَجَاءَ تَوْكِيدُ «إِلَهَيْنَ» بِعِبَارَة «اثْنَيْنِ» لْلإِشْعَارِ بِأَنَّ المقْصُودِين بالْبَيَانِ هُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بإِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ، وهُمُ الْمَجُوسُ، وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ فَآمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنَ بِهِ مَجُوسُ الْفُرْسِ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: واللهُ الذي هُوَ الإلَهُ الواحد الذي لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ خَلْقاً ومِلْكاً كُلُّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْض، لَا يُشَارِكُهُ في خَلْقِهَا وَمِلْكِهَا والتَّصَرُّفِ فيها أحد.

وَلَهُ أيضاً وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الدِّينُ وَاصِباً، أيْ: حَالَةَ كَوْنِهِ دَائِماً ثَابِتاً.

الْوَاصِبُ: الثَّابتُ الدَّائِمُ الْوَاجِبُ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ في حَالٍ من الْأَحْوَال.

الدِّينُ: الطَّاعَةُ والانْقِيَادُ الْكَامل.

إِنَّهُ لَمَّا كَانَ اللهُ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ والمتَصَرِّفَ في كُلِّ شَيْءٍ، وَمَالِكَ كُلِّ شَيءٍ، كَانَ مِنْ حَقِّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَنْ يُطِيعُوهُ ويَنْقَادُوا لَهُ دَائِماً، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ في الْوَجُودِ كُلِّهِ حَقٌّ عَلَىٰ الْعِبَادِ في أَنْ يُطِيعُوه وَيَنْقَادُوا لَهُ، مَا لَمْ يأمُرْ هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ بِطَاعَتِهِ والانْقِيادِ له.

• ﴿. . . أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾: أَيْ: أَفَبَعْدَ هٰذَا البيانِ الْجَلِيِّ تَتَّقُونَ عِقَابَ إِلَهِ الشَّرِّ الَّذِي جَعَلْتُمُوهُ إِلَهاً كَذِباً وافْتِرَاءً عَلَىٰ الله، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ دَلِيلٌ يُثْبِتُ إِلَهِيَّتِهِ، ويُثْبِتُ صِحَّةَ تَخَوُّفِكُمْ مِنْهُ وَصِحَّةَ أَنْ تَتَّقُوا عِقَابَهُ وَتَرْهَبُوه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ للمعْنِيِّينَ بالمعالَجَة، وهُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بإِلَهَيْنِ اثْنين:

• ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ. . . ﴿٥٣﴾﴾: أي: إِنَّكُمْ تَجْعَلُونَ مَا تَسْتَمْتِعُونَ بِهِ مِنْ نِعَم هُوَ مِنْ إِنْعَام إِلَهِ الْخَيرِ الَّذِي تُؤْمِنُونَ بِهِ: فِي مُقَابِلِ إِلَهِ الشَّرِّ الَّذِي تَرْهَبُونَهُ فَتَعْبُدُونَهُ اتِّقَاءَ شَرِّه، مَعَ أَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ بِكُمْ هِيَ مِنْ فَضْلِ اللهِ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ، ولَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا مِنْ إِلَهِ الْخَيرِ الَّذِي تُؤْمِنُونَ بِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وُجُودٌ إِلَّا فِي أَوْهَامِكُمْ.

• ﴿... ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

تجأرُون: تَدْعُونَ وَتَسْتَغِيثُونَ، رافِعين أصْوَاتَكُمْ بالدُّعاء، تَسْأَلُونَ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْكُمْ الضُّرَّ.

أي: إِنَّكُمْ تَتَوَهَّمُونَ أَنَّ مَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ هُوَ مِنْ فَضْلِ إِلَه الْخَيْرِ عَلَيْكُمْ، الَّذِي تُؤْمِنُونَ بِهِ، وهو بَاطِلٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، لَكِنَّكُمْ إِذَا مَسَّكُمُ الضُرُّ في أَنْفُسِكُمْ أَوْ أَمْوَالِكُمْ أو أَرْزَاقِكُمْ، فَإِنَّكُمْ تَجَأَرُونَ إِلَىٰ اللهِ رَبِّكُمْ، لِيَكْشِفَ عَنْكُمْ مَا مَسَّكُمْ مِنْ ضُرٍّ، لِأَنَّهُ لَا مُجِيبَ لَكُمْ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا هُو، فِيمَا سَبَقَ مِنْ تَجَارِبِكُمْ.

• ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ... ﴿٥٥﴾﴾:

أي: ثُمَّ إِذَا اسْتَجَابَ اللهُ رَبُّكُمْ دُعَاءَكُمُ الَّذِي جَأَرْتُمْ بِهِ إِلَيْهِ، رَحْمَةً وَرَأْفَةً بِكُمْ، فَاجَأَ فَرِيقٌ مِنْكُمْ فَأَعْلَنُوا شِرْكَهُمْ بِرَبِّهِم الْمُهَيْمِنِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ فِيهم، وفي كُلِّ الكَوْنِ مِنْ حَوْلِهم، فَجَعَلُوا يَنْسُبُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْهُمْ إِلَىٰ الإِلَهِ الْبَاطِلِ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ، أو إلى أَسْبَابٍ يَجْعَلُونَها مُنْفَصِلَةً عَنْ إرَادَة اللهِ وَقَضَائِهِ، يَفْعَلُونَ هٰذَا لِأَجْلِ أَنْ يَكْفُرُوا جَاحِدِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، حتَّىٰ لَا يَلْتَزِمُوا بما يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ شُكْرِ اللهِ رَبِّهِمْ، والْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ عَلَىٰ مُرَادِهِ، في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ.

هٰذَا الموقِفُ الجُحُودِيُّ الإشْرَاكِي اسْتَدْعَىٰ أَنْ يَقُولَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ بِأُسْلُوبِ الإِلْتِفَات مُهَدِّداً وَمُتَوَعِداً:

• ﴿... فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾: أي: فَتمتَّعُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِمَا أَنْعَمَ اللهُ رَبُّكُم بِهِ عَلَيْكُمْ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ يَوْمَ الدِّينِ تحقيقَ مَا تُوعَدُونَ بِهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم فِي الْجَحِيم، خالِدِينَ فِيها، جَزَاءَ كُفْرِكُمْ بِرَبِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِين، وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ، لَكِنَّكُمْ تَجْحَدُون.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الرابع عشر من دُرُوس سورة (النَّحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(١٨)

التدبُّر التحليلي للدّرس الخامس عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٥٦ ـ ٦٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢)﴾:

القراءات:

(٦١) • قرأ وَرْش، وأبو جعفر: [**يُوَاخِذُ**] و[**يُوخِّرُهُمْ**] بإبدال الهمزة واواً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُؤَاخِذُ**] و[**يُؤَخِّرُهُمْ**].

(٦٢) • قرأ نَافع: [**مُفْرِطُونَ**] بِكَسْرِ الراء، من فعل «أَفْرَطَ» أي: متجاوِزُون حُدود الحقّ والخير بِغُلَوّ.

وقرأها أبو جعفر: [**مُفَرِّطُونَ**] بِتَشْدِيد الرَّاءِ مَكْسُور وفتح الفاء، أي: مُفَرِّطُونَ بما يجب عليهم تُجاهَ رَبّهم، وهو نظير «مُفْرِطُونَ» إلَّا أنه من المضعَّف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مُفْرَطُونَ**] بِفَتْحِ الراء، أي: مُقَدَّمُون لِعَذَاب النَّار، بِسَبَبِ غُلُوِّهِمْ في الكُفْرِ والْجُحُودِ.

تَمْهيد:

فِي آياتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ افتراء المشْرِكِينَ الأحْكامَ عَلَىٰ اللهِ، فِيمَا هُوَ من خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ وإلٰهِيَّتِهِ. وفيها بَيَانُ ادّعَائِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ الله، وفيها مُعَالَجَتُهُمْ بالإنْذَارِ بِعِقَابِ الله.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ بَعْضِ افْتِرَاءَاتِ المشركين:

● ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: وَيَجْعَلُ المشْرِكُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ لَهُمْ رُبُوبيَّةً وَلَا إِلٰهِيَّةً، وإنَّما اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ افْترِاءً عَلَيْه، نَصِيباً مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ رَبُّهُمْ، فَيَتَقَرَّبُونَ لِآلِهَتِهِمْ الْبَاطِلَةِ بالْقَرَابِين، وَبالأَرْزَاقِ الَّتِي يَسْطُو عَلَيْهَا سَدَنَةُ هَـٰذِهِ الآلِهَةِ، وَيُحَرِّضُونَ المشْرِكِينَ عَلىٰ بَذْلِها، ويَضَعُونَ أَكَاذِيبَ انْتِفَاعِ المشْرِكِين فِي مَطَالِبِ حَيَاتِهِمْ، إِذَا هُمْ بَذَلُوا لِآلِهَتِهِمْ مِنَ الْأَوْثَانِ القرابِينَ مِنَ الذَّبائِح، والْأَرْزَاق مِنْ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ، وَالْأَمْوَالَ من الذَّهَبِ والْفِضَّة.

النَّصِيب: الحظُّ من أيّ شيء.

لَقَدْ كَانَ الواجِبُ أَنْ يَبْذُلُوا مِمَّا رَزَقَهُمْ اللهُ رَبُّهُمْ، في وُجُوهِ الْخَيْرِ الَّتِي دَعَا عِبَادَهُ لِلْبَذْلِ فِيها، لَا أَنْ يَبْذُلُوا فِيما جَعَلُوهُ إِلٰهاً مِنْ دُونِ اللهِ، افْتِرَاءً عَلَىٰ اللهِ وكُفْراً بِهِ، وَهـٰذَا مِمَّا شَدَّد اللهُ عَزَّ وَجلَّ التَّحْذِيرَ مِنْهُ، وَرَتَّبَ عَلَيْهِ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّين لِأَنَّهُ كُفْرٌ بِهِ، فَمَنْ مَاتَ عَلَىٰ شِرْكِهِ، كانَ يَوْمَ الدِّين فِي عَذَاب جهنَّمَ من الخالِدِين.

وَتَشْدِيداً في التَّحْذِيرِ مِنَ الشِّرْكِ وَلوازِمِهِ في السُّلُوكِ، تَوَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِخِطَابِهِم عَلَىٰ طريقَةِ الالْتِفَاتِ، فَقَالَ لَهُمْ مُؤَكِّداً.

• ﴿... تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

يُقْسِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ بِعِبَارَةِ ﴿تَاللَّهِ﴾ عَلَىٰ أَنَّهُمْ سَوْفَ يُسْأَلُونَ يَوْمَ القيامَةِ في مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّة عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَهُ في الحياةِ الدُّنيا عَلَىٰ رَبِّهِمْ، في قَضَايَا الدِّين الَّتِي هي مِنْ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَهِيَّتِهِ.

وفي ذِكْرِ السؤالِ كِنَايَةٌ عَنْ لَوَازِمِهِ، من الْحُكْم عَلَيْهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ، ثُمَّ تَنْفِيذِ الجزاء الَّذِي صَدَرَ بِهِ الْحُكْمُ الرَّبَّانِي، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ الْخُلُودُ في عذاب النار لِأَنَّهُمْ بافْتِرَائِهِمْ عَلَىٰ اللهِ رَبِّهِمْ كَانُوا كافِرين، وماتُوا عَلَىٰ ذَلِكَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ كَبِيرَةٍ أُخْرَىٰ مِن افْتِرَاءَاتِ المشْرِكين على ربّهم:

• ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

زَعَمَتْ بَعْضُ قبائلِ الْعَرَبِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، وذُكِرَ مِنْهما: «كِنَانَةُ» و«خُزَاعَةَ» فقالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِم مُلَوِّماً ومُعَجِّباً مِنْ افترائِهِمْ على اللهِ رَبّهم:

• ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ﴾: أي: ويَجْعَلُونَ للهِ بالافْتِرَاءِ الْقَوْلِيّ والاعْتِقَادِيّ للهِ رَبِّهِمْ، الَّذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ الْبَنَاتِ، إِذْ يَقُولُون: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ الله.

وَرَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَقُولَتَهُمُ الْكَاذِبَةَ هَـٰذِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تَنَزَّهَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ فِرْيَتِهِمْ هَـٰذِهِ الظَّاهِرَة السُّقُوط والْبُطْلَان، فالْخَالِقُ الأزلِيُّ الْأَبَدِيُّ لَا زَوْجَةَ لَهُ وَلَا وَلَدَ بالوجوب الْعَقْلِيّ.

سُبْحان: اسْمٌ عَلَمٌ لمعْنَىٰ البراءة والتَّنْزِيهِ.

وهو في مَوْضِعِ المصْدَرِ، والْأَصْل في العبارة: أُسَبِّحُهُ تَسْبِيحاً.

• ﴿... وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾: أي: وَلَهُمْ يَطْلُبُونَ مَا يَشْتَهُونَ، وَمَا يَشْتَهُونَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُم أَوْلَادٌ ذُكُورٌ يَعْتَزُّونَ بِهِمْ، وَيَكُونُونَ لَهُمْ عَوْناً في الْحَيَاة، فَكَيْفَ يَجْعَلُونَ للهِ رَبِّهِمُ البنات، وهُمْ يَرْغَبُونَ في الْبَنِينَ الذكور رغبة شدّيدة.

يُقَالُ لغة: «اشْتَهَىٰ الشَّيْءَ» أي: اشْتَدَتْ رَغْبَتُهُ فِيهِ.

• ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَجعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ بِزَعْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ الله، إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِأَنَّهُ وُلِدَتْ لَهُ مِنْ زَوْجَتِهِ مَوْلُودَةٌ أُنْثَىٰ اسْوَدَّ وَجْهُهُ مِنْ هَٰذَا الْخَبَرِ، فَظَهَرَتْ عَلَيْهِ مَلَامِحُ كُدْرَةٍ فيها سَوَادُ، عَلَامَةً عَلَىٰ كَرَاهِيَتِهِ لِمَا بُشِّرَ بِهِ، وظَلَّ طَوَالَ نَهَارِهِ كَئِيباً مُسْوَدَّ الْوَجْهِ.

يُقَالُ لُغَةً: «ظَلَّ نَهَارَهُ يَفْعَلُ كَذَا» لَا يُقَالَ هَٰذَا إِلَّا فِي النَّهَار. وَقَدْ يِسْتَعْمَلُ «ظَلَّ» بمعنى الدَّوام، فيقال: «ظَل فُلانٌ عَلَىٰ طَاعَتِهِ» بِمَعْنَىٰ دَاوَمَ عَلَيْها.

• ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: أي: وَهُوَ مُمْسِكٌ عَلَىٰ مَا امْتَلَاتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ غَيْظٍ أو كراهِيةٍ أَوْ غَضَبٍ. يُقَالُ لغة: «كَظَمَ السِّقَاءَ يَكْظِمُهُ» أي: مَلَأَهُ وسَدَّ فَاه. واخْتِيرَ في الآية اسْتِعْمَال كَلِمة: «بُشِّرَ» للدَّلَالَةِ على أَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَبِرَ الخبر بَشَارَةً سارّة.

• ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ...﴾: أي: يَسْتَخْفِي وَيَسْتَتِرُ مِنْ مَعَارِفِهِ مِنْ قَوْمِهِ، مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، حَتَّىٰ لَا تَظْهَرَ قَسَمَاتُ وَجْهِهِ الْكَالِحَةُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ كَرَاهِيَةٍ لِمَا أُخْبِرَ بِهِ مِنْ مَوْلُودَةٍ لَهُ أُنْثَىٰ.

• ﴿... أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ... ﴿٥٩﴾﴾:

الْهُون: الْخِزْيُ والذِّلَّة.

يَدُسُّهُ: أي: يُخْفِيهِ وَيَسْتُرُه. وَدَسُّهُ في التُّرَاب هو قَتْلُهُ وأداً في تُرَابِ الْأَرْض، كعَادَةِ بَعْضِ الْعَرَب في الجاهليّة.

أي: تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ حِينَ يُبَشَّرُ بمولُودَةٍ لَهُ أُنْثَىٰ بِحَدِيثَيْنِ وعَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ أَحَدَهُمَا:

الْحَدِيث الْأَوَّل: أَيُمْسِكَ هـٰذَا الَّذِي أُخْبِرَ بِهِ عَلَىٰ تَحَمُّلِ خِزْيٍ وَذِلَّةٍ في مَعَارِفِهِ مِنْ قَوْمِهِ، فَلَا يَتَخَلَّصُ مِنْهُ بالْقَتْلِ وأداً فِي تَرابِ الْأَرْضِ؟!

الحديث الثاني: أَمْ يَدُسُّهُ فَيُخْفِيهِ وَيَسْتُرُهُ وَأداً فِي تَرَاب الأرض، ويَتَخَلَّصُ مِنْهُ، حَتَّىٰ لَا يَكُونَ بَيْنَ قَوْمِهِ خَزْيَانَ مُنْكَسِراً، لِأَنَّ قَوْمَهُ يُعَيِّرُونَهُ أَبَا الْبَنَاتِ؟؟.

وَفِي آخِرِ هـٰذَا الْبَيَانِ بِشَأْنِ بَعْضِ مَفَاهِيمِ الْجَاهِلِيَّة قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

• ﴿... أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

«أَلَا» أَدَاةُ اسْتِفْتَاحٍ، وتَنْبِيهٍ، وتَحْقِيق.

«سَاءَ» فِعْلٌ يُقَالُ فِي إِنْشَاءِ الذَّمِّ عَلَىٰ سَبِيلِ المبالغة.

﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ مِنْ أَحْكَام جاهِلِيَّةٍ لَا عَقْلَ فِيها وَلَا رُشْدَ، وَلا عَدْلَ وَلَا حِكْمَة، إِذْ يُفَضِّلُونَ الذُّكُور من المواليد، وَيَكْرَهُونَ أَنْ تُولَدَ لَهُمُ الإناث، مع أَنَّ نِظَامَ تَنَاسُلِ الْأَبْنَاءِ في الْكَوْنِ بِحَسَبِ تَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بالذُّكُورِ والْإِنَاثِ، فالذُّكُورُ أَشِقَّاءُ الإِنَاثِ، والْإِنَاثُ شَقِيقَاتُ الذُّكُور فِي نِظَامِ تَكَاثُرِ الْأَحْيَاء.

وَمَا لَهُمْ يُفَضِّلُونَ الإناثَ في الْأَنْعَام على الذّكور، أَلِأَنَّ الْإِنَاث يَلِدْنَ الْأَنْسَالَ الكَثِيرَةَ الْمُرْبِحَةَ لَهُمْ، أَمَّا الذُّكُورُ فَيَكْفِي الْوَاحِدُ مِنْهَا لِتَلْقِيحِ قَطِيعٍ مِنْ نَوْعِهِ؟

إِنَّ أَحْكَامَهُمُ الجاهِلِيَّةِ مِنْ أَسْوَأ الأَحْكَام وأَقْبَحِهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّ سَبَبَ كَبَوَاتِ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ في أحْكامِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ وَمَا فيها جزاء:

• ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾:

السَّوْء: بفتح السِّينِ، اسْمٌ للضُّرِّ، وسُوءِ الْحَالِ، والْعَذَاب.

و﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾: أي: وَصْفُ سُوءِ الْحَالِ، وسُوءِ الْمَصِيرِ، وسُوءِ الضُّرِّ الَّذِي أُعِدَّ لَهُمْ وسُوءِ الْعَذَاب.

وَقَدْ جَاءَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ الحديثُ عَنِ المشْرِكِينَ الَّذِينَ سَبَقَ في الآيَاتِ من (٥٦ ـ ٥٩) بَيَانُ بَعْضِ كَبَائِرِهِمُ الكُفْرِيَّة بِعُنْوانِ، الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة، لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَوْ آمَنُوا بالآخِرَةِ لَمْ يَسْقُطُوا فِي هَـٰذِهِ الكَبَائِرِ الكُفْرِيَّةِ، والأَحْكَامِ الشَّنِيعَةِ ذَاتِ الْقُبْحِ الشَّدِيد.

والمعنى: لِهٰؤلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ وَلِأَمْثَالِهِمْ، وَصْف السَّوْءِ، إِذْ سَوْفَ يَكُونُ مِنْ وَصْفِهِمْ أَنَّهُمْ في أَسْوأ حَالٍ، وأَسْوأ مَصِيرٍ، وأَسْوأ عَذَابٍ، إِذَا لَمْ يَتُوبُوا بَلْ مَاتُوا عَلَىٰ شِرْكِهِمْ وَكُفْرِيَّاتهم.

• ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: أي: وللهِ الَّذِي جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ ظُلْماً وعُدْواناً، وافْتِرَاءً عَلَىٰ مَا يَجِبُ لَهُ مِنْ صِفَاتٍ، والَّذِي زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُه، الْوَصْفُ الأَعْلَىٰ فِي كُلِّ شيءٍ، في ذَاتِهِ، وَفِي صِفَاتِهِ النَّفْسِيَّة، وَفِي أَفْعَالِهِ الحكيمةِ، وفي أَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ. إِذْ لَهُ الكمالُ كُلُّهُ، وهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ.

• ﴿... وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾: أي: وهُوَ الْقَوِيُّ الْغَالِبُ الْقَادِرُ عَلَىٰ عِقَابِ مَنْ يَشَاءُ عِقَابَهُ مِنْ عِبادِه الْعُصَاةِ الْمُجْرِمِين، وهُوَ

الْحَكِيمُ فِيما يَشاءُ ويَخْتَارُ، وَقَدْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ إِمْهَالَ الْعُصَاةِ الْمُجْرِمِينَ، فَيُؤَخِّرُ عِقَابَهُمْ بِحِكْمَتِهِ، لِيَمْنَحَهُمْ أقْصَىٰ زَمَنٍ يُرَاجِعُونَ فِيهِ أنْفُسَهُمْ، فَيُؤْمِنُوا وَيَتُوبُوا وَيُقْلِعُوا عَنْ كَبَائِرِهم الكُفْرِيَّةِ، وَيَعْمَلُوا من الصَّالِحَات.

فَمِنَ حِكْمَتِهِ أَنْ لَا يُعَجِّلَ للنَّاسِ مُؤَاخَذَتَهُ لَهُمْ عَلَىٰ ظُلْمِهِم، وبَيَاناً لِهٰذَا قالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في الآية التالِيَة.

• ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾:

أي: وَلَوْ يُتَابعُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مُؤَاخَذَةَ النَّاسِ بِالْعِقَابِ، بِسَبَبِ ظُلْمِهِمُ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِهِ التَّعْذِيبَ والإِهْلَاكَ، مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ تَدِبُّ عَلَيْها، حتَّىٰ الْأَحْيَاءِ الَّتِي لَمْ تُوضَعْ في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحان.

إِنَّ إِهْلَاكُ الْأَحْيَاءِ الْأُخْرَىٰ مَعَ النَّاسِ فيما لَوْ أَرَادَ اللهُ إِهْلَاكَ النَّاسِ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ دَوَابِّ الْأَرْضِ مَخْلُوقَةٌ لِأَجْلِ النَّاسِ، فَإِذَا أُهْلِكَ النَّاسُ لَمْ يَكُنْ لِهٰذَا الْأَحْيَاءِ غَايَةٌ حَكِيمَةٌ يَبْقَوْنَ بِسَبَبِهَا في الْوُجُودِ في الحياة الدُّنيا.

وَلَكِنْ يُؤَخِّرُ اللهُ بإمْهَالِهِ الْحَكِيم مُؤَاخَذَة النَّاسِ الظَّالِمِينَ، إِلىٰ أَجَلٍ مُحَدَّدٍ مُسَمَّى عِنْدَه، فإذا اقْتَرَبَ أَجَلُ مُؤَاخَذَتِهِم بِمُقْتَضَىٰ حِكْمَةِ اللهِ - جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ - فإِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ تَأْخِيرَ نُزُولِ عَذَابِ اللهِ وَعِقَابِهِ لَحْظَةً وَاحِدَة، وَإِذَا كَانَ فِي الْأَجَلِ مُهْلَةٌ فإِنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ تَعْجِيلَ إِنْزَالِ عِقَابِ اللهِ وَعَذَابِهِ لَحْظَةً واحِدَة.

اسْتَأْخَرَ: أي: «تَأَخَّرَ» لُغَةً.

اسْتَقْدَمَ: أي: «تَقدَّمَ» لُغَةً.

وقد جاء في الآية (٣٤) من سورة (الأعراف/٣٩ نزول) نَظِيرُ هَـٰذِهِ العبارة: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فَلْيُرْجَعْ إِلَىٰ تَدَبُّرِهَا.

والمرادُ بالسَّاعَةِ أقَلُّ مُدَّةٍ زَمَنِيَّة، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحَدِّدُ آجَالَ الأشياءِ، بأقَلِّ الأَزْمَانِ الَّتِي تَبْدأُ عِنْدَها أَحْدَاثُ كَوْنِهِ، وبأقَلِّ الْأَزْمَانِ الَّتِي تَنْتَهِي عِنْدَهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُضِيفُ بَيَانَ بَعْضِ قَبَائِحِ المشركِينَ الكَفَرَةِ المجرمين:

• ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

وفي قراءة [**مُفْرِطُونَ**]. وفي قراءة أخرَىٰ: [**مُفَرِّطُونَ**].

أَبَانَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ كَبِيرَتَيْنِ شَنِيعَتَيْنِ من افتراءاتِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِم:

الكَبِيرة الأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾: أي: وَيَجْعَلُونَ بالادّعَاءِ الكاذِبِ المفْتَرىٰ للهِ الأَزَلِيِّ الأَبَدِيِّ الواحِدِ الأَحَدِ الفَرْد الصَّمَدِ الَّذِي لم يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ مِنَ الصِّفَاتِ مَا يَكْرَهُونَ نَظِيرَهُ لِأَنْفُسِهِمْ. ويجعَلُونَ في سَبِيلِهِ من القرباتِ ما يَكرهون نظيره لأنفسهم.

• إِنَّهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ شَرِيكٌ فِي سُلْطَانِهِمْ، أَوْ مُمْتَلَكَاتِهِمْ، ويَزْعُمُونَ أَنَّ للهِ شَرِيكاً أَوْ شُرَكاء في رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ في إِلَهِيَّتِهِ.

• وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ بالْقَرَابِين وَبالْعَطَايَا مِمَّا رَزَقَهم اللهُ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ شَيئاً مِنْهَا للهِ وَشيئاً مِنْهَا لِأَصْنَامِهِمْ، عَلَىٰ سَبِيلِ العبادة، وَهُمْ يَكْرَهُونَ مِثْلَ هـٰذَا لِأَنْفُسِهِمْ فِيما يُقَدِّمُهُ عَبِيدُهُمْ لَهُمْ من تكْرِيمٍ أَوْ تعظيمٍ وَتَبْجِيلٍ، فَإِذَا أَشْرَكُوا مَعَهُمْ أَحَداً مِنْ أَتْبَاعِهِمْ بِذَلِكَ غَضِبُوا.

• وَإِذَا بَدَا لَهُمْ أَنْ يَبْذُلُوا شَيْئاً مِنْ أَمْوالِهِمْ في سَبِيلِ اللهِ لِلْفُقَرَاءِ والمساكينِ وذَوِي الضَّرُورَاتِ وَذَوِي الحاجَاتِ، بذَلُوا أَخَسَّ وأَرْذَلَ وأَرْدَأَ مَا يَمْلِكُون، وهُمْ يَكْرَهُونَ مِثْلَ هٰذَا لِأَنْفُسِهِم.

الكبيرة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أي: وَيَدَّعُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ادّعاءً كَاذباً أَنَّ لَهُمُ عِنْدَ اللهِ الْمَنْزِلَةَ الْحُسْنَىٰ في الجنَّة، إنْ صَحَّ خَبَرُ البَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ، وخَبَرُ الْجَنَّةِ والنَّار، قِياساً علىٰ مَا هُمْ فِيهِ مُفَضَّلُونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَجَاءَ التَّعْبِيرُ بأنّ أَلْسِنَتَهُمْ تَصِفُ الْكَذِبَ، إِذْ زَعَمُوا أَنَّ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ فَرْضِ صِدْقِ الْخَبرِ فِيهِ المنزلَةَ الْحُسْنَىٰ في الْجَنَّة، وَهُوَ فيما أَرَىٰ عَلَىٰ تَقْدِيرِ: وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْوَصْفَ الكَذِبَ، وَهُوَ وَصْفُ حَالِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ عَلَىٰ فَرْضِ صِحَّةِ خَبَرِ يَوْمِ الدِّينِ، إِذْ يَقُولُونَ: إِنَّ لَنا عِنْدَ رَبِّنَا الْحُسْنَىٰ، وإِنَّنَا سَنَكُونَ أَنْعَمَ حَالاً مِمَّا نَحْنُ الْآنَ عَلَيْهِ في الدُّنيا. نظير قولِ صَاحِبِ الجنَّتَيْنِ لِمُحَاوِرِهِ المؤمِنِ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُ جوارِهِمَا في سُورَةِ (الكهف/ ٦٩ نزول):

• ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

وَجَاءَ التَّعْلِيقُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ ادِّعَائِهِم الْكَاذِب بِبَيَانِ نَقِيضِ مَا زَعموا فقالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الْآيَة:

﴿... لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

• ﴿لَا جَرَمَ﴾: عبارةٌ تُسْتَعْمَلُ لِتَوْكِيدِ الْكَلام وَتَوْثِيقِهِ، فهي بِمَنْزِلَةِ «حقًّا ـ لَا بُدَّ ـ لَا شَكَّ ـ لَا مَحالَة» وَأَصْلُ مَعْنَىٰ الْجَرْم الْقَطْعُ. أَي: لَيْسَ حَالُهُمْ كما يَزْعُمون، بَلِ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ لَهُمُ النار يُعَذَّبُونَ فِيهَا خَالِدِينَ.

• ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾: أي: وَأَنَّـهُـمْ مُقَدَّمُونَ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ في دُخُولِ النَّارِ، لِفَرْطِ غُلُوِّهِمْ في الكُفْرِ الْجُحُودِيِّ الْعِنَادِي.

• ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرِطُونَ﴾ في قراءة نافع، أي: غالُون مُتَجاوِزُونَ كُلَّ حُدُود الْحَقِّ والْخَيْرِ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تُجَاه رَبِّهم، وكذلِكَ قراءة أبي جعفر: [مُفَرِّطُونَ].

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الخامس عشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٩)

التدبُّر التحليلي للدَّرس السادِس عشر من دُروس سورة (النحل) الآيتان (٦٣) و(٦٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

القراءات:

(٦٣) • قرأ قَالُون، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [فَهْوَ] بإسْكان الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَهُوَ] بِضَمِّ الهاء.

تَمْهيد:

فِي آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ أُمَماً كثيرةً مِنْ قَبْلِ أُمَّةِ محمّد ﷺ، قَدْ

أَرْسَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ رُسُلاً، فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ، وأَنَّ اللهَ أعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً يُعَذِّبُهُمْ بِهِ يَوْمَ الدِّين.

وفيها بَيَانُ وَظِيفَةٍ مِنْ وَظَائِفِ رَسُولِ اللهِ محمّد ﷺ فِي هَـٰذِهِ الرِّسَالَةِ الخاتمة، وهِيَ أَنْ يُبَيِّنَ للناسِ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ في قضايا الدِّين، ويُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ القرآن هُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنون.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لأمَّةِ محمَّدٍ ﷺ، وَخطاباً له:

● ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾:

التوكيد بالْقَسَم ﴿تَٱللَّهِ﴾ وبعبارة ﴿لَقَدْ﴾ مُوَجَّهٌ لِلْيَهُودِ والنَّصَارىٰ والصَّابِئِينَ، ولكُلّ المِلَلِ الَّتِي لَهَا بَقَايَا بَعْدَ بِعْثَةِ الرسُول محمَّد ﷺ، مِن الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ أَرْسَلَ اللهُ لَهُمْ رُسُلاً.

أي: نُقْسِمُ وَنُؤَكِّدُ أَنَّنَا أَرسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمّد، وفي مُقَدّمَتِهِمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارىٰ والصَّابِئُون، فاسْتَجَابَ مَنِ اسْتَجَابَ مِنْهُم لِرُسُلِنَا في دَعَوَاتِهِم إِلَىٰ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَيْنَاهُ لِعِبَادِنَا فِي الحياة الدُّنيا.

ثُمَّ انْحَرَفَ خَلْفُهُمْ عَنْ صِرَاطِنَا المسْتَقِيم إيماناً، وإسْلَاماً، واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ والْأَهْوَاءَ وَرَغَبَاتِ نفوسِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنيا، فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ، فانْسَاقُوا مَعَ الشَّيْطَانِ في تَزْيِينَاتِه، حَتَّىٰ خَرَجُوا عَنْ صِرَاطِنَا المستَقِيم.

فَمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْهُم بَعْدَ بِعْثَتِك، فالشَّيْطَانُ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ في الحَيَاةِ الدُّنيا، يَسُوقُهُمْ أَوْ يَقُودُهُمْ إِلَىٰ حَضِيضِ سَخَطِ اللهِ عَلَيْهِم، حَتَّىٰ يَكُونُوا مِنَ الخالِدِينَ في عَذَاب السَّعِير.

وِلَايَةُ الشيطان لَهُمْ هِي وِلَايَةُ آمِرٍ وَنَاهٍ وَدَاعٍ إلى الشُّرُور والْآثَام، لَا وِلَايَةُ مُحبٍّ وَنَاصِرٍ.

• ﴿... وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾: أي: وَلَهُمْ مِنَ الصِّفَاتِ الملَازِمَةِ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ عَذَابٌ أليمٌ، يُعَذَّبُونَهُ في الْجَحِيم، بِحَسَبِ دَرَكَاتِهِمْ الْمُعَادِلَةِ لِجَرَائِمِهِمُ الَّتِي أجْرَمُوهَا في حياةِ الابْتِلَاءِ في الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ قَصْرِ إِنْزَالِ الكِتَابِ الذي هو القرآن عَلَىٰ غَرَضَيْنِ رَئِيسَيْن:

الْغَرْضُ الْأَول: أَنْ يُبَيِّنَ الرَّسُولُ ﷺ، وحَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، للمنتَمِينَ إِلَىٰ الْمِلَلِ السَّابِقَةِ الَّتِي حَرَّفَهَا أَتْبَاعُهَا عَنْ أُصُولِها، الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ عَنِ الْحَقِّ المنزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَلَىٰ الرُّسُلِ السَّابقين، لِيَعْلَمُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ بَاطِلٍ خارجٍ عَمَّا أَنْزَلَ اللهُ، فَعَسَىٰ أَنْ يَسْتَجِيبَ مِنْهُمْ أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والْخَوْفِ من اللهِ، فَيُؤْمِنُوا وَيُسْلِمُوا وَيَتَّبِعُوا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ الخاتم محمّد ﷺ.

دَلَّ عَلَىٰ هـٰذَا الْعَرْضَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ﴾.

الْغَرْض الثاني: أَنْ يَكُونَ القرآنُ هُدىً ورَحْمَةً لِقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ النَّفْسِيُّ والقَلْبِيُّ، لِأَنْ يُؤْمِنُوا بالْحَقِّ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ اللهِ الْخَاتِمُ لِلنَّاسِ أَجْمَعِين، وَهـٰذَا يَشْمَلُ النَّاسَ جَمِيعاً بَعْدَ بِعْثَة الرسول.

دَلَّ عَلَىٰ هـٰذَا الغرض قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

أي: وهُوَ هُدىً يَهْدِي إلى صِرَاطِ اللهِ المستقيم الذي يوصِلُ سالِكِيهِ إلى جَنَّات النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ.

وهُوَ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ يَرْحَمُ بِهَا مَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاه وعَمِلَ بأحْكَامِهِ، فَيَصْرِفُ عَنْهُ شَقَاءَ الدُّنْيَا وَعَذَابَ الْآخِرَةِ، ويَجْعَلُهُ مِنَ الْخَالِدِينَ في جَنَّاتِ النّعيم.

وفعل: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فِعْلُ مُضَارِعٌ يَصْلُحُ لِلْحَالِ والاسْتِقْبَال، وبالنِّسْبَةِ إلى دَلَالَتِهِ عَلَىٰ الاستقبال يُحْمَلُ عَلَىٰ المعنىٰ الَّذِي ذَكَرْتُهُ آنفاً، وهو أنَّ القرآن هُدىً ورَحْمَةٌ لِقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ لِأَنْ يُؤْمِنُوا إذا عَرَفُوا الْحَقّ والْخَيْرَ وفَضَائِلَ السُّلُوك.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس السادس عشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٢٠)
التدبُّر التحليلي للدّرس السابع عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٦٥ ـ ٧٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا
خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا
وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ
ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ
رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

القراءات:

(٦٦) • قرأ نافع، وابن عامر، وشعبة، ويعقوب [**نَسْقِيكُمْ**] من فعل: «سَقَىٰ».

وقرأها أبو جعفر: [**تَسْقِيكُمْ**] أي: الأنعام.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**نُسْقِيكُمْ**] من فعل: «أَسْقَىٰ».

(٦٨) • قرأ ورْشٌ، وأبو عمْرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [**بُيُوتاً**] بضمّ الباء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بِيُوتاً**] بِكَسْرِ الياء. وهما لغتان.

(٦٨) • قرأ ابن عامر، وشُعْبَة: [**يَعْرُشُونَ**] بضمّ الرّاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَعْرِشُونَ**] بِكَسْرِ الراء.

وهما لغتان عربيتان لمعنًى واحد.

(٧١) • قرأ شعبة، ورُويس: [**تَجْحَدُون**] بتاء الخطاب.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَجْحَدُون**] بياء الغيبة.

وبَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في الْأَدَاء البياني.

تَمْهِيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَوْدٌ إلى عَرْضِ بَعْضِ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عباده، وهُمْ لَا يُؤَدُّونَ وَاجِبَ الشُّكْرِ عليها، بل يَجْحَدُونَها، ويَكْفُرُونَ بها، وَيُؤْمِنُونَ بِالْبَاطِلِ، وَيَتَّبِعُونَ سُبُلَ الضَّلَال.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً نِعْمَةَ إنْزَالِ الماء من السَّماء وإحياء الْأَرْضِ بِهِ بَعْد مَوْتِها:

• ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

إنَّ نِعْمَةَ إنْزَالِ الماء من السَّمَاء، أي: من السَّحَابِ لِأَنَّ كُلَّ مَا عَلَا فأَظَلَّ فَهُو سماء، ونِعْمَةَ إحْيَاءِ الْأَرْضِ بِهِ بالنَّبَابَاتِ بَعْدَ مَوْتِها، بِيُبْسِ النَّبَاتَات السَّابِقَاتِ الَّتِي كَانَتْ فِيها، وَتَحَطُّمِهَا وَتَفرُّقِها، وصَيْرُورَةِ الْأَرْضِ تُرَاباً وَصُخُوراً جَافَّةً قَاحِلَةٍ، مِنْ آيَاتِ اللهِ الظَّاهِرَة فِي كَوْنِهِ، الَّتِي لَا يَحْتَاجُ اسْتِدْعَاؤُهَا للتَّصَوُّرِ الحاضِرِ إلَّا التَّذْكِيرَ عَنْ طَرِيقِ السَّمَاع.

فَمَنْ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ لِأَنْ يَسْمَعُوا مَا يَتَعَلَّقُ بالتَّذْكِير بآيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، كفَاهُمْ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: لَاحِظُوا مَا فِي هَـٰذِهِ النعَمِ مِنْ آيَاتِ اللهِ.

وقَدْ سَبَقَ في نُجومِ التَّنْزِيلِ تَدَبُّر نَظِيرِ مَا جَاءَ في هَـٰذِهِ الآيَة عِدَّة مَرَّات.

انظر الآية (٩٩) من سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول). والآية (٥٣) من سورة (طه/ ٤٥ نزول). والآية (٦٠) من سورة (النمل/٤٨ نزول. والآية (١٠) من سورة (لقمان/ ٥٧ نزول). والآية (٢٧) من سورة (فاطر/ ٤٣ نزول). والآية (١١) من سورة (الزخرف/ ٦٣ نزول).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً نِعْمَةَ اللَّبَنِ الَّذِي يُخْرِجُهُ مِنْ بُطُونِ الْأَنْعَام خِطَاباً للنَّاس:

• ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

الأنْعَام: الْأَمْوَال الراعية، وهي الْإِبلُ، والبقر، والْغَنَم، وتَدْخُلُ الْمَعْزُ في الغنم، ولفظ «الأنْعَام» يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، وَقَدْ جَاءَ هُنَا في الآيَةِ تَذْكِيرُهُ.

• ﴿لَعِبْرَةً﴾: تَأْتِي الْعِبْرَةُ في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ «الْعَجَب» وأَرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا المعْنَىٰ هُوَ الْمُلَائِمُ في هَـٰذِهِ الآية.

الْفَرْثُ: مَا يَكُونُ في الْكَرِشِ مِنْ مَأْكُولٍ لَمْ يَتِمَّ هَضْمُهُ وإخراجُهُ رَوْثاً.

• ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾: أي: حَلِيباً نَقِيّاً لَا أَثَرَ فِيهِ مِنْ دَمٍ أَوْ فَرْثٍ.

• ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: أي: طَيِّباً لَذِيذاً، سَهْلَ الْمُرُورِ فِي الْحَلْقِ والانْحِدَارِ إِلَىٰ الْمَعِدَة.

المعنى: وَإِنَّ لَكُمْ في الْأَنْعَامِ لَأَمْراً عجباً، هُوَ أَنَّنَا بِقُدْرَتِنَا الْعَظِيمَة، وحِكْمَتِنَا السَّامِيَةِ، وأَلْطَافِنَا الْعَجِيبة، نُخْرِجُ لَكُمْ مِنْ بُطُونِهَا لَبَناً طَيِّباً لَذِيذاً، سَهْلَ الْمُرُورَ في الْحَلْقِ والانْحِدَارِ إِلَىٰ الْمَعِدَة، مُسْتَخْلِصاً مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ، ودَمٍ.

فَوَجَّهَتْ هَـٰذِهِ الآية إِلَىٰ هَـٰذِهِ الْعَجِيبَةِ مِنْ عَجَائِبِ الْخَلْقِ، وهِيَ اسْتِخْلَاصُ اللَّبَنِ السَّائِغ للشَّاربينَ، مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ ودَمٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً نِعْمَةَ أُخْرَىٰ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عِباده:

• ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: وأنْعَمَ اللهُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بِثَمَرَاتِ النَّخِيلِ، وثَمَرَاتِ الْأَعْنَاب، وأَنْتُمْ تَتَّخِذُونَ مِنْ بَعْضِ هَـٰذِهِ النِّعَم الجَلِيلَةِ عَلَيْكُمْ سَكَراً غَيْرَ حَسنٍ، أَخْذاً مِنْ إِشَارَةِ «وَرِزْقاً حَسَناً» وَهَـٰذِهِ الآيَةُ كَانَتْ بِدَايَةً فِي الإِشْعارِ بأَنَّ السَّكَرَ مَوْضُوعٌ في قائِمَة مَا سَيُحَرَّمُ في الإِسلام.

السَّكَرُ: اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُسْكِرُ مِنْ خَمْرٍ وَشَرَابٍ ما.

والرِّزْقُ الْحَسَنُ كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ من ثَمَر النَّخِيلِ وَثَمَرِ أشجارِ الْعِنَب، في الْأَكْلِ والشُّرْبِ، وَمَا يُصْنَعُ مِنْهُمَا، باسْتِثْنَاءِ السَّكَرِ غَيْرِ الْحَسَنِ، وَباسْتِثْنَاء مَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْذِي، ضِمْنَ قاعِدَةِ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَار» وَهٰذَا مَعْرُوفٌ مِنْ نُصُوصٍ أُخْرَىٰ.

وتقديرُ الآيَةِ: وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأعْنَابِ لَكُمْ عِبْرَةٌ أيضاً، إِذْ جَعَلَ اللهُ فِي نِظَام كَونِهِ أنْ يُصْنَعَ من ذَلِكَ سَكَرٌ غَيْرُ حَسَنٍ لِلشُّرْبِ، وَهُوَ حَسَنٌ لِمَنَافِعَ أُخْرَىٰ، وَأَنْ يؤْكَلَ، وَيُصْنَعَ مِنْهُ مَآكِلُ وَمَشَارِبُ حَسَنَة، وأَنْتُمْ تَتخِذُونَ مِنْ هـٰذَا المخْلُوقِ لِمَنَافِعِكُمْ سَكَراً غَيْرَ حَسَنٍ تَشْرَبُونه، وَتَتَّخِذُون مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً.

وَلَمَّا كَانَ إِدْرَاكُ هـٰذَا يَحْتَاجُ قُوَّة عَاقِلَةً تُدْرِكُ دَقَائِقَ صُنْعِ اللهِ الْعَلِيم القدير، ولمَّا كَانَ كَفُّ الْأَنْفُسِ عَنِ السَّكَرِ غَيْرِ الْحَسَنِ يَحْتَاجُ عَقْلاً إِرَادِيًّا حَازِماً، قالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في آخِرِ الآيَةِ:

• ﴿. . . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾: وَيَظْهَرُ أَنَّ المرادُ بالْعَقْلِ هُنَا الْعَقْلُ الْعِلْمِيُّ، والْعَقْلُ الإراديّ، فبالْعَقْلِ الْعِلْمِيِّ، يُدْرِكُون عَظَمَةَ إِتْقَانِ الصُّنْعِ الرَّبَّانِيّ، وبالْعَقْلِ الإِرَادِيّ يَكُفُّونَ نُفُوسَهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ، وهُوَ غَيْرُ حَسَنٍ لمآكِلِهِم ومَشَارِبِهِمْ، وَلَوْ كَانَتْ تَتَطَلَّبُهُ شهواتُهم وأَهْوَاؤُهم.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً عَجِيبَةً مِنْ عَجَائِب خَلْقِهِ وهِيَ النَّحْلُ، وهَـٰذِهِ الْعَجِيبَةُ تُنْتِجُ عَسَلاً مُخْتَلِفَ الْأَلْوَانِ، وفِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاس، وهُوَ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عِبادِهِ:

• ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

• ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾: هـٰذَا الخطابُ مُوَجَّهُ لِكُلِّ فَرْدٍ صالحٍ لِلخِطَابِ بأسْلُوب الخِطَابِ الإفرادي.

وَلفظ الوحْي في العربية يَدُلُّ عَلَىٰ مَعَانٍ مُتعدِّدَة مِنها: «الكِتَاب ـ الكِتَابَة ـ الإشَارَةُ السَّرِيعَة ـ الإلْهَامُ في دَاخِلِ النَّفْسِ ـ الكلامُ السَّرِيعُ الخفيّ ـ إلْقَاءُ المعْنَىٰ في القَلْبِ».

والوحْيُ إلى النَّحْلِ يُنَاسِبُهُ مِن هَـٰذِهِ المعاني الإِلْهَامُ في دَاخِلِ النَّفْسِ، مَعَ تَكْوِينٍ فِطْرِيٍّ يُلائِم، واسْتِعْدَادٍ لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَاه.

النَّحْل: اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيٍّ واحِدُهُ «نَحْلَة» ولَفْظُه «مُؤَنَّث» يقال هَـٰذِهِ النحْلِ.

ويَصِفُ عُلَمَاءُ الأَحْيَاءِ النَّحْلَ المنْتِجَ لِلْعَسَلِ بِصِفَاتٍ تَدُلُّ عَلَىٰ عَجَائِبَ مُذْهِلَة مِنْ إتْقَانِ صَنْعَةِ الْبَارِي ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وعظيمِ قُدْرَتِهِ، وعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وسَامِي حِكْمَتِهِ.

إِنَّ هَـٰذِهِ الْحَشَرَةَ المنْتِجَةَ لِلْعَسَلِ لمنَافِعِ النَّاسِ، مِنْ رَحِيقِ الْأَزْهَارِ، فِيهَا مِنْ آيَاتِ اللهِ الْجَلِيلاَتِ مَا يُدْهِشُ وَيُذْهِلُ أَذْكَىٰ أَذْكِيَاءه الْبشر، وتَلْخِيصُ مَا فَصَّلَهُ عُلَمَاءُ الأَحْيَاءِ بِشَأْنِهَا يَحْتَاجُ عِدَّة صَفَحَات.

واقْتَصَرَ البيانُ الْقُرْآني عَلَىٰ ذِكْرِ بَعْضِ ظَوَاهِرِ سُلُوكِ هَـٰذِهِ الحشَرَة العجيبَةِ، بِإِلْهَامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَلَىٰ مَا يَخْرُجُ مِن بُطُونِها مِنْ شَرابٍ مُخْتَلِفِ الأَلْوَانِ، وفِيهِ شفاءٌ للنَّاس.

• ﴿... أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: وأوْحىٰ رَبُّكَ إِلىٰ النَّحْلِ علَىٰ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ في التَّدبُّر، وَحْياً إلْهَامِيًّا مَضْمُونُهُ: أَنِ اتَّخِذِي لِلْمَمالِكِ الَّتِي تُكوِّنِينَها بُيُوتاً، هَـٰذِهِ الْبُيُوتُ تُسَمَّىٰ خَلَايَا النَّحل، وَهِي تَتَأَلَّفُ مِنْ حُجَرٍ سُدَاسِيَّةِ الْبِنَاءِ مِنْ شَمْعٍ خَاصٍّ تَجْلُبُهُ مِنْ بَعْضِ الْأَشْجَارِ وَتُصَنِّعُهُ، وَتَبْنِي بِهِ هَـٰذِهِ الْحُجَرَ السُّدَاسِيَّةَ الشَّكْلِ المتْقَنَةَ الصُّنْعِ، لِتَخْزِنَ بِهَا الْعَسَل، وَاجْعَلِي هَـٰذِهِ الْبُيُوتَ فِي الْجِبَالِ، أَوْ فِي الشَّجَر، أو فِيمَا يَعْرِشُ النَّاسِ، أَيْ: فيمَا يبْنِي النَّاسُ مِنْ أَبْنِيَةٍ، من خَشَبٍ، أَوْ حَجَر، أو طِين، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

يُقَالُ لغة: «عَرَشَ، يَعْرِشُ، ويَعْرُشُ» أي: بَنَىٰ بِنَاءً مِنْ مَادَّةٍ ما وَجَعَلَ لَهُ سَقْفاً، وَيُقَالُ: «عَرَشَ الكَرْمَ» أي: صَنَعَ لَهُ عَرْشاً، أَوْ عَرِيشاً مِنْ خَشَبٍ أَوْ غَيْرِهِ لِتَمْتَدَّ فُرُوعُهُ عَلَيْه.

• ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ... ﴿٦٩﴾﴾:

أَطْلَقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لَفْظُ «الثَّمرات» عَلَىٰ كُلِّ مَا يَخْرُجُ مِنْ أشْجَارِ الْأَرْضِ ذاتِ السّاق وغيرِ ذات السَّاقِ، ممّا يأْكُلُ النَّاسُ أَوْ غَيْرُ النَّاسِ، ومِنْهُ الزَّهَرُ والنَّوْرُ الّذِي تأْكُلُ النَّحلُ مِنْ رَحِيقَهِ، وَغَيْرُ النَّحْلِ من الْحَشَرَاتِ.

• فالْعِنَبُ، والتَّمر، والطَّلح، والتُّفَّاحُ، والْبُرْتُقَالُ، والمشْمِشُ، مِن الثَّمرات.

• واليقْطِينُ، والبطيخ، والخيار والقِثَّاء، والباذِنجَانُ، ونحوها مِنَ الثَّمَرَات.

• والْوُرُودُ، والأَزْهَارُ، وَنَوْرُ الْأَشْجَارِ وَسائِرِ النَّبَاتَاتِ من الثَّمَرَات.

أي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ تَبْنِي بيُوتَكِ، كُلِي مِنْ كُلِّ الثمَرَاتِ لِتَصْنَعِي عَسَلاً نَفِيساً فِي بُطُونِكِ، وَتَحْتَفِظِي بِهِ في حُجُراتِ بُيُوتِك، أَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَكُلِي مِمَّا يَتَيَسَّرُ لَكِ الْأَكْلُ مِنْهُ لِحَيَاتِك، إِنَّ الْعَسَلَ النَّفِيسَ لَا يَكُونُ إِلَّا مُشْتَقاً

مِنْ رَحِيقِ الأزْهار المنتَشِرَة عَلَىٰ سُطُوح الْأَرْضِ فِي النباتَاتِ المختلفات، ونُلَاحِظُ فِي هـٰذَا أَنَّ النَّحْلَ مُلْهَمٌ مِنَ اللهِ أَنْ يَسْعَىٰ بَعِيداً عَنْ أَماكِنِ بُيُوتِهِ لِيأكُلَ مِنْ رَحِيقِ الْأَزْهَار والنَّوْرِ المنتشِرِ في أَمَاكِنِ تَوَزُّعِهِ في نَبَاتَاتِ الْأَرْض المخْتَلِفَةِ الأنواع والأصناف.

وَجاءَتْ عبارة: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ مُرَتَّبَةً بالتَّعْقِيبِ بالْفَاءِ عَلَىٰ: ﴿ثُمَّ كُلِى﴾: أي: ثُمَّ ابْدَئِي بالأَكْلِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ الَّتِي تُوجَدُ حَوْلَ بُيُوتِكِ، وأَتْبِعِي ذَلِكَ بالتَّعْقِيب، فَاسْلُكِي بَعِيداً عَنْ بُيوتِكَ سُبُلَ رَبِّكِ في جَوِّ الْأَرْضِ مُذَلَّلَةً سَهْلَةً، يُسَاعِدُكِ عَلَىٰ سُلُوكِها الطَّيَرَانُ بأجْنِحَتِك، لِتَنْتَقِي مَا يَطِيبُ فِي لِسَانِكِ مِنْ رَحِيقِ النَّوْر والْأَزْهَارِ النَّابِتَةِ عَلَىٰ نَبَاتَاتِ الْأَرْضِ.

وهـٰذَا مُلَاحَظٌ في سُلُوكِ النَّحْلِ حِينَما تَنْتَشِرُ مُفَارِقَةً بُيُوتَها لانْتِقَاءِ مَا تَخْتَارُ مِنْ رَحِيقِ الْأَزْهَارِ الَّتِي تَأكُلُ مِنها وَتَخْزِنُهُ في مَعِدَةٍ خَاصَّةٍ بِصِنَاعَة الْعَسَلِ، فإذَا رَجعَتْ إِلَىٰ بُيُوتِهَا أَخْرَجَتْهُ فَجعَلَتْهُ فِي حُجُرَاتِ خَلِيَّتِها، الْخَاضِعَةِ لِسُلْطَانِ مَلِكَةِ الْخَلِيَّة، وهِيَ نَحْلَةٌ كَبِيرَةٌ أنْثَىٰ.

السُّلُوك: الدُّخُول في الشَّيْء، والْعُبُورُ وَسَطَهُ.

السُّبُل: الطُّرُقُ، وَدَلَّ هـٰذَا النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّ فِي الْجَوِّ طُرُقاً تَسْلُكُهَا ذَوَاتُ الْأَجْنِحَةِ الَّتِي تَطِيرُ بها.

وَبِمَا أَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِلْكٌ للهِ الرَّبِّ خالِقِ كُلِّ شَيْءٍ، قالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ وَلَعَلَهَا تُدْرِكُ مَعْنَىٰ رُبُوبيَّةِ اللهِ لِكُلِّ شيءٍ، أَوْ لِتَثْبِيتِ هَـٰذِهِ الْحَقِيقَةِ في أذْهَانِ مُتَلَقِّي هذا البيان مِنْ ذوي الْعِلْمِ.

- ﴿ذُلُلًا﴾ أي: مُمَهَّدَةً سَهْلَةَ السُّلُوك، مُفْرَدُهَا «ذَلُول» و«ذَلُولَة».

وَبَعْدَ هـٰذَا وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وظِيفَتَهَا النَّفْعِيَّةِ لِلنَّاسِ فقال تَعَالَىٰ:

• ﴿... يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ... ﴿٦٩﴾﴾:

أي: يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا بِخَلْقِ اللهِ وإتْقَانِ صُنْعِهِ لِهٰذِهِ الحشَرَةِ العجيبة، شَرَابٌ لِمَا فِيهِ مِنْ سُيُولَة هُو الْعَسَل.

قال علماءُ الْأَحْيَاء: قَدْ جعَلَ الله للنَّحْلَةِ مَعِدَة خَاصَّةً لِتَجْمِيعِ الرَّحِيقِ فيها، وصِنَاعَةِ الْعَسَل، فَإِذَا صَارَ عَسَلاً أَخْرَجَتْهُ مِنْ فَمِهَا، وَصبَّتْهُ فِي حُجْرَةٍ من حُجُرَات الْخَلِيَّةِ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا، إِذْ مَلِكَتُهَا أُمُّها.

وهٰذَا الشَّرَابُ «الْعَسَل» مُخْتَلِفُ أَلْوانُه، فمِنْهُ الْأَبْيَضُ، أو الْقَرِيبُ من البياض، ومِنْهُ الْأَصْفَرُ، وَمِنْهُ الْأَشَدُّ صُفْرَة، وَمِنْهُ الْقَرِيبُ إلى السَّوَاد، ومِنْهُ الْأَسْوَدُ، وَهٰذَا الاخْتِلاف يَتْبَعُ صِنْفَ النَّحْلِ وَعُمْرَهُ، وَمَرْعَاه.

وَيَتْبَعُ اخْتِلَافَ أَلْوَانِهِ اخْتِلَافُ خَصَائِصِهِ الْغِذَائِيَّةِ والْعِلَاجِيَّة، وَتَكْشِفُ التَّجَارِبُ والْمُخْتَبَرَاتُ الْعِلْمِيَّةُ هٰذِهِ الْخَصَائِص.

• ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾: أَيْ: يُوجَدُ في أَنْواعِ الْعَسَلِ وأصْنَافِهِ شِفَاءٌ مَا لِبَعْضِ أَمْرَاضِ النَّاسِ، إِذَا اسْتُعْمِلَ بالْمَقَادِيرِ الَّتِي أَثْبَتَتِ التَّجرْبَاتُ أَنَّ الله عَزَّ وَجلَّ قَدْ جعَلَ فِيهَا شفاءً.

ويَفْهَمُ بَعْضُ المتَعَجّلِينَ مِنْ هٰذِهِ الْعِبَارَةَ أَنَّ فِي الْعَسَلِ شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ، وَهٰذَا خَطَأٌ فِي فَهْم النَّصّ، فَكَلِمَةُ «شِفَاء» نَكِرَةٌ يَكْفِي فِي تَحقُّقِ دَلَالَتِها وُجُودُ شِفَاءٍ في الْعَسَلِ لِبَعْضِ الْأَمْرَاضِ مِنْ أَمْرَاضِ النَّاس، وَلَيْسَ فِي الْعِبَارَة دَلِيلٌ مَا عَلىٰ أَنَّهُ يُوجَدُ في الْعَسَلِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ أَمْرَاضِ النَّاس.

وَنَتَجَ مِنْ سُوءِ فَهْم هٰذِهِ الْعِبَارَةِ، اعْتِقَاداً بِأَنَّ النَّصَّ مِنْ كَلَام اللهِ، وَهُوَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، أَنَّ بَعْضَ الْمَرْضَىٰ الَّذِينَ لَا يُنَاسِبُهُمْ الْعَسَل، تَدَاوَوْا بِهِ تَدَاوِياً سَيِّئاً فَكَانَ قَاتِلاً لهم، أَوْ زَائِداً فِيما هُمْ فِيهِ مِنْ أَمْرَاضٍ.

وَخَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هٰذَا البيان عَنِ النَّحْلِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهِ بِقَولِهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: إنَّ فِي ذَلِكَ الَّذي وُصِفَتْ بِهِ النَّحْلُ لَآيَةً عَظِيمَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، يَنْتَفِعُ بِهَا قَوْمٌ يَتَفَكَّرُونَ فِي آيَاتِ اللهِ الَّتِي بَثَّهَا فِي كَوْنِهِ، أَوْ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يَتَفَكَّرُوا إِذَا نُبِّهُوا إِلَيْهَا، وَذُكِّرُوا بِها، وَهٰذَا التَّفَكُّرُ يَجْعَلُهُمْ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَيُسْلِمُونَ لَهُ، أَوْ يَزِيدُ فِي إيمانِهِمْ والْتِزَامِهِمْ بِالسُّلُوكِ الإِسْلَامِيّ على صراط اللهِ المستقيم.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُبَيِّنُ بَعْضَ ظَوَاهِرِ قُدْرَتِهِ، وَاخْتِيَارَاتِهِ الْحَكِيمَةِ فِي أَعْمَارِ النّاسِ المختلِفَة، الَّتِي سَتَنْتَهِي بالموتِ حَتْماً فِي هَـٰذِهِ الحياة الدُّنْيَا:

• ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾:

الخطابُ مُوَجَّهُ في هَـٰذِهِ الآيَةِ لِلنَّاسِ جَمِيعاً فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ:

• ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾: أي: أَوْجَدَكُمْ أَحْيَاءً بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شيئاً مَذْكُوراً، وَخَلْقُكُمْ إِنَّمَا تَحَقَّقَ بِتَقْدِيرِهِ وقَضَائِهِ، وَعَظِيم قُدْرَتِهِ، وعِلْمِهِ الشَّامِلِ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شيء، وحِكْمَتِهِ السَّامِيَّة، إِذْ أَعْطَىٰ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ طَبْعَتَهُ الْخَاصَّةَ به.

• ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾: أَيْ: ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ آجَالِكُمْ المُقَدَّرَةِ لِحَيَاتِكُمْ، في رِحْلَةِ ابْتِلَائِكُمْ فِي هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا، يُمِيتُكُمْ.

«تُوَفَّىٰ اللهُ فُلَاناً» أي: أَعْطَاهُ غايَة الزَّمَنِ المقَدَّرِ لَهُ أَنْ تَكُونَ رُوحُهُ مُتَّصِلَةً بِنَفْسِهِ، وَبِالْفَصْلِ الْكَامِلِ يَحْدُثُ الْمَوْت، وبالْفَصْلِ الجزئيّ يَحْدُثُ النَّوْم.

• ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ...﴾:

أي: وبعْضُكُمْ يُعمَّر حتَّىٰ يُنكَّس في الْخلْقِ، ويُرْجعَ بِهِ مِنَ الدَّرجاتِ الَّتِي ارْتقَىٰ إلَيْهَا، حتَّىٰ يَصِلَ إلَىٰ أرْذَلِ الْعُمر، لَكِيْ يَصِلَ إلَىٰ خَرفٍ زائِدٍ لَا يَعْلَمُ فِيهِ مِنْ بَعْدِ عِلْم نالَهُ فِي حَيَاتِهِ شَيْئاً، وهـٰذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أنَّ الله قَادِرٌ عَلَىٰ سَلْبِ ذَوِي الْقُدْرَاتِ قُدْراتِهِمْ إذَا شَاءَ، وعَلَىٰ سَلْبِ ذَوِي الْعُلُومِ عُلُومَهُمْ إِذَا شَاءَ، فَلَا يَتَعاظَمَنَّ أَحَدٌ بِقُدْرَتِهِ، وَلَا يَتَفاخَرنَ أَحَدٌ بِوَاسِعِ عِلْمِهِ، فَقُدْرَتُهُ وَعِلْمُهُ عَطَاءٌ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَنْ أَعْطَىٰ ووَهَبَ، قَادِرٌ عَلَىٰ سَلْبِ مَا وَهَبَ، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ.

وَخَتَمَ اللهُ الْآيَةِ بقولِهِ: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾: أي: إنَّ اللهَ عَلِيمٌ لَا يَتَعَرَّضُ عِلْمُهُ للنقص وقَدِيرٌ لا تَتَعرَّضُ قُدْرَتُهُ لِلنَّقْصِ وبِقُدْرَتِهِ المقرونَةِ بِعِلْمِهِ الشَّامِلِ يَفْعَلُ فِي كَوْنِهِ وعِبَادِهِ مَا يَشَاءُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ حِكْمَتَهُ فِي تَفْضِيلِ النَّاسِ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ في الرِّزْقِ، وَيَبْنِي عَلَيْهِ حُجَّةً إقْنَاعِيَّةً لِإِبْطَالِ الشِّرْكِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ المشرِكُون:

• ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾:

نِظَامُ اللهِ في الْخلْقِ قائِمٌ عَلَىٰ التَّفاضُل لَا على التَّساوِي، فَلَا تَساوِيَ بَيْنَ ورَقَتَيْن مِنْ شَجَرَةٍ واحدةٍ تَسَاوِياً مُتطابقاً، وَلَا تَساوِيَ بَيْنَ ثَمرَتَيْنِ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَة تَسَاوِياً مُتَطابِقاً، إذْ لِلْخالِقِ إرادة حَكِيمَةٌ خاصَّةٌ فِي كُلِّ شيءٍ يَخْلُقُه.

ومِنْ ظَواهِرِ هـٰذَا النظام في التَّفَاضُلِ تَفْضِيلُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ في الرِّزْق، وهـٰذِهِ ظَاهِرَةٌ مُشَاهَدَةٌ فِي النَّاسِ، وهي تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَرْزَاقَ النَّاسِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقضائِهِ، مَعَ مَا يَقُومُ به الْأَمْثَالُ مِنْهُمْ مِنْ عَمَلٍ في الكَسْبِ مُتَناظِر.

ومِنْ صُوَرِ هـٰذَا النِّظَام في الْخَلْقِ التَّفَاضُلِي وُجُودُ أرقَاءَ مِنَ النَّاسِ مَمْلُوكِينَ، وَوُجُودُ مَالِكِينَ لَهُمْ، حِينَ يَكُونُ في النَّاسِ سَادَةٌ وَعَبِيد، وَوجُودُ خَدَمٍ مُسْتَأجَرِينَ، وَمَخْدُومِينَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَىٰ مَنْ يَخْدُمُونَهُمْ.

واسْتِفَادَةً مِنْ هَـٰذِهِ الظَّاهِرَةِ في النَّاسِ لِقَضِيَّةٍ عَظِيمَةٍ هِي مِنْ أُصُولِ الدِّينِ الكُبْرىٰ، هِي إبْطَالُ قَضِيَّةِ الشِّرْكِ مِنْ أَسَاسِهَا قِيَاساً عَلَىٰ مَا فِي طَبَائِعِ الناس.

إنَّ الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شيءٍ في الكَوْنِ وَمَالِكُهُ وَرَبُّهُ، وَذُو السُّلْطَانِ المطْلَقِ عَلَيْهِ، وَمَا يَزْعُمُهُ المشْرِكُونَ مِنْ أَرْبَابٍ وآلِهَةٍ هُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَعَبِيدٌ مِن عَبِيدِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُون شُرَكَاءَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ.

إنَّ أَحداً مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ فَضَّلَهُمُ اللهُ بالرِّزْقِ الواسع، وعِنْدَهُ أَرْقَاءُ عَبيدٌ لَهُ يَمْلِكُ رِقَابَهُمْ، لَا يَقْبَلُ وَلَا يَرْضَىٰ بِأَنْ يُرَدَّ مَا يَمْلِكُ مِنْ رِزْقِ اللهِ عَلَى عَبِيدِهِ وأَرِقَائِهِ حَتَّىٰ يَكُونُوا مَعَهُ مُتَساوِينَ شُرَكَاءه.

فَكَيْفَ تَدَّعُونَ مَا هُو أَشَدُّ من هـٰذَا لِرَبِّكُمْ أَيُّهَا المشركون؟!!.

• ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾:

هَـٰذِهِ مُعْتَرِضَةٌ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ تَقْدِيمِ دَلِيلٍ إِقْنَاعِيٍّ لِإِبْطَالِ مَقُولَاتِ المشركين، وَيَرْجِعُ الْبَيَانُ متَّصِلاً بِما قَبْلَهَا. فيقول اللهُ تَعَالَىٰ:

• ﴿... أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾:

أي: وَاللهُ هُوَ الَّذِي يَرْزُقُ الْعِبَادَ وَيُفَضِّلُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ في الرِّزْقِ، وَالشَّاكُونَ في هَـٰذِهِ الحقيقة يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَكْسِبُونَ أَرْزَاقَهُمْ بِمَهَارَاتِهِمْ وَعِلْمٍ عِنْدَهُم، والمشْرِكُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ لِآلِهَتِهِمْ تَأْثِيراتٍ غَيْبِيَّةً فِي

أَرْزَاقِهِمْ، وَهٰذَا مِنْ هَؤلَاءِ وَمِنَ هٰؤلَاءِ جُحُودٌ بِنِعْمَةِ اللهِ رَبِّهِمْ عليهم.

الاسْتِفْهَامِ فِي هَـٰذِهِ العبارَة لِلتَّوْبِيخ والتَّقْرِيعِ والتَّلْويم، إِذْ أَدِلَّة رُبُوبِيَّةِ اللهِ لِكَوْنِهِ، وَأَنَّهُ الخالِقُ الرازِقُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ، ظَاهِرَةٌ لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ سليم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ آياتِهِ فِي خَلْقِ النَّاسِ وَبَعْضَ نِعَمِهِ عليهم فِي خِطَاب مُبَاشِرٍ لهم:

• ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾: يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهٰذَا النَّاسَ جَمِيعاً.

أَزْواجاً: أَيْ: قَرِينَاتٍ مِنَ النِّسَاءِ تَنكِحُوهُنَّ عَلَىٰ وَفْقِ شَرْعِ اللهِ.

مِنْ أَنْفُسِكُمْ: لَقَدْ خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حَوَّاءَ مِنْ ضِلَعِ آدَمَ، فَهِي مُشْتَقَّةٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَبِمَا أَنَّ الْبَشَرَ أَنْسَالٌ مِن آدمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فالنِّسَاءُ مِنْ أَنْفُسِ بَنِي آدم، لِأَنَّهُمْ جَمِيعاً مُشْتَقُّونَ مِنْ نَفْسٍ واحِدَة.

وفي كَوْنِ النِّسَاءِ مِنْ أَنْفُسِ الرِّجَالِ حِكْمَةٌ تَلَاؤمِيَّةٌ عَظِيمة، وَهِيَ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ.

• ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: أي: وَجَعَلَ لَكُمْ ضِمْنَ نِظامِ التَّنَاسُلِ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ مِنَ النِّسَاءِ بَنِينَ، أي: وبنات، وحَفَدَة.

وَحَفَدَة: الراجِحُ أَنَّ المرادَ بالْحَفَدَةِ أَوْلَادُ الأَوْلَاد، ومُفْرَدُهُ «حَافِد».

• ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: أيْ: وَرَزَقَكُمْ فِي حَيَواتِكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ فيها فِي رِحْلَةِ امْتِحَانٍ، مِنْ بَعْضِ الطَّيِّبَاتِ، وادَّخَرَ سَائِرَ الطَّيِّبَاتِ المثْلَىٰ لِجَنَّاتِ النَّعيم يَوْمَ الدِّين.

فالمآكِلُ والْمَشَارِبُ والْمَلَابِسُ والْمَسَاكِنُ والْمَنَاكِحُ وَسَائِرُ مَا يَطِيبُ ويَلَذُّ لِلإِنْسَانِ هُوَ مِنَ الطَّيِّبَات.

وبما أنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ هِيَ الَّتِي تَرْزُقُهُمْ، وَبِمَا أَنَّ السَّبَبِيّين يَجْعَلُون كُلَّ مَا يَنَالُونَهُ مِنْ نِعَم اللهِ هُوَ مِنْ تَأْثِيرِ الْأَسْبَابِ تَأْثِيراً ذَاتِيّاً، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ فِي آخِرِ الْآيَةِ مُؤَنِّباً وَمُوَبِّخاً بأسْلُوب الاسْتِفْهَام:

• ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

أيْ: أَنْطَمَسَتْ بَصَائِرُهُمْ عَنْ إدْرَاكِ الْحَقِيقَةِ الْجَلِيَّةِ فِي الْوُجُودِ، فَهُمْ بِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ، فَيَجْعَلُونَ مَالِلَّهِ لِشُرَكَائهِمْ الباطِلَة، أَوْ لِلْأَسْبَابِ تَارِكِينَ مُسَبِّبَها، وَبِنِعْمَةِ اللهِ الدَّائِمَةِ عَلَيْهِمْ هُمْ يَكْفُرُونَ؟!!.

الاستفهامُ تأنِيبيٌّ تَوْبِيخِيٌّ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَهُمْ آلِهَةٌ يَعْبُدُونَها، وللمشْرِكِينَ السَّبَبِيّينِ، الَّذِينَ يَتَشَبَّثُونَ بِظَوَاهِرِ الْأَسْبَابِ، وَيَنْسَوْنَ مُسَبِّبَهَا الْأَزَلِيَّ الْأَبَدِيّ.

والفاء تعْطِف عَلَىٰ مطويّ جاء في التدبُّر تقديره.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس السابع عشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٢١)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثامن عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٧٣ ـ ٧٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا

فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦)﴾:

القراءات:

(٧٦) • قرأ قَالُونُ، وأبو عمرو، والكِسَائي، وأبو جَعْفَر: **[وَهْوَ]** بإسْكان الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَهُوَ]** بضَمّ الهاء.

وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبيان.

تَمْهيد:

فِي آيات هـٰذَا الدَّرْسِ مَعالَجَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ بِحُجَجٍ إقْنَاعِيَّةٍ تُلَامِسُ نُفُوسَهُمْ وَمَشَاعِرَهُمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ المشركِين:

• ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣)﴾:

أي: ويَعْبَدُ المشرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَعْبُودَاتٍ، لَا تَمْلِكُ لَهُمْ أَنْ تُقَدِّمَ مِنْ أَجْل حَيَواتِهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً مِنَ الرِّزْق، لَا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَلَا مِنَ الْأَرْض، لِأَنَّهَا لَا تَخْلُقُ شَيْئاً فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ حَتَّىٰ تَمْلِكَهُ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْلِكَ شَيْئاً مِنْ خَلْقِ اللهِ إِلَّا بِإذْنِهِ وتَمْلِيكه.

أَمَّا الْأَوْثَانُ فَظَاهِرٌ أَنَّهَا لَا تَمْلِكُ شَيْئاً، لِأَنَّهَا عَدِيمَةُ الْحَيَاةِ، وَأَمَّا مَا

تَرْمُزُ إِلَيْهِ الْأَوْثَانَ مِنْ أَمْوَاتٍ، فَهُمْ مَيِّتُونَ لَا يَمْلِكُونَ لِلْأَحْيَاء شَيْئاً، وَأَمَّا مَا تَرْمُزُ إِلَيْهِ مِنْ أَحْيَاءٍ فَهُمْ مَمْنُوعُونَ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ عَنْ إِعَانَةِ عَابِدِيهِمْ، إِذَا كَانُوا مِنَ الْجِنّ أو الشَّيَاطِين، وَلَا يَفْعَلُونَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ إِذَا كَانُوا مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ مِنْ عباد اللهِ الصَّالِحِين، بَلْ يَتَبَرَّؤُونَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ لَهم، وَيُعَادُونَهُمْ.

﴿شَيْئًا﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿رِزْقًا﴾ أي: مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً شيئاً مَهْمَا قَلّ، وأُخِّرَ هٰذَا الْبَدَلُ لإتْمَامِ بَيَانِ أَنَّ هٰذِهِ الْآلِهَةِ لَا تَمْلِكُ لِعَابِدِيهَا رِزْقاً لَا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَلَا مِنَ الْأَرْضِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ الْحَدِيثَ عَنِ المشْرِكِينَ مُخَاطِباً لَهُمْ:

• ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: فَلَا تَصْنَعُوا يَا أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ بِأَوْهَامِكُمْ وَتَخَيُّلَاتِكُمْ الَّتِي لَا أَسَاسَ لَهَا مِنَ الْوَاقِعِ وَلَا سَنَدَ لَهَا مِنْ عِلْم للهِ الْأَزَلِيّ الْأَبَدِيِّ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا فِيهما وَمَنْ فيهما رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْأَمْثَالِ وَالْأَشْبَاهَ، وَلَا تَقِيسُوا عَلَيْهَا آلِهَتَكُمْ، وَلَا تَصْنَعُوا لِهٰذِهِ الْآلِهَةِ رُمُوزاً مِنْ أَوْثَانِكُمُ الحقِيرَةِ الَّتِي لَا تَكُونُ مِنْ ذَوِي عَقْلٍ وَرُشْدٍ وحِكْمَةٍ، فَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ ذَاتِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وَلَا تَعْلَمُونَ مَبْلَغَ صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَةِ، فَلَا تَقْدُرُونَهُ حَقَّ قَدْرِهِ.

والْتَزِمُوا بِمَا جَاءَكُم عَنِ اللهِ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ بالنِّسْبَةِ إلى ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ حَقِيقَةَ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فَاطْرَحُوا عَنْ تَصَوُّرَاتِكُمْ وَمُخَيِّلَاتِهِمْ كُلَّ مَا تَتَوهَّمُونَ عَنِ اللهِ رَبِّ العالمين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيث عَنِ الْمُشْرِكِينَ بأسْلُوبٍ إِقْنَاعِيّ تَعْلِيماً لداعي الحقّ:

• ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

هٰذَا مَثَلٌ في تعليم جَدَلِي يُنَاظِرُ بِهِ دَاعِي الْحَقِّ الْمُشْرِكِينَ بِشَأْنِ آلِهَتِهِمُ الْبَاطِلَة.

هَلْ يَسْتَوِي الْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ يَتَصَرَّفُ بِهِ، وَلَا يَمْلِكُ شيئاً يُنْفِقُ مِنْهُ في السِّرِّ أَوْ في الْعَلَنِ، مَعَ مَالِكِهِ ذِي الرِّزْقِ الْوَاسِعِ الْحَسَنِ، وَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وجَهْراً؟؟

إِنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ بالْبَدَاهَةِ.

وكَذَلِكَ كُلُّ الْعَبِيدِ الْمُمَاثِلِينَ لِهٰذَا الْعَبْدِ، لَا يَسْتَوُونَ مَعَ مَالِكِيهِمْ الْمُمَاثِلِينَ لِهٰذَا الْمَالِكِ، فَالْقَضِيَّةُ كُلِّيَّةٌ لَا شُذُوذَ فِيها.

إِذَنْ. فَكَيْفَ تُسَوُّونَ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ عِبَادَ اللهِ الْمَمْلُوكِين لَهُ، الَّذِينَ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا باللهِ، وَلَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً يَتَصَرَّفُونَ بِهِ بِأَنْفُسِهِمْ دُونَ تَقْدِيرٍ مِنَ اللهِ وَقَضَاء، كَيْفَ تُسَوُّونَهُمْ باللهِ خالِقِهِمْ وَالْمُهَيْمِنِ عَلَيْهِمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنْتُمْ لَا تَقْبَلُونَ فِي مَفَاهِيمِكُمُ الْبَشَرِيَّة مَا هو دُونَ ذَلِكَ بِكَثِير، بَيْنَ الْعَبِيدِ الْمَمْلُوكِين، وَالسَّادَةِ الْمَالِكِينَ، مَعَ أَنَّ أَشْخَاصَ بَعْضِ الْعَبِيد قَدْ تَكُونُ صِفَاتُهُمْ أَفْضَلَ مِنْ سَادَاتِهِمْ.

كَيْفَ تُسَوُّونَ عِبَادَ اللهِ باللهِ، فَتَتخِذُونَ مِنْهُمْ أَرْبَاباً وآلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ للهِ، وَهٰؤُلَاءِ الْعِبَادُ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً.

حُجَّةٌ إِقْنَاعِيَّةٌ لَيْس لَدَىٰ المشْرِكينَ دَفْعٌ لَها، وَلَا قُدْرَةٌ عَلَىٰ الْجِدَالِ بِشَأْنِها.

وَهُنَا يَقُولُ مُنَاظِرُ المشْرِكِينَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: الْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ الانْتِصَارِ بِحُجَّةِ اللهِ الْبَالِغَة.

﴿... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾: أي: فَهَلْ يَنْتَفِعُ الْمُشْرِكُونَ بِهٰذَا الدَّلِيلِ، فَيَنْبِذُوا الشِّرْكَ وَمَفَاهِيمَهُ الْبَاطِلَة؟. الجواب: لَا بَلْ أَكْثَرُهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ أَنْ يَعْلَمُوا الْحَقَّ، لِأَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّبِعُوهُ وَيَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاه مُخَالِفِينَ أَهْوَاءَهُمْ وشهواتِهِم وَوَلَاءَاتِهِم الْعَمْيَاء.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيثَ عن المشركين بأسْلُوبٍ إقْنَاعِيٍّ تَعْلِيماً جَدَلِيًّا لِدَاعِي الحق:

• ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾:

هٰذَا مَثَلٌ آخَرُ في تَعْلِيم جَدَلِيٍّ لِدَاعِي الْحَقِّ يُنَاظِرُ بِهِ المشْرِكِينَ بِشَأْنِ آلِهَتِهِم الْبَاطِلَة، وَيَظْهَرُ أَنَّ هٰذَا الْمَثَلَ يُقْصَدُ بِهِ إسْقَاطُ الْأَوْثَانِ الَّتِي يَعْبُدُهَا المشْرِكُونَ مِنْ كُلِّ اعْتِبَارٍ، لِأَنَّهَا لَا تَنْطِقُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَىٰ شيءٍ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَحَرَّكَ بأنْفسِهَا، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْفَعَ عَنْ أَنْفُسِهَا ضُرّاً وَلَا أذىٰ، وَلَا تَكْسِيراً وَتَحْطِيماً، وَقَدْ جَاءَ الْمَثَلُ مُخَفَّفاً.

إِنَّهُمَا رَجُلَانِ لَا يُوجَدُ عَاقِلٌ يَحْكُمُ بِتَسَاوِيهِما.

أَمَّا أَحَدُهُمَا فَهُوَ:

(١) أَبْكَمُ لَا يَنْطِقُ بِكَلِمَة.

(٢) وَعَاجِزٌ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ شيئاً.

(٣) وَكَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاه، أَيْ: لَا يَقُومُ لِنَفْسِهِ بشيء، بَلْ يَقُومُ لَهُ بِحَاجَاتِهِ مُتَوَلِّي أُمُورِهِ، حَتَّىٰ الْغُبَارُ لَا يَسْتَطِيعَ أَنْ يَمْسَحَهُ عَنْ جَسَدِه.

(٤) أَيْنَمَا وَجَّهْتَهُ لِعَمَلٍ مَا لَآيَاتِ بِخَيْر.

وَأَمَّا الْأَخَرُ فَهُوَ:

(١) عَالِمٌ عَاقِلٌ رَشِيدٌ مِنْطِيقٌ، يَأْمُرُ بالْعَدْلِ.

(٢) ذُو سُلُوكٍ فِي الْحَيَاةِ مُتَفَوِّقِ الْفَضْلِ، يَسِيرُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقيم.

هَلْ يَسْتَوِي هٰذَان الرَّجُلَانِ في مَفَاهِيمِكُمْ أيُّهَا المشْرِكُونَ؟

إِنَّكُمْ لَا بُدَّ أَنْ تَقُولُوا: لَا يَسْتَوِيَان، إِذَنْ فَكَيْفَ تُسَوُّونَ فِي الْإِلَٰهِيَّةِ بَيْنَ أَوْثَانِكُمْ الْجَامِدَةِ الَّتِي لَا يُرْجَىٰ خَيْرٌ مِنْهَا، وَلَا يُخْشَىٰ ضُرٌّ مِنْهَا وَبَيْنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ خَالِقِ الكَوْنِ والمتَصَرِّفِ بِكُلِّ شيءٍ فِيهِ والمحيط بكُلِّ شيءٍ علماً.

وبهٰذَا انْتَهىٰ تَدَبُّر الدّرس من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٢٢)
التدبُّر التحليلي للدّرس التاسع عشر من دُروس سورة (النحل) الآيتان (٧٧) و(٧٨)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

القراءات:

(٧٨) • قرأ حمزة: [مِنْ بُطُونِ إِمِّهاتِكُمْ] بِكَسْرِ الهمزة والْمِيم المشَدَّدَةِ فِي حَالَة الوصْل بِبُطُون.

وقرأ الكِسَائي: [إِمَّهَاتِكُمْ] بِكَسْر الهمزة وفَتْحِ الميم المشدّدة في حَالَةِ الوصل أيضاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أُمَّهَاتِكُمْ] بِضَمّ الْهَمْزَةِ وَفَتْح الميم المشدّدة في حالَةِ الوصْلِ وعَدَمِهِ.

تَمْهِيد:

في آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ شُمُولِ عِلْمِ اللهِ كُلَّ شيءٍ، ومِنْهُ أَمْرُ وَقْتِ قيامِ السَّاعَة.

أَمَّا الناسُ فَقَدْ أَخْرَجَهُمُ اللهُ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شيئاً، وَمَنَحَهُمْ وَسَائِلَ اكتِسَابِ الْعِلْمِ والْمَعْرِفَةِ بِقَدَر، رَغبَةً فِي أَنْ يَشْكُرُوا رَبَّهُمْ عَلَىٰ مَا وَهَبَهُمْ فِي حَيَوَاتِهِمْ مِنْ نِعَم.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾:

العالَمُ يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْن:

الْقِسْمُ الأول: عالَمُ شَهادَة، أي: قَابِلٌ لِأَنْ يَشْهَدَهُ وَلَوْ بَعْضُ الْكَائِنَاتِ القادِرَاتِ عَلَىٰ شَهَادَة شيءٍ مَا بِإِدْرَاكِهِ وَالإحْسَاسِ بِوُجُودِ، وَإِذَا جَعَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ ذَوَاتِ الإِدْرَاكِ والإِحْسَاسِ تَشْهَدُ شيئاً مَا فِي كَوْنِهِ، فَهُوَ مَشْهُودٌ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ بداهَةً.

الْقِسْمُ الثَّانِي: عَالَمُ غَيْبِ، أي: غَيْرُ قَابِلٍ لِأَنْ يَشْهَدَهُ أَحَدٌ مِمَّنْ خَلَقَ اللهُ أَوْ مِمَّا خَلَقَ الله.

الْغَيْبُ: كُلُّ مَا غَابَ عَنْ إدْرَاكِ الْكَائِنَاتِ اللَّوَاتِي لَهَا قُدْرَاتٌ عَلَىٰ إدْرَاكِ شَيْءٍ ما، بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ.

وَالْغَيْبُ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ والْعِلْم بِهِ مِنْ خَصَائِصِ عِلْمِ اللهِ وَحْدَهُ، لَا يُشَارِكُهُ فِي الْعِلْمِ بِهِ أَحَدٌ، وَبِهٰذَا نَفْهَمُ قَوْلَ اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وللهِ وَحْدَهُ عِلْمُ كُلِّ غَيْب السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، فَمِنْ خَصَائِصِ عِلْمِ اللهِ عِلْمُ كُلِّ الْغَيْبِ، الَّذِي لَا يُدْرِكُ أَحَدٌ غَيْرُ اللهِ عِلْمَ شيءٍ مِنْه.

وَمِمَّا هُوَ غَيْبٌ لَمْ يُعْلِم اللهُ بِهِ أَحداً مِنْ خَلْقِهِ، مَلَكاً وَلَا رَسُولاً، وَلَا غَيْرَهُمَا، عِلْمُ وَقْتِ قِيَام سَاعَةِ إِنْهَاءِ الحياة الدُّنْيا وإِنْهاءِ نِظَامِ الْكَوْنِ، تَمْهِيداً لِلْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ، وَنِظَامِ الحياة الأُخْرَىٰ، وَقَد جاء بيانُ هٰذَا فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ سَبَقَتْ فِي نُجُومِ تَنْزِيل الْقُرآنِ المجيد.

وجاء في هٰذِهِ الآيَةِ إضافَةُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾:

أي: وَمَا أَمْرُ أَحداثِ السَّاعَةِ الَّتِي فِيها تَدْمِيرُ ظُرُوف حَيَاةِ الابْتلاء كُلِّها، بِكُلِّ مَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنْ كَائناتٍ بالنِّسْبَةِ إلى الزَّمَنِ الَّذِي تتحَقَّقُ فِيهِ، إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصْر.

لَمْحُ الْبَصَرِ: هُو النَّظْرَةُ السَّرِيعَةُ الَّتِي يَرَىٰ فِيهَا المبصِرُ شيئاً ما.

• ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾: أي: أَوْ هُوَ أَقْرَبُ مِنْ مَسَافَةِ زَمَنِ لَمْحِ الْبَصرِ، فإذا كَانَ لَمْحُ الْبَصَرِ يَكُونُ في ثَانِيَةٍ، فَإِنَّ أَحْدَاثَ قِيامِ السَّاعَةِ تَكُونُ فِي جُزْءٍ مِنَ الثَّانِيَة.

• ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾: أي: إِنَّ اللهَ عَـزَّ وَجَـلَّ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ يَشَاؤُهُ عَظِيمُ الْقُدْرَةِ، وَلَوْ كَانَ إِحْدَاثَ كَوْنٍ مِثْلِ هٰذَا الْكَوْنِ أَوْ أَعْظَمَ مِنْهُ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً للنَّاسِ بِشَأْنِ اكتِسَابِهِم لِلْعِلم الَّذِي لم يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنْهُ شيء:

• ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

خَلَق اللهُ عَزَّ وَجلَّ كُلَّ إنْسَانٍ في بَطْنِ أُمِّهِ وَجِهَازُ الْعِلْم والْمَعْرِفَةِ عِنْدَهُ خَالٍ مِن عِلْمِ أيّ شيء، وَهَكَذَا نِظَامُ خَلْقِ النَّاسِ حَتَّىٰ آخِرِ مَخْلُوقٍ مِنْ بَنِي آدمَ فِي الحياة الدُّنيا، ويَسْتَمِرُّ هَكَذَا حَتَّىٰ يُولَدَ وَيُحرُجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ بِأَلْطَافِ الله وعِنَايَتِهِ وَتَدْبِيره.

وَقَدْ زَوَّدَ اللهُ الإنْسَانَ بِأَدَوَاتِ اكْتِسَابِ الْمَعْرِفَةِ فِي جَسدِهِ، وهِيَ تَبْدأ بالْعَمَلِ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ.

وفِي مُقَدِّمَةِ هَـٰذِهِ الْأَجْهِزَةِ السَّمْع، وبَعْدَهُ الْأَبْصَار ثُمَّ الْفُؤَادُ الْعَامِلُ فِي دَاخِلِ الإنْسَانِ بالتَّمْييز، والتَّحْلِيلِ والتَّرْكِيب، وربْطِ الْعِلَلِ بِمَعْلُولَاتِهَا، والْأَسْبَابِ بِمُسَبَّبَاتِهَا، وَقِيَاسِ الْأَشْبَاهِ والنَّظَائِرِ عَلَىٰ بَعْضِهَا، واسْتِخْرَاجِ الْكُلِّيَّاتِ مِن اسْتِقراء الْجُزْئيات، وَهـٰذَا الْفُؤادُ يَنْطَبِقُ عَلَىٰ جِهَازِ التَّفْكِيرِ والْفَهْمِ والْعَقْلِ.

أَمَّا السَّمْعُ فَهُوَ أَوَّلُ أَدوَاتِ الاتِّصَالِ بِالْعَالَم الْخَارِجِيّ حَوْلَ الْوَلِيد، والمسْمُوعَات تَأْتِي إِلَىٰ الْأُذُنِ مِنْ كُلِّ مُحِيطِ الْكُرَةِ الْهَوَائِيَّة حَوْلَهَا، وَلَعَلَّ هـٰذَا مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي دَعَتْ إِلَىٰ ذِكْرِهِ فِي البيان الْقُرْآنِيّ مُفْرداً، لَا مَجْمُوعاً.

وَأَمَّا الْبَصَرُ فَهُو ثَانِي الأَدَوَاتِ الْفُضْلَىٰ للاتِّصَالِ بالْعَالَم الْخَارِجي، حَوْلَ الْوَلِيد، والْمُبْصَرَاتُ لَا تَأْتِي إِلَىٰ الْعَيْنِ مِنْ كُلِّ مُحِيطِ الْكُرَةِ الْهَوَائِيَّةِ حَوْلَ مَوْضِعَها مِنَ الرَّأْسِ، بَلْ تَأْتِي مُجَزَّأَةٍ بِحَسَبِ اتِّجَاهِ الْعَيْن، ولعَلَّ هـٰذَا مِنَ الأَسْبَابِ الَّتِي دَعَتْ إلى ذِكْرِ الْبَصَرِ في الْبَيَانِ الْقُرْآنِيّ مَجْمُوعاً.

وأمَّا الْأَفْئِدَةُ فَهِيَ ثَالِثُ الْأَدَوَاتِ الْعَامِلَةِ لِاسْتِقْبَالِ صُورَ الْعَالَمِ مِنْ خَارِجِ النَّفْسِ وَدَاخِلِها، والاحْتِفَاظِ بها، والتمييز بيْنَها، وتَحْلِيلِها وَتَرْكِيبها،

ورَبْطِ الْعِلَلِ بِمَعْلُولَاتها، والْأَسْبَابِ بِمُسَبَّباتها، وقياسِ الْأَشْبَاهِ والنَّظَائِرِ عَلَىٰ بَعْضِها، واسْتِنْبَاطِ الأَحْكَام عَلَىٰ بَعْضِ الْأَشْياء، واسْتِخْرَاجِ الْكُلِّيَّاتِ مِن اسْتِقْرَاءِ الْجُزْئِيَّاتِ، ولَعَلَّهَا فِي دَاخِلِ الذِّهْنِ فُصُوصٌ مُتخصِّصَةٌ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا ذُو وَظِيفَةٍ هُوَ مُتَخَصِّصٌ فيها، ولَعَلَّ هٰذَا من الْأَسْبَابِ الَّتِي دَعَتْ إِلَىٰ ذِكْرِ الْفُؤَادِ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ مَجْمُوعاً بِلَفْظِ الْأَفْئِدَة الموجُودَةِ في الدِّمَاغ.

قَوْلُ اللهَ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ الْآيَة: ﴿... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾: أي: وَجَعَلَ اللهُ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والْأَفْئِدَةِ رَغْبَةً فِي أَنْ تَشْكُرُوا بالإيمان، والْإِسْلَام، والْعَمَلِ الصَّالِحِ، حَتَّىٰ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِ جَنَّاتِ النّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس التاسع عشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٢٣)
التدبُّر التحليلي للدّرس العشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٧٩ ـ ٨٣)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٧٩ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم

بِأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

القراءات:

(٧٩) • قرأ ابْنُ عَامر، وحمزة، ويعقوب، وخلف: [**أَلَمْ تَرَوْا**] بتاء الخطاب.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَلَمْ يَرَوْا**] بياء الغيبة.

وبَيْنِ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الْأَدَاءِ البياني.

(٨٠) • قرأ ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [**بُيُوتِكُمْ**] بضمّ الباء. وكذا: [**بُيُوتاً**].

وقَرأَهُما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بِيُوتِكُمْ**] و[**بِيُوتاً**] بكَسْرِ الباء.

(٨٠) • قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأَبُو جَعْفر، ويَعْقُوب: [**ظَعَنِكُمْ**] بفتح العَين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**ظَعْنِكُمْ**] بإسْكَان العين.

الظّعَنُ. والظَّعْنُ: بفتح الْعَيْن وإسْكانها السَّفر.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَوْدٌ إِلَىٰ عَرْضِ بعض آيَاتِ اللهِ في كونه، وبَعْضِ نِعَمه عَلَىٰ النّاس، وَتَوصِيَةٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُوله بأَنَّهُ لَيْسَ مَسْؤولاً عِنْدَ رَبِّهِ إِلَّا عَنِ الْبَلَاغِ المبين.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً مِنْ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ آيَةَ الطّيرِ الَّتِي تَطِيرُ فِي جَوِّ السَّماء.

• ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

الطَّيْرُ: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «الطَّائر».

التَّسْخِيرُ: جَعْلُ الشَّيْءِ مُطَاوِعاً لِمَا يُرَادُ مِنْهُ ضِمْنَ قَانون تَسْخيره.

الْجَوُّ: الْفَضَاء بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْض.

الطَّيْر مِنْ عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُسَاكِنَةِ للنَّاسِ في الْأَرْض، وقد ذكر عُلَمَاءُ الْأَحْيَاءِ أَنَّهُ يُوجَدُ نحو «٩٣٠٠» نوعٍ مِنَ الطَّيْر، وأَصْغَرُها طائر النَّحْلِ الطَّنَّان الَّذِي يَصِلُ طُولُهُ إِلَىٰ نَحو خَمْسة سنتيمتر، وأَكْبَرُها النَّعَامُ، الَّذِي يَصِلُ ارتفاعُهُ إلى حوالي (٢,٥م).

وأَشْكالُ الطُّيُورِ وأَلْوَانُها وَرُسُومَاتُها وَسُلُوكُ كُلِّ نَوعٍ مِنها، ووظَائِفُهُ النَّفْعِيَّةُ مِنَ العجائب الْمُدْهِشَةِ، وَيَكَادُ أَصْحَابُ الذَّوْقِ الرفيع لَا يَمَلُّونَ مِنْ مُتَابَعَةِ مُشَاهَدَتِها، وَلَا سيما إِذَا جُمِعَتْ أنواعٌ مِنْهَا كثيرةٌ فِي حَدِيقَةِ الطُّيُور.

إِنَّ تَقْلِيب الصَّفَحَاتِ الجامِعَاتِ لِكَثِيرٍ مِنْ رُسُومَاتِ كثير من أَنْواعِهَا، يَسْتَأْثِرُ بِإِعْجَابِ النفوس إِلَىٰ حَدِّ الدَّهْشَة، فَكَيْفَ بها إذا كانَتْ حَيَّةً تُمَارِسُ أَنْواعَ سُلُوكَهَا بِحُرِّيَّةٍ تَامَّة.

وكثير مِنَ الطُّيور ولَهَا أَصْوَاتٌ جَمِيلَةٌ تُحِبُ النُّفُوسُ الاسْتِمَاعَ إليها، وَلَا سِيمَا الْمُغرِّدَة.

المعنى: أَلَمْ يَرَ الْغَافِلُونَ عَنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، والْجَهَلَةُ المشْرِكُونَ، نَاظِرِينَ بأَعْيُنِهِمْ إِلَىٰ أنواع الطُّيُور وأَصْنَافِهَا وأَنواعِ سُلُوكِهَا، أَلَمْ يَرَوْا مُشَاهِدِينَ طَيَرَانَهَا مُسَخَّرَاتٍ لِإمْتَاعِ النَّاسِ وَمَنافِعِهِمْ بتَسْخِيرِ اللهِ الرَّبِّ الْجَلِيلِ العظيم لها.

مَا يُمْسِكُهُنَّ في جَوِّ السَّمَاءِ إِلَّا اللهُ الَّذِي جَعَلَ في نِظَامِ خَلْقِهَا

الْأَجْنِحَة، الّتِي هي من الرِّيشِ الّذِي يُسَهِّلَ حَمْلَ الْهَوَاءِ لها، وَيَسْهُلُ عَلَيْهَا تَحْرِيكُهَا وَبَسْطُها وَقَبْضُها، وجَعَلَ فِي الْهَوَاء قُدْرَة حَمْلِ الْأَشْيَاءِ ضِمْنَ نِظَامٍ مُعَيَّن، ويصاحِبُ كُلَّ ذَلِكَ خَلْقُ اللهِ وعِنَايَتُهُ.

وخَتَمَ اللهُ الآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

أي: إنَّ فِي الطُّيُور وطَيَرَانِهَا والْجَوِّ الَّذِي تَطِيرُ فِيهِ، لَآيَاتِ كَثِيراتٍ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عَظِيم صِفَاتِ الرَّبِّ الْخَالِقِ، وإتْقَانِ صُنْعِهِ، وإِبْدَاعِهِ لِمَا خَلَقَ، يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا وَيَنْتَفِعُ بِهَا في الإيمان، والإسلام، وَصَالِحِ الْعَمَل، الْقَوْمُ الَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا بِالْحَقِّ، ويَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ نِعَمِهِ عَلَىٰ النَّاسِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا:

● ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾:

يُخَاطِبُ الله عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ وأَهْلَ الْبَوَادِي مُمْتَنًّا عَلَيْهِم، بِالْبُيُوتِ الَّتِي أَقْدَرَهُمْ عَلَىٰ بَنَائِهَا وَسُكْنَاهَا آمِنِينَ، وعلى أَنْ هَيَّأَ لَهُم أَنْ يَصْنَعُوا مِنْ جُلُودِ الأنْعَامِ بُيُوتاً صَالِحَةً لِلْحَمْلِ والنَّقْلِ إِلَىٰ أمْكِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، تَتوافَرُ فِيهَا حَاجَاتُهُمْ، وَحَاجَات أَنْعَامِهِمْ وَدَوَابِّهِم.

ويُخَاطِبُهُمْ مُمْتَنًّا عَلَيْهِم بأَنْ دَبَّرَ لَهُمْ فِي خُطَّةِ الْخَلْقِ، وَهَيَّأَ لَهُمْ مِمَّا تُنْتِجُهُ جُلُودُ الْأَنْعَام مِنْ أَصْوَافٍ يَقُصُّونَها مِنَ الضّأْنِ من الْأَغْنَام، وَأَوْبَارٍ يَجْمَعُونَهَا مِنْ جُلُودِ الْإِبل، وَأَشْعَارٍ يقُصُّونَهَا مِنَ المعْزِ من الْأَغْنَام، وَيَصْنَعُونَ مِنْ ذَلِكَ أَثَاثاً لِبُيُوتِهم، وَمَتَاعاً يَسْتَمْتِعُونَ بِهِ إِلَىٰ حِينِ بِلَاهُ، وهٰذَا الْمَتَاعُ يَشْمَلُ الثِّيَابَ والْحِبَالَ وَسَائِرَ مَا يُصْنَعُ مِنْ خُيُوطِ الْأَصْوَافِ والْأَوْبَارِ والْأَشْعَار.

الْأثاث: جمعٌ مُفْرَدُه «أَثَاثَة» والْأَثَاثُ يُطْلَقُ عَلَىٰ مَتَاعِ الْبَيْتِ الَّذِي يُفْرَشُ فيه، أَوْ يُتَّخذُ فِيهِ لِلْجُلُوسِ، والنَّوْم، والزينة، وعَلَىٰ أَدَوَاتِ المطَاعِم والمشَارِبِ وَسَائِرِ الحاجات، ويُطْلَقُ أَيْضاً عَلَىٰ الْأَمْوَالِ الثَّابِتَةِ الَّتِي لَا تُنْقَلُ، وعَلَىٰ الأمْوَالِ المتحَرِّكة الَّتِي تُنْقَل.

تَسْتَخِفُّونَها أي: تَجِدُونَها خَفِيفَةً فِي الْحَمْلِ حِينَمَا تَنْتَقِلُونَ مِنْ سُكْنَىٰ أَرْضٍ إِلَىٰ سُكْنَىٰ أَرْضٍ أُخْرَىٰ أَصْلَحَ لِمَنَافِعِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي انْتَقَلْتُمْ مِنْها.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾: أي: يَوْمَ سَفَرِكُمْ إِذْ تَحمِلُونَها مَعَكُمْ، وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ إِذْ تُحِبُّونَ أَنْ تَبَدِّلُوا أَمْكِنَتَهَا إِلَىٰ أَمْكِنَةٍ قَرِيبةٍ أَحْسَنَ مَوْقِعاً أَوْ أَكْثَرَ رَاحَةً وَنَفْعاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابِعاً بَيَانَ بَعْضِ نِعَمِهِ علىٰ النّاسِ مُخاطِباً لهم:

• ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

ظِلَالاً: جَمْعٌ فَرْدُهُ «ظِلّ».

أَكْنَاناً: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «كِنٌّ» وهو كُلّ مَا يَرُدُّ الْحَرَّ والْبَرْدَ من الْأَبنِيَةِ والمغارَاتِ ونَحْوِهَا.

سَرَابِيلَ: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «سِرْبَال» الْقَمِيصُ، وكُلُّ مَا يُلْبَسُ، والدِّرْعُ.

• ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾: أي: ثِيَاباً تَقِيكُمْ أَذَىٰ الْحَرِّ، وتَقِيكُمْ أَيْضاً أَذَىٰ الْبَرْدِ، فَدَرَجَةُ الْحَرَارَة، إِذَا ارْتَفَعَتْ كَانَتْ حَرًّا، وإذا نَزَلَتْ كَانَتْ بَرْداً.

• ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْۚ﴾: أي: دُرُوعاً تَقِيكُمْ في الْحَرْبِ بَأْسَ بَعْضِكُمْ لِبَعْضَ، فَلَا تَصِلُ السُّيُوفُ والرِّمَاحُ والسِّهَامُ إِلَىٰ جَسَدِ مَنْ يُضْرَبُ بِشَيْءٍ مِنْها. **والبأسُ**: الشِّدَّةُ في الحرب.

وَمِنْ هٰذَا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا يَصْنَعُهُ النَّاسُ هُوَ مِنْ نِعَم اللهِ عَلَيْهِمْ، إِذْ خَلَقَ فِيهِمْ مَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ صُنْعِ مَا يَصْنَعُونَ، وَجَبَلَ الْأَشْيَاءَ بالتَّسْخِيرِ مُطَاوِعَةً لِأَنْ يَصْنَعُوا مِنْهَا وَبِهَا مَا قَدَّرَ اللهُ وَقَضَىٰ أَنْ يَصْنَعُوه.

• ﴿... كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

أي: كذَلِكَ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لَكُمْ فِيمَا مَضَىٰ، سَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ، فَيُمَكِّنُكُمْ مِنْ صُنْعِ أَشْيَاءَ لَا حَصْرَ لَهَا فِي الْعُصُورِ الْقَادِمَةِ بَعْدَ عَصْرِ التَّنْزِيل.

وَهٰذَا مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ صِنَاعَاتٍ مُذْهِلَةٍ بِإِلْهَامِ اللهِ لَهُمْ، وَتَسْهِيلِ وَتَذْلِيلِ المسَخَّرَاتِ في الكَوْنِ لَهُمْ، حَتَّىٰ تَأْخُذُ الأَرْضُ زُخْرُفَها وَتَتَزَيَّنَ وَيَظُنَّ النَّاسُ أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْهَا، عِنْدَئِذٍ يأتي أَمْرُ اللهِ قيام السَّاعة.

• ﴿... لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾: أي: رَغْبَةً فِي أَنْ تُؤْمِنُوا بالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ لَكُمْ فِي كِتَابِهِ، وَفِي أَنْ تُسْلِمُوا مُنْقَادِينَ لَهُ في شرائِعِهِ وأَحْكَامِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ، وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِهِ:

• ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

• ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: أي: فإنْ أدْبَرَ وابْتَعَدَ الَّذِينَ تُبلِّغُهُمْ مَا أَمَرَكَ اللهُ بِتَبْلِيغِهِ مِنْ آيَاتِ كتابِهِ، وَتَعَالِيمِ دِينه، وَأَحْكَام شَرِيعَتِهِ لعباده في حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ.

• ﴿... فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾: أي: فَمَا عَلَيْكَ مِنْ واجِبٍ إِلَّا أَنْ تُبَلِّغَهُمْ بَلاغاً مُبِيناً وَاضحاً مَا أَمَرَكَ اللهُ رَبُّكَ أَنْ تُبَلِّغَهُمْ إِيَّاه، وَلَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُحَوِّلَ أَحَداً مِنْهُمْ مِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الإيمانِ والإسْلَام، إِنَّهُمْ يَتَحَمَّلُونَ مَسْؤُولِيَّاتِ أَنْفُسِهِمْ وَاخْتِيَارَاتِهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهَا.

• ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾: أيْ: إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِم، بِتَأَمُّلَاتِهِمُ الْفِكْرِيَّة، وَبِمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ فِي القرآن الْمَجِيد، وَبِمَا أَبَنْتَ لَهُمْ وَشَرَحْتَ يا مُحَمَّدُ فِي بَيَانَاتِكَ وَتَذْكِيركَ لَهُمْ، وَنُمْهِلُهُمْ كَثِيراً رَغْبَةً فِي أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، لِيُنْقِذُوا أَنفُسَهُمْ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَاب النار يَوْمَ الدِّينِ، ثُمَّ بَعْدَ الإمْهَالِ الطَّوِيلِ يُنْكِرُونَ أَنَّها مِنْ نِعَمِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِم، وَيَنْسبُونَ بَعْضَهَا إِلَىٰ الأَسْبَابِ الماديَّة الكَوْنِية، وَيَنْسبُونَ بَعْضَهَا إِلَىٰ مَهَارَتِهِمْ وَعِلْمِ عِنْدَهم، وَيَنْسبُونَ بَعْضَهَا إِلَىٰ شُرَكَائِهِمُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّهِم.

• ﴿... وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾: أي: وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ عِناداً وَجُحُوداً، الَّذِينَ يَسْتُرُونَ الْحَقَّ بالشُّبُهَاتِ، وَالْأَكَاذِيبِ والْأَبَاطِيل، مع عِلْمِهِمْ أَنَّ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِم.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس العشرين من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٢٤)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الحادي والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات مِنْ (٨٤ ـ ٨٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

القراءات:

(٨٦) • قرأ أبو عمْرو: [**إِلَيْهِمِ الْقَوْلَ**] بكَسْرِ الهاء والميم.

وقرأها حمزة، والكسائيّ، ويَعْقُوبُ، وخَلف: [**إِلَيْهُمُ الْقَوْلَ**] بِضَمِّ الهاء والميم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ**] بكَسْرِ الهاء وضمّ الميم.

وهِي وُجُوهٌ مِنْ وُجُوهِ النُّطْقِ الْعَرَبي.

(٨٩) • قرأ حمزة، ويعقُوب: [**عَلَيْهُمْ**] بضمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**عَلَيْهِمْ**] بِكَسْرِ الْهاء.

تَمْهيد:

في آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرَضُ لَقَطاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيامَة، وأكْثَرُهَا يَتعَلّقُ بِبَعْضِ أَحْوَالِ الْكَافِرِينَ يَوْمَئِذٍ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

أي: وضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلام رَبِّكَ، يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ بَلَّغَهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِ إِلَيْهِم، كَمَا أَمَرَهُ الله، وَهـٰذَا الشَّهِيدُ الأَوَّلُ هُوَ النَّبِيُّ الرَّسُولُ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ إِلَيْهِمْ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ فِي الدُّنْيَا، فَدَلَّ هـٰذَا البيانُ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بالْيَوْمِ فِي الآيَةِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ الْمَوْقِفَ مَوْقِفُ حِسَاب النَّاسِ عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا فِي دُنْيَاهُمْ لِآخِرَتِهِمْ.

وبَعْثُ الشَّهِيدِ النَّبِيّ الرَّسُولِ يَكُونُ بإِخْرَاجِهِ مِنْ زُمْرَةِ الرُّسُلِ، وَإِرْسَالِهِ وإِحْضَارِهِ إِلَىٰ مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّة، لِيُؤَدِّي شَهَادَتَهُ عَلَىٰ أُمَّتِهِ بأَنَّهُ بَلَّغَ الرِّسَالَة، وأَدَّىٰ الأَمَانَة، وَنَصَحَ الأُمَّة، وَلَمْ يُقَصِّرْ فِي تَأْدِيَةِ وَظَائِفِهِ الَّتِي كُلِّفَهَا، وَرُبَّمَا يُقَدِّمُ وَسَائِلَ إِثْبَاتِ ذَلِكَ، إِذْ تُصْحَبُ شَهَادَتُهُ بِصُوَرٍ مُطَابِقَةٍ تَماماً لِمَا قَامَ بِهِ مِنْ وَظَائِفِ رسالَتِهِ، وَتُعْلَنُ عَلَىٰ المشْهُودِ عَلَيْهِمْ، بالصَّوْتِ وَالصُّورَةِ، وَكُلِّ حَرَكَاتِ الْفِكْرِ والنَّفْسِ وَالْمَشَاعِرِ، مع صُوَرِ مَوَاقِفِ المشْهُودِ عَلَيْهِمْ كَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا كَانَ يَتَلَقَّاهُ مِنْ أُمَّتِهِ بِكُلِّ التفاصِيلِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ الدَّقِيقَة.

فإِذَا قَدَّمَ شَهَادَتَهُ مَعَ وَسَائِلِ إِثْبَاتِها، وَقَدَّمَ المؤمِنُونَ بَعْدَهُ شَهَادَاتِهِمْ،

وَلَمْ يَبْقَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَا يَعْتَذِرُونَ بِهِ بِصُورَة جماعِيَّة، يُحاوِل بَعْضُهُمْ أَنْ يَقَدِّمُوا أَعْذَاراً كَاذِبَةً وَاضِحَةَ الكَذِب، فَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ، وَنظراً إلى الْفَاصِلِ الطَّوِيل بَيْنَ تَقْدِيم شَهادَةِ الرَّسُول مع تقديم وَسَائِلِ إِثْبَاتِها، وَتَقْدِيم بَعْضِ المؤْمِنِينَ شَهَادَاتِهِمْ وَهُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ جاء العطف بحرف العطف «ثُمَّ» الَّتِي تَدُلُّ بِالْوَضْعِ اللُّغَوِيِّ على التَّرْتِيب مَعَ التَّرَاخِي، في قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بِأَنْ يَعْتَذِرُوا بأعْذَارٍ كَاذِبَاتٍ، دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا المطويّ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الْمُرْسَلَات/ ٣٣ نزول):

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ في آخِرِ الآيَةِ:

● ﴿... وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾: أي: وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ طَلَبُ رَفْعِ الْعَتْبِ عَنْهُمْ، بَلِ الْجُرْمُ الْعَظِيمُ لَاصِقٌ بِهِمْ وَلَا بُدَّ أَنْ يُعَاقَبُوا عَلَيْهِ خُلُوداً فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ، لِأَنَّهُ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ الْعِنَادِيّ الْجُحُودِي.

يُقَالُ لغة: «اسْتَعْتَبَ الْعَبْدُ الْمُذْنِبُ الْعَاصِي مِنْ سَيِّدِه» أي: طَلَبَ رِضَاه باعْتِرَافٍ أَوْ غَيْرِهِ، لَكِنَّ الَّذِينَ كَفَروا لَا يُسْتَعْتَبُونَ يَوْمَ الحساب، أي: لَا يُسْمَحُ لَهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا رِضَا رَبِّهِمْ عَنْهُمْ بِاعْتِرَافٍ، أَوْ دُعَاءٍ وَتَضَرُّعٍ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ كُفْراً عِنَادِيًّا جُحُودِيًّا، وَمَاتُوا عَلَىٰ كُفْرِهم.

الْعَتْبُ: اللَّوْمُ وَالتَّثْرِيبُ عَلَىٰ الذَّنْب.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً عَرْضَ بَعْضِ لَقَطَاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّين.

● ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

أي: وَإِذَا رَأَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ مَكَانَ عَذَابِهِمْ فِي جَهَنَّمَ،

وَوَسَائِلَ الْعَذَابِ الْمُرْهِبَةِ لِلْقُلُوبِ، مِنْ أَعْظَم مُسْتَوِيَاتِ الرَّهْبَةِ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ مَشَاعِرِ الذُّعْرِ الشَّدِيد، وإِذَا طَلَبُوا تَخْفِيفَ الْعَذَابِ فَلا يُسْتَجَابُ لَهُمْ وَإِذَا طَلَبُوا تَأْخِيرَ وقْتِ إِلْقَائِهِمْ فِي جَهَنَّمَ فَهُمْ لَا يُنْظَرُونَ.

الإِنْظَار: التَّأْخِيرُ والإِمْهَال، يقالُ لغة: «أَنْظَرَ فُلَاناً» أي: أَخَّرَهُ وأَمْهَلَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ متابِعاً عَرْضَ بَعْضِ لقَطاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدين:

• ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

• ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾: أَيْ: مَعْبُودَاتِهِمْ الَّتِي كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ، وَأَرَىٰ أَنَّهُمْ رَأَوْا مَا كَانَتْ تَرْمُزُ إِلَيْهِ أَصْنَامُهُمْ مِن مَلَائِكَةٍ أَوْ جِنٍّ، أَوْ أُنَاسٍ صَالِحِينَ مَاتُوا، أَوْ زَعَمَاءَ كَانَتْ لَهُمْ فِي أَقْوَامِهِمْ زَعَامَاتٍ ذَاتُ سُلْطَانٍ، فَاتَّخَذُوا لَهُمْ أَصْنَاماً صَارُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ الله، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّهُمْ بِعِبَادَتِهَا يَعْبُدُونَ مِنْ تَرْمُزُ إِلَيْهِ في الْغَيْبِ.

• ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾: أي: قالُوا رَبَّنَا هٰؤُلَاءِ آلِهَتُنَا الَّذِينَ أَضَلُّونَا، فَكُنَّا نَعْبُدُهُمْ مِنْ دُونِكَ بِسَبَبِ مَا فَتَنُونَا بِهِ مِنْ وَسَائِلِ إِضْلَالٍ، فاجْعلْ عَذَابَ كُفْرِنَا عَلَيْهِمْ إِذْ هُمُ السَّبَبُ في إِضْلَالِنا.

وقَدْ سَبَقَ في سُورَة (الأَعْرَاف/ ٣٩ نزول) في الآية (٣٨) أَنَّ المشْرِكِينَ يُحاوِلُونَ وهُمْ في النَّارِ يُعَذَّبُونَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يُؤْتِيَ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ فيقول الله لَهُمْ: لِكُلٍّ مِنْكُمْ مِثْلُ جَرائِمِهِ مِنْ عَذَاب النار.

وَهُنَا فِي آيَةِ (النحل/ ٧٠ نزول) يُحَاوِلُ المشْرِكُونَ أَنْ يُلْقُوا التَّبِعَةَ عَلَىٰ شُرَكَائِهِمْ، وَهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

• ﴿... فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

أي: فَأَسْرَعَ شُرَكَاؤُهُم لِدَفْعِ تُهمة إضْلَالِ عَابِديهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ بِعُنْفِ إِلْقَاءِ الْحَجَرِ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لِدَمْغِهِمْ، قَائِلِينَ لَهُمْ: إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ، نَحْنُ مَا أَضْلَلْنَاكُمْ وَلَكِنْ كُنْتُمْ قَوْماً ضَالِّين.

• ﴿... وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ...﴾: أرىٰ أنَّ هـٰذَا الإلْـقَـاءَ يَصْدُرُ مِنَ الْمَعْبُودِينَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إضْلَالٌ في الدنيا لِعَابِدِيهِمْ، إذْ يُعْلِنُونَ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ الاسْتِسْلَامَ الْكَامِلَ للهِ وَلِحُكْمِهِ، مُنْتَظِرِينَ إثْبَاتَ بَرَاءَتِهِمْ مِنْ إضْلَالِهِمْ لِعَابِدِيهم، وَهـٰذَا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ وعَلَىٰ الصَّالِحِينَ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ كَانُوا يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهُمْ عَنْ عَابِدِيهم غافِلُونَ، أَوْ لَا يَعْلَمُونَ شيئاً.

أَمَّا إِبْلِيسُ وَالشَّيَاطِينُ، فإِنَّهُمْ يَتَبَرَّؤُونَ مِنَ التَّأْثِير عَلَىٰ عَابِدِيهم، إذْ جَاءَ في غَيْرِ هـٰذَا مِنَ النُّصُوص، أَنَّ الشَّيْطَانَ يَقُول لِعَابِدِيهِ: وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لي.

وَأَمَّا الطُّغَاةُ مِنَ الْبَشَرِ فَعَابِدُوهُمْ شُرَكَاؤُهُمْ في الجرائِمِ العظْمَىٰ، وَيَنَالُ كُلٌّ مِنْهُمْ جَزاءَهُ بِمِقْدَار جَرائِمِهِ.

وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ عبارة: ﴿... وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ...﴾ عَلَىٰ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ حِينَ تُكَذِّبُهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، يُلْقُونَ الاسْتِسْلَامَ لِحُكْمِ اللهِ رَبِّهِمْ فيهم، إذْ لَا يَجِدُونَ لِأَنْفُسِهِمْ حُجَّةً يَحْتَجُّونَ بها، وَقَدْ لَزِمَتْهُمْ جَرائِمُهُمُ الْعُظْمَىٰ، وَلَزِمَهُمُ الجزاءُ عَلَيْهَا خُلُوداً في عَذَاب النَّار.

• ﴿... وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾: أي: وَضَاعَ مِنْهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ أَثَراً، كُلُّ شَيءٍ كَانُوا يَفْتَرُونَهُ فِي قَضَايَا الدِّين، فَلَمْ يَجِدُوا أَنَّ آلِهَتَهُمْ الَّذِينَ لَهُمْ وُجُودٌ قَدْ نَفَعُوهُمْ بِشَيْءٍ بَلْ تَبَرَّؤوا مِنْهُمْ، وأَمَّا الآلِهَةُ

الَّتي لم يَكُنْ لَهَا وُجودٌ فَهِيَ أَوْهَامٌ باطِلَةٌ، وأَسْمَاءٌ سَمَّوْها لَا حَقِيقَةَ لها.

يَفْتَرُونَ: أي: يَفْتَرُونَهُ كَذِباً وَزُوراً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَزَادُوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ صَدَّهُمْ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، فَهُمْ كُفَّارٌ وَدُعَاةٌ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَىٰ الكُفْرِ:

• ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

أي: الَّذِينَ كَفَرُوا كُفْراً إِرادِيًّا بالْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَسْتُرُونَ كَوْنَهُ حَقًّا، بِحِيَلِهِمْ، وأَكاذِيبِهِمْ، وَزُخْرُفِ أَقْوالِهِمْ، وَأَضافُوا إِلَىٰ كُفْرِهِم العنادِيِّ الْجُحُودِيّ صَدَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَصَرْفَ النَّاسِ عَنْهُ، بِوَاسَائِلِهِمُ الشَّيْطَانِيَّة.

الصَّدُّ: يُسْتَعْمَلُ لَازِماً وَمُتَعَدِّياً، وَمَا في الآيَةِ هُنَا مِنَ المتَعَدِّي. يُقَالُ لُغَةً: «صَدَّ دَاعِي الْبَاطِلِ النَّاسَ، يَصِدُّهُمْ وَيَصُدُّهُمْ صَدّاً عَنِ الْحَقِّ». أي: مَنَعَهُمْ وَصَرَفَهُمْ عَنْه.

• ﴿... زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾: أي: زِدْنَاهُمْ عَذاباً عَلَىٰ صَدِّهِمْ غَيْرَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، الَّذِي يُفْسِدُونَ بِهِ أَفْكَارَ النَّاسِ وعُقُولَهُمْ وَنُفُوسَهُمْ، وَيَجْعَلُونَهُمْ يَكْفُرُونَ بالْحَقِّ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْبَاطِلِ، فَوْقَ الْعَذَابِ الَّذِي اسْتَحَقُّوهُ بِكُفْرِهِمْ.

﴿... بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾: فِي هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ بَيَانُ سَبَبِ زِيَادَةِ تَعْذِيبِهِمْ. إِنَّهُمْ لَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَىٰ اخْتِيَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ سُبُلَ الكُفْرِ والضَّلَالِ، بَلْ وَظَفُوا أَنْفُسَهُمْ ضِمْنَ جُنُودِ إِبْلِيسَ، فاخْتَارُوا لأَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكُونُوا مُضِلِّينَ، بَعْدَ اخْتَارُوا أَنْ يَكُونُوا ضَالِّين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ:

• ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ يَا مُحَمَّدُ هـٰذَا الْحَدَثَ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الْحِسَاب، يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شهيداً، مُخْرِجِينَ لَهُ مِنْ زُمْرَةِ الرُّسُلُ، وَنَحْضِرُهُ فِي مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ والفَضْلِ الرَّبَّانِيَّةِ، لِيُؤَدِّيَ شَهَادَتَهُ عَلَىٰ أُمَّتِهِ، بِأَنَّهُ بَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وأَدَّىٰ الأَمَنَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وهُو مِنْ أَنْفُسِهِم.

وَجِئْنَا بِكَ يَا مُحَمَّدُ يَوْمَ الْحِسَابِ، شَهِيداً عَلَىٰ هـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ بَلَّغْتَهُمْ رِسَالَةَ رَبِّكَ، وَأَدَّيْت لَهُمُ الْأَمَانَة، وَنَصَحْتَهُمْ، في مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا.

أُعِيدَ بَيَانُ بَعْثِ الشَّهِيدِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ تَوْطِئَةً لِخِطَابِ الرَّسُولِ ﷺ بأَنَّهُ يَشْمَلُهُ هـٰذَا البَعْث، وزِيدَ في المَكَرَّرِ أَنَّهُ مِنْ أَنْفسِ أُمَّتِهِ نَسباً أَوْ لُغَةً أَوْ إِقَامَةً وانْتِمَاءً.

رُوِيَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ إِذَا تَلَىٰ هـٰذِهِ الآيَةَ فَاضَتْ عَيْنَاهُ، واللهُ أعلم.

• ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ الكِتَابَ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ مُتَصِفاً بأَرْبَعِ صِفَات:

الصِّفَةُ الْأُولَىٰ: أَنَّهُ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ قَضَايَا الدِّينِ الكُبْرَىٰ الَّذِي اصْطَفَيْنَاهُ لِعِبَادِنَا الْمَوْضُوعِينَ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، أَمَّا التَّفْصِيلَاتُ، والْجُزْئِيَاتُ، فَتُفْهَمُ بالاسْتِنْبَاطِ والْقِيَاسِ وَبَيَانَاتِ الرسُولِ.

تِبْيَان: مَصْدَرُ «بَيَّنَ الشَّيْءَ، يُبَيِّنُهُ، تَبييناً، وتِبْيَاناً» أي: أَظْهَرَهُ، وأَوْضَحَهُ.

الصِّفَةُ الثانِيةُ: كَوْنُهُ هُدىً، أي: يَهْدِي النَّاسَ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الْمُوصِلِ مَنْ سَلَكَهُ إِلَىٰ السَّعَادَةِ والْخُلودِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

الصِّفَةُ الثالِثَة: أَنَّهُ رَحْمَةٌ، أَيْ: أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ، إِذْ جَعَلَ لَهُمْ فِيهِ هِدَايَةً وَإِرْشَاداً إِلَىٰ مَا يُسْعِدُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وآخِرَتِهِمْ.

الصِّفَةُ الرابعَة: أَنَّهُ بُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ الْمُنقَادِينَ لِأَوَامِرِ رَبِّهِمْ وَنَوَاهِيهِ، إِذْ فِيهِ مَا يُبَشِّرُهُمْ بِالْخُلُودِ السَّعِيدِ في جَنَّاتِ النَّعِيم، الَّتِي فيها مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشر.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرْسِ الحادي والعِشْرين من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٢٥)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الثاني والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٩٠ ـ ٩٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا
عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ
أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا
يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ

ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾:

القراءات:

(٩٠) • قرأ حفْصٌ، وحمْزَة، والكِسَائي، وَخَلف: [**تَذَكَّرُونَ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تَذَّكَّرُونَ**] أصْلُها «تَتَذَكَّرُون» أُدْغِمَتِ التّاء الثَّانِية بالذَّال، وهذا الإدْغَام أَحَدُ الْوُجُوه الجائزة عَرَبيًّا.

(٩٦) • قرأ ابن كثيرٍ: [**بَاقِي**] في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بَاقٍ**] في الوصْل والوقف، ووافَقَهُمُ ابن كثير في حالةِ الوصل.

(٩٦) • قرأ ابْنُ كثير، وَعَاصم، وأبُو جَعفر: [**وَلَنَجْزِيَنَّ**] بالنُّون. وهو أَحَدُ وَجْهَيْنِ لابْن ذَكوان.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَلَيَجْزِيَنَّ**] بالياء، وهُوَ الْوَجْهُ الثاني لابْن ذَكْوَان.

تَمْهيد:

فـي آيـاتِ هـٰذَا الـدَّرْسِ بيـانُ وَصَـايَـا مِـنَ اللهِ عَـزَّ وَجَـلَّ لِـعِبَـادِهِ الموضوعِينَ فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتحان، وهِي مِنْ قَضَايَا الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لَهُمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِعِبَادِهِ وَهُمْ في حَيَاةِ الابْتِلَاء:

● ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

اشْتَمَلَتْ هَٰذِهِ الآيَة عَلَىٰ بَيَانِ ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ السُّلُوكِ الْفَاضِلِ الْحَسَن أَمَرَ اللهُ بِهَا. وَثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الرّذَائِلِ والقَبَائِحِ نَهَىٰ اللهُ عَنْهَا.

أ ـ أَمَّا مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ فِي هَٰذِهِ الْآيَة فَهِي:

(١) **الْعَدْلُ**، وهُوَ إعْطَاءُ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَمِنْهُ الْحُكْمُ بِالْعَدْلِ بَيْنَ الْخُصَمَاء، دُونَ جَوْرٍ وَلَا خُرُوجٍ عَنِ الْقِسْطَاسِ المستقيم، ومِنْهُ الْعَدْلُ فِي السُّلُوكِ الدِّيني دُونَ إفراطٍ وَلَا تَفْرِيط، ومِنْهُ الْعَدْلُ فِي سائِرِ أنواعِ السُّلُوك، وَجَاءَ في بيانَاتِ الرَّسُولِ ﷺ مَا يلي: إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

وَجَاءَ في الْبَيَانِ القرآني، قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (الْأَنْعام/ ٥٥ نزول):

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا . . . ﴿١١٥﴾﴾.

فالْكَلِمَاتُ الرَّبَّانِيَّةُ الْخَبَرِيَّةُ صِفَتُهَا الصِّدْقُ، وغَيْرُ الْخَبَرِيَّةِ صِفَتُهَا الْعَدْلُ.

(٢) **الإحْسَان**: وَقَدْ أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمْرَ إلْزَام وإيجاب بالإحْسَانِ لِلْوَالِدين، وأَمَرَ الرُّسُلَ في كثيرٍ مِنْ أُمُورِ الدَّعْوَةِ بالأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ مِنْ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ.

وأَمَرَ النَّاسَ بالإحْسَانِ أَمْرَ تَرْغِيب، فَهُوَ مِنَ النَّوافِلِ لَا من الواجبات.

الإِحْسَان: جَاءَ بَيَانُهُ فِي قَوْلِ الرسُولِ ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاه».

وَمَرْتَبَةُ الإِحْسَانِ في السُّلُوكِ الإِسْلَامِيّ أَعْلَىٰ المراتب، وَدُونها مَرْتَبَةُ الْبِرِّ، وَدُونَ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ مَرْتَبَةُ التَّقْوَىٰ، وَتَكُونُ بِفِعْلِ الواجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ عُمُومِ المؤمنين الْمُسْلِمين.

(٣) إِيتَاءُ ذِي الْقُرْبَىٰ: وَهُوَ صِلَةُ الْأَقْرِبَاءِ والْأَرْحَامِ بِمَا يَسُرُّهُمْ مِنْ عطاء.

وإيتاء ذي الْقُرْبَىٰ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ قِسْمَيْن:

• قِسم مَفْرُوض، وَهُوَ مَا يَدْخُلُ في النَّفَقَةِ الواجِبَةِ لَهُمْ، كالنفَقَةِ الواجِبَةِ عَلَىٰ الَّذِينِ لَا يَمْلِكُونَ مَا يَسُدُّونَ بِهِ حَاجَاتِ حَيَاتِهِمْ مِنَ الْأَوْلَادِ والْوَالِدين.

• وَقِسْم مَنْدُوب إِلَيْهِ غَيْر واجِب، وهو بِرُّ الْأَقْرَبِينَ بِمَا يَسُرُّهُمْ مِمَّا هُوَ زَائِدٌ عَلَىٰ حَاجَاتِ حَيَاتِهِم.

ب ـ وأَمَّا مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ فِي هَـٰذِهِ الآيَة، فهي:

(١) الْفَحْشَاء: وَهِيَ ارْتِكَابُ الكَبَائِرِ المتَعَلِّقَةِ بالْفُرُوجِ، كَالزِّنا، وَإِتيانِ الذُّكُور، والْبَهَائِم، والنَّهْيُ عن الفَحْشَاءِ نَهْي تَحْرِيم.

(٢) المنْكَر: وهُوَ كُلُّ أَنْكَرَهُ الشَّرْعُ وَنَهَىٰ عَنْهُ نَهْي تَحْرِيم، كأكْلِ أمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطل، وظُلْم النَّاسِ في حُقُوقِهِمْ، والْغِشّ، والْغِيبَةِ والنَّمِيمَة، واتِّهام النَّاسِ بالْفَوَاحِش الَّتِي لَمْ يَشْهَدْ بِهَا أَرْبَعَةَ شُهُود.

(٣) الْبَغْي: وَهُوَ الْعُدْوَانُ عَلَىٰ حُقُوقِ النَّاسِ وَسَلْبَهَا بالْقُوَّةِ المسَلَّحَةِ وبالْقَهْر.

وَخَتَمَ اللهُ الآيَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿... يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

يَعِظُكُمْ: أي: يأمُرُكُم أَمْراً مَقروناً بِتَرْغِيبٍ وَتَرْهيب.

الْوَعْظُ: النُّصْحُ بالفِعْلِ أَوْ بالتَّرْكِ المقْرُونُ بِمَا يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أَو الرَّهْبَةِ.

• ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: أي: رَغْبَةَ في أَنْ تَتَذَكَّرُوا فَتَعْمَلُوا بِمَا وَعَظَكُمْ رَبُّكُمْ بِهِ. يُرَادُ بالتَّذَكُّرِ في الاسْتِعْمَالِ القرآني: الأثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ لِحُضُورِ المعْلُومَةِ فِي الذَّاكِرَة، مِن الْمَعْلُومَاتِ المطْلُوبَاتِ في الدِّين، وَهٰذَا الأثَرُ يَدْفَعُ إِلَىٰ مُمَارَسَةِ السُّلُوكِ الدينيِّ المطلوب.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ خِطَابَ عِبَادِهِ وهُمْ في حَيَاةِ الابْتِلَاءِ:

• ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

• ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾: أمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ بالْوَفَاءِ بِعَهْدِ الله، وهو تَحْقِيقُ مَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ وافِياً تامًّا غَيْرَ مَنْقُوصٍ، وهو يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عَنِ الإخْلَافِ فِيهِ، لِأَنَّ الأَمْرَ بِشَيْءٍ مَا نَهْيٌ عَنْ ضِدّه.

الْعَهْدُ: يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَكُونُ بَيْنَ الْعِبَادِ مِنْ مَوَاثِيق. ويُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَوَ نَهَىٰ عَنْه. وَيُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَلْتَزِمُ بِهِ الْعَبْدُ تُجاهَ رَبِّهِ كالْمُبَايَعَاتِ مَعَ الرَّسُول ﷺ، ومِنَ الْعَهْدِ مَعَ اللهِ الدُّخولُ فِي الإسْلَام، لِأَنَّهُ عَهْدٌ مَعَ اللهِ عَلَىٰ الالْتِزَام بِفِعْلِ أوامِرِ اللهِ فِي الدِّين، وَتَرْكِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ، وَمُتَابَعَةِ مَسِيرَةِ الْحَيَاةِ عَلَىٰ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيم، وَهٰذَا الْعَهْدُ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ عَهْدُ اللهِ، لِأَنَّهُ عَهْدٌ مَعَه جَلَّ جَلَالَهُ ـ وأَمَّا مَا يَكُونُ بَيْنَ الْعِبَادِ مِنْ مَوَاثِيق فَهِيَ تُوَثَّقُ غالِباً بِالْأَيْمَانِ باللهِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ جَعْلِ اللهِ كَفِيلاً، فَإِذَا لَمْ

يَفِ الْمُعَاهِدُ بِعَهْدِهِ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِعُقُوبَةِ اللهِ إِذْ جَعَلَ اللهَ باليَمِينِ بِهِ كَفِيلاً لَهُ.

وَظَاهِرٌ أَنَّ هٰذَا التَّكْلِيفَ يَشْمَلُ كُلَّ الْعُهُودِ الموثَّقَةِ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَخْتَصُّ بِالْعُهُودِ الَّتِي كَانَ الدَّاخِلُونَ فِي الْإِسْلَامِ يُبايعُونَ الرَّسُولَ ﷺ فيها عَلَىٰ السَّمْعِ والطَّاعَةِ، وَغيرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا يُبَايِعُونَهُ عَلَيْهِ، وَقَدْ جَاءَ بَيَانُهَا فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ صَحِيحَة.

وَظَاهِرٌ أَيْضاً أَنَّ المُرَادَ مَا يُعَاهِدُ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ فِعْلاً، أَخْذاً مِنْ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾.

أَمَّا أَوامِرُ اللهِ وَنَوَاهِيهِ الّتِي لَمْ تُسْبَقْ بالْعَهْدِ عَلَىٰ السَّمْعِ والطَّاعَةِ فِيهَا، فَهِيَ لَا تَدْخُلُ ضِمْنَ عُمُومِ هٰذَا الْبَيَانِ، وَلَكِنْ تَجِبُ طَاعَةِ اللهِ فِيها بِحَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ لِعِبادِه.

• ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾:

نَقْضُ الْأَيْمَان يَكُونُ بِعَدَمِ تَحْقِيقِ مَا حَلَفَ عَلَيْهِ الْحَالِفِ.

أَمَّا الْأَيْمَانُ الَّتِي تَكُونُ لِتَوْثِيقِ الْعُهُودِ، فَيَجِبُ الوفاء بها وعَدَمُ نَقْضِهَا حَتْماً، إِذْ تَرْتَبِطُ بِهَا حُقُوقٌ تَعَاقُدِيَّةٌ مع غَيْرِ الْحَالِفِ.

وَأَمَّا الْأَيْمَانُ الَّتِي يَلْتَزِمُ بِهَا الْحَالِفُ لِنَفْسِهِ بأمْرٍ مِنَ الْأُمُور، وَلَا تَكُونُ مِنَ الْعُهُودِ، فَقَدَ صَحَّ فِيها عَنِ الرَّسُولِ ﷺ قَوْلُهُ: «مَنْ حَلَفَ عَلَىٰ يَمِينٍ فَرَأَىٰ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ».

وَقَوْلُهُ:

«وَاللهِ لَا أَحْلِفُ عَلَىٰ يَمِينٍ فَأَرَىٰ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي».

جَاءَ فِي هٰذَا الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ إِطْلَاقُ الْيَمِينِ عَلَىٰ الْمَحْلُوفِ عَلَيهِ لَا

عَلَىٰ لفظ الْيَمِينِ باللهِ أو بصِفَةٍ مِن صِفَاتِهِ أو اسمٍ من أسْمَائِهِ الحسْنَىٰ.

وَعَلَىٰ هٰذَا يَكُونُ نَقْضُ الأَيْمَانِ عَدَمَ تَحْقِيقِ مَا عَزَمَ عَلَىٰ فِعْلِهِ أو تَرْكِهِ الْمُسْلِمُ، وَأكَّدَ عَزْمَهُ بالْحَلِفِ باللهِ أَوْ بِاسْمٍ مِن أسْمَائِهِ، أَوْ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ.

فَتَأتي عبارَة: ﴿بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ دَالَّةً عَلَىٰ مَعْنَىٰ تَوْكِيدِ المعْزُومِ عَلَىٰ فِعْلِهِ أو تَرْكِهِ بالْحَلِفِ. وبناءً عَلَىٰ هٰذَا لَا حَاجَةَ لِلتَّأْوِيلَاتِ الناجِمَاتِ عَنْ فَهْمِ التَّوْكِيدِ لِلَفْظِ الْحَلِفِ بِتَشْدِيدِهِ وَتَغْلِيظِهِ بِالتَّكْرِيرِ، أَوْ بِغَيْرِهِ مِن عِبَارَاتِ التَّوْثِيقِ بالْحَلِفِ، مِثْل: «واللهِ وَبالله وَتَالله» فَتَوْكِيدُ الْمَعْزُومِ عَلَىٰ فِعْلِهِ أَوْ تَرْكِهِ يَكُونَ بِقَسَمٍ واحِدٍ.

• ﴿... وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾:

أي: وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ بِسُلْطَانِهِ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً لَكُمْ، إِذْ أَقْسَمْتُمْ بِهِ، وَعَرَّضْتُمْ أَنْفُسَكُمْ لِعُقُوبَتِهِ الشَّدِيدَةِ إِذَا لَمْ تَفُوا بِمَا عَاهَدْتُمْ عَلَيْهِ، أَوِ الْتَزَمْتُمْ بِهِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ ثُمَّ لَمْ تَكَفِّرُوا عَنْ أَيْمَانِكُمْ.

الكفيلُ: الضَّامِنُ، وَالْمُرَادُ هُنَا الْمُتَابِعُ لِمَن وَكَلَ إِلَيْهِ الانْتِصَارَ لِمَنْ عَاهَدَه، أو عِقَابَ مَنِ الْتَزَمَ بِأَمْرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ إذا لَمْ يُؤَدِّ ما وجب عليه.

• ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾: أي: وبما أَنَّهُ الممْتَحِنُ الملْتَزِمُ بِمُجَازَاةِ عِبادِهِ، بالفضْلِ أَوْ بِالْعَدْلِ، فاحْذَرُوا عِقَابَهُ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ مَا أَوْجَبَهُ عَلَيْكُمْ، اعْلَمُوا أَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ مَا تَفْعَلُونَ مِنْ ظَاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ مَهْمَا اسْتَخْفَيْتُم.

• ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ... ﴿٩٢﴾﴾:

قيل: كانَتْ امْرأَةٌ بِمَكَّةَ تُسَمَّىٰ خَرْقَاءَ مَكّة، كانَتْ تَغْزِلُ فإذَا أبْرَمَت غَزْلَهَا نَقَضَتْهُ.

نَقْضُ الْحَبْلِ أَوْ الْغَزْلِ حَلُّ طَاقَاتِهِ، فَكُلُ خَيْطٍ مُبْرَمٌ يُسَمَّىٰ من الْحَبْلِ قُوَّةً.

أَنْكَاثاً جَمْعُ «نِكْث» وَهُوَ الْخَيْطُ الْخَلَقُ مِنْ صُوفٍ أَوْ شَعَرٍ أَوْ وَبَرٍ يُنْقَضُ، ثُمَّ يُعَادُ فَتْلُهُ وإِبْرَامُه.

وَالْمَرْأَةُ المشَبَّهُ بِهَا كانَتْ تَغْزِلُ وَتُبْرِمُ غَزْلَها، وَيَكُونُ غَزْلُهَا قُوَّةً مُبْرَمَةً، ثُمَّ تَأْتِي إِلَىٰ مَا أَبْرَمَتْهُ وجَعَلَتْهُ قُوَّةً صَالِحَةً مُبْرَمَةً مِن عِدَّةِ قُوىٰ، نَقَضَتْهُ فَجَعَلَتْهُ أَنْكَاثاً خُيُوطاً مَحْلُولَةً غَيْرَ مُبْرَمَة.

أي: وَلَا تَكُونُوا بِعَدَمِ الْوَفَاءِ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُم، وبِنَقْضِ الأيمانِ بَعْدَ تَوْكِيدها، كالمرأةِ الْخَرْقَاءِ الْحَمْقَاءِ الَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِمَا جَعَلَتْهُ قُوَّةً مُبْرَمَةً مِنْ عِدَّةِ قُوىٰ أَنْكَاثاً، أي: خُيُوطاً مَحْلُولَةً لَا قُوَّةَ لها.

فَدَلَّ بِهـٰذَا المثَلِ عَلَىٰ أَنَّ الَّذِي لَا يَفِي بِعَهْدِهِ الموثَّقِ باليمين بالله، أَوْ يَنْقُضُ مَا عَزَمَ عَلَىٰ فِعْلِهِ أَوْ تَرْكِهِ وَأَكَّدَهُ بِالْيَمِينِ دُونَ كفَّارَةٍ، إِنْسَانُ ناقِصُ الْعَقْلِ أَحْمَقُ سَفِيهٌ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِعُقُوبَةِ اللهِ، إِذْ لَمْ يُؤَدِّ مَا جَعَلَ الله كَفِيلاً لَهُ فِيهِ بأَيْمَانِهِ.

- ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ . . .﴾.

دَخَلاً: أي: مَكراً وَخَدِيعَةً وَغِشًّا وَفساداً.

ذُكِرَ أَنَّ قُرَيْشاً كَانُوا إِذَا رَأَوْا أَنَّ أَعَادِيَ حُلَفَائِهِمْ أَكْثَرُ شَوْكَةً وَقُوَّةً، نَقَضُوا عَهْدَهُمْ مَعَ حُلَفَائِهِمْ وَحَالَفُوا أَعْدَاءَهُمْ، وَغَرَضُهُمْ مِنْ هـٰذَا أَنْ تَكُونَ أُمَّتهُمْ أرْبَىٰ مِنْ غَيْرِهَا، أي: أَكْثَرَ عَدَداً مِنْهَا، وأَكْثَر قُوَّةً وَمَالاً، وَهـٰذَا غَرَضٌ تَنَافُسِيٌّ بَيْنَ الْأَمَمِ، وَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ غَرَضاً يُقْصَدُ عِنْدَ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ، بل مِنْ عَادَاتِ أهل الجاهلية.

أَمَّا إِذَا كَانَ الْغَرَضُ التَّعَاوُنَ عَلَىٰ رَفْعِ الظُّلْمِ، أَوْ مُسَاعَدَةِ ذَوِي

الْحَاجَاتِ، أَوْ نَشْرِ الْحَقِّ والْفَضِيلَةِ، فَهُوَ غَرَضٌ مَقْبُولٌ فِي الدِّينِ، وَيَحْسُنُ نَقْضُ الْعَهْدِ مِنْ أَجْلِهِ.

أي: تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ مِنْ وَسَائِلِ المَكْرِ والْخَدِيعَةِ والغِشِّ، فَتَنْقُضُونَهَا لِأَجْلِ تَنَافُسَاتٍ جَاهِلِيَّةٍ، مِنْهَا أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَكْثَرَ مِن أُمَّةٍ عَدَداً وَقُوَّةً وَمَالاً، مَعَ أَنَّ الْجَمِيعَ عِبَادُ اللهِ.

• ﴿... إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِۦ ...﴾: أي: إِنَّ تَكْوِينَ الْأُمَمِ مُتَفَاضِلِينَ مِمَّا ابْتَلاكُمُ اللهُ بِهِ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيَا، فَلَا تَنْقُضُوا عُهُودَكُمْ المؤكَّدَةَ بالْأَيْمَانِ، مِنْ أَجْلِ نَزَعَاتٍ وَتَفَاخُرَاتٍ وَوَلَاءَاتٍ جَاهِلِيَّةٍ، لَا تَخْدُمُ غَرَضاً مِنَ الأَغْرَاضِ النَّبِيلَةِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي فِيها خَيْرٌ يُرْضِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيُرَغِّبُ فيها، كَرَفْعِ الظُّلْمِ، وفِعْلِ المعروف، ومُسَاعَدَةِ الفقراءِ والْمَسَاكِينِ والمسْتَضْعَفِينَ وَذَوِي الضَّرُورَاتِ والحاجات.

• ﴿... وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

أي: وَتَأَكَّدُوا لَيُبَيِّنَنَّ اللهُ لَكُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ الْحِسَابِ، كُلَّ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةِ الابْتِلَاءِ مِنْ أَعْمَالٍ وعَقَائِدَ وَنِيَّاتٍ، تَمْهِيداً لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَكُمْ، وَالْحُكْمِ عَلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ مِنْكُمْ بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنْ جَزَاءٍ بالثَّوابِ أَوْ بِالْعِقَابِ، ثُمَّ يَكُونُ تَنْفِيذُ الْجَزَاءِ عَلَىٰ وَفْقِ الْقَضَاءِ الرَّبَّانِي.

اللَّام في: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ مُوَطِّئَةٌ لِلْقسمِ كما يَقُول النحاة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّهُ خَلَقَ النَّاسَ ذَوِي اخْتِيَارَاتٍ حُرَّة، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ، وَحِينَئِذٍ يَجْعَلُهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً مَهْدِيِّينَ، لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَوَجَّهَ فِيهِ الْخِطَابَ للنَّاسِ:

• ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: لَقَدْ خلقَكُمُ اللهُ ذَوِي إرَادَاتٍ حُرّة، وَلَو شَاءَ لَسَلَبَكُمْ حُرِّيَّة إرَادَاتِكُمْ، ولَجعَلَكُمْ مَجْبُورِينَ، وَلَوْ جعَلَكُمْ مَجْبُورِينَ لجعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً مَهْدِيِّينَ لَا ضَالَّ فِيكُمْ، وَلَكُنْتُمْ كَالْمَلَائِكَةِ.

وَإِذْ جعَلَكُمْ ذَوِي إرَادَاتٍ حُرَّةٍ لِيَمْتَحِنَكُمْ في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، كَانَ مِنْ لَوَازِمِ حُرِّيَّاتِ إرَادَاتِكُمْ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضُكُمْ سبيل الْهُدَىٰ، وأَنْ يَخْتَارَ آخَرُونَ مِنْكُمْ سُبُلَ الضَّلَالِ اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهم وَنزَعَاتِهِمُ الجانِحَة، وَنَزَغَاتِ شَيَاطِينِهِمْ.

وَبِناءً عَلَىٰ اختيارَاتِكُمُ المختلِفَةِ بَيْنَ الْخَيْرِ والشَّرِّ، يَحْكُمُ اللهُ بِمَشِيئَتِهِ الْحَكِيمَةِ عَلَىٰ مَنْ ضَلَّ بِالضَّلَالِ، وَيَحْكُمُ بِمَشِيئَتِهِ لِمَنِ اهْتَدَىٰ بالهِدَايَةِ، فِي مَحْكَمَةِ الْفَضْلِ والْعَدْلِ يَوْمَ الْحِسَابِ.

وَعِنْدَ مُحَاسَبَتِكُمْ، أُأَكِّدُ لَكُمْ أَنَّكُم لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ، لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْكُمْ، وإِصْدَارِ أحكَامِ الْعَدْلِ بَيْنَكُمْ، الَّتِي تَسْتَتْبِعُ الجزاء.

وَيغْلَطُ الكَثِيرُونَ فِي فَهْمِ هَـٰذِهِ الآيَةِ وأشباهِها، فَيَحْمِلُونها عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْجَبْرِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَ عِبَادِهِ وهُمْ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاء.

• ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

سبق فِي الْآيَة (٩٢) النَّهْيُ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَيْمَانِ دَخَلاً، أيْ: مَكْراً وَخَدِيعةً وَغِشًّا وَفَسَاداً، لِنَقْضِ الْعُهُودِ والْأَحْلَافِ فيها لِمَقَاصِدَ جاهِلِيَّةٍ، مِنْهَا أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ أكْثَرَ مِنْ أُمَّةٍ عَدَداً وقُوَّةً وَمَالاً، وَنَحْوِ هـٰذَا مِمَّا

يَتَفَاخَرُونَ فِيهِ، وأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ ذَلِكَ خُرْقٌ وَحَمَاقَةٌ وَنَقْصٌ فِي الْعَقْلِ وَسَفَاهَة، كَحَالَةِ المرأة الْخَرْقَاءِ الْمُصَابَةِ بِجُنُونٍ مَا، الَّتِي تَنْقُضُ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً.

وَجاء في الآيـة (٩٤) نَهْيٌ يَخُصُّ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ فِي الإِسْلام، وَيُبَايِعُونَ عَلَىٰ نُصْرَتِهِ ونُصْرَةِ المؤمِنين، مُوَثِّقِينَ بَيْنَهُمْ بِمَا يَحْلِفُونَ مِنْ أَيْمانٍ، ثُمَّ يَتَعَرَّضُونَ لِفِتْنَةٍ مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بإغْرَاءَاتٍ مَادِّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّةٍ، فَتَمِيلُ نُفُوسُهُمْ لِنَقْضِ بَيْعَتِهِمْ والارْتِدَادِ عَنِ الإِسْلَام، طمعاً فِيمَا وُعِدُوا بِهِ مِنْ مَنَافِعَ دُنْيَوِيَّة، فَنَزَلَ الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ مُثبِتاً لَهُمْ بأسْلُوبَيْ التَّرْغِيب والتَّرْهِيب.

فَمَا جَاءَ في هَـٰذِهِ الآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا يَتَعَلَّقُ بِعَهْدِ الدُّخُولِ في الإِسْلَام، والمبايَعَةِ عليه، وَتَحَرُّكِ بَعْضِ النُّفُوسِ للارْتدادِ عَنْهُ، طمعاً فِي منافِعَ دُنويَّةٍ عِنْدَ الَّذِينَ كَفَرُوا.

الْأَمْران مُخْتَلِفَانِ، وفي كُلٍّ مِنْهُمَا تُتَّخَذُ الأيمانُ دَخلاً، مَكْراً وَغِشًّا وَخَدِيعَةً، وعُنْصُراً قَابِلاً لِلْفَسَادِ السَّرِيعِ مَعَ أَنَّهُ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ والواجب عُنْصُرٌ مُوَثِّقٌ لِلْعُهُودِ، والْبَيْعَات.

فالمعنى:

وَلَا تَتَّخِذُوا أيْمانَكُمْ أيَّها الدّاخِلُونَ في الْإِسْلَامِ والْمُبَايِعُون عَلَيْهِ أيْمَانَ غِشٍّ وَفَسَادٍ، قَابِلَةً للنَّقْضِ، والرِّدَّةِ عَنِ الإسْلام، إذْ يَنْجُمُ عَنْهَا إنْزِلَاقٌ إلَىٰ شَرٍّ عظيم، تَذُوقُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا سُوءاً تَكْرَهُونَهُ، بِسَبَبِ إعْرَاضِكُم وانْصِرَافِكُمْ عَنِ الْحَقِّ الّذِي هُو سَبَبُ سَعَادَتكم، وعَنْ سَبِيلِ اللهِ الموصِلِ إلى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، ثُمَّ يَكُون لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ القيامَةِ فِي جَهَنَّمَ دَارِ الْمُجْرِمِين.

وَلَا تَغرَّنَّكُمْ عُرُوضُ الْكَافِرِينَ المضِلِّينَ بِمَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةٍ، فَتَبِيعُوا عَهْدَ الله

الَّذِي دَخَلْتُمْ بِهِ في الإسْلَام، مُقَابِلَ ثَمَنٍ قَلِيلٍ يُقَدِّمُهُ لَكُمُ أئِمَّةُ الكُفْرِ المضِلُّون، فَالّذِي أَعَدَّهُ اللهُ لِلثَّابِتِينَ عَلَىٰ الإيمانِ والإسلام هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وهُوَ يَجْعَلُكُمْ تَثْبُتُونَ عَلَىٰ إِيمَانِكُمْ وإسْلامِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ تُدْرِكُوهُ وَتَعْلَمُوه وَتُؤْمِنُوا بِهِ.

وَخَاطَبَ اللهُ النَّاسَ بِأَنَّ كُلَّ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ مَالٍ وَمَنَافِعَ وَمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا يَنْفَدُ بانْتِهَاءِ آخِرِ شَيْءٍ مِنْهُ وَفَنَائِهِ، وَمَا عِنْدَ اللهِ مِمَّا ادَّخَرَهُ لِلْمُتَّقِينَ والأَبْرَارِ وَالْمُحْسِنِينَ بَاقٍ لَا نَفَادَ له، وأقْسَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأَنَّهُ سَوْفَ يَجْزِي الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَىٰ الثَّبَاتِ عَلَىٰ إِيمَانِهِمْ وإسْلَامِهِمْ، كَمَا عَاهَدُوا اللهَ عِنْدَ الدُّخُولِ في الْإِسلَام، وَلَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِمُ المغْرِيَاتُ وَلَا المؤذِيَات، وَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وأَحْسَنُ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ هِيَ الْفَرَائِضُ والنَّوَافِلِ، أَمَّا الْمُبَاحَاتُ فَقَدْ يُثِيبُهُمْ عَلَيْهَا إِذَا كَانَتْ مَقْرُونَةً بنِيَّةٍ صَالِحَةٍ تُرْضِي اللهَ عَزَّ وَجلَّ، أَمّا المعاصِي والمخالَفَاتُ فَيَنْطَبِقُ عَلَيْهَا أَنَّهَا سَيِّئَاتٌ، وَالأَحْسَنُ مِنْهَا الْمُبَاحَات والنوافِلُ والْوَاجِبَات.

• ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾: أي: وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ أَيْمَانَ غِشٍّ دَاخِلٍ في ثَنَايَا أَعْمَالِكُمْ وَمَقَاصِدِكُمْ مِنْها، فَتَكُونَ سَهْلَةَ النَّقْضِ إِذَا اقْتَضَتْ مَصَالِحُكُمْ، نَقْضَهَا.

• ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾: أي: فَتَزْلَقَ قَدَمٌ مَا مِنْ أَقْدَامِكُمْ في مَزَالِقِ الكُفْرِ والرِّدَّةِ، فَتَجُرَّ مَعَهَا كُلَّ جَسَدِ صَاحِبِهَا بَعْدَ ثُبُوتِهَا عَلَىٰ صِرَاطِ الحقِّ والْهُدَىٰ. فالْغِشُّ فِي الْأَيْمَانِ عِنْدَ تَوْثِيقِ الْعُهُودِ عِلَّةٌ مُزْلِقَةٌ فِي شَرٍّ عظيم، وَجُرْمٍ جَسِيم، والواجِبُ يَقْتَضِي سَلَامَةَ الْأَيْمَانِ مِنْ أَنْ تَكُونَ دَخلاً، حتَّىٰ لَا تَكُونَ في الْأَنْفُسِ عِلَّةً مُزْلِقَةً إلى مَا تُذَمُّ عُقْبَاه.

• ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾: أيْ: وتَنَالُوا يَا مَنْ زَلَّتْ أَقْدَامُكُمْ أَشَدَّ الإِحْسَاسِ بِمَا تَكْرَهُونَ مِنَ آلَام مَا تُعَاقَبُونَ بِهِ، بِسَبَبِ مَا أَعْرَضْتُمْ وانْصَرَفْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ الموصِلِ إلى جَنَّاتِ النَّعِيم.

• ﴿... وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾: أي: وسَوْفَ يَكُونُ لَكُم يَوْمَ الدِّينِ عَذَابٌ عَظِيمٌ تُعَذَّبُونَ بِهِ في الجحيم، عَقاباً لَكُم عَلَىٰ رِدَّتِكُمْ إِلَىٰ الكُفر أعْظَمِ الجرائم.

• ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: أيْ: وَلَا تَسْتَجِيبُوا لِمَنْ يُضِلُّكُمْ مِن أئِمَّة الكُفْرِ، فَتُوَافِقُهُمْ عَلَىٰ نَقْضِ عَهْدِ اللهِ والارْتِدَاد عَنِ الإسْلَامِ، مُقَابِلَ ثَمَنٍ قَلِيلٍ مِنْ مَحَابِّكُمْ مِنَ الحياة الدُّنيا.

إنَّ هٰذَا الأَمْرَ يُشْبِهِ عَقْدَ بَيْعٍ وَشِرَاءٍ، فاسْتُعِيرَ لَفْظُ الشِّرَاءِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ الْبَيْعِ أيْضاً، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الموافقةِ عَلَىٰ نَقْضِ الْعَهْدِ مُقابِلِ بَذْلِ مَتَاعٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيَا المادِّيَّة أو المعْنَوِيّة.

• ﴿... إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾: أي: إنَّ الَّذِي هو عِنْدَ اللهِ مُعَدٌّ للثَّابِتِينَ عَلَىٰ إيمانِهِمْ وإسْلامِهِم الَّذِي عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ، هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ يُبْذَلُ لَكُم مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا مُقَابِلَ ارتدادكم، إنْ ارْتَدَدتم. وهٰذَا يَجْعَلُكُمْ لَا تَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونه، فَثِقُوا بِهِ واعْمَلُوا بِمُقْتَضَاه.

• ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾: أي: كُلَّ مَا عِنْدَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَذْهَبُ ويَفْنَىٰ، وَمَا عِنْدَ اللهِ، وَهُوَ مَا ادَّخَرَهُ لعبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بَاقٍ، لَا يَتَعَرَّضُ لِلنَّفَادِ والانْتِهَاءِ إذْ هُوَ مُتَجَدِّدٌ دَوَاماً بِلَا نِهَايَةٍ.

• ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

اللّام في ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ مُوطِّئَةُ لِلْقَسَم، أي: وأُقْسِمُ لَأُعْطِيَنَّ الَّذِينَ ثَبَتُوا عَلَىٰ الإيمَانِ والإِسْلَامِ، وَصَبَرُوا عَلَىٰ عَدَم التَّأَثُّرِ بالْمُغْرِيَات، وعَدَمِ التَّأَثُّرِ بالْمُرْهِبَاتِ والمؤذِيَاتِ مِنْ قِبَلِ أئِمَّةِ الكُفْرِ، أَجْرَهُمْ عَلَىٰ صَبْرِهِمْ فَنَجْزِيهِمْ ثَواباً بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ مِنَ الْوَاجِبَاتِ والنَّوَافِلِ والْقُرُبَات والْمُبَاحَات الْمَقْرُونَاتِ بنِيَّاتٍ صَالِحَاتٍ، وَهٰذِهِ هِي

أَحْسَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَهُمْ يُجْزَونَ بها. أَمَّا المباحَت بدُونِ نِيَّاتٍ صَالِحَاتٍ، والْخَطَايَا فَلَا يُؤْجَرُونَ عَلَيْهَا، ويَعْفُو اللهُ بِرَحْمَتِهِ عمَّا يَشَاءُ الْعَفْو عَنْهُ مِنها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾:

خَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هٰذَا الدَّرْسِ، بِبَيَانِ بَنْدٍ مِنْ بُنُودِ قَانُونِ الْجَزَاءِ، وَهُوَ الْجزَاءُ بالثَّوَاب.

فَمَنْ عَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً ابْتغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ فِي دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ، فَلَهُ ثَوَابان:

(١) ثَوَابٌ مُعَجَّلٌ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُوَ أَنْ يُحْيِيه اللهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ضِمْنَ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَعَوَارِضِها.

ومِنْ أعْظَمِ طَيِّبَاتِ الحياة الدُّنْيَا الرِّضَا عَنِ اللهِ فيما تَجْرِي بِهِ مَقَادِيرُهُ، فَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً ويَعْمَلُ أعْمَالاً صَالِحَةً، وَكَانَ رَاضِياً عَنِ اللهِ فيما تَجْرِي به مَقَادِرُه، فَهُوَ في حَيَاةٍ طَيِّبَةٍ.

ومَنْ كَانَ سَاخِطاً عَلَىٰ مَا تَجْرِي بِهِ مَقَادِيرُ اللهِ فَهُوَ فِي حَيَاةٍ بَئِيسَةٍ تَعِيسَة.

(٢) وَثَوَابٌ عَظِيمٌ مُؤَجَّلٌ إلى يَوْم الدِّين، دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وَقَدْ سَبَقَ تَدبُّر هٰذِهِ العبارة لَدَىٰ تَدبُّرِ الآيَة (٩٦) السابقة.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدبُّر الدّرس الثاني والعشرين من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٢٦)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٩٨ ـ ١٠٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ
سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ
رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ
لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى
يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

القراءات:

(٩٨) • قَرَأَ السُّوسي، وأبو جَعْفَر: **[قَرَاتَ]** وكذلِكَ حمزةُ في الوقف.

وقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[قَرَأْتَ]**.

(٩٨) • قرأ ابن كثير: **[الْقُرَانَ]**. وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[الْقُرْآنَ]**.

(١٠١) • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو: **[بِمَا يُنْزِلُ]** من فعل «أَنْزَلَ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[بِمَا يُنَزِّلُ]** من فعل «نَزَّلَ».

أَنْزَلَ ونَزَّلَ مُتكافِئان، فالْمَهْمُوزُ أخو المضَعَّف.

(١٠٢) • قرأ ابن كثير: [الْقُدْسِ] بإسْكان الدَّال.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الْقُدُسِ] بضَمّ الدّال. وهُما لغتان.

(١٠٣) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [يَلْحَدُونَ] بفتح الياء والحاء مِنْ فِعْلِ «لَحَد».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُلْحِدُونَ] بضم الياء وكَسْرِ الحاء، من فعل «أَلْحَدَ».

وهُما لغتان، أي يَمِيلون عن الحقّ.

(١٠٤) • قرأ أبو عَمْرو: [لَا يَهْدِيهِم اللهُ] بكَسْرِ الهاء والميم بَعْدها.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوبُ: وخلف: [لَا يَهْدِيهُمُ اللهُ] بضمّ الهاء والميم بعْدها.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ] بكَسْرِ الهاء وضَمّ الْمِيم بَعْدَهَا.

وضَمَّ هَاءَ الضمير في الوقف يعقوب.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ بِشَأْنِ الْقُرْآن، وبِشَأْنِ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وأَعْمَالِهِ الإغْوَائِيَّة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بأسْلُوب الخطاب الإفرادي لِكُلِّ صَالِحٍ لِلْخِطاب من المسلمين:

وأوّلُهُم الرسُول ﷺ:

• ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

«الفاء» في ﴿فَإِذَا﴾ عاطِفَةٌ عَلَىٰ مَا جاءَ في الآية (٨٩): ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

• ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾:

أي: فَإِذَا أَرَدْتَ يَا مُحَمَّدُ وَيَا مُسْلِمٌ أَيًّا كُنْتَ أَنْ تَشْرَعَ بِقِرَاءَةِ الْقُرآنِ مِنْ صَحِيفَةٍ مَكْتُوبَةٍ، أَوْ مِنْ صَحِيفَةِ ذَاكِرَتِكَ، فَقُلْ: أَعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم، لِتَمْنَعَ بِهَٰذِهِ الاسْتِعَاذَةِ باللهِ، عَنْ فِكْرِكَ وَنَفْسِكَ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلاتِهِ وَمَا يَنْزَغُ بِهِ مِنْ شُبَهَات، فإِنَّكَ إِذَا اسْتَعَذْتَ باللهِ صَانَكَ وَحَمَالك.

الاستعاذَة: الاعتصام والالْتِجَاءُ إِلَىٰ المسْتَعَاذِ به، والاستعاذة باللهِ هِيَ الاستعاذَةُ النَّافِعَةُ فِي الوجُودِ كُلّه.

الشَّيْطَان: اسم جنْسٍ يقَعُ عَلَىٰ كُلِّ مُغْوٍ مُضِلٍّ مُتَمَرِّدٍ مُفْسِدٍ مِنَ الجنّ والإنس، وإبْلِيسُ إِمَامُ الشَّيَاطِين ورَئِيسُهم. والمرادُ هنا الشيطانُ مِنَ الجنّ.

الرَّجِيم: أي: الملْعُونُ المطْرُود.

• ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

السُّلْطان: القوّة والقَهْر. والحجَّةُ والبُرْهان. والولَايَةُ والْمُلْك.

التوكُّل على الله: الاستِسْلَامُ إليه، وتَفْوِيضُ تَدْبِيرِ الأُمُورِ وتحقيق ما يَرْجو المتوكّل إليهِ، مع القيام بالأسباب المستطاعة المادّية والمعنويَّة، طاعةً لِأَمْرِهِ ونَهْيه.

وجاء تقديم المعمول ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ على عامِلِهِ ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ لإفادةِ الْقَصْرِ والاختصاص.

المعنى: إنَّ الشَّيْطَانَ مِنَ الجنِّ لَيْسَ لَهُ سُلْطانُ قُوَّةٍ وَوِلَايَةٍ، وَلَا سُلْطانُ حُجَّةٍ وبُرْهَانٍ، عَلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً بِمَا يَجِبُ الإيمانُ بِهِ في الإِسْلام، وكانُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ يَتَوَكَّلُونَ.

• ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

أي: مَا سُلْطَانُهُ المؤثِّر بالْوِلَايَةِ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِينَ يَجْعَلُونَهُ وَلِيًّا لَهُمْ، إِذْ يَتَّبِعُونَ الْأَهْوَاءَ والشَّهَوَاتِ والشُّبُهَاتِ ورَغباتِ نُفُوسِهِمُ الجامِحَةِ الجانِحَة.

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ هُمْ بِسَبَبِ إِغْوَاءَاتِهِ مُشْرِكُونَ يَعْبُدون آلِهَةً مِنْ دُون اللهِ.

أَوْ وكذلِكَ الَّذِينَ اتَّخذُوا الشَّيْطان مَعْبُوداً لَهُمْ فَجعَلُوهُ في عِبادَتِهِمْ لَهُ شَرِيكاً للهِ سُبْحانَه، دَلّ عَلَىٰ هـٰذَا قول اللهِ تَعالَىٰ في سورة (يس/ ٤١ نزول) تَعْبِيراً عَمَّا سَوْفَ يَقُولُ لِبَنِي آدمَ يَوْمَ القِيامَة:

﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

ومَعْلُومٌ أَنَّ عِبادَة الشَّيْطانِ مِنَ الشِّرْكِ بالله، تَعالَىٰ الله وَتَنَزَّهَ وَتَبارَكَ، وَتَبَرّأ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ ما.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

نَسْخُ الْأَقْوالِ والتَّكالِيفِ مِنَ الْأَعْمالِ، بِحَسَبِ تَغيُّراتِ الْأَحْوالِ، مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا الحِكْمَةُ السَّامِيَةِ.

وَقَدْ أَجْرَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْضَ النَّسْخ، فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ شَرَائِعِهِ وَمِنَ النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَيْهَا لَاحِقًا، عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ في الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ، فِي رِسَالَاتِهِ لِرُسُلِهِ، وَفِي الرِّسَالَةِ الوَاحِدَةِ أَيْضاً.

وَعَلَّمَنَا بِهٰذَا أَنْ نُغَيِّرَ أَنْظِمَتَنَا وَقَرَارَاتِنَا، إِلَىٰ مَا هُوَ الْأَصْلَحُ وَالْأَفْضَلُ بِحَسَبِ تَغَيُّرِ الْأَحْوَالِ، وَتَطَوُّرِ الْأَوْضَاعِ الْبَشَرِيَّةِ.

وَلَكِنَّ الْجَاهِلِينَ بِحِكْمَةِ التَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ في النُّصُوصِ والْأَحْكَامِ مِنَ الْكَافِرِين، يَتَّخِذُونَ تَبْدِيلَ آيَةٍ قُرْآنِيَّةٍ، وَجَعْلِهَا فِي مَكَانِ آيَةٍ انْتَهَتِ الْمَصْلَحَةُ مِنْ تَوْجِيهِ ما اشتملتْ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانٍ، أو من الْعَمَلِ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ عَمَلٍ، ذَرِيعَةً لاتِّهَامِ الرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ يَفْتَرِي عَلَىٰ رَبِّهِ.

بدَأَ النّصُّ بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ﴾ وجاء بَعْدَهُ التَّصْرِيح باسْم الله ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ الْأَزَلِيَّ الْأَبَدِيَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ الْعَلِيمَ الْحَكِيمَ أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيمٍ بما يُنَزِّلُ وَيُبَدِّل.

• ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾: أي: قَالَ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والضَّلَالِ للرَّسُولِ ﷺ: مَا أَنْتَ إِلَّا مُفْتَرٍ تَفْتَرِي على رَبّك.

الافتراء: اخْتِلَاقُ الكَذِب.

• ﴿... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾: أي: إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَسْتَ بِمُفْتَرٍ عَلَىٰ رَبّكَ، بَلْ أَكْثَرُ الْكَافِرِينَ جَاهِلُونَ، لَا يَعْلَمُونَ مَا هُوَ الْحَقُّ وَالْأَحْسَنُ وَالْأَفْضَلُ، وَلَا يَرْغَبُونَ فِي أَنْ يَعْلَمُوا، لِئَلَّا يُؤَثِّرَ عَلَيْهِمْ الْعِلْمُ فِي الشُّعُورِ بِأَنَّهُمْ ضَالُّونَ، بِسَبَبِ اتّبَاعِهِمْ أهواءَهم وَشَهَوَاتِهِم وَرَغَبَاتِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنْيَا، وبِسَبَبِ تَأَثُّرِهِمْ بِوَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ وَتَسْوِيلاتهم.

وَعَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ مَا يُجِيب مُتَّهِمِيهِ بالافْتِراء عَلَىٰ اللهِ فَقَالَ لَهُ:

• ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ مِنْ لَدُنِ اللهِ رَبِّي مُتَّصِفاً بِالحق، رُوحُ الْقُدُسِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، فَإِنْ كَانَ لَدَيْكُمْ مَا تُجادِلُونَ بِهِ حَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ القرآن فهاتُوا مَا عِنْدَكُمْ، أَمَّا أَنْ تَتَذَرَّعوا بِتَعِلَّاتٍ لَا دَلِيلَ فِيها عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا تَزْعُمونَ، فَهُوَ مِنَ السَّفَاهَةِ الَّتِي لَا يَتَذَرَّعُ بِهَا أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشد.

رُوحُ الْقُدْس: أي: رُوحُ الطُّهْرِ مِنَ الأَرْجاسِ المادّيَّةِ والمعنويّة.

الْقُدْس والْقُدُس: الطهارة.

وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلام بأَنَّهُ رُوحُ الْقُدُس. لِأَنَّهُ رُوحٌ صَادِرٌ بأَمْرِ التكْوِينِ الرَّبَّانِيّ، خَالٍ مِنْ طَبْعَةِ نَفْسٍ ذَاتِ أهواءٍ وشَهَوَاتٍ، وطاهِرٌ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ مَادّيّ أَوْ مَعْنَوِي.

• ﴿... لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

أي: حَصَلَ تَنْزِيلُ الْقُرْآنِ مُنَجَّماً، قَابِلاً لِتَبْدِيلِ آيَةٍ اقْضَتِ الْحِكْمَةُ السَّامِيَةُ جَعْلَهَا مَكَانَ آيَةٍ اقتضَتِ الْحِكْمَةُ السَّامِيَةُ عَدَمَ اسْتِمْرارِها، لِحِكَمٍ ثلاث:

الْحِكْمَةُ الْأُولَىٰ: تَثْبِيتُ قُلُوبِ المؤمِنِينَ، إِذْ يَشْعُرُونَ أَنَّ الْوَحْيَ الرَّبَّانِيَّ عَلَىٰ صِلَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ مَعَ الرَّسُولِ.

الْحِكْمَةُ الثانية: أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ هُدىً تَعْلِيمِيًّا مُتَتَابعاً بتَكَامُل.

الْحِكْمَةُ الثَّالِثَة: أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ بُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ، بِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ بُشْرِيَاتٍ بالنَّصْرِ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ، مَعَ النُّجُومِ المتتابِعَةِ التَّنْزِيلِ، وفَتْحٍ مُبِينٍ عَظِيم، تُفْتَحُ عَلَيْهِمْ بِهِ خَيْرَاتُ الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الرَّدَّ عَلَىٰ شُبُهَاتِ أئِمَّةِ الشرْكِ والكُفْرِ فِي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيل:

• ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾:

جَاءَ عِنْدَ الْمُفَسِّرِينَ فِي تَعْيين هٰذَا الإِنْسَانِ الْبَشَرِ الَّذِي زَعَمَ المشْرِكُونَ أَنَّهُ يُعَلِّمُ مُحَمّداً الْقُرْآنَ، أَخْذاً مِمَّا يَعْلَمُ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الكِتَاب، مَا يلي:

(١) قيل: هو «جَبْر» غُلَامُ الفاكِهِ بن المغيرة، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلم.

(٢) وقيل: هو «يَعِيش» عَبْدٌ لِبَنِي الْحَضْرَمِيِّ، وَكَانَ يَقْرأ الكُتُبَ الْأَعجميَّة.

(٣) وقيل: هو غُلَامٌ لِبَنِي عَامِرِ بنِ لُؤَي.

(٤) وقيل: هما غلامان: «يَسَار» و«جَبْر» وَكَانَا صَيْقَلِيَّيْنِ، يَعْمَلَان السُّيوف، وَكَانَا يَقْرآنِ كِتَاباً لِقَوْمِهِما، وقيل: يَقْرَآنِ التوراة والإنجيل.

(٥) وقيلَ: «بَلْعَام» وَكَانَ يَقْرَأُ التَّوْرَاة.

(٦) وَقيل: «أَبُو مَيْسَرة» وَكَانَ رَجُلاً نَصْرَانِيًّا يتكَلَّمُ بالرُّومية، وفي روايَةٍ أنّ اسْمَهُ «عَدَّاس».

واللهُ أَعْلَمُ، وَلَيْسَ مِنَ الْمَطْلُوب مَعْرِفَةُ اسْمه، فقد أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ رَجُلٌ أعْجَمِيٌّ، لَا يُحْسِنُ تكَلُّمَ اللِّسَانِ الْعَربي.

وقد رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ:

• ﴿... لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: إنَّ مِنْ عَنَاصِرِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ مَا فِي بَيَانِهِ الْعَرَبِيّ الرَّفِيعِ، الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ فُصَحَاءُ الْعَرَبِ وَبُلَغَاؤُهُمْ مُنْفَرِدِينَ أو مُجْتَمِعِينَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

وَلِسَانُ الَّذِي يَمِيلُونَ إِلَيْهِ زَاعِمِينَ أَنَّهُ يُعَلِّمُ محمّداً القرآن لِسَانٌ أَعْجَمِيٌّ، وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْطِقَ بِلُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ فُصْحَىٰ، فَكَيْفَ يَكُونُ قَادِراً على تَعْلِيمِ الرَّسُولِ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ الْمُبِينَ الْمُعْجِزِ.

هٰذَا مِنِ الَّذِينَ كَفَرُوا زَعْمٌ هُرَاءٌ سَاقِطٌ، لَا يَقْبَلُهُ مَنْ لَدَيهِ مقدار قَلِيلٌ من الْفِكْرِ والْفَهْم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

أي: اعْلَمُوا أَيُّهَا الْمُشَكِّكُونَ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ المجيد المعْجِزِ، بِتعِلَّاتٍ سَاقِطَاتٍ لَيْسَ لَهَا قِيمَةٌ فِكْرِيَّةٌ تَصْلُحُ لِتَوْجِيهِ شُكُوكٍ بها، أَنَّ اللهَ سَوْفَ لَا يَحْكُمُ لَكُمْ بالْهِدَايَةِ، إِذَا لَزِمْتُمْ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ بَاطِلٍ، وأَنَّ اللهَ بَعَدْلِهِ سَوْفَ يَجْزِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ في نار جَهَنَّمَ خالِدِينَ، ضِمْنَ قَانُونِ الْجَزَاءِ الَّذِي وَضَعَ بِحِكْمَتِهِ عَناصِرَه.

إِنَّ كُلَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللهِ لَا يَحْكُمُ اللهُ بِهِدَايَتِهِمْ، وَلَهُمْ عِنْدَهُ يَوْم الدِّينِ عَذَابٌ أَلِيم.

وَإِنَّكُمْ اتَّهَمْتُمْ رَسُولَ رَبِّهِم الْأَمِينَ الصَّادِقَ بالافْتراءِ عَلَىٰ اللهِ، وهو لَمْ يَفْتَرِ عَلَىٰ رَبِّهِ حَرْفاً واحداً، إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الكَذَّابُونَ الْمُفْتَرُونَ.

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ عَلَىٰ اللهِ، هُمُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللهِ، وأُولَئِكَ وَحْدَهُمْ هُمَ الْكَاذِبُونَ أَخَسَّ الكَذِبِ الْمُوصِلِ إلى عَذَاب الدَّرْك الْأَسْفَلِ مِنَ النار، لِأَنَّهُمْ يَفْتَرُونَ علَىٰ اللهِ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّ القرآن يَفْتَرِيه محمَّدٌ عَلَىٰ رَبِّهِ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث والعشرين من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٢٧)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الرابع والعشرين من دُروس سورة (النَّحل) الآيات من (١٠٦ ـ ١١١)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ
بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ
وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ
ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ
جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي
كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا
يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾:

القراءات:

(١٠٦) • قرأ حمزة، ويعقوب: [فَعَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَعَلَيْهِمْ] بكَسْرِ الهاء.

(١١٠) • قرأ ابن عامر: [فَتَنُوا].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فُتِنُوا].

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيانٌ بِشَأْنِ الكُفْرِ بَعْدَ الإيمانِ، وبيانٌ بِشأْنِ الْمُهَاجِرين، الّذِين هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِمَا فُتِنُوا، إذْ تَعرَّضُوا لِتَعْذِيب المشْرِكِين واضطهادِهِمْ لهم، ثُمَّ جاهَدُوا في سبيل اللهِ وَصَبرُوا.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾:

إنَّ الارْتِدَادَ عَنِ الإسْلَامِ مِنْ أعْظَمِ الجرائِم، وأعْظَمِها عَذَاباً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الدِّين.

وَقَدْ جَاءَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بَيَانٌ تَفْصِيلِيٌّ عَنِ الْمُرْتَدِّ حَقِيقَةً، وعَنِ الْمُرْتَدِّ ظاهِراً لِيَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنْ تَعْذِيب ذَوِي سَلْطَةٍ، يُكْرِهُونَهُ عَلَىٰ أَنْ يَكْفُرَ بَعْدَ أَنْ آمَنَ وأَعْلَنَ إسْلامَه.

فَأَبَانَ هـٰذَا النَّصُّ أَنَّ مَنْ كَفَرَ باللهِ مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ، أي: ومن بَعْدِ إعْلَانِهِ الدُّخُولَ في الإسْلام، باسْتِثْنَاءِ الْمُكْرَهِ ذِي الْقَلْبِ المطْمَئِنِّ بالْإيمان، فَقَدْ نَزَلَ عَلَيْهِ غامراً لَهُ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وهو أَشَدُّ أَحْوَالِ النِّقْمَةِ، وَلَهُ يَوْمَ الدِّين عَذَابٌ عَظِيمٌ في جَهَنَّم خَالِداً فِيها بلا نهاية، إذَا مَاتَ وهُوَ عَلَىٰ رِدَّتِهِ.

وأَبَانَ هـٰذَا النَّصُّ سَبَبَ رِدَّتِهِ وَكُفْرِهِ بَعْدَ الْإِيـمَانِ، هو أَنَّهُ أَحَبَّ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حُبًّا شَدِيداً جعَلَهُ يتعَلَّقُ بِهَا، وَيُؤْثِرُهَا عَلَىٰ الْآخِرَة، بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ عَنَاصِرَ الْإِيمَانِ، وَتَذَوُّقِهِ شَيْئاً مِنْ حَلاوَتِهِ، وَبَعْدَ مَعْرِفَتِهِ أَنَّ دِينَ اللهِ حَقٌّ.

وأبانَ هـٰذَا النَّصُّ سَبَبَ إِحْبَاطِ اللهِ سَابِقَ إيمانِهِ، والْحُكْم عَلَيْهِ بما خَتَمَ بِهِ حَيَاةَ امْتِحَانِهِ، وَهُوَ الكُفْرُ الَّذِي شَرَحَ بِهِ صَدْرَه، هـٰذَا السَّبَبُ هو أَنَّ اللهَ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ، أَيْ: لَا يَحْكُمُ بِهِدَايَةِ كَافِرٍ مَا أَنْهَىٰ حَيَاةَ امْتِحَانِهِ بالكُفْرِ والإصْرَارِ عَلَيْهِ.

كلمةُ «مَنْ» فِي عِبارَة ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ اسْمُ مَوْصُولٍ تَضَمَّنَ مَعْنَىٰ الشَّرْطِ، وهو مبتدأ.

وعبارة: ﴿مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ أي: مِنْ بَعْد إيمانِهِ بِقَلْبِهِ وإعْلَانِهِ الإِسْلَام الَّذِي هُو شَرْطٌ مِنْ شُرُوطِ صِحَّةِ إيمَانِهِ، مَا لَمْ يُوجَدْ مَانِعٌ قَاهِرٌ مِنْ هـٰذَا الإعْلَان، وهـٰذَا قَدْرٌ لَازِمٌ، لِبَيَانِ أَنَّهُ مُرْتَدٌّ، وَيَكْفِي للحكم عليه بالرِّدّة أنْ يَكْفُرَ بِقَلْبِهِ، كأنْ يَكْفُرَ بِقَلْبِهِ ويَسْتَمِرُّ مُنَافِقًا ـ مُتَظاهِراً بالإيمان والإسلام.

وعبارة: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ خَبَرٌ لِلْمُبْتَدأ، وجاءت الفاء فِيهِ لتضَمُّن «مَنْ» مَعْنَىٰ الشَّرط، وأعيد الضَّمير أوّلاً بالأفراد باعتبار لفظ «مَنْ» وبعْدَه أُعِيدَ الضمير بالجمع بِاعتبار معنى «مَنْ».

وجاءت عِبَارَةُ ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ بَيَاناً مُعْتَرِضاً لاسْتِثْنَاءِ مَنِ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ بِلِسَانِهِ وَهُوَ مُكْرَهٌ، وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمانِ، ولَكِن مَنْ ارْتَدَّ مُكْرَهاً ثُمَّ شَرَحَ بالكُفْرِ صَدْراً فَهُوَ مُرْتَدٌّ ظاهِراً وبَاطِناً، ويَشْمَلُهُ حُكْمُ الْمُرْتَدِّ، وَلَا يَشْمَلُهُ الاسْتِثْنَاء: فَعِبَارَةُ: ﴿وَلَٰكِن﴾ اسْتِدْرَاكٌ عَلَىٰ الاسْتِثْنَاءِ، ولَيْسَ من المعقول أَنْ يَجْتَمِعَ مَا جَاءَ في الاسْتِدْرَاكِ مَعَ مَا جَاءَ في الاسْتِثْنَاءِ في وقْتٍ واحِدٍ للتناقض، فَمَنْ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ مُتَمَكِّنٌ مِنْ مَقْعَدِهِ فِيهِ، لَا يَكُونُ في الوقْتِ نَفْسِهِ شَارِحاً بالكُفرِ صَدْرَه، فَلَا بُدَّ مِنْ حَمْلِ الْعِبَارَة عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَمِرَّ عَلَىٰ طُمَأْنِينَتِهِ، بَلْ أَثَّرتْ عَلَيْهِ مُغْرِيَاتُ الدُّنيا وفاتِنَاتُهَا بَعْدَ ذَٰلِكَ، فانْطَمَسَتْ بَصِيرَتُهُ، وشَرَحَ بالكُفرِ مَعَ الْفُوَاتِنِ صَدْراً، وطَابَتْ نَفْسُهُ بِمَفْهُومَاتِ الكُفْرِ، إذْ تَأْتِي شَيَاطِينُ الإنْسِ والْجِنِّ فَتُزَيِّنُهَا لَهُ.

ومِنَ الَّذِينَ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ تَقِيَّةً لِيَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ عَذَابَ مُكْرِهِيهِ مِنَ المشرِكِينَ عَلَىٰ الكُفْرِ «عَمَّارُ بن يَاسِرٍ» فَقَدْ رَوَىٰ عبد الرّزاق، وابن سعد،

وابن جرير، والحاكم وصَحَّحهُ، وغَيْرُهُمْ، أنَّ المشْرِكِينَ أخَذُوا «عمَّارَ بن ياسر» فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّىٰ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ، فتَرَكُوه، فلَمَّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، قال لَهُ:

«مَا وَرَاءَكَ؟» قال: شَرٌ، مَا تُرِكْتُ، حَتَّىٰ نِلْتُ مِنْكَ وذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْر.

قال: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟». قال: مُطْمئِنًّا بالإيمان. قال: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ».

فَأَذِنَ الرَّسُولُ ﷺ لَهُ أَنْ يُعْلِنَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ كُفْرِهِ، بِشَرْطِ أنْ يَكُونُ قَلْبُهُ مُطْمئِناً بالإيمان.

وليس هٰذَا الإذْنُ خَاصاً بِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرِ، بَلْ هُوَ عامٌّ، وهو بيانٌ نَبَوِيٌّ لما جاء في قول اللهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾.

غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ نَفْسِهِ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ من آثَارِها الانْتِقَامُ والْعُقُوبَةُ.

• ﴿شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾: **الشَّرْح**: يأتي بمَعْنَىٰ الْبَسْطِ والتَّوْسِعَة، **والمعنى**: لَمْ يَضِقْ صَدْرُهُ بالكُفْرِ، ولَمْ يَجِدْ بِهِ حَرَجاً، بَلْ بَسَطَ صَدْرَهُ وَوَسَعَه لِيَسْتَقِرَّ فِيهِ الكُفرِ، بِسَبَبِ مَا جَلَبَ إِلَيْهِ الكُفْرُ مِنْ رَغَبَاتِ نَفْسِهِ مِنْ مَتاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، ولَذَّاتِها وَمُغْرِيَاتِها.

• ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: أي: ذَلِكَ الْغَضَبُ مِنَ اللهِ عَلَيْهِمْ وَالْعَذَابُ العظيم لَهُمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ أحَبُّوا مَتَاعَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حُبًّا شَدِيداً، وآثَرُوها على الآخِرَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ مقيم لا يَنَالُونَهُ إِلَّا بالإيمانِ بما أمَرَ اللهُ بالإيمان بِهِ، وتَعَامُوا عما فيها مِنْ عَذَابٍ عَظِيم أعْتَدَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَافِرِينَ.

اسْتَحَبُّوا: أي: أحبُّوا بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ، أخذاً من صيغة: «اسْتَفْعَلَ». وضُمِّنَ فِعْلُ ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ مَعْنَىٰ فِعْلِ: «آثَرُوا» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بِحَرْفِ «عَلَىٰ» وهٰذَا التَّضْمِينُ مِنْ إبْدَاعَاتِ القرآن، وهو كثيرٌ فيه.

• ﴿... وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾: أي: وَذَلِـــكَ الْغَضَبُ مِن اللهِ عَلَيْهِمْ والْعَذَابُ الْعَظِيمُ لَهُمْ يَوْم القيامَةِ بِسَبَبِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ هُوَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مِنْ حِكْمَتِهِ واختياراتِهِ أَنْ يَحْكُمَ للكافِرِينَ بالْهِدَايَةَ وَهُمْ ضَالُّونَ، فاللهُ أَحْكَمُ الْحَاكِمِين، وَهُوَ لَا يَحْكُمُ إِلَّا بالْحَق، إنَّ مَنْ كَانَ مُتصِّفاً بالْهِدَايَةِ حَكَمَ اللهُ لَهُ بالْهِدَايَة، ومَنْ كَانَ مُتَّصِفاً بالضَّلالَةِ حَكَم اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلالَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابِعاً بَيَانَهُ بِشَأْنِ الْمُرْتَدِّين:

• ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾:

﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: الطَّبْعُ في الماديَّاتِ الملْمُوسَةِ كالْخَتْم، وقَدْ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ، إِذَا أَرْسَلُوا رَسَائِلَ، وأَرَادُوا الْمُحَافَظَة عَلَىٰ سِرِّيَّةِ مَا فيها، أَقْفَلُوهَا بإحْكَام، وَوَضَعُوا عِنْدَ مَكَانِ إقْفَالِهَا طِيناً خاصًّا، يَطْبَعُونَ عَلَيْهِ خَاتَمَهُمُ الْخَاصَّ بهم، فَيَجِفُّ الطِّينُ وَمِثَالُ الْخَاتَمِ عَلَيْهِ مطْبُوعٌ، فَلا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ مَا فِي دَاخِلِ الرِّسَالَةِ إِلَّا بِكَسْرِ خاتَمِ الطِّين.

وعَلَىٰ سبيل التوسُّع فِي التَّعْبِيرِ بِنَقْلِ ما هُوَ لِلْمَادِّيَاتِ إِلَىٰ المعنويَّات، جاء في القرآنِ التَّعْبِير بالطَّبْع وَالْخَتْم، للدَّلالَةِ أَنَّ المطْبُوعَ عَلَيْهِ والمخْتُومَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُلُوبِ والسَّمْعِ والأَبْصارِ مَحْجُوبٌ عَنْ إدْرَاكِ أيِّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِمَا هِيَ مَحْجُوبَةٌ عَنْه.

فالطَّبْعُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ يَحْجُبُهَا عَنْ إدْرَاكِ مَا يَهْدِيهَا إِلَىٰ حَقَائِقِ الإيمان، وَحَقَائِقِ الْقَضَايَا الإسْلَامِيَّةِ ذَوَاتِ الأَدِلَّةِ الْبُرْهَانِيَّة.

والطَّبْعُ عَلَىٰ السَّمْعِ يَحْجُبُهَا عَنْ إِدْرَاكِ البيانَاتِ الرَّبَّانِيَةِ المنَزَّلَةِ فِي كِتَابِهِ، لِأَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ تَعَلُّقاً كَامِلاً بِمَا يَتَّصِلُ بِمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا.

والطَّبْعُ عَلَىٰ الأبْصَارِ يَحْجُبُهَا عَنْ مُشَاهَدَةِ الْجَوَانِبِ الَّتِي تَدُلُّهَا على آيات اللهِ في كَوْنِهِ، الْهَادِيَةِ إِلَىٰ الإيمانِ والإسلام.

وطَبْعُ اللهِ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وسَمْعِهِمْ وأبْصَارِهِمْ لَا يكونُ بِصُورَةٍ جَبْرِيَّةٍ ابْتِدَاءً، وإِنَّمَا يَكُونُ نتيجةَ مَا يَكْسِبُونَ بإراداتِهِم الحِرَّة، من أَعْمَالٍ ظَاهِرَةٍ أَوْ باطِنَةٍ يَتَوَلَّدُ عَنْهَا الطَّبْعُ بِمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللهِ في قَوانِينِ الأَسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ، كَمَنْ يَضَعُ يَدَهُ في النَّارِ، إِذْ يُحْرِقُهَا اللهُ لَه.

• ﴿... وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾:

الْغَفْلَةُ عَنِ الشّيْءِ: انْصِرَافُ الذِّهْنِ عَنْ مُلَاحَظَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ، مَعَ وُجُودِهِ فِي مَجَالِ الإِدْرَاكِ، أَوْ وُجُودِ أَدِلَّتِهِ وإمْكَانِ إِدْرَاكِهِ لَوْلَا وُجُودُ الصَّارِف أو السَّهْو، الَّذِي هُو بمَثَابَةِ إِطْبَاقِ الجفْنَيْنِ عَنْ الْعَيْنَيْن.

أي: وَأولَئِكَ الْبُعَدَاءُ عَنْ تَنَزُّلَاتِ رَحَمَاتِ اللهِ، الَّذِي كَفُروا مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِمْ، إِذِ اسْتَحَبُّوا الحياة الدُّنيا وآثَرُوهَا عَلَىٰ الآخِرَةِ، هُمْ بالْحَصْرِ والْقَصْرِ أَشَدُّ النَّاسِ غَفْلَةً عَمَّا هُوَ سَبَبُ سَعَادَتِهِمْ وَعَمَّا هُو سَبَبُ شقائِهِمْ في حَيَاةِ الْخُلُود.

• ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾:

﴿لَا جَرَمَ﴾: عبارةٌ تُسْتَعْمَلُ لِتَوْكِيد الْكَلَامِ وَتَوْثِيقِهِ، فهي بِمَنْزِلَة: «حَقًّا ـ لَا بُدَّ ـ لَا شَكَّ ـ لَا مَحَالَة» وأصْلُ معنى: «جَرَمَ» قَطع.

أي: مِنَ المؤكَّدِ قَطعاً أَنَّ هَؤُلَاءِ الْغَافِلِينَ، سَوْفَ يَكُونُونَ هُمُ مَعَ أَمْثَالِهِمْ الْخَاسِرِينَ كُلَّ شَيْءٍ، إِذْ سَوْفَ يَكُونُونَ في أَخَسِّ وأَحَطِّ دَرَكَةٍ مِنْ دَرَكَاتِ الْخَاسِرِينَ، النَّادِمِينَ عَلَىٰ مَا سَلَفَ مِنْهُمْ من ارْتِدَادِ عَنِ الإيمان إِلَىٰ

الكُفْرِ، وَعَلَىٰ مَا حَوَّلُوا اخْتِيَارَهُمْ عَنْهُ بِإرَادَاتِهِمُ الحرَّةِ تَعَلُّقاً بِمَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا وزِينَتِها، مَعَ أَنَّها متاعُ الْغُرُور.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الْمُهَاجِرِينَ في سبيله:

• ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾: وفي قراءة ابْنِ عامر: [فَتَنُوا].

اخْتِيرَ الْعَطْفُ بحرف «ثُمَّ» للإشْعَارِ بِأَنَّ المتحدَّث عَنْهُم بَعْدَهَا أَصْحَابُ رُتْبَةٍ عِنْدَ اللهِ رَفِيعَة، بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنِ المرْتَدِّينَ الْخَاسِرِينَ أَصْحَابِ الدَّرَكَةِ الْوَضِيعَةِ، وَهُوَ مِنْ عَطْفِ مَوْضُوعٍ عَلَىٰ مَوْضوعٍ.

تَعَرُّضُ أَصْحَابِ الرَّسولِ ﷺ لأَنْوَاعٍ مِن التَّعْذِيب والاضطهادِ بأَيْدِي أئِمَّةِ المشْرِكِين:

جَاء فِي سِيرَةِ «ابن هِشَام» عن ابن إسحاق: أنَّ «سَعِيدَ بْنَ جُبَيْر» قال: قُلْتُ لعبد الله بْن عَبَّاسٍ: أَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَبْلُغُونَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْعَذَابِ مَا يُعْذَرُونَ بِهِ في تَرْكِ دِينهِم؟.

قال: نَعَمْ وَاللهِ، إنْ كَانُوا لَيَضْرِبُونَ أَحَدَهُمْ، وَيُجِيعُونَهُ، وَيُعَطِّشُونَهُ حَتَّىٰ مَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَوِيَ جَالِساً[1] مِنْ شِدَّةِ الضُّرِّ الَّذِي نَزَلَ بِهِ، حَتَّىٰ يُعْطِيَهُمْ مَا سَأَلُوهُ مِنَ الْفِتْنَةِ، حَتَّىٰ يَقُولُوا لَهُ: اللَّاتُ والْعُزَّىٰ إلَٰهكَ مِنْ دُونِ اللهِ؟ فَيَقُولُ: نعم. حَتَّىٰ إِنَّ الْجُعَلَ لَيَمُرُّ بِهِمْ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَهَذَا إِلَٰهُكَ مِنْ دُونِ اللهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. افْتِدَاءً مِنْهُمْ مِمَّا يَبْلُغُونَ مِنْ جَهْدِهِ.

تَوْجِيهُ الرَّسُول ﷺ لِلْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ مَنْ كَانَ يُعَذَّبُ مِنْ أَصْحَابِهِ:

جاء في سيرة «ابن هِشَامٍ» عن ابن إسْحَاق:

---

(١) أي: ما يَقْدِرُ أنْ يَعْتَدِلَ جالِساً، رافعاً ظَهْرَهُ عَنِ الأَرْض.

فَلَمَّا رَأَىٰ رَسُولُ الله ﷺ مَا يُصِيبُ أَصْحَابَهُ مِن الْبَلَاءِ، وَمَا هُوَ فِيهِ مِن العافِيَة، بِمَكَانِهِ مِنَ اللهِ ومِنْ عَمِّهِ أَبِي طَالب، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَمْنَعَهُمْ ممَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ، قَالَ لَهُمْ:

«لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَىٰ أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَإِنَّ بِهَا مَلِكاً لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّىٰ يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجاً مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ».

فَخَرَجَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ أَرْضِ الْحَبَشَةِ، مَخَافَةَ الْفِتْنَةِ، وفِرَاراً إِلَىٰ اللهِ بِدِينِهِمْ، فَكَانَتْ أَوَّلَ هِجْرَةٍ في الْإِسْلَام.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَـٰذِهِ الآية (١١٠) من السُّورة نَزَلَتْ بِمُنَاسَبَةِ هَـٰذِهِ الْهِجْرَةِ الَّتِي هَاجَرَهَا بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ إلى الْحَبَشَةِ، مَخَافَةَ الْفِتْنَةِ، وفِرَاراً إِلَىٰ اللهِ بِدِينِهِمْ، فآوَاهم اللهُ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ آمِنِينَ، مُدَّةَ هِجْرَتِهِمْ.

وهَـٰذِهِ الْآيَةُ تُؤْخَذُ عَلَىٰ عُمُومِهَا، وَلَا تُحْمَلُ عَلَىٰ خُصُوصِ السَّبب، فَكُلُّ مَنْ هَاجَرَ في سَبِيلِ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنَ في دِينِهِ في وَطَنِهِ مِنْ قِبَلِ كَفَرَةٍ بَاغِينَ ظَالِمِينَ، ثُمَّ جاهَدَ وَصَبَرَ وَلَمْ تُغَيِّرْ أَحْدَاثُ الْهِجْرَةِ شيئاً فِي قَلْبِهِ وإيمانِهِ غفَرَ اللهُ لَهُ وَأَحَاطَهُ بِرَحْمَتِهِ.

وَتَشْمَلُ قراءةُ ابْنِ عَامِر: ﴿فَتَنُوا﴾ مَنْ كَانَ لَهُ قَبْلَ إِسْلَامِهِ تَعْذِيبٌ لِبَعْضِ الْمسْلِمِينَ لِيَعُودُا إِلَىٰ الشِّرْكِ، ثُمَّ أَسْلَمَ وهَاجَرَ، ثُمَّ جاهَدَ وصَبَر.

• ﴿... إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾: أي: لَغَفُورٌ كثيرُ المغْفِرَةِ لَهُ، رَحِيمٌ بِهِ يَغْمُرُهُ بِعَطَايَاهُ الْمُسْعِدَةِ لَهُ، الَّتِي هِيَ مِنْ آثار رَحْمَتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً لَقَطاتٍ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ تَأْكِيداً أَوْ تَأْسِيساً:

• ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾:

أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّهَا المتَلَقِّي لِبَيَانَاتِ رَبِّكِ، هَـٰذِهِ الْقَضَايَا الثَّلاثَ الَّتِي سَوْفَ تَحْدُثُ يَوْمَ الْقِيَامَة:

الْقَضِيَّةُ الْأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾: أي: تَأْتِي كُل نَفْسٍ كَانَتْ مَوْضُوعَةً في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ عَلَىٰ مَوْقِفِ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاء في المحْكَمَةِ الرَّبَّانِيَّة، لَا مُحَامِيَ عَنْهَا، بَلْ هِي الَّتِي تُسْأَل عَمَّا أَسْلَفَتْ في الحياة الدُّنْيَا، وهِيَ الَّتِي تُجَادِلُ دِفَاعاً عَنْ نَفْسِهَا، إِنْ كَانَ لَدَيْهَا مَا تُجَادِلُ بِهِ دِفَاعاً عَنْ نَفْسِهَا، لِتَقْدِيمِ عُذْرِهَا فيما ارْتَكَبَتْهُ مِنْ خَطَايَا.

الْقَضِيَّة الثَّانِية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾: أي: وتُعْطَىٰ كُلُّ نَفْسٍ عَمِلَتْ صَالِحاً أَجْرَ مَا عَمِلَتْ وَافِياً غَيْرَ مَنْقُوصٍ، عَلَىٰ وَفْقِ مَا سَبَقَ بِهِ الْوَعْدُ الرَّبَّانِيُّ المنَزَّلُ في كِتَابِهِ، والمبَيَّنُ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُوله.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾: أي: وَكُلُّ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُمْتَحَنِين لَا يُظْلَمُونَ شيئاً مُسْيؤُوهُم وَمُحْسِنُوهُمْ، فالمسِيؤونَ مِنْهُم يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِمْ بِالْعَدْلِ ويَتَجَاوَزُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ، فَهُمْ بِهـٰذَا لَا يُظْلَمُونَ مِثْقَالَ ذَرَّة. والمحسِنُونَ مِنْهُمْ يَحْكُمُ اللهُ لَهُمْ بالْفَضْلِ، وَيُضَاعِفُ لَهُمْ أَعْدَادَ حَسَنَاتِهِم، وتُضَاعِفُ لَهُمْ أُجُورَهُمْ عَلَيْهَا إِلَىٰ سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ إِلَىٰ أَضْعَافٍ كثِيرَةٍ، فَكَيْفَ بَعْدَ هـٰذَا يُتَصَوَّرُ أَنَّهُمْ يُظْلَمُون.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الرابع والعشرون من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

(٢٨)
التدبُّر التحليلي للدّرس الخامس والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيتان (١١٢ - ١١٣)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ بِشَأْنِ كُفَّارِ مَكَّة، وَمُعَالَجَتِهِمْ بِبَعْضِ المصَائِبِ الَّتِي أنْزَلَهَا بِهِمْ، والرَّسُولُ ﷺ يَدْعُوهُمْ إلَىٰ الإسْلامِ بِحِكْمَةٍ وَحِلْمٍ وَصَبْرٍ كثير.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

جاء في أخبار السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ لـمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ، ولَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، وأَبَوْا إلَّا خِلافَهُ، وَكَانَ قَدْ صَبَرَ عَلَىٰ مُعَالَجَتِهِمْ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ الدَّعَوِيَّة الحكِيمة، دَعَا عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام في مِصْرَ، فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ أَذْهَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنْ جُوعِهِمْ «الْعِلْهِز» وهُوَ وَبَرُ الْبَعِيرِ يُخْلَطُ بِدَمِهِ إذَا نَحَرُوه.

ورُويّ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَال في دُعَائِهِ عليهم:

«اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَىٰ مُضَر، واجْعَلْها عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُف» فَابْتَلُوا بالْقَحْطِ حَتَّىٰ أَكَلُوا الْعِظَام.

وذَهَبَ أكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ إلَىٰ الْمُرَادَ بالْقَرْيَةِ الَّتِي ضَرَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا الْمَثَلَ هِي مَكَّةُ الْمُكَرَّمَةُ حِينَ اسْتَعْصَىٰ أَهْلُهَا عَنْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِلرَّسُولِ ﷺ، وَيَقْبَلُوا دَعْوَتَهُ، بَلْ شَاقُّوهُ وَقَاوَمُوا دَعْوَتَهُ، واضْطَّهَدُوا وَعَذَّبُوا مَنْ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، مِمَّنْ لَيْسَ لَهُمْ شَوْكَةٌ، وَلَا عُزْوَةٌ تَحْمِيهِمْ.

أقُولُ: وَضَرْبُ المثَلِ بِمَا نَزَلَ بِأَهْلِ مَكَّةَ لَهُ صِفَةُ التَّعْمِيمِ عَلَىٰ كُلِّ أَشْبَاهِهِ فِي غَابِرِ الزَّمِنِ، ومُسْتَقْبَلِهِ، إِذْ يَأْتِي ضَرْبُ المثَلِ لِلْقِيَاسِ عَلَيْهِ، وهُوَ أَحَدُ أَفْرَادِ كُلِّيَّةٍ عَامَّة، هي مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي عِبَادِهِ.

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾: أيْ: وَصَنَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَدَابِيرِ تَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ لِمُجَازَاةِ عِبَادِهِ مُجَازَاةً تَأْدِيبِيَّةً تَحْذِيرِيَّة، مَثلاً وَاقِعِيًّا قَرِيباً، هَـٰذَا الْمَثَلُ هُوَ مَا أَنْزَلَهُ بأهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ رَسُولِ رَبِّهِمْ، بَلْ شَاقُّوهُ وَقَاوَمُوهَا كِبْراً وَعِنَاداً.
- ﴿قَرْيَةً﴾ الْقَرْيَةُ تُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مُجمَّعٍ سَكَنِي صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ جدّاً.
- ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾: الْمُرَادُ بالْقَرْيَةِ أَهْلُهَا وَسُكَّانها، وَهَكَذَا كَانَ حَالُ أَهْلِ مَكَّةَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ يَأْتِيهِمْ رِزْقُهُمْ رَغداً مِن كُلِّ مَكَانٍ.
- لَقَدْ كَانُوا آمِنِينَ، والنَّاسُ يُتَخَطَّفُونَ مِنْ حَوْلِهِمْ، قَضَىٰ اللهُ لَهُمْ بِالأَمْنِ، مِنْ أَجْلِ بَيْتِهِ الْحَرَام في بَلَدِهِمْ مَكَّةَ المكَرَّمَة.
- وَكَانُوا مُطْمَئِّنِين، أي: سَاكِنِينَ بِراحَةٍ واسْتِقْرَار، خَالِينَ مِمَّا يُقْلِقُهُمْ وَيُزْعِجُهُمْ. **الطُّمْأْنِينَة**: السُّكُونُ بِراحَةٍ خَالِيَةٍ مِمَّا يُقْلِقُ.

• وَكَانَتْ تَأْتِيهِمْ أَرْزَاقُهُمْ كثِيرةً وَاسِعَةً طَيِّبَةً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ مَجْلِبُونَ مِنْهُ عَادَة أَرْزَاقَهُمْ، أَوْ تُجْلَبُ مِنْهُ الْأَرْزَاقُ إلى أَرْضِ الْحِجَاز.

الرَّغَدَ والرَّغْدُ: الكثير الطَّيِّبُ الْوَاسِعُ الرَّفِيهُ.

• ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾: أي: جَحَدَتْ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَشْكُرْهَا بِالْإيمانِ بوَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وفي إلَهِيَّتِهِ، وكَذَّبَتْ رَسُولَهُ، وكَذَّبَتْ بالكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ.

أنْعُمْ: جَمْعُ «نِعْمَة».

• ﴿... فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

اسْتُعِيرَ فِعْل «أذَاق» لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ الإحْسَاسِ الشَّدِيد بأَلَم الْجُوع وأَلَم الْخَوْفِ، إذْ حَاسَّةُ الذَّوْقِ أَشَدُّ الْمَوَاضِعِ إحْسَاساً بِمَا يُلامِسُها. وأُطْلِقَ الذَّوْقُ عَلَىٰ القريّة والمراد أهْلُها، وهو من إطلاق المحَلّ وإرَادَةِ الْحَالِّ فيهِ.

واسْتُعِيرَ اللِّبَاسُ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْجُوعَ كَانَ الْإِحْسَاسُ بِهِ إحْسَاساً شَامِلاً لِجَسَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، كَشُمُولِ اللِّبَاسِ السَّابِغ، وللدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْخَوْفَ كَانَ الإحْسَاسُ بِهِ إحْسَاساً شَامِلاً أَيْضاً.

وَهٰذَا التَّعْذِيبُ بِالْمَصَائِبِ الَّتِي هِيَ مِنْ عَوَارِضِ مَصَائِبِ الدُّنْيَا، قَدْ كَانَ تَعْذِيباً تَأْدِيبًا، وَتَذْكِيرًا بالْعَذَابِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ الدِّينِ، لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ.

وَسَبَبُهُ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ مِنْ كُفْرِيَّاتٍ، وَجَرائِمَ بِتَعْذِيب المؤمِنِينَ: ﴿... بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ «البَاء» سَبَبِيَّة، أي: بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيثَ عَنْهُمْ:

• ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

يُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ بِعِبَارَة «لَقَدْ» أَنَّهُ جَاءَهُمْ رَسُولٌ أَرْسَلَهُ اللهُ رَبُّهُمْ إِلَيْهِمْ، مَصْحُوباً بالآيَاتِ البيِّنَاتِ الشَّاهِدَاتِ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولِ اللهِ حَقّاً وصِدْقاً.

وَهُوَ مِنْهُمْ نَسَباً، وَلُغَةً، وَنَشْأَةً، يَعْلَمُونَ صِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعِفَّتَهُ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيم، وَقَدْ عَلِمُوا مِنْ صِفَاتِهِ وِمِنْ سُلُوكِهِ فِي مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وَصِدْقاً، فَكَذَّبُوهُ جُحُوداً وَعِنَاداً واسْتِكْبَاراً.

فَأَخَذَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ عَذَابُ الْجُوعِ والْخَوْفِ، والْحَالُ أَنَّهُمْ ظَالِمُونَ ظُلْماً عَظِيماً مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ الْجُحُودِيِّ الْعِنَادِيّ الاسْتِكْبَارِي.

الْأَخْذ: أَصْلُهُ الْقَبْضُ عَلَىٰ الشَّيْءِ، وبالتَّوسُّعِ صَارَ يُطْلَقُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ مَا يُؤْخَذُ لَهُ الشَّيْءُ، وَعَلَىٰ هـٰذَا المعْنَىٰ جَاءَ إِطْلَاقُ الْأَخْذِ في الْقُرْآنِ فِي نُصُوصٍ كَثِيرة، فَمِنَ الأَخْذِ الْعِقَابُ التَّأْدِيبيُّ الْجُزْئِيُّ، ومِنَ الْأَخْذِ الْإِهْلَاكُ الاسْتِئْصَالِيُّ الشَّامل.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدبُّر الدّرس الخامس والْعِشْرِين من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٢٩)
التدبُّر التحليلي للدّرس السادس والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات من (١١٤ ـ ١١٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ

لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا
تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾
وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾:

القراءات:

(١١٥) • قرأ أبو جعفر: [**المَيِّتَةَ**] بتَشْدِيدِ الْيَاءِ مَكْسُورَة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الْمَيْتَةَ**] بإسْكانِ الْيَاء.

(١١٥) • قرأ أبو عَمْرو، وعاصِمٌ، وحمْزَة، ويَعْقُوب: [**فَمَنِ ٱضْطُرَّ**].

وقرأها أبو جعفر: [**فَمَنُ ٱضْطِرَّ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فَمَنُ ٱضْطُرَّ**].

وهي وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ من الْأَدَاء.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ توجيهٌ للنَّاسِ بأنْ يَأْكُلُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ حَلالاً طَيّباً، وَيَشْكُرُوا نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ، مَعَ بَيَانِ المحَرَّمَاتِ مِنَ المطاعم، وَمَعَ التّحْذِيرِ من التحليل والتَّحْرِيمِ افْتِرَاءً عَلَىٰ الله.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً للنَّاسِ بَعْدَ ضَرْبِ المثَلِ بأصْحَابِ الْقَرْيَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا بأنْعَمِ اللهِ في الآية (١١٢):

• ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾:

أي: فَلَا تكُونُوا أمْثَالَ أصْحَابِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِين، بَلْ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللهُ فِي كَوْنِهِ حَسْبَ اختياراتِكُمْ، حَالَةَ كَوْنِ مَا تَخْتَارُونَهُ حَلالاً طَيِّباً، أي: لَيْسَ مِمَّا حَرَّمَهُ اللهُ مِنْ مَطَاعِمَ، وَلَيْسَ مِنَ الْخَبَائِثِ أَوِ الأَشْيَاءِ الضَّارَّةِ غَيْرِ الطَّيِّبَةِ، واجْعَلُوا مَا تَنْتَفِعُونَ وَتَسْتَمْتِعُونَ بِهِ مِنْ رِزْقِ اللهِ لَكُمْ مُقْتَرِناً وَمَتْبُوعاً بِشُكْرِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَهِيَّتِهِ، وَتَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ شيئاً.

• ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ مَنْصُوبَانِ عَلَىٰ الحاليّة، أي: فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ، بِقَيْدِ كَوْنِهِ حَلالاً طَيِّباً.

الْحَلَال: مَا أَحَلَّهُ اللهُ لِعِبَادِه.

الطَّيِّبُ: ضِدُّ الْخَبِيثِ المسْتَقْذَر، وضِدُّ الضَّارِّ والمؤْذِي.

• ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: الشُّكْرُ مُقَابَلَةُ المنْعِمِ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ. ويَدْخُلُ فِيهِ الإِيمَانُ والإِسْلَامُ، والْحَمْدُ، والطَّاعَةُ، والتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِمَا شَرَعَ مِنْ نَوافِل.

• ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: أي: إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مُشْرِكين فأَنْتُمْ لَا تَعْبُدُونَ شيئاً غَيْرَهُ سُبْحانه.

اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ مِن تَقْدِيم المعْمُولِ: ﴿إِيَّاهُ﴾ على عامِلِهِ: ﴿تَعْبُدُونَ﴾.

العِبَادَةُ: الخضوعُ، والطَّاعَةُ، والقيامُ بما يُرْضِي المعْبُودَ، وتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَا حَرَّمَ عَلَىٰ النَّاسِ مِنَ الْمَطَاعِمِ الَّتِي يَأْكُلُ النَّاسُ مِنها:

• ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾:

أي: مَا حَرَّمَ اللهُ فِيمَا سَبَقَ عَلَيْكُمُ الْأَكْلَ مِنْ أَجْسَادِ الْأَحْيَاءِ غَيْرِ الإنْسانِيَة الَّتِي تَأْكُلونَ مِنْهَا إِلَّا أَرْبَعَةَ مُحَرَّمَات:

الْمُحَرَّمُ الْأَوَّل: الْمَيْتَة، وهي كُلُّ بَهِيمَةٍ مَاتَتْ بِانْتِهَاءِ أَجَلِهَا، دُونَ ذَبْحِ أَوْ قَتْلٍ أَوْ صَيْدٍ.

الْمُحَرَّمُ الثَّانِي: الدَّم، وهو الدَّمُ السَّائل، وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ يَأْخُذُونَ الدَّمَ السَّائِلَ وَيَمْلَؤُونَ بِهِ بَعْضَ أمْعَاءِ الْبَهَائِمِ، ويُجَفِّفُونَهُ، ثُمَّ يَشْوُونَهُ أَوْ يَطبُخُونَهُ وَيَأْكُلُونه.

وقَدْ جَعَلَ اللهُ فِي كُلِّ الرِّسَالَاتِ السَّابِقَةِ أَكْلَ الدَّمِ مُحَرَّماً.

الْمُحَرَّمُ الثَّالث: لَحْمُ الْخِنْزِيرِ، بِرِّيًّا كَانَ، أَمْ أَهْلِيًّا يُرَبَّىٰ في الحظائِر، والابْتِعَادُ عَنِ الْأَكْلِ مِنْ لَحم الْخِنْزِيرِ عِبَادَةٌ للهِ تَعالَىٰ، ولَا يَجُوزُ الْأَكْلُ مِنْهُ، وَلَوْ عُولِجَ بالْوَسَائِلِ الصِّحِّيَّةِ حَتَّىٰ صَارَ سَلِيماً مِنْ كُلِّ تَأْثِيرٍ ضَارٍّ أَوْ مُؤْذٍ لِصِحَّةِ الآكِلِينَ مِنْهُ.

الْمُحَرَّمُ الرابع: مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ، أي: أعْلَنَ ذَابِحُهُ أَنَّهُ يُقَدِّمُهُ قُرْبَاناً لِغَيْرِ اللهِ، أَصْلُ معْنَىٰ إِهْلَالِ الذَّابِحِ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ ذَاكِراً اسْمَ مَنْ يُقَدِّمُ ذَبِيحَتَهُ قُرْبَاناً له، وَهـٰذَا مِنْ عِبَادَاتِ المشْرِكِينَ لِغَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، فَجَعَلَهُ اللهُ مُحَرَّماً، لِأَنَّ الْأَكْلَ مِنْهُ إِقرارٌ لِعِبَادَةٍ مِنْ عِبَادَاتِ المشْرِكِين.

ورخَّصَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِلْمُضطرّ بِأَنْ يَأْكُلَ مِن هَـٰذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ، بِشَرْطِ أَنْ لَا يَكُونَ بَاغِياً وَلَا عَادِياً، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

- ﴿... فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾:

أي: فَمَنْ جاعَ جُوعاً شَدِيداً، وَلَمْ يَجِدْ طَعَاماً يَأْكُلُهُ إِلَّا شَيْئاً مِنْ هـٰذَا الْمُحَرَّمَاتِ، فَأَكَلَ مِنْهَا مَا يَسُدُّ بِهِ ضَرُورَتَهُ، لَمْ يُؤَاخِذْهُ اللهُ عَلَىٰ مَا فَعَلَ، بَلْ جَعَلَ لَهُ رُخْصَةً فِي هـٰذَا.

وَجاءَت عِبارَة: ﴿... فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ كِنايَةً عَنْ أَنَّ اللهَ يَغْفِرُ لَهُ وَيَرْحَمُهُ وَلَا يُؤَاخِذُهُ عَلَىٰ ما فَعَلَ، لِأَنَّهُ أَخَذَ بالرُّخْصَةِ بِمِقْدَارِ ضَرُورَتِهِ.

ولَكِنَّ هٰذِهِ الرُّخْصَةَ الرَّبَّانِيَّةَ مَشْرُوطَةٌ بِشَرْطَيْن:

الشَّرْطُ الْأَوَّل: أَنْ لَا يَكُونَ المضْطَرُّ بَاغِياً، أي: أَنْ لَا تَكُونَ مَعْصِيَتُهُ للهِ هِي الَّتِي أَوْصَلَتْهُ إِلَىٰ حالَةِ الاضْطِرار الَّتِي هُو فيها.

الْبَغْيُ: تجاوُزُ الْحدِّ، والظُّلْمُ. **والْبُغَاةُ**: قُطَّاعُ الطُّرُقِ ظُلْماً وعُدْوَاناً، وَالْخارِجُونَ عَلَىٰ الدَّوْلَةِ الإسْلَامِيَّةِ بِغَيْرِ حَقٍّ.

فَمَنْ سَافَرَ لِيَعْصِيَ اللهَ في سَفَرِهِ، فَلَا رُخْصَةَ لَهُ. وعِصَابَاتُ قُطَّاعِ الطُّرُقِ الْبُغَاةُ لَا رُخْصَةَ لهم، والْخارِجُونَ عَلَىٰ الدَّوْلَةِ الإسْلَامِيَّةِ بِغَيْرِ حَقٍّ لَا رُخْصَةَ لَهُمْ.

الشّرْطُ الثّاني: أَنْ لَا يَكُونَ المضْطَرُّ عَادِياً. **الْعَادِي**: هُوَ الَّذِي يَتَجاوَزُ حَدَّ الْحَقّ، وَحَدُّ الرُّخْصَةِ هُنَا أَنْ يَأْكُلَ الْمُرَخَّصُ لَهُ بِمِقْدَارِ مَا يَدْفَعُ بِهِ اضْطِرَارَه، فإذَا جاوَزَ حَدَّ الرُّخْصَةِ وَجَعَلَ يَستزيدُ مِنَ الأكْلِ لإِرْضَاءِ شَهْوَتِهِ لِلطَّعَام، وَرَغْبَةِ نَفْسِهِ بالشِّبَعِ الزائِدِ عَنِ الحدّ، فَهُوَ عَادٍ يَأْكُلُ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ أَكْلَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَقَدْ تَجاوَزَ حُدُودَ الرُّخْصَة.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ في التحليلِ والتحريمِ مُخَاطِباً لهم:

• ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾:

• ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾)

كَانَ لِأَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ أَحْكَامٌ فِي الْمَطَاعِمِ افْتَرَوْهَا عَلَىٰ اللهِ، فَأَحَلُّوا بَعْضَهَا بِأَهْوَائِهِمْ وَحرَّمُوا بَعْضَهَا بأَهْوَائِهِمْ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ هٰذَا لَدَىٰ تَدبُّرِ الدَّرْسِ (٣١) من سورة (الأنْعَام/ ٥٥ نزول).

إِذَا قَالَ القَائِلِ: هٰذَا حَلَالٌ، فإِنَّهُ يَصِفُهُ بِالْحِلِّ، وَإِذَا قَالَ: هٰذَا حَرَامٌ، فَإِنَّهُ يَصِفُهُ بالْحُرْمَةِ.

والتَّحْلِيلُ والتَّحْرِيمُ مِنْ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وإِلَهِيَّتِهِ لِعِبادِهِ، فإذا كَانَ الْوَاصِفُ الَّذِي يَصِفُ شَيْئاً مَا بأَنَّهُ حَلَالٌ، أَوْ بِأَنَّهُ حَرَامٌ، لَيْسَ لَهُ فِيهِ عَنِ اللهِ خَبَرٌ صَادِقٌ، وَلَا دَلِيلٌ نَصَبَهُ اللهُ لِمَعْرِفَةِ حُكْمِهِ، فَهُوَ كَاذِبٌ يَفْتَرِي عَلَىٰ اللهِ فيما هُوَ مِنْ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَهِيَّتِهِ، وقولُهُ: هٰذَا حَلَالٌ، وَهٰذَا حَرَامٌ وَصْفٌ كَذِبٌ يَقُولُهُ بِلِسَانِهِ.

فالمعنى: وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْوَصْفَ الكَذِبَ مِنْ أَحْكَامٍ هِيَ مِنْ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وإِلَهِيَّتِه: هٰذَا الشيء حَلَالٌ، وَهٰذَا الشَّيْءُ الْآخَرُ حَرام.

• ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: أي: لِيَكُونَ مِنْ نَتِيجَةِ وَصْفِكُمْ افْتِرَاؤُكُم الكَذِب عَلَىٰ اللهِ، فالَّامُ في ﴿لِّتَفْتَرُوا۟﴾ لَيْسَتْ لَامَ التَّعْلِيلِ إِنَّما هِيَ لَامُ الْعَاقِبَةِ.

• ﴿... إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾: أي: إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ الكَذِبَ عَنْ عَمْدٍ، أَوْ يُؤَدِّي تَصَرُّفُهُمْ إِلَىٰ نَتِيجَةٍ فِيها افْتِرَاءُ الْكَذِب عَلَىٰ اللهِ، لَا يُفْلِحُونَ.

• ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾: أي: لَا يَنْجُونَ مِنْ عَذَاب الله، ولا يفوزون ولا يظفرون. وأَصْلُ الفلاح البقاءُ في النَّعِيم.

• ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾: أي: إِنَّ تَدَخُّلَهُمْ فِي أَحْكَامِ التَّحْلِيلِ والتَّحْرِيمِ الَّتِي هِي مِنْ خَصَائِصِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، قَدْ يَسْتَفِيدُونَ

مِنْهُ شيئاً مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، لَكِنْ وَصَفَهُ اللهُ بِأَنَّهُ مَتَاعٌ قَلِيلٌ، إِذْ هُوَ قَلِيلُ الْقِيمَةِ، وَقَلِيلُ المِقْدَار مُعَرَّضَ للزَّوالِ السَّرِيع، وَهَكَذَا كُلُّ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا.

وَهَٰؤُلَاءِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مُعَدٌّ لَهُمْ يُعَذَّبُونَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِمُشَارَكَتِهِمْ للهِ فيما هُوَ مِنْ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَهِيَّتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّ الْحَصْرَ الَّذِي جَاءَ في الآيَةِ (١١٥) عَامٌّ فِي غَيْرِ الْيَهُودِ الَّذِينَ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِم فَوْقَهَا مُحَرَّمَاتٍ أُخْرَىٰ هِي مِن الطَّيِّبَاتِ بِسببِ ظُلْمٍ كَبِيرٍ كَانَ مِنْهُمْ:

• ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾:

سَبَقَ أَنَّ قَصَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلى رَسُولِهِ فِي سُورَة (الأنْعَام/ ٥٥ نُزُول) تَفْصِيلَ مَا حَرَّمَهُ عَلَىٰ الْيَهُودِ خَاصَّةً، زِيَادَةً عَلَىٰ الْمُحَرَّمَاتِ الْعَامَّةِ الَّتِي حَرَّمَهَا عَلَىٰ النَّاسِ فِي رِسَالاتِهِ، وهو مَا جَاءَ في قوله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾:

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هَـٰذِهِ الآيَةِ فِي مَكَانِهَا مِنْ سُورَةِ (الأنْعَام).

• ﴿... وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾:

يَتَحَدَّثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم مُبَيِّناً أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ مَا ظَلَمَ الْيَهُودَ بِتَشْدِيدِ أَحْكَامِ التَّحْرِيمِ عَلَيْهِمْ، وإِنَّمَا كَانَ هـٰذَا بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ الْمُبَالَغِ فِيهِ، فَهُمْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ في الحقيقةِ. إذ تَسَبَّبُوا لِأَنْفُسِهِمْ بالتَّشْدِيدِ عليهم.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُطْمِعاً عِبَادَهُ بالْغُفْرَانِ والرَّحْمَةِ إذَا تَابُوا وأَصْلَحُوا:

• ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ الْبَيَانَاتِ السَّابِقَاتِ الْمُرْهِبَاتِ نُطْمِعُ التَّائِبِينَ الْمُصْلِحِينَ الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ بِالْغُفْرَانِ والرَّحْمَةِ الْعَظِيمَة، مَهْمَا طَالَتِ الْمُدَّةُ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَ فِيها السَّيِّئَاتِ.

السُّوءُ: كُلُّ قَبيحٍ أَوْ مَكْرُوهٍ، والمرادُ هُنَا مَا هُوَ قبيحٌ وَمَكْرُوهٌ شَرْعاً.

بِجَهَالَة: مُتّصِفاً باندِفَاعٍ نَفْسِيٍّ غَيْرِ رَشِيد، كشَهْوَةٍ، أَوْ غَضَبٍ، أَوْ رَغْبَةٍ جَامِحَة جانِحَةٍ، تُغَشِّي عَلَىٰ الْبَصِيرَةِ.

وأَصْلَحُوا: أَيْ: فَعَلُوا مَا هُوَ صَالِحٌ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ أو اعْتِقَاد.

• ﴿... إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾: أي: إنَّ رَبَّكَ لَكَثِيرُ الْغُفْرَانِ لَهُمْ، وواسِعُ الرَّحْمَةِ الَّتِي يَرْحَمُهُمْ بِها، مِنْ بَعْدِ تَوْبَتِهم.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السادس والعشرين من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٣٠)

التدبُّر التحليلي للدّرس السابع والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات من (١٢٠ ـ ١٢٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً

وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

القراءات:

(١٢٠ و١٢٣) • قرأ هِشَام: [إِبْرَاهَام] في الموضِعَيْن.

وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِبْرَاهِيمَ].

وَهُمَا نُطْقَانِ مَعْرُوفَانِ في الْعَرَبِ لِسَيِّدِنَا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

(١٢١) • قرأ قُنْبُل، ورُويس [سِرَاطٍ].

وقَرَأَهَا خَلَفَ عَنْ حَمْزَة بإشمام الصّاد زاياً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [صِرَاطٍ] بالصّاد الخالِصَة.

تَمْهِيد:

فِي هٰذَا الدَّرْسِ ضَرْبُ مَثَلٍ للشَّاكِرِينَ بإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، وفِيهِ أَمْرٌ لِلرَّسُولِ محمّد ﷺ باتّباعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَصِفُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً
وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

يُؤَكّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بـ «إنّ ـ والْجُمْلَة الاسْمِيَّة» أنَّ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، كَانَ لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ مَا يلي:

الصِّفَة الأولىٰ: أَنَّهُ كَانَ أُمَّةً وَحْدَه، إذْ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ الدِّينِ الْحَقِّ فِي أَوَّلِ نَشَأَتِهِ غَيْرُهُ، فَحَمَلَ عِبْءَ الدَّعْوَةِ إلَىٰ التوحِيدِ ونَبْذِ الْوَثَنِيَّة وَحْدَه.

الأُمَّة: تُطْلَقُ في الاسْتِعْمَالِ القرآنيَّ عَلَىٰ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ تَجْمُعها صِفَاتٌ، أَوْ خَصَائِصُ، أَوْ رَوابط مُتَمَيِّزَة. وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَىٰ الْفَرْد الوَاحِدِ المتَمَيِّز بِصِفَاتٍ لَا يُشَارِكُهُ فيها غَيْرُهُ لفظ أمَّة.

الصِّفَة الثّانية: أَنَّهُ كَانَ قَانِتاً لله، أي: عابداً لله، مُطِيعاً خاضِعاً لَهُ، يَذِلُّ لَهُ فِي عِبادَتِهِ.

الصِّفَة الثالِثة: أَنَّهُ كَانَ حَنِيفاً، أي: كَانَ مائِلاً عَنْ كُلِّ الأدْيَانِ الباطِلَة، المائِلَةِ عَنْ صِرَاطِ الحقِّ والْهُدَىٰ، وَهـٰذَا لَا يَكُونُ إلَّا بالاسْتِقَامَةِ عَلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ ذِي الصِّرَاط المستقيم، لِأَنَّ كُلَّ الأدْيَانِ والْمِلَلِ الباطِلَة مَائِلَةٌ عَنْهُ إلى جهات مختلفاتٍ، مَائِلَاتِ السَّاحَات اللّوَاتِي لَيْسَتْ عَلَىٰ الصِّراطِ المستقيم.

الصِّفَة الرَّابِعَة: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ المشْرِكين، فَقَدْ كَانَ لَا يُشْرِكُ باللهِ أَرْبَاباً، وَلَا آلِهَةً، وَلَا أَسْبَاباً، بَلْ كَانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ مَحْكُومٌ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ لَهُ، إيجاداً وَإعداماً وَتَصَارِيفِ وَتغييرَاتِ وَحَرَكَاتٍ وَسَكَنَات.

الصِّفَة الْخَامِسَة: أَنَّهُ كَانَ شَاكِراً لِأَنْعُم اللهِ عَلَيْه، قَائِماً على مِقْدَارِ اسْتِطَاعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ بِمَا يُطْلَبُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَاكِراً وجوباً أو نَدْباً.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ إِنْعَام الْمُنْعِم بما يُرْضيهِ، من اعْتِقَادٍ، أَوْ عَمَلٍ ظاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ، أَوْ قَوْلٍ، فَيَدْخُلُ فِي الشُّكْرِ الحمد.

الصِّفَة السَّادِسة: أَنَّ اللهَ اجتبَاه، أي: اخْتَارَهُ واصْطَفَاهُ مِنْ عِبادِهِ، فَجعَلَهُ نَبِيًّا يُوحَىٰ إِلَيْه، ثُمَّ جعَلَهُ رَسُولاً يُبَلِّغُ النَّاسَ عَنْ رَبِّهِ مَا أَوْحَىٰ بِهِ إِلَيْهِ.

الصِّفَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ اللهُ هَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَعَلَّمَهُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ صِرَاطَهُ المسْتَقِيمَ، وهُوَ مَا اشتَمَلَ عَلَىٰ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ في رِحْلَةِ الامْتِحَانِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وهو الصِّرَاطِ الموصِلُ إِلَىٰ جَنَّاتِ النَّعيم يَوْمَ الدِّين.

الصِّفَة الثامِنَة: أَنَّ اللهَ آتَاهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا حَسَنَةً، أي: عَطَايَا حَسَنَة، فَنَصَرَهُ عَلَىٰ نمرود العِرَاق، وَاخْتَارَ لَهُ مُهَاجِراً حَسَناً في بلادِ الشَّام الَّتِي بَارَكَ اللهُ فيها، وَمَنَحَهُ مَعِيشَةً حَسَنَةً بصِحَّةٍ وسَلَامَةٍ مَعَ عُمْرٍ مَدِيدٍ، وذِكْرٍ حَسَنٍ بَيْنَ النَّاس، وطُمَأْنِينَةِ قَلْبٍ ورِضاً كامِلٍ عَنْ رَبِّهِ.

فِي عِبَارَة ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ﴾ الْتِفَاتٌ مِن الْحَدِيثِ بِالْغَيْبة إِلَىٰ التَّكَلُّم بِضَمِيرِ المتَكلِّم العظيم، لِلْإِشْعَارِ بِجَزِيلِ الْعَطَايَا الْحَسَنَةِ الَّتِي آتَاهُ اللهُ إِيَّاها، وأَجَلُّهَا مَشَاعِرُ السَّعَادَةِ الَّتِي كَانَتْ تَتَدَفَّقُ عَلَىٰ جَوَانِبِ نَفْسِهِ.

الصِّفَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ اللهَ حَكَمَ لَهُ وَهُوَ فِي الدُّنْيَا بأَنَّهُ في الْآخِرَةِ مِنْ زُمْرَةِ الصَّالِحِينَ، وأَكَدَّ هَـٰذِهِ الصِّفَةَ في قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ بالمؤكّدات: «إِنَّ ـ والجملة الاسْمِيَّة ـ واللَّامُ الْمُزَحْلَقَة».

الصَّالح: هو الخالي من الفساد الْكُلِّيّ والجزئي.

وقد جَاءَ في القرآن لَفْظ «الصَّالِحِينَ» وَصْفاً لِلْمُرْسَلِين، والْأَنْبِياء، والمؤمِنِينَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ويُسَارِعُونَ فِي الخيراتِ.

وأدْخَلَ اللهُ في الصَّالِحِينَ الأَوَّابِينَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا بَعْضَ المعَاصِي والمخالَفَاتِ رَجَعُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ بالتَّوْبَةِ والاستغفار عَلَىٰ وجْهِ السُّرعة، ولَوْ تكَرَّرَ مِنْهُمْ ذلِكَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

● ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ إبراهيمَ وَعَصْرِه، وَبَعْدَ أَهْلِ الكِتَابِ أَتْبَاعِ مُوسَىٰ، وأَهْلِ الكِتَابِ أَتْبَاعِ عِيسَىٰ، جَعَلْنَاكَ يَا مُحمّدُ نَبِيًّا وأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، مَائِلاً عَنْ كُلِّ الْمِلَلِ الْبَاطِلَة، ومُسْتَقِيماً عَلَىٰ الدِّينِ الْحَقِّ والصِّرَاط الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هَدَيْنَاهُ إِلَيْهِ، وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ فِي يَوْمٍ مِنْ حَيَاتِهِ مِنَ المشْرِكِين، فاحْذَرْ يَا مُحَمَّدُ أَنْ تَتَأَثَّرَ بِقَوْمِكَ فِي شَيْءٍ مِنْ شِرْكِيَّاتِهِمْ، فإِبْرَاهِيمُ قَدْ نَشَأَ فِي قَوْمٍ مُشْرِكين ولَمْ يَتَأَثَّرْ بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ شِرْكِيَّاتِهِمْ.

وأُصُولُ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي أَمَرَ اللهُ محمّداً ﷺ أَنْ يَتَّبِعَهَا بَعْدَ أَنْ جَعَلَهُ نَبِيًّا هِي تَوْحِيدُ اللهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وفي إِلَهِيَّتِهِ، وَعِبَادَتُهُ بالْمَوْرُوثَاتِ الصَّحِيحَةِ عَنْ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، كالصَّلَاةِ، ومِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْرُوثَةِ عَنْهُ، الالْتِزَامُ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاق، والالْتِزَامُ بالْحَقِّ والْعَدْلِ، ونُصْرَةِ المظْلُوم، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا تَتَّفِقُ عَلَيْهِ الْعُقُول.

ثُمَّ لَمَّا بَعَثَهُ اللهُ رَسُولاً شَرَعَ يُنْزِلُ عَلَيْهِ أُصُولَ دِينِ الإسْلَامِ، وشَرَائِعَهُ، وَأَحْكَامَهُ، فِي نُجُومِ التَّنْزِيل تِبَاعاً حَتَّىٰ هَـٰذِهِ السُّورَةِ، وَتَتَابَعَ ذَلِكَ حَتَّىٰ آخِرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ فِي حَيَاتِهِ.

وَلِئَلَّا يَتَّبِعَ النَّبِيُّ ﷺ الْيَهُودَ فِي يَوْمِهِم الأَسْبُوعِي، الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، قَالَ اللهُ لَهُ:

• ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

أي: لَمْ يَكُنْ الْيَوْمُ الأُسْبُوعِيُّ فِي مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ يَوْمَ السَّبْتِ، بَلْ كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الّذِي أَتَمَّ اللهُ فِيهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَعَدَلَ الْيَهُودُ عَنْهُ ابْتِدَاعاً مِنْهُمْ إلى يَوْمِ السَّبْتِ، وَزَعْماً مِنْهُمْ أَنَّ الْيَوْمَ السَّابِعَ هُوَ الَّذِي ارْتَاحَ فِيهِ اللهُ مِنْ بَعْدِ أَيَّامِ التَّعَبِ الَّتِي خَلَقَ فِيها الْخَلْقَ، وَقَدْ كَذَبُوا فِي هٰذَا، وجَعَلُوا السَّبْتَ هُوَ الْيَوْمَ الَّذِي يرتاحُونَ فِيهِ مِن أعْمَالِ الدُّنيا، فَفَرضَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ، وشَدَّدَ عَلَيْهِمْ تَحْرِيمَ الْعَمَلِ فِيهِ، وَأَرَادَ النَّصارَىٰ مُخَالَفَةَ الْيَهُودِ فَجعَلُوا الأَحَدَ يَوْمَهُمُ الأُسْبُوعِيّ.

فالمعْنَىٰ: مَا جُعِلَ السَّبْتُ وَأَحْكَامُهُ المشَدَّدَةُ إلَّا عَلَىٰ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ بابْتِدَاعِهِمْ عَمَّا كَانَ لَهُمْ فِي مِلَّةِ إبْرَاهِيم، وإنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُم بَيْنَهُمْ فِي كُلِّ مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتلِفُونَ عَنْ دِينِ اللهِ ابْتِدَاعاً وَتَحْرِيفاً.

رَوىٰ البخاريُّ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عنه، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ:

«نَحْنُ الآخَرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيامَة، بَيْدَا أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هٰذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِم (أي: يَوْمُ الجُمُعَة) فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ لَهُ، فالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبع، الْيَهُودُ غداً، والنّصارَى بَعْدَ غَدٍ».

وَرَوىٰ مُسْلِمٌ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ وَحُذَيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهما، قالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«أَضلَّ اللهُ عَنِ الجمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ للنّصارَىٰ يَوْمُ الأَحدِ، فَجاءَ اللهُ بِنا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجعَلَ الْجُمُعَةَ والسَّبْتَ والأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبعٌ لَنا يَوْمَ القيامة، نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيامَةِ، والمقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبلَ الْخلَائق».

أَضَلَّ اللهُ: أي: وَجدَهُمْ ضَالِّينَ بابتداعَاتهم.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السابع والعشرين من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٣١)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثامن والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات من (١٢٥ ـ ١٢٨) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ
فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا
صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾:

القراءات:

(١٢٧) ● قرأ ابن كثير: [فِي ضِيقٍ] بكسر الضَّاد.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فِي ضَيْقٍ] بفتح الضاد.

وهُمَا لُغَتَانِ والمعْنَىٰ واحد.

(١٢٧) ● قرأ حمزة، ويعقوبُ: [عَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عَلَيْهِمْ] بكَسْرِ الهاء.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ بَعْضِ وَصَايَا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوجَّهَةٍ لِرَسُولِهِ محمّدٍ ﷺ، في الدَّعْوَةِ، والْعِقَاب، والصّبر، وغيرها، ويُلْحَق بالرَّسُولِ حَمَلَةُ رِسَالَتِه وسائِرُ المسلمين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ:

• ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾:

يُبَيِّنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ الْعُنْوَانَاتِ الكُبْرَىٰ لِمِنْهَاجِ الدَّعْوَةِ إلىٰ سَبِيلِهِ، وهِي: الحِكْمَةُ، والموعظَةُ الحسَنَةُ، والمجادلَةُ الْحِوارِيَّةُ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنَ، وفيما يلي بَسْطُ هَـٰذِهِ الْعُنْوَانَاتِ الكبرى بإيجاز:

الدَّعْوَةُ بالْحِكْمَة: الْحِكْمَةُ هِيَ وَضْعُ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ الّذِي يُوجِبُهُ الْعَقْلُ، أَوْ تَكْشِفُهُ التَّجْرِبَةُ، وَتَتَحقَّقُ بِهِ الْغَايَةُ المقْصُودَةُ مِنَ الْأَمْرِ، بأقَلِّ كُلْفَةٍ وأَقْصرِ زَمَنٍ مُمْكِنَيْن.

فَمِنَ الْحِكْمَةِ مُخاطَبَةُ الإنْسَانِ بِمَا يُقْنِعُهُ، كإقَامَةِ الحجج الْبُرْهَانِيَّةِ لَهُ بِمِقْدَارِ مَدارِكِهِ، مِنَ الْعَقْلِيَّاتِ، وَمِنَ الحسِّيَاتِ، ومِنْ قَوَاطِعِ الْخَبَرِيَّاتِ.

ومِنَ الْحِكْمَةِ إِجْرَاءُ التَّجارِبِ لَهُ الَّتِي تُعْطِي النَّتَائِجَ الَّتِي يُرَادُ إقْنَاعُهُ بها.

ومِنَ الْحِكْمَةِ وَضْعُ الاحْتِمَالَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ أَمَامَهُ، وجَعْلُهُ يُفَكِّرُ بِنفسِهِ، ويَطْرَحُ مِنَ الاحْتِمَالَاتِ مَا هُوَ مَرْفُوضٌ عقْلاً، وَمَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، وَمَالَهُ شُبْهَةُ دَلِيلٍ لَا تَقوىٰ عَلَىٰ إثْبَاتِهِ، ثُمَّ يُوازِنُ بَيْنَ الْبَقَايَا إِذَا كَانَ ذَا عَقْلٍ وَرُشْدٍ، فَيَتَرَجَّحُ لَدَيْهِ الْحَقُّ الَّذِي يَدْعُوهُ إِلَيْهِ الداعي إلى الله، أَوْ يُسْهُلُ عَلَىٰ الدَّاعِي حِينَئِذٍ إِقْنَاعُهُ.

ومُنَافِيَاتُ الْحِكْمَةِ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ جِدّاً، مِنْهَا ما يلي:

(١) السّبَابُ والشّتَائِم، والْفَظَاظَة والْغِلَاظَةُ فِي الْأَقْوَالِ والحركات والأعْمَال.

(٢) تَوْجِيه الأوامر والنواهي الصّارِمَة.

(٣) اهتمام الدّاعِي بالانْتِصَارِ لِنَفْسِهِ.

(٤) التشْهِيرُ بِأَسْمَاءِ الْعُصَاةِ، والنُّصْحُ الْعَلَنِيُّ لِأَشْخَاصٍ بأعْيَانِهِمْ.

(٥) الاستِهْزَاءُ والسُّخْرِيَةُ بآرَاءِ الآخِرِينَ وَحِوَارَاتِهِم.

إلى غير ذلك مِنْ أُمُورٍ كثيرة جَاء ذكْرُهَا في كتابي «فقه الدعوة إلى الله»[1].

الدَّعْوَة بالموعظة الحَسَنَة: الموعظة الحسَنَةُ هِي النُّصْحُ بالفِعْلِ أو بالتَّرْكِ المقرونُ بما يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أوِ الرَّهْبَةَ في النَّفْسِ، للانْتِفَاعِ بالنُّصْحِ، واتِّبَاعِ مَا هَدَىٰ إلَيْهِ فِعْلاً أَوْ تَرْكاً.

قال ابْنُ سِيدَة مِنْ أئمة اللُّغَة: «الوْعظُ تَذْكِيرُكَ للإنْسَانِ بِمَا يُلَيِّنُ قَلْبَهُ مِنْ ثَوَابٍ أَوْ عِقَابٍ».

وقَدْ قَيَّدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَـٰذِهِ الْمَوعِظَة بِأَنْ تَكُونَ حَسَنَة، أي: حَسَنَةً فِي أسْلُوب عَرْضَها، مَقْبُولَةً فِي نُفُوسِ مَنْ تُوَجَّهُ لَهُم.

الدَّعْوَةُ بالْجِدَال بالَّتِي هِيَ أحْسَن: الْجِدَالُ حِوَارٌ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، يَشْتَمِلُ عَلَىٰ ادِّعَاءٍ مِنْ فَرِيقٍ، واعْتِرَاضٍ مِنْ فَرِيقٍ آخر، واسْتِدْلَالٍ لِلْإِقْنَاعِ، وطَعْنٍ في الدَّلِيلِ، وَدفْعٍ للطَّعْنِ، إلى غير ذَلِكَ مِنْ أُصُولِ المناظراتِ الْجَدَلِيَّة.

والمطْلُوبُ مِنَ الدَّاعِي إلى سَبِيلِ اللهِ أَنْ يُجَادِلَ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، أي: بالطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَهَـٰذِهِ الطريقة تشْمَلُ بِعُمُومِهَا الأَسَالِيبَ الْفِكْرِيَّةِ والأسَالِيبَ الْقَوْلِيَّة.

فالمطْلُوبُ مِنَ الدَّاعِي الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ في مُجَادَلَتِهِ عَلَىٰ حَالَةٍ أَرْقَىٰ وأحْسَنَ باسْتِمْرَارٍ من الحالَةِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا مَنْ يجادِلُهُ، أَدَباً وتَهْذِيباً، وقَوْلاً وَفِكْراً.

---

(١) انظر الصفحات من (٦١٠ ـ ٦١٢) من الجزء الأول من الكتاب المذكور.

• ﴿. . . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾:

أي: وتَابعْ دَعْوَةَ مَنْ لَمْ تُثْبِتِ التَّجْرِبَةُ الطَّوِيلَةُ أَنَّهُمْ مَيْؤُوسٌ مِنِ اسْتِجَابَتِهِم عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الْحُرَّة، وَلَا تَتَأَثَّرْ بالأَمَارَاتِ الآنِيَّةِ دُونَ تَجْرِبَةٍ فِي مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ، إنَّ رَبَّكَ هُوَ وَحْدَهُ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ضَلَالاً غَيْرَ مُقْتَرِنٍ باسْتِعْدَادٍ مِنْ عُمْقِ نَفْسِهِ للاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الحقِّ وَلَوْ بَعْدَ حِين، وهو وَحْدَهُ أَعْلَمُ بِمَنْ لَدَيْهِ اسْتِعْدَادٌ لِأَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبلاً مِنَ الْمُهْتَدِينَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، فعِلْمُ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ ذَلِكَ هُوَ للهِ رَبِّكَ وَحْدَه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ وللمؤمنين بأسْلُوب خِطَاب الجَماعَة:

• ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾:

سَبَقَ في الآيَةِ (١٠٦) أَنَّ بَعْضَ المؤمِنِينَ كَانُوا يُكْرَهُونَ مِنْ قِبَلِ بُغَاةِ المشْرِكِينَ عَلَىٰ الكُفْر بالتعذيب، وسَبَقَ في الآية (١١٠) بَيَانُ أَنَّ بَعْضَ المؤمِنِينَ كَانُوا يُفْتَنُونَ فِي دِينِهِمْ بِتَعْذِيبِ بُغَاةِ الْمشْرِكين لَهُمْ.

فجاءَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيانُ حَقِّ الَّذِينَ كانُوا يُكْرَهُونَ وَيُفْتَنُونَ فِي دِينِهِمْ، بأنْ يَقْتَصُّوا مِنْ ظَالِمِهِمْ بالْعَدْلِ، والْعَدْلُ هُوَ مُعَاقَبَتُهُمْ بِمِثْلِ مَا كَانُوا يعَامِلُونَهُمْ بِهِ، إِذَا تَمَكَّنُوا مِنْ مُعَاقَبَتِهِمْ بِتَمْكِينِ اللهِ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ.

ولَكِنَّ فَضَائِلَ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمَا هُوَ الأَرْجَىٰ لِتَأْلِيفِ قُلُوبِ النَّاسِ وَتَحْبِيبِهِمْ بِالْإِسْلَام وَالدُّخُولِ فِيهِ، إعْجَاباً بِمَكارِمِ أَخْلَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّ الإِسْلَامَ دِينُ حَقٍّ وَفَضَائِلَ، تَدْعُو إِلَىٰ الصَّبْرِ والتَّجَاوُزِ عَنْ مُعَاقَبَةِ الظَّالِمِينَ حِينَ التَّمَكُّنِ مِنْ مُعَاقَبَتِهِمْ.

• ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾: أي: وَمَعَ تَرْغِيبنَا لَكُمْ بالصَّبْرِ والتَّجاوُزِ، إِنْ أَصْرَرْتُمْ عَلَىٰ مُعَاقَبَةِ مَنْ كَانَ فَتَنَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ بِوَسَائِلِ التَّعْذِيبِ، وفي استعمال (إِنْ) هُنَا إِشعارٌ بأنّ المرغُوبَ فِيهِ أَنْ لَا تُعاقبوا.

• ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾: أي: فَعَاقِبُوا مَنْ كَانَ عَذَّبَكُمْ لِأَنَّكُمْ آمَنْتُمْ وأسْلَمْتُمْ، بِمِثْلِ مَا عَاقبَكُمْ بِهِ لِأَنَّكُمْ فَارَقْتُمْ دِينَ قَوْمِكُمْ، وَشَتَمْتُمْ آلِهَتَهُمْ، وَسَفَّهْتُمْ أحْلَامَهُمْ، وَلَا تَزِيدُوا عَلَىٰ ذَلِكَ، فالْعَدْلُ يَقْتَضِي الْعِقَابَ بالمثْلِ.

• ﴿... وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾: أي: وأُقْسِمُ لَكُمْ لَئِنْ صَبَرْتُمْ فَتَجَاوَزْتُمْ عَنْهُمْ وَلَمْ تُعَاقِبُوهُمْ، وَقَدَّمْتُمْ صُورَةً حَسَنَةً عَنْ مَحَاسِنِ الإِسْلَامِ، وَمَكَارِمِ أخْلَاقِ الْمُسْلِمِينَ لَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِذْ تَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ الصَّابِرِينَ، فَتُوَفَّوْنَ أجْرَكُمْ بِغَيْرِ حِسَاب، كَمَا سَبَقَ بَيَانُ هٰذَا في الآية (١٠) من سورة (الزُّمر/ ٥٩ نزول).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُوصِي رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بِعِدَّةِ وَصَايَا.

• ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾:

رَخَّصَ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ بالْمُعَاقَبَةِ، وحَثَّهُمْ عَلَىٰ الصَّبْر، وألْزَمَ رَسُولَهُ بِالصَّبْرِ، فَأَمَرَهُ أَمْرَ إِلْزَام وإيجاب فقال لَهُ:

• ﴿وَٱصْبِرْ﴾: أي: فِي مُتَابَعَةِ دَعْوَتِكَ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ، وَلَا تَمَلَّ وَلَا تَيْأَسْ، وَلَا تُعَاقِبْ مَنْ كَانَ يُؤْذِيكَ مِنَ المشْرِكِينَ مُتَشَفِّياً لِنَفْسِكَ.

• ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾: أي: وَمَا يَتَحَقَّقُ لَكَ الاتِّصَافُ بالصَّبْرِ إِلَّا بِمَعُونَةِ اللهِ، فاسْتَعِنْ بِهِ حَتَّىٰ يُمِدَّكَ بِمَا يَجْعَلُكَ صَابراً في أَشَدِّ الأُمُورِ الَّتِي تَشُقُّ عَلَىٰ نَفْسِكَ.

• ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: أي: وَإِذَا وَجَدْتَ مَنْ تَحْرِصُ عَلَىٰ هِدَايَتِهِمْ مُوغِلِينَ فِي مَتَاهَاتِ ضَلَالَاتِهِمْ، فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ ذَوُوا إرادَاتٍ حُرَّةٍ في رِحْلَةِ امْتِحَانٍ في الحياة الدُّنْيَا، وَقَدْ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ دُونَ جَبْرٍ سُبُلَ الضَّلَالِ بَعْدَ تَعْرِيفِهِمْ بِصِرَاطِ الحَقِّ والْهُدَىٰ، واسْتِيقَانِ قُلُوبِهِمْ بأَنَّهُ صِرَاطُ الْحَقِّ والْهُدَىٰ.

• ﴿... وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾: أي: وَلَا تَكُنْ في كَرْبٍ وأَلَمٍ نَفْسِيٍّ ضَاغِطٍ عَلَيْهَا، مِمَّا يُدَبِّرُونَ فِي الْخَفَاءِ ضِدَّكَ وَضِدَّ الْمُؤْمِنِينَ، وَضِدَّ مَسِيرَتِكَ الدَّعْوِيَّة، فَرَبُّكَ مُتَوَلٍ أَمْرَكَ، وَمُحْبِطٌ مَا يَمْكُرُونَ.

• ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾: أي: وَمَعَ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ هُمْ فَوْقَ المتَّقِينَ وَدُونَ الْمحسنين.

ومَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ كَانَ نَاصِراً لَهُ، وَمُحبطاً مَكْرَ أَعْدَائِهِ وَمَكَايِدَهُمْ، فَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَلَاتَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ وَيَكِيدُون.

الْمَعِيَّةُ المرادَةُ هنا مَعِيَّة عِنَايَةٍ وحفظٍ ونُصْرَة.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ سُورَةِ النَّحْلِ.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٣٢)
ملحق: مستخرجات بلاغيّة من سورة (النحل)

فِي هَـٰذِهِ السُّورة اخْتِيَارَاتٌ بَلَاغِيَّةٌ كثيرةٌ، مِنْهَا الاختيارات التاليات:

أولاً: التّعْبِيرُ بِصِيغَة الفِعْلِ الماضِي عَمَّا سَيَأْتِي مُسْتَقْبَلاً

للدَّلَالَة على قُرْبِ وُقُوعِهِ، أو تَحَقُّقِ صُدُورِ الْقَضَاءِ بأَنَّهُ وَاقِعٌ فِي الْمَوْعِدِ المقَدَّرِ له.

فجاء في صَدْر السورة قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ... ﴿١﴾﴾:

أي: اقْتَرَبَ وُقُوعُ أَمْرِ اللهِ بِمُعَاقَبَةِ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ، الّذِينَ يَسْتَعْجِلُونَ مَا أَوْعدَهُمْ الرَّسُول بِهِ مِن عَذَابٍ، للإشْعَارِ بأَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَهُ فِي إيعادِهِ، وَفِي كُلِّ نُبُوَّتِهِ ورسَالَتِهِ.

ثانياً: من الاستعارة

وهي عند علماء البيان اسْتِعْمَالُ لفظ ما في غَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ في اصْطِلَاحِ بِهِ التخاطِبِ، لِعَلَاقَةِ المشابَهَة، مَعَ قَرِينَةٍ صارفَةٍ عَنْ إرادة المعنَىٰ الموضوع لَهُ في اصطلاح بِهِ التخاطب.

ومن الاستعارة في السُّورَة قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

• ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَة اسْتِعَارَتَان:

الاستعارة الأولى: اسْتُعِير فعل: «أَذَاقَ» للدّلَالَةِ عَلَىٰ الإحْسَاسِ الشّدِيد بآلام الْجُوع، وآلام الْخَوْفِ في النَّفْسِ، لأنَّ حَاسَّةَ الذَّوقِ أَشَدُّ الْحَوَاسِ إدْرَاكاً لِمَا يُلامِسُهَا مِنْ طُعُومٍ مُخْتَلِفَةٍ.

الاستعارة الثانية: اسْتُعِيرَ «اللّبَاس» للدّلَالَةِ عَلَىٰ أنْ الإحْسَاسَ بالْجُوعِ كَانَ إحْسَاساً شامِلاً لِبَطْنِ كُلِّ واحدٍ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ، كَشُمُولِ اللّباس السَّابِغِ، وللدّلَالَة على أنَّ الْإِحْسَاسَ بالْخَوْفِ كَانَ إحْسَاساً شَامِلاً لِلْقَلْبِ والنَّفْسِ.

ثالثاً: من المجاز المرسل

وهو المَجَازُ الَّذِي تَكُونُ الْعَلَاقَةُ فِيهِ بَيْنَ المعْنَىٰ الحقيقي والْمَعْنَىٰ المجازي، الّذِي اسْتُعْمِلَ اللَّفْظ للدّلَالَةِ بِهِ عَلَيْهِ أمراً غَيْرَ المشابهة، أو قائماً على التوسُّعِ في اللُّغَةِ دُونَ ضَابِطٍ مُعَيَّنٍ.

ومن المجاز المرسَلِ في السّورة مَا يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: فأَتَىٰ أَثَرُ أَمْرِ اللهِ التَّكْوِينِيّ بِتَدْمِيرِ بُنْيَانِهِمْ مِنْ أُسُسِهِ الَّتِي هي قواعِدُه، فَزَلْزَلَهُ فَخَرَّ عَلَيْهِمْ كُلُّ سَقَفٍ في أَبْنِيَتِهِمْ فَكَانَ بذلِكَ هَلَاكُهُمْ.

المثال الثاني: قول الله تَعَالَىٰ:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً . . . ﴿١١٢﴾﴾:

أي: وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً أَهْلَ قَرْيَةٍ، وهُوَ مِنْ إطْلَاقِ الْمَحَلِّ وإِرَادَةِ الْحَالِّ فِيهِ.

رابعاً: من الاستقطاع

وهو ما يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ النَّصُّ مِنْ تَصْوِيرِ الحدَثِ الماضِي، أو الحدَثِ الآتي في المسْتَقْبَلِ، كَأَنَّهُ حَدَثٌ آنِيٌّ يَجرِي الآنَ عِنْدَ التَّكلُّم، والصُّوَرُ التَّمْثِيلِيَّةُ المسْتَقْطَعَةَ مِنَ الماضِي أو المسْتَقْبَل، يُؤْتَىٰ بِكُلِّ ظُرُوفها الزَّمَانِيَّة والْمَكَانِيَّة وبأحْدَاثِها، فَتَقَدَّمَ كأَنَّها أَحْدَاثٌ قَائِمَةٌ فِعْلاً، للإشْعَارِ بأَنَّها حَقَائِقُ قَدْ حَدَثَتْ فِعْلاً في الماضي، أَوْ لَا بُدَّ أَنْ تَحْدُثَ مُسْتَقْبلاً.

ومِنْ أَمْثِلَةِ الاسْتِقْطَاعِ في السُّورة ما يلي:

المثالُ الأَوَّل: ما في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بالنسبة إلى المشركين يَوْمَ القيامَة:

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

إنَّ عبارة ﴿قَالَ﴾ وَمَا بَعْدَهَا حَتَّىٰ آخِرِ الآيَةِ مُسْتَقْطَعَةٌ مِمَّا سَوْفَ يَحْدُثُ مُسْتَقْبلاً يَوْمَ القيامَة، وَمُقَدَّمَةٌ كَأَنَّ مَضْمُونَهَا حَدَثَ في الماضي، أو يَحْدُثُ الآنَ.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ القيامة:

﴿فَادْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

كلامٌ مُسْتَقْطَعٌ مِمَّا سَوْفَ يُقَال لَهُمْ يَوْمَ القيامَةِ حِينَ يُسَاقُونَ لإلْقَائِهِم في دَار عَذَابِهِمْ.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِلرَّسُول ﷺ:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ... ﴿٨٩﴾﴾:

إنَّ عِبَارة: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾ عبارةٌ مُسْتَقْطَعَةٌ مِمَّا سَوْفَ يَحْدُثُ يَوْمَ القيامَة، وَمُقَدَّمَةٌ كَأَنَّ مَضْمُونَهَا يَحْدُثُ الْآن.

خامساً: من الكناية

وهِي اللّفظ المستَعْمَل فِيما وُضِعَ لَهُ في اصطلاح التخاطب للدّلالَةِ بِهِ عَلَىٰ معنًى آخَرَ لازِمٍ لَهُ، أوْ مُصَاحِبٍ له، أو يُشَارُ بِهِ عادةً إلَيْهِ، لما بَيْنَهُمَا مِنَ الملابَسَة.

ومن أمْثِلَةِ الكناية في هَـٰذِهِ السّورة ما يلي:

المال الأول: قول الله تَعَالَىٰ:

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾:

في هـٰذِهِ العبارة كِنَايَةٌ عَنْ أَنَّ اللهَ سَوْفَ يُحَاسِبُهُمْ، ويَفْصِلُ القضاءَ بَيْنَهُمُ، ويُجازيهِمْ.

المثال الثاني: قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ العبارة نظير ما في سابقتها، وعدَمِ مَحَبَّة اللهِ المستكْبِرِينَ كِنَايَة عَنْ إبْعَادِهِمْ عَنْ مَواطِنِ تَنَزُّل رَحَمَاتِهِ.

وفي السُّورَة أمْثِلَةٌ كثيرة مُشابهة، منها:

١ ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

٢ ـ ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾.

٣ ـ ﴿... وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

٤ ـ ﴿... وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

سادساً: من الإيجاز

وهُو التعبيرُ عن المراد بِكلام قصير ناقصٍ عن الألْفَاظِ الَّتِي يُؤَدَّىٰ بِهَا عادة في مُتَعَارَفِ النَّاس، مع وفائِهِ بالدَّلَالَةِ عَلَىٰ المقصود، وهُو يَنْقَسِمُ إلىٰ إيجازِ الْقِصَر، وإيجاز الحذف.

ومن أمْثِلَةِ الإيجاز في السورة ما يلي:

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ... ﴿١٥﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ إيجازٌ بالحذف، والتقدير: وألْقَىٰ في الْأَرْضِ رَواسي «مَنْعَ» أنْ تَمِيدَ بِكُمْ.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: فَهُمْ يُضِلُّونَ بِقَوْلِهم هـٰذَا مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ مِنْ أتباعِهِمْ، دَل عَلَىٰ هذا: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟

أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

ففي هٰذَا البيان إيجازٌ بالحذفِ كما هُو ظاهر.

المثال الثالث: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بشَأْنِ مُنْكِري الْبَعْث:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: بَلَىٰ سَوْفَ يَبْعَثُ اللهُ الموتَىٰ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا. وهذا مِنَ الإيجاز بالحذف.

المثال الرابع: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ... ﴿٤١﴾﴾:

أي: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ أَوْطَانِهِمْ وَأَهْلِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ وأَمْوَالِهِمْ سَالِكِينَ فِي سَبِيلِ ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللهِ.

وهٰذَا مِنَ الإيجاز بالْحَذْف.

المثال الخامس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ... ﴿٤٥﴾﴾:

أي: انْطَمَسَتْ بَصَائِرُ الَّذِينَ مَكَرُوا المكرَاتِ السِّيّئَاتِ فَأَمِنُوا مِنْ أنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْض؟!. وهذا من الإيجاز بالحذف.

المثال السادس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ... ﴿٤٨﴾﴾:

أي: أَعَشِيَتْ أَبْصَارُهُمْ وَلم يَرَوا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيء؟!

المثال السابع: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾:

أي: أنْطَمَسَتْ بَصَائِرُهُمْ فَهُمْ بالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ، وبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ؟!

المثال الثامن: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَبَكُمْ إرَادَاتِكُمْ الحرَّةِ وَلَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَة مَهْدِيَّة، وَلِكِنْ مَا شَاءَ اللهُ ذَلِكَ، بَلْ جَعَلَكُمْ ذوي إرَادَاتٍ حرَّةٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيما آتَاكُمْ، وَنَتِيجَةٍ لِمَا تُقَدِّمُونَهُ في امْتِحَانَاتِكُمْ يُضِلُّ الله عِنْدَ مُحَاسَبَتِكُمْ وَفَصْلِ قَضَائِهِ بَيْنَكُمْ بِمَشيئتِهِ الحكيمة مَنْ ضَلَّ مِنْكُمْ، ويَهْدِي بِمَشيئَتِهِ الْحَكِيمَةِ مَنِ اهْتَدَىٰ مِنْكُمْ.

سَابعاً: مِنْ خُرُوج الاسْتِفْهَامِ عَنْ أَصْل دَلالَتِهِ

يَسْتَغْنِي الْبُلَغَاءُ بِعِبَارَاتِ الاسْتِفْهَامِ عَن ذِكْرِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَدُلُّ دَلالَةَ صَرِيحَةً عَلَىٰ مَا يُرِيدُونَ التعبير عَنْهُ مِنَ المعاني، وَقَدْ ذَكَرَ عُلَمَاءُ الْبَلاغَةِ نَيْفاً وَثَلاثِينَ مَعْنَىٰ يَخْرُجُ الاسْتِفْهَامُ عَنْ حَقِيقَتِهِ للدَّلالَة عَلَيْها، دُونَ حَصْرٍ فيها.

ومِنْ خُرُوج الاسْتِفْهَامِ عَنْ دَلالَتِهِ الأَصْلِيَّةِ في السّورَةِ أَمْثِلَةٌ كَثِيرة، منها ما يلي:

(١) ﴿... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

الاستفهام هنا للحثّ على التذكُّر، والتَّلْويم على عَدَمِهِ.

(٢) ﴿... فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾:

المراد بالاستِفْهَامِ هُنَا النفيُ، أي: ما عَلَىٰ الرُّسُلِ إلّا الْبَلَاغُ الواضِحِ.

(٣) ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾؟.

الاستفهام هنا للتعْجِيب مِنْ أمْرِهم، وَلِتَلْوِيهِمْ والتَّثْرِيبِ عَلَيْهِمْ.

(٤) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ... ﴿٤٨﴾﴾؟.

المرادُ بالاستِفْهام هُنَا التَّنْبِيهُ، وَلَفْتُ النَّظَر، والحثُّ على التفكّر.

(٥) ﴿... أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

المراد بالاسْتِفْهَامِ هنا التَّلْوِيمُ والتَّعْجِيبُ مِنْ أَمْرِهم.

(٦) ﴿... أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾؟:

(٧) ﴿... أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾؟:

يراد بالاسْتِفْهَامِ في هَٰذَيْنِ المثَالَيْن، التَّلْوِيمِ والتعجيبُ مِنْ أمْرِهِم، كَسَابِقِهِما.

ثامِناً: مِنَ الْقَصْر

وهو تَخْصِيصُ شيءٍ بِشَيْءٍ بِعِبَارَةٍ كَلامِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ، وفي السَّورَةِ أمْثِلَةٌ كثيرة مِنْ أمْثِلَة الْقَصْرِ، ومِنْهَا الأَمْثِلَةُ التَّالِيَة:

(١) ﴿... أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾:

فيها قَصْرُ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوفٍ قصراً حَقِيقِيًّا بالنفي والاستِثْنَاء.

(٢) ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ... ﴿٩﴾﴾:

أي: وعلى اللهِ وَحْدَهُ قَصْدُ السَّبِيل، وهو من قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ

مَوْصوف قصراً حَقِيقِيّاً، بِتَقْدِيمِ الْخَبَرِ عَلَىٰ المبتدأ الْمَعْرِفَة بالإضافة.

(٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ ... ﴿١٠﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ العبارة قَصْرُ صِفَةٍ عَلَىٰ موصوفٍ قصراً حقيقِيّاً بِتَعْرِيفِ طَرَفي الإِسْنَاد.

(٤) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ ... ﴿٤٣﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ العبارة قَصْرُ الإِرْسَال على رجالٍ من الناس قصراً حقِيقيّاً بالنفي والاسْتِثْنَاء.

(٥) ﴿... إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾:

في: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ قَصْرُ الْأُلُوهِيَّة عَلَىٰ رَبٍّ واحدٍ قصراً حقيقيّاً بأداة «إنما».

وفي: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ طَلَبُ قَصْرِ الرَّهْبَةِ عَلَىٰ أن تَكُونَ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ قَصْراً إِضَافِيًّا، بِتَقْدِيمِ المعْمُول عَلَىٰ عامله.

(٦) ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ العبارة قَصْرُ تكليفِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَىٰ البلاغ المبين، وهو قَصْرٌ إِضَافِيٌّ بأدَاة «إِنَّمَا».

وتُوجَدُ أَمْثِلَةٌ مُشَابِهَةٌ لِهَـٰذِهِ الأَمْثِلَة في السُّورَةِ تُقَاسُ عَلَيْها.

تاسِعاً: التَّوْكِيد في الْجُمَلِ لِوُجُودِ الدَّاعِي الْبَلَاغِي لِتَوْكِيدها

والأَمْثِلَةُ عَلَىٰ هـٰذَا كثيرة في السُّورَةِ من السَّهْلِ اسْتِخْرَاجُها، واذْكُرُ مِنْهَا ما يلي:

(١) ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾:

التوكيد بـ: «إِنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللّام المزَحْلَقَة».

(٢) ﴿... فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

التوكيد بِلَام الابتداء.

(٣) ﴿... وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾:

التوكيد بلام الابْتِدَاء في مَوْضِعَيْن.

(٤) ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

التوكيد بالقَسَم، وبِعبارَة «لَقَدْ».

إِلَىٰ غَيْرِ هَـٰذِهِ من أَمْثِلَةٍ كثيرة.

وأَقْتَصِرُ إِلَىٰ هَـٰذِهِ المسْتَخْرَجَات من الاختيارات الْبَلَاغِيَّةِ فِي سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



سُورَة نوح

٧١ مصحف ٧١ نزول

وهي سورة مَكّيَّةٌ كُلُّها

(١)

نصّ السّورة ومَا فيها من فَرْش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ
إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ
فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ
إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا
﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل
لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ

---

٣ ـ • قرأ يعقوب **[وأَطِيعُونِي]** بإثبات ياء المتكلّم، وصْلاً ووقفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَأَطِيعُون]**.

٦ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عامر، وأبو جَعْفَر: **[دُعَائِيَ إلَّا]** بِفَتْح ياء المتكلم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِها.

٩ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر: **[إِنِّيَ أَعْلَنْتُ]** بفتح ياء المتكلم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِها.

أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾
وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم
مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾
وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا
﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ
إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ
ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾
وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا
خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا
﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾
إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا
﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

---

٢١ ـ • قرأ ابْن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وَخَلَف: [وَوُلْدُهُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَوَلَدُهُ].

٢٣ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [وُدًّا] بضم الواو.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَدًّا] بفتح الواو.
وهما نُطْقَان عَرَبِيان.

٢٥ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [مِمَّا خَطَايَاهُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ].

٢٨ ـ • قرأ هِشَام، وحفص: [بَيْتِيَ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِها.

(٢)
مَوضُوعُ سُورَة (نوح)

موضوع هَـٰذِهِ السّورَة يَتَلَخَّصُ بِأَنَّهَا فُصُولٌ مِنْ قِصَّةِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ.

(٣)
دُروس سُورَة (نوح)

تَنْقَسِمُ سورة (نوح) عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ خَمْسَةِ دُروس، يُمَثِّلُ كُلُّ دَرْس مِنْهَا فَصْلاً مِنْ فُصُولِ قِصَّتِهِ مَعَ قَوْمِهِ الَّتِي جَاءَ عَرْضُهَا فِي السُّورَة.

الدَّرسُ الأول: الآية الأولى.

وهـٰذَا الدَّرسِ يُبَيِّنُ فَصْلَ تَكْلِيفِ «نوحٍ» عَلَيْهِ السَّلَام تَبْلِيغَ رِسَالَتِهِ قَوْمَهُ.

الدرس الثاني: الآيات من (٢ ـ ٤):

وهـٰذَا الدَّرسِ يَتَضَمَّنُ بيان فَصْلِ قيام نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَأْدِيَةِ الرِّسَالَة التي أَمَرَهُ اللهُ بِأَنْ يُبَلِّغِهَا لقومه.

الدّرس الثالث: الآيات من (٥ ـ ٢٤).

وفِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ مَا قَامَ بِهِ تُجَاهَ قَوْمِهِ، وشَكْوَاهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ له.

الدَّرْس الرابع الآية (٢٥).

وفِي هَـٰذِهِ الآية بَيان عَاقِبَة كفار قوم نُوح في الدُّنيا والآخِرَة.

الدرس الخامس: الآيات من (٢٦ ـ ٢٨) آخر السورة.

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرس بيانُ دُعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَام، على جَمِيعِ كُفَّارِ

الأرض بالإهْلَاكِ، ودُعائِهِ بالمغفرة لوالِدَيْهِ، ولمن دَخَلَ بَيْتَهُ مُؤْمِناً، ولجميع المؤمنين والمؤمِنَات.

(٤)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الأول من دُروس سورة (نوح)
الآية (١)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾.

التدبّر التحليلي:

هٰذَا الدَّرْسِ يَتَضَمَّنُ بيانَ فَصْلِ تَكْلِيفِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ قَوْمَه.

• ﴿إِنَّآ﴾ يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم، وَمُؤكّداً بـ «إِنَّ ـ والجملة الاسميَّة» لِأَنَّ التَّوْكِيدَ مُسَلَّطٌ عَلَىٰ كُلّ مَا جَاءَ في السُّورَةِ مِنْ قِصَّةِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام مَعَ قَوْمِهِ.

والْمَقْصُودُ مُعَالَجَةُ أَئِمَّة الكُفْرِ والشِّرْكِ الْجَاحِدِينَ الْمُعَانِدِين فِي مَكَّةِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، وإِنْذَارُهُمْ بِعِقَابٍ مِنَ اللهِ شَدِيدٍ، فَقَدْ عَاقَبَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَوْمَ نُوحٍ بِطُوفَانٍ عظيم.

ويَنْسَحِبُ هٰذَا الْعِلَاجُ عَلَىٰ كُلِّ أَمْثَالِهِمْ إِذَا تَدَبَّرُوا قِصَّةَ نوحٍ وقَوْمِهِ.

• ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾: أي: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوْحٍ فَجَعَلْنَاهُ نبيًا، ثُمَ بَعَثْنَاهُ رَسُولاً إِلَىٰ قَوْمِهِ، لِيُبَلِّغَهُمْ دِينَ اللهِ لَهُم، فَقَامَ بما أَمَرَهُ اللهُ بِهِ حَلِيماً صَابِراً، يُتَابِعُ قَوْمَهُ بالبيانِ والتذكيرِ والنُّصْحِ والإِرْشَادِ والموعِظَةِ الْحَسَنَة، فَلَمْ تُجْدِ فيهم وَسَائِلُهُ طَوالَ قُرونٍ.

فَكَلَّفَهُ اللهُ أَنْ يُنْذِرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ مِنْ رَبِّهِمْ، إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ عِنَادِهِم، واسْتِكْبَارِهِمْ، وعَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ، دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ في الآيَةِ خِطَاباً له عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿. . . أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ①﴾:

﴿أَنْ﴾: تَفْسِيرِيَّةٌ بِمَنْزِلة «أي» وما بَعْدَهَا تَفْسِيرٌ لِمَا أَرْسَلَ اللهُ بِهِ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنِ اسْتَعْصَوْا وعَانَدُوا عِنَاداً شَدِيداً، واسْتَكْبَرُوا وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً.

الإِنْذَار: الإِعْلَامُ بِأَمْرٍ يُخَافُ مِنْهُ، لِلتَّحْذِير مِنْ وُقُوعِهِ، باتِّخَاذِ أَسْبَاب تَفَادِيهِ والْخَلَاصِ مِنْه.

• ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: عِقَابٌ مُؤْلِمٌ إِيلاماً شَدِيداً لِلْمُعَذَّبِينَ الَّذِينَ لَا يُحَقِّقُونَ المطْلُوبَ الرَّبَّانِيَّ مِنْهُمْ.

والمعنى: أَرْسَلْنَا نُوحاً بِمَضْمُونِ هٰذَا البيان وَبِلَوَازِمِهِ الفِكْرِيَّة، والْمَعْلُومَةِ فِي كُلِّ رِسَالَاتِ الرُّسُلِ، بدأ مِن أَوَائِلِ التَّبْلِيغ، حَتَّىٰ أواخِرِ الإِنْذَارِ.

وقَدْ دَلَّتْنَا النُّصُوصُ المختَلِفَةُ الْمُوَزَّعَةُ فِي القرآنِ المجيد، عَلَىٰ أَنَّ الإِنْذَارَ عُنْوانٌ لِآخِرِ فِقْرَةٍ مِنْ فِقَرَاتِ التَّبْلِيغِ الْمَطْلُوبِ في دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لعباده.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الأول من دُرُوس سورة (نوح).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❋ ❋ ❋

(٥)
التَّدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (نوح)
الآيات من (٢ ـ ٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾:

القراءات:

(٣) • قرأ يَعْقُوب: [**وَأَطِيعُونِي**] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَأَطِيعُونِ**] بِحَذْفِ يَاء المتكلّم.

تَمْهيد:

تُمَثِّلُ آيَاتُ هٰذَا الدَّرسِ فَصْلاً مُوجزاً مِنْ قِيامِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام بِتَأْدِيَةِ وَظَائِفِ رِسَالَتِهِ فِي قَوْمِهِ، الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ بأدَائها.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾:

دَلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ أدّى رِسَالَتَهُ الَّتِي بَعَثَهُ اللهُ بِها، فَقَدْ جَاءَ فِيها المطَابَقَةُ بَيْنَ مَضْمُونِ التَّكْلِيفِ في: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ وَبَيْنَ قَوْلِهِ لِقَوْمِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مَعَ مُلَاحَظَةِ اللّوازِمِ الَّتِي هِيَ مَضَامِينُ الدِّين السَّابِقَةُ للإنْذَارِ.

وَفِي عبارَةِ ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مَعْنَىٰ أَنَّ رِسَالَتَهُ كَانَتْ في عَصْرِ خَاصَّةً بِقَوْمِهِ.

• ﴿مُّبِينٌ﴾ اسْم فاعل من فعل «أبَان» وهو يَأْتي لازماً ومُتَعَدِّيًا، أي: ظاهر واضِحُ، ومُظْهِرٌ مُوضِحٌ، فَهُوَ في ذَاتِهِ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ واضِحٌ مَكْشُوف، لَيْسَ لَهُ بَاطِنٌ يُخَالِفُ ظاهره، وهُو أيضاً مُبِينٌ لحقائق الدِّينِ وشرائِعِهِ وَمُوضِحٌ لها، ومبِينٌ لِلْحَقِّ والْبَاطِلِ، والْخَيْرِ والشّرّ، والْحَلَالِ والحرام، وغير ذَلِكَ ممَّا جاءَ بِهِ الدِّين.

وهـٰذَا ممَّا امْتَازَ بِهِ رُسُلُ اللهِ، وامْتَازَتْ بِهِ رِسَالَاتُهُمْ، الْوُضُوحُ والإيضاح.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في حِكَايَةِ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

• ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾:

بَعْدَ إِنْذَارِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ بِعَذَابٍ أَلِيم إِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، أَبَانَ لَهُمْ ثَلَاثَ قضايا، مُفَسَّرَة بِمَا جاء بَعْدَ «أَنْ» التَّفْسِيرِيَّة:

الْقَضِيَّةُ الْأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: اعْبُدُا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَدْ كَانَ قَوْمُهُ وَثَنِيِّينَ مُشْرِكين، يَعْبُدون أوثانَهُمْ الَّتِي سَيأْتِي ذِكْرُهَا في السُّورَة.

العبادة: الخضوع، والطاعَة، وأداءُ مَا يُرْضِي الْمَعْبُودَ، وتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيهِ.

القضية الثَّانِيَّة: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: أي: واتَّقُوا عقابَ الله، عَلَىٰ الكُفْرِ بِهِ، وَمَعْصِيَتِهِ، والكُفْرِ بِرَسُولِهِ، وبما أَنْزَلَ عَلَيْه، واتَّقُوا عِقَابَهُ عَلَىٰ ما أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ، وَقَبَائِحِ أَخْلَاقٍ، وسَيِّئَاتِ سُلُوك، فَهُوَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، يَحْكُمُ بالْعَدْلِ، وَهُوَ مُنْتَقِمٌ قَدِير.

الْقَضِيَّة الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْها: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: أي: وأَطِيعُوني بالاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِي إِيَّاكُمْ إِلَىٰ دِينِ رَبِّكم.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُول مِنَ الْفُرُوضِ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ عَلَىٰ كُلِّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولاً، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَة (النِّساء/ ٤ مصحف/ ٩٣ نزول):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وأَبَانَ لَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنَّهُمْ إِذَا حَقَّقُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَطْلُوبَ اللهِ مِنْهُمْ فِي الْقَضَايَا الثَّلاث، كافَأَهُمُ اللهُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِمُكَافَأَتَيْنِ:

الْمُكَافَأَةُ الأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: أي: يَغْفِرِ اللهُ لَكُمْ بَعْضَ ذُنُوبِكُمْ، وَهِيَ الذُّنُوبُ الَّتِي ارْتَكَبْتُموها في حَقِّ رَبِّكُمْ عَلَيْكُم، أَمَّا حُقُوقُ الْعِبادِ فَلَهَا شَأْنٌ آخَرُ، إِذْ قاعِدَةُ الْعَدْلِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ حُقُوقِ الْعبادِ تَقْتَضِي الْقِصَاصَ، أو اسْتِرْضَاءَ الْخَصْمِ بِوَسِيلَةٍ أُخْرَىٰ.

يَغْفِرْ: مجزوم على أَنَّهُ جوابُ الطلب. وكذلِكَ: **يُؤَخِّرْ**.

الْمُكَافَأَةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: دَلَّتْ هَـٰذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَىٰ هـٰذَا الْبَيَانَ كَانَ في أَوَاخِرِ دَعْوَةِ نُوحٍ فِي قَوْمِهِ، وَبَعْدَ إِنْذَارِهِ لَهُمْ بإهْلَاكٍ شَامِلٍ مَقْرُونٍ بِعَذَابٍ أَلِيم من اللهِ رَبِّهِمْ.

أي: وَيَرْفَعُ عَنْكُمْ الْعَذَابَ والإهْلَاكَ الشَّامِلَ، وَيُؤَخِّرُكُمْ في الحياةِ الدُّنْيا إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى مُحَدَّدٍ بِتَقْدِيرِه وقَضَائِهِ، لِكُلِّ حَيٍّ مِنْكُمْ، وهُوَ الأَجَلُ الَّذِي قُضِيَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مُنْذُ قَضَىٰ اللهُ خَلْقَهُ في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا.

وَهـٰذَا الأَجَلُ المقَدَّرُ المقضيُّ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ إِذَا جَاءَ فإِنَّهُ لَا يُؤَخَّرُ، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّة قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في الآية (٤) من هذا الدَّرْس:

- ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾:

هَـٰذِهِ العبارة دَلَّتْ عَلَىٰ قَضِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ عَامَّة، أي: إِنَّ أجلَ أيِّ شيءٍ ذِي أَجَلٍ قَدَرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ في خُطَّةِ التَّكْوِينِ لَا يُؤَخَّرُ عَنْ وَقْتِهِ.

وَتَمَنَّىٰ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ أَنْ يَعْلَمُوا هٰذِهِ الحقائِقَ الَّتِي أبَانَها لَهُمْ. عِلْماً يَهْدِيهِمْ إِلَىٰ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، فَيُؤْمِنُوا وَيُسْلِمُوا، فقال لَهُمْ:

• ﴿... لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ «لَوْ» هُنا مِنْ حُرُوف التَّمَنِّي، وَلَهَا نظائر في القرآن المجيد.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (نوح).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٦)
التدبُّر التحليليّ للدّرس الثالث من دُروس سورة (نوح) الآيات من (٥ ـ ٢٤)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾:

القراءات:

(٦) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامر، وأبو جَعْفَر: [**دُعَائِيَ إِلَّا**] بفَتْحِ ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِها.

(٩) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر: [**إِنِّيَ أَعْلَنْتُ**] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِها.

(٢١) • قرأ ابْن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وَخَلَف: [**وَوُلْدُهُ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَوَلَدُهُ**].

الْوُلْدُ والْوَلَدَ يُطْلَقَانِ على المفرد وغيره والمذكّرِ وغَيْرِهِ، فَهُمَا بِمَعْنَىٰ واحد.

(٢٣) • قرأ نافع، وأبو جَعْفر: [**وُدّاً**] بضمّ الواو.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَدّاً**] بفتح الواو.

وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبِيَّان.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ ذِكْرُ مُوجَزِ مَا أَبَانَهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ، بِشَأْنِ مَا قَامَ بِهِ تُجاهَ قَوْمِهِ في رِسَالَتِهِ. وَشَكْوَاهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ لَهُ، وَعَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَته. وفيه مَقُولَتَان.

المقولَةُ الْأُولى: وفيها حِكَايَةُ قِصَّةِ دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ.

المقولَةُ الثانِية: وفيها حِكَايَةُ شَكْوَاهُ مِنْ مَعْصِيَةِ قَوْمِهِ لَهُ، وَعَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَحْكِي مُوجَزَ دُعَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ جلَّ جَلَالُهُ:

• ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾:

أي: قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ في دُعَائِهِ لِرَبِّهِ.

رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي إلى الإيمان والإسْلَام، وعبادَتِكَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ فِي رُبُوبِيَّتِكِ وَلَا فِي إِلَهِيَّتك، فِي مُخْتَلِفِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي رَأَيْتُ مِنَ المناسِبِ مُوَاجَهَتَهُمْ فِيها بِدَعْوَتي، ونُصْحِي، وَتبْلِيغي الدِّينَ الَّذِي أَمَرْتَنِي بِأَنْ أُبَلِّغَهُمْ إِيَّاه، وَتَذْكِيرِهِمْ بِهِ، لَيْلاً وَنَهاراً، قياماً بأداءِ الرِّسَالَةِ الَّتِي حَمَّلْتَنِي مَسْؤُولِيّاتِها، وكَلَّفْتَنِي وَظَائِفَهَا.

فَكَان عَلَيْهِ السَّلَامُ يَغْشَىٰ قَوْمَهُ جَماعَاتٍ وأفراداً في اللَّيْلِ والنَّهارِ بِلَا كَلَلٍ وَلَا مَلَلٍ، فَيَدْعُوهم إلى سبيلِ رَبِّهِ بالْحِكْمَةِ والموعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَيَعْرِضُ عليهم رِسَالَتَهُ، وَيُبَلِّغُهُمْ مَا أَمَرَهُ اللهُ بأنْ يُبلِّغَهُمْ إِيَّاه مِنْ قَضَايَا الدِّين، وَيُبَلِّغُهُمْ وَعْدَ اللهِ وَوَعِيدَه، وَيُذَكِّرُهُمْ بِآيَاتِ اللهِ فَيَتْلُوهَا عَلَيْهِم.

وقَدْ صَبَرَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ قَوْمِهِ صَبْراً عَظِيماً، في أَزْمَانٍ مَدِيدَةٍ، وَبِأَسَالِيبَ عَدِيدَة.

لَكِنَّ دَأْبَهُ الطَّوِيلُ فِي دَعْوَتِهِ قَوْمَهُ، لَمْ يَكُنْ لَهُ أَثَرُ اسْتِجَابَةٍ فِي نُفُوسِهِمْ وَقُلُوبِهِم، وَكُلَّمَا زَادَهُمْ دَعْوَةً زَادُوا فِراراً منْهُ عَلَيْهِ السَّلام، وَزَادُوا هُرُوباً وابْتِعَاداً عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي يَدْعُوهُمْ فِيهِ.

الْفِرَار: أَشَدُّ مَا يَسْتَطِيعُ الْعَدَّاءُ مِنْ جَرْيِ ابْتِعَاداً عَنِ الشيء الَّذِي أثَارَ خَوْفَهُ وَذُعْرَه.

فجاء التَّعْبِيرُ بالْفِرَارِ كِنَايةً عَنْ أَشَدِّ صُورِ عَدَمِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَام.

وَقَال نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي وَصْفِ النُّفُورِ الذي كَانَ يُقَابِلُهُ قَوْمُهُ بِهِ كُلَّمَا دَعَاهُمْ إلَىٰ دين اللهِ الحق:

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ للتَّخَلُّصِ مِنْ وَثَنِيَّاتِهِمْ وَكُفْرِيَّاتِهِمْ وَقَبَائِحِهِمُ الْخُلُقِيَّة والسُّلوكِيَّة، وإِلَىٰ الإيمان والإسْلَامِ بِصِدْقٍ، لِتَغْفِرَ لَهُمْ سَوَابِقَ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ ضَلاَلاَتٍ قَابَلُوا دَعْوَتِي لَهُمْ بِعَمَلَيْنِ مِنَ الْأَعْمَالِ المادِّيَّةِ الْجَسَدِيَّةِ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ رَفْضِهِمْ أَنْ يَسْتَمِعُوا لِأَقْوالي، وَيَشْهَدُوا وُجُودِي قَرِيباً مِنْهم.

العمَل الأول: أَنْ يَضَعُوا أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ، حَتَّىٰ لَا يَسْمَعُوا كَلَامِي، وَلِيُشْعِرُوني بأنّني أَقُولُ أقْوَالِي الْمُوَجَّهَةَ لَهُمْ في الْهَوَاءِ لِغَيْرِ سَامِعٍ لها، فالأَوْلَىٰ لِي أَنْ لَا أُتْعِبَ نَفْسِي بالتَّحَدُّثِ إِلَيْهِمْ وهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، وَلِيُشْعِرُوني بأَنَّ أَقوالي صَارَتْ مَحفُوظَةً لَدَيْهِمْ مُكَرّرة، فَنُفُوسُهُمْ تَشْمَئِزُّ مِنْها، وَتَتَقَزَّزُ مِنْ سَمَاعِهَا، فيجبُ عليَّ أَنْ أَنْصَرِفَ عَنْهُمْ، إِذْ هُمْ يَزْدَرُونَنِي، وَيَسْتَهِينُونَ بِي.

الْعَمَلُ الثاني: أَنْ يَسْتَغْشُوا ثِيَابَهُمْ، أي: أَنْ يَجْعَلُوا ثِيَابَهُمْ أَغْشِيَةً وأَغْطِيَةً عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ، لئلا يَرَوْهُ، وليُشْعِرُوه بالإدْبَار عَنْهُ إدْباراً كُلِّيًّا، وَبِأَنَّهُمْ عَنْهُ فِي حِجَابٍ، وبأَنَّهُ صَارَ ثَقِيلَ الظِّلِّ كَرِيهاً لَدَيْهِمْ، فَهُمْ يَنْفِرُونَ مِنْ رُؤْيَةِ وَجْهِه.

واسْتَمَرَّ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُوهُمْ صَابراً مُحْتَسِباً أَجْرَهُ عِنْدَ اللهِ، غَيْرَ مُكْتَرِثٍ لِمَا يُلاقِيهِ مِنْهُمْ، وغَيْرُ عَابِئٍ بما يُقَابِلُونَهُ بِهِ.

وأَبَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ أَنَّهُ كُلَّما دَعَاهُمْ إِلَىٰ دِينِ الله الحقّ، أَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَوَثَنِيَّاتِهِمْ، واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً شَنيعاً مُسْرِفاً.

- ﴿وَأَصَرُّوا﴾: أي: لَزِمُوا بعِنَادٍ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وشِرْكٍ وآثَام.

يُقَالُ لُغَةً: «أَصرَّ فُلانٌ عَلَىٰ الأَمْرِ» أَيْ: لَزِمَهُ وَثَبَتَ عَلَيْهِ، وأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ في الآثام والْقَبَائِح.

• ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾: أي: وَتَكَبَّرُوا تَكَبُّراً فَاحِشاً مُسْرِفاً قَبِيحاً مُؤْذِياً، مُتَعَالِينَ رَافِضِينَ قَبُول دَعْوَةِ الحقّ، اسْتُفِيدَ غُلُوُّهُمُ الشَّنِيعُ في كِبْرِهِمْ من صِيغَة «اسْتَفْعَل».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً حِكَايَةَ مُوجَزِ دُعَاءِ نُوحٍ رَبَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:

• ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾:

جَاءَ الْعَطْفُ بِحرف العطْف «ثُمَّ» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْفَاصِلِ الزَّمَنِيِّ بَيْنَ المجاهَدَة الْأُولَىٰ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا الآيَات من (٥ ـ ٧) وبَيْنَ الجاهدة الّتي تَدُلُّ عَلَيْهَا الآية (٨) والمجاهدة الثالِثة الَّتِي دلَّت عليها الآيَات بدءاً من الآية (٩).

إِنّ المجاهَدَة الأُولَى كانَتْ بأُسْلُوبِ الْعَرْضِ العادِيِّ بِرِفْقٍ ولُطْفٍ عَلَىٰ أفرادِهِمْ وجَمَاعَاتِهم فَنَالَهُ مِنهُمْ مَا نَالَهُ مِنْ نُفُورٍ وفرارٍ، وجَعْلِ أَصَابِعِهِمْ في آذانهم، وَتَغْطِيَةِ وُجُوهِهِمْ بثِيابهم، وإصرارهِمْ على كُفْرِهِمْ وشِرْكِيَّاتِهِمْ وسَيِّئَاتِ أعمالِهِمْ، واسْتِكْبَارِهِم اسْتِكْبَاراً شَنيعاً.

أَمّا المجاهَدَة الثَّانِيَّة: فَقَدْ كَانَتْ بأسْلُوبِ الْخُطَبِ في المجامِعِ، وَرَفْعِ الصَّوْتِ بَيْنَ الْجَمَاهِيرِ، دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارةُ: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨﴾.

يقال لغة: «جَهَرَ الرَّجُلُ بِكَلَامِهِ، أو دُعائِهِ، أَوْ صَوْتِهِ، أو قراءَتِهِ، يَجْهَرُ، جَهْراً، وجِهاراً» أَيْ رَفَعَ بِذَلِكَ صَوْتَهُ، فَصَوْتُهُ جَهِير.

وهـٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ صَارَ يَقِفُ فِي مَجَامِعِ قَوْمِهِ وضِمْنَ جماهِيرِهِمْ خَطِيباً يَدْعُو إلى دينِ اللهِ الحقّ، فَيَرْفَعُ صَوْتَهُ، حَتَّىٰ يُسْمِعَ جَمَاهِيرَهُمْ دَعْوَته.

وأَمَّا المجاهَدَة الثَّالِثَة: فَقَدْ كَانَتْ بِأُسْلُوب المراوحَةِ بين الإعْلَانِ إِذَا اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ الإعْلَان، والإِسْرَارِ إذا اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ الإِسْرَار.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ المجاهَدَةِ الثالِثَةِ عبارة: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾﴾.

• ﴿أَعۡلَنتُ لَهُمۡ﴾: أي: دَعَوْتُ أفرادهم وجماعَاتِهِمْ عَلانِيةً، وذَلِكَ بأُسْلُوبِ التَّحَدُّثِ الْعَلَنِيِّ بَيْنَ النَّاسِ، وهُو غَيْرُ أسْلُوب الْخُطابَة، إنَّهُ أَسْلُوبٌ هَادِئٌ، يَتَحَمَّلُ السُّؤال والجواب، والمناقَشَةَ والمجادَلة، والأَخْذَ والرَّدّ والمراجعَاتِ والمدَاخَلاتِ.

• ﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾: أي: دَعَوْتُ أفراداً مِنْهُمْ بأُسْلُوب الْحَدِيثِ السِّرّي، وذَلِكَ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَكْرَهُونَ أَنْ يُوَجَّهُ لَهُمُ النُّصْحُ أو التَّعْلِيمُ بَيْنَ النَّاسِ بِطَرِيقَةٍ عَلَنِيَّة، وَيَتَقَبَّلُون ذلِكَ إذا كان بِطَرِيقَةٍ سِرِّيَّة.

وقَدِ اتَّخَذَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هـٰذَا الأسْلُوب مع من كَانَ يَرَىٰ أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ يُوَجَّهُوا أَوْ يُعَلَّمُوا أَوْ يُنْصَحُوا أَوْ يُدْعَوْ بِطَرِيقةٍ عَلَنِيَّة، فَهُمْ لَا يَسْتَجِيبونَ لِدَعْوَةِ الْحَقِ إِذَا دُعُوا بأسْلُوبٍ عَلَنِيّ، إذْ هُو في تَصَوُّرِهِم يَنْقُصُ مِن مَكَانَاتِهِمْ لَدَىٰ الجماهير الَّتِي تُعَظِّمُ مِنْ شَأْنِهِم، وَتَرَاهُمْ عُظَمَاءَ في أَفْكَارِهِم وآرائِهِمْ ومَفَاهِيمِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِم، فَكَيْفَ يَسْتَجِيبُونَ لِدَاعٍ يَدْعُوهُمْ، إِلَىٰ تَرْك مَا هُمْ عَلَيْهِ، مِنْ مُعْتَقَداتٍ وَمَفْهُومَات، وأنواعِ سُلُوكٍ في الحياة.

وَجَاء تَوْكِيد فعل «أَسْرَرْتُ» بالمفْعُولِ المطْلَقِ «إِسْراراً» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ حَرِيصاً عَلَىٰ أَنْ لَا يَسْمَعَ حَدِيثَهُ مَعَهُمْ أَحَدٌ، وعَلَىٰ أَنَّهُ يَسْتَمِرُّ كاتِماً حَدِيثَهُ الَّذِي كَانَ يُسِرُّ بِهِ إليهم، لَا يَنْشُرُهُ وَلَا يَتَحَدَّثُ به للنَّاس،

لِيَكُونَ ذَلِكَ أَدْعَىٰ إلى التَّأْثِير فيهم، وقَدْ يَكُونُ المرادُ أيضاً إسْرَاراً شَدِيداً مُبَالَغاً فِيهِ مَقْرُوناً بالْحيطَةِ الشَّدِيدَة.

مَا يُسْتَفَادُ مِنْ دَعْوةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمه:

باسْتِطَاعَةِ المتدبّر أَنْ يُدْرِكَ أَنَّ دَعْوَة نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ، كَانَتْ ذَاتَ ثَلَاثِ مراحِل:

المرحَلَةُ الأولىٰ:

كانَتْ دَعْوَتُهُ لِقَوْمِهِ فِيها بأسْلُوبِ الْبَثِّ الْعَامّ، في كُلِّ الْأَوْقَاتِ الَّتِي يَحْسُنُ انْتِهَازُهَا لِدَعْوَةِ قَوْمِهِ من لَيْلٍ أَوْ نهارٍ، إذْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَام يَغْشَىٰ الْأَفْرَادَ فَيَدْعُوهم، ويَغْشَىٰ الْجَمَاعَاتِ فَيَدْعُوهم، فَيَعْرِضُ حَقَائِقَ الدِّينِ، وَيُبَيِّنُهَا، ويَشْرَحُهَا، ويُقِيمُ الحجج، ويَنْصَحُ، ويُرَغِّبُ وَيُخَوِّفُ مِنْ عِقَابِ اللهِ، وَيُذَكِّرُ مِنْ آنٍ إلى آخَرَ بِمَا كَانَ قَدْ أبَانَهُ وشَرَحَه، وَيُتَابِعُ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَىٰ المجاهَدَةِ والإِقْنَاعِ والجدال بالَّتِي هي أَحْسَن.

المرحَلَةُ الثَّانية:

كانَتْ دَعْوَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ فيها تَتَّسِمُ بأسْلُوبِ التَّصَدِّي لِلْخَطَابَةِ، بالصَّوْتِ الْجَهِيرِ في الْمَجَامِعِ وَالْمَحَافِلِ الَّتِي يَتَيَسَّرُ لَهُ أَنْ يَخْطُبَ فِيها.

وممَّا لَا يَخْفَىٰ أَنَّ الْخَطَابَةَ يَدْخُلُ فِيها مَعَ الإقْنَاعِ الْفِكْرِيِّ أُسْلُوبُ الموعِظَةِ الْحَسَنَةِ بالتَّرْغِيب والتَّرْهِيب، وأُسْلُوبُ اسْتِخْدَام الْقِصَصِ والْأَمْثَال، وفُنُونُ الْقَوْلِ الْمُحَرِّكِ لِلْعَوَاطِفِ والمثِير للانْفِعَالَاتِ الَّتِي تُهَيِّئُ الْمُنَاخَ النَّفْسِيَّ للاسْتِجَابَةِ، وَيَدْخُلُ فِي الْخَطَابَةِ تَنْوِيعُ أَسَالِيب الْأَدَاء والْعَرْضِ لِلْأَفْكَارِ الَّتِي يُرَادُ عَرْضُهَا، وَتَصْرِيفُ لَهَجَاتِ الصَّوْتِ وَنَغَمَاتِهِ بِمَا يُلَائِمُ المضَامِينَ الْفِكْرِيَّة، مَا بَيْنَ تَرْقِيقٍ وَتَحْزِين، أَوْ إثَارَةٍ وَتَهْيِيجٍ، وَدَغْدَغَةٍ طَيِّبَةٍ لمخْتَلِفِ انْفِعَالَاتِ النَّفْسِ.

وفِي الْخَطَابَةِ كَمْ يَجُودُ بَخيل، وكَمْ يَنْدَفِعُ جَبَانٌ بِشَجَاعَةٍ، وَكَمْ يَبْكِي ضَاحِكٌ، وَيَضْحَكُ باكٍ، وَكَمْ يَفْرَحُ حَزِين، وَيَحْزَنُ فَرْحَان، وَكَمْ يَتَسَلَّى مَهْمُومٌ، وَيُصَابُ بالْهَمِّ الشَّدِيدِ سَالٍ.

وَفِي لِسَانِ الْخَطِيبِ الْمُفَوَّهِ الْحَكِيمِ أَدوَاتُ التَّسْخِينِ والتَّبْرِيدِ للنُّفُوسِ والْقُلُوبِ والأَفْكَارِ وقِيادَتُهَا بامْتِلَاكِ الْمَشَاعِرِ.

الْمَرْحَلَةُ الثالثة:

وَكَانَتْ دَعْوَة نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الْمَرْحَلَةِ الثَّالِثَةِ تَتّسِمُ بِمُمَارَسَةِ أُسْلُوبَيْنِ رَئِيسَيْن:

الأسْلُوبُ الأَول: الإعْلَانُ لِمَنْ كَانَ يَرَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامَ أَنَّ الإعْلَانَ لَا يُنَفِّرُهُمْ أفراداً أو جماعات.

الأسْلُوبُ الثاني الإسْرَارُ لِمَنْ كَانَ يَرَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام أنّ الإعْلَانَ يُنَفِّرُهُمْ عَنِ الاسْتِمَاعِ لِدَعْوَة الحق، إذْ كَانَ يَزُورُهُمْ في بُيُوتِهم، أو مَتَاجِرِهم، أو مَصَانِعِ مِهَنِهِمْ، أو مزارِعِهِم، أو أماكِنِهِم الْخَاصَّة، فَيحَادِثُهُمْ سِرّاً بِحَسَبِ مُسْتَوَيَاتِهِمُ الْفِكْرِيَّة، وصِفَاتِهِم النَّفْسِيَّة، ويَدْعوهم إلى الإيمان بدِينِ الله الحقّ، والإسْلَامِ لله بِتَحْقِيقِ مَطْلُوب اللهِ عَزَّ وَجلَّ مِنهم.

وَأَبَان نوحٌ عَلَيْهِ السَّلام في دُعائِهِ لِرَبِّهِ، وهو أَعْلَمُ بأمْرِهِ مِنْهُ، إلّا أَنَّ نُوحاً يُقَدِّمُ فِي بيانِهِ عُذْرَه، أُمَّهَاتِ عُنْوَانَاتِ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي كَانَ يَدْعُو قَوْمَهُ في أُطُرِها.

• **دَلَّ عَلَىٰ الْعُنْوَانِ الرَّئِيسِ الأَوَّل:** قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في حِكَايَةِ بيان نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾:

بَعْدَ دَعْوَة نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْأُولَى لِقَوْمِهِ، وإِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ الكُفْر والْفُسُوقِ والْعِصْيَانِ، واسْتِكْبَارِهِمْ مُتَرَفِّعِينَ عَنِ اتِّبَاعِ رَسُولِ رَبِّهِمْ إليهم، صَارُوا عَلَىٰ عِلْم بِمَضْمُونِ دَعْوَتِهِ، غَيْرَ خَالِي الأَذْهَانِ مِنْ مَعْرِفَةِ أَرْكَانِ الإيمان، وأرْكانِ الإِسْلَامِ، وقواعِدِ الدِّينِ الكُبْرَىٰ، ولَمْ يَبْقَ لَهُمْ عُذْرٌ بَعْدَ التَّبْلِيغِ.

وَصَارُوا كَفَرَةً مُذْنِبِينَ عَنْ إرَادَةٍ جازِمَةٍ وَتَصْمِيم، ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام قَدْ أَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ كَفَرَةٌ عُصَاةٌ مُذْنِبُونَ.

لِهٰذَا تَحَوَّلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام مَعَ قَوْمِهِ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ مَبَادِئ الإيمانِ، وأَرْكانِ الإِسْلَامِ، وقَوَاعِدِ الدِّينِ الكُبْرَى إلىٰ بَيَانِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الإِقْلَاعِ عَنِ الذُّنُوبِ الَّتِي هُمْ غارِقُونَ فِيها مِنَ الكُفْرِ والشِّرْكِ، إِلَىٰ كُلِّ مَا دُونَهُمَا مِنْ فُسُوقٍ وعِصْيَان.

• ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾:

أي: فَقُلْتُ لَهُمْ: اطْلُبُوا مِنَ اللهِ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.

ومِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ ذَنْبِهِ، إِلَّا مَنْ صَحَّ إيمانُهُ وَأَقْلَعَ عَنْ ذُنُوبِهِ.

إِذَنْ: فَهُو عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الإِقْلَاعِ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وفُسُوقٍ وعِصْيَانٍ، ويَدْعُوهُمْ إلى طَلَب الْمَغْفِرَةِ مِنْ رَبِّهِم الْمُمِدِّ لَهُمْ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً بَعْدَ ذَلِكَ.

• ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾: أي: مِنْ صِفَاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الدَّائِمَة، أَنَّهُ كَثِيرُ المغْفِرَة لِعِبادِهِ.

غَفَّار: مِنْ صِيغِ المبالَغَة، وَوَصْفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِصِيَغِ المبالَغَةِ لَا مُبَالَغَةِ فِيهِ، بَلْ هِي الصِّيَغُ الأَقْرَبُ في البيانِ للدَّلَالَةَ عَلَىٰ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ البالِغَةِ الْغَايَة في كَمالَاتها.

واسْتِعْمَال فعل «كَانَ» هو للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الكَيْنُونَةِ المسْتَمِرَّةِ والْوُجُودِ الدَّائم، وَهَكَذَا سَائِرُ النُّصُوصِ الَّتِي اسْتُعْمِلَ فيها فِعْلُ «كَانَ» بالنِّسْبَةِ إلَىٰ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

واسْتَعْمَلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام عبارَة: ﴿رَبَّكُمْ﴾ لِأَنَّ رُبُوبِيَّةِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لَهُمْ دَائِمَةٌ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَىٰ إيمانِهِمْ بها، بخلافِ عبارَة «إلَهم» أي: مَعْبُودَكُمْ، إذ هُمْ لَا يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ الْمُنْعِمِ عَلَيْهِمْ دَوَاماً بِنِعَم لَا يَسْتَطِيعُونَ إحْصَاءَهَا، ويَعْبُدُونَ آلِهَةً لَا تَنْفَعُهُمْ وَلَا تَضُرُّهُم، أَوْ لَيْسَ لَهَا وُجُودٌ إلَّا فِي أَوْهَامِهِمْ.

• ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾:

دلَّ هـٰذَا البيانُ عَلَىٰ أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا أَهْلَ دُنْيا وَشَهَواتٍ، وَكَانُوا شَدِيدي التَّعَلُّقِ بالْأَمْوَالِ والْبَنِين، والْجَنَّاتِ والْأَنْهَارِ.

فَكَانَ مِنْ مَوَاعِظِهِ الحسَنَة لهم إِطْمَاعُهُمْ بأَنَّهُمْ إذَا آمَنُوا وأَسْلَمُوا واسْتَغْفَرُوا رَبَّهُمْ وأطاعُوهُ، وسَّعَ عَلَيْهِمْ مَا يَطْلُبُونَ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُوَ إِطْمَاعٌ بِحَقٍّ لِأَنَّهُ مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي عِبَادِهِ.

• ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾:

أي: فإنْ تُؤْمِنُوا وتُسْلِمُوا وَتَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ وَتُطِيعُوهُ يُرْسِلِ الْأَمْطَارَ عَلَىٰ بِلَادِكُمْ غَزِيرَةً وَافِرَةً.

وجاء اسْتِعْمَالُ فِعْلِ «يُرْسِل» لما في الإرْسالِ مِنْ مَعْنَىٰ تَأْدِيَةِ الْمُرْسَل وَظِيفَةً كَلَّفَهُ مَنْ أَرْسَلَهُ أَنْ يُؤَدِّيَهَا، وَحَدَّدَ لَهُ عَمَلَهُ فِيها، وَهـٰذَا مَا يُسَمَّىٰ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَدِيعِ «الْإِرْدَاف» إِذِ الْأَصْلُ أَنْ يُقَالَ نحو «يُنْزِلَ»[١].

---

(١) **الإرْدَاف**: هو عند علماء البديع. اختيار لفظ بَدَلَ لفظ آخر هو الأصْلُ في تأدِيَةِ المعنى الأصْلِي، لِغَرَضٍ بَلَاغِيّ.

وجاء إطْلَاق لفظ «السَّمَاء» عَلَىٰ الأَمْطَارِ لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي جِهَةِ الْعُلُوِّ سَحَاباً، فَهِي سَمَاء، إِذْ كُلُّ مَا هُوَ في جِهَةِ الْعُلُوّ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ سُكَّانِ الْأَرْض سَمَاء لُغَةً، وَكُلُّ مَا عَلَاكَ فَأَظَلَّكَ فَهُوَ سَمَاءٌ لُغَةً لَكَ، وإطْلَاق لفظ «السَّمَاء» عَلَىٰ ما ينزلُ مِنها من المجاز المرسل.

• ﴿عَلَيْكُم﴾: أي: عَلَىٰ أَرْضِكُمْ وَبِلَادِكُمْ وَمَزَارِعِكُمْ، لِمَنَافِعِكُمْ وَسُقْيَاكُمْ، وسُقْيَا أَنْعَامِكُمْ وَدَوَابِّكُمْ.

• ﴿مِّدْرَارًا﴾: أي: كثيراً غزيراً، يُقَالُ لُغَةً: «سَحَابٌ مِدْرارٌ» أي: كثيرُ السَّحِّ والإمْطار. ولفظ «مِدْراراً» مَنْصُوبٌ عَلَىٰ الحالِيَّة.

• ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾:

المالُ والبَنُونَ مِنْ أُولَىٰ مَطَالِبِ الإنْسَانِ فِي الحياة الدُّنْيا، وهُمَا مُزَيَّنَانِ للنَّاسِ فيها.

وقُدِّمَتْ الأمْوَال عَلَىٰ البنين، لِأَنَّ نُفُوسَ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، كانَ تَعَلُّقُهَا بِالْأَمْوَالِ يَحتَلُّ الْمُرْتَبَةَ الأُولى، أو لمراعَاة انْسِيَابِ السَّبْكِ في الْجُمْلَة.

أَمَّا مُعْظَمُ النَّاسِ فالْأَوْلَوِيَّاتُ عِنْدَهُمْ يُعَبِّرُ عَنْهَا قَوْل اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النِّسَاء/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾.

ونَظِيرُ تَقْدِيم المالِ عَلَىٰ البنينَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴿٤٦﴾﴾.

فلَعَلَّ بَعْضَ النَّاسِ يُقَدِّمُونَ في الْأَوْلَوِيَّاتِ المال، وآخَرِينَ يُقَدِّمُونَ في الْأَوْلَوِيَّاتِ الْبَنِينَ.

• ﴿... وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾:

الْجَنَّاتُ والْأَنْهَارُ مِنْ مَطَالِب الرَّفَاهِيَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

جَنَّاتٍ: أي: بَسَاتين فِيها أصْنَافُ الْأَشْجَارِ والزُّرُوعِ، وفِيهَا مُخْتَلِفُ الثمرات، مَعَ مَا يُرَافِقُهَا مِنْ أنْعَامٍ ودَوابّ.

أنْهاراً: أي: لإمْتَاعِ نُفُوسِكُمْ وأعْيُنِكُمْ بها، ولسُقْيَا الْأَشْجَار والزُّرُوع.

وقُدِّمَتِ الجنّاتُ عَلَىٰ الأنهار، مُرَاعَاةً لاحْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ الجنَّاتُ تُسْقَى بالْأَمْطَارِ دُونَ أنهار، ومَعَ ذَلِكَ تَكُونُ الْأَنْهَارُ مَطْلَباً جَمَالِيًّا بَدِيعاً، ولِتَحْقِيقِ مَنَافِعَ أُخْرَى غير سُقْيا الْجَنَّات.

وكُرِّرَتْ عِبارَة: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ لِنَوْعٍ مِنَ الجمالِ اقْتَضَاهُ التَّوَازُمُ الْإيقاعِيُّ في الْجُمَل، ولِأَنَّ جَعْلَ الْأَنْهَارِ يَكُونُ مِنْ خزَّانَاتٍ فِي الجبالِ بَعِيداتٍ عَنْ مَوَاقِعِ الجنَّاتِ، فَهُمَا جَعْلَانِ مُنْفَصِلان.

• **ودَلَّ عَلَىٰ الْعُنْوَانِ الرَّئِيس الثاني**: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في حِكَايَةِ بَيَانِ نُوحِ عَلَيْهِ السَّلام لِقَوْمِهِ:

• ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾؟:

• ﴿مَّا لَكُمْ﴾؟ اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ تَعَجُّبِيٌّ، وَجَّهَهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ. وهَـٰذِهِ العبارة جُمْلَةٌ مِنْ مُبْتَدإٍ وخَبَر. أي: مَا الصَّارِفُ أَوِ الْبَاعِثُ لَكُمْ، أَوِ الْمُفْسِدُ لِعُقُولِكُمْ وَأَفْكَارِكُمْ وَمَدَارِكِكمْ وقُلُوبِكُمْ وَنُفوسِكُمْ.

• ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾: أيْ: لَا تَتَوَقَّعُونَ للهِ عَظَمَةً وَقُدْرَةً عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ بِكُمْ مَا يَشَاءُ مِن عِقَابٍ عَلَىٰ الكُفْرِ والإشْرَاكِ بِهِ، وعَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ فِي

أَوَامِرِهِ ونَوَاهِيه، وعَدَم الاسْتِجَابَةِ لِرَسُولِهِ وعَدَمِ قَبُولِكُمْ الْبَلَاغَاتِ الَّتِي بَلَّغَكُمْ إِيَّاهَا عَنْه.

الرَّجَاءُ: هُوَ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ التَّوَقُّعِ لِمَا هُوَ مَحْبُوبٌ أَوْ مَرْغُوبٌ فِيهِ، أَوْ لِمَا هُوَ مَكْرُوهٌ ومَخُوفٌ مِنْهُ.

والْوَقَارُ: يأتي في اللَّغَةِ لِعِدَّةِ مَعَانٍ، والْمُنَاسِبُ مِنْهَا هُنَا الْعَظَمَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، ومِنْ عَظَمَتِهِ قُدْرَتُهُ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاء.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾: أي: والْحَالُ أَنَّهُ خَلَقَكُمْ خَلْقاً مُتَدَرِّجاً أَطْواراً، مِنْ تُرَاب، إلى غذاءِ، إِلَىٰ نُطْفَةٍ، إِلَىٰ عَلَقَةٍ، إِلَىٰ مُضْغةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ، إِلَىٰ جَنِينٍ، إِلَىٰ طِفْلٍ، وهكذا.

أَطْوَاراً: جَمْعُ «طَوْر» وكَلِمَةُ «طَوْر» تَأْتِي بِمَعْنَىٰ الحالِ والْوَصْفِ المتَمَيِّزِ بِخَصَائِصِهِ وَمَقَادِيرِهِ، فَمَثلاً:

(١) يَخْلُقُ اللهُ الشَّيْءَ أَوَّلاً مِنَ التراب، فيكُونَ نباتاً «هذا طَوْرٌ».

(٢) ثُمَّ يَتَغَذَّى مِنْهُ الإنْسَان، فَيَجْعَلُ مِنَ الغِذَاءِ دَماً «وهذا طَوْر».

(٣) ثُمَّ يَخْلُقُ اللهُ مِنَ الدَّم نُطْفَةً (وهذا طَوْرٌ ثالث).

(٤) ثُمَّ يَخْلُقُ اللهُ مِنَ النُّطْفَةِ عَلَقَةً (وهذا طورٌ رابع).

(٥) ثُمَّ يَخْلُقُ اللهُ مِنَ الْعَلَقَةِ مُضْغَةً «وهٰذَا طَوْرٌ خَامِسٌ».

وَهَكَذَا تَتَبَايَعُ الْأَطْوَار حَتَّىٰ يَكُونَ الْجَنِينُ إِنْسَاناً سَوِيًّا، فَخَلْقُ الشيء في صِفَاتٍ مُتَحَوِّلَاتٍ مِنْ وَضْعٍ إِلَىٰ وَضْعٍ هُوَ خَلْقٌ فِي أَطْوَار.

والْخَلْقُ ضِمْنَ نِظَام الْأَطْوَارِ يُنَبِّهُ دواماً عَلَىٰ التَّفَكُّرِ في صِفَاتِ الْخَالِقِ الْمُدَبِّر الحكيم الْعَلِيم الْقَدِير، إِذْ كُلُّ طَوْرٍ مِنْ أَطْوَارِ الْخَلْقِ يُوَجِّهُ أَنْظَارَ المتَفَكِّرِينَ لِعَمَلِ الْخَالِقِ فِي إِحْدَاثِ طَوْرٍ فِي الْخَلْقِ بَعْدَ طَوْرٍ، وَلَوْ بَقِيَ الْخَلْقُ عَلَىٰ طَوْرٍ واحِدٍ دَواماً لَمَا حَدَثَ مِثْلُ هٰذَا التَّنبيهِ، ولَبَدا للنَّاظِرِينَ إِلَيْهِ أَنَّ وَضعَهُ الطَّبِيعيَّ الدَّائِمَ هَكَذَا، فَهُوَ لَا يَحْتَاجُ خَالِقاً.

فالْمَعْنَىٰ: أيُّ شَيْءٍ حَصَلَ لِعُقُولِكُمْ، وأفْكَارِكُمْ، وَمَدَارِكِكُمْ، وقُلُوبِكُمْ، ونُفُوسِكُمْ، فَأَفْسَدَهَا، وَصَرَفَهَا عَنْ إدْرَاكِ عَظَمَةِ اللهِ فِي كُلِّ شيء، وَمِنْهَا قُدْرَتُهُ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ فِيكُمْ مَا يَشَاءُ، فَهُوَ يُعَاقِبُكُمْ بِعَظَمَتِهِ كما أَوْعَدَكُمْ عَلَىٰ كُفرِكُمْ ومَعَاصِيكُمْ، فَأَنْتُمْ لَا تَتَوَقَّعُونَ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ بِكُمْ نِقْمَتَهُ، وَيُهْلِكَكُمْ فِي الدُّنيا، ويُعَذِّبَكُمْ في دَارِ عَذَابِهِ يَوْمَ القيامَة. وَلَا تَتَوَقَّعُونَ ثَوَابَهُ الْعَظِيمَ، وأَنْ يُدْخِلَكُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ إِذَا آمَنْتُمْ وَأَسْلَمْتُمْ وعَمِلْتُمْ مِنَ الصَّالِحَات، كَمَا وَعَدَكُمْ فِيما أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ؟؟.

أغُشِيَ عَلَىٰ مَدَارِكِكُمْ فَصِرْتُمْ لَا تُدْرِكُونَ دَلَائِلَ آيَاتِ اللهِ المشْهُودَةِ والْمَسْمُوعَة، فَلَا تَخَافُونَ عِقَابَ اللهِ، وَلَا تَطْمَعُونَ فِي ثَوَابِهِ الْعَظِيم يَوْمَ الدِّين، وهُمَا مِنْ آثَارِ عَظَمَتِهِ وَقُدْرَته وَجَلَالِهِ «= وَقَارِه» والحالُ أَنَّهُ قَدْ خَلَقَكُمْ خَلْقاً مُتَدرِجاً أَطْوَاراً يَدُلُّكُمْ فِيهِ دَواماً عَلَىٰ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وكَمَالِ حِكْمَته.

• **ودَلَّ عَلَىٰ الْعُنْوَانِ الرَّئِيسِ الثّالث**: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي بيان نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام لِقَوْمِهِ:

• ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾:

• ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾: أي: قَالَ لَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام: أَلَمْ تَروا هَـٰذِهِ الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّةِ المتْقَنَةَ الْعظيمَة في السَّماوَاتِ وفي الْأَرْضِ؟

اسْتِفْهَامٌ فِيهِ معْنَىٰ الحثِّ عَلَىٰ التَّفكُّر فِي هَـٰذِهِ الظَّاهِرَاتِ الْعَجِيبَات، والتَّلْوِيم عَلَىٰ عَدَمِ التفكُّرِ فيها تَفَكُّراً هَادِيًا إِلَىٰ عَظَمَةِ صِفَاتِ الرَّبِّ الخالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ، وسَمَتْ حِكْمَتُهُ، وبَهَرَ إِتْقَانُهُ صُنْعَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَه.

فَهَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ تَتَابُعُ تَصارِيفِ الْخَلْقِ فيها بإتْقَانٍ تَامٍّ

دُونَ خالِقٍ عَظِيم لَهُ كُلُّ صِفَاتِ الكَمَالِ، الَّتِي مِنْهَا الْعِلْمُ الشَّامل، والْقُدْرَةُ العظيمَةُ المكافِئَةُ لِتَصْرِيفِ هَـٰذِهِ الْمُكَوَّنَاتِ العظْمَىٰ، والْحِكْمَةُ البَالِغَة، والْعَدْلُ والعِنَايَةُ والرَّحْمَة؟!.

هَلْ يُمْكِنُ عَقْلاً أَنْ تَكُونَ خَاضِعَةً لِتَصَارِيفِهِ فيها، مِنْ أَصْغَرِ ذَرَّةٍ إِلَىٰ أَكْبَرِ مَجرَّةٍ بإتْقَانٍ كامِلٍ بَدِيعٍ حَكيم، دُونَ أَنْ تَكُونَ خَلْقاً مِنْ خَلْقِهِ، وأثراً مِنْ آثَار صَنْعَتِهِ؟!

هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ خَلْقُ الإنْسَانِ فِي هـٰذَا الكَوْنِ الْعَظِيم عَبَثاً وبَاطلاً؟!

أَلَا يَدُلُّ هـٰذَا الْخَلْقُ الأَوَّلُ عَلَىٰ أَنَّ الْغَايَةَ مِنْهُ ابْتِلَاءُ الإنسانِ فِي ظُرُوفِ هَـٰذِهِ الْحَيَاة؟!

أَلَا يَحْكُمُ الْعَقْلُ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ خَلْقٍ آخَرَ يَتَحَقَّقُ فِيهِ الْحِسَابُ، وفَصْلُ الْقَضَاءِ، والجزاء؟!

إنَّ الاسْتِدْلَالَ بِظَاهِرَاتِ خَلْقِ اللهِ في الْأَنْفُسِ، وفي السَّمَاوَاتِ، وفي الْأَرْضِ، عَلَىٰ حَقِّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِه، وعَلَىٰ إدَانَتِهِمْ ومُحَاسَبَتِهِمْ ومجازَاتِهِمْ يَوْم الدِّين، إنَّما يَتِمُّ باتِّبَاع السِّلْسِلَةِ الْفِكْرِيَّة الَّتِي سَبَقَ بَيَانُها، وكَثِيرٌ مِنْهَا مَطْوِيٌّ في النّصّ، لِأَنَّ اللُّزُومَاتِ الْفِكْرِيَّةَ تَدُلُّ عَلَيْهَا.

• ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾؟؟!

طِبَاقاً: اسْمُ مَصْدَرٍ، يُقَالُ لُغَةً «طَابَقَه، مُطَابَقَةً، وطِبَاقاً» والمطابَقَةُ في اللُّغَةِ الموافقة، والتَّسَاوِي، تَقُول لغة: «طَابَقْتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْن» أي: جعلْتَهُمَا عَلَىٰ حَذْوٍ وألْزَقْتَهما. وتَقُولُ أيْضاً: «طَابَقْتُ بَيْنَ الْقَمِيصَيْنِ، أو بَيْنَ الثَّوْبَيْن» أي: لَبِسْتَ أَحَدَهُمَا عَلَىٰ الآخر.

وقد جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ طِبَاقاً، أي: جَعَلَ بَعْضَهَا

فَوْقَ بَعْضٍ بِتَتابُع، كَثَوْب فَوْقَهُ ثَوْبٌ آخَرُ وَهَكَذَا إلى سَبْعَةِ أثْوَابٍ، أَوْ مِثْلَ كُرَاتٍ مُتَدَاخِلَاتٍ، فَالْكُرَةُ الْوُسْطَىٰ فَوْقَهَا كُرَةٌ أُخْرَىٰ حَوْلَهَا، وَهَكَذَا إِلَىٰ سَبْعِ كُرَاتٍ، كُلُّ كُرَةٍ تَالِيَةٍ تُحِيطُ بالْكُرَةِ الدَّاخِلَةِ فيها.

وَلفظ «طباقاً» مَنْصُوبٌ عَلَىٰ الحالِيَّة، أو عَلَىٰ تَضْمِينِ فِعْل «خَلَق» معنى فِعْل «جَعَلَ» والتقدير: خَلَقَ سَبْعَ سَمَاواتٍ فَجَعَلَهَا طِبَاقاً.

ولَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ ظَاهِرَةُ خَلْقِ اللهِ السَّمَاوَاتِ سَبْعاً طِباقاً مَعْلُومَةً وَلَوْ بِصُورَةٍ إِجْمَالِيَّةٍ، لدَىٰ الَّذِينَ يَلْفِتُ نُوحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْظَارَهُمْ إِلَيْهَا مِنْ قَوْمِهِ، باعْتِبَارِ كَوْنِهَا مِنَ القضايا المسَلَّمَةِ لَدَيْهم، إِذْ هِيَ مِنْ بَقَايَا المَوْرُوثَاتِ الَّتِي وَرِثَتْها الْبَشَرِيَّةُ عَنْ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فالنَّبِيّين والمؤمنينَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، أو أَنْ تَكُونَ مِنَ الأمُور الّتِي أَقَامَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمُ الدَّلِيلَ عَلَيْهَا حَتَّىٰ سَلَّمُوا بها، وبَعْدَ ذَلِكَ أَرَادَ أَنْ يَنْقُلَهُمْ إِلَىٰ الإقْنَاعِ بما لَمْ يُسَلِّمُوا بِهِ، بالاسْتِنَادِ إلى مَا سَلَّمُوا بِهِ.

لَكِنَّ كَوْنَ السَّمَاوَاتِ سَبْعاً، وَكَوْنَهَا طِباقاً أَمْرَانِ خَبَرِيَّانِ لَا يَمْلِكُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَدِلَّةً إِقْنَاعِيَّةً عَلَيْهِمَا مِنَ الظَّواهر المشْهُودَة، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَا مِنْ مَوْرُوثَاتِ عَقَائِدِهم.

وسُؤَالُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ عَنْ كَيْفِيَّةِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ الطِّبَاقِ، هُوَ سُؤالٌ لَهُمْ عَنْ إِتْقَانِهَا الْبَدِيع، الظَّاهِرَة آثَارُهُ فِي المشَاهِدَاتِ المتكرِّرَاتِ مَعَ تَوَالِي الْأَزْمَانِ فِي سَاعَات اللَّيْلِ والنّهار دَوَاماً، لانْتِزَاعِ اعْتِرَافِهِمْ بِكَمَالِ صِفَاتِ الرَّبِّ الْخَالِق، والانْتِقَالِ مِنْهَا إِلَىٰ حَقِّ رُبُوبيّتِهِ، وَمَسْؤُولِيَّتِهِمْ فِي الحياة الدُّنْيَا تُجَاهَهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وسَمَتْ حِكْمَتُه ـ فَإِلَىٰ قَانُونِ الإدَانَةِ عَلَىٰ المكْتَسَبَاتِ الإرَادِيَّةِ فِي الحياة الدُّنْيا، بالْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء، فَإِلَىٰ الْإِيمَانِ بِيَوْم الدِّينِ.

• ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾:

هُمَا نِظَامَانِ مُخْتَلِفَانِ، فَجَعْلُ الْقَمر يُعْطِي نوراً لَهُ نِظَامٌ في الْكَوْنِ مُخْتَلِفٌ عن نظام الشَّمْسِ، وجَعْلُ الشَّمْسِ تُعْطِي ضِياءً كالسِّرَاجِ لَهُ نِظَامٌ آخَرُ في الكَوْن مُخْتَلِفٌ عَنْ نِظَامِ الْقَمر، فَهُمَا جَعْلانِ يُلائِمُهُمَا فِي الْبَيَانِ تَكْرِيرُ فعل «جَعَل».

وكَوْنُ الْقَمَرِ والشَّمْس في السَّمَاوَاتِ حَقِيقَةٌ مَشْهُودَةٌ للنَّاسِ جَمِيعاً، ولمَّا كَانَتِ الأَرْضُ فِي مَوْقِعٍ مِنَ الكَوْنِ تُحِيطُ بِهِ السَّمَاءُ الدُّنْيَا، وفَوْقَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَحَوْلَهَا تَتَسَلْسَلُ سَائِرُ السَّمَاوَاتِ، كَانَ مِنَ الْبَدَهِيِّ أَنْ يَكُونَ الْقَمَرُ والشَّمْسُ في السَّمَاوَاتِ، إذ السَّمَاءُ الدُّنْيَا واقِعَةٌ فِي بَاطِنِ السَّمَاءِ الثانية، وهِيَ في الثَّالِثَة، وهكَذا، فَمَا هُوَ في الْأَدْنَىٰ مِنْهَا هُوَ فيها جَمِيعها بالنظَرِ إلَىٰ التداخل.

ومن الْمُلَاحَظِ أَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ لَفَتَ أَنْظَارَ قَوْمِهِ إلى أنّ الْقَمَرَ نُور، وإِلَىٰ أَنَّ الشَّمْسَ سِرَاج، أيْ: تُشْبِهُ السِّراجَ بالنّظَرِ إلى كَوْنِهَا كُتْلَةً نَارِيَّةً، ذَاتَ أَشِعَّةٍ حارَّةٍ تَنْبَعِثُ مِنْهَا مُمْتَدَّةً إِلَىٰ مَسَافَاتٍ بَعِيدَاتٍ عَنْهَا فِي الكَوْنِ، وقِسْمٌ عَظِيمٌ مِنْهَا يَصِلُ إِلَىٰ الأَرْض.

ويَظْهَرُ أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا يُفَرِّقُون بَيْنَ النُّورِ والسِّرَاجِ ذِي الشَّعْلَةِ الملتَهِبَة.

إِنَّهُمْ إِذَا جلَسُوا في نُورِ الْقَمَرِ طَوَالَ لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ لَمْ يَشْعُرُوا بِأَيَّةِ حَرَارَةٍ لِنُورِهِ الَّذي يَمْتَدُّ إِلَيهِمْ، بخلاف مَا لَوْ جَلَسُوا في النَّهَارِ فِي ضِيّاءِ الشَّمْسِ، فإنَّهُم يَشْعُرُونَ بالْحَرَارَة، وقَدْ تَصِلُ إِلَىٰ حَدِّ لَذْعِ أجْسَادِهِمْ، لما يَفْعَلُ السِّراجُ المشْتَعِلُ بالنّار، فإِنَّهُ يُعطِي ضِيَاءً مَصْحُوباً بِحَرَارَةٍ وَشُعْلَتُهُ تُحْرِقُ مَنْ مَسَّها.

وهـٰذَا الَّذي كَانَ قَوْمُ نُوحٍ يُدْرِكُونَهُ بالحسِّ، دُونَ أَنْ يَكُونُوا عَلَىٰ عِلْمٍ بِتَفْسِيره، وتَحْدِيدِ أسْبابِهِ، هُوَ مِنْ ظَوَاهِرِ عِنَايَةِ اللهِ بِخَلْقِهِ، إذْ يُدْرِكُون

أَنَّهُمْ بِحَاجَةٍ إلى ضِيَاءٍ حَارٍّ يَبْعَثُ بِالْحَرَارَةِ بِاتِّجَاهِ الْأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ النَّاسِ فِيها، فَهِيَ الْوَقُودُ الضَّرُورِيُّ لِلْحَيَاةِ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، وَيُدْرِكُونَ أَنَّهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ مُدَّةٍ رَاحَةٍ مِنْ وَطْأَةِ حَرَارَةِ الشَّمْسِ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ اللَّيْلَ الَّذِي تَغِيبُ فِيهِ الشَّمْسِ، وَيُدْرِكُونَ أَنَّهُمْ بِحَاجَةٍ فِي اللَّيْلِ إِلَىٰ نُورٍ بَارِدٍ، لَا تُصَاحِبُهُ حَرَارَةُ أَشِعَّةٍ مُنْبَعِثَةٍ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْقَمَرَ.

أَلَيْسَ كُلُّ هٰذَا التَّدْبِيرِ فِي الكَوْنِ لِسُكَّانِ الْأَرْضِ مِنْ عِنَايَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالنَّاسِ، وَمِنَ الآيَاتِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَوَقَارِهِ؟!

هٰذَا مَا لَفَتَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْظَارَ قَوْمِهِ إِلَيْهِ.

أَمَّا التَّفْسِيرُ الْعِلْمِيُّ لِكَوْنِ الْقَمَرِ يُعْطِي نُوراً، وَكَوْنِ الشَّمْسِ تُعْطِي ضِياءً مِثْلَ السِّرَاجِ، فَمَتَىٰ وَصَلَ النَّاسُ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ أَدْرَكُوا أَنَّ الْبَيَانَ الدِّينِيَّ قَدْ أَلْمَحَ إِلَيْهِ مُنْذُ عَهْدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ، لِيَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّ الدِّينَ حَقٌّ، وَأَنَّ كُلَّ بَيَانَاتِهِ صِدْقٌ، فَمُنَزِّلُ الدِّينِ عَلَىٰ لِسَانِ الرُّسُلِ هُوَ خَالِقُ الكَوْنِ وَالعَلِيمُ بِهِ.

السِّرَاجُ: هُوَ فِيمَا يَعْرِفُ النَّاسُ شَيْءٌ يُوقَدُ فَيُعْطِي شُعْلَةَ نَارٍ مُضِيئَة، وَالشَّمْسُ فِي حَقِيقَتِها الَّتِي تَوَصَّلَ إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ بَعْدَ أُلُوفِ السِّنِينَ مِنْ عَصْرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، كُرَةٌ نَارِيَّةٌ كُبْرَىٰ، سَابِحَةٌ فِي السَّمَاءِ، فَاتَّفَقَ الْإِلْمَاحُ فِي البَيَانِ الدِّينِي مَعَ مَا تَوَصَّلَتْ إِلَيْهِ الْمَعَارِفُ الإِنْسَانِيَّةُ بَعْدَ أُلُوفِ السِّنِين.

وَأَمَّا النُّورُ: فَكَاشِفٌ لِلظُّلْمَةِ، وَالنَّاسُ يُفَرِّقُونَ مُنْذُ عَهْدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام بَيْنَهُ وَبَيْنَ الضِّيَاءِ الحَارِّ الَّذِي يَنْبَعِثُ مِنَ النَّارِ المُشْتَعِلَة، إِذْ كَانَ النَّاسُ يَعْرِفُونَ أَنْوَاراً بَارِدَةً لَا حَرَارَةَ فِيها، أَقْرَبُها إِلى النَّاسِ الْبُدَائِيِّينَ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِن انْعِكَاسِ الْأَضْوَاءِ عَنِ الْأَشْيَاءِ الصَّقِيلَةِ الْعَاكِسَةِ لِلنُّورِ، كَالمِرْآة، وَهٰذِهِ الكَوَاشِفُ لِلظُّلْمَةِ المنْعَكِسَةُ بَارِدَةٌ لَا حَرَارَةَ لها.

وَالْقَمَرُ في حَقِيقَتِهِ جِسْمٌ فِي السَّمَاءِ يَعْكِسُ ضِيَاءَ الشَّمْسِ المنْصَبِّ

عَلَيْهِ، فَيأْتِي إلَىٰ الأَرْضِ نوراً، فاتَّفَقَ الإلْمَاحُ في البيان الديني مَعَ مَا تَوَصَّلَتْ إِلَيْهِ المعارِفُ الإنْسَانِيَّة بَعْدَ أُلوف السنين.

فمعْنَىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾: وجَعَلَ الْقَمرَ في السَّماوَاتِ عَاكِساً نُوراً، أَوْ باثًّا نوراً، أَوْ ذَا نُورٍ.

ومعنى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾: وجَعَلَ الشَّمْسَ فِيهِنَّ كالسِّرَاج، وهٰذَا مِنَ التَّشْبِيهِ البليغ، أو وجَعَلَ الشَّمْسَ فِيهِنَّ سِرَاجاً كَوْنِيًّا كَبِيراً يُنَاسِبُ حَجْمَ الأَرْضِ وحَاجَاتِها إلَىٰ مَا تَبُثُّهُ الشَّمْسُ من أشِعَّةٍ ضَوْئِيَّةٍ تَصِل إِلَيْها.

• ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾:

أبانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلام لِقَوْمِهِ في تِلْكَ القرون الْقَدِيمَةِ من قُرُون الْبَشَرِيَّة حَقِيقَتَيْنِ تَتعَلَّقَانِ بالنَّاسِ:

الحقيقة الأولى: نَشْأَة النَّاسِ مِنَ الأَرْض.

الحقيقة الثانية: بَعْثُ النَّاسِ إلَىٰ الحياة، لِلْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء، بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وفَنَاءِ أَجْسَادِهم وعَوْدَتِها إلَىٰ تَرَابِ الأَرْضِ، فَتَكُونَ فِيها مِنْ عَنَاصِرِها.

إنَّ مِنَ العجيب أَنْ يَذْكُرَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلام لِقَوْمِهِ أَنَّ اللهَ أَنْبَتَهُمْ مِنَ الأَرْضِ نَباتاً، وأَنْ يَلْفِتَ أَنْظَارَهُمْ إلَىٰ التَّفَكُّرِ فِي هَـٰذِهِ الحقيقَةِ الَّتِي هِي مِنَ الحقائِقِ الَّتِي يَصْعُبُ جدًّا عَلَىٰ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّحِيقَةِ في القِدَمِ أَنْ يُدْرِكُوها، وقَدْ يَعْتَبِرُونَ ذِكْرَهَا مِنَ التَّخْرِيفِ والتَّخْلِيطِ، لَكِنَّ الْفِكْرَ الدِّينِيَّ مُتقَدِّمٌ دَائماً.

إنَّنا في عُصُورِنَا الَّتِي ارتَقَتْ فِيها الْعُلُومُ الكَوْنِيَّةُ لا نَجِدُ صُعُوبَةً فِي إدْرَاكِ هَـٰذِهِ الْحَقِيقَة، لِأَنَّنا صِرْنَا نَعْلَمُ أَنَّ الْجَنِينَ إنَّما يَتَكَوَّنُ بِخَلْقِ اللهِ مِنَ النُّطْفَةِ، وأَنَّ النُّطْفَةَ إِنَّما تَتَكَوَّنُ بِخَلْقِ اللهِ مِنَ الدَّمِ، وأَنَّ الدَّمَ في أجْسَادِ

النَّاسِ إِنَّمَا يَتَكَوَّنُ بِخَلْقِ اللهِ مِنَ الطَّعَامِ والشراب، وأنَّ الطَّعَامَ الَّذِي يَأْكُلُهُ النَّاسُ مِنَ الْحَيَوَانِ أو النباتِ مَصْدَرُهُ نَبَاتُ الْأَرْض، وأنَّ المصْدَرَ لِكُلِّ ذَلِكَ التُّرَابُ والماء.

فَهَلِ الشُّعُوبُ الْبُدَائِيَّةُ كانَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِفَهْمِ كُلِّ هٰذَا والاقتناع بِهِ، إِذَا شَرَحَهُ لَهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

ولعَلَّ هٰذِهِ الْمَعْرِفَةَ كانَتْ مِنَ المعارف المتوارَثَةِ بَيْنَ النَّاسِ مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ النبيّين عَلَيْهم السلام، فَنُوحٌ سَلَامُ اللهِ عَلَيْهِ يُذَكِّرُ قَوْمَهُ بِمَعَارِفَ هُمْ مُسَلِّمُونَ بها، ولَا يُجَادِلُونَ فِيهَا؟

فَمَعْنَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ والله أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً وفْقَ نظامٍ خاصٍّ جارٍ ضِمْنَ تَسَلْسُلِ أَطْوَارٍ مُتَتَابِعَة.

وبَعْدَ أَنْ أبانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلام لِقَوْمِهِ أطْوَارَ النَّشْأَةِ الْأُولَىٰ مِنَ الْأَرْضِ بخَلْقِ اللهِ، أَخْبَرَهُمْ عَنِ الْمَصِيرِ الَّذِي هُمْ صَائِرُونَ إليه.

أَمَّا الْمَوْتُ فَكُلُّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِهِ، إِذْ هُوَ أَمْرٌ مَشْهودٌ مُتَكَرِّرُ الْوُقُوع، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَتَوَقَّعُهُ آجِلاً أَوْ عَاجِلاً.

وأَمَّا فَنَاءُ الْأَجْسَادِ وَعَوْدَتُهَا إلى تَرَابِ الْأَرْضِ، حتَّىٰ تَكُونَ جُزْءاً داخِلاً في أَجْزَاءِ الْأَرْض الَّتِي كَانَ مِنْهَا بَدْءُ خَلْقِهِمْ، فَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِهِ أَيْضاً، وَيَشْهَدُونَهُ فِي مَقَابِرِ مَوْتَاهُمْ، ولَكِنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لَفَتَ أَنْظَارَ قَوْمِهِ إِلَيْهِ بِقولِهِ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ لِيُهَيِّئَ أَذْهَانَهُمْ إِلَىٰ حَقِيقَةِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، مِنَ الْأَرْضِ نَفْسِهَا الَّتِي خُلِقَتْ أَجْسَادُهُمْ مِنْهَا أَوَّلاً، ثُمَّ أُعِيدَتْ إِلَيْهَا حَتَّىٰ كانَتْ فيها ذَرَّاتٍ تُرَابِيَّة.

أي: فالَّذِي خَلَقَ أجْسَادَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ابْتِدَاءً، وأعادَكُمْ إِلَيْهَا إِمَاتَةً فإِفْنَاءً، قادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ إِخْرَاجاً هَيِّناً عَلَيْهِ، وَيُعِيدَكُمْ إِلَىٰ الحياة، لِلْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء.

وأبانَتِ النُّصوصُ الدِّينيَّةُ فِي الإسْلَام، أَنَّ هـٰذَا الإخْرَاجَ للنَّاسِ مِنَ الْأَرْض، يَكُونُ مِثْلَ إخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنْهَا، من النَّوَيَات الَّتِي لَا تَفْنَىٰ، والَّتِي تَكُونُ مَحْفُوظَةً فِي عَجْبِ الذَّنب، وفي كُلٍّ مِنْهَا طَبْعَةُ الإنْسَانِ بِكُلِّ صِفَاته.

فَقَضِيَّةُ الْبَعْثِ لِيَوْمِ الدِّينِ من الحقائِقِ الَّتِي بَلَّغَهَا جَمِيعُ رُسُلِ اللهِ أمَمَهُمْ، إذْ هِيَ دَاخِلَةٌ ضِمْنَ بَرْنَامَجِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيِّ، مُنْذُ قَدَّرَ اللهُ وقَضَىٰ بأَنْ يَخْلُقَ النَّاسَ لِيَبْلُوَهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

• ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾:

• ﴿بِسَاطًا﴾: أي: كالْبِسَاطِ في سُطُوحِهَا عَلَىٰ دائِرَةِ كُرَتِهَا، فَالْأَرْضُ ذَاتُ سُهُولٍ مُنْبَسِطَةٍ واسِعَةٍ، وذَاتُ سُطُوحٍ مُخْتَلِفَةٍ، صَالِحَةٍ لِلْحَرْثِ والزَّرْعِ واتِّخَاذِ المزارعِ والْبَسَاتِين الواسِعَةِ فيها، ولإقَامَة الْمُدُنِ والْقُرَىٰ، وشَقِّ الطُّرُقِ الَّتِي تُقَرِّبُ الْمَسَافَاتِ الشَّاسِعَات.

فَلَيْسَتْ كُلُّ الْأَرْضِ جِبالاً ذَوات رُؤُوسٍ عَالِيَة، وَوِدْيَانٍ وأَغْوَارٍ سَحِيقَة، ولَيْسَتَ هِي كَظَهْرِ الْقُنْفُذ، بَلْ هِيَ بِسُطُوحِهَا المنْبَسِطَةِ صَالِحَةٌ لِتَسْهِيلِ مَصَالِحِ النَّاسِ عليها، ولَوْ كَانَتْ عَلَىٰ غَيْرِ هَـٰذِهِ الصِّفَةِ، لاشْتَدَّ عَلَىٰ النَّاسِ فِيهَا اتِّخَاذُ سُبُلِ الْحَياةِ والرِّزْقِ، والتَّنَقُّلِ في أَرْجَائِهَا عَلَىٰ ظَهْرِهَا.

• ﴿لِّتَسْلُكُواْ﴾: أي: لِتَدْخُلُوا وَتَعْبُرُوا، يُقَال لُغَةً: «سَلَكَ الطَّرِيقَ أَوِ الْمَكَانَ، وَسَلَكَ بِهِ، وسَلَكَ فِيهِ» أي: دَخَلَهُ وَنَفَذ.

• ﴿سُبُلًا﴾: جمع «سبيل». **والسَّبِيلُ**: هو الطريق سواءٌ أكانَ ضَيِّقاً أَمْ وَاسِعاً. وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الطَّرِيق في الْأَرْضِ اليابِسَة، وعَلَىٰ الطَّرِيق في البحر، وعَلَىٰ الطَّرِيق في الجوّ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الطَّرِيق المادِّيّ الحسِّيّ، وعَلَىٰ الطَّرِيق المعْنَوِيّ الْفِكْرِي.

• ﴿فِجَاجًا﴾: جَمْعُ «فَجّ» **والْفَجّ**: هو الطَّرِيق الواسع.

أي: لِتَسْلُكُوا مِنَ الْأَرْضِ طُرُقاً مُخْتَلِفَةً وَاسِعَة، فجيء بِلَفْظِ «سُبُلاً» لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْأَنْوَاعِ، وجيء بلفظ «فِجاجاً» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ السَّعَة.

وهُنَا نُلَاحِظُ أَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَرْشَدَ قَوْمَهُ إِلَىٰ التَّفَكُّرِ في ظَوَاهِرِ عِنَايَةِ اللهِ بِعِبَادِه، إذ هَيَّأَ لَهُمْ في الْأَرْضِ سُبُلَ مَعَاشِهِمْ وَأَفَاضَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ الكَثِيرَة، فَتَتَبُّعُ سِلْسِلَةِ دَلِيلِ عِنَايَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ يَهْدِي أُولي الْأَلْبَابِ إِلَىٰ واجباتِ العِبَادِ تُجَاهَ رَبِّهِمْ، إِذْ يَدْفَعُهُمْ إِلَىٰ الإيمان بِهِ، والإِسْلَامِ له، وعِبَادَتِهِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الّذِي يُرْضِيهِ، والْخَوْفِ مِنْ عِقَابِهِ، والطَّمَعِ في ثوابِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً حِكَايَةَ مُوجَزِ دُعَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام رَبَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، في فِقْرَةٍ تَتَضَمَّنُ شَكْوَاهُ مِنَ اسْتِعْصَاءِ قَوْمِهِ عَلَيْهِ، وعَدَمِ اسْتِجابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ، وَتَشَبُّثِهِمْ بِعِبَادَةِ أَوْثَانِهِمْ:

● ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآياتِ يَذْكُرُ نُوحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في شَكْوَاه لِرَبِّهِ مِنْ قَوْمِهِ سِتَّ قضايا:

القضية الأولى: أَنَّ قَوْمَهُ عَصَوْهُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ.

القضية الثانية: أَنَّ جماهير قَوْمِهِ اتَّبَعُوا كُبَرَاءَهُمْ وَسَادَتَهُمْ من أَصْحَاب الْأَمْوَالِ الْوَفِيرَةِ، والْأَوْلَادِ الكثيرين.

القضيّة الثالِثَة: أَنَّ كُبَرَاءَ قَوْمِهِ مَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً عَظِيماً، لِيَصُدُّوا الجماهير عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ، واتّباعِهِ مُؤْمِنِينَ مُسْلِمينَ.

القضيّة الرابعة: أَنَّ كُبَرَاءَ قَوْمِهِ نَهَوْا جَمَاهِيرَهُمْ عَنْ تَرْكِ عِبَادَةِ آلِهَتِهِم الْوَثَنِيَّة، ولا سيما كِبَارُها. «وَدٌّ ـ وسُوَاع ـ ويَغُوث ـ ويَعُوق ـ ونَسْر».

القضيَة الخامِسَة: أنَّ هؤلاء الكُبَراء قَدْ أَضَلُّوا كثيراً بِمَكْرِهِمْ وسُلْطَانِهِمْ، ومُخْتَلِفِ وَسَائِلهم.

الْقَضِيَّة السادسة: قَضِيَّةٌ مَطْوِيَّةٌ دَلَّ عَلَيْهَا دُعَاءُ نُوحٍ علىٰ الظَّالِمِينَ مِنْ قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾.

شَرْحُ هَـٰذِهِ القضايا السِّتّ:

شَرْحُ الْقَضِية الأُولى: هَـٰذِهِ القضيَّة دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾:

أي: لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِأَيِّ أمْرٍ دَعَوْتُهُمْ إِلَيْهِ، مِمَّا أَمَرْتَنِي بِأَنْ أقوم بِهِ في رِسَالَتِي إِليهم، فَقُلْتُ لهم: اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ـ واتَّقُوا عِقَابَهُ ـ وأطِيعُونِي باعْتباري رَسُولَ رَبِّكُمْ إِلَيْكُمْ.

شَرْح القضيّة الثانية: هَـٰذِهِ القضيَّة دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿١٢﴾﴾:

الْوَلَدُ والوُلْدُ: كُلُّ مَا وُلِدَ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الذَّكر والأنْثَىٰ، الواحِدُ والمثَنَّىٰ، والجمع، ويُجْمَعُ عَلَىٰ «أَوْلَاد» و«وِلْدَة».

أي: إِنَّ جَمَاهِيرَ قَوْمِي اتَّبَعُوا كُبَرَاءَهُم وَسَادَاتِهِمْ الَّذِينَ احْتَلُوا مَراكِزَ السِّيَادَةِ بَيْنَ قَوْمِي بِأَمْرين هما: أَمْوَالُهُمْ، وأَوْلَادُهُمْ.

لَكِنَّ زِيَادَةَ أمْوَالِهِم وَأَوْلَادِهِمْ، واسْتِغْنَاءَهُمْ بِذلِكَ، لَمْ يَزِدْهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً، والطُّغْيَانُ زَادَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ خَساراً، فَوْقَ الْخَسَارِ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ بِكُفْرِهِمْ، الَّذِي يَشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ قَوْمِي، إِذْ هُمْ قَدْ تَحَمَّلُوا إِثْمَ ضَلَالِهِمْ أنْفسِهِمْ، وإِثْمَ الأَعْمَالِ الَّتِي أضَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ، فَحَمَلُوا بِذَلِكَ مَعَ آثامِهِمْ مِثْل آثَام مَنْ ضَلُّوا بِسَبَبِهِمْ.

فجاءَ في النَّصِّ الاكتفاءُ بِذِكْرِ زِيادَة الْخَسَارِ الَّذِي هو نَتِيجَةُ الأعْمَالِ

الطُّغْيَانِيَّة عَنْ ذِكْرِ هَـٰذِهِ الأعْمَال الَّتِي طَغَوْا بها، لِأَنَّ ذِكْرَ النَّتِيجَةِ يَدُلُّ عَلَىٰ مُقَدِّمَاتِها، وذِكْرُ الْمُسَبَّبِ يَدُلُّ عَلَىٰ سَبَبِهِ أو أسْبابِهِ.

وهـٰذَا مِنْ أَسَالِيبِ القرآن، الَّتِي يَكْتَشِفُ دَلَالَتَهَا مَنْ تَدَبَّرَ القرآنَ بِعُمْقٍ وأناةٍ، وفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ.

شَرْحُ القضيَّة الثالثة: هَـٰذِهِ القضيَّةُ دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: وَمَكَرَ هَـٰؤلَاءِ القَادَةُ الكُبَرَاءُ بأمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ في الإغْوَاءِ والطُّغْيَانِ مَكْراً عَظِيمَ الكِبَر.

﴿كُبَّارٗا﴾: صِيغَةٌ مِنْ صِيَغِ الْمُبَالَغَة السَّمَاعِيَّةِ النَّادِرَة، وهي صيغَةُ مبالَغَةٍ لِلَفْظِ «كبير».

الْمَكْرُ: هُو تدبيرُ أَمْرٍ مَا في خَفَاءٍ، بِشَرٍّ أو بخير، لَكِنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَدْ مَكَرُوا بِشَرّ، إِذْ لَمْ تَزِدْهُمْ أمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِلَّا خَسَاراً.

ويَظْهَرُ أَنَّ الْمَكْرَ الَّذِي مَكَرُوه يَتَعَلَّقُ بِتَزْيِينِ الشِّرْكِ والْكُفْرِ لِأَتْبَاعِهِمْ، وإِقْنَاعِهِمْ بِبُطْلَانِ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإِقْنَاعِهِمْ بالْتِزَام مَا وَرِثُوهُ عَنْ آبَائِهِمْ مِنْ شِرْكٍ وعبادَةِ أَوْثَانٍ، وفِسْقٍ وفُجُورٍ وَظُلْمٍ وطُغْيَان، وعاداتٍ وقَبَائِحَ وَمُنْكَرَاتٍ.

شَرْحُ القضيَّةِ الرابعة: هَـٰذِهِ القضيَّةُ دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾﴾:

أي: وَقَالَ هَؤلَاءِ السَّادَةُ الْكُبَرَاءُ لِأَتْبَاعِهِمْ مُؤَكِّدِينَ لَهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ الْخُصوص بِأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَتْرُكُوا دِينَ آبَائِهِمْ، في عبادَةِ آلِهَتِهِمْ مِنَ الْأَوْثَان، وَلَا سيما كِبَارُهَا، وهي: «وَدّ ـ سُواع ـ ويَغُوث ـ وَيَعُوق ـ ونَسْر».

روى البخاري في صَحِيحِهِ عن ابْنِ عباسٍ أَنَّهُ قال[١]: صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كانَتْ فِي قَوْمِ نُوح في الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدّ فَكَانَتْ لِكَلْب بِدُومَةِ الجندل[٢] ـ وأَمَّا سُوَاع: فكانَت لِهُذَيْل[٣]. وأَمَّا يَغُوث: فكانَت لِمُرَاد، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْف بالْجُرْف عِنْدَ سَبأ. وأمَّا يَعُوق: فَكَانَتْ لِهَمْدان[٤]. وأمّا نَسْر: فَكَانَتْ لِحمير، لآل ذي الْكَلَاع. أسْماء رجالٍ صالِحِينَ مِنْ قَوْم نُوح، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحىٰ الشَّيْطَانُ إلَىٰ قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إلى مَجَالِسِهِم التي كَانُوا يَجْلِسُونَ فيها أنْصَاباً، وَسَمُّوهَا بأَسْمائِهِمْ، فَلَمْ تُعْبَدْ، حتَىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِخَ الْعِلْمُ عُبِدَت».

وَاللهُ أعْلَم كَيْفَ جُلِبَتْ إلى الْعَرَب فَعَبَدُوها.

شَرْحُ القضيَّة الخامسة: هذه القضيَّة دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾:

أي: وَقَدْ أَضَلَّ هٰؤلَاءِ السَّادَةُ الكُبَرَاءُ في قَوْمِهِمْ إضْلَالاً كثيراً، بتَأْثِيرِهِ عَلَىٰ أتْبَاعهم، إذْ كان لِأَعْمَالِهِمْ وَلِأَقْوَالِهِمُ الإغْوَائِيَّة المضَلِّلَةِ عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَثَرٌ كبيرٌ في إضْلَالِ هَؤلَاءِ الْأَتْبَاعِ، وفي إبْعَادِهِمْ عن الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ في المتاهَاتِ المختلفات.

شَرْحُ القَضِيَّةِ السَّادِسة: هَـٰذِهِ القضيَّة دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾:

لَيْسَ مِنَ المعْقُولِ أنْ يَدْعُو رَسُولٌ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ مِنْ قَوْمِهِ بِأَنْ يَزِيدَهُمُ اللهُ ضَلَالاً جَبْرِيًّا عَنِ الدِّين.

وقَدْ ظَهَرَ لِي رَبْطاً بقول اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (الشُّعَراء/٤٧ نزول) حِكَايَةً لما قَالَهُ قَوْمُ نُوحٍ لَهُ:

---

(١) انظر الحديث رقم (٤٩٢٠) وشرحه في فتح الباري لابن حجر.

(٢) مدينة مِن الشَّام ممّا يلي العراق.

(٣) كانَ بمكانٍ لِهُذَيل يقالُ لَهُ «رُهَاط» من أرض الْحِجاز مِنْ جهة السَّاحل.

(٤) بلاد همدان باليمن.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾.

أنَّ نُوحاً عَلَيْهِ لمَّا رَأَى أَنَّ قَوْمَهُ لَمْ يَهْتَدُوا بَعْدُ إِلَىٰ طَرِيقَةٍ مَقْبُولَةٍ لَدَىٰ جَمَاهِيرِهِمْ يُنَفِّذُونَ فيها مَا تَوَعَّدُوه بِهِ، إذْ أضَلَّهُمُ اللهُ عَنْ أَنْ يَجِدُوا الطَّرِيقَة المناسِبَةَ، طَوَىٰ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَضِيَّة التَّهْدِيدِ هَـٰذِهِ، وأَضْمَرَهَا في نَفْسِهِ، وَدَعَا دُعَاءً يَتَّصِلُ بِهَا فَقَالَ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾: أي: وهَدَّدُونَا بالرَّجْمِ فَأَضْلَلْتَهُمْ يَا رَبِّ عَنِ التوصُّلِ إِلَىٰ طَرِيقَةٍ تَقْبَلُهَا جماهِيرُهم، فَلَا تَزِد الظّالِمِينَ الَّذِينَ يَوَدُّونَ قَتْلَنَا للتَّخَلُّصِ مِنَّا بالْقَتْلِ إلَّا ضَلَالاً عَنِ الاهْتِدَاء إلى ما يُرِيدُون.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (نوح).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٧)
التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (نوح) الآية (٢٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾:

القراءات:

• قرأ أبو عَمْرو: [**مِمَّا خَطَايَاهُمْ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ**].

وكُلٌّ مِنْهُمَا جَمْعُ «خَطِيئَة».

تَمْهيد:

في آيَة هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ عَاقِبَةِ كُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ في الدنْيَا والآخِرَة.

التدبّر التحليلي:

• ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾: «مِن» في «مِمَّا» حرف جرٍّ مَعْنَاهُ التعليل، ولفظ «ما» حرفٌ زَائدٌ لِتَوْكِيدِ معْنَىٰ التعليل.

أقول: لِمَ لَا يَكُونُ اسْماً بِمَعْنَىٰ: «شيءٍ عظيم» فكثيراً ما يَسْتَعْمِلُهُ الْعَرَبُ كذلِكَ، مثل «ما» في «نِعِمّا». وعلى هـٰذَا يكون «خَطِيئاتِهِمْ» بدلاً مِنْ لفظ «مَا» في «مِمَّا». أي: بِسَبَبِ شَيْءٍ عَظِيمٍ جدًّا هُو خطيئَاتُهُمُ الشَّنِيعَةُ الفظيعَةُ المتَنوعَة أُغرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً.

• ﴿أُغْرِقُواْ﴾: جاء البيان هُنَا مُوجزاً، إذْ سَبَقَ تَفْصِيلُ إغراقِهِم في سُورَة (هود/ ٥٢ نزول) في الآيات من (٣٦ ـ ٤٤).

• ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾: أي: فَأُدْخِلُوا يَوْمَ القيامَةِ نَارَ جهَنَّم، وَجاءَ الْعَطْفُ بالفاء التي تقتضي الترتيبَ مَعَ التَّعْقِيب، للدَّلالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ عقِبَ مَوْتِهِمْ بالإغْرَاقِ، تَلَقَّتْ نُفُوسُهُمْ وَهُمْ في مُدَّةِ البرزَخِ عَذَاباً مِنْ نَوْعِ الْعَذَابِ بِمَسِّ لَهَبِ النَّار، ولِأَنَّهُمْ عِنْدَ الْبَعْثِ لَا يَكُونُ لِدَيْهِمْ إحْسَاسٌ بِفَاصِلٍ زَمَنِيٍّ بَيْنَ الْمَوْتِ والبَعْثِ، وعِنْدَئِذٍ يُسَاقُونَ بِسُرْعَةٍ وَيُحْكَمُ عَلَيْهِمْ بِعَذَابِ النَّارِ، فَيُكَبُّونَ فِيها، فبالنظر إلى إحْسَاسِهِمْ يَكُونُ إدْخَالُهُمْ في النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَقِبَ إغْرَاقِهِمْ.

إنَّ الْمَوْتَىٰ لَا يُحِسُّونَ بِمُرُورِ الزَّمَنِ مَهْمَا طَال، وحِينَ بَعْثِهِمْ يَقُولُونَ: مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا، أي: من مَكَانِ نَوْمِنَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ.

• ﴿... فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾:

أي: وَحكَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَيْهِمْ بِعَذَابِ النَّار، فَأُدْخِلُوا فيها قَهْراً،

وبَحَثُوا عَنْ آلِهَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ، لِيَنْصُرُوهُمْ فَيَدْفَعُوا عَنْهُمْ عَذَابَ رَبِّهِمْ، وَرَأَوْا أَنَّ زُعَمَاءَهُمْ وَكُبَرَاءَهُمْ في الدُّنْيا يُسْحَبُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ سَحْباً مِنْ قَبْلِهِمْ، وَبَحَثُوا عَمَّنْ يَنْصُرُهُمْ فَيَحْمِيهِمْ مِنْ عَذَابِ نَارِ جَهَنَّمَ، فَلَمْ يَجِدُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصاراً، أَمَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي قَضَىٰ عَلَيْهِمْ بِالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس من دُرُوس سورة (نوح).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٨)
التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة (نوح)
الآيات من (٢٦ ـ ٢٨) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾.

القراءات:

(٢٨) • قرأ هِشَام، وحفص: [بَيْتِيَ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانها.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بيانُ دُعَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ جَمِيعِ كُفَّارِ الْأَرْضِ بالإهْلَاكِ، وَبَيَانُ دُعَائِهِ بالمغفرةِ لوالِدَيْهِ، ولِكُلِّ مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ

مُؤْمِناً، ولِجَمِيعِ المؤمنين والمؤمِنَاتِ، وبيانُ دُعائِهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ في كُلِّ الْأَرْضِ بِأَنْ لَا يَزِيدَهُمُ اللهُ إِلَّا هَلَاكاً حَتَّىٰ لَا يُبْقِيَ مِنْهُمْ أحداً، وَعَذَاباً يكونُ عَادَة مُصَاحِباً لِإِهْلَاكِهِم.

التدبّر التحليلي:

من حُسْنِ التدبّر أَنْ نَتَفَكَّرَ في دُعَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام في هـٰذَا الدَّرْسِ الأخير من هَـٰذِهِ السُّورَة، ضِمْنَ نَظْرَةٍ تَكَامُلِيَّةٍ مَع مَا جَاء فِي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ مِنْ قِصَّتِهِ في غَيْرِ هَـٰذِهِ السُّورَة، مِمَّا يَرْتَبِطُ ولَوْ بِوَجْهٍ مَا في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ.

أولاً: أَوْرَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هـٰذَا الدُّعَاءَ الَّذِي دَعَا بِهِ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام، بَعْدَ أَنْ أَبَانَ أَنَّهُ قَدْ أَغْرَقَ قَوْمَهُ، باسْتِثْنَاءِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ في السَّفِينَةِ مُؤْمِنِين.

ثانياً: سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورة (هود/ ٥٢ نزول) بَيَانُ أَنَّه أَوْحَىٰ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا مَنْ آمن، فقد جاء فيها قَوْل اللهِ تَعالىٰ:

- ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

فَدَلَّ هـٰذَا النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّ قَضَاءَ اللهِ بالْإِغْرَاقِ لَمْ يَكُنْ اسْتِجَابَةً لِدَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وإِنَّمَا هو قَضَاءٌ رَبَّانِيٌّ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ شُمُولِ عِلْمِ اللهِ لِكُلِّ شيءٍ، وحِكْمَتِهِ في تَدْبِيرِ شُؤُونِ عِبَادِهِ، وعَلَىٰ مَا بَيَّنَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِهِ في الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الْمَوْجُودِينَ أَوْ ذَرَارِيهِمْ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ قَبْلَ هـٰذَا البيان، وهـٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ انْتِهَاءِ الْحِكْمَةِ مِنْ بَقَائِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وهِيَ الامْتِحان.

وَلِئَلَّا يَتَدَخَّلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَسْأَلَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إمْهَالَ قَوْمِهِ، بدافِعٍ مِنْ رَحْمَتِهِ وحِلْمِهِ، على الرُّغْم مِنَ الْقُرُون الْعَدِيدَة الَّتِي صَبَرَ عَلَيْهِمْ فيها قَالَ اللهُ لَهُ فِي هٰذَا النَّصّ من سورة (هود/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾: أي: وَلَا تُخاطِبْنِي طَالِباً إمْهَالَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِكَ، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ قَضَاءً مُبْرَماً لَا مَرَدَّ له.

مِنْ هٰذَا نُدْرِكُ أَنَّ دُعَاءَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدَّرْسِ الْأَخِير من سُورَة (نوح/ ٧١ نزول): ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ الطُّوفَانِ، وَلَمْ يَكُنْ خَاصّاً بِكُفَّارِ قَوْمِهِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ لَهُ بِشَأْنِهِمْ: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾.

مِنْ هٰذَا نُدْرِكُ أَنَّ هٰذَا الدُّعَاءَ قَدْ كَانَ بَعْدَ الطُّوفَانِ، وبَعْدَ اسْتِقْرَارِهِ هُو والَّذِينَ مَعَهُ مُؤْمِنِينَ عَلَىٰ اليابِسَة، بَعْدَ الرِّحْلَةِ الْبَحْرِيَّةِ عَلَىٰ السَّفِينَةِ الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ بِأَنْ يَصْنَعَهَا.

ويَبْدُو أَنَّهُ وَقَعَ في تَصَوُّرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام احْتِمَالُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ كُفَّارِ قَوْمِهِ نَجا مِنَ الْغَرَقِ بارْتِقَاء جَبَلٍ عَالٍ لَمْ يَغْمُرْهُ الماء، أَوْ بِوَسِيلَةٍ أُخْرَىٰ. فَقَالَ:

• ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾:

أي: رَبِّ أَهْلِكْ جمِيعَ كُفَّارِ قَوْمِي، وَلَا تَدَعْ في الحياةِ مِنْهُمْ أحداً.

• ﴿دَيَّارًا﴾: أي: أحداً. وهٰذَا اللّفْظُ لَا يُسْتَعْمَلُ إلَّا في النفي، وهُوَ مِنْ «دَارَ يَدُور». وَأَصْلُ «دَيَّار» قَبْلَ التَّصْرِيف «دَيْوَار» عَلَىٰ وَزْن «فَيْعَال» قُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً وأُدْغِمَتْ فِي الياء.

• ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ۝٢٧﴾:

أي: إِنَّكَ يَا رَبِّ إِنْ تَذَرْهُمْ أَحْيَاءً وأَنْجَيْتَهُمْ من الْغَرَق، يُضِلُّوا

عِبَادَكَ في أَمَاكِنَ مِنَ الأَرْضِ لَمْ يَغْمُرْهَا الطُّوفان، وإِنْ تَوَالَدُوا فإِنَّهُمْ لَا يَلِدُونَ إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً، فتَجْرِبَتِي الطَّوِيلَةُ مَعَهُمْ كَشَفَتْ لي أَنَّهُمْ يَقْهَرُونَ ذَرَارِيهُمْ عَلَىٰ اتِّبَاعِ طَرِيقَتِهِمْ، ويُحِيطُونَهُمْ بِبِيئَةٍ فَاسِدَةٍ مُفْسِدَةٍ تَجْذِبُ كُلَّ نَاشِئٍ فيها ويَعِيشُ بَيْنَ أفرادِهَا إِلَىٰ مَا هِيَ فِيهِ من شَرٍّ وكُلِّ قَبِيحٍ ومُنْكَر، من فِكْرٍ، وخُلُقٍ، وقَوْلٍ وعَمَل.

• ﴿كَفُورًا﴾: الفاجِرُ المنْبَعِثُ بِقُوَّةٍ لارْتِكَاب الجرائم، والآثام، والْعِصْيَان، والفُسُوق والظلْمِ والطُّغْيَان.

• ﴿كُفَّارًا﴾: أي: مُبَالِغاً في كُفْرِه، جُحُوداً للحق، وتَغْطِيَةً لِأَدِلَّتِهِ بِالْأَكاذيب، والمغالطات، والجدالِ بالْبَاطِل، المزَيَّنَةِ بِزُخْرُفٍ مِنَ القَوْلِ.

• ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾:

أخيراً تَذَكَّرَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَوَيْهِ المؤمِنَيْنِ، وَتَذَكَّرَ سَائِرَ المؤمِنِينَ الَّذِينَ دَخَلُوا بَيْتَهُ فِي بَلَدِهِ قَبْلَ الطُّوفان، ومِنْهُمْ مَنْ مَاتَ قَبْلَ الطُّوفان ولم يَرْكَبْ معه فِي الْفُلْكِ، ونظر إِلَىٰ مَنْ مَعَهُ مِنَ المؤمِنِينَ والمؤمِنَاتِ، وإلى سَائِرِ المؤمنين والمؤمِنَاتِ، ونَظَرَ إِلَىٰ نَفْسِهِ عَلَيْهِ السَّلام، ورَأَىٰ أَنَّ مُهِمَّتَهُ قَدِ انْتَهَتْ، ولَعَلَّهُ تَصَوَّرَ أَنَّ أَجَلَهُ قد اقْتَرَبَ فَقَال عَلَيْهِ السَّلَامُ دَاعِياً.

• ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾: فَبَدَأَ بِنَفْسِهِ إِذْ هِيَ الْأَحَقُّ بِدُعائِهِ، وسَأَلَ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ تَقْصِيراتٍ فِي حَقِّ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، الَّتِي هو من أهلها.

• ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾: فَدَعَا أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِوَالِدَيْهِ الَّذِينَ مَاتَا عَلَىٰ الإيمان.

• ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾: فَدَعَا عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمغْفِرَة لِكُلِّ مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ مُؤْمِناً، وَيَظْهَرُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْخُلُونَ بَيْتَهُ لِيَتَعَلَّمُوا مِنْهُ أُصُولَ الدِّينِ وَشَرَائِعَهُ وأَحْكَامَهُ وتَطْبيقاتِهِ.

• ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: وَدَعَا بالمغفرة لِكُلِّ المؤمنين والمؤمِنَاتِ، وَهٰذَا تَعْمِيمٌ يَشْمَلُ كُلَّ المؤْمِنِينَ، بَعْدَ تَخْصِيصِ نَفْسِهِ، وَوَالِدَيْهِ، ومَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ مُؤْمِناً، وهُو بِقُوَّةِ تَكْرِيرِ الدُّعاء لِكُلِّ مَنْ سَبَقَ، مَعَ سَائِرِ المؤمنين.

ودَعَا عَلَىٰ الظَّالمِينَ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ التَّبَارُ الْهَلَاكُ. أي: زِدْهُمْ هَلَاكاً وَلَا تَزِدْهُمْ غَيْرَ ذَلِكَ. وَأَرَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بالْهَلاكِ الَّذِي هُوَ الموْت الْعَذَابُ المرافِقُ للإهْلَاكِ الَّذِي يَكُونُ لِلْمُجْرِمِين، فالمعْنَىٰ وَلَا تَزِدِ الظالِمِينَ إلَّا عَذَاباً.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر سورة (نوح) والحمد لله على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتوفيقه، ومنته، وفَتْحِهِ.



(٩)
ملحق: مُستخرَجات بَلَاغِيّة من السّورة

ممَّا في سورة (نوح) من اختيارات بلاغية المستخرجات التاليّات:

(١) في عبارة: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ... ۝١﴾ التوكيد بـ «إن ـ والجملة الاسمية ـ وضَمِير المتكَلِّم الْعَظِيم».

(٢) وفي عبارة: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ التوكيد بِـ «إِنَّ ـ والجملة الاسمية».

(٣) وفي عبارة: ﴿... وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ تَوْكِيد بالمفْعُول المطلق، مع إيجاز بالحذف، إذ التقدير: واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً مُسْرفاً شَنِيعاً.

(٤) وفي عبارة: ﴿... وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ توكيد بالمفْعُولِ المطلق مع إيجاز بالحذف، إذِ التَّقْدير: وأسْرَرْتُ لَهُمْ إسْراراً شَدِيداً مُبالغاً فِيهِ، حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ أَحْوالُ المسْتَكْبِرين.

(٥) وفي عبارة: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾ إطْلَاق السَّماءِ وإرادة المطَرِ الّذي يَنْزِلُ مِنها، وهو من المجاز المرسل، وفي اختيار فعل «يُرْسِل» بَدَلَ «يُنْزِل» إرْدَافٌ عِنْدَ عُلماءِ البديع.

(٦) وفي عبارة: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ إيجازٌ بالحذف، أي: وقد خَلَقَكُمْ خَلْقاً مُتَطَوِّراً أطْواراً، طَوْراً، فطَوْراً.

(٧) وفي عبارة: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾ خُرُوج للاسْتِفْهام عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ، إلَى مَعْنَىٰ لَفْتِ النظر، والْحَثِّ على الرُّؤية.

(٨) وفي عبارة: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾ إيجاز بالحذف، والتقدير: واللهُ أنبت مادَّة بناء أجسادِكُمْ من الأرض نباتاً مُتْقَناً، فَكَانَ غِذَاءً، فكان دَماً، فَكان نُطَفاً، فكانَتْ أجِنَّةً، فَكَانَتْ أَنَاسِيَّ مُكْتَمِلَةً.

(٩) وفي عبارة: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾ الإيجاز بالحذف والتَّشْبيه الْبَلِيغُ، والتقدير: واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مَوَاضِعَ كَثِيرةً في الْأَرْضِ الَّتِي تَعِيشُونَ عليها، وكُلُّ مَوْضِعٍ مِنْهَا كالْبِسَاط.

(١٠) وفي عبارة: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١﴾ إطْلَاقُ المسَبِّبِ وإرادة السَّبب، وهو من المجاز المرسل، والتقدير: واتَّبعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إلَّا عِصْيَاناً وَكُفْراً، وَفَسَاداً وإفْسَاداً، وضَلَالاً وإضْلَالاً، سَبَّبَتْ لَهُ خَساراً عَظِيماً عِنْدَ رَبِّهِ.

(١١) وفي عبارة: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾: إطْلاقُ التَّبار ومَعْنَاهُ الْهَلَاكُ، والْهَلَاكُ الْمَوْتُ، وَإرادَةِ مَا هُو سَبَبهُ مِنْ عَذَابٍ يَكُونُ عِنْدَ إهْلَاكِ

الْمُجْرِمِينَ. وهـٰذَا مِنْ إطْلَاقِ الْمُسَبَّبِ وإرَادَةِ سَبَبِهِ وهو العذابُ الْمُهْلِك، وهُوَ من المجاز المرسَل.

وأكْتَفِي بهَـٰذِهِ المسْتَخْرَجَاتِ الْبَلاغية من سورة (نوح)

وبهـٰذَا تَمَّ مَا فتح اللهُ بِهِ عَلَيّ حَوْل هَـٰذِهِ السُّورَةِ العظيمة مِنْ تَدَبُّر وَمُسْتَخْرَجَاتٍ مِنَ البلاغة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



خاتمة المجلّد الثالث عشر من كتاب
معارج التّفَكُّرِ وَدَقَائِق التّدَبّر

كتَبْتُ هـٰذَا المجلّدِ بِفَضْلِ اللهِ الْوَهَاب وَمَعُونَتِهِ وفَيْضِ عطائِهِ، انْتِزَاعاً مِنْ بَرَاثِنِ الْمَرَضِ، والْعِلَاجِ الْيَوْمِيِّ بِوَخَزَاتِ الْإِبَر في الْعَضَلِ صَبَاحاً ومَساءً، إذْ يَجْعَلُني طريحاً عَلَىٰ السَّرِيرِ أو عَلَىٰ الْبِسَاطِ، لَا أقْوَىٰ عَلَىٰ عَمَلِ ما مُعْظَم الوقت، فإبْرَةُ الصَّبَاحِ قَدْ تَطْرَحُنِي خَمْسَ سَاعَاتٍ أَوْ أكْثَرَ لَا أقْوَىٰ فيها عَلَىٰ الْعَمَلِ وَلَكِنْ دُون آلَام، وَإِبْرَةُ أَوَائِلِ اللَّيْلِ قَدْ تَطْرَحُني إلى نَحْوِ صلاةِ الْفَجْرِ كذلك.

ومُقْتَطَفَاتٌ مِنَ الْوَقْتِ فِي الْأَثْنَاءِ كانَتْ تَشُدُّني فيها مَعُونَةُ اللهِ رَبِّي إِلَىٰ الْعَمَلِ بِعَجْزٍ جَسَدِيّ غَيْرِ مَصْحُوبٍ بِعَجزِ فِكْرِي لِكِتَابَةِ صَفْحَةٍ أَوْ صَفْحَتَيْنِ أو أكْثَرَ أحْيَاناً.

وَهـٰذَا الْعِلَاجُ هو مِنْ ظُهُورِ خَلْفٍ لِسَرَطَانِ الْقُولُون، الَّذِي أكْرَمَنِي اللهُ رَبِّي باستِئْصَالِ الظَّاهِرِ مِنْهُ في الْقُولون وَفي الكَبِد، عَلَىٰ يَدِ الماهِرِ البارِعِ، الجرَّاحِ العظيم، النَّصُوحِ النَّفَّاعِ: «البروفسور» الكبير الدكتور «خَلِيل سَلْمَان». والَّذِي عُولجتُ بَعْدَه بالكِيمَاوِيّ سِتَّة أشْهُرٍ بُمُتَابعَةِ وَعِنَايَةِ وَمُرَاقَبَةِ الاسْتِشَارِيّ الْأَلْمَعِيِّ النَّفَّاعِ الدُّكْتور «عَامر رَضْوي». أجْزَل اللهُ مَثُوبَتَهُمَا، فِي أنْفُسِهِمَا وفِيمَنْ يُحِبَّان، وَرَزَقَهُمَا كَمَالَ الْعَافِيَة حَتَّىٰ انْتِهَاءِ آجَالِهِمَا في الحياة الدُّنْيَا، وكَمَالَ الْعَافِيةِ في آخِرَتِهِما، حَتَّىٰ يَنَالَا المنازِلَ الرَّفِيعَةَ في جَنَّاتِ عَدْنٍ بُلُوغاً إلى الفردوس الأعْلَىٰ.

والعلاج الذي أعالج به الآنَ من خَلْفِ السَّرَطان، إبَرٌ يَوْمِيّةٌ في الضُّحَىٰ وفي أوائل اللّيل، مع وَخَزَات إِبَرٍ أخْرَىٰ في مواعِيدَ محدَّدة، في خُطَّةِ الْعِلَاج المقترحة، وَمَا زِلْتُ أُعَالَجُ بهـٰذَا العلاج مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْهُر، إلَّا أَنَّ الانْطِرَاحَ الَّذِي كُنْتُ أُعَاني مِنْهُ مَعَ اسْتِعْمَالِ الْعِلَاجِ، قَدْ صَرَفَ اللهُ مُعْظَمَهُ عَنِّي بِعَطْفِهِ وَلُطْفِهِ.

فالْحَمْدُ كُلُّهُ للهِ رَبِّي عَلَىٰ ما ابْتَلَىٰ، وعَلَىٰ مَا وَهَبَ، وأدْعُوه بِتَضَرُّعٍ وَذُلٍّ وانْكِسَارٍ:

رَبّ أَوْزِعْنِي، وأَعِنِّي، واقْضِ لي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَك الَّتِي أنْعَمْتَ بها عَلَيَّ وعَلَىٰ مَنْ أُحِبُّ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالحاً تَرْضَاهُ، وَأَنْ تُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَأَنْ تَجْعَلَنِي مِن أهْلِ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَىٰ بِفَضْلِكَ، مَعَ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ والْمُرْسَلِينَ مُحَمّدٍ سَيّدِنَا وَسَيِّدِ الْأَوَّلِينَ والآخِرين ﷺ، وَعلى آلِهِ وصَحْبِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ أجْمَعِين.

وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ كِتَابَةِ هـٰذَا المجلّد الثالث عشر، يوم الثلاثاء ١٩ ربيع الْأَوّل من سنة ١٤٢٤ هجرية و٢٠/٥/٢٠٠٣م.

وآخِرُ دُعَائي: الْحَمْدُ للهِ رَبّ الْعَالَمِين، وسلامٌ على عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ.

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

الفهرس

الموضوع الصفحة

(٦٤)
سُورة الدخان
٤٤ مصحف ٦٤ نزول

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

(٦٥)
سُورة الجاثية
٤٥ مصحف ٦٥ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

(٦٧)
سُورة الذّارِيَات
٥١ مصحف ٦٧ نزول

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

(٧١)
سُورة نوح
٧١ مصحف ٧١ نزول

الموضوع	الصفحة